جمهرة رسائل العرب

في

عصور العربية الزاهرة

الشطر الثاني من رسائل

العصر العباسي الأول

تأليف

أحمد زكي صفوت

المكتبة العلمية

بيروت - لبنان

جمهرة رسائل العرب

في

عصور العربية الزاهرة

الجزء الرابع

الشطر الثاني من رسائل

العصر العباسي الأول

وهو يحوي رسائل العباسيين من أول خلافة المعتصم إلى استيلاء بني بويه على بغداد سنة ٣٣٤ هـ

تأليف

أحمد زكي صفوت

وكيل كلية دار العلوم جامعة القاهرة سابقا

المكتبة العلمية

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

حمدا لك ربى على ما أوليتنى من سابغ نعمك، وأبليتنى من بالغ توفيقك، وصلاة وسلاما على رسولك الأمين، سيدنا ومولانا محمد صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه الهداة الأعلام.

وبعد : فهأنذا أصدر الجزء الرابع من « جمهرة رسائل العرب » حاويا الشطر الثانى من رسائل العباسيين فى العصر العباسى الأول ـ من أول خلافة المعتصم إلى استيلاء بنى بويه على بغداد سنة ٣٣٤ هـ ـ وقد بقيت من هذه الجمهرة حلقة خامسة هى « رسائل الأندلسيين » أرجو أن يوفقنى المولى القدير إن شاء الله إلى إنجازها ، كما وفقنى إلى إنجاز إخوتها الأربع ، ومن قبلُ ما وفقنى إلى إصدار « جمهرة خطب العرب » فى حلقاتها الثلاث ، فله أوفر الحمد وأوفاه .

وقد سلختُ حتى الآن فى تأليف هاتين الجمهرتين سبعَ سنين دأَباً ـ ثلاثاً فى جمهرة الخطب ، وأربعاً فى الأخرى ـ قطعت فيها أشواطهما السبعة ، مثابراً على العمل فيهما صيفَ شتاءَ ، سَحابةَ النهار أجمعَ وقِطْعا من الليل فى بعض الأحايين ، واهِباً لهما كل أوقات فراغى من عملى الدراسى ـ عدا ما أخرجته فى هذه الفترة من مؤلفات أُخَر(١) ـ دون أن أُنيل نفسى حظها من الجَمام والراحة ، والآن ـ بعد أن كدَّها

(١) وهى: ترجمة الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وكتاب الكامل فى النحو والصرف، فى أربعة أجزاء لطلبة دار العلوم ، وكتاب علم البيان ، وكتاب علم المعانى ، وتاريخ الخطابة فى الجاهلية والإسلام ، وتاريخ الجدل والمناظرة، وهذه الكتب الثلاثة الأخيرة بالاشتراك مع بعض حضرات الزملاء.

ذلك الإيجاف ، الذى كاد يُشرف بها على البُهْر والإعجاف ـ أراها ظمِئة ظمأً مُلِحًّا إلى فترة راحة قصيرة ، تستجمُّ فيها وتستروِح ، حتى تئُوب إلى الميدان فَتِيَّةَ النشاط ، قويةَ الرَّكض ، فتقطع الشوط الأخير فى غير ضَجَر ولا ملالة ، فإلى القراء الكرام معذرتى فى هذا التريُّث ، وإلى الملتقى القريب ، إن شاء الله .

وإنى لأحتمل فى سبيل ذلك العمل الشاقّ المضنى ما ألقاه فيه من جَهد ولُغُوب ، بصدر رحيب ، وعين قريرة ، وليس لى من ورائه مطمع إلا أن يذكر اسمى فى عِداد من نصبوا أنفسهم لخدمة هذه اللغة العربية الشريفة ، ففازوا على تعاقب الأجيال بطيب الذكرى ، وخالد الأثر ، سددنا الله وإياكم إلى طريق الخير والصلاح ، وكتب لنا سعادة الدنيا والأخرى ، إنه المنعم المتفضل المحمود ؟

أحمد زكى صفوت

وحرر بالقاهرة فى { جمادى الآخرة سنة ١٣٥٧هـ
أغسطس سنة ١٩٣٨م }

الباب الخامس

الرسائل
في
العصر العباسي الأول أيضاً

١ - كتاب المعتصم إلى عبد الله بن طاهر

وروى صاحب زهر الآداب قال :

وكتب المعتصم ، حين صارت له الخلافة سنة ٢١٨ هـ ، إلى عبد الله بن طاهر :

« عافانا الله وإياك ، قد كانت في قلبي منك هَفَواتٌ غَفَرَها الاقتدارُ ، وبقِيَتْ حزَازات(١) أخاف منها عليك : عند نظري إليك ، فإن أتاك ألفُ كتاب أستَقْدِمُك فيه فلا تَقْدَم ، وحَسْبُك معرفةً بما أنا مُنطوٍ لك عليه ، إطْلاعي إيَّاك على ما في ضميري منك . والسلام » .   (زهر الآداب ٣ : ٩١)

---

(١) الحزازة : وجع في القلب ، من غيظ ونحوه .

٢ — كتاب المعتصم إلى عبد الله بن طاهر

وروى صاحب العقد الفريد قال :

كتب المعتصم إلى عبد الله بن طاهر :

« أعزِزْ علىَّ بأن أراكَ عليــــلَا　　أو أن يكون بكَ السَّقامُ نزيلا
فوَدِدْتُ أنِّىَ مالِكٌ لسلامتى　　فأُعيرها لك بُكرةً وأصيــــلا
فتكون تبقَى سالمًا بسلامتى　　وأكون مما قد عرَاكَ بديلَا
هذا أخٌ لكَ يشتكى ما تشتكِى　　وكذا الخليلُ إذا أحبَّ خليلَا »[١]

(العقد الفريد ١ : ٢٣٠)

٣ — كتاب المعتصم إلى الآفاق عند القبض على بابك الخرمى

وهذه نسخة كتاب كُتب بها عن المعتصم ، إلى ملوك الآفاق من المسلمين ، عند قَبضِ الأفشين حيدر بن كاوس على بابَك الخُرَّمىّ[٢] ، وهى :

« أما بعد ، فالحمد لله الذى جعلَ العاقِبَة لدينه ، والعِصْمَةَ لأوليائه ، والعزَّ لمن نَصَرَه ، والفَلْجَ[٣] لمن أطاعه ، والحقَّ لمن عرَفَ حقَّه ، وجعل دائِرَةَ السَّوْء على مَن عصاه وصَدَف عنه[٤] ، ورَغِبَ عن رُبوبيتّه ، وابتَغى إلٰهًا غيرَه ، لا إله إلا هو وحْدَه لاشريكَ له ، يحمَدُهُ أمير المؤمنين حَمْدَ من لايعبدُ غيرَه ، ولا يتوكّلُ إلا عليه ، ولا يفوِّض أمْرَه إلا إليه ، ولا يرجو الخير إلا من عنده ، والمزيدَ إلا من سَعَةِ فضله ،

---

(١) أقول : الظاهر أن المعتصم كتب إليه هذا الكتاب ، قبل أن يلى الخلافة .

(٢) قدمنا لك فى الجزء الثالث ما كان من أمر بابك الخرمى فى خلافة المأمون (انظر ص ٤٤٤) فلما ولى المعتصم الخلافة وجه لحربه سنة ٢٢٠ الأفشين التركى — وكان من أجل قواده — ونشبت بينه وبينه وقعات وحروب ، كانت خاتمتها أن فتحت البذ — مدينة بابك — ودخلها المسلمون واستباحوها ، وأسر الأفشين بابك ، وقدم به على المعتصم بسر من رأى ، فقتل وصلب بها سنة ٢٢٣ هـ .

(٣) الفلج : الظفر والفوز .

(٤) [illegible]

ولا يستعينُ فى أحواله كلِّها إلا به ، ويسأله أن يصلِّىَ على محمد عبدِه ورسوله وصَفْوَتِه من عباده ، الذى ارتضاه لنبوّته ، وابتعثه بوَحْيه ، واختصَّه بكرامتِه ، فأرسله بالحق شاهداً وَمُبَشِّرًا وَنَذِيراً وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيراً ، والحمدُ لله الذى أتوجّه لأمير المؤمنين بصُنعه ، فيسَّر له أمرَه ، وصدّق له ظنَّه ، وأنجحَ له طَلِبَتَه ، وأنفذَ له حيلَتَه ، وبلغ له محبَّتَه ، وأدرك المسلمون بثأرهم على يده ، وقتَلَ عدوّهم ، وأسكَنَ رَوْعَتَهم[1] ، وَرَحِم فاقَتَهم ، وآنَسَ وَحْشَتَهم ، فأصبحوا آمنين مطمئنين مقيمين فى ديارهم ، متمكِّنين فى أوطانهم ، بعد القتل والخوف والتشريد وطول العَناء ، وتتابُعِ البَلاء ، مَنًّا من الله عز وجل على أمير المؤمنين بما خَصَّه به ، وصُنعا له فيما وفَّقه لطلبه ، وكرامةً زادها فيما أجْرَى على يده ، فالحمد لله كثيرا كما هو أهلُه ، ونَرْغَب إلى الله فى تمام نعمه ، ودوام صُنعه ، وسَعَةِ ما عنده بمَنِّه ولُطفه .

ولا يعلمُ أميرُ المؤمنين — مع كثرةِ أعداء المسلمين ، وتكنُّفِهم[2] إياه من أقطاره ، والضغائن التى فى قلوبهم على أهله ، وما يترصَّدونه من العداوة ، وينطوُون عليه من المكايدة ، إذ كان هو الظاهرَ عليهم[3] ، والآخِذَ منهم — عَدُوًّا كان أعظمَ بَلِيّةً ، ولا أجلَّ خَطْباً ، ولا أشدَّ كَلَباً[4] ، ولا أبلغَ مكايدةً ، ولا أرْمَى بمكروه ، من هؤلاءِ الكفرة الذين يغزُوهم المسلمون ، فيستَعْلُون عليهم ، ويضعون أيديَهم حيث شاءوا منهم ، ولا يقبلون لهم صُلحاً ، ولا يميلون معهم إلى مُوادَعة ، وإن كان لهم — على طول الأيام ، وتصرف الحالات ، وبعضِ مالا يزال يكون من فَتَرات وُلاةِ الثغور — أدنَى دولةٍ من دَوْلات الظفر ، وخُلْسَة من خُلَس الحرب ، كان بما لهم من خوف العاقبة فى ذلك منغِّصاً لِما تعجَّلوا من سروره ، وما يتوقعون من الدوائر بعدُ ، مكدِّرا لِما وصَلَ إليهم من فَرْحة .

---

(١) أى فزعهم . (٢) تكنفوه : أحاطوا به .

فأمّا اللعينُ بابَكُ وكفرَتُهُ ، فإنهم كانوا يَغزُونَ أكثر مما يُغزَوْن ، وينالون أكثرَ مما يُنالُ منهم ، ومنهم المنحرِفون عن الموادَعَة ، المتوحِّشون عن المراسَلَة ، ومَن أُدِيلُوا[1] مِن تتابُعِ الدول ، ولم يخافوا عاقبةً تُدْرِكُهم ، ولا دائرةً[2] تدور عليهم وكان مما وطّأ ذلك ومكنه لهم ، أنهم قوم ابتدءوا أمرهم على حالِ تشاغُلِ السلطان ، وتتابُعِ من الفِتن ، واضطرابٍ من الحَبْل ، فاستقبلُوا أمرهم بعِزَّةٍ من أنفسهم ، وضعفٍ واستثارةٍ ممن بَارامِ ، فأجلَوا مَن حولَهم لِتَخْلُصَ البلادُ لهم ، ثم أخربوا البلاد لِيعِزَّ مطلَبُهم ، وتشتدَّ المُؤْنَةُ ، وتعظُمَ الكُلْفَة ، ويقْوَوا فى ذاتِ أيديهم ، فلم يتوافَ إليهم قُوَّادُ السلطان إلا وقد توافَتْ إليهم القوةُ من كل جانب ، فاستفحَلَ أمرهم ، وعظُمَتْ شوكتُهم ، واشتدت ضروراتُهم ، واستجمَعَ لهم كَيْدُهم ، وكثر عددُهم واعتدادُهم ، وتمكَّنَتِ المَهِيبَةُ فى صدور الناس منهم ، وتحقق فى نفوسهم أن كلَّ ما يَعِدُهم الكافِرُ ويُمَنِّيهم أخْذٌ باليد ، وكان الذى بقِى عندهم منه كالذى مَضى وبدون هذا مايُختدَعُ الأريبُ ، ويُستَنْزَلُ العاقلُ ، ويُعتَقَلُ الفَطِنُ ، فكيف بمن لا فِكرةَ له ولا رويةَ عنده !

هذا مع كل ما يقوم فى قلوبهم من حَسَد أهل النعم ، ومنافستهم على مافى أيديهم ، وتقطُّعهم حَسَراتٍ فى إثْرِ ما خُصُّوا به ، وأنهم إن لا يكونوا يَرَوْن أنفسَهم أحقّ بذلك ، فإنهم يَرَون أنهم فيه سواء .

ولم يزل أمير المؤمنين قبل أن تُفضِيَ إليه الخلافةُ ، مادًّا عنقَه ، موجِّهاً همَّتَه ، إلى أن يولِّيَه اللهُ أمرَ هؤلاء الكفرة ، ويملِّكَهُ حربهم ، ويجعلَه المقارِعَ[3] لهم عن دينه ، والمناجِزَ لهم عن حقه ، فلم يكن يألُوا[4] فى ذلك حِرصاً وطلَباً واحتيالا ، فكان أمير المؤمنين — رضى الله عنه — يأبَى ذلك لِضَنِّه به ، وصيانَته بقُربه ،

(١) الإدالة : الغلبة ، أداله الله من عدوه . (٢) الدائرة : الهزيمة .
(٣) المقارعة : المناضلة . (٤) ألا ، يألو : قصر .

مع الأمر الذى أعدَّه الله له وآثَرَه به ، ورأى أن شيئاً لا يَفِى بِقوام الدين وصَلاح الأمر .

فلما أفضى اللهُ إلى أمير المؤمنين بخلافته ، وأطلق الأمْرَ فى يده لم يكن شىء أحبَّ إليه ، ولا آخَذَ بقلبه ، من المعاجَلَة للكافِر وكَفَرتِه ، فأعزَّه الله ، وأعانه الله ، فله الحمدُ على ذلك وَتَيَسُّرِه ، فأعدَّ من أمواله أخْطرَها ، ومن قُوَّاد جيشه أعلَمَهم بالحرب ، وأنهَضَهم بالمُعْضِلات ، ومن أوليائِه وأبناء دعوته ودعوة آبائِه - صلوات الله عليهم - أحسنَهم طاعةً ، وأشدَّهم نِكايةً ، وأكثرهم عُدَّةً ، ثم أتبعَ الأموالَ بالأموال ، والرجالَ بالرجال ، مِن خاصَّةِ مَواليه وعَدَد غلمانه ، وقبْلَ ذلك ما اتَّكل عليه من صُنْع الله جل وعز ، ووجَّه إليه من رِعْيته . فكيف رأى الكافِرُ اللَّعِينُ وأصحابُه المَلاعِينُ ؟ ألم يُكْذِبِ الله ظُنونَهم ، ويَشْفِ صدورَ أوليائِه منهم ؟ يقتلونهم كيف شاءوا فى كل مَوطِن ومُعْتَرك ، ما دامت عند أنفسهم مقاومةٌ .

فلما ذَلُّوا وقَلُّوا ، وكرِهوا الموتَ ، صاروا لا يتراءوْن إلا فى رءوس الجبال ، وَمَضايِق الطُرُق ، وخَلْفَ الأودية ، ومِن وراء الأنهار ، وحيثُ لا تنالهم الخيلُ ، حِصْناً للمطاولة ، وانتظارًا للدوائر ، فكادهم الله عند ذلك ، وهو خير الكائدين ، واستدرَجَهم حتى جَمَعَهم إلى حِصنه معتصِمِينَ فيه عند أنفسهم ، فجعلوا اعتصامَهم لِحَيْنٍ[1] لهم ، وصُنْعٍ لأوليائه ، وإحاطةً منه به تبارك وتعالى ، فجمَعَهم وحصرهم لكيلا تَبقَى منهم بقيةٌ ، ولا تُرْجَى لهم عاقبةٌ ، ولا يكون الدينُ إلا لله ، ولا العاقبةُ إلا لأوليائه ، ولا التعْسُ والنَّكْسُ إلّا لمن خَذَله .

فلما حَصَرهم الله ، وحبَسهم عليهم ، وَدَانَتْهُم[2] مَصارِعُهم ، سلَّطهم الله عليهم كَيَدٍ واحدة ، يختطفونهم بسيوفهم ، وينتظِمُونهم[3] برماحهم ، فلا يجدون

(١) الحين : الهلاك . (٢) دانتهم : أى قاربتهم . (٣) انتظمه بالرمح : أختله .

مَلْجَأً ولا مَهْرَبا ، ثم أمكنهم من أهاليهم ، وأولادهم ، ونسائهم ، وحُرَمهم ، وصيّروا الدارَ دارهم ، والمَحِلَّةَ مَحِلَّتَهم ، والأموالَ قَسْماً بينهم ، والأهلَ إماءً وعبيداً ، وفوقَ ذلك كله مافَعَل بهؤلاء وأعطاهم من الرحمة والثواب ، وما أعدَّ لأولئك من الخِزْى والعقاب ، وصار الكافر بابك لا فيمن قُتِل ، فسَلِم مِن ذُلِّ الغَلَبة ولا فيمن نجا ، فمانَ فى الحياةِ بعضَ العِوَض ، ولا فيمن أُصيب ، فيشتغِلَ بنفسه عن المصيبة بما سواه ، لكنه سبحانه وتعالى أطلقه وسَدَّ مذاهِبَه ، وتركه مُتَلَدِّداً[1] بين الذل والخوف ، والغُصَّة والحسْرَة ، حتى إذا ذاق طعمَ ذلك كلِّه وفَهِمَه ، وعرَفَ موقِعَ المصيبة ، وظنَّ مع ذلك كلِّه أنه على طريق من النجاة ، فضَرَب الله وجهَه ، وأعْمَى بصَره ، وسَدَّ سبيله ، وأخذ بسَمْعه وبَصَرِه ، وحازه إلى مَن لا يرِقُّ له ، ولا يَرْثى لمَصْرَعه . فامتثَلَ ما أُمِرَ به الأفشين « حيدر بن كاوس[2] » مَوْلى أمير المؤمنين فى أمره ، فبَثَّ له الحبائل ، ووضعَ عليه الأرصادَ ، ونصبَ له الأشراكَ ، حتى أظفره الله به أسيراً ذليلاً مُوثَقاً فى الحديد ، يراه فى تلك الحالة مَن كان يراه رَبّاً ، ويرَى الدائرةَ عليه من كان يظن أنها ستكون له .

فالحمد لله الذى أعزَّ دينه ، وأظهر حُجَّته . ونصر أولياءه ، وأهلك أعداءه ، حمداً يُقْضَى به الحقُّ ، وتتمُّ به النِّعمة ، وتتصل به الزيادة ، والحمد لله الذى فتَحَ على أمير المؤمنين وحقَّق ظنَّه ، وأنجح سعيَه ، وحاز له أجرَ هذا الفتح وذُخْرَه وشرَفه ، وجعله خالصاً لتمامه وكماله ، بأكمل الصُّنع وأحسن الكِفاية ، ولم يرِ بُؤْساً فيه ما يُقْذِى عينَه ، ولا خلا من سُرُور يراه ، وبشارةٍ تتجدَّد له عنه ، فما يَدرى أميرُ المؤمنين ما مُتِّع فيه من الأمل ، أو ما خُتِم له من الظفَر ، فالحمد لله أولا ، والحمد لله آخرا ، والحمد لله على عطاياه التى لا تُحْصَى ، ونِعَمه التى لا تُنْسَى ، إن شاء الله تعالى » .

(صبح الأعشى ٦ : ٤٠٠)

---

(١) تلدد : تلفت يمينا وشمالا ؟ وتحير متبلدا ، وتلبث .

(٢) هكذا فى تاريخ الطبرى (١٠ : ٣٠٧) وفى زهر الآداب (١ : ٣٢٤) وفى صبح الأعشى « حيدر بن طاوس » بالطاء .

٤ — كتاب المعتصم إلى ملك الروم

وكتب ملك الروم إلى المعتصم كتابا يتهدده فيه وَيتوعده ، فأمر بجوابه ، فلما قرئت الأجوبةُ عليه لم يَرْضَها ، وقال لبعض الكتاب اكتب ، وأملى عليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعدُ ، فقد قرأتُ كتابك ، وفهمتُ خطابك ، والجواب ما تَرَى لا ما تسمع ، وَسيعلم الكافرُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ » .

(زهر الآداب ٣ : ٩٢ ، وصبح الأعشى ١ : ١٩٢ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٦١ ، وأدب الكتاب ص ٢٣٥)

٥ — كتاب إبراهيم بن المهدى إلى المعتصم

وشَخَصَ المعتصم غازيا إلى بلاد الروم سنة ٢٢٣ هـ ، بعد قتل بابك ، ففتح عَمُّورِيَّة[١] ، وكتب إليه إبراهيم بن المهدى يهنئه ، بخروجه عن أرض الروم ، بعد فتح عمورية :

« الحمد لله الذى تَمَّم لأمير المؤمنين غَزْوتَه ، فأذلَّ بها رقابَ المشركين ، وشَفَى بها صُدُور قَوْمٍ مُؤْمنين ، ثم سَهَّلَ الله له الأَوْبَة سالِمًا غانما ، (وكذا وكذا) ولْيَهْنِئْهُ ما كَتَبه الله له مما أحصاه فلا ينساه ، لِيَقِفَه به موقفاً يرضاه ، فإنه عز وجل يقول : « إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ، يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فى التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ،

---

(١) عمورية : بلد من بلاد الروم ، فتحه المعتصم سنة ٢٢٣ هـ ، وكان المنجمون قالوا له : إنا نجد فى كتبنا أن مدينتنا لا تفتح إلا فى وقت إدراك التين والعنب ، وبيننا وبين ذلك الوقت أشهر ، ويمنعك من المقام البرد والثلج ، فأبى أن ينصرف وأكب عليها حتى فتحها ، فأبطل ماقالوا ، وفى ذلك يقول أبو تمام فى مطلع بائيته المشهورة مهنئا له :

السيف أصدق أنباء من الكتب ... فى حده الحد بين الجد واللعب

وفيها يقول :

يا يوم وقعة عمورية انصرفت ... عنك المنى حفلا معسولة الحلب

وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ ، فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الذى بَايَعْتُمْ بِهِ ، وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » .

فَطَوَى اللهُ لأمير المؤمنين نازِحَ(١) البعد بَرًّا وبَحْرًا ، ووقاه وَصَبَ السَّفَرِ سهلا وَوَعْرا ، وحاطه بحِراسته كالئا(٢) ، ودافع عنه بحفظه راعيا ، حتى يؤدِّيَه إلى المَحَلِّ مِن داره ، والوطَنِ من قَراره ، وجزاه عن الإسلام خاصَّةً . وعن رعيَّته كافّةً ، بتخيُّره مُستَخْلَفًا عليهم ، وقائما مَقامَه فيهم : هرونَ(٣) ابنَ أمير المؤمنين ، فقد استخلفه رفيقا شفيقا ، حليما وَقورا ، يقظانَ ساكنا ، لم يُشَذَّبْ(٤) عليه أمرٌ ، ولم ينتشِرْ عليه طَرَف ، ولم يضع معه سبيل ، ولم يُسْخِط وليًّا مُكانِفا ، ولا عدوا مخالفا ، بلا سيف أشْرَعه ، ولا سُوطٍ أقْرَعَ به(٥) ، فتلّ جزاء أمير المؤمنين فى تخيُّره إياه ، فجزاه الله على ماحفِظ من وَصاتِه على محمود مَقامه ، إنه مجيب الداعى » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٩٨)

٦ — كتابه إلى إسحق بن إبراهيم الموصلى

وأهدى إبراهيم بن المهدىّ ، إلى إسحٰق بن إبراهيم المَوْصِلىّ(٦) ، جِراب مِلْح ، وجراب أُشْنان(٧) ، وكتب إليه :

« لولا أن القِلّةَ قَصَّرَتْ عن بلوغ الهِمَّة ، لأَتعَبْتُ السابقين إلى برِّك ، ولكن البضاعة قَعَدَتْ بالهمة ، وكرِهْتُ أن تَطْوَى صحيفةُ البِرّ ، وليس لى فيها ذِكر ، فبعثْتُ

(١) النازح : البعيد . (٢) كالئا : أى حارسا حافظا .

(٣) هرون : هو الملقب بالواثق بالله، وقد ولى الخلافة بعد أبيه سنة ٢٢٧ وتوفى سنة ٢٣٢ هـ

(٤) التشذيب : التفريق ، والطرف بالتحريك : الناحية .

(٥) أشرع نحوه الرمح والسيف وشرعهما كمنع : أقبلهما إياه وسددهما له ، وأقرع الدابة بلجامها وقرعها كمنع : كفها به وكبحها .

(٦) هو إسحق بن إبرهيم الموصلى، المغنى المشهور ، المتوفى سنة ٢٣٥ ، وقد أورد صاحب الأغانى، كثيرا جدا من أخباره فارجع إليها فيه .

(٧) الأشنان بالضم والكسر : نبات حمض (والحمض من النبات — كشمس — كل نبت مالح أو حامض يقوم على سوق ولا أصل له) تغسل به الأيدى على أثر الطعام ، معرب ، وعربيه حرض كعنق نظار لسان العرب مادة أشن وحرض ، وشفاء الغليل ص ١١ .

فالمبتدأ به لِيُمْنه وَبَرَكته ، والمختوم به لطيبه ونظافته ، وأما ماسوى ذلك ، فالمعبِّرُ عنا فيه كتابُ الله تعالى ، إذ يقول : « لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ ، إِذَا نَصَحُوا لِلهِ وَرَسُولِهِ ، مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ »[١] . (العقد الفريد ٣ : ٣٠٨)

٧ — رواية أخرى

وفى رواية أخرى ، أن يحيى بن خالد بن برمك ، عزم على خِتَانِ ولده ، فأهدى إليه وجوهُ الدولة كلٌّ منهم بحَسَب حاله وقدرته ، فصنع بعض المتجمِّلين العاجزين خريطتين[٢] ، وملأ إحداهما ملحاً مطيَّبا ، والأخرى سُعْداً[٣] معطَّرا ، وكَتب معهما رقعة فيها :

« لو تمّت الإرادة ، لأسعَفَتِ العادة ، ولو ساعدت القدرة على بلوغ النعمة ، لتقدَّمْتُ السابقين إلى خدمتك ، وأتعبتُ المجتهدين فى كرامتك ، لكن قعدَتْ بى القدرةُ عن مساواة أهل النعمة ، وقصَّرت بى الجِدَةُ[٤] عن مباهاة أهل المَكِنة[٥] ، وخشِيتُ أن تُطْوَى صحيفةُ البِرّ ، وليس لى فيها ذِكْر ، فأنفذْتُ المفتتح بيُمْنه وبركته ، وهو المِلح ، والمختَتَم بطيبه ونظافته وهو السُّعد ، باسطًا يد المعذرة ، صابرا على ألم التقصير ، متجرِّعاً غُصَصَ الاقتصار على اليسير ، والقائمُ بعذرى فى ذلك : « لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ »

---

(١) وفى رواية الصولى ، فى كتاب الأوراق ٢ : ٣٠ » عن إسحق قال : طهرتِ بعض ولدى ، فكتب إلى إبراهيم بن المهدى : «لولا أن البضاعة قصرت عن الهوى ، لأتعبت السابقين إلى برك ، وحسبك أن تطوى صحيفة البر ؛ وليس لى فيها برة ، وقد بعثت إليك ما المبتدأ به ليمنه ، والمختوم به لطيبه ورائحته ، جراب ملح ، وجراب أشنان » .

(٢) الخريطة وعاء من أدم وغيره .

(٣) السعد . نبت طيب الريح .

(٤) الجدة : الغنى . (٥) المكنة : القوة والشدة .

والخادمُ ضارعٌ فى الامتنان عليه بقبول خدمته ومعذرته ، والإحسانِ إليه ، بالإعراض عن جراءته ، والرأى أسْمَى » .

ثم دخل دار يحيى ، ووضع الخريطتين والرقعة بين يديه ، فلما قرأ الرقعة أمر أن تُفْرَغا وتملأ إحداهما دنانير والأخرى دراهم » .

(غرر الخصائص الواضحة ص ٤٤٨)

٨ — كتابه إلى صديق له

وكتب إبراهيم بن المهدى إلى صديق له :

« لو كانت التُّحفة على حَسَب ما يوجبه حقُّك ، لأجْحَفَ بنا أدْنَى حقوقك ، ولكنه على قدر ما يُخْرِج الوَحْشةَ ويُوجِب الأُنْسَ ، وقد بعثتُ بكذا وكذا » .

(العقد الفريد ٣ : ٣٠٩)

٩ — كتاب له

« وصل كتابك السّارُّ المُؤْنِس ، فكان أسرَّ طالِعٍ إلىَّ ، وأحسَنَه مَوقِعا منى ، إذ كنت أستملِي بعُلُوِّك ، وأرَى نعمتَك تنحطُّ إلىَّ ، ويتَّصل بى مايتصل بالأدْنَيْن من لُحمتك[1] ، وحَمَلة شكرك ، ومَظانِّ معروفك ، والمقيمين على تأميلك ، فلا أعدَمَنى الله ما أستَجْنِي [منك][2] ، ولا أزالَ عنى ظِلَّك ، ولا أفقدَنى شخصَك » .

(الأوراق للصولى ٢ : ٣٧)

---

(١) اللحمة : القرابة .

(٢) استجنى : طلب الجنى ، والمعنى ما أطلبه وآمله منك ، وكلمة « منك » ليست فى الأصل ، والمقام يقتضيها .

١٠ — كتاب له

كتبتُ إليك ونحن فى عافية مجدّدة ، والحمد لله المتطوّل بالنعمة ، المرجوّ للمزيد ، ولست وإن باعدتك الدارُ منى ، ونأى بك الزمنُ عنا ، بمقصىٍّ القلب عن بِرِّك بالذكر والعناية ، ولا اللسانِ بالدعاء والمسألة ، ولا النية فى الإخلاص والمحبّة لإحياء العهد بالمكاتبة ، وتجديد الوُصْلة بالمراسلة ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « التواصُلُ بين الناس فى الحَضَر التزاوُر ، وفى السفر التكاتُب » .

(الأوراق للصولى ٢ : ٣٧)

١١ — كتاب له فى التشوق

« أما بعد ، فإنى مُذْ فارقتُك ، وغاب عنى شَخْصُك ، وبَعُدَ منى قُرْبُك ، أجِدُ مِن نفسى مُنازِعاً إليك ، وأملًا واقفاً عليك ، وشوقا مُزْعِجاً إلى قربك ، والأخذِ بالحظِّ منك ، وإن عدَانى عن مشاهدتك باللِّقاءِ ، أو بكتابٍ ، تقصيرٌ مَشُوبٌ بعذر ، وأنا أسأل الله راغباً إليه أن يجمعنا فى دوامٍ من نعمته ، وظِلٍّ من كرامته ، وكِفاية من حِراسته » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٩٥)

١٢ — كتاب له

وله فى ترك وَداعٍ عند فِراق :

« أما بعدُ ، فإن الله عزَّ وجل قد جعل لنا من الأُنس بمودّتك ، والسرورِ بمكاتك ، مالو وصفْناه فأطنَبْنا ، لجاوز(١) ذلك مانتطوى عليه ، وقد تركت من توديعك عند شخوصى عن البلد الذى يجمعنا ، ما لولا حسنُ ظنى بك ، لَوَقَع منى

(١) فى الأصل «لتادر» وهو تحريف .

بأعظم مواقع المساءة والغيظ على نفسى ، وأنت مَن أعُدُّه سرورى وأُنسِى ، وأهْوَى مشاهدةَ غُدُوِّى وَرَواحِى إليه ، ولقلّ ما أعلَمُ أنه ما استتمَّ لى سرورٌ بعدك ، أو نزل بأحدٍ ما نَزَل بى من الشوق إليك ، أو حَلَّ منى أحد بمثل مكانك ، أو استصفيت لذةً أو راحة إلا معك وفى قُربك » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٩٥)

١٣ — كتاب له

وكتب[١] إبراهيم بن المهدى :

« كتابى إليك كتابُ مُخْبِرٍ وسائلٍ ؛ فأما الإخبارُ ، فعن تصرُّف الخطوب ، على ما يوجب العذرَ عند صديقى العزيز علىَّ ، فى إبطائى عنه بالتعهُّد له ، وأما السؤالُ ، فعن إمساك هذا الأخ الوادِّ[٢] عن مثل ذلك ، فإن العذر[٣] كاشفٌ لما أسْلَفَ ، مُصْلِح لما استأنَفَ » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٧٧ والعقد الفريد ٢ : ١٩٢)

١٤ — كتاب له

وكتب :

« أما بعد ، فإنك لو عرَفْت فَضل الحَسَنِ ، لتجنَّبتَ شَيْن القبيح ورأيتُك : آثَرُ القولِ عندك ما يضرك ، فكنت فيما كان منك ومنا ، كما قال زُهَير ابن أبى سُلْمى :

وذى خَطَلٍ فى القول يحسَبُ أنه ... مُصيبٌ ، فما يُلْمِمْ به فهْوَ قائِلُهْ[٤]
عَبَأْتُ له حِلْماً وأكرمتُ غيرَه ... وأعرضْتُ عنه وهو بادٍ مَقَاتِلُهْ[٥]

---

(١) فى المنظوم والمنثور أن هذا الكتاب لإبراهيم بن العباس .
(٢) فى العقد « هذا الأخ الودود الموصول » .
(٣) وفيه « فإن البذل » .
(٤) الخطل : الخطأ . (٥) عبأ الأمر كتم : هيأه .

وأن من إحسانِ الله إلينا ، وإساءتِك إلى نفسك ، أنا صفحْنا عما أمكننا ، وتناولتَ ما أعجزَك ، فلله الحمدُ كما هو أهله » .

(العقد الفريد ٢ : ١٩٠٧ ، والأوراق للصولى ٢ : ٣٦)

١٥ — كتابه إلى منصور بن المهدى

وفصل منه إلى المنصور بن المهدى :

« وما الحقُّ إلا حقُّ الله ، فمن أدّاه فلنفسه ، ومَن قصَّر عنه فعليها ، نسأل الله أن يعمرّنا بالحق ، ويُصْلحنا بالتوفيق ، ويحصِّننا بالتقوى » .

(الأوراق للصولى ٢ : ٣٥)

١٦ — كتابه إلى العباس بن موسى

« عبد الرحمن بن عبد الله ، مَن لا أحتاج إلى وصف حاله لك ، ولعلّى عرّفتها بعدك ، غير أنى أحبُّ مَسَرّتَه ، بقضاء حقه ، وواجب حُرْمته ، فى مودّته وموالاته ، وقد جعلك ممن يحافظ على ذلك ومثلِه ، أراك اللهُ ما تحبُّ أن تحفظنى ونفسَك فيه ، وتُولِيَه ما جعلك الله أهلَه ، وجعله حقيقاً به » . (الأوراق للصولى ٢ : ٣٥)

١٧ — فصل له

« لم يبق لنا بعد هذا الجنس شيء نمُدُّ أعيننا إليه ، إلا الله الذى هو الرجاء ، قبله ومعه وبعده » . (الأوراق للصولى ٢ : ٦٣)

١٨ — فصل له

(أمّا الصّبرُ ، فَصِير كل ذى مصيبة ، غير أن الحازم يقدِّم ذلك عند اللّوعة طلبا للمَثُوبة ، والعاجز يؤخّر ذلك إلى السّلْوة ، فيكون مغبوناً نصيبَ الصابرين ، ولو أن

الثواب الذى جعل الله لنا على الصبر كان على الجزع ، لكان ذلك أثقل علينا ، لأن جزع الإنسان قليل ، وصبره طويل ، والصبرُ فى أوانه أيسَرُ مئونةً من الجزع بعد السَّلوة ، ومع هذا فإن سبيلنا من أنفسنا على ما ملَكنا الله منها ألا نقول ولا نفعل ما كان لله مُسْخِطا، فأمّا ما يملكه الله من حُسْن عَزاء النفس، فلا نملكه من أنفسنا» .

(الأوراق للصولى ٢ : ٣٦)

١٩ — كتاب يعقوب الكندى إلى بعض إخوانه

وأهدى يعقوب[1] الكِنْدىّ إلى بعض إخوانه سيفا وكتب معه :

« الحمد لله الذى خصّك بمنافع ما أُهدِى إليك : فجعلك تَهْتزّ للمكارم ، اهتزاز الصّارِم ، وتَمْضِى فى الأمور ، مَضاء المأثور[2] ، وتصون عِرْضَك بالإرْفاد[3] ، كما تصان السيوف فى الأغماد ، ويظهر دمُ الحياء فى صفحة خدّك المَشُوف[4] ، كما يشِفّ الرَّوْنَق فى صَفَحات السيوف ، وتَصْقُل شرفك بالعطيّات ، كما تُصْقَلُ مُتُون المَشْرَفِيّات[5] » . (غرر الخصائص الواضحة ص ٤٤٧)

---

(١) هو أبو يوسف يعقوب بن إسحق بن الصباح بن عمران بن إسماعيل بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندى ، كان أبوه إسحق أميرا على الكوفة للمهدى والرشيد ، وكان يعقوب عظيم المنزلة عند المأمون والمعتصم ، فاضل دهره وواحد عصره فى معرفة العلوم القديمة بأسرها ، ويسمى فيلسوف العرب ، وله مؤلفات كثيرة فى علوم مختلفة من المنطق والفلسفة والهندسة والحساب (الأرثماطيقى) والموسيقى والنجوم وغيرها ، وقد عد له ابن النديم ٢٣١ كتابا فى ١٧ علما .

وله حديث مع أبى تمام ، حين أنشد المعتصم سينيته المشهورة فى مدحه (وفيات الأعيان ١ : ١٢٢) انظر ترجمته فى الفهرست لابن النديم ص ٣٥٧ ، وتاريخ الحكماء لابن القفطى ص ٣٦٦ (طبع أوربة) وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ١ : ٢٠٦ .

هذا إن صح أنه كاتب هذه الرسالة وأشك فى أنه هو ، لأن الصبغة البديعة البينة الأثر فى أسلوبها لم تفش إلا بعد ذلك العصر .

(٢) سيف مأثور : فى متنه أثر بالفتح والكسر : وهو فرند السيف ورونقه وديباجته .

(٣) الإرفاد : الإعطاء والإعانة .

(٤) المشوف : المجلو ، من شافه شوفا ، أى جلاه ، ودينار مشوف : مجلو . وفى الأصل « مشروف » وهو تحريف .

(٥) المشرفى : السيف ، نسبة إلى مشارف الشام ، وهى قرى من أرض العرب تدنو من الريف ، وقيل : نسبة إلى موضع باليمن .

٢٠ — بين عبد الله بن الحسن الأصبهانى وابن الزيات

وكان عبد الله بن الحسن الأصْبَهانى ، يخلف عمرو بن مَسْعَدة على ديوان الرسائل ، فكتب إلى خالد بن يزيد بن مَزْيَد :

« إن المعتصم أمير المؤمنين ينفُخ منك فى غير فَحْم ، ويخاطب امرأ غيرَ ذى فَهم » .

فقال محمد بن عبد الملك الزيات : هذا كلام ساقط سخيف ، جعَل أميرَ المؤمنين ينفُخ بالزِّق[1] كأنه حداد ! وأبطل الكتاب .

ثم كتب محمد بن عبد الملك إلى عبد الله بن طاهر :

« وأنت تُجْرِى أمرك على الأربح فالأربح ، والأرجح فالأرجح ، لاتسعَى بِنقُصان ، ولا تميل برُجْحان » .

فقال عبد الله الأصبهانى : الحمد لله ، قد أظهر من سخافة اللفظ ، ما دل على رجوعه إلى صناعته من التجارة[2] ، بذكره رِبْحَ السِّلَع ، ورجحان الميزان ، ونقصان الكيلِ ، والخُسران من رأس المال ، فضحك المعتصم وقال : ما أسرع ما انتصفَ الأصبهانى من محمد ، وحَقِدها عليه ابن الزيات حتى نكبَه .

(الأغانى ٢٠ : ٤٩)

---

(١) الزق : السقاء .

(٢) وذلك أنه كان جده أبان ، يجلب الزيت من مواضعه إلى بغداد ويتجر فيه ، ثم أقام هو وولده عبد الملك بالكرخ (محلة ببغداد) فنشأ عبد الملك فى التجارة ، وجد حتى صار من تجار الكرخ المياسير ، وكان يحث ابنه محمدا على التجارة وملازمتها ، فيأبى إلا الكتابة وطلبها ، وقصد المعالى ، حتى بلغ منها أن وزر ثلاث دفعات ، كما قدمنا .

٢١ — كتاب الحسن بن وهب إلى ابن الزيات

وروى أنه دامت الأمطار بسُرَّ مَنْ رَأى ، فتأخر الحسن بن وهب عن محمد ابن عبد الملك الزيات ، وهو يومئذ وزير ، والحسن يكتب له ، فاستبطأه محمد ، فكتب إليه الحسن يقول :

أوجبَ العُذْرَ فى تَرَاخِى اللِّقَاءِ مَا تَوَالَى مِن هذه الأَنْواءِ (١)
لستُ أدرِى ماذا أقول وأشكو من سَماء تعُوقُنى عن سماءِ (٢)
غيرَ أنى أدعُو على تلك بالثُّكْـلِ وأدعُو لهذه بالبقاءِ (٣)
فسلامُ الإله أُهْدِيه غَضًّا لك منى ياسيِّد الوزراءِ (٤)

(الأغانى ٢٠ : ٥٤ والعقد الفريد ٢ : ١٩٣)

٢٢ — كتاب الحسن بن وهب إلى ابن الزيات

واعتلّ الحسن بن وهب فتأخر عن محمد بن عبد الملك أياما كثيرة، فلم يأته رسوله، ولا تعرّف خبرَه (٥) ، فكتب إليه الحسن :

أيُّهَا ذا الوزيرُ أيَّدكَ اللـهُ وأبقاكَ لى بقاءً طويلَا
أَجمِيلًا تراه ، يا أكرمَ النا سِ لكنّا أراه أيضًا جميلَا
أنّنى قد أقمتُ عَشْرًا عليلًا ما تُرَى مُرْسِلاً إلىَّ رسولَا

---

(١) الأنواء جمع نوء بالفتح : وهو سقوط نجم من المنازل فى المغرب مع الفجر ، وطلوع رقيبه من المشرق يقابله من ساعته ، وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إلى الساقط منها ، وقيل إلى الطالع ، فتقول « مطرنا بنوء كذا » .

(٢) السماء الأولى : المطر ، والسماء الثانية يريد بها الوزير .

(٣) الثكل: الموت والهلاك. (٤) الغض : الناضر .

(٥) هذه رواية الأغانى ، وفى العقد الفريد : « وكان شاعر يختلف إلى يحيى بن خالد بن برمك ويتمدحه ، فغاب عنه أياما لعلة عرضت له فلم يفتقده يحيى ، ولم يسأل عنه ، فلما أفاق الرجل من علته كتب إليه ... الخ .

إن يكن مُوجِبُ التعهُّد في الصِّحَّـــة منا عليَّ منك طويلا[1]
فهو أولَى يا سيدَ الناس بِرًّا وافتقادًا لمن يكون عليلا
فلماذا تركْتَنى عُرْضة الظانِّ من الحاسدين جِيلا فَجِيلا
ألِذَنْبٍ؟ فما علِمت سوى الشكْـــرِ قَرِينًا لِنيَّتى ودَخِيــلا
أمْ مَلالٍ؟ فما علِمتُك لِلصَّا حِبِ مثلى على الزمان مَلُولَا
قد أتَى الله بالشِّفاءِ ، فما أعـــرفُ مِمَّا أنكرتُ إلا قليلا
وأكلْتُ الدُّرَّاجَ ، وَهْوَ غِذَاءٌ أفَلَتْ عِلَّتى عليه أُفُولا[2]
بعد ما كنتُ قد حَمَلْتُ من العِلَّـــة عِبئًا على الطباع ثقيــلا
ولعلِّى ـ قُدِّمتُ قبلك ـ آتيـــك غداً إن وجَدتُ فيه سبيلا

(الأغانى ٢٠ : ٥٤ والعقد الفريد ١: ٢٣٠)

٢٣ — رد ابن الزيات عليه

فأجابه محمد بن عبد الملك[3] :

دفَع اللهُ عنك نائبةَ الدهـــر وحاشاك أن تكون عليلَا
أشهِد اللهَ ما علِمْتُ وماذا ك من العُذْر جائزًا مقبولا
ولَعَمْرِى أنْ لو علمتُ فلازمْـــتُك حولًا لكان عندى قليلا
إننى أرتجى (وإن لم يكن ما كان مما نقِمْت إلا جليلا)
أن أكونَ الذى إذا أضمَر الإخـــلاصَ لم يلتمس عليه كفيلا
ثم لا يَبْذُل المودَّةَ حـــتى يحمل الجهدَ دونها مبذولا
فإذا قال كان ما قال إذ كا ن بعيداً مِن طبعِه أن يقولا

(١) فى الأغانى « التعمد » وهو تحريف .
(٢) الدراج : طائر من طير العراق ، وأفل النجم : غاب .
(٣) وفى العقد الفريد : « فكتب الوزير يعتذر ... الخ » .

فاجعلَنْ لى إلى التعلق بالعذ ر سبيلا إن لم أجد لى سبيلا
فقديمًا ما جَادَ بالصَّفح والعفـــو وما سامحَ الخليلُ الخليلا

(الأغانى ٢٠ : ٥٥ والعقد الفريد ١ : ٢٣٠)

٢٤ — كتاب ابن الزيات إلى الحسن بن وهب

وكتب محمد بن عبد الملك إلى الحسن بن وهب ، وقد تأخر عنه :

قالوا : جَفاكَ فلا عهدٌ ولا خَبَرٌ ماذا تراه دَهاه ؟ قلتُ : أَيْلُولُ[1]
شهرٌ تُجَذُّ حِبالُ الوصلِ فيه فما عَقْدٌ من الوصل إلا وهو محلول[2]

(الأغانى ٢٠ : ٥٥)

٢٥ — رد الحسن بن وهب على ابن الزيات

وكان محمد قد نَدَبه لأن يخرج فى أمر مُهِمّ ، فأجابه الحسن فقال :

إنى بحَوْلِ امرئٍ أعليْتَ رُتْبَتَه لحظُّه منك تعظيمٌ وتبجيلُ
وأنت عُدّته فى نَيل هِمتــه وأنت فى كل ما يَهْواه مأمولُ
ما غالَنِي عنك أيلولٌ بلَذَّته وطِيبِه ولَنِعْمَ الشهرُ أيلولُ
الليلُ لا قِصَرٌ فيه ولا طولٌ والجوُّ صافٍ، وظهرُ الكأسِ مَرْحُولُ[3]
والعود مستنطَقٌ عن كل مُعْجِبةٍ يَصْحَى بها كلُّ قلب وهو متبول[4]
لكن توقُّع وَشْكِ البَيْنِ عن بلدٍ تَحُلُّه ، فوِكاء العين محلول[5]

---

(١) أيلول : شهر من شهور الروم . (٢) تجذ : تقطع .
(٣) رحل البعير كمنع : حط عليه الرجل ، فهو مرحول ، أى مهيأ للركوب ، والمعنى هنا : أن الكأس مهيأة للشرب .
(٤) صحا السكران كعدا وصحى كرضى : أفاق . وقلب متبول : إذا غلبه الحب وهيمه ، وتبله الحب كنصر : أسقمه وأفسده .
(٥) وشك البين : قرب الفراق ، والوكاء : رباط القربة وغيرها ، والمعنى : فسالت عبرته .

حالى (إذا شمّرَتْ بى عنك مبتكِراً دُهْمُ البغال أو المُوجُ المَرَاسِيلُ)[1]
إلاّ رِعاياتُك اللاتى يعودُ بها حَدُّ الحوادثِ عنى وهو مَفْلولُ

(الأغانى ٢٠ : ٥٥)

٢٦ — كتاب ابن الزيات إلى الحسن بن وهب

واستسقى الحسن بن وهب من محمد بن عبد الملك نبيذا ببلاد الروم، وهو مع المعتصم، فسقاه وكتب إليه :

لم تَلْقَ مِثلى صاحباً أَنْدَى يداً وأعمَّ جُودَا
يَسْقِى النّدِيمَ بقفرةٍ لم يَسْقِ فيها اللهُ عُودَا
صفراءَ صافِيَةً كأنّ بكأسها دُرًّا نَضِيدَا
وأَجُودُ حين أَجُودُ لا حَصِرًا بذاك ولا بليدَا
وإذا استقَلَّ بشكرها أوجَبْتَ بالشكر المَزِيدا[2]
خذها إليك كأنما كُسِيَتْ زجاجتُها عُقودَا
واجعلْ عليك بأن تقو مَ بشكرها أبداً عُهُودَا

(الأغانى ٢٠ : ٥)

٢٧ — كتاب الحسن بن وهب إلى ابن الحسن بن سهل

وكتب الحسن بن وهب، يعزى ابن الحسن بن سهل، عن أبيه[3] الحسن :

« إن أحقَّ النعم المرتجَعة، والعَوَارِيَّ المستَرَدَّة، بأنْ تودِّعَها النفوسُ بالسكون عليها، والرضا عن الله عز وجلَّ فيها، والسخاء عما ارتُجِع واستُرِدَّ منها، نعمةٌ عارِيَةٌ

---

(١) ابتكر : بكر . والدهم جمع أدهم : وهو الأسود . والموج جمع موجاء : وهى الناقة المسرعة حتى كأن بها موجا . والمراسيل جمع مرسال : وهى الناقة السريعة السير .

(٢) استقل : نهض .

(٣) فى الأصل « عن ابنه » وهو تصحيف .

أعظم اللهُ قَدْرَها[١] ، وأجلَّ خطرَها ، وفسَحَ فى مُدَّتِها ، وأطالَ الانتفاعَ بها ، حتى إذا حَدَاها[٢] طولُ الثَّواء بأهلها ، وتقادُم الإلفِ بينهما ، فجرى مَجْرَى أخلقِ الأشياء بالدوام، إن[٣] كان الدوام فى شيء مأمولا — وأبعدِها من النَّفاد — إن[٤] كان النفادُ على شيء مأمونا — فكانوا لذلك مِن حالها [فى غِرَّة[٥]] عنها، وإغفالٍ لموقعها ، أمْضَى[٦] اللهُ أمْرَه الذى هو فناءُ كلَّ مادونه وهلاكُ كل شىء إلا وجهَه ، فكان ذلك قضاءه القضاءَ الفَصْل ، وحُكْمَه الحكمَ الذى ليس له مَرَدّ ، ثم نبَّه به على قَدْر مامنح منه ، حتى عاد مشكوراً ، وعلى ما يجب به التسليم ، حتى عاد مُطاعا .

وإن أميرنا وسيدنا ومؤثِّلَ نعمتنا ، ومبتدَى أسلافنا ، وكافلَ أعقابنا ، وعامِرَ مَجْدِنا ، وبانى مَكارمنا ، بالبرِّ الذى هو كان المُعْتَدَّ له ، ثم بالأدب الذى رفَعَ مَنارَه وأعلامَه ، وأثْمَنَ[٧] به لأهله ، وأقام له سُوقَه ، فلم يقرِّب إلا عليه ، ولم يُحْظِ إلا من ناحيته ، فالتمسه الناسُ حين التمسوه من جهتيه اللتين : إحداهما الرغبةُ فيه لفضله ، والأخرى طلبُ المتحيِّز لمعرفته أبا محمد ، رضِيَ الله عنه كلَّ الرضا ، ورحمة الله كلُّ الرحمة عليه ، كان ذلك النعمة التى دامت أحسن دوام ، وتلك العارِيَة التى ثَوَتْ أطولَ الثَّواءِ ، فما أحقَّك — بموضعك من ولادته — وأحقَّنا — بموقعنا من جميل بلائه — أن نكون على ما وفَّاه من أمره شاكرين ، وعنه تبارك وتعالى راضين ، وأن نقول قولَ المحسنين المُجْمِلين المسلمين « إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ » وأنا أسأل الله أن يصلى على محمد وعلى آل محمد ويسلم تسليما ، وأن يحسن لنا ولك العزاءَ ، ويوفِّر علينا وعليك

---

(١) فى الأصل « فقدها » .

(٢) من حدا الليل النهار أى تبعه ، وحدا الإبل أى ساقها ، والمعنى : صحبها ولازمها ، والثواء : الإقامة ، وفى الأصل « حتى إذا حراها طول الثواء أهلهما » وهو تحريف .

(٣) فى الأصل « وإن » . (٤) فى الأصل « وإن أيضا » .

(٥) فى الأصل « لعرمرمهم » وقد أصلحته كما ترى . (٦) جواب إذا .

(٧) فى الأصل « وآثر » وأرى أن صوابه « وأثمن » يقال : أثمنه سلعته وأثمن له . أعطاه ثمنها . والمعنى : أجاز أهل الأدب وحباهم ، ويؤيد هذا التصويب ، قوله بعد « وأقام له سوقه » وربما كان « وآثر به أهله » .

الأجرَ والثواب ، وأن يجزىَ أبا محمد خيراً ، بنيَّته الجميلة ، وَسعيه الحميدِ ، وأن يسُدَّ بك وبإخوتك ـ أبقاك الله لهم ، وأبقاهم لك ومعك ـ ما فلَّت[1] الأيامُ من مكانه ، وأخلَتْ من مشاهده وأوطانه ، حتى لا يعفُو له أثر ، ولا يُفتقَد منه إلا ما فقِد ، وأن يستقبل بكم أيامَكم ، بأحسنِ ما مضى تمامُه ، لمن مضى منكم ، فيجعلكم الخلَفَ الذى لا وَصْمَةَ معه ، ولا وَحْشَةَ عليه فى نفسه ، وأسأله أن يتولاكم ويتولانا فيكم بما هو أهله ووليُّه .

وكتابك ـ أكرمك الله ـ بما أحضَركم الله من توفيقه ، الذى أرجو ألَّا يغيب عنكم ، وإرشادِه الذى أرجو أن يكون مقروناً بكم فى كل أحوالكم ، ما يلزمك فى مروءتك وأخلاقك ، لا تُخلني منه ، ولا تؤخِّرْ إيناسى بتعجيله ، تولَّاك الله بكل صالحة وعوَّض بك من كل رزيَّة ، وأتم عليك النعمة، ولا أخلاك فيها من الزيادة » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣١٤)

٢٨ — كتاب الحسن بن وهب إلى القاسم بن الحسن بن سهل

وكتب الحسن بن وهب ، إلى القاسم بن الحسن بن سهل يعزيه :

« مَدَّ الله فى عمرك ، موفوراً غيرَ منتقَصٍ ، وممنوحا غيرَ ممتَحَنٍ ، ومُعْطًى غير مستَلَبٍ » .

(زهر الآداب ٣ : ١٩٩)

٢٩ — كتاب الحسن بن وهب إلى محمد بن إسحق

وكتب الحسن بن وهب ، إلى محمد بن إسحق ، يعزيه عن ابنه إسحق :

« الأمير أعلَمُ بالدِّين ، من أن يذكَّر به ، وبالدنيا ، من أن يُدَلَّ على ما خُلِقَتْ له ، وقد ورد ـ أعز الله الأمير ـ ما كان من النبأ العظيم ، والخطْب الجليل ، فى سيف الخلافة ودِعامتها ، ورُكْنها فى يومها وغَدها ، فلو أن حادثا سبق بالنفوس آجالَها »

(١) أى ثلمت ، وفى الأصل « ماملت » وهو تحريف .

وأعجلَها عن الآجال المقدَّرة ، لكانت الرزيّةُ أحقَّ الرزايا بذلك ، فكنتُ أحق المنكوبين بمصابه أن ينالني ذلك منه » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣١٢)

٣٠ — كتابه إلى إسحق بن يحي

وكتب الحسن إلى إسحٰق بن يحيي بن مُعاذ ، يعزِّيه عن ابنه :

« مَن شكَّ في موضعي من هذه المصيبة ، وبموقِعها مني ، فأنت ـ أعزك الله ـ غيرُ شاكٍّ في ذلك ولا مرتاب به ، فإنا كنا من صفاء الخُلَّة[1] على ما لم يكن عليه أخو مَوَدَّة ، نَغيب إذا غِبْنا على إخلاص ومِقَة ، ونَحضُر إذا حضرنا ، على بِرٍّ وصِلَة ، ونتقارض المحبة قروضا مجزيّة ، رضي الله عنه ، وشكر له ما كنتُ أعتدُّ به منه ، ولقد كانت الدنيا تزداد حبا إليَّ بمكانه ، وتُضَعَّف حسنا في عيني بحياته ، ولقد أحدثتْ لي مِيتته زُهدا في الحياة ، وقصداً في الشُّحّ عليها ، وذمًّا للدنيا ، واستقباحاً لصُوَرِها ، ولكن ما الحِيلة ، جُعِلت فداءك ! ؟ وممن الظُّلامة ! ؟ وما نصنع بهذه الغَرّارة ، التي سِيرتها ـ منذ كانت ـ سيرةٌ واحدة ، وأحكامها في كَدَر الصَّفاء ، وتنغيص السرور ، أحكام راتبَة[2] ؟ واللهُ المستعان ، والمشتكَى إليه ، وحَسْبُنا الله ونعم الوكيل ، لا نقَصَك عددا ، ولا أراك في شيء من نعمه عندك فَجْعاً ولا تبديلا » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣١٢)

٣١ — كتابه إلى محمد بن عبد الله بن طاهر

وله إلى محمد بن عبد الله بن طاهر ، يعزيه :

« أطال الله بقاء الأمير مسروراً غير محزون ، ومُعْطًى غير مسلوب ، ووفّقه في أحواله كلها بما يستديم به النعمَ ، ويستحقُّ به المَثُوبَةَ .

(١) الخلة : الصداقة المختصة لاخلل فيها .
(٢) راتبة : أي ثابتة لا تتغير .

أفظَعَنى[1] ما رأيت فى الأمير ـ أعزّه الله ـ من أثر هذه الرزية ، التى تكاد أن تكون أشبه بالنعم ، منها بالرزايا لِمَا وفّر الله للأمير ـ إن شاء الله ـ من ثوابها له ، وحاطه من بعدها فى نفسه ، فإن حياة الأمير ـ أعزه الله ـ حياةٌ لأهله وذَوِى نائِله ، بعد الذى جعل الله للدين والخلافة والعز بسلامته ، وللأمة من جمال مكانه وموضعه ، فوفّره الله لأمير المؤمنين ، ولا نَقَصَه ، وتولّاه بحسن المدافعة عنه ، والحياطة له ، ولا أراه سوءا فى نفس ، ولا حميم بقدرته ، وأعاذ الأمير من المكاره ، وأعاذنا فيه منها ، إنه ولى قدير » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣١٦)

٣٢ — جواب تعزية له

وللحسن بن وهب جواب تعزية عن ابنه ، إلى الطائى[2] الشاعر :

« أمتَعَنى اللهُ بما وفّر علىّ من موافقتك ، وبلوغ الوَطَر كل الوطر من استتمام اليد عليك ، وإحاطةِ للملك لك ، زاد الله فى النعمة عندك بطولِ حياتِك ، وتَرَاقِى أيامِك ، وغفلةِ الدهر عنك وعن حظى منك .

كتابى ، بأبى أنت وأمى ، وطارِفِى وتِلادى ، وكتابُك فى يدى ، وفلان عندى ، ونحن نصعّد ونصوّب فى الشعر العجيب ، الذى أنفذته فى دَرْجِه[3] ، وبيننا مِن ذِكْرِك أطيب من روائح الرياض غِبّ القَطْر ، والحالُ سارّة ، والعافية شاملة بحمد الله على النعمة ، ونسأله أحسن النَّماء والزيادة ، وذكرت مشاركتك[4] إياى فى المصيبة ، وما كان أحوَجَنى ـ حين طَرَقَتْ بها الأيامُ ـ إلى أن تكون حاضرا ، فتؤيِّدَ ضعفا ،

---

(١) أفظعه : وجده فظيعا ، أى شق عليه وأحزنه .
(٢) المفهوم منه أنه أبو تمام حبيب بن أوس الطائى ، الشاعر العباسى المعروف .
(٣) فى درجه : أى فى طيه . (٤) فى الأصل « مشاورتك » وهو تحريف .

وتعمّ سَداداً ، فإنها[1] كانت حالا وافَتْ غَرِيراً بها ، شديدَ الغفلة عنها ، حتى كأنى كنت لا أحسب الأيام على هذه الخليقة ، ولا الدهر على هذه العادة ، فسبحان الله لهذا السهو الطويل ، والتفريطِ الذى لا يُشْبِه السَّفِيهَ ، فضلًا عن يحبّ أن يقال عاقل حليم ، وإنا لله وإنا إليه راجعون ، لا انفكّتْ أقدارُ السوء تَسْقُطُ دونك ، والرَّدَى يُخطِئك ، وكِلَاءةُ اللهِ تُحيط بك » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣١٥)

٣٣ — تعزية له

وله تعزية :

« جَبلك الله على التسليم لأمره ، والرضا بقضائه ، وصبّرك على مواقع أقداره ، واحتمالِ الحقوق لنعمته ، إن الله عز وجل جعل النعم سبيلا لاختبار الشكر ، والمحَنَ سبيلَ ابتلاء الصبرِ ؛ وأحقُّ الناس بالشكر على النعمة ، والصبرِ عند المِحْنة ، مَنْ قَرَنَ الله له بين الحالين ، فلم يُخْلِهِ من النعمة التى حقُّها الشكرُ ، ولا من المِحْنة التى حقُّها الصبرُ ، وهى حالك التى أصبحتَ عليها بحمد الله ، إلى الأحوال المنتظرة لك بعدها ، المرجُوّة زيادةُ الله إياك فى أحسنها .

وكانت الحادثة فى أبى فلان وما آثره من طاعة مَن مضى من خلفائه ، وطاعةِ أمير المؤمنين ، الرزيّةَ المرجوّة المنتظر يومُها ، صَنَعَ الله بك وفيك فى غدها ، وحلّت من أمير المؤمنين ومن أوليائه وعوامِّ رعِيته محلّها ، ثم كنت من أمير المؤمنين بموضع الرجاء لسَدِّ ثَلْمِها ، ولَمِّ شَعَثِها ، حتى تَعفوَ بإذن الله آثارُ كُلُومِها[3] ، ويعود الصلاح فى جميعها إلى أجلِ ماجرَتْ به عادةُ الله فيها ولها ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ،

---

(١) فى الأصل «وتعم سداد» والمعنى: وتعمنا بالسداد فترشدنا إلى وجوب التمسك بالصبر والتنكب عن الجزع ، وربما كان الأصل « وتلم سدادا » أو « وتضم شرادا » .

(٢) فى الأصل « فأما » وهو تحريف .

(٣) عفا الأثر . درس وامحى ، والكلوم جمع كلم بالفتح : وهو الجرح .

قَبولا من الله تبارك وتعالى لقوله ، وانتهاء إلى أمره ، وَوَلِيَك الله فى هذه المصيبة بأعظم الأجر ، وأجزل الذُّخر ، وألهمك الله فى النعم أحسن ما ألهمه محتمِلًا لنِعْمة ، أو قائما بحق ، وسَرَّبك من بعد مَن كنا نضِنُّ ببقائه ، ونشِحُّ على حياته ، ونعتدُّ بنعمة الله فيه ، نضَّر الله وجهه ، ونسأل الله أن يَهَبَ له جزاء الآخرة ، وشريفَ منازلها ، ومرافقة النبى صلى الله عليه وسلم أفضلَ ما نَقَلَهُ عنهُ من حظوظ الدنيا التى قد كان نشأ فيها ، وتقلَّب فى أعلى مراتبها ، وأثابه الله أجلَّ ما أثاب شاكرا لأَنْعُمه ، مؤدِّيا لما يستحقُّ به من طاعته ، وهنَّأك الله ما أعطاك من رأى خليفته ، ووفَّقك لاستقبال ما تستدعِى به مرضاته ، والزُّلْفة لديه ، بقدرته » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣١٥)

٣٤ — كتابه إلى إسحق بن إبراهيم

وكتب الحسن بن وهب ، إلى إسحق بن إبراهيم يعزيه ، عن يحيى بن خاقان :

« صَرفَ الله المكارِهَ كلَّها عن الأمير ، وأبعدَها عن جَنابه ومَقَرِّ داره ، ولا فجعَه بوَلىّ يؤيِّد عِزَّه ، ويُنْهِى(١) بفضائله ، ويَقْدَح بِزَنْده ، ويَحطِب فى حَبْله ، ويُرَادِى مَن رَاداه(٢) وعَنَد(٣) عن طاعته ، كان يحيى بن خاقان أحد الشيوخ ، أو شيخ الشيوخ العارفين بفضائل الأمير ، الحافِظِين لمآثر أسلافه ، فلا أعلَمُنِى رأيتُ فى دار الأمير رجلا أصْفَى من جانبه ، ولا أطْهَرَ من مَحبته ، ولا غائباً كان يغيب عنها بأنْقَى من غَيْبه ، ومسريرته ، ولا أنصَحَ من جَيْبه ونيَّته ، وكان لى مع ذلك أبًا بعد أبى ، وكافلا بعد من كان يَكْفُلُنِى ، وكانت عنايته بلغتنى ، حتى خلَطَنى بإخوته وأقاربه .

---

(١) أنهى الشىء : أبلغه .

(٢) رادى عن القوم . رمى عنهم بالحجارة .

(٣) عند عن الطريق كنصر وسمع وكرم : مال .

وأتانى خبر مُصابه ، فوَحَقِّ الأمير الذى أعظّمه ، لقد هدَّنى ، وبلغَ مساءتى وكُرهى ، وتذكرتُ ما يتعطّل على الأمير من عِمارة الأنس به ، والإفضاء إليه ، والاستراحة إلى خَلْوته ، فاستوحشتُ لذلك ، وإن كنت أرجو أن يُؤْنِس الله الأميرَ من سلامته ، بما يسُدُّ كل خلَل وثُلمة ، وَيَدْمُلَ[1] كل كَلْمٍ ورَزِيَّة ، فعظَّم الله أجر الأمير ، وتظاهَرتْ عنده مِنَنُ الله وطَوْله وقدرتُه على ما يشاء فى عباده » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣١٧)

٣٥ — كتابه إلى عبد الرحمن بن خاقان

وله تعزية إلى عبد الرحمن بن خاقان :

« حَرَسَكَ الله من المكاره والغِيَر ، مؤيَّدًا بالتوفيق والعصمة فى القول والعمل ، إن نعمة الله عليك فيما عَصَم من دِينك ونفسك ، وألهمَك حظَّك ورُشْدَكَ فى السعى لِمَعَادك ، والتماسِ القُرْبة إلى ربك ، النعمةُ الجليلة التى تضع أكثر المَئُونة عمن التمس تذكيرَك بالله وآياته ، ووَعَظَك بما يلزمك مِن تَلَقِّى نِعَمِ الله عز وجل بشكرها ، ومِحْنتِهِ بالتسليم لها والصبر عليها .

وقد وافانا مِن خبر الحادثة فيمن أكرم الله مَثْواه ومُنْقَلَبه ، ما جَلَّ حتى استغرق الجميعَ ، وعَمَّ حتى كاد يسوِّى بين الأقرب والأبعد ، فإلى الله نشكو ذلك ، كما نرغب إليه تبارك وتعالى فى التجاوز عنه والرحمة له ، وأن يوفّقك وإيانا من الصبر على رزيئته مايُؤْمِننا من حُبُوط الأجر ، ويُكْمِل لنا ولك جزيلَ الذُّخر »[2] .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣١٧)

---

(١) دمل الجرح كفرح واندمل : برئ والتحم وتماثل ، ودمله الدواء كنصره : أبرأه ». والكلم : الجرح .

(٢) فى الأصل « الأجر » وأرى أنه سهو من الناسخ ، إذ تقدمت هذه الكلمة فى الفقرة السابقة

٣٦ — كتاب تعزية له

وله تعزية أيضاً :

« قد نفذ كتابى إليك فى التعزية عن السيِّد الذى لا نُفْجَع بمثله ، ولا نؤمِّل عِوَضاً منه ، إلا باتصال أيامك ، وجميل حِياطة الله إياك ، بما أرجو أن يكون قد وصل والحمد لله ، وإليه أوجِّه الرغبة فى إلهامك الصبرَ ، وحسن المعاونة لك على قضاء الحق عليك ، وقضاء الحق لك ، وما أعتدُّ به من مودتك ، التى تقتصر على ما دونها الثقةُ ، وتَستحكِمُ بأقلَّ منها الأسبابُ والمِقَةُ » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣١٠٧)

٣٧ — كتاب له فى الشكر

وكتب الحسن بن وهب فى الشكر :

« مَن شكرك على درجةٍ رفعْتَه إليها ، أو ثروة أقدرتَه عليها ، فإن شكرى لك على مُهْجة أحيَيْتَها ، وحُشاشةٍ[١] أبقيتَها ، ورَمَقٍ أمسكتَ به ، وقمتَ بين التَّلَف وبينه ، فلكل نعمة من نعم الدنيا حَدٌّ ينتهى إليه ، ومَدًى يُوقَف عنده ، وغايةٌ من الشكر يسمو إليها الطَّرْفُ ، خلا هذه النعمة التى قد فاقت الوصفَ ، وطالت الشكرَ ، وتجاوَزَتْ قدرَه ، وأنت من وراء كل غاية ، رددتَ عنا كيدَ العدو ، وأرغمتَ أنف الحسود ، فنحن نلجأ منك فيها إلى ظل ظَلِيل وكَنَفٍ كريم ، فكيف يشكر الشاكر ، وأنَّى يبلُغُ جُهد المجتهد ؟ » .

(العقد الفريد ٢ : ١٩٥)

---

(١) المشاشة : بقية الروح فى المريض والجريح .

٣٨ — كتاب فى الشكر

قال ابن طيفور :

ومن مختار ما كتب به من باب الشكر :

« أما بعد ، فما أعجزَ تعدادى عما أتعرَّفُ منك وأتعرَّفُه بك دانيا ونائيا ، وما أدرى ما ابتدأتَنى به من معروفك ، أرَهْنٌ لشُكرى ؟ أم ما ثنَّيْتَ به من بِرِّك ، لِبَدْئك بعنايتك على نأيك ؟ أم ما ألبَسْتنى جمالَه ، على لسانك ، بإطرائك وثنائك ؟ أم ما عَقَدْتَه لى عند غيرك بتلطُّفك وتأتِّيك[١] ؟ غير أنى أعلم أنك لم تقصِّر فى استحقاق شكرٍ علىَّ ، وأرجو ألَّا أكون مقصِّرا فى معرفة ذلك منك ، ومَن لم يقصِّر عِلْمُه ولم يُؤَنِّ[٢] فى شكره إلَّا مِن عِظَم المعروفِ عنده مع جهده ، فقد دخل بالعلم والجهد فى الشاكرين ، غير أن الذى آنسْتَنى به من رِفْدك[٣] وتوطيدِك ، قد زادنى وَحْشةً إليك ، وإنَّ حِفظَ مَن حَفِظنى فيك — وإن لم يكن مقصِّرا — قد جدَّد لى المعرفة بوَثارة[٤] مكانى عندك ، ولقد بلغتُ أنْ أصلحتَ لى الأمورَ والرجال ، وأصلحتنى إلى صلاحى لنفسك ، فليس كتابى هذا باستبطاء لأحد حتى يستبطئه ، ولا شكرى حتى يكون البدء منك ، ولكن رَوَّحْتُ عن نفسى بذكرك ، وزيَّنْتُها بشكرك ، وزكَّيتها بالإقرار بفضلك » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٧٨)

---

(١) تأتى للأمر : ترفق وأتاه من وجهه .

(٢) أنيت وأنيت وتأنيت واستأنيت : تأخرت وأبطأت ، وفى الأصل « ولم يؤت » والأول عندى أولى .

(٣) الرفد : العطاء والصلة ، والتوطيد : التثبيت ، ووطد له منزلة : مهدها .

(٤) من وثر الشىء ككرم : إذا لان وسهل .

٣٩ - كتاب الحسن بن وهب إلى إبراهيم بن العباس

وكتب الحسن بن وهب إلى إبراهيم بن العباس :

« وصل كتابك ، فما رأيت كتابا أسهلَ فُنُونا ، ولا أملَسَ مُتُونا ، ولا أكثر عُيُونا ، ولا أحسنَ مَقاطِعَ ومَطالِعَ منه ، أنجزْتَ فيه عِدَةَ الرأى ، وبُشْرَى الفِراسة ، وعاد الظنُّ يقينا ، والأمل مبلوغا ، والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحاتُ » .

(العقد الفريد ٢ : ١٩٦)

٤٠ - كتابه إلى أبى تمام الطائى

وكتب الحسن بن وهب إلى أبى تمام الطائى :

« أنت - حفظك الله - تحتذى من البيان فى النِّظام ، مثلَ ما يُقصَد بحرٌ فى الدُّرَر من الأفهام ، والفضل لك - أعزَّك الله - إذ كنت تأتى به فى غاية الاقتدار ، على غاية الاقتصار ، فى منظوم الأشعار ، فتحلُّ متعقِّدَه ، وتربط متشرِّدَه ، وتنظِم أشطارَه ، وتجلُو أنواره ، وتفصِّله فى حدوده ، وتخرجه فى قيوده ، ثم لا تأتى به مهما اقتبسته مُشتَرَكا فيَلتَبِس ، ولا متعقِّدا فيَطُول ، ولا متكلَّفا فيَحُول ، فهو كالمُعْجِزة ، تُضْرَب فيها الأمثالُ ، ويُشْرَح فيها المقالُ ، فلا أعدَمَنا الله هداياك وارِدةً ، وفرائدَك وافِدةً » .

(زهر الآداب ٣ : ١٠٤)

٤١ - كتاب له

« لا ترْضَ لى بيسير النظر ، فإنى لم أرْضَ لك بيسير الشكر ، وضَعْ عنى مُؤْنَةَ التقاضى ، ما وضَعْتُ عنك مُؤْنَةَ الإلحاح ، وأحضِرْ قلبى مِن ذِكرِك ما هو أكفَى من قعودى بِصَدَدِ عَيْنِك ، فإنى أحقُّ مَن فعلتَ ذلك به ، كما أنك أحقُّ مَن فعَلَه بى ، وحقَّق الظنَّ ، فليس وراءك مَذْهَبٌ ، ولا عنك مُقصَّرٌ » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨١)

٤٣ — كتاب ميمون بن إبراهيم إلى الحسن بن وهب

وكتب ميمون[1] بن إبراهيم إلى الحسن بن وهب يعزّيه عن أمه :

« خُطُوبُ الأيام مقضيَّةٌ على هذا الخلق ، ولو كانت مدفوعةً عن أحد ، لِكثرةِ مَن يَقِيهِ من إخوانه ، ويَفديه منهم الأخصُّ فالأخصُّ من أعِزَّائه وخُلَّانه ، سلِمْتَ منها وعَرِيتَ من مُلِمِّها ، وكان سَبْقِي إلى ذلك أبرزَ سَبْق ، وحظِّي في التقدم فيه أوفرَ حظٍّ ، ومصيبتك — أكرمك الله — بالوالدة لى مصيبةٌ ، وما نالك من ذلك لِقلبِي مُوجِع . ولو كان فى طاقتي أن أعلم كُنْهَ ما خامَر قلبَك من ألَم ذلك ، لحَمَلْتُ مثلَه على نفسى ، وإنى أحبّ أن أكون أُسْوَتَك فى كل سارٍّ وغامٍّ ، ولا أتمتع بأيام غمُومك ، ولا أقصِّر فيها عن مقدار حالك ، فعظَّم اللهُ أجرك ، وجَبَرَ مُصابَكَ ، وضاعَفَ ثوابَك ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، والحمد لله الذى لا يُحْمَد على المكروه غيرُه . ثم الحمد لله الذى جعلك مكتفياً بنفسك فى مواطن حقوق الله عليك ، والرجعُ فى اقتصارِى على الكتاب — إذ كان دونَ الذى ينبغى فيما يَلزَمنى ، وإن كنتُ قد سَلَكتُ نفسى أوّلَ منْ لَقِيك مُعَزِّيا ومؤاسِياً — إلى عِلمك بالحال فى ذلك ، وإن كنت أثق بأنى ممن لا يحتاج إلى اعتذار عندك ، فإن رأيت أن تُدْخِل إلىّ الرَّوْح[2] بكتابك وخبرك فى نفسك ، وما رَزَقك الله من حسن التَّعزِّى عند مصيبتك ، لأَحْمَدَ اللهَ على النعمة عندى فيما ألهمك من التوفيق والعصمة فعلتَ ، والتعزية — جُعِلْتُ فداءك — تجدِّد اللوعةَ للمحزون ، وقد توقيتُ ذلك فى أبى أيوب[3] إشفاقا عليه ، فجعل الله لكل عَبْرَة أفَضْتماها ، وجَرعة تجرعتماها فى هذه المصيبة ، حجابا لكما من كل سوء ، ووقايةً لكما من كل محذور » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣١٧)

---

(١) كان إليه خاص المكاتبات فى أيام المتوكل ، وكان بليغا فصيحا مترسلا . . . انظر الفهرست ص ١٨٠ .

(٢) الروح : الراحة . (٣) يعنى سليمان بن وهب .

٤٣ — كتاب الحسين بن الحسن بن سهل إلى صديق له

وكتب الحسين بن الحسن بن سَهْل إلى صديق له :

« نحن فى مأدُبَةٍ لنا ، تُشْرِف على رَوضةٍ ، تُضاحِكُ الشمسَ حُسْناً ، قد باتت السماء تَعِلُّها[1] ، فهى شَرِقَةٌ بمائها ، حَالِية بنُوَّارها ، فرأيكَ فينا ، لِنكون على سَواءٍ من استمتاعِ بعضِنا ببعض » .

٤٤ — رد صديقه عليه

فكتب إليه :

« هذه صفةٌ لو كانت فى أقاصى الأرض لوَجَب انتجاعُها، وَحَثُّ المَطِيِّ فى ابتغائها، فكيف فى موضعٍ أنت تسكُنُهُ ، ويَجْمَعُ إلى أنيق منظَره حُسْنَ وجهِك ، وطِيبَ شمائِلك ! وأنا الجواب » . (العقد الفريد ٢ : ١٩٢)

٤٥ — كتاب عبد الرحمن بن أحمد الحرانى إلى محمد بن سهل

وكتب عبد الرحمن بن أحمد الحَرَّانى إلى محمد بن سهل :

« أعزك الله ، إن كل مجازاةٍ قاصِرَةٌ عن حق السابِقِ إلى افتتاح الودّ، وقد علمتَ أنى استقبلتك من الإقبال عليك بما لم تستدْعِهِ، واعتمدتُك من الرغبة فيك بما لم تُولِهِ » (العقد الفريد ٢ : ١٩٢)

---

(١) علّه كضرب ونصر وأعله : سقاه مرة بعد مرة .

٤٦ — كتاب ابن الزيات بالعهد للواثق على مكة

وكتب محمد بن عبد الملك الزيات عهد الواثق على مكة بِحَضْرَة المعتصم :

« أما بعدُ : فإن أمير المؤمنين قلّدك مكةَ وزَمْزَمَ ، تُراثَ أبيك الأقدم ، وجَدِّك الأكرم ، ورَكْضَةَ جبريل ، وسُقْيا إسمعيل ، وحَفْرَ عبد المطلب ، وسِقايةَ العباس[(١)] ، فعليك بتقوى الله تعالى ، والتوسِعَة على أهل بيته » .

(زهر الآداب ٣ : ٣٥٩)

٤٧ — كتاب إبراهيم بن العباس إلى الواثق

ولما تُوُفِّى المعتصم ، ووَلِيَ الخلافة بعده ابنُه الواثق ، كتب إليه إبراهيم[(٢)] ابن العباس الصُّولى يعزّيه بأبيه ويهنئه بالخلافة :

« إن أحقَّ الناس بالشكر مَن جاء به عن الله ، وأولاهم بالصبر مَن كان سَلَفَه رسولُ الله ، وأميرُ المؤمنين ـ أعزّه الله ـ وآباؤه ـ نصرهم الله ـ أُولُو الكتاب الناطق عن الله بالشكر ، وعِتْرَةُ رسوله المخصوصون بالصبر ، وفى كتاب الله أعظمُ الشِّفاء ، وفى رسوله أحسنُ العَزَاء :

---

(١) زمزم : بئر بمكة ، ويعنى بأبيه : إسمعيل ، وبجده : إبراهيم ، عليهما السلام ، وكانت هاجر أم إسمعيل أمة لسارة زوج إبراهيم ، فوهبتها لإبراهيم فولدت منه إسمعيل فغارت منها سارة وناشدت إبراهيم أن يخرجهما عنها ، فأخرجهما إلى أرض مكة ، وذلك حيث يقول تعالى حكاية عن إبراهيم : (رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ) فأنبع الله لهما عين زمزم وذلك حيث يقول ابن الزيات (وركضة جبريل) وأسقاهما منها ، ثم طمت تلك البئر وما زالت مطمومة إلى زمن عبدالمطلب بن هاشم ، فأتاه آت وهو نائم بالحجر فأمره بحفرها ، فحفرها وأقام سقاية زمزم للحاج ، وكانت السقاية فى الجاهلية بيد ابنه أبى طالب ثم سلمها إلى أخيه العباس ابن عبد المطلب .

(٢) هو إبراهيم بن العباس بن محمد بن صول (ابن عم عمرو بن مسعدة) كان شاعرا مجيدا ، وكاتبا بارعا ، وهو وأخوه عبد الله من صنائع ذى الرياستين الفضل بن سهل ، اتصلا به فرفع منهما ، وتنقل إبراهيم فى الأعمال الجليلة والدواوين ، فكان إليه ديوان الرسائل فى مدة جماعة من الخلفاء العباسيين ، وكان واليا على الأهواز ، ومات فى خلافة المتوكل بسر من رأى ، وهو يتقلد ديوان الضياع والنفقات سنة ٢٤٣ ـ انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١ : ٩ والفهرست لابن النديم ص ١٧٦ ومروج الذهب ٢ : ٣٨٢ والأغانى ٩ : ٢٠ ومعجم الأدباء ١ : ١٦٤ .

وقد كان من وفاة أمير المؤمنين المعتصم بالله ، ومن مشيئة الله فى ولاية أمير المؤمنين الواثق بالله ، ما عفا[1] على أوّله آخرُه ، وتلافَتْ بدأتَه عاقبتُه، فحَقّ الله فى الأولى الصبرُ ، وفَرْضُه فى الأخرى الشكرُ ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يستنجزَ ثوابَ الله بصبره ، ويستدعِيَ زيادتَه بشكره ، فعَلَ إن شاء الله تعالى وَحْدَه » .

(معجم الأدباء ١ : ١٨٩)

٤٨ — كتاب إبراهيم بن العباس إلى ابن الزيات

وكان إبراهيم بن العباس الصُّولى صديقاً لمحمد بن عبد الملك الزيات ، فوَلِيَ محمد الوزارة ، وإبراهيم والٍ على الأهواز ، فقَصَده ووجَّه إليه بأبى الجهْم أحمد بن سيف ، وأمرَه بكَشْفه[2] ، فتحامَلَ عليه تحاملا شديداً ، فكتب إبراهيم إلى ابن الزيات يشكو إليه أبا الجهم ويقول : هو كافر لا يبالِى ما عَمِلَ ، وهو القائل لمّا مات غلامُه يخاطب مَلَكَ الموت :

تركتَ عُبَيْـــدَ بنى طاهرٍ ... وقد مَلَئوا الأرض عَرْضاً وطُولَا
وأقبلتَ تَسعَى إلى واحِدِى ... ضِرارًا كأنْ قَدْ قتلتُ الرسولَا
فسوف أَدِينُ بتَرْكِ الصـــلاةِ ... وأَصْطَبِح الخمرَ صِرْفا شَمُولَا[3]

فكان محمد لعصبيته على إبراهيم وقصده له يقول : ليس هذا الشعر لأبى الجهم ، وإنما إبراهيم قاله ونسبه إليه .

(الأغانى ٩ : ٢٤ ومعجم الأدباء ١ : ١٦٩)

---

(١) عفا وعنى : محا .
(٢) أى يكشف أمره ومحاسبته على ما لديه من الأموال .
(٣) اصطبح : شرب الصبوح وهو الشرب بالغداة ، صرفا : غير ممزوجة بالماء ، شمولا : باردة .

٤٩ — كتاب إبراهيم بن العباس إلى ابن الزيات

وعزل ابن الزيات إبراهيمَ بن العباس عن الأهواز واعتقله بها وآذاه ـ وكان يؤمل منه أن يسامحه ويُطْلِقهُ لقديم صحبته له ـ فكتب إليه :

فلو إذْ نَبَا دهرٌ وأنكر صاحِبٌ ... وسُلِّط أعداء وَغاب نَصِيرُ(١)

تكون عن الأهوازِ دَارِى بِنَجْوَةٍ! ... ولكنْ مقاديرٌ جرَتْ وأمورُ(٢)

وإنى لأرجو بعد هذا محمداً ... لِأفضلِ ما يُرْجَى أخٌ ووَزِير

(الأغانى ٩ : ٢٤ ومعجم الأدباء ١٦٩)

٥٠ — كتابه إلى عمر بن فرج

وكتب إبراهيم بن العباس إلى عمر بن فرج بعد أن عُزِل عن الأهواز ، وابنُ الزيات يعذِّبه بالناحية .

« ولستُ أعزكَ الله واحدا مِن عَدَدٍ تُحَصِّلهم وتقدِّمهم ، فَتَوَسَّعَ على نفسك فى أمرى ، أنا واللهِ واحِدُك ، بالأسباب التى تجتمع لى فيك وبك ، ولا تجتمع فى غيرى ، من أخ ولا ولدٍ ولا صاحب ، وقد كنتَ تدَّخرنى أعزكَ الله لطاعتك والوفاء لك ، فقد واللهِ فعلتُ غيرَ مُمْتَنٍّ بذلك ، وقد كنتُ أرجو ألَّا أُضَامَ فى جيرتك ومعك ، فلا تخذُلْنى ، فإنى فى حالةٍ إنْ أخْلَيْتَنى فيها من نُصرتك ، لم يرجع علىّ من ذلك مقدارٌ فى نعمتى ونفسى ، إلَّا رَجَعَ عليك أكثرُ منه فى نعمتك ، وقَدْرِك ، والسلام » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٦٥)

---

(١) نبا به الزمان : جفاه .

(٢) النجوة : ما ارتفع من الأرض .

٥١ - كتابه إلى ابن الزيات

وكتب إبراهيم بن العباس إلى ابن الزيات يستعطفه :

« كتبتُ إليك وقد بلغَتِ المُدْيَةُ المحزَّ(١) ، وعدَتِ الأيام بك عليَّ ، بعد عَدْوِى بك عليها ، وكان أسوأ ظنى ، وأكثر خوفى ، أن تَسْكُنَ فى وقت حركتها ، وتكُفَّ عند أذاها ، فصِرتَ عليَّ أضرَّ منها، وكفَّ الصديقُ عن نصرتى خوفا منك، وبادَرَ إلىَّ العدوُّ تقرُّبا إليك » .

وكتب تحت ذلك :

أخٌ بينى وبين الدهـــر صاحبَ أيُّنا غَلَبَا
صديقى ما استقام ، فإن نَبَا دهرٌ عليَّ نبَا
وثَبْتُ على الزَّمان به فعاد به وقد وَثَبَا
ولو عاد الزمان لنا لَعادَ به أخًا حَدِبا(٢)

(الأغانى ٩ : ٢٦ ومعجم الأدباء ١ : ١٧٠)

٥٢ - كتابه إلى ابن الزيات

قال ابن طيفور :

وكتب إبراهيم بن العباس إلى محمد بن عبد الملك الزيات وهو واقف على بابه ، وقد حُجب عنه بعد أن عزل عن الأهواز :

« جُعِلْتُ فِداءك ، بِالحَيْنِ(٣) وقفتُ ، وإلَّا فَمَنْ كان أعزَّ بحالة رَضِيَها فى نفسه وعند إخوانه منى؟ ومَن كان واحِدَك إذا حصَّلْتَ واحِداً ؟ وواحدى إذا خِفتُ

---

(١) ومن أمثالهم « بلغ السكين العظم » يضرب عند بلوغ الشدة منتهاها .
(٢) حدبا : أى عطوفا .
(٣) الحين : الهلاك والمحنة: أى وقفت على الهلاك وصرت إليه .

عن زمانٍ نَبْوَةً ؟ أمَا واللهِ لو أمِنْتُكَ لقلتُ ، ولكنى أخاف منك حالةً لاتحتمِلُها لى، وأتوقَّى منك عَتْبا لاتُنْصِفُنى فيه ، وما قُدِّر فقد كان ويكون ، وعن كل حادثة أُحْدوثةٌ ، ولا أقولُ واللهِ ـ أعزك الله ـ إنى غَلِطت على نفسى ، فتبدَّلْتُ بحالة كنت مَغبُوطا فيها ، حالةً أنا فى مكروهها ، بل أقول : إنى قُهِرْتُ، فلما فزِعتُ إلى ناصِرِى الذى كنت أُعِدُّه[1] ، وجدتُ مَن قَهَرَنى أقلَّ نيةً فى ظلمى ، ممن استنصرتُ فى نُصْرتى ، وتسبَّبَتْ للمقادير أسبابُها ، وتجلت عما تجلَّتْ عنه فى أمرى[2] ، وأحمَدُ الله وأشكُرُه »[3] .

وكتب فى آخره :

وكنتَ أخى بإخاء الزمان فلما نَبا صرتَ حَرْبا عَوَانًا
وكنتُ أذُمُّ إليك الزمانَ فأصبحتُ منك أذم الزمانا
وكنتُ أُعِدُّك للنائبات فهأنا أطلُبُ منك الأمانا

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٦٥ والأغانى ٩ : ٢٧ ، ومعجم الأدباء ٩ : ٢٧١ ووفيات الأعيان ١ : ١٠)

٥٣ — كتابه إلى ابن الزيات

ومما كتب إلى ابن الزيات :

« مَن رأى فى المنام مِثلَ أخٍ لِى كان عَوْنى على الزمان وخِلِّى
رُفِعَتْ حالهُ فحاولَ حطِّى وأبَى أن يَعِزَّ إلا بذُلِّى »

* * *

(١) أعد : أى أتخذه عدة (٢) فى الأصل « وتجلت عما تجلت عنه أمرى » .

(٣) وصورة هذا الكتاب فى الأغانى ومعجم الأدباء « أما والله لو أمنت ودك لقلت ، ولكنى أخاف منك عتبا لا تنصفنى فيه ، وأخشى من نفسى لائمة لاتحتملها لى ، وما قد قدر فهو كائن، وعن كل حادثة أحدوثة ، وما استبدلت بحالة كنت فيها مغتبطا ، حالة أنا فى مكروهها وألمها أشد على من أنى فزعت إلى ناصرى عند ظلم لحقنى ، فوجدت من يظلمنى أخف نية فى ظلمى منه ، وأحمد الله كثيرا » ثم كتب فى أسفلها : الأبيات . . . ولم يرد منه فى وفيات الأعيان إلا الأبيات فحسب .

وكتب إليه يستعطفه :

فَهَبْنِي مسيئا مثلَ ماقلتَ ظالماً ... فعفوا جميلا كى يكون لك الفضلُ

فإن لم أكن للعفو منك ـ لسوءِ ما ... جَنَيْتُ به ـ أهلًا فأنت له أهلُ

(معجم الأدباء ١ : ١٨٥)

* * *

وأقام ابن الزيات على الإساءة إليه ، حتى بلغ منه كل مكروه ، ثم وقف الواثق على تحامله عليه ، فرفع يده عنه ، وأمر أن يقبل منه ما رفعه ، ورده إلى الحضرة مصونا ، فبسط لسانه فى ابن الزيات وهجاه هجاء كثيرا .

(الأغانى ٩ : ٢٧)

٥٤ — كتاب ابن الزيات عن الخليفة إلى أحد عماله

وكتب عن الخليفة إلى أحد العمال :

« أما بعد ، فقد انتهى إلى أمير المؤمنين (كذا) فأنكَرَه ، ولا تخلو من إحدى منزلتين ، ليس فى واحدة منهما عذرٌ يوجب حُجةً ، ولا يُزيل لائمة[1] : إما تقصيرٌ فى عملك دعاك للإخلال بالحزْم ، والتفريطِ فى الواجب ، وإما مُظاهَرةٌ[2] لأهل الفساد ، ومُداهنةٌ لأهل الرِّيَب ، وأيَّةُ هاتين كانت منك ، مُحِلَّةٌ النُّكْرَ بك ، ومُوجِبَةٌ العقوبةَ عليك ، لولا ما يلقاك به أمير المؤمنين من الأَناة والنَّظِرة[3] ، والأخذِ بالحجَّة ، والتقدُّمِ فى الإعذار والإنذار ، وعلى حَسَب ما أَقِلْتَ من عظيم العَثْرة ، يجب اجتهادك فى تَلَافِى التقصير والإضاعة ، والسلام » .

(العقد الفريد ٢ : ١٩٨)

---

(١) اللائمة : اللوم . (٢) ظاهره : عاونه .
(٣) الأناة : الحلم ، والنظرة . التأخير .

٥٥ — فصول لابن الزيات

وكتب ابن الزيات :

« إن حقَّ الأولياء على السلطان تنفيذ أمورهم ، وتقويم أَوَدهم ، ورياضة أخلاقهم ، وأن يميِّز بينهم : فيقدِّم مُحْسِنهم ، ويؤخر مُسِيئهم ، ليزدادَ هؤلاء فى إحسانهم ، ويزدجرَ هؤلاء عن إساءتهم » .

وفصل له :

« إن من أعظم الحق حقَّ الدين ، وأوجبِ الحُرْمة حُرْمةَ المسلمين ، فحقيق لمن راعَى ذلك الحقَّ ، وحفِظَ تلك الحرمةَ ، أن يُراعَى له ، حَسَبَ ما رعاه الله ، ويُحْفَظ له ، حَسَب ما حفِظ اللهُ على يديه » .

وفصل له :

« إن الله أوجب لخلفائه على عباده حقَّ الطاعة والنصيحة ، ولعبيده على خلفائه بَسْطَ العدلِ والرأفة ، وإحياءَ السُّنَن الصالحة ، فإذا أدى كلٌّ إلى كلٍّ حقَّه ، كان ذلك سببا لتمام المَعُونة ، واتصال الزيادة ، واتّساق الكلمة ، ودوام الألفة » .

(العقد الفريد ٢ : ١٩٨)

٥٦ — كتاب لابن الزيات

وتوسَّل رجل إلى رجل بمحمد بن عبد الملك الزيات وادَّعى قرابتَه منه ، وبلغ ذلك محمداً ، فكتب إلى المتوسِّل إليه :

« بلغنى أن رجلا ادَّعَى قرابتى ، وأورد عليك كتابا ذكر أنه منى ، وما أنكِر أن ينتفع بى مَن توسَّل بنَسَبى ، إلا أنه من ادَّعى قرابةً ولا قرابةَ له ، كان استعمال الشفاعةِ فى أمره أولَى » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ٢٦٧)

٥٧ — كتاب رجل إلى ابن الزيات

وكتب رجل إلى ابن الزيات :

« إن مما يُطْمِعنى فى بقاء النعمة عليك ، ويَزيدُنى بصيرةً فى العلم بدوامها لديك ، أنك أخذْتَها بحقِّها ، واستوجبتها بما فيك من أسبابها ، ومن شأن الأجناسِ أن تتواصَلَ ، وشأنِ الأشكالِ أن تتقاوم[١] ، والشىء يتغلغَل فى مَعْدِنه ، ويَحِنُّ إلى عُنْصُره ، فإذا صادف مَنْبِته ، ولُزَّ[٢] فى مَغْرِسه ، ضَرَب بعِرْقه ، وسَمَقَ[٣] بفرعه ، وتمكَّن تمكُّنَ الإقامة ، وثَبَتَ ثَباتَ الطبيعة » .

(عيون الأخبار ١ : ٩٥)

٥٨ — كتاب الجاحظ إلى محمد بن عبد الملك الزيات

قال الجاحظ[٤] :

تشاغلت مع الحسن بن وهب أخى سليمان بن وهب بشُرب النَّبيذ أياما ، فطلبنى محمد بن عبد الملك لمؤانسته . فأُخْبِر باتصال شغلى مع الحسن بن وهب ، فتنكَّر لى ، وتلوَّن علىّ ، فكتبت إليه رُقْعة نسختُها :

« أعاذك اللهُ من سوء الغضب ، وعَصَمَك من سَرَف الهوَى ، وصَرفَ ما أعارك

---

(١) هو من تقاوموا فى الحرب أى قام بعضهم لبعض ، والمعنى : تتجاذب ويتصل بعضها ببعض .
(٢) لزه كرده : شده وألصقه .
(٣) سمق كنصر : ارتفع وعلا وطال .
(٤) هو أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، صاحب الرسائل البديعة والتصانيف الممتعة، وهو أشهر من أن يذكر ، نشأ بالبصرة ، وكان ينتجع بغداد أواخر عصر المأمون ، وفى عصر المعتصم والواثق وبعض عصر المتوكل ، وكان مختصا بابن الزيات ، وتوفى سنة ٢٥٥ — انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١ : ٣٨٨ ونزهة الألبا فى طبقات الأدبا ص ٢٥٤ وتاريخ بغداد ١٢ : ٢١٢ والفهرست ص ١٦٩ ومعجم الأدباء ٦ : ٥٦ (طبع مطبعة هندية) وأمالى المرتضى ١ : ١٣٨ ومروج الذهب ٢ : ٢٠٠ و ٤٣٩ وسرح العيون ١٧٠ والمنية والأمل ص ٣٩ ، وله أخبار متفرقة فى الأغانى ، والفرق بين الفرق ، والانتصار ، والملل والنحل ، وغيرها .

من القوة إلى حُبِّ الإنصاف ، ورَجِّح فى قلبك إيثارَ الأَناةِ[1] ، فقد خِفْتُ — أيدَكَ اللهُ — أن أكون عندك من المنسوبين إلى نَزَق السُّفهاء ، ومُجانبةِ سُبُل الحكماء ، وبعدُ ، فقد قال عبد الرحمن بن حَسَّان بن ثابت :

وإن امْرَأً أمسَى وأصبَحَ سالِماً ... من الناس إلَّا ما جَنَى لَسَعيد[2]

وقال الآخر[3] :

ومن دعا الناسَ إلى ذمِّـه ... ذمُّـوه بالحقِّ وبالباطل

فإن كنتُ اجترأت عليك — أصلحك الله — فلم أجترئْ إلّا لأن دوامَ تغافلِك عن شبيهٌ بالإهمال الذى يُورث الإغفالَ ، والعفوُ المُتتابِـعُ يُؤْمِنُ من المكافأة[4] ، ولذلك قال عُيَيْنَةُ[5] بن حِصْنِ بن حُذَيفةَ لعثمان رحمه الله : « عُمَرُ كان خيرا لى منك : أرهبنى فأتقانى ، وأعطانى فأغنانى »[6] .

فإن كنتَ لاتَهَبُ عِقابى — أيدك الله — لحُرْمة[7] ، فَهَبْهُ لأياديك عندى ، فإن النِّعمة تَشْفَعُ فى النِّقمة ، وإلاَّ تفعلْ ذلك لذلك ، فعُدْ إلى حسن العادة ، وإلاَّ فافعل ذلك لحُسْنِ الأُحْدُوثَة ، وإلا فَأْتِ ما أنت أهلُه من العفو ، دون ما أنا أهلُه من

---

(١) الأناة : الحلم ، والنزق : الطيش .

(٢) ويروى هذا البيت لحسان بن ثابت — انظر ديوان حسان ص ١٤٢ — وفى ديوان الحماسة ٢ : ١٤ أنه لرجل من بنى قريع .

(٣) ذكر صاحب زهر الآداب أنه محمد بن حازم الباهلى ، وفى الأغانى (ج ١٣ : ص ١٠) أنه العتابى أو الحكم بن قنبر ، وقبله :

مقالة السوء إلى أهلها ... أسرع من منحدر سائل

(٤) المكافأة : المجازاة .

(٥) هو عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزارى ، أحد المؤلفة قلوبهم ، أعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم من غنائم هوازن مائة بعير — انظر سيرة ابن هشام ٢ : ٣٢١ .

(٦) بسط الجاحظ معانى هذه الرسالة بصورة أوسع ، فى رسالته « التربيع والتدوير » وأورد فيها أكثر فقرها بألفاظها — انظر الفصول المختارة من كتب الجاحظ على هامش الكامل للمبرد ص ٦٠ وما بعدها ، ومجموعة رسائل الجاحظ ، طبع الساسى ص ١١٢ .

(٧) فى الأصل « لخدمة » وهو تحريف وصوابه « لحرمة » والتصويب عن رسالة التربيع والتدوير وفيها « لحرمتى » .

استحقاق العقوبة ، فسُبحانَ مَن جَعَلك تعفو عن المتعمِّد ، وتتجافَى عن عِقاب المُصِرّ ، حتى إذا صِرْتَ إلى من هَفْوتُه بِكْرٌ[١] ، وذنبُه نِسْيَانٌ ، ومن لايعرف الشكرَ إلا لك ، ولا الإنعامَ إلا منك[٢] ، هجَمْتَ عليه بالعقوبة .

واعلم - أيدك الله - أن شَيْنَ غضبك عليّ كزَيْن صفحِك[٣] عنى ، وأن موتَ ذكرى مع انقطاع سَبَبى منك ، كحياة ذكرى[٤] مع اتصال سببى بك ، واعلم أن لك فِطنَةَ عليم ، وغَفْلَةَ كريم ، والسلام .

(زهر الآداب ٢ : ١٠٨)

٥٩ - كتاب الجاحظ إلى أحمد بن أبى دواد

وكتب الجاحظ إلى أحمد[٥] بن أبى دُواد يستعطفه :

« ليس عندى - أعزّك الله - سببٌ ، ولا أقدِر على شَفيع ، إلاّ ما طبَعَك اللهُ عليه من الكرم والرّحمة والتأميل الذى لا يكون إلا من نِتاج حُسْن الظن ، وإثباتِ الفضل بحال المأمولِ ، وأرجو أن أكون من العُتقاء الشاكرين ، فتكونَ خيرَ

---

(١) فى الأصل « ذكر » وهو تحريف ، والتصويب عن رسالة التربيع والتدوير أيضا (من الفصول المختارة) والبكر : أول كل شىء ، وكل فعلة لم يتقدمها مثلها .

(٢) جاء فى رسالة التربيع والتدوير بعد ذلك : « ولا العلم إلا من تأديبك ، ولا الأخلاق إلا من تقويمك ، ولا يقصر فى بعض طاعتك إلا لما رأى من احتمالك ، ولانسى بعض مايجب لك إلا لما داخله من تعظيمك ، صرت تتوعد بالصرم » .

(٣) أى فى مقدار الأثر ، أى أن الأول شديد جدا كما أن الثانى عظيم جدا ، وفى رسالة التربيع والتدوير قبل ذلك : « وأن منعك إذا منعت ، فى وزن إعطائك إذا أعطيت ، وأن عقابك على حسب ثوابك ، وأن جزعى من حرمانك ، فى وزن سرورى بفوائدك » .

(٤) فى الأصل « ذكرك » وهو تحريف . وصوابها « ذكرى » كما يقتضيه السياق وكما وردت فى رسالة التربيع والتدوير ، وقد كنت صححتها فى زهر الآداب قبل أن أقرأها فى تلك الرسالة ، وهذا التشبيه كالتشبيه السابق أيضا .

(٥) من كبار أئمة المعتزلة ، وكان مقربا من المأمون أثيرا عنده ، ولما ولى المعتصم الخلافة جعله قاضى القضاة وخص به أحمد ، حتى كان لايفعل فعلا باطنا ولا ظاهراً إلا برأيه ، وحسنت حاله عند الواثق فى خلافته ، ثم فلج فى أول خلافة المتوكل ، وتوفى سنة ٢٤٠ هـ - انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١ : ٢٢ .

مُعْتِب[١]، وأكونَ أفضلَ شاكر، ولعلّ الله أن يجعل هذا الأمر سببا لهذا الإنعام، وهذا الإنعامَ سبباً للانقطاعِ إليكم، والكَوْنِ تحت أجنحتكم، فيكونَ: لا أعظمَ بَركةً، ولا أَنْمَى بَقِيَّةً، من ذنب أصبحتُ فيه، وبمِثلك ـ جُعِلْتُ فِداكَ ـ عاد الذنبُ وسيلةً، والسيئةُ حَسَنةً، ومثلُك من انقلب به الشرُّ خيراً، والغُرْمُ غُنْماً.

من عاقب فقد أخذ حَظَّه، وإنما الأجرُ في الآخرة، وطيبُ الذِّكر في الدنيا، على قدر الاحتمال، وتجرُّعِ المرائرِ، وأرجو ألاّ أَضِيعَ وأَهلِكَ فيما بين كَرَمك وعقلك، وما أكثرَ مَن يعفو عن صَغُر ذنبُه وعظُم حقُّه! وإنما الفضل والثناء: العفوُ عن عظيمِ الجُرْم، ضعيفِ الحُرْمة، وإن كان العفو عظيما مُسْتَطْرَفا من غيركم، فهو تِلادٌ فيكم، حتى ربما دعا ذلك كثيرا من الناس إلى مخالفةِ أَمْرِكم، فلا أنتم عن ذلك تَنْكُلُون[٢]، ولا على سالفِ إحسانكم تَنْدَمون، وما مَثَلكم إلا كمَثل عيسى بن مريم عليه السلام حين كان لا يَمُرُّ بمَلَإٍ من بني إسرائيل إلا أسمعوه شرا وأسمعهم خيرا، فقال له شَمْعُون الصفا: ما رأيتُ كاليوم! كلما أسمعوك شرا سمعتهم خيرا! فقال « كل امرئ يُنفق مما عنده » وليس عندكم إلا الخير، ولا في أوعيتكم إلا الرحمة، « وكل إناءٍ بالذي فيه يَنْضَحُ ». (سرح العيون ص١٧٥)

٦٠ — كتاب له في الاستعطاف

« زَيَّنك الله بالتقوى، وكفاك ما أهمَّك في الآخرة والأولى، مَن عاقَبَ ـ أبقاك الله تعالى ـ على الصغيرة عُقوبةَ الكبيرة، وعلى الهَفوة عقوبةَ الإصرارِ، فقد تناهَى في الظلم، ومن لم يفرّق بين الأسافل والأعالي، والأداني والأقاصي، فقد قصَّر، والله لقد كنت أكرَهُ سَرَفَ الرِّضا، مخافةَ أن يؤدِّيَ إلى سَرَف الهوى،

---

(١) أعتبه: أرضاه.
(٢) نكل عنه كضرب ونصر وعلم: نكص.

فما ظنُّك بسَرَف الغيظ وغَلَبة الغضب ، من طَيَّاشٍ ، عَجُولٍ فَحَّاش ، ومعه من الْخُرْق بقدر قِسْطه من التهاب المِرَّة[1] الحمراء ، وأنت رُوحٌ كما أنت جسم ، وكذلك جنسُك ونوعُك ، إلا أن التأثر فى الرِّقاق أسرعُ ، وضِدّه فى الغِلاظ الْجفاةِ أَكَلُّ ، ولذلك اشتدَّ جزعى عليك من سلطان الغيظ وغلَبته ، فإذا أردتَ أن تعرفَ مقدار الذنْب إليك ، من مقدار عقابك عليه ، فانظر فى عِلَّته ، وفى سبب إخراجِه إلى مَعْدِنه الذى منه نَجَمَ ، وعُشِّه الذى منه دَرَجَ ، وإلى جهة صاحبه فى التسرع والثبات ، وإلى حِلمه عند التعريض ، وفطنته عند التوبة ، فكلُّ ذنب كان سببه ضِيق صدر من جهة القبض[2] فى المقادير ، أو من طريق الأَنَفة ، وغلبةِ طباع الحَمِيَّة من جهة الجفوة ، أو من جهة استحقاقه فيما زيَّن له عملُه أنه مقصَّر به فى حقه ، مؤخَّر عن رُتبته ، أو كان مبلَّغا عنه مكذوبا عليه ، أو كان ذلك جائزا فيه غير ممتنع عنه ، فإذا كانت ذنوبه من هذا الشكل ، فليس يقفُ عليها كريم ، ولا ينظر فيها حليم ، ولستُ أسمِّيه بكثرة

---

(١) المرة والخلط (بالكسر وجمعه أخلاط) والمزاج (بالكسر أيضا وجمعه أمزجة) : واحد ، وهو ماركب عليه البدن من الطبائع الأربع : الدم والمرتين الصفراء والسوداء والبلغم . وجاء فى العقد الفريد ٣ : ٢٨٧ فى باب طباع الإنسان : « زعم علماء الطب أن فى الجسد من الطبائع الأربع اثنى عشر رطلا ، فللدم منها ستة أرطال ، وللمرة الصفراء والسوداء والبلغم ستة أرطال ... » وفيه أيضا : «عن وهب بن منبه أنه قرأ فى التوراة أن الله عز وجل حين خلق آدم ، ركب جسده من أربعة أشياء ثم جعلها وراثة فى ولده ـ تنمو فى أجسادهم ، وينمون عليها إلى يوم القيامة : رطب ويابس وسخن وبارد ، قال وذلك أنى خلقته من تراب وماء وجعلت فيه يبسا ، فيبوسة كل جسد من قبل التراب ، ورطوبته من قبل الماء ، وحرارته من قبل النفس ، وبرودته من قبل الروح ، ثم خلقت للجسد بعدهذا الخلق الأول أربعة أنواع أخر ، وهى ملاك الجسد وقوامه ، فإذن لايقوم الجسد إلا بهن ، ولا تقوم واحدة إلا بالأخرى : المرة السوداء ، والمرة الصفراء ، والدم الرطب الحار ، والبلغم البارد ، ثم أسكنت بعض هذا الخلق فى بعض ، فجعلت مسكن اليبوسة فى المرة السوداء ، ومسكن الرطوبة فى الدم ومسكن البرودة فى البلغم ، ومسكن الحرارة فى المرة الصفراء ، فأيما جسد اعتدلت فيه هذه الفطر الأربع ، وكانت كل واحدة فيه وفقا لا تزيد ولا تنقص ، كملت صحته ، واعتدلت بنيته ، وإن زادت واحدة منهن غلبتهن وقهرتهن ومالت بهن ، ودخل على أخواتها السقم من ناحيتها بقدر مازادت ، وإن كانت ناقصة عنهن ملن بها وعلونها ، ودخل عليها السقم من نواحيهن ، لقلتها عنهن ، حتى تضعف عن طاقتهن ، وتعجز عن مقاومتهن » اهـ .

(٢) فى الأصل « القيض » .

معروفه كريما ، حتى يكون عقله غامرا لحلمه ، وعِلْمُهُ غالبا على طباعه ، كما لا أسمِّيه بكفِّ العقاب حكيما ، حتى يكون عارفا بمقدار ما أخذ وترك ، ومتى وجدتَ الذنب بعد ذلك لا سببَ له إلا البُغْضُ المَحْض ، والنِّفارُ الغالب، فلو لم ترضَ لصاحبه بعقابٍ دون قَعْرِ جَهنَّم ، لعَذَرَكَ كثير من العقلاء ، وصوَّبَ رأيك عالَمٌ من الأشراف ، والأَناةُ أقرب من الحمد ، وأبعَدُ من الذم ، وأنأى من خوف العَجَلة ، وقد قال الأول : « عليك بالأناة ، فإنك على إيقاع ما تتوقعهُ أقدرُ منك على رَدِّ ما قد أوقعتَه » وليس يصارع الغضبَ أيام شبابه شيء إلا صَرَعَه ، ولا ينازعه قبل انتهائه إلا قَهَرَه ، وإنما يُحْتال له قبل هَيْجه ، فمتى تمكن واستفحَلَ ، وأذكَى نارَه وأشعلَ ، ثم لاقى من صاحبه قُدرةً ، ومن أعوانه سمعا وطاعةً ، فلو استبطنتَه بالتوراة ، وأوجَرْتَه[1] بالإنجيل ، ولَدَدْتَه[2] بالزبور ، وأفرغتَ على رأسه القرآن إفراغا ، وأتيته بآدَم شفيعا ، لَمَا قصَّر دون أقصى قوَّته ، ولن يسكُنَ غضبُ العبد إلا ذِكْرُه غضَبَ الرَّبِّ .

فلا تقِفْ — حفظك الله — بعد مضيِّك فى عتابى التماسا للعفو عنى ، ولا تقصِّر عن إفراطك من طريق الرحمة بى ، ولكن قِفْ وِقفةَ من يتَّهم الغضبَ على عقله ، والشيطانَ على دينه ، ويعلم أن للكرم أعداء ، ويُمْسِك إمساكَ من لا يبرِّئُ نفسَه من الهوى ، ولا يبرئ الهوَى من الخطأ ، ولا تُنْكِرْ لنفسك أن تزِلَّ ، ولعقلك أن يهفوَ ، فقد زلَّ آدم صلى الله عليه وسلم ، وقد خلقه بيده ، ولست أسألك إلا رَيْثَمَا تَسكُن نفسُك ، ويرتدُّ إليك ذهنُك ، وترَى الحلمَ وما يجلب من السلامة وطِيب الأحدوثةِ ، والله يعلم — وكفى به عليما — لقد أردتُ أن أفْدِيَكَ بنفسى فى مكاتباتى ، وكنتُ عند نفسى

---

(١) وجرته الدواء ، وأوجرته إياه : جعلته فى فيه ، والوجور كصبور : الدواء يوجر فى وسط الفم .

(٢) اللدود كصبور ، وكـكريم : ما يصب بالمسعط من الدواء فى أحد شقى الفم ، وقد لده إياه وألده .

فى عِداد المَوْتى ، وفى حَيِّز المَلْكَى ، فرأيتُ أن من الخيانة لك ، ومن اللؤم فى معاملتك ، أنْ أفديكَ بنفسٍ ميِّتة ، وأنْ أرِيَكَ أنى قد جعلتُ لك أنفسَ ذُخرٍ ، والذخرُ معدومٌ ، وأنا أقول كما قال أخو ثقيف « مودةُ الأخِ التالِدِ وإن أخْلَقَ ، خيرٌ من مودة الأخ الطارفِ وإن ظهرتْ مساعيه ، وراقَتْ جِدَّتُهُ » سلّمك الله ، وسلَّمَ عليك ، وكان لك ومعك » . (سرح العيون ص ١٧٦)

٦١ — كتابه إلى بعض إخوانه فى ذم الزمان

وكتب الجاحظ إلى بعض إخوانه فى ذم الزمان :

« بسم الله الرحمن الرحيم : حَفِظك اللهُ حِفظَ من وَفَّقَه للقناعة ، واستعمله بالطاعة ، كتبتُ إليك وحالى حالُ مَن كَثُفَت غُمُومُه ، وأشْكَلَتْ عليه أمورُهُ ، واشتبه عليه حالُ دهره ، ومَخْرَجُ أمره ، وقلَّ عنده مَن يَثِق بوفائه ، أو يَحمَدُ مَغَبَّةَ[1] إخائه ، لِاستحالةِ زماننا ، وفساد أيامنا ، ودَوْلةِ أنذالنا : وقِدْمًا كان مَن قدَّم الحياء على نفسه ، وحَكَّم الصدقَ فى قوله ، وآثَرَ الحقَّ فى أموره . ونَبَذَ المشتَبِهاتِ عليه من شئونه ، تمّتْ له السلامةُ ، وفاز بوفور حَظِّ العافية ، وحَمِد مَغَبَّةَ مكروهِ العاقبة ، فنظَرْنا إذ حَالَ عندنا حُكْمُهُ ، وتحوَّلت دولتُهُ ، فوجَدْنا الحياءَ متَّصلا بالحِرْمان ، والصدقَ آفةً على المال ، والقَصْدَ فى الطلب — بترك استعمال القِحَةِ[2] ، وإخلاقِ العِرْض من طريق التوكل — دليلًا على سَخافة الرأى ، إذ صارت الحُظْوة الباسِقةَ[3] ، والنعمة السابغة ، فى لؤم المشبِئة ، وسَناءُ[4] الرزق ، من جهة مُحاشاةِ الرَّخاء[5] ، وملابسَةِ مَعَرَّةِ العار .

(١) المغبة : العاقبة . (٢) القحة والوقاحة : قلة الحياء

(٣) الحظوة بالضم والكسر : المكانة ، والحظ من الرزق ، والباسقة : العالية ، ونعمة سابغة : أى تامة . (٤) السناء : الرفعة .

(٥) أى من جهة التباعد عن أسباب الرخاء ، وذلك بالقعود عن العمل . والإخلاد إلى الراحة والكسل .

ثم نظرْنا فى تعقُّب المتعقِّبِ لقولنا ، والكاشِرِ[1] لحجّتنا ، فألفنا له عَلَمًا واضحا ، وشاهدا قائمًا ، ومَنَاراً بيِّنا ، إذ وجدنا مَن فيه السُّفُولِيَّةُ الواضحةُ ، والمَثَالِبُ[2] الفاضحة ؛ والكذبُ المبرِّح ، والخُلْفُ المُصَرِّح ، والجهالةُ المُفْرِطة ، والرَّكاكةُ المستخفَّة ، وضعفُ اليقين والاستئبات ، وسرعة الغضب والجراءة قد استكمل سرُورُه واعتدلت أمورُه وفاز بالسَّهم الأغْلَب[3] والحظِّ الأوفر ، والقدر الرفيع ، والجَواز الطائع ، والأمرُ النافذ ، إن زَلَّ قيل حَكَم ، وإن أخطأ قيل أصاب ، وإن هَذَى فى كلامه وهو يقظانُ قيل رُؤْيا صادقةٌ ، مِن نَسَمةٍ[4] مبارَكة .

فهذه حجتنا والله على من زَعَم أن الجهل يَخفِضُ ، وأن النَّوك[5] يُرْدِى ، وأن الكذب يضرّ ، وأن الخُلْفَ يُزْرِى .

ثم نظرْنا فى الوفاء والأمانة والنُّبل والبلاغة وحُسْنِ المذهب وكمال المُروءةِ وسَعَة الصدر ، وقلة الغضب ، وكَرَم الطبيعة ، والفائق فى سَعة علمه ، والحاكِم على نفسه ، والغالِب لهواه ، فوجَدْنا فلان بن فلان، ثم وجدنا الزمان لم يُنْصِفْه من حقه ، ولا قام له بوظائفِ فَرْضه . ووجدنا فضائلَه القائمةَ له قاعدةً به ، فهذا دليلُ أن الطَّلاح[6] أَجْدَى من الصلاح ، وأن الفضلَ قد مضى زمانُه ، وعفَتْ آثارُه ، وصارت الدائرةُ عليه ، كما كانت الدائرة على ضِده ، ووجدنا العقل يَشْقَى به قرينُه ، كما أن الجهلَ والحُمْق يَحْظَى به خَدِينُه[7] ، ووجدنا الشِّعر ناطقا على الزمان ، ومُعْرِبا عن الأيام حيث يقول :

---

(١) الكاشر : من كشر له إذا تنمر له ، ورأى صوابه « والكاسر » بالسين .

(٢) المثالب : المعايب ، جمع مثلبة بفتح الميم مع فتح اللام وضمها ، والمبرح : الشديد ، والمصرح : المنجلى الخالص ، من صرحت الخمر تصريحا : أى انجلى زبدها فخلصت .

(٣) يقال : هضبة غلباء : أى عظيمة مشرفة ، وعزة غلباء كذلك على المثل .

(٤) النسمة : النفس . (٥) النوك بالضم والفتح : الحمق .

(٦) الطلاح : ضد الصلاح .

(٧) الخدين والخدن بالكسر : الصاحب .

تحامَقْ مع الحَمْقَى إذا ما لَقِيتَهم ... ولاقِهِمُ بالجهل ، فِعْلَ أخِي الجهل
وخَلِّطْ إذا لاقيتَ يوما مُخَلِّطاً ... يُخلِّط فى قولٍ صحيح وفى هَزْلِ
فإنى رأيت المرء يَشْقَى بعقله ... كما كان قبلَ اليوم يسعد بالعقلِ

فبقيتُ ـ أبقاك الله ـ مِثلَ من أصبح على أوفاز[1] ، ومن النُّقْلة على جهاز لا يَسُوغ له نعمةٌ ، ولا تَطعَم عينُه غَمْضةً ، فى أهاويلَ يُباكِره مكروهُها ، ويُراوِحُه عقابُها . فلو أن الدعاء أجيب ، والتضرُّعَ سُمِع ، لكانت العِدَةُ العظمَى[2] ، والرَّجفةُ الكُبْرَى ، فليت ـ أىْ أخِى ـ ما أستبطِئُه من النَّفْخة ، ومن فجْأة الصَّيحة ، قُضِى فحان ، وأُذِنَ به فكان ، فوالله ما عُذِّبَت أمة برَجْفةٍ ولا رِيحٍ ولا سَخْطة ، عذابَ عينِى برؤية المُنابِذَةِ للذِّمَّة ، والأخبار المُهْلِكة ، كأنَّ الزمان يوكَّل بعذابى ، أو يُنْصَب بأيامى ، فما عيشُ من لا يُسَرُّ بأخٍ شفيق ، ولا يصطبِحُ فى أول نهاره إلّا برؤية مَن يكرهه ، وبغُمَّةِ مَن يغُمُّه طلعتُه ، فقد طالت الغُمَّة ، وواظبت الكرْبة ، وادلهَمَّتِ[3] الظُّلمةُ ، وخَمَدَ السِّراجُ ، وتباطأ الانفراج » .

(العقد الفريد ١ : ١٩٥)

٦٢ـ كتاب الجاحظ فى استنجاز وعده

وكتب الجاحظ إلى رجل وعده :

« أما بعدُ ، فإن شجرةَ وَعْدِك قد أَوْرَقَتْ ، فليكن ثَمَرُها سالما من جَوائحِ المَطْل ، والسلام » . (العقد الفريد ١ : ٧٥ ، ٢ : ١٩٩)

---

(١) يقال : لقيته على أوفاز : أى على عجلة . أو على سفر قد أشخص ، واحدها وفز بالتحريك والسكون : هو العجلة .
(٢) يعنى الموت وموافاة الأجل المحتوم .
(٣) ادلهم الظلام : كثف واسود .

٦٣ — كتاب آخر

وكتب أيضاً :

« أما بعدُ ، فإن سحائب وعدك قد برَقَتْ ، فليكنْ وَبْلُها سالماً من صواعق المَطْل والاعتلال » . (العقد الفريد ٢ : ١٩٩)

٦٤ — كتاب آخر

وكتبَ أيضاً :

« أما بعدُ ، فقد رَسَفْنا[1] فى قيود مواعيدك ، وطال مُقَامنا فى سُجُون مَطْلِك ، فأطْلِقْنا ـ أبقاك الله ـ من ضِيقها وشديد غَمِّها بِنَعَمْ ، منك مُثْمِرَةً ، أولا مُرِيحةً » .

(العقد الفريد ٢ : ١٩٩)

٦٥ — كتاب له فى الاستمناح

وكتب :

« أما بعدُ ، فما أقبحَ الأُحْدُوثةَ من مُسْتَمْنِحٍ حَرَمْتَه ، وطالبِ حاجةٍ رَدَدْتَه ، ومثابرٍ حَجَبْتَه ، ومنبَسِطٍ إليك قَبَضْتَه ، ومُقْبِلٍ إليك بعنايته لَوَيْتَ عنه ، فتَثَبَّتْ فى ذلك « وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ ، هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ » .

(العقد الفريد ٢ : ١٩٩)

---

(١) رسف كنصر وضرب : مشى مشى المقيد .

٦٦ — كتابه إلى أبي حاتم السجستاني

وكتب إلى أبي حاتم السِّجِستاني[١] ـ وبلغه عنه أنه نال منه ـ :

« أما بعدُ فلو كففْتَ عنا من غَرْبك[٢] ، لكُنَّا أهلًا لذلك منك ، والسلام » .

فلم يعد أبو حاتم إلى ذكره بقبيح . (العقد الفريد ٢ : ١٩٩)

٦٧ — كتابه إلى قليب المغربي

وكتب إلى قُلَيْب المَغرِبي :

« واللهِ يا قُلَيْبُ لولا أن كَبِدى فى هواكَ مَقْرُوحةٌ ، ورُوحِي بك مَجْروحَةٌ ، لَساجَلْتُك[٣] هذه القطيعةَ ، ومادَدْتُك حَبْلَ المصارَمة، وأرجو أن الله تعالى يُديل[٤] صَبْرِى من جَفائك ، فيردَّكَ إلى مودَّتى ، وأنفُ القِلَى[٥] راغِمٌ ، فقد طال العهدُ بالاجتماع ، حتى كِدْنا نَتنا كَرُ عند الالتقاء » .

(سرح العيون ص ١٧٥)

٦٨ — فصول للجاحظ

« أما بعد ، فإن أحَقَّ مَن أسعفْتَه فى حاجته ، وأجَبْته إلى طَلِبته ، مَن توسَّلَ إليك بالأمل ، ونَزَع نحوك بالرجاء » .

* * *

(١) من شيوخ أبى العباس المبرد . (٢) الغرب : الحدة .
(٣) ساجله : باراه .
(٤) أداله الله من عدوه : نصره عليه .
(٥) القلى : البغض والكراهية . وراغم : ذليل .

« أما بعد ، فإن فلانا أسبابه متّصلة بنا ، يَلزَمنا ذِمامُه[1] ، وبُلوغُ موافقته من أياديك عندنا ، وأنت لنا موضعُ الثقة من مكافأته ، فأوْلِنا فيه ما يعرِفُ به موقِفَنا من حسن رأيك ، ويكون مكافأةً لحقّه علينا » .

* * *

« أما بعد ، فإن الماضى قَبلك الباقى لك ، والباقى بعدك المأجور فيك ، وإنما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهم بغيرِ حسابٍ » .

* * *

« أما بعد ، فإن فى الله العزاء من كل هالك ، والخَلَف من كل مُصاب ، وإنه من لم يتعزَّ بعَزاء الله تنقطع نفسه عن الدنيا حسرةً » .

* * *

« أما بعد ، فإن الصبر يَعقُبه الأجر ، والجَزَع يعقُبه الهَلَع ، فتمسَّكْ بحظِّك من الصبر ، تنَلْ به الذى تطلب ، وتُدْرِك به الذى تأمُل » .

* * *

« أما بعد ، فكفى بكتاب الله واعظا ، ولذوى الألباب زاجرا ، فعليك بالتلاوة ، تَنْجُ مما أوعد اللهُ أهل المعصية » . (العقد الفريد ٢ : ١٩٩ ، ٢٠٠)

* * *

وله فصول فى الاعتذار :

« أما بعد ، فنِعْم البَديلُ من الزَّلَّةِ الاعتذارُ ، وبئس العِوَضُ من التوبة الإصرارُ » .

* * *

---

(١) الذمام : الحظ والحرمة .

أما بعد ، فإن أحقَّ مَن عطفتَ عليه بحِلْمك ، من لم يَتَشفَّع إليك بغيرك .

* * *

أما بعد ، فإنه لاعِوَض من إخائك ، ولا خَلفَ من حسن رأيك ، وقد انتقمتَ منى فى زَلَّتى بجفائك ، فأطْلِقْ أسيرَ تشوّقى إلى لقائك .

* * *

أما بعد ، فإننى بمعرفتى بمبلغ حِلْمك ، وغايةِ عفوك ، ضَمِنْتُ لنفسى العفوَ عن زَلَّتها عندك .

* * *

أما بعد ، فإن من جَحَد إحسانك بسوء مقالته فيك ، مكذِّبٌ نفسَه بما يبدو للناس منه .

* * *

أما بعد ، فقد مَسَّنى من الألم مالم يَشْفِه غير مواصلتِك ، مع حَبْسِك الاعتذارَ عن هفوتك ، ولـكن ذنبك تغتفره مودتُك ، فامْنُنْ علينا بصِلَتك ، تـكن بَدَلًا من مساءتك ، وعِوضا من هفوتك .

* * *

أما بعد ، فلا خيرَ فيمن استغرقَتْ مَوْجِدتُه عليك قَدْرَك عنده ، ولم يَتَّسِع لهَنَات الإخوان .

* * *

أما بعد ، فإن أوْلَى الناس عندى بالصفح ، من أسلَمه إلى مِلـكك التماسُ رضاك ، من غير مقدرة منك عليه .

* * *

أما بعد ، فإن كنت ذَمَمْتنى على الإساءة فلِمَ رضِيتَ لنفسك المـكافأةَ » .

(العقد الفريد : ٢ : ١٩٩)

٦٩ ــ رسالة الجاحظ فى بنى أمية

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أطال الله بقاءك ، وأتمَّ نعمته عليك ، وكرامَتَه لك »

اعلم ـ أرشدك الله أمْرك ـ أن هذه الأمة قد صارت بعد إسلامها ، والخروج من جاهليَّتها ، إلى طَبقات مُتفاوِتة ، ومَنازلَ مختلِفةٍ : فالطبقة الأولى: عَصْرُ النبى صلى الله عليه وسلم ، وأبى بكر ، وعمر رضى الله عنهما، وستُّ سِنين من خلافة عثمان رضى الله عنه ، كانوا على التوحيد الصحيح ، والإخلاصِ المحْضِ ، مع الأُلْفة واجتماع الكلمة على الكتاب والسُّنَّة ، وليس هناك عملٌ قبيح ، ولا بِدْعةٌ فاحِشة ، ولا نَزْع يدٍ من طاعة ، ولا حسد ولا غِلٌّ ولا تأوُّلٌ ، حتى كان الذى كان : مِن قَتْلِ عثمانَ رضى الله عنه ، وما انتُهِك منه ، ومن خَبْطِهم إياه بالسلاح ، وبَعْج[1] بطنه بالحراب ، وفَرْىِ أوْدَاجِهِ بالمَشَاقِصِ[2] ، وشَدْخِ هامَتِه[3] بالعُمُد ، مع كفِّه عن البسْطِ ، ونهيه عن الامتناع، مع تعريفه لهم قبل ذلك، مِنْ كم وَجْهٍ يجوزُ قتلُ مَنْ[4] شهِد الشهادةَ ، وصَلَّى القِبلةَ ، وأكلَ الذَّبيحةَ ، ومع ضرْبِ نسائه بحَضْرته ، وإقحامِ الرجالِ على حُرْمته ، مع اتِّقاء نائلةَ بنت الفَرافِصَةِ عنه بيدها ، حتى أطنُّوا[5] إصبعين من أصابعها ، وقد كشفَتْ عن قناعها ، ورفعَتْ عن ذيلها ، ليكون ذلك رَادِعاً لهم ، وكاسِراً من غَرْبِهم[6] ، مع وَطْئِهم فى أضلاعه بعد موته ، وإلقائهم على المزْبلة جسَدَه

---

(١) بعجه كمنعه : شقه .

(٢) فراه كرماه : شقه أيضا ، والأوداج جمع ودج بالتحريك . وهو عرق فى العنق . والمشاقص جمع مشقص كمنبر : وهو النصل الطويل ، أو سهم فيه ذلك يرمى به الوحش .

(٣) الهامة : الرأس ، وشدخه كمنعه : كسره .

(٤) أى المسلم ، أخذه من قوله صلى الله عليه وسلم فى كتابه إلى المنذر بن ساوى « فإن من صلى صلاتنا ، واستقبل قبلتنا ، وأكل ذبيحتنا ، فذلك المسلم » ــ انظر الجزء الأول ص ٤٥ وكان فيما قاله عثمان فى أثناء حصاره : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يحل دم امرئ مسلم إلا فى إحدى ثلاث : رجل كفر بعد إسلامه فيقتل ، أو رجل زنى بعد إحصانه فيرجم : أو رجل قتل نفساً بغير نفس » ففيم أقتل ؟ ــ انظر تاريخ الطبرى ٥ : ١٢٢ .

(٥) أطنوا : أى قطعوا .   (٦) من غربهم : أى حدتهم .

مجرّدا بعد سَحْبه ! ؟ وهي الخَرَزَة[1] التي جعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم كُفْئا لبناته[2] وأيَامَاه وعقائِله ، بعد السبّ والتعطيش والحَصْر الشديد ، والمنع من القوت ، مع احتجاجه عليهم وإفحامِهِ لهم ، ومع اجتماعهم على أن دم الفاسق حرامٌ كدَمِ المؤمن ، إلا من ارتدَّ بعد إسلام ، أو زنى بعد إحصان[3] أو قتل مؤمنا على عَمْد ، أو رجلٍ عَدَا على الناس بسيفه ، فكان فى امتناعهم منه عَطَبُه[4] ، ومع اجتماعهم على ألا يُقتَل من هذه الأمة مُوَلٍّ ، ولا يُجْهَز منها على جريح ، ثم مع ذلك كله دَمَروا[5] عليه وعلى أزواجه وحُرَمه ، وهو جالس فى مِحْرابه ، ومُصْحَفه يَلُوح فى حجره ، لن يُرَى أن موحِّدا يُقْدِم على قتل من كان فى مثل صفته وحاله .

لاجَرَم[6] لقد احتَلَبوا به دَماً لاتَطير رَغْوته ، ولا تَسْكُن فَوَرَته ، ولا يموت ثأْره ، ولا يكِلُّ طالبُه ، وكيف يضيِّع الله دمَ وَليِّه ، والمنتقِم له ! ؟ وما سمِعْنا بدمٍ بعد دم يحيى[7] بن زكريا عليهما السلام غلا غَليانَه ، وقُتل سافِحُه[8] وأُدرك بطائِلَته ، وبلغ كل محبته ، كدَمِه ، رحمة الله عليه .

ولقد كان لهم فى أخْذه وفى إقامته للناس ، والاقتصاصِ منه ، وفى بيع ما ظهر من رِباعِه[9] وَحدائقه وسائر أمواله ، وفى حَبْسه بما بَقِيَ عليه ، وفى طَمْره[10] حتى لا يُحَسَّ بذكره ، ما يُغنيهم عن قتله إن كان قد رَكِب كلَّ ماقذَفوه به ،

---

(١) الخرزة : الجوهرة ، وفى الأصل « الجزرة » وهو تحريف .

(٢) تزوج عثمان رقية وأم كلثوم ابنتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والأيامى جمع أيم ، وامرأة أيم : لازوج لها بكرا كانت أو ثيبا ، والعقائل جمع عقيلة ، وعقيلة كل شىء أكرمه .

(٣) أحصن الرجل : تزوج . (٤) أى هلاكه .

(٥) الدمر : الهجوم والتهدد ، وفعله كنصر .

(٦) لاجرم : كلمة كانت فى الأصل بمنزلة لابد، ولا محالة ، جرت على ذلك وكثرت حتى تحولت إلى معنى القسم ، وصارت بمنزلة حقا ، فلذلك يجاب عنها باللام كما يجاب بها عن القسم .

(٧) مات يحيى مقتولا — انظر تفصيل الخبر فى ذلك فى تاريخ الطبرى ٢ : ١٦ .

(٨) سفح دمه كقطعه : سفكه ، والطائلة : الثأر .

(٩) الرباع جمع ربع : وهو المنزل . (١٠) الطمر : الخبء .

وادَّعَوه عليه ، وهذا كله بحضرة جِلَّة[1] المهاجرين والسَّلَف المقدَّمين ، والأنصار والتابعين .

ولكن الناس كانوا على طبقات مختلفة ، ومَرَاتِبَ متباينة ، من قاتِلٍ ، ومن شادٍّ على عَضُده ، ومن خاذِلٍ عن نُصْرته ، والعاجزُ ناصِرٌ بإرادته ، ومُطيع بحُسن نيَّته ، وإنما الشك منَّا فيه وفى خاذِله ، ومَن أراد عَزْله والاستبدالَ به ، فأمَّا قاتِلُه والُمعين على دَمِه والُمريد لذلك منهُ ، فضُلَّال ، لاشكَّ فيهم ، ومُرَّاقٌ ، لا امتراء[2] فى حكمهم ، على أن هذا لم يَعْدُ منهم الفجورَ : إما على سوء تأويل ، وإما على تعمُّد الشَّقاء . ثم ما زالت الفِتَن متصلةً ، والحروب مترادفةً ، كحرب الجمل ، وكوقائع صِفِّين ، وكيوم النَّهْروان ، وقبل ذلك يوم الزَّابُوقة[3] ، وفيه أُسِر ابن حُنَيْفٍ[4] ، وقُتِل حَكِيم بن جَبَلة ، إلى أن قَتَلَ أشقاها[5] علىَّ بن طالب ، رضوان الله عليه ، فأسعده الله بالشهادة ، وأوجب لقاتله النارَ واللَّعنةَ ، إلى أن كان من اعتزال الحسن عليه السلام الحروبَ ، وتخليتِه الأمورَ ، عند انتثار أصحابه ، وما رأى من الخلَل فى عسكره ، وما عَرَف من اختلافهم على أبيه ، وكثرة تلوُّنهم عليه ، فعندها استوى معاوية على الملك ، واستبد على بقية الشُّورى ، وعلى جماعة المسلمين من الأنصار والمهاجرين ، فى العام الذى سَمَّوه عامَ[6] الجماعة ، وما كان عامَ جماعة ، بل كان عامَ فُرقة وقَهْر وجَبْرِيَّة وغَلَبة ، والعامَ الذى تحولت فيه الإمامةُ ملكا كِسْرَويّا ، والخلافة غَصْبا قَيْصَريا ، ولم يعدُ ذلك أجمع الضلالَ والفسقَ ، ثم مازالت معاصيه من جنس ما حَكَيْنا وعلى منازل ما رتَّبْنا ، حتى رد قضيَّة رسولِ الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) أى من عظمائهم وسادتهم وذوى الأخطار فيهم .

(٢) أى لاشك .

(٣) الزابوقة : موضع قريب من البصرة ، كانت فيه وقعة الجمل أول النهار .

(٤) أى عثمان بن حنيف ، وقد تقدم خبر ذلك فى الجزء الأول ص ٣٢٢ .

(٥) هو عبد الرحمن بن ملجم المرادى لعنه الله .

(٦) هو عام ٤١ هـ إذ اجتمع الناس على معاوية وبايعه أهل الأمصار كلها .

ردا مكشوفا ، وجَحَدَ حُكْمَهُ جَحْدا ظاهرا ، فى وَلَدِ الفِراش وما يجب للعاهِر[١] ، مع اجتماع الأمة أن سُمَيَّةَ لم تكن لأبى سُفيان فِراشا ، وأنه إنما كان بها عاهِرا ، فخرج بذلك من حكم الفُجّار إلى حكم الكفار ، أوليس قتلُ حُجْر[٢] بن عَدِىّ ، وإطعامُ عمرو بن العاص خراجَ مصر ، وبيعةُ يزيدَ الخليع ، والاستئثارُ بالفىء ، واختيارُ الولاة على الهَوَى ، وتعطيلُ الحدود بالشفاعة والقَرابة ، من جنس جَحد الأحكام المنصوصة ، والشرائع المشهورة ، والسنن المنصوبة ! ؟ وسواء فى باب ما يستحق من الكفار ، جَحْدُ الكتاب ، وردُّ السنة إذ كانت السنةُ فى شُهرة الكتاب وظهورِه ، إلا أن أحدهما أعظم ، وعقاب الآخرة عليه أشدّ ، فهذه أول كَفْرة كانت من الأمة ، ثم لم تكن إلا فيمن يدَّعِى إمامتَها والخلافة عليها ! على أن كثيرا من أهل ذلك العصر قد كفروا بترك إكفاره ، وقد أرْبَت[٣] عليهم نابِتةُ عصرنا ، ومُبْتَدِعةُ دهرِنا ، فقالت : « لا تسبُّوه فإن له صحبةً ! وسَبُّ معاويه بِدْعة ، ومن يُبْغِضه فقد خالف السُّنَّة » فزعمَتْ أن من السُّنة تركَ البراءة ممن جَحَد السنةَ ! ثم الذى كان من يزيدَ ابنِه ، ومن عماله وأهل نصرته ، ثم غزوُ مكّة ، ورَمْىُ الكعبة[٤] ، واستباحةُ المدينة[٥] ، وقتلُ الحسين[٦] عليه السلام فى أكثر أهل بيته ، مصابيح الظلام ، وأوتادِ الإسلام ، بعد الذى أعطَى مِن نفسِه ، من تفريق أتباعه ، والرجوع إلى داره وحَرَمه ، أو الذهاب فى الأرض حتى لا يُحَسّ به ، أو المُقام حيثُ أُمِرَ به ، فأبَوْا إلا قَتلَه ، والنزولَ على

---

(١) يعنى استلحاقه زيادا وقد تقدم خبر ذلك فى الجزء الثانى ص ٣٤ .

(٢) انظر الجزء الثانى ص ٤٥ . (٣) أربت : زادت . والنابتة : الناشئة .

(٤) يعنى غزو مكة فى عهد يزيد . سار إليها حصين بن نمير السكونى فى جيش من أهل الشام بعد فراغهم من وقعة الحرة بالمدينة لقتال عبد الله بن الزبير سنة ٦٤ ، وقد قذفوا البيت الحرام بالمجانيق وحرقوه بالنار ، وأخذوا يرتجزون ويقولون .

خطارة مثل الفنيق المزبد ترمى بها أعواد هذا المسجد

(والفنيق : الفحل المكرم لا يؤذى ولا يركب ، لكرامته على أهله) ـ انظر تاريخ الطبرى ٧ : ١٤ ـ .

(٥) يشير إلى وقعة الحرة . انظر الجزء الثانى ص ٨٩ . (٦) انظر الجزء الثانى ص ٨٤ .

حكمهم ، وسواء قتلَ نفسَه بيده ، أو أسلمها إلى عدوه ، وخُيِّر فيها من لا يَبْرُد غليلُه إلا بشُرْب دمه ، فأَحسبوا قَتْلَه ليس بكفر ، وإباحَة المدينةَ وهَتك الحُرْمة ليس بحُجَّة، كيف تقولون فى رمى الـكعبة ، وهَدْمِ البيت الحرام ، وقِبْلة المسلمين ؟ فإن قلتم ليس ذلك أرادوا ، بل إنما أرادوا المتحرِّزَ به[1] ، والمتحصِّنَ بحيطانه ، أفما كان فى حق البيت وحَرِيمه أن يحصُروه فيه ، إلى أن يُعْطِيَ بيده ؟ وأى شىء بَقِيَ من رجل قد أُخِذَت عليه الأرض إلا موضعَ قدمه ؟ واحسبوا ما رَوَوا عليه من الأشعار ، التى قولُها شِرْك ، والتمثُّل بها كُفْر ، شيئا مصنوعا ، كيف تصنع بنَقْر القضيب بين ثَنِيَّتَى الحسين[2] عليه السلام ، وحَمْل بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم حواسِرَ على الأقتاب العارية[3] ، والإبل الصعاب ، والـكشف عن عورة على بن الحسين عند الشك فى بلوغه: على أنهم إن وجدوه وقد أنبت[4] قتلوه ، وإن لم يكن أَنْبَتَ حملوه ، كما يصنع

---

(١) هو عبد الله بن الزبير .

(٢) وذلك أنه لما وجه عبيد الله بن زياد آل الحسين عليه السلام إلى يزيد بدمشق ، ومثلوا بين يديه ، أمر برأس الحسين فأبرز فى طست ، فجعل ينكت ثناياه بقضيب فى يده ، ويقول :

* ليت أشياخى ببدر شهدوا . . * الأبيات .

(٣) حواسر . جمع حاسر ، و كل مكشوفة الرأس والذراعين حاسر . الأقتاب : جمع قتب بالتحريك ، وهو الإكاف الصغير على قدر سنام البعير .

(٤) أنبت الغلام : نبتت عانته ، جاء فى تاريخ الطبرى ٦ : ٢٦٣ .

« أنه لما عرض على بن الحسين على عبيد الله بن زياد ، قال له : ما اسمك ؟ قال : أنا على بن الحسين قال : أو لم يقتل الله على بن الحسين ؟ فسكت ، فقال له ابن زياد : مالك لا تتكلم ؟ قال : قد كان لى أخ يقال له أيضا على فقتله الناس ، قال : إن الله قد قتله ، فسكت على ؛ فقال له : مالك لاتتكلم؟ قال: « اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا » « وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ » قال : أنت والله منهم ويحك ! انظروا هل أدرك ؟ والله إنى لأحسبه رجلا ، فكشف عنه مرى بن معاذ الأحمرى ، فقال : نعم قد أدرك ، فقال : اقتله ، فقال على بن الحسين : من توكل بهؤلاء النسوة ؟ وتعلقت به زينب عمته ، فقالت : يابن زياد . حسبك منا ، أما رويت من دمائنا ؟ وهل أبقيت منا أحدا ؟ فاعتنقته فقالت . أسألك بالله إن كنت مؤمنا إن قتلته لما قتلتنى معه ، وناداه على فقال : يا بن زياد ، إن كانت بينك وبينهم قرابة فابعث معهن رجلا تقيا يصحبهن بصحبة الإسلام ، فنظر إليها ساعة، ثم نظر إلى القوم ، فقال : عجبا للرحم ! والله إنى لأظنها ودت لو أنى قتلته أنى قتلتها معه ، دعوا الغلام ، انطلق مع نسائك » .

أمير جيش المسلمين بذَرَارِيّ المشركين، وكيف تقول فى قول عُبَيد الله بن زياد لإخوته وخاصّته: دعُونى أقْتُلْه، فإنه بقيَّة هذا النَّسْل، فأحْسِمَ به هذا القَرنَ، وأُمِيتَ به هذا الداء، وأقطع به هذه المادة.

خبِّرونا! عَلامَ تدلُّ هذه القسوة، وهذه الغِلْظَة، بعد أن شَفَوا أنفسَهم بقتلهم، ونالوا ما أحبُّوا فيهم؟ أتدلُّ على نَصْب[1] وسوء رأيٍ وحقد وبغضاء ونفاقٍ، وعلى يقين مدخولٍ، وإيمان مخروج، أم تدلّ على الإخلاص، وعلى حُبِّ النبى صلى الله عليه وسلم، والحِفظِ له، وعلى براءةِ السَّاحةِ وصحَّة السَّريرة؟ فإن كان ما وصَفْنا لايَعدُو الفِسْقَ والضلال — وذلك أدْنَى منازِله — فالفاسق ملعون، ومَن نَهَى عن [سَبّ[2]] الملعون فلعون.

وزعمَتْ نابِتةُ عصرنا ومبتدِعةُ دهرنا: أن سَبَّ وُلاةِ السُّوء فِتنة، ولَعْنَ الجَوَرة بِدْعة، وإن كانوا يأخذون السَّمِيَّ بالسَّمِيِّ، والوَلىَّ بالولىّ[3] والقريبَ بالقريب، وأخافوا الأولياء، وأمَّنوا الأعداء، وحَكَموا بالشفاعة والهوَى، وإظهارِ القُدْرة والتهاون بالأمة، والقَمْع للرعية، وأنهم فى غير مداراة ولا تقيَّة. وإنْ عَدَا ذلك إلى الكُفْر، وجاوز الضلال إلى الجَحْد، فذاك أضلُّ ممن كفَّ عن شتمهم والبراءةِ منهم، على أنه ليس مَن استحق اسمَ الكفر بالقتل، كمَن استحقه بردّ السنة وهدم الكعبة، وليس من استحق اسم الكفر بذلك، كمن شبَّه الله بخلقه، وليس مَن استحق الكفر بالتشبيه كمن استحقه بالتجوير[4] والنابِتةُ فى هذا الوجه أكفرُ مِنْ يزيدَ وأبيه،

---

(١) نصب له: عاداه، وأهل النصب: المتدينون ببغضة على رضى الله عنه، لأنهم نصبوا له.

(٢) فى الأصل «نهى» محل هذه الكلمة، والسياق يقتضى ما ذكرته.

(٣) يعرض بزياد ابن أبيه إذ يقول فى خطبته البتراء: «وإنى أقسم بالله لآخذنّ الولى بالمولى...» انظر جمهرة خطب العرب ٢: ٢٧٠ وبالحجاج إذ يقول فى كتابه إلى المهلب: «فإنى أرى أن آخذ الولى بالولى، والسمى بالسمى» انظر الجزء الثانى ص ١٤٥ من جمهرة رسائل العرب.

(٤) جوره: نسبه إلى التجوير، وفيه تعريض بغير المعتزلة، وكان المعتزلة يسمون أنفسهم أهل العدل لقولهم بعدل الله وحكمته، قال الشهرستانى فى الملل والنحل ج ١: ص ٥٢: «واتفق المعتزلة على أن العبد قادر خالق لأفعاله خيرها وشرها، مستحق على مايفعله ثوابا وعقابا فى الدار الآخرة، والرب=

وابن زياد وأبيه ، ولو ثبت أيضاً على يزيد أنه تمثّل بقول ابن الزِّبَعْرَى[1] :

لَيتَ أشياخِي ببَدْرٍ شَهِدوا جَزَعَ الخزرجِ من وَقْعِ الأَسَلْ[2]

لَاستطارُوا واستهَلُّوا فَرَحًا ثم قالوا يا يزيدُ لا تَشَلْ[3]

قد قتلْنا القَرْمَ من ساداتِهم وعدَلْناه ببـــدرٍ فاعتدلْ[4]

تعالى منزه أن يضاف إليه شر أو ظلم ، وفعل هو كفر ومعصية ، لأنه لو خلق الظلم كان ظالما ، كما لو خلق العدل كان عادلا ، واتفقوا على أن الحكيم لا يفعل إلا الصلاح والخير ، ويجب من حيث الحكمة رعاية مصالح العباد ، وسموا هذا النمط عدلا » اهـ. وجاء أيضا فى مروج الذهب ج ٢ : ص ١٩٠ فى تفسير الأصول الخمسة التى يذهب إليها المعتزلة : « وأما القول بالعدل — وهو الأصل الثانى — فهو أن الله لايحب الفساد ، ولا يخلق أفعال العباد ، بل يفعلون ما أمروا به ونهوا عنه ، بالقدرة التى جعلها الله لهم، وركبها فيهم .... الخ » ومن ذلك ترى أنهم ينزهون الله تعالى عن أن يقدر على العبد المعصية ثم يعذبه عليها ، بل العبد هو الذى يفعل أفعاله جميعا بإرادته وقدرته ، ويستحق عليها الثواب أو العقاب ، وهذا عدل منه تعالى .

ولا يغيب عنك أن الجاحظ كان من شيوخ المعتزلة وكبرائهم ، وهـــو تلميذ أبى إسحق إبراهيم ابن سيار النظام ، المعتزلى المشهور ، وقد نصر الجاحظ مذهب المعتزلة بفصاحته وكتبه البليغة حتى صار لسان المعتزلة فى زمانه ، وكان رئيس فرقة منهم نسبت إليه ، فسميت « الجاحظية » — انظر الملل والنحل ١ : ٨٠ وسرح العيون، ص ١٧٠ ووفيات الأعيان .

(١) هو عبد الله بن الزبعرى ؛ أحد شعراء قريش المعدودين ، وكان يهجو المسلمين ، ويحرض عليهم كفار قريش فى شعره ، ثم أسلم فقبل النبى إسلامه وأمنه يوم الفتح — انظر ترجمته فى الأغانى ١٤ : ١١ — وفى رواية أن يزيد تمثل بقول ابن الزبعرى حينما جىء إليه برأس الحسين وآله كما قدمنا — انظر بلاغات النساء ص ٢٥ — وفى رواية أخرى أنه حين بعث إليه مسلم بن عقبة المرى برءوس أهل المدينة (بعـد انتصاره عليهم فى وقعة الحرة سنة ٦٣) وألقيت بين يديه ، جعل يتمثل بقول ابن الزبعرى المذكور ، فقال له رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : ارتددت عن الإسلام يا أمير المؤمنين . قال : بلى نستغفر الله ، قال : والله لا ساكنتك أرضا أبدا وخرج عنه — انظر العقد الفريد ٢ : ٢٠٧ — .

(٢) هذا البيت من قصيدة قالها ابن الزبعرى يوم أحد (وهو حينئذ مشرك) انظرها فى سيرة ابن هشام ٢ : ١١٢ ، وشرح ابن أبى الحديد م ٣ ص ٣٨٢ — وكانت الغلبة يوم بدر للمسلمين . ويوم أحد للمشركين ، والأسل : الرماح والنبل ، والخزرج : قبيلة من الأنصار .

(٣) كل من رفع صوته فقد أهل إهلالا ، واستهل استهلالا ، وشلت يده تشل . كتعب يتعب وأشلت وشلت مبنيين للمجهول : يبست ، وهى جملة دعائية ، وفى الأصل « لا تسل » وهو تصحيف — وهذا البيت من قول يزيد — .

(٤) فى سيرة ابن هشام :

فقتلنا الضعف من أشرافهم وعدلنا ميل بدر فاعتدل

وفى ابن أبى الحديد : « فقتلنا النصف ... » وفى بلاغات النساء : « فجزيناهم ببدر مثلها » .

كان تجويرُ النابتيِّ لربه، وتشبيهُه بخلقه، أعظمَ من ذلك وأفظعَ، على أنهم مجمعون على أنه: ملعونٌ من قتل مؤمنا، متعمّدا أو متأوّلا، فإذا كان القاتل سلطانا جائرا، أو أميرا عاصيا، لم يستحلّوا سبّه ولا خلعَه ولا نفيَه ولا عيبَه، وإن أخافَ الصلحاء، وقتلَ الفقهاء، وأجاع الفقيرَ، وظلَمَ الضعيفَ، وعطّل الحدود والثغورَ، وشرب الخمورَ، وأظهرَ الفجورَ! ثم ما زال الناس يتسكّعون مرةً، ويداهنونهم مرةً، ويقاربونهم مرة، ويشاركونهم مرة، إلاّ بقيّةً ممّن عصمه الله تعالى ذكرُه، حتى قام عبدُ الملك بن مروانَ، وابنه الوليد، وعاملُهما الحجاج بن يوسف، ومولاه يزيد بن أبي مسلم، فأعادوا على البيت بالهدم[١]، وعلى حرَم المدينة بالغزو[٢]، فهدَموا الكعبة، واستباحوا الحُرْمة، وحوّلوا قِبلَة واسِط[٣]، وأخّروا صلاة الجمعة إلى مُغَيْرِبان[٤] الشمس، فإن قال رجل لأحدهم: اتق الله فقد أخّرتَ الصلاة عن وقتها، قتَلَه على هذا القول جِهارا غيرَ خَتْلٍ[٥]، وعَلانيةً غيرَ سِرٍّ، ولا يُعلَم

(١) يعنى ما كان من مقاتلة الحجاج عبد الله بن الزبير بمكة وحصره إياه ورميه الكعبة بالمنجنيق في عهد عبد الملك بن مروان سنة ٧٣ — انظر تاريخ الطبرى ٧ : ٢٠٢ (والمنجنيق بفتح الميم وتكسر: آلة ترمى بها الحجارة).

(٢) بعث عبد الملك بن مروان سنة ٦٥ حبيش بن دلجة القيسى فى سبعة آلاف إلى المدينة فدخلها ثم خرج إلى الربذة (قرب المدينة) وقدم عليه مدد من الشام، وكتب عبد الله بن الزبير إلى عياش ابن سهل الساعدى بالمدينة أن يسير إلى حبيش فسار إليه، وقد وافاه مدد من البصرة، ونشب القتال بين الفريقين، فقتل حبيش ومن معه — انظر العقد الفريد ٢ : ٢٦٣، وتاريخ الطبرى ٧ : ٨٤.

(٣) انظر ص ٩ من الجزء الثالث.

(٤) أى إلى غروبها، نقل ابن أبى الحديد فى شرحه م ٣ : ص ٤٧٠ : «كان بنو أمية يؤخرون صلاة الجمعة تشاغلا عنها بالخطبة، ويطيلون فيها إلى أن تجاوز وقت العصر، وتكاد الشمس تصفر، فعل ذلك الوليد بن عبد الملك، ويزيد أخوه، والحجاج عاملهم، ووكل بهم الحجاج المسالح معه (والمسالح جمع مسلحة بالفتح: وهى القوم ذوو سلاح) والسيوف على رءوسهم، فلا يستطيعون أن يصلوا الجمعة فى وقتها، وقال الحسن البصرى: واعجبا من أخيفش أعيمش، جاءنا ففتننا عن ديننا، وصعد على منبرنا، فيخطب والناس يلتفتون إلى الشمس، فيقول: ما بالكم تلتفتون إلى الشمس! إنا والله ما نصلى للشمس، إنما نصلى لرب الشمس، أفلا تقولون: يا عدو الله، إن لله حقا بالليل لا يقبله بالنهار، وحقا بالنهار لا يقبله بالليل؟ ثم يقول الحسن: وكيف يقولون ذلك، وعلى رأس كل واحد منهم علج قائم بالسيف» اقرأ هناك فصلا طويلا فى مقابح بنى أمية.

(٥) الختل: الخداع.

القتلُ على ذلك إلا أقبحَ من إنكاره، فكيف يكفّر العبد بشىء ولا يكفر بأعظم منه ؟

وقد كان بعض الصالحين ربما وَعَظ الجبابرةَ، وخوّفهم العواقبَ، وأراهم أن فى الناس بقيّة ينهَوْن عن الفساد فى الأرض، حتى قام عبدُ الملك بن مرْوَان، والحجاجُ ابن يوسف، فزَجَرا عن ذلك وعاقبَا عليه، وقَتَلا فيه، فصاروا لا يَتناهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ، فاحسِبْ تحويلَ القبلةِ كان غلطاً، وهدْمَ البيتِ كان تأويلا، واحسِبْ ما رَوَوا من كل وجه أنهم كانوا يزعمون أن خليفة المرء فى أهله أرفعُ عنده من رسوله إليهم[1]، باطلا ومسموعا مُوَلَّدا، واحسِب وَسْمَ أيدى المسلمين[2]، ونَقْشَ أيدى المسلمات، وردَّهم بعد الهجرة إلى قراهم، وقَتْلَ الفقهاء، وسَبَّ أئمةِ الهدى، والنَّصْبَ لعترة رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا يكون كفرا، كيف تقول فى جَمْع ثلاثِ صلوات فيهن الجُمعة، ولا يُصَلُّون أولاهنَّ حتى تصير الشمس على أعالى الجُدْرَانِ كالمُلَاءَ المُعَصْفَرِ[3]، فإن نطق مُسْلِم خُبِط بالسيف، وأخذته العُمُدُ، وشُكّ بالرماح، وإن قال قائل: اتق الله، أخَذَتْه العِزّةُ بالإثم، ثم لم يرضَ إلا بنَثْر دِماغِه على صدره، وبِصَلْبه حيث تراه عِيالُه.

---

(١) عقد صاحب العقد الفريد ١٩ فى أخبار الحجاج فصلا فيمن زعم أنه كان كافرا (ج ٣ : ص ١٩) جاء فيه أنه قال فى كلام له: «ويحكم! أخليفة أحدكم فى أهله أكرم عليه، أم رسوله إليهم؟» وجاء فى شرح ابن أبى الحديد م ٣ : ص ٤٧٠ «وخطب الحجاج بالكوفة فذكر الذين يزورون قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله بالمدينة فقال. تبالهم، إنما يطوفون بأعواد ورمة بالية، هلا طافوا بقصر أمير المؤمنين عبد الملك؟ ألا يعلمون أن خليفة المرء خير من رسوله!»

(٢) وجاء فى شرح ابن أبى الحديد أيضا: «وكانت بنو أمية تختم فى أعناق المسلمين كما توسم الخيل علامة لاستعبادهم، ونقشوا أكف المسلمين علامة لاسترقاقهم، كما يصنع بالعلوج من الروم والحبشة» وجاء فى تاريخ الطبرى ٧ : ٢٠٦ «وفى سنة ٧٤ استعمل عبد الملك الحجاج على المدينة، فكان يتعبث بأهلها ويتعنتهم، واستخف فيها بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فختم فى أعناقهم، وعن إسحق بن يزيد أنه رأى أنس بن مالك مختوما فى عنقه، يريد أن يذله بذلك، ودعا الحجاج سهل بن سعد، فقال: مامنعك أن تنصر أمير المؤمنين عثمان بن عفان؟ قال: قد فعلت، قال: كذبت، ثم أمر به فختم فى عنقه برصاص».

(٣) أى المصبوغ بالعصفر كبرقم وهو صبغ أصفر.

ومما يدل على أن القوم لم يكونوا إلّا فى طريق التمرّد على الله عز وجل، والاستخفافِ بالدين، والتهاونِ بالمسلمين، والابتذالِ لأهل الحق، أَكْلُ أمرائهم الطعامَ، وشُرْبُهُم الشرابَ، على منابرهم أيام جُمَعهم[١] وجوعهم، فَعَل ذلك حُبَيْشُ ابن دُلْجَة[٢]، وطارق[٣] مولى عثمان، والحجاج بن يوسف وغيرهم، وذلك إن كان كفرا كلّه فلم يَبْلُغ كُفْرَ نابتة عصرنا، وروافض دهرنا، لأن جنس كفر هؤلاء غير كفر أولئك. كان اختلاف الناس فى القَدَر على أن طائفة تقول: كلُّ شىء بقضاءٍ وقَدَر، وتقول طائفة أخرى: كل شىء بقضاءٍ وقَدَر إلا المعاصىَ، ولم يكن أحد يقول: إن الله يعذب الأبناء ليَغِيظَ الآباء، وإن الكفر والإيمان مخلوقان فى الإنسان مثل العَمَى والبَصَر، وكانت طائفة منهم تقول: إن الله يرَى، لا تَزيد على ذلك، فإن خافت أن يُظَنّ بها التشبيهُ، قالت: يرى بلا كَيْفٍ، تقزُّزا من التجسيم والتصوير، حتى نَبَتَتْ هذه النابتةُ، وتكلمت هذه الرافضةُ، فقالت جسما، وجعلت له صُورةً وحدًّا، وأَكْفَرَتْ من قال بالرؤية على غير التجسيم والتصوير.

ثم زَعَمَ أكثرهم أن كلام الله حَسَنٌ وبيِّن وحجة وبرهان، وأن التوراة غير الزَّبور، والزَّبور غير الإنجيل، والإنجيل غير القرآن، والبقرة غير آل عمران، وأن الله تولى تأليفه، وجعله بُرهانَه على صدق رسوله، وأنه لو شاء أن يَزيد فيه زاد، ولو شاء أن يَنقُصَ منه نقَصَ، ولو شاء أن يبدِّلَه بَدَّله، ولو شاء أن يَنْسَخَه كله بغيره نَسَخَه، وأنه نزله تنزيلا. وأنه فَصَّله تفصيلا، وأنه بالله كان دون غيره، ولا يقدِر

---

(١) وجاء فى شرح ابن أبى الحديد أيضاً: «وكانت خطباء بنى أمية تأكل وتشرب على المنبر يوم الجمعة، لإطالتهم فى الخطبة، وكان المسلمون تحت منبر الخطبة يأكلون ويشربون».

(٢) فى الأصل «حسن» وهو تحريف، وقد قدمنا لك أن عبد الملك بعثه فى جيش إلى المدينة، فلما دخلها جلس على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدعا بخبز ولحم فأكل، ثم دعا بماء فتوضأ على المنبر — انظر العقد الفريد ٢ : ٢٦٣.

(٣) هو طارق بن عمرو، مولى عثمان، ولاه عبد الملك المدينة سنة ٧٣ هـ، فوليها خمسة أشهر، ثم عزله عنها واستعمل عليها الحجاج سنة ٧٤ هـ — انظر تاريخ الطبرى ٧ : ٢٠٥، ٢٠٦.

عليه إلاّ هو ، غيرَ أن الله مع ذلك كلّه لم يخلُقه ، فأعطَوا جميع صفات الخلق ، ومَنَعُوا اسمَ الخلق .

والعجبُ أن الخَلْق عند العرب إنما هو التقدير نفسهُ ، فلذا قالوا : خلق كذا وكذا ، ولذلك قال : « أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ » وقال : « وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً » وقال : « وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ » فقالوا : صَنَعه وجَعَله وقَدَّره ، وأنزله وفَصَّله وأحْدَثه ، ومَنَعوا « خَلَقَه » وليس تأويلُ « خَلَقه » أكثرَ مِن « قَدَّره » ولو قالوا بَدلَ قولهم « قَدَّره ولم يَخلقه » : « خَلَقَه ولم يُقَدِّره » ما كانت المسألة عليهم إلا من وجه واحد . والعجب أن الذى مَنَعه بزَعمِهِ أن يزعُم أنه مخلوق ، أنه لم يسمع ذلك من سَلَفه ، وهو يعلم أنه لم يسمع أيضا من سَلَفه أنه ليس بمخلوق ، وليس ذلك يَهُمُّ ، ولكن لما كان الكلام من الله تعالى عندهم على مثل خروج الصوت من الجوف ، وعلى جهة تقطيع الحروف وإعمال اللسان والشفتَين ، وما كان على غير هذه الصورة والصفة فليس بكلام ، ولمّا كنا عندهم على غير هذه الصفة ، وكنا لكلامنا غيرَ خالِقين ، وجَبَ أن الله عز وجل لكلامه غيرُ خالق ، إذ كنّا لكلامنا غيرَ خالقين، فإنما قالوا ذلك لأنهم لم يجدوا بين كلامنا وكلامِهِ فَرْقاً ، وإن لم يُقِرُّوا بذلك بألسنتهم، فذلك معناهم وقصدهم .

وقد كانت هذه الأمة لاتُجاوز معاصيها الإثمَ والضلالَ ، إلا ما حكيْتُ لك عن بنى أمية وبنى مَرْوَان وعُمَّالهم ، ومن لم يَدِنْ بإكفارهم ، حتى نَجَمَتِ النوابتُ ، وتابَعَتْها هذه العوامُّ ، فصار الغالبُ على هذا القرن الكفرَ ، وهو التشبيه والجبر ، فصارَ كفرهم أعظم من كُفْرِ من مَضَى فى الأعمال التى هى الفِسْق ، وصاروا شركاء[1] مَن كفر منهم بتولّيهم وترك إكفارهم ، قال الله عز وجل من قائل « وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ » .

---

(١) فى الأصل « وشركاء » .

وأرجو أن يكون الله قد أغاث المُحِقِّين ، وَرَحِمَهم ، وَقَوَّى ضَعْفَهُم ، وكثَّر قلَّتهم ، حتى صار وُلاة أمرنا فى هذا الدهر الصعب ، والزمن الفاسد ، أشدَّ استبصارا فى التشبيه من عِلْيَتِنا ، وأعلَمَ بما يلزم فيه منا ، وأكشفَ للقِناع من رؤسائنا ، وصادفوا[١] الناس وقد انتظموا مَعانَ[٢] الفساد أجمع ، وبلغوا غاياتِ البِدع ، ثم قرنوا بذلك العصبيةَ التى هلك بها عالَمٌ بعد عالم ، والحَمِيَّةَ التى لاتُبقى دِينًا إلا أفسدته ، ولا دُنيا إلا أهلكتها ، وهو ماصارت إليه العجم من مذهب الشُّعُوبِيَّة[٣] ، وما قد صار إليه الموالى من الفخر على العجم والعرب ، وقد نجَمَتْ من الموالى ناجِمةٌ ، ونَبتَتْ منهم نابِتةٌ ، تزعم أن المَوْلَى بوَلائه قد صار عربيا ، لقول النبى صلى الله عليه وسلم : « مَوْلَى القومِ منهم » ولقوله : « الوَلَاءُ لُحْمَةٌ[٤] كَلُحْمة النَّسَب ، لا يباع ولا يوهَب » قال : فقد علمنا أن العجم حين كان فيهم المُلكُ والنبوّة كانوا أشرف من العرب ، ولمّا حُوِّل ذلك إلى العرب صارت العرب أشرفَ منهم ، قالوا : فنحن معاشِرَ الموالى — بقَدِيمنا فى العجم — أشرفُ من العرب ، — وبالحديث الذى صار لنا فى العرب — أشرفُ من العجم ، وللعرب القديمُ دون الحديث ، ولنا خَصْلتان جميعا وافرتان فينا ، وصاحبُ الخَصْلتين أفضلُ من صاحب الخَصْلة ، وقد جعل الله المولى — بعد أن كان عجميا — عربيا بوَلائه ، كما جعل حَلِيفَ قريش من العرب قُرَشِيًّا بحِلْفه ، وجعل إسمعيل — بعد أن كان أعجميا — عربيا ، ولولا قول النبى صلى الله عليه وسلم « إن إسمعيل كان عربيا » ما كان عندنا إلا أعجميا ، لأن الأعجمى لايصير عربيا ، كما أن العربىّ لايصير أعجميا ، فإنما علمنا أن إسمعيل صيَّره الله عربيا بعد أن كان أعجميا ، بقول النبى صلى الله عليه وسلم ، فكذلك حُكْمُ قوله « مولى القوم منهم » وقوله « الولاء لُحمة » قالوا : وَقد جعل الله إبراهيم عليه السلام أبًا لمن لم يلد ، كما جعله أبا

---

(١) فى الأصل : « وصارفوا » وهو تحريف .
(٢) المعان : المباءة والمنزل .
(٣) هم محتقرو أمر العرب .
(٤) اللحمة : القرابة .

لمن ولد ، وجعل أزواجَ النبي أمَّهاتِ المؤمنين[1] ـ ولم يَلِدن منهم أحدا ـ وَجعل الجارَ وَالدَ مَن لَمْ يَلِد في قول ، وَغير هذا كثير قد أتينا عليه في موضعه ، وليس أدعَى إلى الفساد ، ولا أجلَبَ للشرّ من المفاخرة ، وليس على ظهرها إلا نخور ـ إلا قليل ـ وأيّ شيء أغيظ من أن يكون عَبْدُك يزعم أنه أشرف منك ـ وهو مُقِرّ أنه صَارَ شريفا بعِتقك إياه ـ ؟ .

وقد كتبتُ ـ مَدّ الله في عُمرك ـ كتبا في مفاخرة قَحْطان ، وفي تفضيل عَدْنان . وفي رَدّ الموالي إلى مكانهم من الفضل والنقص ، وإلى قَدْرِ ما جعل الله تعالى لَهُمْ بالعرب من الشرف ، وأرجو أن يكون عَدْلا بينهم ، وداعيةً إلى صلاحهم ، وَمَنْبَهَةً عليهم وَلهم ، وَقد أردتُ أن أرسِل بالجزء الأول إليك ، ثم رأيتُ ألا يكون إلا بعد استئذانك واستئمارك[2] ، والانتهاء في ذلك إلى رغبتك ، فرأيُك فيه مُوَفّق إن شاء الله عز وجل وبه الثقةُ » : « رسالة للجاحظ في بني أمية (٣) » .

٧٠ — رسالة أبي العاص[4] بن عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي إلى الثقفي

« بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعدُ ، فإن جلوسَك إلى الأَصْمَعي[5] ، وعُجْبَك بسَهْل بن هرون ، واسترجاحَك إسمعيلَ بن غزْوَان ، وطعنَك على مُوَيْسِ بن عِمْران ، وخِلْطَتَكَ[6] بابن مُشارِك ، واختلافك إلى ابن التوْءم ، وإكثارَك مِن ذِكرِ المال وإصلاحِه ، والقيامِ عليه واصطناعِه ، وإطنابَك في وصف الترويج والتثمير[7] ،

---

(١) قال تعالى : « النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ » .

(٢) الاستئمار : المشاورة .

(٣) رسالة مخطوطة محفوظة بدار الكتب المصرية رقم ١٨٥٥ أدب .

(٤) ذكره صاحب الأغاني في خلال ترجمة محمد بن مناذر ـ إذ كان أخوه عبدالمجيد بن عبد الوهاب صديقا حميا لابن مناذر ـ انظر ج ١٧ : ص ١٢ .

(٥) هو الراوية المشهور ، وكان بخيلا ، توفي سنة ٢١٦ هـ .

(٦) الخلطة بالكسر : العشرة (وبالضم : الشركة) . (٧) ثمر ماله : نماه وكثره .

وحسنِ التعهُّد والتوفير ، دليلٌ على خَبِيءِ سُوء ، وشاهدٌ على عيبٍ وإدبارٍ ، بعد أن كنت تستثقلُ ذكرهم ، وتستشنِعُ فعلَهم ، وتتعجَّب من مذهَبهم ، وتُسْرِف في ذمِّهم ، وليس يَلهَجُ بذكر الجَمْعِ[1] إلا مَن قد عَزَم على الجمع ، ولا يأنَس بالبخلاء إلا المستوحِشُ من الأسخياء ، وفي تحفُّظك قولَ سهلِ بن هٰرون : في الاستعداد في حال المُهْلة ، وفي الأخذ بالثقة[2] ، وأن أقبح التفريط ماجاء مع طول المدة ، وأن الحزمَ كلَّ الحزم ، والصوابَ كلَّ الصواب ، أن تستظهِرَ على الحدَثان[3] ، وأن تجعل ما فَضَل عن قِوام الأبدان ، رِدْءاً[4] دُونَ صروف الزمان ، وأنَّا لا نُنْسَب إلى الحكمة ، حتى نَحُوط أصلَ النعمة ، بأن نجعل دون فضولها جُنَّةً[5] ، شاهِدٌ[6] على عُجْبك بمذهبه ، وبرهانٌ على ميلك إلى سبيله ، وفي استحسانك روايةَ الأصمعي في : « أن أكثر أهل النار النساء والفقراء ، وأن أكثَر أهل الجنة البُلْهُ والأغنياء ، وأن أرباب الدُّثُورِ هُمُ الذين ذهبوا بالأجور[7] » برهانٌ[8] على صحة حُكمِنا عليك ، ودليلٌ على صواب رأينا فيك ، وفي تفضيلِك[9] كلامَ ابنِ غَزْوَان حين قال : تنعمتم بالطعام الطيِّب ، وَبالثياب الفاخرة ، وَبالشراب الرقيق ، وبالغِناء المُطْرِب ، وتنعمْنا بعِز الثروة ، وبصواب النظر في العاقبة ، وبكثرة المال ، والأمن من سوء الحال ، ومن ذل الرغبة إلى الرجال ، والعجز عن مصلحة العِيال ، فتلك لذتكم ، وهذه لذتنا ، وهذا رأينا في التسلُّم من الذم ، وذاك رأيكم في التعرّض للحمد ، وإنما ينتفِع بالحمد

---

(١) أي جمع الأموال .

(٢) أي بادخار ما يمكن ادخاره حتى يثق المرء بقدرته على مكافحة الخطوب إن نزلت به .

(٣) تستظهر : تستعين ، والحدثان : حوادث الدهر ونوبه .

(٤) الردء : العون والمادة .

(٥) الجنة : الوقاية .

(٦) مبتدأ خبره « في تحفظك » .

(٧) جاء في لسان العرب : « وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قيل له : ذهب أهل الدثور بالأجور ، قال أبو عبيد : واحد الدثور دثر بالفتح ، وهو المال الكثير ، يقال : هم أهل دثر ودثور ، ومال دثر » .

(٨) مبتدأ خبره : « في استحسانك » .

(٩) معطوف على الخبر السابق .

السليمُ الفارغُ البال ، ويُسَرّ باللذات الصحيح الصادقُ الحس ، فأما الفقير فما أغناه عن الحمد ، وأفقرَه إلى ما به يجد طَعْمَ الحمدِ ، والطعامُ الذى آثرتموه يعود رَجيعاً[(١)] ، والشراب يصير بَولا ، والبناء يعود نِقْضاً[(٢)] ، والغِناء[(٣)] ريحٌ هابَّة ، ومُسْقِط للمروءة، وسَخافةٌ تُفْسِد ، ورَنَّةٌ تَسِير[(٤)] ، فلذَّتكم فيما حَوَى لكم الفقرَ ونَقَضَ المروءةَ ، ولذّتنا فيما حَوَى لَنَا الغنى وَبَنَى المروءةَ ، فنحن فى بناء ، وأنتم فى هَدْم ، ونحن فى إبرام ، وأنتم فى نَقْض ، ونحن فى التماس العز الدائم مع فَوْت بعض اللذة ، وأنتم فى التعرض للذل الدائم مع فوت كل مُروءة ، وقد فهِمْنا معنى حكايتك ، وما لهِجْتَ به من روايتك ، والدليلُ على انتقاض طباعك ، وإدبار أمرك، استحسانُك ضِدَّ ما كنتَ تستحسِنُ ، وعِشْقُك لِما لم تزَل تمقُت ، فبُعْداً وسُحْقاً . ولا يُبْعِدُ اللهُ إلا مَن ظلم ، والشاعرُ أبصرُ بكم حيث يقول :

فإن سمِعْتَ بِهُلْكٍ للبخيل فقل ... بُعْدًا وَسُحْقاً له من هالكٍ مُودِى[(٥)]
تُراثُهُ جَنَّةٌ للوارثين إذا ... أوْدَى وَجُثمانُه لِلتُّرْبِ وَالدُّودِ

وقال آخر :

تَبْلَى محاسِنُ وجهه فى قبره ... والمالُ بين عدُوِّه مقسومُ

والحمد لله الذى لم يُمِتنى حتى أرانيك وكيلًا فى مالك[(٦)] ، وأجيرا لوارثك ، وأمّا أنت فقد تعجَّلْتَ الفقرَ قبل أوانه ، وصرت كالمجلود فى غير لذة ، وهل تَزيد حال مَن أنفق جميعَ ماله ، ورأى المكروهَ فى عياله ، وظهر فقرُه ، وشَمِتَ به عدوُّه ، على أكثرَ مِن انصراف المؤنسِين عنه ، وعلى بُغْض عياله ، وعلى خُشُونة الملبَس وخشونة

---

(١) الرجيع : الروث . (٢) النقض : المنقوض ، وهو البناء المهدوم .
(٣) فى بعض النسخ « والشناء » .
(٤) أى تذهب فى الهواء وتزول .
(٥) أودى : هلك .
(٦) أى وكيلا فى مالك لورثتك ، لاتنتفع به انتفاع المالك .

المأكل ، وهذا كلُّه مجتمعٌ في مَسْكِ[١] البخيل ، وَمصبوبٌ على هامَةِ[٢] الشحيح ، ومعجَّلٌ للئيم ، ومُلازِمٌ للنَّذْلِ ، ألَا إنّ المنفقَ قد رَبِح المَحْمَدة ، وتمتّع بالنعمة ، ولم يعطِّل المقدُرة[٣] ، وَوَفَّى كلَّ خَصْلَةٍ من هذه حقَّها ، ووفَّر عليها نصيبَها ، والمُمْسِكُ معذَّبٌ بحَصْرِ نفسه ، وبالكَدِّ لغيره ، مع لزوم الحجّة ، وسقوطِ الهمة ، والتعرُّض للذم والإهانة ، وَمع تحكيم المِرَّة[٤] السوداء في نفسه ، وتسليطها على عِرْضه ، وتمكينها من عيشه وسرورِ قلبه . ولقد سَرَى إليكَ عِرْق[٥] ، وَلَقَدْ دَخَلَ أعراقَكَ جَوْرٌ[٦] ، ولقد عمِلَ فيها قادِحٌ[٧] ، وَلقَدْ غالَها غُولٌ ، وما هذا المذهبُ من أخلاقِ صَمِيم ثَقِيف ، ولا من شِيَمِ أعرقَتْ[٨] فيها قريشٌ ، ولقد عرَض لك إقرافٌ[٩] ، ولقد أفسدتك هُجْنةٌ[١٠] ، ولقد قال معاوية : « من لم يكن من بني عبد المطلب جَوادا فهو دَخِيلٌ[١١] ، ومن لم يكن من آل الزبير شجاعا فهو لَزِيقٌ[١٢] ، ومن لم يكن من بني المُغِيرة تيّاها فهو سَنِيد[١٣] » . وقال سَلْم بن قُتَيبة : « إذا رأيت الثقفيَّ يَعِزُّ من غير إطعام[١٤] ، ويكسِبُ لغير إنفاق ، فبَهْرِجْه[١٥] ثم بَهْرِجه ثم بَهْرِجهُ » وقال

---

(١) المسك : الجلد ، والمراد النفس . (٢) الهامة : الرأس ، والجمع هام .

(٣) أي لم يعطل المقدرة على فعل الخير و كسب الثناء .

(٤) المرة : المزاج ، والمزاج الأسود : هو المزاج المضطرب الكثير المخاوف والوساوس .

(٥) أي اندس في أعراق نفسك عرق خسيس ليس منها .

(٦) المراد بالجور هنا الابتعاد عن الطريق القويم .

(٧) القادح : أكال يقع في الشجر والأسنان ، والقادح : العفن ، يقول : أصيبت هذه الأعراق والصفات بعلة قضت عليها .

(٨) صارت عريقة في الكرم .

(٩) المقرف : من كانت أمه عربية وأبوه أعجمي ، والمراد بالإقراف هنا ما يشبه الإقراف : أي كأنك لم تكن عربياً صميما .

(١٠) الهجنة : أن تكون الأم غير عربية والأب عربيا .

(١١) الدخيل : من يعيش بين القوم وليس منهم .

(١٢) من لزق بنسب قوم وليس منهم .

(١٣) السنيد : الدعي ، وهو من ينتمي إلى غير أهله .

(١٤) المعنى: دون أن يعنى بإطعام الفقراء ومساعدة المحتاجين . وفي الأصل « طعام » .

(١٥) بهرجه: أهمله .

ابن أبي بُرْدة : « لولا شبابُ ثقيف وسفهاؤهم ، ما كان لأهل البصرة مال[1] »
إن الله جَواد لا يَبْخَل ، وصدوقٌ لا يكذب ، وَوَفِيّ لا يَغْدِر ، وحليم لا يعجَل ، وعَدْل لا يظلم ، وَقد أمرنا بالجود ، ونهانا عن البخل ، وأمرنا بالصدق ونهانا عن الكذب ، وأمرنا بالحلم ، ونهانا عن العَجَلة ؛ وأمرنا بالعدل ، ونهانا عن الظلم ، وأمرنا بالوفاء ، ونهانا عن الغَدْر ، لم يأمُرنا إلا بما اختاره لنفسه ، وَلَمْ يَزْجُرنا إلَّا عمَّا لم يَرْضَهُ لِنَفْسِهِ وقد قالوا بأجمعهم إن الله أجودُ الأجْوَدين ، وأمجدُ الأمجدِين ، كما قالوا : أرحم الراحمين ، وأحسن الخالقين ، وقالوا فى التأديب لسائليهم ، والتعليم لأجوادهم : لا تجاوِدُوا[2] اللهَ فإن الله جل ذكره أجودُ وأمجد ، وذكر نفسَه جلَّ جلالُه وتقدَّست أسماؤه ، فقال : ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ[3] » وقال « ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ » وقال : « ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » وذكروا النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقالوا : لم يَضَعْ درهما على درهم ، ولا لَبِنةً على لبنةٍ ، وَمَلَكَ جزيرةَ العرب فقبَضَ الصدقاتِ ، وجُبِيَتْ له الأموال مابين غُدْرانِ العراق إلى شِحْر عُمَان[4] ، إلى أقصى مخاليفِ[5] اليمن ، ثم تُوُفِّيَ وعليه دَيْنٌ ، ودِرْعه مرهونةٌ ولم يُسْأل حاجةً قطُّ فقال : لا ، وكان إذا سُئل أعطَى ، وَإذا وعد أو أطمَعَ كان وَعدُهُ كالعِيانِ[6] ، وإطماعُه كالإنجاز ، وَمَدَحته الشعراء بالجود ، وذكرته الخطباء بالسَّماح ، وَلقد كان يَهَب للرجل الواحدِ الضاجعةَ[7] من الشاء ، وَالعِرْجِ[8] من الإبل وَكان أكثرُ مايَهَبُ المَلِكُ من العرب مائةَ بعير فيقال : وَهَب هُنَيْدةً[9] ، وَإنما

---

(١) أى لكثرة ما ينفقون فى البصرة ويبذلون .

(٢) أى لا تحاولوا أن تصلوا فى الجود إلى مثل جود الله .

(٣) الإفضال والإنعام .

(٤) ساحل البحرين ، بين عمان وعدن .

(٥) المخلاف : الكورة ، بلغة أهل اليمن .

(٦) مصدر عاين الشيء : أبصره . والمعنى : أن وعده فى الوثوق بتحققه كالشيء المشاهد .

(٧) الضاجعة : الغنم الكثيرة .

(٨) العرج بالفتح والكسر من الإبل : مابين السبعين إلى الثمانين ، وقيل : هو مابين الثمانين إلى التسعين ، وقيل مائة وخمسون وفويق ذلك ، وقيل من خمسمائة إلى ألف .

(٩) هند وهنيدة : اسم للمائة من الإبل خاصة .

يقال ذلك إذا أريد بالقول غايةُ المدح - وَلقد وهب[١] لرجل ألفَ بعير فلما رآها تزدحم في المَوادِي[٢] ، قال : أشهدُ أنك نبيّ ، وَما هذا مما تجود به الأنفسُ ، وفَخَرَتْ هاشم على سائر قريش فقالوا : نحن أطعَمُ للطّعام ، وأضرَبُ للهَام ، وذكَرَها بعض العلماء فقالوا : أجوادٌ أمجادٌ ، ذَوُو ألسنةٍ حِداد . وأجمعتِ الأمم كلُّها بَخِيلُها وسَخِيُّها ومَمْزُوجُها[٣] ، على ذم البُخل وحمد الجود ، كما أجمعوا على ذمِّ الكذب وحَمْدِ الصدق ، وقالوا : أفضل الُجودِ الجودُ بالمجهود[٤] ، وحتى قالوا في جُهْد المُقِلّ[٥] وفيمن أخرج الجهدَ وأعطى الكلّ[٦] ، وحتى جعلوا لمن جاد بنفسه فضيلةً على من جاد بماله ، فقال الفرزدق :

على ساعةٍ لو كان في القوم حاتمٌ على جُوده ، ضَنَّتْ به نفسُ حاتِمِ[٧]

ولم يكن الفرزدق ليضربَ المَثَل في هذا الموضع بكَعْب بن مَامَة ، وقد جاد بحَوْبائه عند المُصافَنَةِ[٨] ، فما رأينا عربيّاً سَفَّهَ حِلْمَ حاتم لجوده بجميع ماله ، ولا رأينا

---

(١) أي النبي صلى الله عليه وسلم .

(٢) الهادية والهادى : العنق ، والهادية من كل شيء : أوله وما تقدم منه ، وفي النسخ « القوادى » ولا معنى لها .

(٣) أي من امتزج فيه السخاء بالبخل ، فكان وسطا بين الكريم والبخيل .

(٤) المجهود هنا : الجهد ، أي الجود بقدر الجهد والطاقة ولو كان المعطى مقلا .

(٥) أي قالوا في الثناء على الفقير الذي يجود بما يستطيع ، ففي الأثر : « أفضل العطية جهد المقل » . وقالوا : « جهد المقل أفضل من غنى المكثر » .

(٦) أي وقالوا فيمن بذل جهده على إقلاله ، وفيمن خرج عن كل ماله في بذل المعروف .

(٧) كان الفرزدق قد صافن رجلا من بني العنبر بن عمرو بن تميم . فطلب منه العنبرى أن يؤثره على نفسه ففعل (والمصافنة في السفر : أن يقاسم الرفيق رفيقه الماء حتى لا يغبن أحدهما الآخر) ويروى البيت :

على ساعة لو أن في القوم حاتما على جوده ماجاد بالماء حاتم

بكسر ميم حاتم على أنه بدل من الضمير في جوده .

(٨) الحوباء : النفس . وكان كعب بن مامة الإيادى أحد أجواد العرب الذين ضرب بهم المثل في الجود ، فقيل : « أجود من كعب بن مامة » . ومن حديثه أنه خرج في ركب فيهم رجل من النمر ابن قاسط فضلوا فتصافنوا ماءهم ، فقعدوا للشرب ، فلما دار القعب فانتهى إلى كعب أبصر النمرى يحدد النظر إليه فآثره بمائه ، وقال للساقى : اسق أخاك النمرى ، فشرب النمرى نصيب كعب ذلك اليوم من الماء ، ثم نزلوا من غدهم المنزل الآخر فتصافنوا بقية مائهم ، فنظر إليه النمرى كنظره أمسه ، فقال كعب كقوله =

أحدا منهم سَفَّهَ حِلْمَ كَعْبٍ على جوده بنفسه ، بل جعلوا ذلك من كعبٍ لإيادٍ مَفْخَرا ، وجعلوا ذلك من حاتم طَيِّئ مَأْثُرةً لعَدْنانَ على قَحْطانَ ، ثم للعرب على العجم ، ثم لسُكّان جزيرة العرب ولأهلِ تلك البرِّيّةِ على سائرِ الجزائرِ والتُّرَبِ ، فمن أراد أن يخالف ما وصف اللهُ جَلَّ ذِكرُه به نفسَه ، وما مَنَحَ من ذلك نبيَّه صلى الله عليه وسلم ، وما فَطَرَ على تفضيله العربَ قاطبةً ، والأممَ كافّةً ، لم يكن عندنا فيه إلا إكفارُه واستسقاطُه ، ولم نَرَ الأمةَ أبغضتْ جَوادا قطُّ ولا حَقَرَتْه ، بل أحبَّته وأعظمَتْه ، بل أحبَّت عَقِبَه وأعظمَتْ من أجلِهِ رَهْطَه ، ولا وجدناهم أبغضوا جواداً لمجاوزته حَدَّ الجودِ إلى السَّرَف ولا حَقَرَتْه ، بل وجدناهم ينتحلون مناقِبَه ، ويتدارَسُون محاسنَه ، وحتى أضافوا إليه من نوادر الجَميل[1] مالم يفعله ، ونَحَلُوه[2] من غَرائب الكرم مالم يكن يَبْلُغه ، ولذلك زعموا أن الثناء فى الدنيا يُضاعَف كما تضاعَفُ الحسناتُ فى الآخرة ، نعم وحتى أضافوا إليه كلَّ مديح شاردٍ ، وكلَّ معروفٍ مجهولِ الصاحب . ثم وجدنا هؤلاء بأعيانهم[3] للبخيل على ضِد هذه الصِّفة ، وعلى خلافِ هذا المذهب ، وجدناهم يُبْغِضونه مرةً ، ويحقِرونه مرةً ، ويُبْغِضون بفضل بغضِهِ وَلَدَهُ ، ويحتقرون بفضل احتقارهم له رَهْطَه ، ويُضيفون إليه من نوادر اللؤم مالم يَبْلُغه ، ومن غرائب البخل مالم يفعله ، وحتى ضاعفوا عليه من سوء الثناء بقدر ما ضاعفوا للجواد من حُسْن الثناء ، وعلى أنّا لانجد الجوائحَ[4] إلى أموال الأسخياء

= أمس ، وارتحل القوم ، وقالوا : يا كعب ارتحل ، فلم يكن به قوة للنهوض ، وكانوا قد قربوا من الماء ، فقيل له : رد — كعب — إنك رواد ، فعجز عن الجواب ومات عطشا ، فقال أبوه مامة يرثيه :

أوفى على الماء كعب ثم قيل له ... رد كعب إنك وارد فما وردا

« مجمع الأمثال ١ : ١٢٣ » وقوله « ولم يكن الفرزدق ليضرب المثل » أى ليتشبه بكعب بن مامة — لأنه آثر هو أيضا العنبرى على نفسه — وفى الكلام حذف ، والتقدير : لم يكن ليفعل ذلك إلا لبلوغه الغاية فى كرم النفوس .

(١) أى الفعل الجميل . (٢) نحلوه : نسبوا إليه .

(٣) فى النسخ « بأنفاسهم » . (٤) جمع جائحة : وهى الآفة .

أسرعَ منها إلى أموال البخلاء ، ولا رأينا عددَ مَن افتقر من البخلاء أقلّ ، والبخيلُ عند الناس ليس هو الذى يبخل على نفسه فقط ، فقد يستحقُّ عندهم اسمَ البخيل ، ويستوجب الذمّ ، من لا يَدَع[١] لنفسه هوًى إلا ركِبَه ، ولا حاجةً إلا قضاها ، ولا شهوةً إلا ركبها ، وبلغ فيها غايتَه ، وإنما يقع عليه اسمُ البخيل إذا كان زاهدا فى كل ما أوجَبَ الشكرَ ، ونوّه بالذكر ، وادّخر الأجر ، وقد يملّق البخيلُ على نفسه من المُؤَن ، ويُلزمها من الكُلَف ، ويتخذ من الجوارى والخَدَم ، ومن الدوابّ والحَشَم[٢] ، ومن الآنية العجيبة ، ومن البِزّة[٣] الفاخرة ، والشّارَة[٤] الحسنة ، ما يُرْبِى[٥] على نفقة السّخِيّ المُثْرِى ، ويَضْعُف[٦] على جُود الجواد الكريم ، فيذهبُ مالهُ وهو مذموم ، ويتغيّر حالهُ وهو مَلُوم ، وربما غَلَبَ عليه حُبُّ القِيَان[٧] ، واشتهَرَ[٨] بالخِصْيان ، وربما أفرط فى حُبِّ الصيد ، واستولى عليه حبُّ المَراكب[٩] ، وربما كان إتلافُه فى العُرْس والخُرْس[١٠] والوَلِيمة ، وإسرافُه فى الإعذار[١١] وفى العَقِيقة[١٢] والوَكِيرة[١٣] ، وربما ذهبت أمواله فى الوضائِع[١٤] والودائع ، وربما كان شديدَ

---

(١) فى بعض النسخ « ولا يدع » .   (٢) الحشم : الخدم .

(٣) الهيئة ، يقال : هو حسن البزة .

(٤) الشارة هنا : الزينة واللباس .

(٥) يقال : أربى الشىء على كذا أى زاد عليه .

(٦) ضعف يضعف من باب كرم : زاد ، وفى الحديث « تضعف صلاة الجماعة على صلاة الفذ خمسا وعشرين درجة » أى تزيد عليها .

(٧) جمع قينة : وهى الأمة البيضاء ، مغنية أو غير مغنية .

(٨) أى اشتهر بحيازة الخصيان ، وذلك ضرب من البذخ .

(٩) جمع مركب : وهو ما يركب من الخيل ونحوها .

(١٠) الخرس بالضم والخراس بالكسر : طعام يصنع ابتهاجا بالولادة .

(١١) الإعذار والعذار (بالكسر) والعذير والعذيرة : وليمة الختان ، وطعام البناء .

(١٢) الشاة تذبح فى اليوم السابع من ولادة المولود ابتهاجا به ، وأصل العقيقة : الشعر الذى يكون على رأس الصبي حين يولد ، وإنما سميت تلك الشاة التى تذبح فى تلك الحال عقيقة ، لأنه يحلق عنه ذلك الشعر عند الذبح .

(١٣) الطعام يتخذه الرجل ويدعو إليه عند انتهاء ما كان يبنيه .

(١٤) جمع وضيعة : وهى ما يرفعه الدائن من المدين من الدين .

البخل شَدِيدَ الحبِّ للذِّكر ، ويكون بخله أَوْشَجَ ، ولؤمُه أقبحَ ، فيُنفق أمواله ، ويُتْلف خزائنه ، ولم يخرج كَفَافا[١] ولم ينجُ سليما ، كأنك لم تر بخيلا مخدوعا[٢] ، وبخيلا مَضْعوفا[٣] ، وبخيلا مِضْياعا ، وبخيلا نَفّاجا[٤] ، وبخيلا ذهب ماله فى البِناء ، وبخيلا ذهب ماله فى الكيمياء[٥] ، وبخيلا أنفق ماله فى طمع كاذب ، وعلى أملٍ خائب ، وفى طلبِ الولايات ، والدخول فى القَبَالات[٦] ، وكانت فِتنتُه بما يؤمِّل من الإمرة ، فوق فتنته بما قد حواه من الذهب والفضة ، قد رأيناه يُنفق على مائدته وفاكهته ألفَ درهم فى كل يوم ، وعنده فى كل يوم عُرْس[٧] ، ولأَن يطعَن طاعِنٌ فى الإسلام أهونُ عليه من أن يطعن طاعن فى الرغيف الثانى ، ولَشَقُّ عَصا الدين أهونُ عليه من شَقِّ رغيف ، لا يَعُدُّ الثُّلمة[٨] فى عِرضه ثلمةً ، ويعدُّها فى ثَريدته من أعظم الثُّلَم ، وإنما صارت الآفات إلى أموال البخلاء أسرعَ ، والجوائحُ عليهم أَكْلَبَ[٩] ، لأنهم أقلُّ توكُّلا ، وأسوأ بالله ظنا . والجوادُ إما أن يكون متوكلا ، وإما أن يكون أحسَن بالله ظنا ، وهو على كل حال بالمتوكِّل أشبَهُ ، وإلى ما أشبهه أنزَعُ[١٠] ، وكيفما دارَ أمرُه ، ورجعَتِ الحال[١١] به ، فليس ممن يَتَّكِل على حزمه ، ويلجأ إلى كَيْسه ،

---

(١) الأصل فى معنى الكفاف ما يكف عن سؤال الناس ويغني ، ومعنى لم يخرج كفافا هنا : لم يخرج خاليا من الذم .

(٢) يتخيل الكاتب أن المخاطب منكر دعواه لما فيها من الغرابة فهو يتجه إليه قائلا : كأنك لم تر بخيلا مخدوعا الخ .

(٣) المضعوف : ضعيف الرأى .

(٤) النفاج : المدعى المتباهى بما ليس فيه .

(٥) الكيمياء فى زعمهم تحويل المعادن الخسيسة بالصناعة إلى معادن نفيسة .

(٦) القبالة : اسم لما يلتزمه الإنسان من عمل ودين ونحوهما ، والقبيل : الكفيل والضامن ، وقد قبل به كنصر وسمع وضرب .

(٧) العرس : من معانيه الوليمة .

(٨) الثلمة : الشق . (٩) أشد . (١٠) أميل .

(١١) تشابهت الحوادث عليه .

ويرجع إلى جَودة احتياطه، وشدةِ احتراسه، واعتلالُ البخيل بالحدثان(١)، وسوء الظن بتقلّب الزمان، إنما هو كناية عن سوء الظن بخالق الحدثان، وبالذى يُحْدِث الأزمانَ وأهلَ الزمان، وهل تجْرِى الأحداثُ إلا على تقدير المُحْدِث لها؟ وهل تختلِف الأزمنةُ إلّا على تصريف من دبّرها؟ أوَلَسْنا وإن جَهِلْنا أسبابَها فقد(٢) أيقنّا بأنها تجرِى إلى غاياتها؟ والدليلُ على أنه ليس بهم خوفُ الفقر، وأنّ الجمعَ والمنعَ إمّا أن يكون عادةً منهم، أو طبيعةً فيهم، أنّك قد تجد المَلِكَ بخيلا، ومملكتُه أوسعُ، وخَرْجُه أدرُّ، وعدوُّه أسكنُ، وتجد آخرَ أكثرَ منه جُودا(٣)، وإن كانت مملكته أضيقَ، وخَرْجُه أقلَّ، وعدوُّه أشدَّ حركةً، وقد علِمْنا أن الزِّنْج أقصرُ الناس مِرّةً(٤) ورويّةً، وأذهَلُهم عن معرفة العاقبة(٥)، فلو كان سخاؤهم إنما هو لِكَلال حدّهم(٦)، ونقصِ عقولهم، وقلةِ معرفتهم، لكانَ ينبغى لِفارسَ أن تكون أبخلَ من الرُّوم، وتكونَ الرومُ أبخلَ من الصَّقالبة(٧)، وكان ينبغى فى الرجال — فى الجملة — أن يكونوا أبخلَ من النساء — فى الجملة — وكان ينبغى للصِّبيان أن يكونوا أسخى من النساء، وكان ينبغى أن يكون أقلُّ البخلاء عقلا أعقلَ من أشد الأجواد عقلا، وكان ينبغى للكلب — وهو المضروب به المثلُ فى اللؤم — أن يكون أعرفَ بالأمور من الديك المضروب به المثلُ فى الجود(٨)، وقالوا هو أسخى من

(١) أى بالخوف من حوادث الدهر .
(٢) الفاء زائدة .
(٣) فى بعض النسخ « وتجد أحزم منه جوادا » .
(٤) المرة : العقل والأصالة والإحكام ، وفى الأصل « مدة » وهو تحريف .
(٥) أى وهم مع ذلك أسخياء .
(٦) كلال الحد : أصله فى السيف والسكين ونحوهما ، والمراد هنا قلة الذكاء .
(٧) الصقالبة : جيل تتاخم بلادهم بلاد الخزر (فى الروسيا الآن) — وبحر الخزر بالتحريك هو بحر قزوين — .
(٨) وصف الديك بالجود لأن من عادته أن يدعو الدجاج ويثير لها الحب .

لافِظَةٍ(١) ، وألأم من كلب على جيفة(٢) ، وألأم من كلب على عَرْق(٣) ، وقالوا :
أَجِــع كلبك يَتْبعك(٤) ، ونِعمَ كلبٌ فى بُؤْس أهله(٥) ، وسَمِّنْ كلبك يأكلْك(٦)

(١) من أمثال العرب « أسمح من لافظة » قال الميدانى . « قد اختلفوا فيها فقال بعضهم : هى الديك لأنه يأخذ الحبة بمنقاره فلا يأكلها ولـكن يلقيها إلى الدجاجة — والهاء فيها للمبالغة هاهنا — وقال بعضهم : هى العنز التى تشلى للحلب فتجىء لافظة بجرتها فرحا بالحلب . وقال بعضهم : هى الحمامة ، لأنها تخرج مافى بطنها لفرخها ، وقال بعضهم . هى الرحى ، لأنها تلفظ ما تطحنه أى تقذف به ، وقال بعضهم هى البحر ، لأنه يلفظ بالدرة التى لاقيمة لها (أى لنفاستها) قال الشاعر :

تجود فتجزل قبل السؤل وكفك أسمح من لا فظة

— انظر مجمع الأمثال ١ : ٢٣٨ — .

(٢) أورده الميدانى فى مجمع الأمثال ١ : ١٥٤ « أحرص » .

(٣) ورد فى مجمع الأمثال ٢ : ١٣٨ والعرق العظم أكل لحمه أو لم يؤكل .

(٤) ويروى « جوع » مثل يضرب فى معاشرة اللئام وما ينبغى أن يعاملوا به، وأول من قال ذلك ملك من ملوك حمير . كان عنيفا على أهل مملكته يغصبهم أموالهم ويسلبهم ما فى أيديهم وكانت الـكهنة تخبره أنهم سيقتلونه فلا يحفل بذلك . وسمعت امرأته أصوات السؤال فقالت : إنى لأرحم هؤلاء لما يلقون من الجهد ، ونحن فى العيش الرغد ، وإنى لأخاف عليك أن يصيروا سباعا ، وقد كانوا لنا أتباعا ، فرد عليها : جوع كلبك يتبعك ، وأرسلها مثلا ، فلبث بذلك زمانا ، ثم أغزاهم فغنموا ولم يقسم فيهم شيئا ، فلما خرجوا من عنده قالوا لأخيه وهو أميرهم : قد ترى مانحن فيه من الجهد ، ونحن نكره خروج الملك منكم أهل البيت إلى غيركم ، فساعدنا على قتل أخيك واجلس مكانه ، وكان قد عرف بغيه واعتداءه عليهم فأجابهم إلى ذلك ، فوثبوا عليه فقتلوه ، فمر به عامر بن جذيمة وهو مقتول وقد سمع بقوله « جوع كلبك يتبعك » فقال : ربما أكل الـكلب مؤدبه ، إذا لم ينل شبعه ، فأرسلها مثلا — مجمع الأمثال ١ : ١١١ .

(٥) ويروى « نعم الـكلب فى بؤس أهله » و « فى بؤسى أهله » وذلك أن الجدب والبؤس يكثر الموتى والجيف ، وذلك نعيم الـكلب . قيل أصله أن بعض الأعراب كان له بعير يكريه فينتفع بما يعود منه، وله كلب يقصر فى إطعامه فهو يتلف جوعا ، فمات البعير ، فرجع الرجل إلى سوء حال ، والـكلب إلى خصب، يضرب مثلا للرجل ينتفع بضرر غيره ، مجمع الأمثال ٢ : ١٩٥ وجمهرة الأمثال ٢ : ٢٣٤ — .

(٦) ويروى « أسمن» قالوا: أول من قال ذلك حازم بن المنذر الحمانى . وذلك أنه مر بمحلة همدان فإذا هو بغلام ملفوف فى ثوب خلق مبتذل ، فرحمه وحمله على مقدم سرجه حتى أتى به منزله ، وأمر أمة له أن ترضعه فأرضعته حتى فطم ، وأدرك وراهق الحلم فجعله راعيا لغنمه ، وكان لحازم ابنة ، فهويت الغلام وهويها ، وكان ذا منظر وجمال ، فكانت تتبعه إلى موضع الـكلأ فيتغازلان ، ولبثا على ذلك أياما ، ثم إن أباها افتقدها يوما وفطن لها فرصدها حتى إذا خرجت تبعها ، فانتهى إليهما وهما على سوءة ، فلما رآهما قال . سمن كلبك يأكلك ، فأرسلها مثلا، وأفلت الغلام ولحق بقومه همدان واختنقت الفتاة فماتت. وقيل: إن رجلا من طسم ارتبط كلبا ، فـكان يسمنه ويطعمه رجاء أن يصيد به ، فاحتبس عليه بطعمه يوما فدخل عليه صاحبه فوثب عليه فافترسه — مجمع الأمثال ١ : ٢٢٦ .

وأحرَصُ من كلب على عِقْيِ[1] صبي ، وأجوع من كلبةِ حَوْمَل[2] ، ولَهُو أبذأ من كلب[3] وَحَشَّ فلانٌ من خُرْءِ الكلب[4] ، واخْسأْ ، كما يقال للكلب[5] ، وكالكلب في الآريِّ[6] ، لا هو يعتلِف ، ولا هو يترك الدابةَ تعتلِفُ ، وقال الشاعر :

سَرَتْ ما سَرَتْ من ليلها ثُمَّ عَرَّسَتْ على رجُلٍ بالعَرْجِ ألأَمَ من كلبِ[7]

وقال الله جل ذكره : « فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ » وكان ينبغي في هذا القياس أن يكون المَراوِزَةُ[8] أعقلَ البرية ، وأهلُ خراسانَ أدْرَى البرية[9] ، ونحن لانجد الجواد يفِرُّ من اسم السَّرَفِ إلى الجود ،

(١) مجمع الأمثال ١ : ١٥٤ والعقى : أول حدث الصبي ، وفي النسخ « عقي ظبي » وهو تحريف.

(٢) حومل : امرأة من العرب كانت تجيع كلبة لها ، فكانت تربطها بالليل للحراسة ، وتطردها بالنهار ، وتقول : التمسي لنفسك لا ملتمس لك ، فلما طال ذلك عليها أكلت ذنبيها من الجوع، قال الكميت يذكر بني أمية ويذكر أن رعايتهم للأمة كرعاية حومل لكلبتها :

كما رضيت جوعا وسوء رعاية لكلبتها في سالف الدهر حومل

(٣) أي أفحش ، وبذاءة الكلب هنا : كثرة هريره لسبب ولغير سبب .

(٤) حش المال : كثره ، أي كثر فلان ماله من أدنأ الوجوه التي تشبه خرء الكلب .

(٥) أي وقالوا لمن يطرد اخسأ كما يقال للكلب .

(٦) الآري : محبس الدابة . وحبل تشد به الدابة في محبسها .

(٧) الضمير يعود إلى الناقة ، والتعريس : نزول المسافر في آخر الليل للاستراحة ، والعرج : بلدة باليمن ، وواد بالحجاز ذو نخيل ، وموضع ببلاد هذيل ، ومنزل بطريق مكة .

(٨) المراوزة : أهل مرو الشاهجان : أشهر مدن خراسان وقصبتها ؛ جمع مروزى ، نسبة إلى مرو على غير قياس ، كأشاعرة جمع أشعرى — انظر معجم البلدان ٨ : ٣٣ .

(٩) أي لأنهم أشد الناس بخلا ، وقد عقد الجاحظ في كتاب البخلاء (ص ١٤) فصلا طويلا في وصف بخلهم قال فيه : « نبدأ بأهل خراسان ، لإكثار الناس في أهل خراسان ، ونخص بذلك أهل مرو بقدر ما خصوا به ، قال أصحابنا : يقول المروزي للزائر إذا أتاه، وللجليس إذا طال جلوسه، تغديت اليوم ؟ فإن قال نعم ، قال : لولا أنك تغديت لغديتك بغداء طيب ، وإن قال لا ، قال : لو كنت تغديت لسقيتك خمسة أقداح ، فلا يصير في يده على الوجهين قليل ولا كثير ، وكنت في منزل ابن أبي كريمة — وأصله من مرو — فرآني أتوضأ من كوز خزف، فقال:سبحان الله ، تتوضأ بالعذب ،والبئر لك معرضة! قلت : ليس بعذب ، إنما هو من ماء البئر ، قال : فتفسد علينا كوزنا بالملوحة ! فلم أدر كيف أتخلص منه .

وقال ثمامة : لم أر الديك في بلدة قط إلا وهو لاقط، يأخذ الحبة بمنقاره ثم يلفظها قدام الدجاجة إلا ديكة مرو، فإني رأيت ديكة مرو تسلب الدجاج ما في مناقيرها من الحب، قال: فعلمت أن بخلهم شيء ==

كما نجد البخيل يفرُّ من اسم البُخلِ إلى الاقتصاد، ونجد الشجاع يفرُّ من اسم المتهوِّر، والمستحِي يفرُّ من اسم الخَجِل، ولو قيل لخطيبٍ ثابتِ الجنان «وَقَاحٌ[1]» لجزِعَ فلو لم يكن من فضيلة الجود إلا أن جميعَ المتجاوزين لحُدود أصناف الخير يَكرهون اسم تلك الفضْلة[2] إلا الجواد، لقد كان فى ذلك مايُبِين قدرَه، ويُظهِر فضلَه، المال فاتِنٌ، والنفسُ راغبة، والأموالُ ممنوعة، وهى[3] على مامُنِعَتْ حريصةٌ، والنفوس فى المكاثَرة عِلَّةٌ معروفة، لأن من لا فكرة له ولا رويةَ، مُوكَّل[4] بتعظيم ذى الثروة، وإن لم تكن منه مَنالةٌ[5]، وقد قال الأول:

وزَادَها كَلَفاً بالحبِّ أنْ مُنِعَتْ ... وحَبُّ شىءٍ إلى الإنسان ما مُنِعا

وفى بعض كتب الفرس: كلُّ عزيزٍ تحت القُدرة فهو ذليل.

وقالت مُعاذةُ العَدوِية: كل مقدورٍ عليه مَقْلِىٌّ[6] أو محقور، ولو كانوا لأولادهم يجمعون، ولهم يكُدُّون، ومن أجلهم يحرِصون، لجعلوا لهم كثيرا مما يطلُبون، ولتركوا محاسبتهم فى كثير مما يشتهون، وهذا بعضُ ما بغَّضَ بعضَ الورَّثين إلى الوارثين، وزهَّد الأخلاف[7] فى طول عمر الأسلاف، ولو كانوا لأولادهم يُمَهِّدون،

= فى طبع البلاد وفى جواهر الماء، فمن ثم عم جميع حيوانهم، حدثت بهذا الحديث أحمد ابن رشيد فقال: كنت عند شيخ من أهل مرو، وصبى له صغير يلعب بين يديه، فقلت له — إما عابثا وإما ممتحنا —: أطعمنى من خبزكم، قال: لاتريده، هو مر، فقلت: فاسقنى من مائكم، قال: لا تريده، هو مالح، قلت: هات من كذا وكذا، قال: لا تريده هو كذا وكذا، إلى أن عددت أصنافا كثيرة، كل ذلك يمنعنيه ويبغضه إلى، فضحك أبوه، وقال: ماذنبنا، هذا من علمه ماتسمع؟ يعنى أن البخل طبع فيهم وفى أعراقهم وطينتهم ...».

(١) الرجل الصلب الذى قل حياؤه.

(٢) أى الزيادة فى الفضيلة وتجاوز الحد فيها.

(٣) أى النفس.

(٤) أى جاعل تعظيم ذى الثروة من شغله كأنه مولع به مفتون.

(٥) النال والمنالة والمنال مصدر نلت أنال، ويقال: نلت له بشىء أى جدت.

(٦) قلاه يقليه قلى وقلاء، ويقلاه لغة طيء: أبغضه غاية البغض، قال ابن السكيت ولا يكون فى البغض إلا قليت، وفى النسخ «فقلو».

(٧) أخلاف جمع خلف بالتحريك: وهم أبناء الإنسان الذين يخلفونه بعد موته.

ولهم يجمعون ،لما جمع الخصيانُ الأموال ، ولَمَا كَنَزَ الرُّهبان الكنوزَ ، ولاستراح العاقِر من ذلِّ الرغبة ، ولسَلِم العقيمُ من كدِّ الحِرص ، وكيف ونحن نجده بعد أن يموت ابنهُ الذى كان يمتلُّ به ، والذى مِنْ أَجْلِهِ كان يجمع ، على حاله[1] فى الطّلَب والحِرص ، وعلى مثلِ ما كان عليه من الجمْع والمنع ، والعامّةُ لم تقصِّر فى الطلب والحُكْرة[2] ، والبخلاءُ لم يجُدُّوا شيئاً من جهدهم[3] ، ولا عَفُوا بعد قدرتهم[4] ، ولا قصَّروا فى شىء من الحرص والحصَر[5] ، لأنهم فى دار قُلْعة[6] ، وتعرُّض نُقْلةٍ[7] ، حتى لو كانوا بالخلود موقنين لأغفَلوا تلك الفضولَ ، فالبخيل مجتهد، والعامىُّ غيرُ مقصر ، فمن لم يستعِنْ على ما وَصفْنا[8] بطبيعة قوية ، وبشهوة شديدة ، وبنظر شافٍ ، كان إما عاميًّا ، وإما بخيلا شقيًا ، ففيمَ اعتلالُهم بأولادهم ، واحتجاجُهم بخوف التلوُّن من أزمنتهم ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لوافِدٍ كَذَب عنده كَذْبةً — وكان جواداً — : « لولا خَصْلةٌ[9] وَمِقَكَ اللهُ عليها ، لشَرَّدْتُ بك مِن وافدِ قوم » وقيل للنبى صلى الله عليه وسلم :هل لك فى بِيضِ النساء وأُدْمِ الإبل[10] ؟ قال : وَمَنْ هم ؟ قَالَ : بنو مُدْلِج ، قال : « يمنعنى من ذلك قِراهم الضيفَ ، وصِلَتُهم الرَّحِمَ » وقال لهم أيضاً : « إذا نَحَروا ثجُّوا[11] ، وإذا لَبَّوْا عَجُّوا[12] » وقال للأنصار : مَن

(١) متعلق الجار والمجرور مفعول ثان لتجد .
(٢) اسم من الاحتكار .
(٣) فى النسخ « لم يجدوا » والصواب « لم يحدوا » أى لم يحبسوا جهودهم فى جمع الأموال .
(٤) فى النسخ « ولا عفواً » بالنصب ، والصواب «ولا عفوا » أى عن الكد، والكدح بعد قدرتهم على العيش بما تجمع لديهم من مال .
(٥) الحصر : البخل .
(٦) يقال : الدنيا دار قلعة ، أى انقلاع وارتحال .
(٧) أى إن الدنيا دار يتعرض فيها المرء للانتقال .
(٨) وهو تمكن البخل والجشع فى النفوس .   (٩) ومقه : أحبه .
(١٠) الأدم جمع آدم وأدماء ، والأدمة فى الإبل بالضم : لون مشرب سوادا أو بياضا أو هو البياض الواضح . والتقدير : هل لك فى قوم بيض النساء . . .
(١١) ثجوا : أسالوا دماء الذبائح فى الحج .
(١٢) التلبية فى الحج : قول لبيك اللهم لبيك ، وعج يعج بالكسر والفتح : صاح ورفع صوته .

سيدكم ؟ قالوا الحُرُّ(١) بن قيس ، على أنه يُزَنُّ(٢) فينا بِبُخل ، فقال : « وأيُّ داءٍ أدوأُ من البخل ؟ » ثم جعله من أدوإ الداء ، وقال للأنصار : « أَمَا وَاللهِ ماعلِمْتُكم إلا لَتَكثُرُون عند الفَزَع ، وتَقِلُّون عند الطمع » وقال : « كفى بالمرء حِرْصاً رُكوبُهُ البحرَ » وقال : « لو أن لِابن آدمَ وادِيَيْن من مالٍ لَابتَغَى ثالثاً ، ولا يُشْبِعُ ابنَ آدمَ إلا الترابُ ، ويتوبُ الله على من تاب » وقال : « السخاء من الحياء ، والحياء من الإيمان » وقال : « إن الله جَوادٌ يُحِبُّ الجوادَ » وقال : « أنفِقْ يا بلالُ ولا تخشَ من ذِى العرش إقلالا(٣) » وقال : « لاتُوكِ فيُوكَى عليك(٤) » وقال : « لا تُحْصِ فيُحْصَى عليك » وقالوا : لاينفعُك من زادٍ ما تَبَقَّى(٥) ، ولم يُسَمَّ الذهبَ والفضة بالحَجَرين إلا وهو يريد أن يضع من أقدارهما ، ومن فتنة الناس بهما ، وقال لقيس ابن عاصم : « إنما لك من مالك ما أكلت فأفنيتَ ، وما لبِسْتَ فأبليتَ ، أو أعطيت فأمضيتَ ، وما سوى ذلك فللوارث » وقال النَّمِرِ بن تَوْلَب :

وحَثَّتْ على جمعٍ ومنعٍ ، ونفسُها ... لها فى صُرُوف الدهر حقٌّ كَذوبُ(٦)
وكائنْ رأينا مِن كريمٍ مُرَزَّإٍ ... أخِى ثِقَةٍ طَلْقِ اليدين وَهُوبِ(٧)
شهدْتِ وفاتُونِى ، وكنتُ حَسِبْتُنى ... فقيرا إلى أن يشهدُوا وَتَغيبى(٨)
أعاذِلُ إن يُصْبِحْ صَداىَ بقَفْرةٍ ... بعيداً نآنِى صاحبى وقريبى(٩)

---

(١) هكذا فى العقد الفريد ، وفى النسخ « جد بن قيس » .

(٢) يزن : يظن ويتهم .

(٣) فى العقد : « أنفق بلالاً ، ولا تخش من ذى العرش إقلالا » .

(٤) أوكى السقاء : شد فمه بحبل . والمعنى : لا تحبس الخير عن الناس فيحبس عنك .

(٥) أى مازاد على حاجتك .

(٦) الضمير فى حثت يعود على زوجته ، يقول حثتنى على جمع الأموال ومنع السائلين وقد كذبتها نفسها حقا عند ماصورت لها الخوف من صروف الدهر وأحداثه .

(٧) المرزأ : الكريم يصاب من ماله كثيراً .

(٨) يقول . قد شهدتنى وغاب عنى هؤلاء الكرماء ، وكنت أظننى فى حاجة إلى أن يحضرونى لأنهم على شاكلتى فى الكرم والجود وتغيبى عنى لأنك تأمريننى بما لايلائم شيمتى من الجمع والمنع .

(٩) جاء فى لسان العرب : « قال أبو العباس المبرد : الصدى على ستة أوجه أحدها : ما يبقى من الميت فى قبره ، وهو جثته . قال النمر بن تولب :

أعاذل إن يصبح صداى بقفرة ... بعيدا نآنى ناصرى وقريبى

=

تَرَىْ أنَّ ما أبقيتُ لم أكُ ربَّه وأن الذى أمضيتُ كان نصيبى (١)
وذى إبلٍ يسعَى ويحسَبُها له أخِي نَصَبٍ فى رَعْيِها وَدُءوبِ (٢)
غَدَتْ وغدَا ربٌّ سواه يَسوقُها وَبُدِّل أحجاراً وجالَ قَلِيبِ (٣)

وقال أيضاً :

قامت تَبَاكَى أنْ سبَأْتُ لِفتْيةٍ زِقًّا وخابِيـــةً بِعَوْدٍ مُقْطَعِ (٤)
وقَرَيْتُ فى مَقْرَى قلائِصَ أربعاً وقَرَيْتُ بعد قِرَى قلائِصَ أربعِ (٥)
أَتَبَـكِّيًا من كل شيء هَيِّنٍ ؟ سَفَهٌ بكاءُ العين ما لم تَدْمَعِ (٦)
فإذا أتانى إخـــوتى فَدِعِيهِمُ يتعلَّلوا فى العيش أو يَلْهُوا معى (٧)

= فصداه : بدنه وجثته ، وقوله : ناءنى : أى نأى عنى » (ثم قال : والصدى : الذكر من البوم . وكانت العرب تقول : إذا قتل قتيل فلم يدرك به الثأر خرج من رأسه طائر كالبومة ، وهي الهامة والذكر الصدى ، فيصيح على قبره اسقونى اسقونى ، فإن قتل قاتله كف عن صياحه) ــ وقد أورد المبرد معانى الصدى مفصلة فى شرحه لهذا البيت فى كتابه الكامل ج ١ : ص ١٧٨ ــ وقال صاحب اللسان أيضاً فى مادة نأى : « قال المبرد : ناءنى فيه وجهان : أحدهما أنه بمعنى أبعدنى كقولك زدته فزاد ونقصته فنقص والوجه الآخر فى ناءنى أنه بمعنى نأى عنى ، قال أبو منصور : وهذا القول هو المعروف الصحيح » وجاء فى الكامل : « تأويل قوله ناءنى يكون على ضربين : يكون أبعدنى . وأحسن ذلك أن يقول أناءنى ، وقد رويت هذه اللغة الأخرى وليست بالحسنة ، وإنما جاءت فى حروف ، يقال : غاض الماء وغضته ، ونزحت البئر ونزحتها ، وهبط الشيء وهبطته ــ وبنو تميم يقولون أهبطته ــ وأحرف سوى هذه يسيرة ، والوجه فى فعل أفعلته نحو دخل وأدخلته ، ومات وأماته الله ، فهذا الباب المطرد ، ويكون ناءنى فى موضع نأى عنى ، كما قال الله عز وجـــل « وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ » أى كالوا لهم ووزنوا لهم » .

(١) لم أكُ ربه : أى لم أكُ صاحبه ، وإنما هو مال الوارث .

(٢) « فى رعيها » رواية المبرد ، وفى الأصل « فى شقها » .

(٣) أحجارا : أى أحجار القبر ، والجال : ناحية القبر وجانبه ، والقليب : البئر ، والمراد هنا القبر .

(٤) تباكى : أى أسفا لكثرة ما أبذل للضيوف ، وسبأ الخمر كجعل : شراها . والزق والخابية : وعاءان ، والعود : المسن من الإبل ، والمقطع : البعير قام من الهزال .

(٥) قرى الضيف كرمى قرى بالكسر : أضافه وأحسن إليه (وهو هنا على معنى أطعمت) ، والمقرى بفتح الميم : مكان القرى (وبالكسر : الجفنة) والقلائص جمع قلوص كصبور وهى الناقة الشابة القوية، والمعنى : أطعمت أضيافى قلائص أربعا ثم قريتهم بعد ذلك .

(٦) قصد بالتبكى هنا التباكى : وهو تكلف البكاء .

(٧) يتعللوا بالعيش : يتشاغلوا ويتلهوا به ، وفى الأصل « فى العيش » .

لاتَطارديهم عن فِراشي ، إنه ‏ لا بُدَّ يوما أنْ سيخلو مَضْجَعِي[١]

هــلَّا سألتِ بعادياء وبيتهِ ‏ والخيل والخمر التى لم تُمْنَعِ[٢]

وقال الحارث بن حِلِّزة :

بينا الفتى يسعَى ويُسْعَى له ‏ تاحَ له من أمره خالِجُ[٣]

يترك ما رقَّحَ مِن عيشه ‏ يَعيثُ فيــه هَمَجٌ هامِجُ[٤]

لا تَـكْسَعِ الشَّــولَ بأغبارِها ‏ إنكَ لا تدْرِى مَن الناتِجُ[٥]

وقال الهُذَلىّ :

إن الكرام مُناهِبُو ‏ كَ المَجْدَ كلُّهم فَنَاهِبْ[٦]

أَخْلِفْ وأتلِفْ ، كلُّ شي ‏ ء ذرَّعته الريحُ ذاهِبْ[٧]

---

(١) أى سأموت .

(٢) عادياء : أبو السموءل ، ورواية صاحب اللسان « والخل » بدل « والخيل » .

(٣) تاح له الشيء يتوح ويتيح : تهيأ . خالج : قالع منتزع .

(٤) الترقيح والترقح : إصلاح المعيشة . والهمج : الرعاع من الناس والهمل الذين لانظام لهم ، وهامج توكيد له كقولهم يوم أيوم وليل أليل وليل لائل وليلة ليلاء ووتد واتد .

(٥) الشائلة من الإبل : ما أتى عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر فجف لبنها ، جمعها شول على غير قياس ، وأغبار جمع غبر بالضم : وهو بقية اللبن فى الضرع ، وكسع الناقة بغبرها كمنع : ترك فى خلفها بقية من اللبن يريد بذلك تغزيرها ، وهو أشد لها ، وإذا ولى الإنسان ناقة أو شاة ماخضاحتى تضع قبل نتجها نتجا من باب ضرب ، فالإنسان كالقابلة لأنه يتلقى الولد ويصلح من شأنه ،فهو ناتج والبهيمةمنتوجة والولد نتيجة ، وأورد صاحب اللسان بعد هذا البيت بيتا آخر وهو :

واحلب لأضيافك ألبانها ‏ فإن شر اللبن الوالج

قال « والوالج : أى الذى يلج فى ظهورها من اللبن المكسوع ، يقول : لا تغزر إبلك تطلب بذلك قوة نسلها ، واحلبها لأضيافك فلعل عدوا يغير عليها فيكون نتاجها له دونك » وقال المبرد فى الكامل ــ ج ١ : ص ١٨٠ ــ « قوله * لا تكسع الشول بأغبارها * فإن العرب كانت تنضح على ضروعها الماء البارد ليكون أسمن لأولادها التى فى بطونها ، والغبر بقية اللبن فى الضرع ، فيقول: لاتبق ذلك للإبن لسمن الأولاد فإنك لاتدرى من ينتجها فلعلك تموت فتكون للوارث أو يغار عليها » .

(٦) ناهبه : باراه فى العدو ، مناهبوك المجد : أى مسابقوك فى إحرازه .

(٧) ذرعته : حركته ، وفى البيان والتبيين : زعزعته الريح ، ونسب الشعر إلى المسعودى .

وقالت امرأة :

أنت وَهَبْتَ الفتيةَ السَّلاهِبْ وإبلا يحارُ فيها الحالِبْ[١]
وغَنَما مثلَ الجرادِ السارِبْ متاعُ أيامٍ ، وكلٌّ ذاهِبْ[٢]

وقال تميم بن مقبل :

فأخلِفْ ، وأتلِفْ ، إنما المال عارةٌ وكُلْه مع الدهر الذى هو آكِلُهْ[٣]

وقال أبو ذرٍّ : «لك فى مالك شريكان : الوارِثُ والحدَثانُ » وقال الحطيئة :

مَن يفعل الخيرَ لايعدَمْ جَوازِيَه لايذهَبُ العُرْفُ بين الله والناسِ

وجاء فى الأثر : « إن أهل المعروف فى الدنيا أهلُ المعروف فى الآخرة » وفى المثل : « اصنع الخيرَ ولو إلى كلب » وفى الحث[٤] على القليل ـ فضلا عن الكثيرـ قال الله جل ذكره : « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثقَالَ[٥] ذرَّةٍ خَيْرًا يرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثقَالَ ذرَّةٍ شَرًّا يرَهُ» وقالت عائشة فى حَبَّة عنب : «إن فيها لَمثاقيلَ ذر» ولذلك قالوا فى المثل « من حَقَر حرَم[٦] » وقال سَلْم بن قتيبة: « يستحى أحدهم من تقريب القليل من الطعام، ويأبى أعظم منه » وقال : «جُهْد المرء أكثرُ من عَفْوه[٧] » وقدّم رسول الله صلى الله عليه وسلم جُهْدَ المُقِلّ على عَفْو المُكثِر ، وإن كان مَبْلَغُ جهده قليلا ، ومبلغُ عفوِ المكثِر كثيرا ، وقالوا : « لا يمنعك من معروف صِغَرُه» وقال النبى صلى الله عليه وسلم:

---

(١) السلاهب مفعول ثان لوهبت جمع سلهب كجعفر ، وهو من الخيل ماعظم وطال عظامه . وحيرة الحالب فى الإبل : كناية عن كثرتها أو غزارة لبنها .
(٢) أى وهذه متاع أيام قليلة .
(٣) العارة : العارية ، وهى الشىء يستعار ثم يرد إلى صاحبه .
(٤) فى النسخ « وقال فى الحث » وفيها « فضلا على الكثير » .
(٥) المثقال هنا : المقدار والزنة .
(٦) أى من حقر القليل الذى لديه فلم يبذله حرم كثيراً من ذوى الحاجة ، وقال الميدانى فى تفسيره « أى من حقر يسيراً مايقدرعليه ولم يقدر على الكثير . ضاعت لديه الحقوق » .
(٧) أى مايبذله المرء عن جهد وقلة أكثر ثوابا مما يبذله عن زيادة وسعة .

« اتقوا النار ولو بِشِقٍّ[1] تمرة » وقال : « لاتردُّوا السائل ولو بظِلْفٍ مُحرَقٍ[2] » وقال : لاتردُّوه ولو بِفِرْسَنٍ[3] شاةٍ » وقال : « لاتحقِّروا اللقمة فإنها تعود كالجبل العظيم[4] » ، لقول الله جل ذكره . « يَمْحَقُ اللهُ الرِّبا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ » وقال : « لاتردُّوه ولو بصلة حَبْلٍ[5] » وقالت العرب . «أتاكم أخوكم يستتمُّكم[6] فأتمُّوا له» وقالوا . « مانع الإتمام ألومُ » وقالوا . « البخيل إن سأل أَلْحفَ[7] وإن سُئل سوَّف» وقالوا . « إن سئل جحَدَ ، وإن أعطَى حقَد » وقالوا . « يرُدُّ قبل أن يَسْمَعَ ، ويغضَب قبل أن يَفهم » وقالوا . « البخيل إذا سُئل ارْتزَّ[8] ، وإذا سُئل الجواد اهتزَّ » وقال النبى صلى الله عليه وسلم . « يُنادِى كلَّ يوم مناديان من السماء يقول أحدهما . اللهم عجِّلْ لمنفقٍ خَلَفًا ، ويقول الآخر :اللهم عجِّلْ لمُمْسِكٍ تَلَفًا » وقالوا : « شَرُّ الثلاثة المُلِيمُ[9] ، يمنع دَرَّه[10] ودرَّ غــيره » وقال الله جل ذكره : « الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ » وقالوا فى المثل : « إذا ألجأك الدهر إلى بخيل ، شَرٌّ ما ألجأك إلى مُخَّةِ عُرْقوب[11] » وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « قل العَدْلَ ، وأعْطِ الفضلَ » وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « أنهاكم

---

(١) الشق : النصف .
(٢) الظلف : ظفر كل ماجتر ، وهو للبقر والشاء والظباء ، وشبهها بمنزلة القدم للإنسان .
(٣) الفرسن . طرف خف البعير ، وقد يستعار للشاة .
(٤) أى يعود ثوابها يوم القيامة فى عظمه كالجبل العظيم .
(٥) أى ولو بصلة من حبل .
(٦) يستتم : يطلب تمام ما يحتاج إليه .
(٧) ألحف : ألح . (٨) ارتز : أمسك وبخل .
(٩) الثلاثة : هم الآخذ والمعطى ومن يلوم المعطى ، وألام : أتى مايلام عليه .
(١٠) الدر : اللبن ، والمراد هنا الخير عامة .
(١١) ألجأك : اضطرك ، ويروى فى القاموس « شرما أجاءك إلى مخة عرقوب » وفى مجمع الأمثال: « شرما يجيئك ... » ـ مضارع أجاء ـ قال الميدانى : ويروى « مايشيئك » والشين بدل من الجيم وهذه لغة تميم ، يقال : أجأته إلى كذا : أى ألجأته ، والمعنى : ما ألجأك إلى مخــة عرقوب إلا شر أى فقر وفاقة ؛ وذلك أن العرقوب لامخ له وإنمــا يحوج إليه من لايقدر على شىء ، يضرب للمضطر جدا يطلب من اللئيم .

عن عقوق الأمهات ، ووأدِ البنات ، ومَنْعٍ وهاتِ » وقال الله عز وجل « وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيرًا » وقال « لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ » وقال « وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ، وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » وقالوا : فى الصبر على النائبة وفى عاقبة الصبر : « عند الصباح يَحْمَدُ القومُ السُّرَى[1] وقالوا : « الغَمَرَاتُ ، ثم يَنْجَلِينَ[2] » وقال الخُزَيمى :

ودُونَ النَّدَى فى كل قلبٍ ثَنِيَّةٌ   لها مَصْعَدٌ حَزْنٌ ومُنحدَرٌ سَهلُ[3]

ووَدَّ الفتى فى كل نَيْلٍ يُنيلهُ   (إذا ما انقضَى) لو أن نائلَه جَزْلُ[4]

وقالوا : خيرُ الناس خيرُ الناس للناس ، وشر الناس شر الناس للناس » وقالوا : « خير مالك ما نفعك » وقالوا : « عَجَبا لفَرْط الكَبْرة مع شباب الرَّغبة[5] »

وَقال الراجز :

---

(١) أول من قال ذلك خالد بن الوليد لما بعث إليه أبو بكر رضى الله عنهما وهو باليمامة : أن سر إلى العراق ، فأراد سلوك المفازة ، فقال له رافع الطائى : قد سلكتها فى الجاهلية ، هى خمس للابل الواردة (والخمس بالكسر من أظماء الإبل ، وهى أن ترعى ثلاثة أيام وترد الرابع) ولا أظنك تقدر عليها إلا أن تحمل من الماء ، فاشترى مائة شارف (والشارف : المسن الهرم من الإبل) فعطشها ثم سقاها الماء حتى رويت . ثم كتبها (أى ختم حياءها) و كعم أفواهها (أى شدها) ثم سلك المفازة ، حتى إذا مضى يومان وخاف العطش على الناس والخيل ، وخشى أن يذهب ما فى بطون الإبل ، نحر الإبل واستخرج ما فى بطونها من الماء فسقى الناس والخيل ومضى ، فلما كان فى الليلة الرابعة قال رافع : انظروا ، هل ترون سدرا عظاما (والسدر بالكسر : شجر النبق) فإن رأيتموها وإلا فهو الهلاك ، فنظر الناس فرأوا السدر فأخبروه فكبر و كبر الناس ثم هجموا على الماء فقال خالد من أبيات :

عند الصباح يحمد القوم السرى   وتنجلى عنهم غيابات الكرى

يضرب للرجل يحتمل المشقة رجاء الراحة .

(٢) يروى « الغمرات » وكأنه قال : هى الغمرات ، أو القصة الغمرات تظلم ثم تنجلى . ويروى « غمرات » . أى هذه غمرات وهى الشدائد جمع غمرة لأنها تغمر الواقع فيها بشدتها : أى تقهره ، والمثل للأغلب العجلى ، يضرب فى احتمال الأمور العظام والصبر عليها .

(٣) الثنية : المكان المرتفع الصعب المطلع ، أى إن الكرم شاق على النفس — لأن الفضيلة شاقة ولولا مشقتها لساد الناس جميعاً .

(٤) الجزل : العظيم .

(٥) أى عجبا لامرىء هرم فان ورغبته فى الجم والكدح فتية .

كلُّنا يأمُلُ مَدًّا في الأَجَلْ والمنايا هى آفاتُ الأَمَلْ[١]

وقال عبيد الله بن عِكْراش : « زمنٌ خَئونٌ ، ووارِثٌ شَفُونٌ[٢] ، وكاسِبٌ حَزُونٌ[٤] ، فلا تأمَنِ الخئونَ ، وكن وارثَ الشَّفُونِ[٣] » وقال : يَهْرَمُ ابنُ آدمَ ويَشِبُّ معه خَصْلتان : الحرصُ والأملُ » وكانوا يَعيبون مَن يأكل وحدَه ، وقالوا : «ما أكل ابنُ عمرَ وحدَه قطُّ » ، وقالوا : « ما أكل الحسنُ[٥] وحدَه قط » وسمع مُجاشِعٌ الرَّبَعِيّ قولهم : « الشحيحُ أعذرُ من الظالم » فقال : « أخزى اللهُ أمرين خيرُهما الشحُّ » وقال بكر بن عبد الله المُزَنيُّ : « لو كان هذا المسجد مُفْعَماً بالرجال ثم قيل لى : مَن خيرهم ؟ لقلت : خيرُهم لهم[٦] » وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « ألا أنبئكم بشراركم ؟ » قالوا : بَلَى يا رسول الله ، قال : « من نَزَل وَحْدَه ، ومنع رِفْدَه ، وجَلَد عبدَه » وقالت امرأة عند جَنازة رجل : أمَا واللهِ ما كان مالُكَ لبطنك ، ولا أمْرُكَ لِعِرْسِك[٧] » .

٧١ — رسالة ابن التوءم إلى الثقفى

فلما بلغت الرسالة ابن التوءم ، كَرِه أن يجيب أبا العاص ، لما فى ذلك من المناقشة والمباينة[٨] ، وخاف أن يترقَّى الأمر إلى أكثرَ من ذلك ، فكتب هذه وبعث بها إلى الثقفىّ :

---

(١) هكذا فى نسخة الشنقيطى ، وفى غيرها آفات الأجل .

(٢) الشفون فى الأصل : الناظر بمؤخر عينه كراهة أو عجبا . والمعنى هنا الكاره المترقب وفاة مورثه

(٣) أى شديد الحزن .

(٤) اى أنفق بحيث لا تترك شيئا لوارثك : فإذا مات استفدت من إرثه ولم يستفد من إرثك .

(٥) يعنى الحسن البصرى .

(٦) أى خيرهم أكثرهم إسداء خير لهم .

(٧) العرس : الزوجة ، أى كنت كريما مستقلا بتصريف أمورك .

(٨) أى الابتعاد والتهاجر .

« بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعدُ فقد بلغني ما كان من ذكر أبي العاص لنا ، وتنويهه(١) بأسمائنا ، وتشنيعه علينا ، وليس يمنعنا من جوابه إلا أنه إن أجابنا لم يكن جوابنا إيّاه على قوله الثاني أحقَّ بالترك مِن جوابنا له على قوله الأول ، فإن نحن جعلنا لابتدائه جوابا ، وجعلنا لجوابه الثاني جوابا ، خرجنا إلى التَّهاتُر(٢) ، وصرنا إلى التخابُر(٣) ، ومن خرج إلى ذلك فقد رَضِيَ باللَّجاج(٤) حظًّا ، وبالسُّخف(٥) نصيباً ، وليس يحترس من أسباب اللجاج إلا من عرَفَ أسباب البَلْوَى(٦) ، ومن وقاه الله سوء التِّكفِّي(٧) وسُخْفَه ، وعَصَمَه من سوء التصميم(٨) ونَكَدِه ، فقد اعتدلتْ طبائعُه، وتساوت خواطرُه ، ومن قامت أخلاطُه على الاعتدال وتكافأت خواطره في الوزن ، لم يعرِف من الأعمال إلا الاقتصادَ ، ولم يجد أفعاله أبداً إلا بين التقصير والإفراطِ ، لأن الموزون لايولِّد إلا موزونا ، كما أن المختلف لايولِّد إلا مختلفاً(٩) ، فالمتتايِع(١٠) لايَثْنيه زجرٌ ، وليست له غايةٌ دون التَّلَفِ ، والمتكفِّي ليس له مأْتًى ولا جهةٌ ، ولا له رُقْيَة(١١) ولافيه حيلةٌ ، وكلُّ متلوِّنٍ(١٢) في الأرض فمُنحَلُّ العَقْد ،

---

(١) التنويه هنا : الذكر ، أي وذكر أسمائنا ، فقد تقدم قول أبي العاص في أول رسالته إلى الثقفي « واختلافك إلى ابن التوءم » . (٢) تهاترا : ادعى : كل على صاحبه باطلا .

(٣) تخابر الرجلان : تغالبا في العلم والمعرفة ، يقال : خابره في العلم فخبره : أي غالبه فغلبه ، وفي النسخ « التجابر » ولم نجد لها معنى .

(٤) التمادي في الخصومة . (٥) السخف : ضعف العقل .

(٦) أي لأن اللجاج يؤدي حتما إلى شر ومصيبة ، فمن تجنب أسبابه تجنب أسباب المصائب .

(٧) الذي في لسان العرب . التكفؤ : التمايل إلى قدام ، يهمز ولا يهمز ، والأصل الهمز ، تكفأ تكفؤا كتقدم تقدما ، فإذا خففت الهمزة التحق بالمعتل وصار تكفى تكفيا كتسمى تسميا ، ولكن المراد بالتكفي هنا : اكتفاء المرء برأي نفسه وتشبثه به واستبداده ، يؤيد ذلك الفقرة التالية .

(٨) التصميم : المضي في الأمر من غير إصغاء إلى نصح .

(٩) أي لأن الأفعال آثار الأمزجة ، فإذا كانت الأمزجة معتدلة متزنة أنتجت أفعالا متزنة ، وإذا كانت مضطربة أنتجت أفعالا كذلك .

(١٠) المتتايع : المتهافت على الشر المتمادي فيه المسرع إليه من غير تثبت أو تطرق الأمور .

(١١) أي لا تجد منفذا لهدايته وإرشاده ، ولا تنفع فيه الوسائل ، وهو أشبه بمن مسه الجن ، لاتنفع فيه رقية . والرقية : مايقرأ للمحموم والمصروع ليشفى .

(١٢) المتلون المتقلب في الرأي ، له في كل ساعة رأي .

مُيَسَّر لكل رِيح ، فدع عنك خِلطةَ الإمَّعَة[1] فإنه حارِصٌ[2] لاخيرَ فيه ، واجتنِبْ رَكوب الجَمُوح ذى النَّزَوات ؛ فإن غايته القتلُ الزُّؤاف[3] ، ولا[4] فى الحَرُون ذى التصميم ، والمتلونُ شر من المصمِّم ، إذ كنت لاتعرف له حالا يقصِد إليها ، ولا جهةً يعمَل عليها ، ولذلك صار العاقل يخدعُ العاقلَ ولا يخدعُ الأحمقَ ؛ لأن أبواب تدبير العاقل وحِيلَه معروفةٌ ، وطُرَق خواطرِه مسلوكةٌ ، وَمذاهبَهُ محصورة معدودة ، وليس لتدبير الأحمقِ وحِيَلِه جهةٌ واحدة مَن أخطأَها كَذَب[5] ، والخبَرُ الصادق عن الشىء الواحد واحدٌ ، والخبر الكاذب عن الشىء الواحد لايُحْصَى له عددٌ ، ولا يوقَف منه على حَدّ ، والمصمِّم قتلُه بالإجهاز[6] ، والمتلوِّن قتلُه بالتعذيب[7] ، فإن قلنا فليس إليه[8] نقصِد ، وإن احتججْنا فلسنا عليه نَرُدّ ، ولكنا إليك نقصِد بالقول ، وإليك نُريد بالمَشُورة ، وقد قالوا : « احفظ سِرَّك فإن سِرَّك من دمك » وسواء ذهابُ نفسك وذهابُ مابه يكون قِوَامُ نفسِك[9] ، قال المُنْجابُ العَنْبَرِىّ : « ليس بكبيرٍ ما أصلحه المالُ[10] » وفقدُ الشىء الذى به تصلُحُ الأمور ، أعظمُ من الأمور[11] ، ولهذا قالوا فى الإبل : « لو لم يكن فيها إلا أنها رَقُوء[12] الدم » فالشىء

---

(١) الإمع والإمعة : الرجل يتابع كل إنسان على رأيه لايثبت على شىء .

(٢) الحارص : الملتهم لايكاد يترك شيئا .

(٣) عبارة النسخ « واجتنب ركوب الجوح فإن غايته قبل الذواق ذى البدوات » وهى غير مفهومة . والقتل الزؤاف : السريع .

(٤) عطف على المجرور فى لاخير فيه ، أى ولاخير فى الحرون ، والحرون ، الدابة تعصى صاحبها فتقف ولا تمشى .

(٥) أى ليس للأحمق اتجاه واحد فى تدبيره ، حتى إذا لم يهتد إليه إنسان قيل إنه أخطأ .

(٦) المراد أن الضرر الذى يصل من المصمم يصل دفعة واحدة . فهو كالقتل بالإجهاز .

(٧) أى أن المتلون يأتيك منه الضرر فى نوبات متقطعة ، فكأنه يقتل بالتعذيب .

(٨) الضمير فى إليه يعود إلى المتلون .

(٩) أى مادام السر جزءا من الدم وهو قوام النفس ، ففقده يساوى فقد النفس .

(١٠) أى كل ضرر يستطيع المال أن يصلحه ليس بكبير .

(١١) أى فقد المال الذى يصلح اختلال الأمور أعظم من فقد أى أمر .

(١٢) رقأ الدم : جف وسكن ، والرقوء كصبور : مايوضع على الدم ليرقئه : أى أنها تحقن الدماء لأنها تدفع فى الديات فيكف صاحب الثأر عن طلبه فيحقن دم القاتل ، وجواب لو محذوف : أى لكفاها فضلا وهو من قول أكثم بن صيفى — انظر جمهرة خطب العرب ١ : ٣٠٥ .

الذى هو ثَمَنُ الإبلِ وغيرِ الإبل أحقُّ بالصون ، وقد قضَوا بأن حفظ المال أشدُّ من جمعه ، ولذلك قال الشاعر :

وحِفْظُكَ مالًا قد عُنِيتَ بجَمْعِهِ   أشد من الجمع الذى أنت طالبُهْ

ولذلك قال مشترى الأرض لبائعها حين قال له البائع : دفعتُها إليك بطيئةَ الإجابَةِ ، عظيمة المئُونةِ (١) ، قال (٢) دفعْتُها (٣) إليك بَطِيئةَ الاجتماع ، سريعة التفرق ، والدرهم هو القُطبُ الذى تدور عليه رَحَى الدنيا . واعلم أن التخلص من نَزَوات الدرهم وتقلُّبِه من سُكر الغنَى وتفلُّتِه شديدٌ (٤) ، فلو كان إذا تفلَّتَ كانَ حارسُه صحيحَ العقل سليمِ الجوارح لَرَدَّه فى عِقاله ، ولَشَدَّه بِوَثاقه ، ولكنا وجدنا ضعفَه عن ضَبْطه بقدر قَلَقِه فى يده (٥) ، ولا تغترَّ بقَوْلهم : « مال صامِتٌ (٦) » فإنه أنطَقُ من كل خطيب ، وأنمُّ من كل نَمَّام ، فلا تَكترِثْ بقولهم : « هذين الحَجَرين (٧) » فتتوهَّمَ جمودَهما وسكونَهما وقلةَ ظَعْنِهما وطولَ إقامتهما ، فإنَّ عملَهما وهما ساكنان ، ونقْضَهما للطبائع وهما ثابتان ، أكثرُ من صنيع السُّمِّ الناقع ، والسَّبُع العادِى ، فإن كنتَ لا تكتفى بصَنيعه (٨) حتى تُمِدَّه ، ولا تحتالُ فيه حتى يُحتالَ له ، فالقبرُ خير لك من الفقر ، والسجنُ خير لك من الذُّلِّ .

وقولى هذا مُرُّه يُعقِب حلاوةَ الأبد ، فخذ لنفسك بالثِّقة (٩) ، فقولك الماضى حُلو

---

(١) الضمير فى دفعتها يعود للأرض أى أنها لا تثمر إلا بعد مدة وهى تحتاج إلى نفقات كثيرة حتى تثمر .   (٢) الضمير فى قال يعود للمشترى .

(٣) الضمير فى دفعتها يعود للدراهم وهى ثمن الأرض .

(٤) تقلب الدرهم : انتقاله من يد إلى يد ، ويكون أكثر تقلب الدرهم بسبب الاغترار بالغنى : أى أن رياضة الدرهم ومنعه من التقلب والفرار عندما تدرك صاحبه نشوة الغنى والاستهانة بالمال ليست بالأمر الهين .

(٥) أى أننا شاهدنا ضعف مالك الدرهم عن حبسه مساويا لقلق الدرهم ورغبته فى الفرار .

(٦) المال الصامت : الذهب والفضة ونحوهما ، والمال الناطق : الحيوان .

(٧) نصبه على تقدير : اجمع هذين الحجرين مثلا ، وهما الذهب والفضة .

(٨) الضمير فى صنيعه يعود إلى الدرهم ، وحتى تمده : أى تساعده على التفات .

(٩) أى حصن نفسك بالثقة بهذا القول .

يُعقِب مرارةَ الأبد ، فخذ لنفسك بالثقة ، ولا ترضَ أن يكون الحِرْباء الراكبُ العُودِ أحزمَ منك ، فإن الشاعر يقول :

أنَّى أُتيحَ لهـا حِرْباء تَنْضُبَةٍ لا يُرْسِلُ الساقَ إلا مُمْسِكا ساقَا[١]

واحذر أن تُخْرِج من مالك درهماً حتى تَرَى مكانه خيراً منه ، ولا تنظرْ إلى كثرته ، فإنَّ رملَ عالِج[٢] لو أُخِذ منه ولم يُرَدَّ عليه لذهَبَ عن آخره ، إن القوم قد أكثروا فى ذكر الجود وتفضيلِه ، وفى ذكر الكرم وتشريفِه ، وسَمَّوا السَّرفَ جوداً وجعلوه كرما ، وكيف يكون كذلك وهو نِتاجُ ما بين الضعف والنَّفْج[٣] ، وكيف والعطاء لا يكون سَرَفا إلا بعد مجاوزة الحق ، وليس وراءَ الحق إلى الباطل كرمٌ ، وإذا كان الباطلُ كرما كان الحقّ لؤما ، والسَّرَفُ ـ حفظك الله ـ معصيةٌ ، وإذا كانت معصيةُ الله كَرَماً ، كانت طاعته لؤما ، ولئن جمعهما[٤] اسم واحد ، وشَمِلهما حكْمٌ واحد (ومضادَّةُ[٥] الحقِّ للباطل كمضادَّةِ الصدق للكذب ، والوفاء للغدر ، والجورِ للعدل ، والعلمِ للجهل) لَيَجْمَعَنَّ هذه الخصالَ اسمٌ واحد ، ولَيَشْمَلَنَّها حكم واحد ، وقد وجَدْنا اللهَ عاب السَّرفَ ، وعاب الحَمِيَّة[٦] ، وعاب المعصيةَ ، ووجدناه

---

(١) الحرباء مذكر والتنضبة : شجرة حجازية شائكة ، والحرباء يشتد عليه حر الشمس فيلجأ إلى ساق شجرة يستظل بظلها ، فإذا أدركته الشمس تحول إلى ساق أخرى ، وهو مثل يضرب لمن لايدع له حاجة إلا سأل أخرى ــ انظر مجمع الأمثال ٢ : ١١ ، وجاء فى لسان العرب مادة حرب « قال أبو دواد الإيادى : أنى أتيح له . . قال ابن برى : هكذا أنشده الجوهرى وصواب إنشاده « أنى أتيح لها » لأنه وصف ظعنا ساقها وأزعجها سائق مجد ، فتعجب كيف أتيح لها هذا السائق المجد الحازم ، وهذا مثل يضرب للرجل الحازم ، لأن الحرباء لا يفارق الغصن الأول حتى يثبت على الغصن الآخر » .

(٢) عالج : رمال معروفة بالبادية .

(٣) النفج : التفاخر الكاذب بالمال .

(٤) أى جمع السرف والكرم .

(٥) هذه الجملة حالية معترضة بين القسم (لئن جمعهما) وجوابه (ليجمعن) .

(٦) الحمية : شدة الأنفة ، وهى الغضب والإباء للحماية ، قال تعالى : « إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ »

قد خص السَّرفَ بما لم يَخُصَّ به الحَمِيَّةَ[1] ، لأنه ليس حُبُّ المرء لرَهْطه من المعصية ، ولا أَنَفَتُه من الضيم من حَمِيَّة الجاهلية ، وإنما المعصيةُ ما جاوز الحقَّ ، والحميةُ المَعيبةُ ما تَعَدَّى القصدَ ، فوجدْنا اسمَ الأنفةِ قد يقع محموداً ومذموما ، وما وجَدْنا اسمَ المعصية ولا اسمَ السَّرَفِ يقع أبداً إلا مذموما ، وإنما يُسَرُّ باسم السرف جاهلٌ لا عِلْمَ له ، أو رجل إنما يُسَرُّ به لأن أحداً لا يسميه مُسْرِفًا حتى يكون عنده قد جاوز حدَّ الجود ، وحَكَمَ له بالحق ثم أردفه بالباطِلِ[2] ، فإن سُرَّ من غير هذا الوجه[3] ، فقد شارَكَ المادحَ فى الخطأ ، وشاكَله فى وضع الشىء فى غير موضعه .

وقد أكثروا فى ذكر الكرم ، وما الكرمُ إلا كبعض الخصالِ المحمودة التى لم يَعدَمها بعضُ الذمِّ[4] ، وليس شىء يخلو من بعض النقص والوهْن ، وقد زعم الأولون أن الكرم يسبِّب الغبَا[5] ، وأن الغبَا يسبِّب البلَه[6] ، وأنه ليس وراء البَلَه إلا العَتَه[7] ، وقد حَكَوا عن كِسرى أنه قال : « احذروا صَوْلةَ الكريم إذا جاع ، واللئيم إذا شَبِع » وسواء جاع فظَلَمَ ، وأحفَظَ وعَسَفَ ، أم جاع وكذب ، وضرع وأَسَفَّ[8] ، وسواء جاع فظلم غيرَه ، أم جاع فظلم نفسه ، والظلم لؤم ، وإن كان الظلم ليس بلؤم ، فالإنصافُ ليس بكرم ، وإن كان الجودُ على من لا يستحق الجود كرما ، فالجود لمن وجب له ذلك ليس بكرم ، فالجود إذا كان لله كان شكرا له ، والشكر كرم ،

---

(١) أى مع أن الله عاب الحمية فإن هناك ضربا من الحمية محمودا ، أما السرف والمعصية فمذمومان على الإطلاق ، وليس فى أحدهما نوع محمود .

(٢) أى أنه يسر بوصفه بالسرف ، لأن هذا الوصف يتضمن معنى الجود ، ثم مجاوزة الحد فيه ، فواصفه فى هذه الحال حكم له بالجود ضمنا ، وهذا حق ، ثم أردفه بالباطل وهو مدح السرف .

(٣) أى وظن أن مادحه يصفه بالجود المحمود الذى لم يخرج إلى السرف .

(٤) أى لم يفقد منها بعض الذم بتجاوزها القصد أو بالمغالاة فيها .

(٥) الغبا : عدم الفطنة ، غبى الشىء وعنه كفرح غبا وغباوة وعبارة النسخ « أن الكرم يسبب الغنى وأن الغنى ... » .

(٦) البله : ضعف العقل وبابه فرح .

(٧) فى النسخ « المعتوه » والعته : نقص العقل أو فقده ، والمراد هنا الثانى .

(٨) أسف : انحط إلى دنيئات الأمور .

ولن يكون الجودُ إذا كان معصيةً كرما ، وكيف يتكرَّم من يتوسل بأياديك إلى معصيتك ، وينعَمك إلى سُخْطك ، فليس الكرمُ إلا الطاعةَ ، وليس اللؤم إلا المعصية، وليس بجودٍ ما جاوز الحق ، وليس بكرم ما خالف الشكرَ ، ولئن كان مُجاوزُ الحقِّ كريما ليكونَنَّ المقصِّرُ دونه كريما[1] ، فإن قضيتم بقول العامَّة[2] فالعامةُ ليست بقُدوة. وكيف يكون قدوةً مَن لا ينظر ، ولا يُحصِّل ، ولا يفكِّرُ ولا يمثِّل[3] ، وإن قضيتم بأقاويلِ الشعراء وما كان عليه أهلُ الجاهليةِ الجُهلاء ، فما قبَّحوه مما لا يُشَكّ فى حُسْنه أكثرُ من أن نقف عليه أو نتشاغل باستقصائه .

على أنه ليس بجودٍ إلا ما أوجب الشكرَ ، كما أنه ليس ببُخلٍ إلا ما أوجب اللؤمَ ، ولن تكون المطيةُ نعمةً على المعطَى حتى تُراوَدَ بها[4] نفسُ ذلك المعطَى ، ولن يجب عليه الشكرُ إلا مع شريطة القَصْد ، وكلُّ مَن كان جودُه يرجع إليه — لولا رجوعُه إليه لَمَا جادَ عليك ، ولو تهيأ له ذلك المعنَى فى سواك ، لَمَا قَصَدَ إليك — فإنما[5] جعلك مِعْبَرا لدَرْك حاجته ، ومَرْكَبا لبلوغ محبته ، ولولا بعضُ القول[6] لوجَبَ لك عليه حق يجب به الشكر ، فليس يجب لمن كان كذلك شكرٌ ، وإن انتفعْتَ بذلك منه ، إذ كانَ لِنفسه عَمِلَ ، لأنه لو تهيأ له ذلك النفعُ فى غيرك لَمَا تخطّاه إليك .

وإنما يوصَف بالجود فى الحقيقة ، ويُشْكَر على النفع فى حُجَّة العقل ، الذى إن جاد عليك ، فلك جادَ ، ونفعَك أرادَ ، من غير أن يرجع إليه جودُه بشىء من المنافع

---

(١) أى إذا عد مجاوز الكرم إلى السرف كريما ، جاز أن يعد المقصر دون حد الكرم كريما مادام معنى الكرم لا يدرك إدراكا صحيحاً .

(٢) وهو عدهم كل سرف كرما .

(٣) لا يمثل : أى لا يصور الحقائق تصويرا صادقا .

(٤) تراود : أى تقصد وتبغى ، أى إلا إذا أريد بها نفس الآخذ لا ما ينتظر منه من فائدة .

(٥) جملة فإنما خبر للمبتدأ « وكل من كان جوده » وقرن الخبر بالفاء لدلالة المبتدأ على العموم .

(٦) أى ولولا الخوف من بعض القول وهو أن نتهم بالمغالاة لقلنا بوجوب شكر الجواد للمجود عليه ،

على جهةٍ من الجهات ، وهو اللهُ وَحْدَه لا شريكَ له ، فإنْ شَكَرْنا للناس على بعض ماقد جَرَى لنا على أيديهم ، فإنَّما هو لأمرين : أحدهما التعبُّد ، وقد نعبُدُ الله بتعظيم الوالدين وإن كانا شيطانَيْن ، وتعظيم مَن هو أسَنُّ[1] منا ، وإن كنا أفضلَ منه ، والآخرُ لأن النفس مالم تحصِّلِ الأمورَ وتميِّزِ المعانيَ ، فالسابقُ إليها حُبُّ مَن جَرَى لها على يده خيرٌ ، وإن كان لم يُرِدها ولم يقصِد إليها .

ووجَدْنَا عطية الرجل لصاحبه لا تخلو أن تكون لله ، أو لغير الله ، فإن كانت لله فثوابُه على الله ، وكيف يجب عليَّ فى حُجَّة العقل شكرُهُ ، وهو لو صادف ابنَ سبيلٍ غيرى لَمَا حَمَلنى[2] ولا أعطانى ، وإما أن يكون إعطاؤه إياى للذِّكر ، فإذا كان الأمر كذلك فإنما جعلنى سُلَّما إلى تجارته ، وسَبَبا إلى بُغْيته ، أو يكون إعطاؤه إياى من طريق الرحمة والرِّقَّة ، ولِمَا يجد فى فؤاده من الغُصَّة والألم ، فإن كان لذلك أعْطى فإنما داوَى نفسَه من دائه ، وكان كالذى رَفَّهَ مِن خِناقه ، وإن كان إنما أعطانى على طلب المجازاة وحُبِّ المكافأة ، فأمْرُ هذا معروف ، وإن كان إنما أعطانى مِن خَوف يدى أو لسانى ، أو اجترار معونتى ونُصْرتى[3] ، فسبيلُه سبيلُ جميع ما وصفنا وفَصَّلْنا .

فلِاسْمِ الجود موضعان : أحدهما حقيقةٌ ، والآخر مجاز ، فالحقيقة : ما كان من الله ، والمجاز : المشتقُّ من هذا الاسم[4] ، وما كان لله كان ممدوحا ، وكان لله طاعةً ، فإذا لم تكن العطيةُ من الله ، ولا لِله ، فليس يجوز هذا فيما سَمَّوه جودا ، فما ظنُّك بما سَمَّوه سَرَفا ؟ .

---

(١) كذا فى عيون الأخبار ، وفى النسخ « من هو شرمنا وإن كنا أفضل منهم » .

(٢) حمله : أعطاه ظهرا يركبه .

(٣) كذا فى عيون الأخبار ، وفى النسخ « أو صرف معونتى وحضرتى » .

(٤) قسم الجود قسمين : حقيقى وهو ما كان من الله مباشرة ، ومجازى وهو ما كان مشتقا ومتفرعا من جود الله وآتيا على يد مخلوق .

افهم ما أنا مُورِدُه عليك، وواصِفُه لك إن الترُّبح والتكسُّب والاستئكال[1] بالخديعة والطُّعَمَ الخبيثة فاشيةٌ غالبة، ومستفيضةٌ ظاهرة، على أن كثيرا ممن يضافُ اليوم إلى النزاهة والتكرُّم، وإلى الصيانة والتوقِّي، ليأْخُذُ من ذلك بنصيب وافرٍ، وبمُدٍّ وافٍ[2]، فما ظنُّك بدَهْماءِ الناس وجُمْهورهم، بل ما ظنُّك بالشعراء والخطباء الذين إنما تعلَّموا المنطق لصناعة التكسّب؟ وهؤلاء قوم بِوُدِّهم أن أرباب الأموال قد جاوزوا حدَّ السلامة إلى الغَفْلة، حتى لايكونَ للأموال حارسٌ، ولا دونها مانعٌ، فاحْذَرهم، ولا تنظُرْ إلى بِزَّةِ[3] أحدهم؛ فإن المسكين أقنعُ منــه، ولا تنظُرْ إلى مَوْكِبه، فإنَّ السَّائِلَ أعفُّ منه، واعلم أنه فى مَسْكِ[4] مِسكينٍ، وإن كان فى ثياب جَوادٍ[5]، ورُوحه رُوح نَذْلٍ، وإن كان فى جِرْم مَلِكٍ، وكلُّهم وإن اختلفت وجوهُ مسألتهم، واختلفت أقدارُ مطالبهم، فهو مسكين إلا أن واحداً يطلب العَلِقَ[6]، وآخر يطلب الخِرَق، وآخر يطلب الدَّوانيق[7]، وآخر يطلب الألوف، فجهةُ هذا هى جهةُ هذا، وطُعْمة[8] هذا هى طُعْمة هذا، وإنما يختلفون فى أقدارِ ما يطلبــون على قدرِ الحِذْق والسبب[9]، فاحْذَر رُقَاهم[10] وما نَصَبوا لك من الشَّرَك، واحرُس نعمتَك وما دَسُّوا لها من الدواهى، واعلم على أنَّ سِحرهم يسترِقُ الذهن، ويختطف البصر، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنَّ من البيان لسِحْرا» وسَمِعَ عمر بن عبد العزيز رجلا يتكلم فى حاجة فقال: «هذا واللهِ السِّحْر الحلال» وقد قال رسول الله

---

(١) استأكل: أخذ أموال الضعفاء كالنساء واليتامى ونحوهم وعاش عليها.
(٢) المد: مكيال مقداره رطل وثلث عند أهل الحجاز، والمراد به هنا مطلق مقدار.
(٣) البزة: حسن الهيئة. (٤) المسك: الجلد.
(٥) فى بعض النسخ «جداد».
(٦) العلق بالكسر ويفتح: النفيس من كل شىء.
(٧) الدانق بكسر النون وتفتح والداناق: سدس الدرهم.
(٨) الطعمة: وجه المكسب. (٩) السبب: الوسيلة.
(١٠) الرقى جمع رقية، وهى كلمات تقرأ للمحموم والمصروع ليشفى. والمعنى أن لهم كلاما كالسحر.

صلى الله عليه وسلم : « لا خِلابةَ [١] » واحْذَر احتمالَ مديحهم ، فإن محتمِل المديح في وجهه كمادِحِ نفسِه .

إنّ مالَك لا يسَع مُرِيديه ، ولا يبلُغ رضا طالبيه ، ولو أرضيتَهم بإسخاطِ مِثلهم لكان ذلك خُسْرانا مُبينا ، فكيف ومَن يسخَطُ أضعافُ مَن يَرضَى ؟ وهجاء الساخِط أضرُّ من فَقْدِ مديح الراضى ، وعلى أنهم إذا اعتوَرُوك بمَشَاقِصهم [٢] ، وتداولوك بِسهامِهم ، لم ترَ ممن أرضيتَه بإسخاطهم أحداً يناضِل عنك . ولا يُهاجِى شاعرا دونك ، بل يُخَلِّيك غرَضا لسهامهم ، ودَرِيئةً [٣] لِنبالهم ، ثم يقول : وما كان عليه لو أرضاهم ! فكيف يُرضيهم ، ورِضَا الجميعِ شيء لا يُنال ؟ وقد قال الأوّل : وكيف يتَّفِقُ لك رضا المختلِفين ؟ وقالوا : منعُ الجميعِ أرضَى للجميع ، إنى أحذِّرك مصارعَ المخدوعين ، وأرْفَعُك عن مضاجع المغبونين ، ولستَ [٤] كمن لم يزَل يُقاسِى تعذُّرَ الأمور ، ويتجرَّع مرارة العيش ، ويتحمل ثِقَلَ الكَدِّ ، ويشرب بكأسِ الذل ، حتى يكاد يَمْرُن على ذلك جِلْدُه ، ويَسْكُن عليه قلبُه ، وفقرُ مثلِك مضاعفُ الألم ، وجَزَعُ من لم يعرف الألم أشدُّ ، ومن لم يزل فقيرا فهو لا يعرف الشامتين ، ولا يَدْخُلُه المكروه من سرور الحاسدين ، ولا يُلام على فقره ، ولا يصير موعظةً لغيره ، وحديثاً يبقَى ذِكرُه ، ويلعَنُه بعد الممات وَلَدُه .

ودَعْنى من حكايات [٥] المستأكِلِين ، ورُقَى الخادعين ، فما زال الناسُ يحفظون أموالهم من مواقع السَّرَف ، ويجنِّبونها وجوهَ التبذير ، ودعنى مما لا نراه إلا فى الأشعار المتكلَّفة ، والأخبار المولّدة ، والكتب الموضوعة ، فقد قال بعض أهل زماننا : ذهبتِ المكارمُ إلا مِن الكُتُب .

---

(١) الخلابة : الخداع ، وفى الحديث « إذا بايعت فقل : لا خلابة » .

(٢) المشاقص : جمع مشقص كمنبر ، وهو النصل العريض . (٣) ما يستتر به .

(٤) فى النسخ إنك كمن الخ وهو غير مناسب لسياق المعنى ، لأنه يريد أن يقول : إنك لم تعتد الفقر حتى يكون ألمه خفيفا ، وفقر مثلك بعد الغنى يكون مضاعف الآلام شديد الوقع .

(٥) أى مما يخترعونه من حكايات مكذوبة فى الكرم الذى تجاوز الحد لخداع ضعفاء العقول .

فخذ فيما تعلم ، ودَعْ نفسَك مما لا تعلم ، هل رأيتَ أحدا قطُّ أنفق مالَه على قوم كان غناهم سببَ فقرِه أنَّه سلمٌ[1] عليهم حين افتقر فردُّوا عليه ، فضلاً على غير ذلك[2] ؟ أَوَلستَ قد رأيتَهم بين محمِّقٍ ومحتجِبٍ عنـه ، وبين من يقول : فهلاَّ أنزلَ حاجته بفلان الذى كان يُفضِّله ويقدِّمه ، ويؤْثِره ويخُصُّه ؟ ثم لعلَّ بعضهم أن يتجنَّى عليه ذنوبا ليجعلَها عذرا فى مَنعه ، وسببًا إلى حرمانه ، قال الله جل ذكره : « يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ . خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ[3] » فأنا القائم عليك بالموعظة والزجر والأَمْرِ والنهى ، وأنت سالمُ العقلِ والعِرضِ ، وافرُ المال ، حَسَنُ الحال ، فاتَّقِ أنْ أَقُومَ غدًا على رأسك بالتقريع والتعيير ، وبالتوبيخ والتأنيب ، وأنت عليلُ القلب ، مختَلُّ العِرْض ، عديمٌ من المال ، سيِّئُ الحال ، ليس جُهْدُ البلاءِ[4] مَدَّ الأعناقِ ، وانتظارَ وقْعِ السيوف ، لأن الوقت قصير ، والحِسَّ مغمور ، ولكن جُهْد البلاءِ أن تظاهرَ الخَلَّة[5] ، وتطول المدَّة ، وتعجِز الحيلةُ ، ثم لا تعدم صديقا مؤنِّبا ، وابنَ عمٍّ شامتاً ، وجارا حاسِرا[6] ، ووليّا قد تحوَّل عدوا ، وزوجةً مختلِعَةً[7] ، وجارية مستَبِيعَةً[8] ، وعبدا يَحقِرك ، وولدا ينتهِرك ، فانظر أين موقعُ فَوْتِ الثناء مِن موقِع ما عَدَدْنا عليك

---

(١) المصدر المؤول بدل من أحدا .

(٢) أى فضلا على الإيذاء والتشنيع وعدم الوفاء له .

(٣) سياق الآية الكريمة أن من استطاع أن يعمل شيئا ولم يعمله ، أسف عند فوات الفرصة على عجزه عن عمله .

(٤) جهد البلاء : غاية ماتصل إليه المصيبة .

(٥) الخلة : الفاقة والحاجة .

(٦) الحاسر : المتلهف الحزين .

(٧) المختلعة : من دفعت إلى زوجها مالا فطلقها .

(٨) استباعه الشيء : سأله أن يبيعه إياه ، والجارية المستبيعة : هي التي سألت سيدها أن يبيعها ، والسبب هنا فقره وضيق الحياة عنده .

من هذا البلاء ؟ على أن الثناء طُعَم (١) ، ولعلك ألاّ تُطْعِمَه (٢) ، والحمدَ أرزاقٌ ولعلك ألاّ تحْرِمه ، وما يَضِيع من إحسان الناس أكثر (٣) .

وعلى أن الحفظ (٤) قد ذهب بموت أهله ، ألا ترى أن الشِّعر لمّا كَسَدَ أُفحِم أهلُه ، ولمّا دخل النقصُ على كل شيء أخذ الشعر منه بنصيبه ؟ ولمّا تحولت الدولة فى العجم — والعجم لا تحُوط الأنسابَ ، ولا تحفظ المقاماتِ ، لأن من كان فى الرِّيف (٥) والكفاية ، وكان مغمورا بسُكْر الغنى ، كثُر نسيانُه ، وقلّت خواطرُه ، ومن احتاج تحركت همتُه ، وكثُر تنقيرُه (٦) ، وعيبُ الغنى أنه يورِّث البلادةَ ، وفضيلةُ الفقر أنه يَبْعَثُ الفكر ، وإن أنت صحِبْتَ الغنى بإهمال النفس أسكرك الغنى ، وسُكْرُ الغنَى سُبّة المستأكِلين ، ونُهْزَةُ الخدّاعين ، وإن كنتَ لا ترضَى بحظِّ النائم ، وبعيش البهائم ، وأحببتَ أن تجمعَ مع تمام نفسِ المُثْرِى ، ومع عز الغنى وسرور القدرةِ ، فِطْنَةَ المخِفِّ ، وخواطر المُقِلِّ ، ومعرفةَ المارب ، واستدلال الطالب ، اقتصدتَ فى الإنفاق ، وكنت مُعِدًّا للحدَثان ، ومحترِسا من كل خَدّاع .

لست تبلغ حِيَل لصوص النهار ، وحِيل سُرَّاق الليل ، وحيل طُرَّاق البُلدان ، وحيل أصحاب الكيمياء ، وحيل التجّار فى الأسواق ، والصُّنّاع فى جميع الصناعات ، وحيل أصحاب الحروب ، وحيل المستأكلين والمتكسِّبين ، ولو جمعتَ الخُبْرَ (٧) والسِّحر والتمائم (٨) والسم ، لكانت حيلهم فى الناس أشد تغلغُلا ، وأعرضَ وأسْرَى فى عُمْق

---

(١) جمع طعمة : وهى المأكلة .

(٢) أى إن جدت وأسرفت » وقوله « ألا تحرمه » أى إن بخلت وأمسكت ، وربما كان الأصل « أن تطعمه » على تقدير « إن بخلت » كما هو التقدير فى الثانى .

(٣) أى أن الضائع من أخبار الإحسان أكثر مما يبقى منها ، فلا تغتر بأن الإحسان يبقى للمحسن الذكر فإنه عرضة للنسيان .

(٤) أى حفظ الجميل والمعروف أو حفظ أخبار الكرماء .

(٥) الريف : الأرض فيها زرع وخصب .

(٦) أى بحثه عن الأنساب ومنازل الرجال وأخبار الناس وأيامهم ليتخذ من ذلك بضاعة للمديح .

(٧) الخبر : تمام المعرفة .

(٨) التمائم : جمع تميمة ، وهى خرزة أو نحوها يعلقها الأعراب على أولادهم لدفع الشر .

البدن ، وأدخَلَ إلى سُوَيداء القلب وإلى أمِّ الدِّماغ ، وإلى صميم الكبد ، ولَهِيَ أدقُّ مَسْلَكا ، وأبعَدُ غايةً من العِرْق(١) السَّارِي ، والشَّبَهِ النازع(٢) ، ولو اتَّخذتَ الحيطانَ الرفيعةَ الثخينةَ ، والأقفال المُحْكَمَةَ الوثيقة ، ولو اتَّخذتَ المَارِقَ(٣) والجواسِقَ(٤) والأبوابَ الشِّداد ، والحرسَ المتناوبينَ بأغلاظِ المُؤَن ، وأشدِّ الكُلَف ، وتركتَ التقدمَ فيما هو أحضَرُ ضررا(٥) ، وأدومُ شرا ، ولا غُرْمَ عليك في الحراسة فيه ، ولا مشقةَ عليك في التحفظ منه(٦) ، إنك إن فتحتَ لهم على نفسك مثلَ سَمِّ الخِيَاطِ جعلوا فيه طريقا نَهْجا ، ولُقًى(٧) رَحْبا ، فأَحْكِم بابك ، ثم أَدِمْ(٨) إصفاقَه ، بل أَدِمْ إغلاقَه ، فهو أولَى بك ، وإن قدَرت على مُصْمَتٍ(٩) لا حيلةَ فيه فذلك أشبه بحزمك ، ولو جعلتَ الباب مُبْهَما ، والقُفلَ مُصْمَتا ، لتسوَّرُوا عليك من فوقك ، ولو رفعتَ سَمْكَه إلى العَيُّوق(١٠) لنقَبوا عليك من تحتك ، قال أبو الدَّرْداء : « نِعْمَ صَوْمَعةُ المؤمن بيتهُ » وقال ابن سِيرين : « العُزْلة عبادة » .

وحلاوةُ حديثهم(١١) تدعو إلى الاستكثار منهم ، وتدعو إلى إحضار(١٢) غرائب شهواتهم ، فمن ذلك قولُ بعضِهم لبعض أصحابه : « كُلْ رِخْلةً(١٣) واشربْ مِشْعَلا(١٤) ،

---

(١) العرق : جذر النبات .
(٢) أي شبه الأبناء بآبائهم وأجدادهم ، فإن الشبه قد يسرى إلى غاية بعيدة في النسب .
(٣) المارق : جمع ممرق بالفتح ، هو هنا المكان الخفي للفرار .
(٤) جمع جوسق بالفتح : وهو القصر .
(٥) هو حيل المستأكلين وتملق المجتدين .
(٦) جواب لو اتخذت المارق محذوف يدل عليه ماقبله : أي لكانت حيلهم أشد .
(٧) اللقى في الأصل : اللقاء ، والمراد به هنا مكان اللقاء .
(٨) إصفاق الباب : رده بعد أن كان مفتوحا .
(٩) المصمت والمبهم : الباب أو القفل لا يهتدى إلى طريقة فتحه إلا صاحبه .
(١٠) العيوق : نجم أحمر مضيء في طرف المجرة الأيمن يتلو الثريا .
(١١) أي حديث المستأكلين والمتكسبين .
(١٢) أحضر الفرس : عدا ، وإحضار غرائب الشهوات : تسابقها في الظهور .
(١٣) الرخلة : الأنثى من أولاد الضأن .
(١٤) المشعل : شيء يتخذه أهل البادية من جلود يخرز بعضها إلى بعض ، ثم يشد إلى أربع قوائم من خشب فيصير كالحوض ينبذ فيه ، يقول : اشرب قدر ما في مشعل من نبيذ .

ثم تجشأ واحدةً لو أنّ عليها رَحًى لطحَنَتْ » ومن ذلك قولُ الآخر حين دخل على قوم وهم يشربون ، وعندهم قِيانٌ ، فقالوا : اقترِحْ أيَّ صوت شئتَ ، قال : « أقترِحُ نَشيشَ[١] مِقْلًى » ومن ذلك قول المَدِينِيّ[٢] : « من تصبَّح بسَبْع مَوْزات ، وبقدَح من لَبَنِ[٣] الأَوَارِكِ ، تجشَّأ بَخُورَ[٤] الكَعْبَةِ » . ومن ذلك قولهم لبعض هؤلاء — وقدَّامَهم خَبِيصٌ[٥] — : « أيُّما أطيبُ : أهذا أم الفالوذَج[٦] ، أم اللَّوْزِينج[٧] ؟ قال : « لا أَقْضِي على غائب » ومن ذلك كلامُ الجارُودِ بن أبي سَبْرة لبلال بن أبي بُرْدة حين قال له : صف لي عبد الأعلَى[٨] وطعامَه ، قال : « يأتيه الخبّاز فيَمْثُل بين يديه ، فيقول : ما عندك ؟ فيقول : عندي جَدْيٌ كذا ، وعَنَاقٌ[٩] كذا ، وبطّة كذا ، حتى يأتي على جميع ما عنده » قال : وما يدعوه إلى هذا ؟ قال : « لِيقتصد[١٠] كلُّ امرئٍ في الأكل ، حتى إذا أُتي بالذي يشتهي بلغ منه حاجتَه » قال : ثم ماذا ؟ قال : « ثم يؤتَى بالمائدة فيتضايقون[١١] حتى يخوِّيَ تخوية الظَّلِيم[١٢] ، فيجِدُّون ويَهْزِل ،

(١) النشيش : صوت غليان القدر والمقلى ونحوها .

(٢) قال في القاموس : « والنسبة إلى مدينة النبي صلى الله عليه وسلم مدني ، وإلى مدينة المنصور وأصفهان وغيرها مديني » .

(٣) الإبل الأوارك : التي اعتادت أكل الأراك ، وفي النسخ « من لبن الأوداك » .

(٤) في النسخ « بجوز » وهي غير مفهومة .

(٥) الخبيص : نوع من الحلواء ، قال صاحب القاموس : يعمل من التمر والسمن .

(٦) الفالوذ والفالوذج والفالوذق : حلواء ، قال صاحب اللسان : تسوى من لب الحنطة ، فارسي معرب ، وسمع الحسن رجلا يعيب الفالوذج فقال : لباب البر بلعاب النحل بخالص السمن ، ماعاب هذا مسلم (العقد الفريد ٣ : ٣١٢ وعيون الأخبار ٩ : ٢٠٣) وقال الجاحظ في البخلاء ص ١٩٣ : ومدحه أمية بن أبي الصلت فقال :

إلى ردح من الشيزى عليها لباب البر يلبك بالشهاد

(٧) اللوزينج : حلواء شبه القطائف تؤدم بدهن اللوز، فارسي معرب .

(٨) يعني عبد الأعلى بن عبد الله بن عامر .

(٩) العناق : الأنثى من ولد المعز .

(١٠) في الأصل « ليقتصر » وهو تحريف .

(١١) أي أخذ كل واحد يضيق مكانه حول المائدة حتى تتسع لهم جميعا .

(١٢) الضمير في يخوي يعود إلى عبد الأعلى ، وخوى : فرج ما بين عضديه وجنبيه ، والظليم : ذكر النعام .

حتى إذا فَتَروا أكل أَكْلَ الجائع المقرور(١) » وقال آخر : « أشتهى ثَريدةً دَكْناء(٢) من الفُلْفُل ، ورَقْطاء(٣) من الحِمِّص ، ذاتَ حِفَافَيْن(٤) من اللحم ، لها جَناحان من العُراق(٥)، أضرِبُ فيها ضربَ اليتيم عند وصىِّ السُّوء(٦) » .

وسُئل بعضهم عن حظوظ البُلدان فى الطعام ، وما قُسِم لكل قوم منه ؟ فقال : « ذهبت الروم بالجُشَم(٧) والحَشو ، وذهبت فارس بالبارد والحُلْو » وقال عمر لفارس الشُّفارِج(٨) والحُمُوض(٩) « فقال دَوْسَر المديني : » لنا الهرائسُ(١٠) والقَلَايا ، ولأهل البدو اللِّبأُ(١١) والسِّلاء(١٢) والجرادُ والكَمْأةُ(١٣) والخُبْزَةُ فى الرائب والتمرُ بالزُّبد ، وقد قال الشاعر :

---

(١) المقرور : الذى أصابه القر وهو البرد ــ اقرأ خبر هذا الحديث أيضا فى العقد الفريد ٣ : ٣١٢ وعيون الأخبار ٩ : ٢١٥ .

(٢) دكناء : يضرب لونها إلى السواد .

(٣) رقطاء : أى سوداء يشوبها نقط بيضاء ، أو بيضاء يشوبها نقط سوداء .

(٤) الحفاف : الجانب .

(٥) قال فى اللسان « العرق بالفتح : العظم أُخذ عنه معظم اللحم وبقى عليه لحوم رقيقة طيبة فتكسر وتطبخ وتؤخذ إهالتها من طفاحتها ويؤكل ماعلى العظام من لحم دقيق وتتمشش العظام ، ولحمها من أطيب اللحمان عندهم ، وجمعه عراق بالضم » قال ابن الأثير : وهو جمع نادر » .

(٦) انظر هذا الحديث أيضا فى العقد الفريد ٣ : ٣١٣ ــ ٣١٤ ، وعيون الأخبار ٩ : ١٩٨ ، وفيهما « كما يضرب ولى السوء فى مال اليتيم » وهو أولى .

(٧) الجشم : الجوف أو الصدر بضلوعه ، وفى عيون الأخبار ٩ : ٢٠٤ « أما الرومى فذهب بالحشو والأحشاء ، وأما الفارسى فذهب بالبارد والحلواء » .

(٨) فى النسخ « الشفارق » وقال صاحب القاموس واللسان : « الشفارج : الطبق فيه الفيخات والسكرجات فارسى معرب » ــ والفيخة : (بالفتح) السكرجة ، (بضمات وتشديد الراء) فهو عطف مرادف ــ قال صاحب اللسان : « السكرجة : إناء صغير يؤكل فيه الشىء القليل من الأدم ، وهى فارسية ، وأكثر ما يوضع فيها الكوامخ ونحوها » ــ وقال صاحب التاج فى السكرجة . « إن العرب كانت تستعملها فى الكوامخ وأشباهها من الجوارش على الموائد حول الأطعمة للتشهى والهضم » .

(٩) الحموض : جمع حمض بالفتح ، وهو كل نبت فى طعمه حموضة ، والملوحة تسمى الحموضة .

(١٠) الهرائس : جمع هريسة ، وهى طعام يعمل من الحب المدقوق واللحم ، والقلايا : جمع قلية كرزية وهى مرقة تتخذ من لحوم الجزور وأكبادها .

(١١) اللبأ : أول اللبن فى النتاج .

(١٢) سلأ السمن كمنع : طبخه وعالجه ، والاسم السلاء : ككتاب .

(١٣) نبات بالبادية يقال له : شحم الأرض .

أَلَا ليت خبزا قد تسَرْبلَ رائِباً وخَيْلًا من البَرْنِيّ فُرسانُها الزُّبْدُ(١)

ولهم البُرْمة(٢) والخُلَاصة(٣) والحَيْس(٤) والوَطِيئة(٥) » .

وقال أعرابي : « أُتِينا ببرٍّ كأفواه البُعْران(٦) فخبزنا منه خُبزةَ زَيتٍ(٧) في النار ، فجعل الجمرُ يتحدَّر عنها تحدُّرَ الحشْوِ عن البِطان(٨) : ثم ثَرَدْناها فجعل الثريدُ يَجُول في الإهالة(٩) جوَلانَ الضِّبْعانِ في الضَّفِرة(١٠) ، ثم أُتينا بتمرٍ كأعيانِ الوِرْلان(١١) يوحَل فيه الضِّرسُ » .

ونُعِت السَّويق(١٢) بأنه من عُدَد المسافر ، وطَعامُ العَجْلان ، وغِذاء المبكِّر(١٣) ، وبُلْغَة المَريض ، يشدُّ فؤاد الحزين ، ويرُدُّ من نفس المحدود(١٤) ، وجيدٌ في السَّمين(١٥) ، ومنعوت في الطيِّب ، قَفارُه يجلو البلغمَ ، ومسمونُه(١٦) يصفِّي الدم ، إن شئت كان ثَريدا ، وإن شئت كان خَبيصا ، وإن شئت كان طعاما ، وإن شئت كان شرابا .

---

(١) البرني : نوع من التمر ، معرب .

(٢) قدر من حجارة ، ولعلها تطلق على اسم طعام يطبخ فيها .

(٣) خلاصة السمن : ماخلص منه .

(٤) الحيس : تمر يخلط بسمن وأقط [والأقط مثلثة ويحرك وككتف ورجل وإبل : شيء يتخذ من المخيض الغنمي] فيعجن شديدا ثم يندر منه نواه ، وربما جعل فيه سويق .

(٥) الوطيئة : تمر يخرج نواه ويعجن بلبن ، والأقط بالسكر .

(٦) يشبه البر في بياضه بأفواه البعران (جمع بعير) لما يعلوها من الرغوة والزبد .

(٧) أي خبزة عجنت بزيت .

(٨) البطان : حزام قتب البعير . (٩) الإهالة : الشحم المذاب .

(١٠) الضبع بضم الباء وسكونها مؤنثة ، والذكر ضبعان بالكسر والأنثى ضبعانة أيضا . والضفرة من الرمل : ماعظم وتجمع .

(١١) الورلان جمع ورل كسيب : وهو زاحف كالضب .

(١٢) السويق : مايعمل من الحنطة والشعير .

(١٣) من يقوم في بكرة النهار ، وفي النسخ « المتكره » .

(١٤) المحدود : المحروم .

(١٥) أي خير أنواع الطعام السمين ، وفي عيون الأخبار « وهو جيد في التسمين » اقرأ هذا الوصف فيه ج ٩ : ص ٢٠٦ .

(١٦) سمن الطعام : لته بالسمن فهو مسمون .

وقيل لبعض هؤلاء اللّعامظة(١) والمستأكِلين والسَّفّافين(٢) المقَفَّمين ـ ورُئى سمينا ـ ما أسمَنَكَ؟ قال : « أكْلى الحارَّ، وشُرْبى القارَّ، والاتِّكاء على شِمالى، وأكلى من غير مالى(٣) » وقد قال الشاعر :

وإن امتلاءَ البطن فى حَسَب الفتى قليلُ الغَناءِ وهو فى الجسم صالحُ(٤)

وقيل لآخر : ما أسمنك؟ قال : « قلةُ الفكرة، وطول الدَّعة، والنوم على الكِظَّة(٥) » وقال الحجاج للغَضْبان(٦) بن القَبَعْثَرى : ما أسمنك؟ قال : القَيْدُ والرَّتْعَةُ(٧)، ومن كان فى ضِيافة الأمير سَمِنَ » وقيل لآخر : إنك لحسَنُ السَّحْنة(٨)، قال : « آكُلُ لُبابَ البُرِّ، وصغار المعزِ، وأَدَّهِنُ بخام(٩) البَنَفْسَج، وألبسُ الكَتَّان » والله لو كان من يُسأل يُعطى لَما قام كرمُ العطية بلؤم المسألة .

ومدار الصواب على طِيب المَكْسَبة والاقتصاد فى النفقة، وقد قال بعض العرب « اللهم إنى أعوذ بك من بعض الرزق » حين رأى نافِجَةً(١٠) من ماله من صَداق أمه .

---

(١) اللعامظة : جمع لعمظ كجعفر، وهو الحريص الشهوان النهم كاللعموظ (كعصفور) .

(٢) فى النسخ « السفافيف » والمقفم : المنكس الرأس أبدا .

(٣) اقرأ فى عيون الأخبار ٩ : ٢٢٤ .

(٤) أى أن كثرة الأكل لاتفيد فى إعلاء شرف الفتى، ولكنها تفيد الجسم، وفى النسخ « الغنى » بدل « الفتى » .

(٥) وهذا أيضا فى عيون الأخبار، والكظة : شىء يعترى الإنسان عند الامتلاء من الطعام .

(٦) من خبره أنه لما هلك بشر بن مروان وولى الحجاج العراق بلغ ذلك أهل العراق فقام الغضبان خطيبا بالكوفة يؤلبهم على الحجاج، فكان فيما قال لهم « فاعترضوا هذا الخبيث فى الطريق فاقتلوه » « فأطيعونى وتغدوا به قبل أن يتعشى بكم » فلما قدم الحجاج الكوفة بلغته مقالته، فأمر به فأقام فى حبسه ثلاث سنين ـ اقرأ خطبته فى جمهرة خطب العرب ٢ : ٣٢٠ ـ

(٧) الرتعة : الاتساع فى الخصب، وهو مثل . وأول من قاله عمرو بن الصعق بن خويلد بن نفيل ابن عمرو بن كلاب، وكانت شاكر من همدان أسروه فأحسنوا إليه وروحوا عنه وقد كان يوم فارق قومه نحيفا، فهرب من شاكر فلما وصل إلى قومه قالوا : أى عمرو، خرجت من عندنا نحيفا وأنت اليوم بادن، فقال : القيد والرتعة، فأرسلها مثلا، وهذا كقولهم : العز والمنعة، والنجاة والأمنة، وفى عيون الأخبار (٩ : ٢٢٥) القيد والدعة .

(٨) السحنة بالفتح وتحرك : الهيئة واللون ولين البشرة، وفى عيون الأخبار « الشحمة » .

(٩) الخام : الريح الطيبة تعبق بالثوب .

(١٠) يقال : للابل التى يرثها الرجل فتكثر بها إبله « نافجة » .

وأىُّ سائل كان ألحفَ مسألةً من الحُطَيئة وألأم ؟ ومَن ألأمُ من جرير ابن الخَطَفَى وأبخل ؟ ومن أمنعُ من كُثَيِّر ، وأشحُّ من ابن هَرْمة[1] ؟ ومَن كان يشقُّ غُبار ابن أبى حَفْصة[2] ؟ ومَن كان يصطلِى بنار أبى العتاهية ؟ ومن كأبى نُواس فى بخله ؟ أو كأبى يعقوب الخُرَيْمى فى دِقة نظره وكثرة كَسْبه ؟ ومن كان أكثرَ نحرًا لجَزَرة[3] لم تُخلَق من ابن هَرْمة ؟ وأطعَنَ برُمح لم يَنبُت ، وأطعَم لِطعام لم يُزْرَع ، من الخُرَيمى[4] ؟ فأين أنت عن ابن يَسير ؟ وأين تذهب عن ابن أبى كَرِيمة ؟ ولِمَ تقصِّر فى ذكر الرَّقاشىِّ ، ولِمَ تذكر شَرَّه ؟

إن الأعرابى شرٌّ من الحاضر[5] ، سائلٌ جبَّار ، وثَّابة مَلَّاق ، إن مدح كذب ، وإن هَجَا كذب ، وإن أَيِس كذب ، وإن طمع كذب ، لا يعرِفه إلا نَطِفٌ[6] أو أحمق ، ولا يُعطيه إلا من يحبّه ، ولا يحبه إلا من هو فى طباعه .

ما أبطأكم عن البَذْل فى الحق ، وأسرعكم إلى البذل فى الباطل ! فإن كنتم الشعراء تفضِّلون ، وإلى قولهم ترجعون ، فقد قال الشاعر :

قليلُ المال تُصْلِحه فيبقَى ... ولا يبقَى الكثير على الفساد

وقد قال الشَّمَّاخ بن ضِرار :

لَمالُ المرء يُصْلحه فيُغْنِى ... مَفاقِرَه ، أعفُّ من القُنُوع[7]

---

(١) هو إبراهيم بن هرمة شاعر عباسى ، وكان مولعا بالشراب ، ولما ولى المنصور شخص إليه فامتدحه فاستحسن شعره ووصله ، وسأله ابن هرمة أن يبيح له الشراب لأنه مغرم به فقال : ويحك هذا حد من حدود الله وما كنت لأعطله ، قال : فاحتل لى فيه يا أمير المؤمنين ، فكتب إلى عامله بالمدينة : من أتاك بابن هرمة سكران فاجلده مائة واجلد ابن هرمة ثمانين ، فجعل الجلواز إذا مر بابن هرمة سكران قال : من يشترى ثمانين بمائة ؟ — انظر ترجمته فى الأغانى ٤ : ١٠١ ، والشعر والشعراء ص ٢٨٩ .

(٢) يعنى مروان بن أبى حفصة ، وهو شاعر عباسى مشهور .

(٣) الجزرة : الشاة السمينة ، وجمعها جزر .

(٤) يقول : إن الشعراء يتخيلون وينسبون إلى أنفسهم كثيرا من أعمال الكرم والشجاعة .

(٥) الحاضر : ساكن الحضر . (٦) النطف المتهم بريبة .

(٧) المفاقر : قيل جمع فقر على غير قياس ، وقيل جمع لا واحد له . والقنوع : السؤال والتذلل .

وقال أُحَيحة بن الجُلَاح :

استغنِ أو مُتْ ولا يغرُرْكَ ذو نَشَبٍ   من ابن عم ولا عمٍّ ولا خالِ
إنى أُكِبُّ على الزَّوراء أَعمُرُها   إن الكريم على الأقوام ذو المال(١)

وقال أيضا :

استغنِ عن كل ذِى قُرْبَى وذِى رَحِمٍ   إن الغنىَّ مَن استغنى عن الناس
والبَسْ عدوَّكَ فى رِفْق وفى دَعَةٍ   لِباسَ ذى إِرْبَةٍ ، للدهر لَبَّاسِ(٢)
ولا يغرَّنْك أضغانٌ مُزَمَّلَة   قد يضرِبُ الدَّبِرُ الدامِى بأَحْلاسِ(٣)

وقال سهل بن هٰرون :

إذا امرؤٌ ضاقَ عنى لم يضِق خُلُقى   من أن يرانى غنيًّا عنه بالياسِ
فلا يرانى إذا لم يَرْعَ آصِرَتى   مُسْتَمْرِيًا دَرَراً منه بإِبْساسِ(٤)
لا أطلبُ المال كى أَغنَى بفضلته   ما كان مطلبُه فقراً إلى الناسِ(٥)

وقال أبو العتاهية :

أنت ما استغنيتَ عن صا   حِبِكَ الدهرَ أخـوهُ
فإذا احتجتَ إليـه   ساعــةً مَجَّــكَ فُوهُ

وقال أُحَيحة بن الجُلَاح :

فلو أنى أشاء نَعِمْتُ بالا   وباكَرَنى صَبُوحٌ أو نَشِيلُ(٦)

---

(١) الزوراء : أرض كانت لأحيحة بن الجلاح ، سميت ببئر كانت فيها (والزوراء : البئر البعيدة القعر) — انظر معجم البلدان ٤ : ٤١٢ — والبيت فيه :

إنى أقيم على الزوراء أعمرها   إن الحبيب إلى الإخوان ذو المال

(٢) الإربة : الدهاء .

(٣) مزملة : دفينة خفية ، من التزميل وهو الإخفاء واللف فى الثوب ، والدبر : البعير أصيب بقرحة من الرحل ، والأحلاس : جمع حلس كقرد ، وهو مايوضع على ظهر البعير تحت الرحل .

(٤) الآصرة : صلة المودة أو القرابة ، والمستمرى : الحالب ، والدرر : اللبن ، والإبساس : التلطف بالناقة عند الحلب بأن يقال لها بس بس تسكينا لها .

(٥) ماق « ما كان » مصدرية ظرفية أى مدة كون طلبه يعد فقرا إلى الناس .

(٦) باكرنى : جاءنى فى بكرة النهار ، والصبوح : ماحلب من اللبن بالغداة ، والنشيل : اللحم المطبوخ : بغير تابل ، أو اللبن ساعة يحلب .

ولا عَبَنى على الأنماط لُعْسٌ   على أنيابهنّ الزَّنجبيلُ(١)
ولكنى خُلِقْتُ إزاءَ مالٍ   فأبخلُ بعد ذلك أو أُنيلُ

وقال آخر :

أيا مُصْلحُ أَصْلِحْ ولا تَكُ مُفْسِدا   فإن صلاح المال خير من الفقر
ألم تَرَ أن المرء يزداد عِزّةً   على قومه أن يعلموا أنه مُثْرِى ؟

وقال عُروة بن الورد :

ذَرِينى للغنى أسعى فإنى   رأيت الناسَ شَرُّهمُ الفقيرُ
وأبعدُهم وأهونُهم عليهم   وإن أمْسَى له نسَبٌ وخِيرُ(٢)
ويُقْصَى فى النَّدِىِّ وتزدريه   حَليلتُه ويَنْهَره الصغيرُ
وتَلْقَى ذَا الغِنَى وله جَلالٌ   يكاد فؤادُ صاحبِه يطيرُ
قليلٌ ذنبُه ، والذنبُ جَمٌّ   ولكنّ الغِنَى ربٌّ غفورُ

وقال سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيْل :

تلك عِرْساى تنطِقان على عَمْـدٍ لىَ اليومَ قولَ زُورٍ وهَتْرِ(٣)
سَألَتانِى الطلاقَ أنْ رَأَتَا ما   لِى قليلا، قد جئْتمانى بنُكْرٍ(٤) !
فلعلِّى أنْ يَكْثُرَ المالُ عندى   ويُعَرَّى من المَغارم ظَهرى
ويُرَى أَعْبُدٌ لنا وأَوَاقٍ   ومناصيفُ من خوادِمَ عَشْرِ(٥)

---

(١) الأنماط : جمع نمط كسبب ، وهو ثوب صوف ذو لون يفرش ، لعس : أى نساء لعس جمع لعساء . وصف من اللعس بالتحريك ، وهو سواد مستحسن فى الشفة .

(٢) الخير : الكرم والشرف ،

(٣) العرس : الزوجة ، والهتر : تمزيق العرض ، هتره كضرب وهتره : مزقه .

(٤) سال من باب خاف لغة فى سأل المهموز .

(٥) الأواق : جمع واقية ، وهى الحافظة الصائنة ، ويريد بها الخادمة . ومناصيف : جمع منصف كنبر ومقعد ، وهى الخادم ، وجمعها مناصف ومناصيف .

وتجرُّ الأذيالُ فى نعمةٍ زَوْ ل ، تقولان ضَعْ عصاكَ لدهرِ[١]
وَىْ كأنْ من يكن له نَشَبٌ يُحْـبَبْ ، ومن يفتقر يعشْ عيشَ ضُرِّ[٢]
ويُجَنَّبْ سِرَّ النَّجِيِّ ولكنْ أخا المال مُحْضَرٌ كلَّ سِرِّ[٣]

وقال الآخر :

وللمال منى جانبٌ لا أُضيعه وللّهو منى والبَطالةِ جانبُ[٤]

وقال الأخنسُ بن شِهاب :

وقد عشتُ دهرا والغُواةُ صَحابتى أولئك إخوانى الذين أصاحِبُ
فأدَّيتُ عنى ، ما استعَرْتُ من الصِّبا وللمال منى اليومَ راعٍ وكاسِبُ

وقال ابن أُذَينةَ الثقَفى :

أطعتُ النفسَ فى الشَّهوات حتى أعادتنى عسِيفًا عبدَ عَبْدِ[٥]
إذا ما جئتُها قد بعتُ عِتْقًا تعانِقُ أو تُقبِّلُ أو تفدِّى[٦]
فمن وجَدَ الغِنَى فليَصْطَنِعْه ذخيرتَه ويَجْهَدْ كلَّ جَهْدِ

وقال :

مَن يجمع المالَ ولا يثبِهِ[٧] ويتركِ العامَ لِعامِ جَدْبِهِ[٨]
* يَهُنْ عَلَى النَّاسِ هَوَانَ كَلْبِهِ *

وقد قيل فى المثل : « الكَدُّ قبل المَدّ[٩] » وقال لقيط : « ألقِمْ وأَذْرِ لِلّقاح ، وأحِدَّ السلاح[١٠] » .

---

(١) الزول : الحسنة العجيبة ، ومعنى الشطر الثانى ، تقولان : ألق عصاك لدهرك فلا تكدح فيه ، ولا تنتقل فى طلب الرزق فقد تمت عليك النعمة .

(٢) وى بمعنى أتعجب ، وكأن مخففة من الثقيلة ، وهى هنا بمعنى حقا ، والنشب : المال الأصيل .

(٣) فى النسخ « شر النجى » و « محضر كل شر » وفيها أيضا « أخا الفقر » والنجى : من تساره .

(٤) الرواية المشهورة « وفيه منى » . (٥) العسيف : الأجير ، والعبد المستهان به .

(٦) العتق : الشرف والحرية ، أى إذا ماجئت النفس وقد بعت شرفى وحريتى تسربى .

(٧) ثبى المال : جمعه و كثره .

(٨) أى أنه إذا كان فى عام خصب ترك الادخار حتى يحل به عام قد يكون جدبا .

(٩) الكد : التعب ، والمد : البسط والسعة .

(١٠) أى ألقم إبلك بيدك إذا أبت أن تأكل بنفسها ، وأذر : أى ألق الغذاء — من ذرت الريح الشىء تذروه وأذرته وذرته إذا أطارته — اللقاح : وهى النوق التى لقحت أى حملت ، وأحد السلاح : أى سنه ، والغرض من ذلك : العناية بالمال وأخذ العدة لحوادث الدهر .

وقال أبو المُعافَى :

إن التوانى أنكحَ العجزَ بنتَه وساقَ إليها حين زوَّجها مَهْرَا(١)
فِراشا وَطِيئاً ثم قال لها اتَّكِى فقصْرُكما لابُدَّ أنْ تَلدَا الفقرا(٢)

وقال عثمان بن أبى العاص : « ساعةٌ لدنياك وساعة لآخرتك » .

وقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « أنهاكم عن قِيلَ وقالَ ، وكثرةِ السؤال ، وإضاعةِ المال » وقال : « خيرُ الصَّدقة ما أبقَى غِنًى ، واليدُ العُليا خيرٌ من اليد السُّفلى(٣) ، وابدأْ بمَن تَعُول » وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « الثلثُ ، والثلثُ كثير ، إنَّك أنْ تَدَعَ ولدَك أغنياءَ خيرٌ من أن يتكففوا الناسَ » وقال ابن عباس : « وَدِدْتُ أن الناس غَضُّوا من الثلث شيئاً ، لقول النبى صلى الله عليه وسلم : « الثلث ، والثلث كثير » وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « كَفَى بالمرء إثما أن يُضيِعَ مَن يقُوت » .

وأنتم تَرون أن المجد والكرم أن أُفْقِرَ نفسى بإغناء غيرى ، وأن أَحُوط عيالَ غيرى بإضاعة عيالى ، وقال فى ذلك ابن هَرْمة :

كتاركةٍ بَيْضَها بالعَراء ومُلبسةٍ بيضَ أُخرى جَناحَا(٤)

وقال آخر :

كمُفْسِدٍ أدناهُ وَمُصْلِحٍ غيرِه ولم يأتمِرْ فى ذاك أمرَ صلاحِ

---

(١) أى أن التوانى زوج ابنته للعجز ولم يكلفه مهرا ، بل بعث إليه بابنته وساق معها مهرها .

(٢) فراشا بدل من مهرا : أى ثم قال لها اتكئى على هذا الفراش الوثير واستريحى ولا تعملى شيئا ، وقصرك أن تفعل كذا ، وقصارك بالفتح وبضم وقصيراك وقصاراك بضمهما : أى جهدك وغايتك ، أى غاية أمركما التى لا مناص منها أن تلدا مولودا اسمه الفقر .

(٣) اليد العليا : المعطية . والسفلى : المعطاة .

(٤) يعنى النعامة ، وقد ضربوا بها المثل فى الحمق فقالوا « أحمق من نعامة » قال الميدانى فى شرحه « وذلك أنها تنتشر للطعم فربما رأت بيض نعامة أخرى قد انتشرت لمثل ما انتشرت هى لهفتحضن بيضها وتنسى بيض نفسها ، ثم تجىء الأخرى فترى غيرها على بيض نفسها ، فتمر لطيتها (أى لوجهها) وإياها عنى ابن هرمة بقوله : كتاركة بيضها . . . » ثم قال « وزعم أبو عبيدة أن ابن هرمة عنى بقوله : كتاركة بيضها الحمامة التى تحضن بيض غيرها وتضيع بيض نفسها » .

وقال آخر :

كمُرْضِعةٍ أولادَ أخرى وضيَّعتْ بنيها ولم تَرْقَعْ بذلك مَرْقَعا

وقال الله تبارك وتعالى : « وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً . إنَّ المُبَذِّرِينَ كَانُوا إخْوَانَ الشَّيَاطِينِ » وقال : « وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ العَفْوَ[1] » فأَذِنَ في العفو ولم يأذن في الجهد ، وأَذِنَ في الفضول ولم يأذن في الأصول[2] ، وأراد كعبُ بن مالك أن يتصدق بماله ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « أمسِك عليك مالك » فالنبي صلى الله عليه وسلم يمنعهُ من إخراج ماله في الصدقة. وأنتم تأمرونه بإخراجه في السَّرَف والتبذير ! . وخرج غَيْلَانُ بن سَلَمَةَ من جميع ماله ، فأكرهه عمر على الرجوع فيه ، وقال : « لو مُتَّ لرجمتُ قبرك كما يُرجَم قبرُ أبي رِغَال[3] » وقال الله جل وعز : « لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ » وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « يكفيك ما بلَّغك المحَلّ[4] » وقال : « ما قلَّ وكفى خيرٌ مما كثُر وألهى » وقال الله تبارك وتعالى « وَالَّذِينَ إذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا » وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن المُنْبَتَّ لا أرضاً

---

(١) العفو : مايفضل عن الحاجة .

(٢) الفضول جمع فضل : وهو الزيادة ، والمراد بالأصول : المال المحتاج إليه في حياة الرجل ، أو صناعته أو تجارته .

(٣) قال صاحب القاموس : « وأبو رغال ككتاب ، في سنن أبي داود ودلائل النبوة وغيرهما عن ابن عمر : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرجنا معه إلى الطائف فمررنا بقبر فقال هذا قبر أبي رغال ، وهو أبو ثقيف وكان من ثمود . وكان بهذا الحرم يدفع عنه ، فلما خرج منه أصابته النقمة التي أصابت قومه بهذا المكان فدفن فيه » وقال صاحب اللسان : « أبو رغال ؛ اسمه زيد بن مخلف ، عبد كان لصالح النبي على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، بعثه مصدقا ، وأنه أتى قوما ليس لهم لبن إلا شاة واحدة ولهم صبي قد ماتت أمه فهم يعاجونه بلبن تلك الشاة — يعني يغذونه ، والعجي كغني : الذي يغذى بغير لبن أمه — فأبى أن يأخذ غيرها ، فقالوا : دعها نحايي بها هذا الصبي . فأبى فيقال : إنه نزلت به قارعة من السماء ، ويقال : بل قتله رب الشاة ، فلما فقده صالح قام في الموسم ينشد الناس فأخبر بصنيعة فامنه ، فقبره بين مكة والطائف يرجمه الناس » — وقد قدمنا عنه كلمة في نسب ثقيف في الجزء الثاني ص ١٤٦ .

(٤) يروى في خطبة أكثم بن صيفي أمام كسرى « يكفيك من الزاد مابلغك المحل » — انظر جمهرة خطب العرب ١ : ٢٢ .

قطعَ ولا ظَهرا أبقَى(١) » وقال الله جل ذكره : « وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا » ولذلك قالوا : « خير مالك ما نفعك ، وخير الأمور أوساطها ، وشرُّ السَّيْرِ الحقْحَقةُ(٢) ، والحسنةُ بين السيئتين » وقالوا : « دين الله بين المقصِّر والغالى(٣) » وقالوا فى المثل : « بينهما يرمى الرامى(٤) » وقالوا : « عليك بالسَّداد والاقتصاد ، لا وكْسَ ولا شَطَطَ(٥) » وقالوا : « بين المُمِخَّة والعَجْفاء(٦) » وقالوا : « لا تكن حُلوا فتُبتلَعَ ، ولا مُرًّا فتُلْفَظ » وقالوا فى المثل : « ليس الرِّيُّ عن التَّشَافِّ(٧) » وقالوا : « يا عاقِدُ اذكر حَلًّا(٨) » وقالوا : « الرَّشْف(٩)

---

(١) المنبت المنقطع عن أصحابه فى السفر ، والظهر الدابة ، قاله صلى الله عليه وسلم لرجل اجتهد فى العبادة حتى هجمت عيناه : أى غارتا ، فلما رآه قال له : إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، إن المنبت: أى الذى يجد فى سيره حتى ينبت أخيرا — سماه بما تئول إليه عاقبته كقوله تعالى : « إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ » مثل يضرب لمن يبالغ فى طلب الشىء ويفرط حتى ربما يفوته على نفسه .

(٢) الحقحقة : أشد السير وأتعبه للظهر ، أو أن يلج فى السير حتى تعطب راحلته أو تنقطع ، قال صاحب اللسان : « وتعبد عبد الله بن مطرف بن الشخير فلم يقتصد ، فقال له أبوه : « ياعبد الله العلم أفضل من العمل ، والحسنة بين السيئتين ، وخير الأمور أوساطها ، وشر السير الحقحقة » هو إشارة إلى الرفق فى العبادة . يعنى : عليك بالقصد فى العبادة ، ولا تحمل على نفسك فتسأم ، وخير العمل مادیم وإن قل ، وإذا حملت على نفسك من العبادة مالا تطيقه انقطعت به عن الدوام على العبادة وبقيت حسيرا ، فتكلف من العبادة ماتطيقه ولا يحسرك » .

(٣) أى أن الدين هو الطريقة المثلى بين التقصير والمغالاة .

(٤) أى بين التقصير والمغالاة الاعتدال الذى يجب أن يقصد إليه القاصد .

(٥) الوكس : النقص ، والشطط : الجور .

(٦) أمخت الشاة : سمنت ، والعجفاء : الهزيلة ، وهو مثل يضرب فى التوسط .

(٧) الاشتفاف والتشاف : أن تشرب جميع مافى الإناء مأخوذ من الشفافة بالضم ، وهى بقية الماء فى الإناء ، يقول : ليس من لا يشتف لا يروى ، فقد يكون الرى دون ذلك . وهو مثل يضرب فى قناعة الرجل ببعض ماينال من حاجته : أى ليس قضاؤك الحاجة أن لا تدع قليلا ولا كثيرا إلا نلته ، فإذا نلت معظمها فاقنع به .

(٨) ويروى « ياحامل » فإذا قلت ياعاقد فقولك حلا يكون نقيض العقد ؛ وإذا رويت ياحامل فالحل بمعنى الحلول ، يقال حل بالمكان يحل حلا وحلولا ومحلا . وأصل المثل فى الرجل يشد حمله فيسرف فى الاستيثاق حتى يضر ذلك به وبراحلته عند الحلول ، يضرب مثلا للنظر فى العواقب .

(٩) الرشف : التأنى فى الشرب ، أنقع : أذهب وأقطع للعطش ، مثل يضرب فى ترك العجلة .

أنقعُ للظمآن » وقالوا : « القليلُ الدائم أكثر من الكثير المنقطع » وقال أبو الدَّرْداء « إنى لأَستَجِمُّ نفسى ببعض الباطل ، كراهةَ أن أحمِل عليها من الحق ما يُمِلُّها » وقال الشاعر :

وإنى لَحُلْوٌ تعترينى مرارةٌ ... وإنى لصَعْبُ الرأس غير جموح (١)

وقالوا فى عَذْل المُصْلح ولائمةِ المقتصِد : « الشحيحُ أعذرُ من الظالم (٢) » وقالوا : « ليس من العَدْلِ سُرعة العَذْل » وقالوا : « لعلَّ له عذرا وأنت تلوم (٣) » وقالوا : « رُبَّ لائم مُليم (٤) » وقال الأحنف : « رُبَّ مَلُومٍ لا ذنب له (٥) » وقال : « إعطاء السائلِ تضرية (٦) ، وإعطاء المُلْحِف مشاركةٌ (٧) » وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « لا تَصْلُح المسألةُ إلا فى ثلاثٍ : فَقرٍ مُدْقِع (٨) ، وغُرْمٍ مُفْظِع ، ودمٍ مُوجِع (٩) » وقال الشاعر :

الحرُّ يُلْحَى والعصا للعبدِ ... وليس للمُلْحِفِ غيرُ الرَّدِّ (١٠)

وقالوا : « إذا جدَّ السؤال جدَّ (١١) المنعُ » وقالوا : « احذر إعطاء المخدوعين (١٢) »

---

(١) ويروى لحسان بن ثابت :

وإنى لحلو تعترينى مرارة ... وإنى لتراك لما لم أعود

(٢) يقول : إنهم حين تجنوا على المقتصد ولاموه ووصفوه بالشح كذبا ، جعلوا له فى شحه عذرا أقوى من عذر الظالم .

(٣) مثل يضرب لمن يلوم من له عذر لا يعلمه اللائم ، وهو عجز بيت وصدره :

* تأن ولا تعجل بلومك صاحبا *

(٤) ألام : أتى بما يلام عليه ، والمثل لأكثم بن صيفى .

(٥) قال الميدانى « هذا من قول أكثم بن صيفى ، يقول : قد ظهر للناس منه أمر أنكروه عليه وهم لا يعرفون حجته وعذره فهو يلام عليه . وذكروا أن رجلا فى مجلس الأحنف بن قيس قال : ليس شىء أبغض إلى من التمر والزبد فقال الأحنف « رب ملوم لا ذنب له » .

(٦) التضرية : التعويد والإغراء . وأصله من ضرى الكلب بالصيد كفرح : تعود ، وأضراه صاحبه به وضراه : عوده وأغراه .

(٧) أى مشاركة له فى الإلحاف لأنك باعطائه عاونته وأجرته .

(٨) أى شديد ملصق بالدقعاء ، وهى الأرض .

(٩) أى فى حال جمع المال لدية القتيل .

(١٠) يلحى : يلام ، لحاه يلحاه : لامه . (١١) أى قوى واشتد .

(١٢) المصدر مضاف لفاعله : أى احذر أن تعطى وأنت مخدوع .

« بذلَ المغبونين ، فإن المغبون لا محمودٌ ولا مأجورٌ » ولذلك قالوا : « لاتكن أدنَى العَيْرين[١] إلى السّهم » يقول : إذا أعطيت السائلين مالك صارت مَقاتِلُك أظهرَ لأعدائك من مَقاتِلهم ، وقالوا : « الفِرارُ بِقِراب أكيسُ[٢] » وقال أبو الأسود : « ليس من العز أن تتعرض للذل ، ولا من الكرم أن تستدعىَ اللؤمَ » ومن أخرج ماله من يده افتقر ، ومن افتقر فلا بد له من أن يَضْرَع[٣] ، والضَّرَع لؤم . وإن كان الجود شقيق الكرم ، فالأنفةُ أولى بالكرم[٤] ، وقد قال الأول : « اللهم لاتُنْزِلنى[٥] ماء سَوْء ، فأكونَ امرأ سَوْء » .

وقد قال الشاعر :

واخْطُ مع الدهر إذا ما خَطَا ... واجرِ مع الدهر كما يجرى

وقد قال الآخر :

ياليت لى نعلَين من جِلد الضَّبُعْ ... وشرُكا من ثَفْرِها[٦] لاتنقطِعْ

كلَّ الحِذاءِ يحتذى الحافى الوَقِعْ[٧]

وقد صدق قول القائل : « من احتاج اغتفرَ ، ومن اقتضى[٨] تجوّزَ » وقيل

---

(١) العير : الحمار ، والعيران هنا السائل والمسئول ، فإذا أعطى المسئول كل ماله للسائل تعرض لسهام أعدائه ولم يقو على نزالهم .

(٢) القراب : الغمد ، والمثل لجابر بن عمرو المازنى . وذلك أنه كان يسير يوما فى طريق إذ رأى أثر رجلين ، وكان عائفا قائفا (والعائف : المتكهن بالطير أو غيرها ، والقائف : من يعرف الآثار) فقال: أرى أثر رجلين شديدا كلبهما عزيزا سلبهما والفرار بقرب أكيس . أراد ذو الفرار أى الذى يفر ومعه قراب سيفه إذا فاته السيف أكيس ممن يفيت القراب أيضا .

(٣) أى يذل .

(٤) يقول : إذا كان الجود شقيق كرم النفس ، وجب على الجواد ألا يسعى فى إذلال نفسه ، وأن يحافظ على أنفتها وإبائها ، وإنما يكون ذلك بالمحافظة على ماله .

(٥) هكذا فى الحيوان للجاحظ ، وفى النسخ « لاتنزلى » .

(٦) هكذا فى مجمع الأمثال ، وفى النسخ « من استها » والشرك جمع : شراك ككتاب ، وهو سير النعل .

(٧) وقع الرجل كفرح : إذا حفى من مره على الحجارة ، وهو مثل يضرب عند الحاجة تحمل على التعلق بما يقدر عليه .

(٨) اقتضى دينه وتقاضاه بمعنى .

لِدِيسِيمُوس(١) : تأكل فى السوق ! قال : « إن جاعَ [دِيسِيمُوسُ(٢)] فى السوق ، أَكَلَ فى السوق » وقال(٣) : « من أَجدَبَ انتجعَ ، ومن جاع جَشِعَ » وقال : « احذَروا نِفَارَ النعمة فإنها نوّارٌ(٤) ، وليس كل شارِدٍ بمردود ، ولا كل نادٍّ(٥) بمصروف » وقال على بن أبى طالب : « قلَّما أدبَرَ شىء فأقبل » وقالوا : « رُبَّ أكلة تمنع أكلات(٦) ، ورُبَّ عَجَلَةٍ تهب رَيْثا(٧) » وعابوا من قال : « أَكْلَة ومَوْتَة(٨) » وقالوا : « لاتطلبْ أثَرا بعد عَيْن(٩) » وقالوا : « لاتكن كَمَنْ تغلبه

(١) جاء فى كتاب الحيوان للجاحظ : « حدثنى العتبى قال : كان فى اليونانيين ممرور (وهو الذى غلبت عليه المرة بالكسر : أى معتوه) له نوادر عجيبة وكان يسمى ديسيموس ، قال : والحكماء يروون له أكثر من ثمانين نادرة » .

(٢) الزيادة بين القوسين من الحيوان للجاحظ .

(٣) القائل صعصعة بن صوحان ، تغدى عند معاوية فتناول من بين يديه شيئا ، فقال معاوية : يابن صوحان : انتجعت من بعد ، فقال : من أجدب انتجع .

(٤) النوار كسحاب : المرأة النفور من الريبة .

(٥) ند البعير كضرب : نفر وذهب على وجهه شاردا .

(٦) أول من قاله عامر بن الظرب العدوانى ، وهو مثل يضرب فى ذم الحرص على الطعام .

(٧) أول من قاله مالك بن عوف بن أبى عمرو بن عوف بن محلم الشيبانى ، وكان سنان بن مالك ابن أبى عمرو بن عوف بن محلم شام غيثا فأراد أن يرحل بامرأته — وهى أخت مالك بن عوف — فقال له مالك : أين تظعن ياأخى ؟ قال : أطلب موقع هذه السحابة ، قال : لاتفعل فإنه ربما خيلت وليس فيها قطر ، وأنا أخاف عليك بعض مقانب العرب (جمع مقنب كمنبر : وهو جماعة الخيل والفرسان) قال : لكنى لست أخاف ذلك فمضى ، وعرض له مروان القرظ بن زنباع العبسى ، فأعجله عنها وانطلق بها وجعلها بين بناته وأخواته ولم يكشف لها سترا ، فقال مالك بن عوف لسنان . ما فعلت أختى ؟ قال : نفتنى عنها الرماح ، فقال مالك : رب عجلة تهب ريثا ، ورب فروقة يدعى ليثا (والفروقة بالفتح : الجبان الشديد الفزع) ورب غيث لم يكن غيثا ، فأرسلها مثلا . يضرب للرجل يشتد حرصه على حاجة ويخرق فيها حتى تذهب كلها .

(٨) أى آكل وأملأ بطنى ولو كان فى ذلك الموت .

(٩) من أمثالهم « تطلب أثرا بعد عين » و« لا أطلب أثرا بعد عين » يضرب لمن ترك شيئا يراه ثم تبع أثره بعد فوت عينه ، وأول من قاله مالك بن عمرو العاملى ، وذلك أن بعض ملوك غسان كان يطلب فى عاملة ذحلا (أى ثأرا) فأخذ منهم رجلين يقال لهما مالك وسماك ابنا عمرو ، فاحتبسهما عنده زمانا ثم دعاهما فقال لهما : إنى قاتل أحدكما فأيكما أقتل؟ فجعل كل واحد منهما يقول : اقتلنى مكان أخى ، فلما رأى ذلك قتل سماكا وخلى سبيل مالك ، فقال سماك حين ظن أنه مقتول أبياتا منها :

وأقسم لو قتلوا مالكا … لكنت لهم حية راصده

وانصرف مالك إلى قومه ، فلبث فيهم زمانا ، ثم إن ركبا مروا وأحدهم يتغنى بهذا البيت فسمعت =

نفسُه على ما يظُن ، ولا يغلبها على ما يستيقِن » فانظر كيف تُخرج الدرهم؟ ولِمَ تُخرجه؟ وقالوا : « شَرٌّ من المَرْزِئة سوء الخَلَف[١] » وقال الشاعر :

إن يكن ما به أُصِبْتَ جليلًا　　فذهابُ العَزاء فيه أَجلُّ

ولَأَنْ تفتقر بجائحةٍ نازلة خيرٌ لك من أن تفتقر بجناية مكتسَبَة ، ومن كان سببا لذهاب وَفْره ، لم تعدَمْه الحسرةُ من نفسه ، واللائمةُ من غيره ، وقلةُ الرحمة ، وكثرةُ الشماتة ، مع الإثم المُوبِق والهوانِ على الصاحب ، وذكر عمر بن الخطاب فتيانَ قريش وسَرَفهم فى الإنفاق ، ومسابقتهم فى التبذير ، فقال : « لَخُرْقَةُ[٢] أحدهم أشدُّ عليّ من عَيْلته » يقول : إن إغناء الفقير أهون عليّ من إصلاح الفاسد :

ولا تكن على نفسك أشأمَ من خَوْتَعَة[٣] ، وعلى أهلك أشأمَ من البَسُوس[٤] ،

= بذلك أم سماك ، فقالت : يامالك قبح الله الحياة بعد سماك ، اخرج فى الطلب بأخيك ، فخرج فى الطلب فلقى قاتل أخيه يسير فى ناس من قومه ، فقال : من أحس لى الجمل الأحمر ؟ فقالوا له — وعرفوه — : يامالك لك مائة من الإبل فكف ، فقال لا أطلب أثرا بعد عين ، فذهبت مثلا ، ثم حمل على قاتل أخيه . فقتله ، والمعنى : لا آخذ الدية وهى أثر الدم وتبعته ، وأترك العين يعنى القاتل .

(١) المرزئة : المصيبة ، وسوء الخلف ما تخلفه من الجزع ، أى إذا فقدت مالك كان جزعك على ضياعه أشد من ضياعه .

(٢) الخرقة : الحمق ، وسوء التصرف فى الأمور . والعيلة : الفقر .

(٣) هو رجل من بنى غفيلة كجهينة دل كثيف (كزبير) بن عمرو التغلبي وأصحابه على بنى الزبان (بالفتح) الذهلى ، لترة كانت له عند عمرو بن الزبان ، فأتوهم وهم قد جلسوا على الغداء ، فقال عمرو لاتشب الحرب بيننا وبينك ، قال : كلا ، بل أقتلك وأقتل إخوتك ، قال : فإن كنت فاعلا فأطلق هؤلاء الفتية الذين لم يتلبسوا بالحروب ، فإن وراءهم طالبا أطلب منى ، يعنى أباهم ، فقتلهم وجعل رءوسهم فى مخلاة ، وعلقها فى عنق ناقة لهم يقال لها الدهيم (كزبير) فجاءت الناقة والزبان جالس أمام بيته ، فبركت ، فقال : ياجارية هذه ناقة عمرو ، وقد أبطأ هو وإخوته ، فقامت الجارية فجست المخلاة فقالت : قد أصاب بنوك بيض نعام ، وأدخلت يدها فأخرجت رأس عمرو أول ما أخرجت ، ثم رءوس إخوته ، فغسلها الزبان ووضعها على ترس وقال : آخر البز على القلوص ، فأرسلها مثلا — والبز : القلوص — أى هذا آخر عهدى بهم لا أراهم بعده . وخبر أن خوتعة هو الذى دل على ولده ، فأثخن فى بنى غفيلة حتى أبادهم — اقرأ المثل مطولا فى مجمع الأمثال ١ : ٢٥٥ .

(٤) هى البسوس بنت منقذ التميمية خالة جساس بن مرة قاتل كليب ، والتى من أجلها نشبت حرب البسوس المشهورة بين بكر وتغلب — اقرأ المثل مفصلا فى مجمع الأمثال ١ : ٢٥٤ .

وعلى قومك أشأمَ من عِطْر مَنْشِم [١] ، ومن سلَّط الشهواتِ على نفسه ، وحكَّمَ الهوى فى ذات يده ، فبقِى حسيرا ، فلا يلومَنَّ إلا نفسَه ، وطُوبَى لك يوم تقدِر على قديم [٢] تنتفع به ، وقال بعض الشعراء :

أرَى كل قوم يمنعون حَريمَهم وليس لأصحاب النبيذ حَريمُ
أخوهم إذا مادارت الـكأسُ بينهم وكلُّهمُ رثُّ الوِصالِ سَئُومُ
فهذا بيانى لم أقُل بجَهالةٍ ولـكننى بالفاسـقين عليمُ

وقد كان هذا المعنى فى أصحاب النبيذ أوجَدَ [٣] ، فأمَّا اليومَ فقد استوى الناسُ ، قال الأضبط بن قُرَيْع لمّـا انتقل فى القبائل فأساءوا جِواره بعد أن تأذَّى ببنى سَعْد . « بكل وادٍ بنو سعد » .

خذ بقولى ودع قول أبى العاص ، وخذ بقول من قال : « عَشِّ ولا تغترَّ [٤] » ويقول من قال : « لاتطلب أثَرا بعد عَيْن » وبقول من قال : « املأْ حُبَّكَ [٥] من أول مَطْرة ، ودع مايَرِيبك إلى مالا يَرِيبك ، أخوك مَن صَدَقَك ، ومن أتاك من جهة عقلك ، ولم يأتك من جهة شهوتك ، وأخوك من احتمل ثِقَل نصيحتك فى حظك [٦] ، ولم تأمَن لائمتَه إياك فى غَدِك » .

---

(١) ويقال : « أشأم من منشم » وكانت منشم امرأة عطارة تبيع الطيب ، فـكانوا إذا قصدوا الحرب غمسوا أيديهم فى طيبها وتحالفوا عليه أن يستميتوا فى تلك الحرب ، ولا يولوا أو يقتلوا ، فـكانوا إذا دخلوا الحرب بطيب تلك المرأة يقول الناس : قد دقوا بينهم عطر منشم ، فلما كثر منهم هذا القول سار مثلا ، فمن تمثل به زهير بن أبى سلمى حيث يقول :

تدارككما عبسا وذبيان بعدما تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم

وقيل:إن منشم كانت امرأة تبيـع الحنوط ، وإنما سموا حنوطها عطرا فى قولهم : قد دقوا بينهم عطر منشم ، لأنهم أرادوا طيب الموتى .

(٢) يراد بالقديم : المال للدخر ، وفى النسخ « على قدم » .

(٣) أى أكثر وجودا فيهم .

(٤) مثل يضرب فى الحث على الحيطة . وأصله أن رجلا أراد أن يفوِّز بإبله ليلا ، واتـكل على عشب يجده فى الطريق ، فقيل له : عش ولا تغتر «وفوَّز بإبله : ركب بها المفازة » .

(٥) الحب : وعاء كبير للماء .

(٦) أى فى سبيل سعادتك .

وقال الآخر :

إن أخاك الصِّدْق من لم يخدعَكْ وَمَن يَضِير نفسَه لينفعَكْ(١)

وقد قال عَبيد بن الأبرص :

واعلمَنْ عِلْمًا يَقِينًا أنه ليس يُرجَى لك مَن ليس مَعَكْ

ولا تزال بخير ما كان لك واعظٌ من نفسك ، وعَيْنٌ مِن عقلك على طباعك ، أوْ ما كان لك أخ نصيح ، ووزير شفيق ، والزوجةُ الصالحة عَوْنُ صدق ، والسعيدُ من وُعظ بغيره ، فإن أنت لم تُرْزَق من هذه الخصال(٢) خَصلةً واحدة ، فلا بُدَّ لك من نكبة مُوجِعَة ، يَبْقَى أثرها ، ويلُوح لك ذكرها ؛ ولذلك قالوا : «خير مالك ما نفعَك» ولذلك قالوا : «لم يذهب(٣) من مالك ما وعَظَك» .

إن المال محروصٌ عليه ، ومطلوب فى قَعْر البحار ، وفى رءوس الجبال ، وفى دَغَلِ الغِيَاض(٤) ، ومطلوب فى الوُعُورة كما يُطْلَب فى السُّهولة ، وسواء فيها(٥) بطونُ الأودية ، وظهورُ الطرق ، ومَشارِقُ الأرض ومَغاربُها ، فطُلِبَت بالعز ، وطلبت بالذل ، وطلبت بالوفاء ، وطُلِبت بالغدر ، وطلبت بالنُّسْك كما طلبت بالفَتْك ، وطُلبت بالصدق كما طلبت بالكذب ، وطُلبت بالبَذاء ، وطلبت بالمَلَق ، فلم تُترك فيها حيلةٌ ولا رُقْية

(١) يقال : هذا الرجل الصدق بالفتح ، فإذا أضفت إليه كسرت الصاد ، وقوله لم يخدعك بنصب الفعل بعد لم ، قال صاحب المغنى : « وزعم اللحيانى أن بعض العرب ينصب بها كقراءة بعضهم « ألَمْ نَشْرَحَ » وقوله :

فى أى يومى من الموت أفر أيوم لم يقدر أم يوم قدر

وخرجا على أن الأصل نشرحن ويقدرن ثم حذفت نون التوكيد الخفيفة وبقيت الفتحة دليلا عليها ، وفى هذا شذوذان : توكيد المنفى بلم ، وحذف النون لغير وقف ولا ساكنين ، اهـ . وربما كان الأصل « من لن يخدعك » ويضير نفسه : يضرها ، والمثل فى مجمع الأمثال « إن أخا الهيجاء من يسعى معك ، ومن يضر نفسه لينفعك » يضرب فى المساعدة .

(٢) أى الخصال التى ذكرت آنفا ، وهى أن يكون له واعظ من نفسه الخ .

(٣) ويروى « لم يضع » وهو مثل لأكثم بن صيفى، قال المبرد: أى إذا ذهب من مالك شىء فحذرك أن يحل بك مثله ، فتأديبه إياك عوض من ذهابه .

(٤) الدغل : الشجر الكثير الملتف . والغياض : جمع غيضة بالفتح ، وهى الأجمة ومجتمع الشجر .

(٥) فيها : أى فى الأموال ، والمراد فى طلبها ، فهى مطلوبة فى بطون الأودية الخ .

حتى طُلِبت بالكفر بالله ، كما طلبت بالإيمان ، وطُلِبت بالسُّخف كما طلبت بالنُّبل ، فقد نصبوا الفِخاخ بكل موضع ، ونصبوا الشَّرَك[١] بكل رَبْع ، وقد طلبك مَن لا يقصِّر دون الظفَر ، وحَسَدك من لا ينام دون الشِّفاء .

وقد يهدأ الطالبُ الطَّوائِل[٢] والمطلوبُ بذات نفسه ، ولا يهدأ الحريصُ ، يقال: إنه ليس فى الأرض بلدة واسطة[٣] ، ولا باديةٌ شاسعة ، ولا طَرَف من الأطراف ، إلا وأنت واجدٌ بها المدينىَّ والبصرىَّ والحِيرىَّ ، وقد ترى شَنَف[٤] الفقراءِ للأغنياء ، وتسرُّعَ الرغبة إلى الملوك ، وبُغضَ الماشى للراكب ، وعمومَ الحسد فى المتفاوتين ، وإن لم تستعمل الحذَرَ ، وتأخذْ بنصيبك من المداراة ، وتتعلَّمِ الحزمَ ، وتُجالِسْ أصحابَ الاقتصاد ، وتعرف الدهورَ ودهرَك خاصَّةً ، وتمثِّلْ لنفسك الغِيَرَ[٥] حتى تتوهَّم نفسك فقيرا ضائعا ، وحتى تتهم شِمالَك على يمينك ، وسمعَك على بصرك ، ولا يكون أحد أتْهَمَ[٦] عند نفسك من نفسك ، ولا أولَى بأخذ الحذَر منه من أمينك ، اُختُطِفتَ اختطافا[٧] ، واستُلِبْتَ استلابا ، وذوَّبوا مالَك وتحيَّفوه[٨] ، وألزموه السُّلَّ ولم يُداووه ، وقد قالوا : « يَلِي المالَ ربُّه وإن كان أحمقَ » فلا تكوننَّ دون ذلك الأحمقِ ، وقالوا : « لا تَعدَم صَنَاعٌ ثَلّةً[٩] » فلا تكونَنَّ دون تلك الصناعِ ، وقد قال الأول فى المال المضيَّع المسلَّطِ عليه شهواتُ العِيال : « ليس لها راعٍ ، ولكنْ حَلَبَةٌ[١٠] » .

---

(١) الشرك : حبائل الصائد ، واحدته شركة كقصبة ، ويجمع على شرك كعنق نادرا .

(٢) الطوائل : جمع طائلة ، وهى الثأر .

(٣) أى متوسطة .

(٤) شنف له شنفا كفرح : أبغضه وتنكره .

(٥) حوادث الدهر المغيرة .

(٦) أى أكثر إتهاما ، من أتهمه كأكرمه إذا اتهمه .

(٧) فى بعض النسخ « واحتفظت احتفاظا » .

(٨) أى تنقصوه ، من حيفه . والحيف كعنب جمع حيفة بالكسر : وهى الناحية .

(٩) امرأة صناع اليدين : حاذقة ماهرة بعمل اليدين . والثلة : الصوف تغزله المرأة ، مثل يضرب لمن إذا عدم عملا أخذ فى آخر لحذقه وبصيرته .

(١٠) الحلبة: جمع حالب ، مثل يضرب للرجل يؤكل وليس له من يبقى عليه، وفىالنسخ « خلية » .

وليس مالك المالَ المُغْنِى من الأضراس فيقالَ فيه : مَرْعًى ولا أكُولة[١] ، وعُشْبٌ ولا بعير ، فقُصَارَاك مع الإصلاح أن يقوم ببطنك وبحوائجك وبما ينوبك ، ولا بقاء للمال على قلة الرَّعْى وكثرة الحَلْب ، فكِس[٢] فى أمرك ، وتقدَّمْ فى حفظ مالك ، فإن مَن حفظَ مالَه فقد حفظ الأكرمَيْن ، والأكرمان : الدِّينُ ، والعِرض ، وقد قيل : « قبل الرمى يُرَاشُ السهم[٣] » و « عند النِّطاح تغلِبُ القَرْناء[٤] » .

وإذا رأت العرب مستأكِلا وافَق غُمْرًا[٥] قالت : « ليس عليك نَسْجُه فاسْحَبْ وخَرِّق[٦] » وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الناس كلُّهم سواء كأسنان المُشْطِ » والمرء كثير بأخيه ، ولا خيرَ لك فى صحبة من لا يَرَى لك مِثلَ ما يرى لنفسه ، فتعرَّفْ شأن أصحابك ومَعْنِيَّ[٧] جلسائك ، فإن كانوا فى هذه الصفة فاستعملِ الحزمَ ، وإن كانوا فى خلاف ذلك عَملتَ على حَسَب ذلك .

إنى لست آمُرُك إلا بما أمرك به القرآنُ ، ولست أُوصِيك إلا بما أوصاك به الرسولُ ، ولا أعِظك إلا بما وَعَظ به الصالحون بعضُهم بعضا ، قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « اعقِلْها وتوكَّلْ » وقال مُطَرِّف بن الشِّخِّير : « من نام تحت صَدَفٍ[٨] مائل وهو ينوى التوكلَ ، فلْيَرْمِ بنفسه من طَمَارِ[٩] وهو ينوى التوكُّل » فأين

---

(١) الأكولة: الشاة التى تعزل للأكل وتسمن ، مثل يضرب للمتمول لا آكل لماله .

(٢) أمر من الكيس بالفتح ، وهو العقل والفطنة .

(٣) راش السهم يريشه : ألزق عليه الريش ، ورواه الميدانى فى مجمع الأمثال « قبل الرمى يراش السهم » مثل يضرب فى تهيئة الآلة قبل الحاجة إليها ، وهو مثل قولهم « قبل الرماء تملأ الكنائن » أى تؤخذ الأهبة للأمر قبل وقوعه .

(٤) أى ذات القرن ، ومن أمثالهم « عند النطاح يغلب الكبش الأجم » ويغلب بالبناء للمجهول ، والتيس الأجم : الذى لاقرن له ، يضرب لمن غلبه صاحبه بما أعده له .

(٥) الغمر بالفتح والضم وكتب وكتف . من لم يجرب الأمور :

(٦) رواه الميدانى « ليس عليك نسجه فاسحب وجر » أى أنك لم تنصب فيه فلذلك تفسده .

(٧) معنى : مقصد .   (٨) الصدف: كل شىء مرتفع من حائط ونحوه .

(٩) طمار : اسم للمكان العالى ، قال الشاعر :

« وآخر يهوى من طمار قتيل » .

ينشد من طمار بفتح الراء ومن طمار بكسرها منونا وغير منون ، وقيل هو اسم جبل .

التوقِّ الذى أمر الله به ، وأين التغريرُ الذى نهى عنه ؟ ومن طَمِعَ فى السلامة من غير تسلُّمٍ[١] ، فقد وضع الطمعَ فى موضع الأمانىّ ، وإنما يُنجِزُ الله الطمعَ إذا كان فيما أمرَ به ، وإنما يحقِّق من الأمل ما كان هو المسبِّب له ، وفرّ عمر من الطاعون فقال له أبو عبيدة : « أتفِرُّ من قَدَر الله ؟ » قال : « نعم إلى قدر الله » وقيل له : « هل ينفع الحذَر من القَدَر ؟ » فقال « لو كان الحذر لا ينفع لكان الأمر به لَغْو » فإبلاء العذر[٢] هو التوكل ، وقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لرجل قال فى خُصُومة : حسبى الله : « أَبْلِ اللهَ عذرا ، فإذا أعجزك أمرٌ فقل : حسبى الله » .

وقال الشاعر :

ومن يكُ مثلى ذا عِيالٍ ومُقتِرا   من المال يَطرْح نفسَه كل مَطْرَحِ
لِيُبْلِيَ عذرا أو لِيَبْلُغَ حاجةً   ومُبْلِغُ نفسٍ عُذرَها مثلُ مُنْجِحِ

وقال الآخر :

فإن يَكن القاضى قَضَى غيرَ عادلٍ   فبَعْدَ أمورٍ لا ألومُ لها نفسى

وقال زهير البابىّ[٣] : « إن كان التوكل أن أكون متى أخرجتُ مالى أيقنتُ بالخلف ، وجعلت الخلفَ مالا يرجع فى كِيسى ، ومتى مالم أحفَظْه أيقنتُ بأنه محفوظ ، فإنى أُشْهِدكم أنى لم أتوكل قطُّ ، إنما التوكل أن تعلم أنك متى أخذت بأدب الله تتقلب فى الخير فتُجزَى بذلك إما عاجلا وإما آجلا » ثم قال : فلِمَ تَجَرَ أبو بكر ؟ ولِمَ تَجَرَ عمر ؟ ولم تَجَرَ عثمان ؟ ولم تَجَرَ الزبير ؟ ولِمَ تَجَر عبد الرحمن[٤] ؟ ولِمَ علَّمَ عمرُ الناسَ يَتَّجِرون ، وكيف يشترون ويبيعون ؟ ، ولم قال عمر : « إذا اشتريت جملا

---

(١) المراد بالتسلم هنا : الأخذ بأسباب السلامة والعمل لها .

(٢) إبلاء العذر : تقديمه ، وكل من لم يقصر فى عمل شىء ولم ينجح فيه فقد أبلى عذراً .

(٣) قال ياقوت فى معجم البلدان ٢ : ١٣ وينسب إلى باب الأبواب جماعة منهم زهير بن نعيم البابى وفى بعض النسخ « الثانى » وهو تصحيف .

(٤) أى عبد الرحمن بن عوف .

فاجعله ضَخْما ، فإن لم يبعه الْخُبْرُ(١) باعه المنظرُ » ؟ ، ولِمَ قال عمر : « فرِّقوا بين المنايا ، واجعلوا الرأس رأسين(٢) » ؟ ولم قال عثمان حين سئل عن كثرة أرباحه : « لم أَرُدَّ من ربح قطُّ » ؟ ولم قيل : « لاتشتر عيبا ولا شيبا(٣) » ، وهل حَجَر على بن أبى طالب على ابن أخيه عبد الله بن جعفر إلا فى إخراج المال فى غير حقه ، وإعطائه فى هواه ؟ وهل كان ذلك إلا فى طلب الذكر ، والتماس الشكر ؟ وهل قال أحد إن إنفاقه(٤) كان فى الخمور والقِمار ، وفى الفُسُولة(٥) والفُجور ؟ وهل كان إلا فيما تسمونه جودا ، وتعُدُّونه كرما ؟ ومن رأى أن يحجُر على الكرام لكرمهم رأى أن يحجُر على الحلَماء لحلمهم(٦) ! وأىَّ إمامٍ بعد أبى بكر تريدون ؟ وبأىِّ سَلَفٍ بعد علىٍّ تقتدون ؟ .

وكيف نرجو الوفاء والقيامَ بالحق والصبر على النائبة من عند لُعْمُوظٍ(٧) مستأكِلٍ ومَلَّاقٍ مُخَادِعٍ ، ومنهوم بالطعام شَرِهٍ لا يبالى بأى شىء أَخَذَ الدرهمَ ، ومن أىِّ وَجْهٍ أصاب الدينارَ ؟ ولا يكترث للمِنَّة ، ولا يبالى أن يكون أبداً منهوما منعوماً عليه ، وليس يبالى إذا أكل كيف كان ذلك الطعامُ ؟ وكيف كان سببُه ؟ ، وما حكمُه .

فإن كان مالُك قليلا فإنما هو قِوامُ عِيالك ، وإن كان كثيرا فاجعل الفاضلَ لعُدَّة نوائبك ، ولا يأمن الأيامَ إلا المضلَّلُ ، ولا يغترُّ بالسلامة إلا المغفَّلُ ، فاحذَرْ

---

(١) الخبر : العلم والمعرفة .

(٢) انظر ص ٣٩١ من الجزء الثالث .

(٣) الشيب معروف ، والمراد هنا لازمه . وهو الضعف ، وكبر السن ، أى لا تشتر ذا عيب ولا ذا ضعف .

(٤) الضمير فيه يعود الى عبد الله بن جعفر .

(٥) الفسولة : الدناءة .

(٦) أى لو كان حجر على رضى الله عنه على عبد الله بن جعفر لكرمه لساغ الحجر على الحليم ، وساغ الحجر على كل ذى فضيلة ، يريد أن يقول : إن إنفاق ابن جعفر لم يكن كرما .

(٧) الحريص الشهوان .

طوارقَ البلاء ، وخُدَع رجال الدهاء ، سَمنُكَ فى أديمك[١] ، وغثك خير مِنْ سَمِين غيرك[٢] لو وَجدتَه ، فكيف ودونَه أسَلٌ[٣] حِدادٌ ، وأبوابٌ شداد ؟ قالت امرأة لبعض العرب : « إن تزوجتنى كفيتُك » فأنشأ يقول :

إذا لم يكن لى غيرُ مالِكِ مَسَّنى   خَصَاصٌ وبان الحمدُ منىَ والأجرُ[٤]

وما خيرُ مالٍ ليس نافعَ أهلِهِ   وليس لشيخ الحىِّ فى أمره أمرُ ؟

وقال المُطَوِّطُ القُرَيْعِىّ :

أبا هانئٍ لا تسألِ الناسَ والتمِسْ   بكفَّيك سَتْرَ الله فاللهُ واسِع

فلو تسألُ الناسَ الترابَ لأوْشكوا   إذا قيل هَاتُوا أن يَمَلُّوا فيمنَعوا[٥]

(كتاب البخلاء ص ١٢٩)

---

(١) من أمثالهم « سمنكم هريق فى أديمكم » وكثيراً مايقولون « سمنهم فى أديمهم » يضرب للذى لا يتجاوزه خيره ، قال أبو عبيدة : الأديم : المأدوم من الطعام ، أى جعلوا سمنهم فيه ولم يفضلوا به . وقال الأصمعى : أصله فى قوم سافروا ومعهم نحى سمن، فانصب على أديم لهم ، فكرهوا ذلك، فقيل لهم: مانقص من سمنكم زاد فى أديمكم .

(٢) أول من قاله هذا المثل معن بن عطية المذحجى . وذلك أنه كانت بينهم وبين حى من أحياء العرب حرب شديدة ، فمر معن فى حلة حلها برجل من حزبه صريعاً فاستغاثه وقال : ابن على كفيت البلاء ، فأرسلها مثلا ، فأقامه معن وساربه حتى بلغه مأمنه ، ثم عطف أولئك القوم على مذحج فهزموهم وأسروا معنا، وأخا له يقال له روق ــ وكان يضعف ويحمق ــ فلما انصرفوا إذا صاحب معن الذى نجاه أخو رئيس القوم فناداه معن ، وقال : ياخير جاز بيد أوليتها نج منجيك .

فعرفه صاحبه فقال لأخيه: هذا المان على ومنقذى بعد ما أشرفت على الموت. فهبه لى، فوهبه له فخلى سبيله، وقال : إنى أحب أن أضاعف لك الجزاء ، فاختر أسيرا آخر ، فاختار معن أخاه روقا، ولم يلتفت إلى سيد مذحج وهو فى الأسارى ، ثم انطلق معن وأخوه راجعين ، فمر بأسارى قومهما ، فسألوا عن حاله فأخبرهم الخبر ، فقالوا لمعن : قبحك الله! تدع سيد قومك وشاعرهم لاتتكه وتفك أخاك هذا الأنوك الفسل الرذل ، فوالله مانكأ جرحا ، ولا أعمل رمحا ، ولا ذعر سرحا ، وإنه لقبيح المنظر ، سيء المخبر ، لئيم ، فقال معن . « غثك خير من سمين غيرك » فأرسلها مثلا .

(٣) الأسل : الرماح ، واحدته أسلة .

(٤) الخصاص : الفقر كالخصاصة .

(٥) اطلعت فى خلال اشتغالى بهذا المؤلف على تحقيق وشرح لكتاب البخلاء لأستاذى الجليلين على بك الجارم ، وأحمد بك العوامرى ، وقد استعنت بجهودهما الموفق فى هذه الرسالة، فلهما منى ومن قراء العربية جزيل الشكر .

٧٢ — كتاب عمرو بن عثمان القيني إلى محمد بن عبيد الله العتبي

وكان محمد(١) بن عُبَيد الله العُتْبيّ صديقا لعمرو بن عثمان القَيْنيّ ، فكتب إليه العُتبي كتابا فزاده فى الدعاء ، فكتب إليه عمرو :

يابنَ الذَّوائِبِ من قريشٍ والذُّرَى ... وسَليلَ سادةِ ساكِنِي البَطْحاءِ (٢)
حاشاَ لِمثلك أن يرانى قائلا ... بكرامةٍ تُزْرِى لديه بِرائى
لم تَرْضَ إذ كَنَّيتَنى وبدأْتَ بى ... حتى دعــــوتَ الله لى ببقائى
ولو اقتصرت على التى هى قيمتى ... فيما تَبُتُّ قَضِــــيَّةُ الحكماء
لَكتَبْتَ لى: «عمرو بن عثمان» ولم ... تُتْبِعْهُ فى العُنوان حَرْفَ دُعاءِ
فاتْرُكْ ـ جُعِلتُ فِداكَ ـ إكرامى بما ... أخشَى به عند الورى استِغبائى (٣)
فالعينُ تُصْغِرُ أن تُقدِّمها على ... أولاد «حَرْب» السَّادةِ الكرماء
حَــــلُّوا من العِزِ المَنيعِ نِيَافَهُ ... يَحْمُون غيرَهم ذُرَى العلياء (٤)

(أدب الكتاب ص ١٥٩)

---

(١) هو محمد بن عبيد الله بن عمر بن معاوية بن عمر بن عتبة بن أبى سفيان بن حرب بن أمية ، وكان أديبا فاضلا وشاعرا مجيدا ، والعتبي : نسبة إلى جده عتبة بن أبى سفيان . قال ابن خلكان : ويجوز أن تكون نسبته إلى عتبة التى كان يقول الشعر فيها ، وتوفى سنة ٢٢٨ ـ انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١ : ٥٢٢ .

(٢) الذوائب : جمع ذؤابة بالضم ، وذؤابة كل شىء : أعلاه . والبطحاء : بطحاء مكة، أى مسيل واديها .

(٣) أى عدى من الأغبياء .

(٤) النياف : الجبل العالى الطويل ، والمراد هنا : القمة والذروة ، ويقال أيضا جمل نياف : أى طويل فى ارتفاع ، وقصر نياف : أى مرتفع ، قال فى اللسان : «وقد يجوز أن يكون نياف مصدرا ووصف به كما يوصف بالمصادر» .

٧٣ — كتاب المتوكل فى الإعلان بلقبه

ولما مات هرون الواثق بن المعتصم سنة ٢٣٢ هـ بويع بالخلافة أخوه جعفر ، ولُقِّب المتوكِّلَ على الله ، فأحضر محمد بن عبد الملك الزيات وأمر بالكتاب بذلك إلى الناس ، فنفَذَتْ إليهم الكتب ، نسخة ذلك :

« بسم الله الرحمن الرحيم : أَمَر — أبقاك الله — أميرُ المؤمنين — أطال الله بقاءه — أن يكون الرَّسم الذى يجرِى به ذِكْرُه على أعواد منابره ، وفى كُتُبه إلى قُضاته وكتّابه وعماله وأصحاب دواوينه وغيرهم مِن سائر مَن تجرى المكاتبةُ بينه وبينه : « من عبد الله جعفر الإمام المتوكل على الله أمير المؤمنين » فرأَيك فى العمل بذلك وإعلامى بوصول كتابى إليك موفَّقا إن شاء الله » .

(تاريخ الطبرى ١١ : ٢٦)

٧٤ — كتاب المتوكل إلى عماله فى النصارى وأهل الذمة

وفى سنة ٢٣٥ هـ كتب المتوكل إلى عمّاله فى الآفاق ، بشأن النصارى وأهل الذمة :

« بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعدُ ، فإن الله تبارك وتعالى بعِزّته التى لا تحاوَل ، وقدرته على ما يريد ، اصطفَى الإسلام فرضِيه لنفسه ، وأكرَمَ به ملائكتَه وبعَث به رسُلَه ، وأيّد به أولياءه ، وكنَفَه بالبِرّ ، وحاطه بالنصر ، وحَرَسَه من العاهة ، وأظهره على الأديان ، مُبَرّأً من الشُّبُهات ، معصوما من الآفات ، محبُوًّا بمناقب الخير ، مخصوصا من الشرائع بأطهرها وأفضلِها ، ومن الفرائض بأزكاها وأشرفها ، ومن الأحكام بأعدَلِها وأقنَمِها ، ومن الأعمال بأحسَنها وأقصَدِها ، وأكرَمَ أهلَه بما أحلَّ لهم من حلاله ، وحرّم عليهم من حرامه ، وبيّن لهم من شرائعه وأحكامه ، وحَدَّ لهم من حدوده ومَناهجه ، وأعدَّ لهم من سَعَةِ جَزائه وثوابه ، فقال فى كتابه فيما أمر به

ونهى عنه ، وفيما حضّ عليه فيه ووعظ : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » وقال فيما حرّم على أهله مما غمطَ(١) فيه من رديء المَطْعَم والمشرَب والمَنكَح ، لينزّههم عنه ، وليُطهّر به دينهم ليفضلهم عليهم تفضيلا : « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ(٢) وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ ، وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ » ثم ختم ما حرّم عليهم من ذلك فى هذه الآية بحراسة دينه ممن عَنَدَ(٣) عنه ، وبإتمام نعمته على أهله الذين اصطفاهم ، فقال عز وجل : « الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ، الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا » وقال عز وجل: « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ ، وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ ، وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ، وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ

---

(١) أى عابه وثلبه .

(٢) أى ما رفع الصوت لغير الله به فذبح على اسم غيره ، كقولهم : باسم اللات والعزى عند ذبحه. والمنخنقة : التى ماتت بالخنق : والموقوذة . المقتولة ضربا بخشبة أو حجر . والمتردية : التى تردت وسقطت من علو فماتت . والنطيحة : التى نطحتها أخرى فماتت . وما أكل السبع : أى وما أكل منه السبع فمات ، إلا ما ذكيتم : التذكية : الذبح ، أى إلا ما أدركتم فيه الروح من هذه الأشياء فذبحتموه ، وماذبح على النصب : وهى أحجار كانت منصوبة حول الكعبة يذبحون عليها ويعدون ذلك قربة ، وقيل هى الأصنام ، أى وماذبح على اسم النصب ، وأن تستقسموا : أى تطلبوا معرفة ما قسم لكم ، والأزلام : جمع زلم بفتح الزاى وضمها مع فتح اللام ، وهو قدح (كفرد) صغير لاريش له ولا نصل ، وكانوا إذا قصدوا فعلا أجالوا ثلاثة قداح ، مكتوب على أحدها أمرنى ربى ، وعلى الثانى نهانى ربى ، والثالث غفل . فإن خرج الأول مضوا فى الأمر ، وإن خرج الثانى تجنبوه ، وإن خرج الثالث أجالوها ثانية .

(٣) أى مال عنه .

مِنْ أَصْلَابِكُمْ ، وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيماً » وقال « إِنَّمَا الخَمْرُ وَالمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلَامُ رِجْسٌ[1] مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ فِي الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ ويَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وعَنِ الصَّلَاةِ ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ » .

فحرّم على المسلمين من مآكل أهل الأديان أرْجَسَها وأنجَسَها ، ومن شرابهم أدْعاه إلى العداوة والبغضاء ، وأصَدّه عن ذكر الله وعن الصلاة ، ومن مَناكحهم أعظمَها عنده وِزْرا ، وأولاها عند ذوى الحِجَا والألباب تحريما ، ثم حَبَاهم محاسنَ الأخلاق ، وفضائلَ الكرامات ، فجَعَلهم أهل الإيمان والأمانة ، والفضل والتراحُم ، واليقين والصدق ، ولم يجعل فى دينهم التقاطُعَ والتدابُرَ ، ولا الحميَّةَ ولا التكبُّرَ ، ولا الخيانةَ ولا الغَدْر ، ولا التَّباغِيَ ولا التظالُمَ ، بل أَمَر بالأولَى ، ونَهَى عن الأخرى ، ووَعَد وأوعدَ عليها جَنَّته وناره ، وثوابَه وعِقابَه ، فالمسلمون بما اختصَّهم الله من كرامته وجعل لهم من الفضيلة بدينهم الذى اختاره لهم ، بائِنُون على الأديان بشرائعهم الزاكية ، وأحكامهم المَرْضِيَّةِ الطاهرة ، وبراهينهم المُنيرة ، وبتطهير الله دينَهم بما أحلَّ وحرَّم فيه لهم وعليهم ، قضاءً من الله عز وجل فى إعزاز دينه حَتْماً ، ومَشيئةً منه فى إظهار حقه ماضيةً ، وإرادةً منه فى إتمام نعمته على أهله نافذةً « لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ » وليجعلَ الله الفوزَ والعاقبة للمتقين ، والخِزْيَ فى الدنيا والآخرة على الكافرين .

وقد رأى أمير المؤمنين — وبالله توفيقُه وإرشادُه — أن يحملَ أهلَ الذِّمّة جميعا بحضْرته وفى نواحى أعماله أقربِها وأبعدِها ، وأخَصِّهم وأخَسِّهم ، على تصيير

---

(١) الرجس : القذر .

طيالِسَتهم[١] التى يلبَسونها ، مَن لَبِسها من تجّارهم وكتّابهم وكبيرهم وصغيرهم ، على ألوان الثياب العَسَلَيَّة ، لايتجاوز ذلك منهم متجاوزٌ إلى غيره ، ومن قَصُر عن هذه الطبقة من أتباعهم وأرذالهم ومن يقعُد به حالُه عن لُبْس الطيالسة منهم ، أُخِذ بتركيب خِرْقتَين ، صِبْغُهما ذلك الصِّبْغ ، يكون استدارةُ كلٍّ واحدة منهما شِبْرا تامًّا فى مِثله، على موضعٍ أمامَ ثوبه الذى يلبَسُه تِلقاءَ صدره ومِن وراء ظهره ، وأن يؤخذ الجميع منهم فى قَلانِسِهم[٢] بتركيب أزِرَّة عليها ، يخالفُ ألوانُها ألوانَ القلانس ، ترتفع فى أماكنها التى تقَع بها ، لِئَلا تُلصَقَ فتُسْتَر ، ولا ما يركَّبُ منها على حِباكٍ[٣] فيَخْفَى ، وكذلك فى سروجهم باتخاذِ رُكُب[٤] خَشَبٍ لها ، ونَصْبِ أُكَرٍ على قَرابيسِها[٥] تكون ناتِئةً عنها ومُوفِيةً عليها ، لايُرخَّصُ لهم فى إزالتها عن قرابيسهم وتأخيرِها إلى جوانبها ، بل تتفقّدُ ذلك منهم ليقع ما وقع من الذى أمَرَ أمير المؤمنين بحَمْلهم عليه ظاهِراً يتبيَّنه الناظرُ من غير تأمل ، وتأخذه الأعينُ من غير طلب ، وأن تؤخذ عَبيدهم وإماؤهم ومَن يلبَس المناطِق من تلك الطبقة بشدّ الزّنانيرِ والكَساتِيج[٦] مكان المناطق التى كانت فى أوساطهم ، وأن تُوعِزَ إلى عمّالك فيما أَمَر به أمير المؤمنين فى ذلك إيعازاً تحذُرهم[٧] به إلى استقصاء ما تقدّم إليهم فيه ،

---

(١) الطيالسة جمع طيلسان بفتح الطاء وتثليث اللام : ضرب من الأكسية أسود ، فارسى معرب .

(٢) القلانس : جمع قلنسوة بفتحتين فسكون فضم ففتح ، وهى لباس الرأس .

(٣) الحباك : حبل يشد به على الوسط .

(٤) الركب ، جمع ركاب بالكسر ، والركاب للسرج كالغرز للرحل .

(٥) القرابيس : جمع قربوس بفتح أوله وثانيه ، وهو حنو السرج (بكسر الحاء) ، وله قربوسان . والكرة : معروفة ، وأصلها كروة حذفت الواو ، وتجمع على كرات وكرين ، وتجمع أيضا على أكر وأصله وكر ، مقلوب اللام إلى موضع الفاء ، ثم أبدلت الواو همزة لا نضمامها ، وناتئة : مرتفعة .

(٦) المناطق : جمع منطقة كمكنسة ، وهى ما يشد على الوسط ، والزنانير : جمع زنار كتفاح، وهو مايشد على وسط النصارى والمجوس ، والكساتيج جمع كستيج بالضم : وهو خيط غليظ يشده الذمى فوق ثيابه دون الزنار .

(٧) أى تسوقهم .

وتحذّرهم إدهانا[١] ومَيْلا ، وتتقدّم إليهم فى إنزال العقوبة بمن خالف ذلك من جميع أهل الذمة عن سبيل عِنادٍ ، وتَهْوِينٍ إلى غيره ، ليقتصرَ الجميع منهم على طَبقَاتهم وأصنافهم على السبيل التى أمَر أمير المؤمنين بحَمْلِهم عليها ، وأخذِهم بها إن شاء الله .

فاعلَمْ ذلك مِنْ رَأْيِ أمير المؤمنين وأمْرِه ، وأَنْفِذ إلى عُمَّالك فى نواحى عملك ما وَرَدَ عليك من كتاب أمير المؤمنين بما تعمَلُ به إن شاء الله ، وأمير المؤمنين يسأل الله رَبَّه ووليَّه أن يصلِّيَ على محمد عبدِه ورسوله ، صلى الله عليه وملائكتُه ، وأن يحفظه فيما استخلفه عليه من أمر دينه ، ويتولَّى ما ولاَّه مما لا يبلُغُ حَقَّه فيه إلا بعَوْنه ، حِفظا يحمِل به ما حَمَّله ، ووِلايةً يقضِى بها حَقَّه منه ، ويوجب بها له أكملَ ثوابه ، وأفضلَ مزيده ، إنه كريم رحيم » .

وكتب إبراهيم بن العباس فى شَوَّال سنة خمس وثلاثين ومائتين .

(تاريخ الطبرى ١١ : ٣٦)

٧٥ — كتاب المتوكل بولاية العهد لبنيه

وفى سنة ٢٣٥ هـ أيضاً عقد المتوكل البيعة لبنيه الثلاثة ـ المنتصر والمعتز والمؤيّد ـ بولاية العهد ، وضم إلى المنتصر إفريقية والمغرب وما يضاف إليها ، وإلى المعتز كُوَرخُراسان وما يضاف إليها ، وإلى المؤيد الشأم ، وكتب بينهم كتابا نسخته :

« هذا كتابٌ كتبَه عبدُ الله جعفرٌ الإمامُ المتوكِّلُ على الله أمير المؤمنين ، وأشْهَدَ اللهَ على نفسه بجميع مافيه ، ومَن حَضَرَ من أهل بيته وشيعته وقُوّادِه وقُضاتِه وكُفَاتِه وفُقهائِه وغيرهم من المسلمين ، لمحمدٍ المنتصر بالله ولأبى عبد الله المعتزّ بالله ، وإبراهيم المؤيَّد بالله بَنِي أمير المؤمنين ، فى أصالةٍ مِن رأْيه ، وعُمومٍ من عافيةِ بَدَنه ،

(١) الإدهان : الغش .

واجتماعِ مِن فَهْمه ، مختاراً لما عَهِد به ، متوخِّيا بذلك طاعةَ ربه ، وسلامةَ رعيّته واستقامتَها ، وانقيادَ طاعتِها ، وَاتِّساعَ كلمتِها ، وصلاحَ ذاتِ بينِها ، وذلك في ذي الحِجَّة سنةَ خمسٍ وثلاثين ومائتين ، إلى محمدٍ المنتصرِ بالله بن جعفر الإمامِ المتوكِّلِ على الله أمير المؤمنين ولايةُ عَهْدِ المسلمين في حياته ، والخلافةُ عليهم مِن بعـــده ، وأمَرَه بتقوى الله التي هي عِصمَةُ مَن اعتصم بها ، ونجاةُ مَن لجأ إليها ، وعِزُّ مَن اقتصر عليها فإنّ بطاعة الله تتمّ النعمةُ ، وتجبُ من الله الرحمةُ ، والله غفور رحيم ، وجعل عبد الله جعفرٌ الإمامُ المتوكل على الله أميرُ المؤمنين الخلافةَ من بعد محمدٍ المنتصر بالله ابن أمير المؤمنين ، إلى أبي عبد الله المعتزّ بالله ابن أمير المؤمنين ، ثم من بعد أبي عبد الله المعتزّ بالله ابن أمير المؤمنين الخلافة إلى إبراهيم المؤيَّد بالله ابن أمير المؤمنين .

وجعل عبدُ الله جعفرٌ الإمامُ المُتوكلُ على الله أميرُ المؤمنين لمحمدٍ المنتصر بالله ابن أمير المؤمنين، على أبي عبد الله المعتزّ بالله وإبراهيمَ المؤيَّد بالله ابنَيْ أمير المؤمنين: السمعَ والطاعةَ والنَّصيحة والمُشايَعةَ والمُوالاةَ لأوليائه ، والمعاداةَ لأعدائه ، في السِّرِّ والجَهْر ، والغَضَب والرِّضا ، والمَنْع والإعطاء ، والتمسكَ ببَيْعته ، والوفاء بعهده ، لا يَبْغِيانه غائلةً[(١)] ، ولا يحاولانه مُخاتَلةً ، ولا يُمالِئان[(٢)] عليه عدوًّا ، ولا يستبدَّان دُونَه بأمرٍ يكون فيه نقصٌ لِما جَعَلَ إليه أميرُ المؤمنين ، من ولاية العهد في حياته والخلافةِ من بعده .

وجَعَل عبدُ الله جعفرٌ الإمامُ المتوكلُ على الله أمير المؤمنين على محمدٍ المنتصر بالله ابن أمير المؤمنين ، لأبي عبد الله المعتز بالله وإبراهيمَ المؤيَّد بالله أبنَي أمير المؤمنين : الوفاءَ بما عقَده لهما ، وعهِد به إليهما، من الخلافة بعد محمدٍ المنتصر بالله ابن أمير المؤمنين - وإبراهيمُ المؤيَّد بالله ابن أمير المؤمنين الخليفةُ من بعد أبي عبد الله المعتز بالله ابن أمير المؤمنين - والإتمامَ على ذلك ، ولا يخلعهما ، ولا واحدا منهما ، ولا يعقِد دونهما

---

(١) الغائلة : الداهية . والمخاتلة : المخادعة .

(٢) مالأه على الأمر : ساعده وشايعه .

ولا دونَ واحدٍ منهما بَيعةً لولد ولا لأحدٍ من جميع البَرِيّة ، ولا يؤخِّر منهما مقدَّما ، ولا يقدِّم منهما مؤخَّرا ، ولا يَنقُصُهما ، ولا واحدا منهما شيئا من أعمالهما التي ولّاهما عبدُ الله جعفرٌ الإمامُ المتوكلُ على الله أمير المؤمنين ، وكلّ واحدٍ منهما ، من الصلاة والمعاوِن والقضاءِ والمَظالم والخَراج والضِّياع والغنيمة والصَّدَقات وغير ذلك من حقوق أعمالهما ، وما فى عمل كلّ واحد منهما من البريد والطِّراز[١] وخَزْن بيوت الأموال والمَعاون ودُورِ الضَّرب ، وجميع الأعمال التي جعلها أمير المؤمنين ويجعلها إلى كل واحد منهما ، ولا يَنقُل عن واحد منهما أحدا من ناحيته من القُوّاد والجند والشاكِرِيّة[٢] والمَوالِي والغِلمان وغيرهم ، ولا يعترض عليه فى شىء من ضِياعه وإقطاعاتِه وسائرِ أمواله وذخائره وجميع ما فى يده وما حَواه ومَلَكَتْ يدُه ، من تالِدٍ وطارِف ، وقديمٍ ومستأنف ، وجميع ما يستفيده ويُستفاد له ، بنقْض ، ولا بخَرْمٍ ، ولا بجَنَف[٣] ، ولا يَعرِض لأحد من عُمّالِه وكُتّابه وقُضاته وخَدَمه ووكلائِه وأصحابه وجميع أسبابه ، بمناظرة ولا محاسَبة ، ولا غير ذلك من الوجوه والأسباب كلِّها ، ولا يَفسَخُ فيما وكّده أمير المؤمنين لهما فى هذا العقد والعهد بما يُزيل ذلك عن جهته ، أو يؤخِّره عن وقته ، أو يكون ناقضا لشىء منه .

وجعل عبد الله جعفر المتوكلُ على الله أمير المؤمنين على أبى عبد الله المعتزِّ بالله ابن أمير المؤمنين ، إن أفضَت إليه الخلافةُ بعد محمد المنتصر بالله ابن أمير المؤمنين ، لإبراهيم المؤيَّد بالله ابن أمير المؤمنين ، مِثلَ الشرائط التي اشترطها على محمد المنتصر بالله ابن أمير المؤمنين ، بجميع ما سَمَّى فيه وَوَصَف فى هذا الكتاب ، وعلى ما بَيَّن وفَسَّر ، مع الوفاء من أبى عبد الله المعتز بالله ابن أمير المؤمنين ، بما جعلَه أمير المؤمنين

---

(١) انظر ص ١٩٥ من الجزء الثالث .

(٢) الشاكرى : الأجير والمستخدم .

(٣) أصل الخرم: فصم الخرزة . ومعناه هنا: النقص . والجنف : الميل والجور ، وفى الأصل « ولا يحرم ولا يحنف » وأراه مصحفا .

لإبراهيم المؤيَّد بالله ابن أمير المؤمنين مِن الخلافة وتسليم ذلك رَضِيًّا مُمْضِيًّا له مقدِّما مافيه حقُّ الله عليه وما أمرَه به أمير المؤمنين ، غير نا كِثٍ ولا نا كِبٍ[١] بذلك ولا مُبَدِّل ، فإن الله تعالى جَدُّه ، وعزَّ ذِكرُه ، يتوعد من خالف أمرَه ، وعَنَدَ[٢] عن سبيله فى مُحْكَمَ كتابه : « فَمَنْ بَدَّلَهُ مِنْ بَعْدِ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » .

على أن لأبى عبد الله المعتز بالله ابن أمير المؤمنين ، ولإبرهيمَ المؤيَّد بالله ابن أمير المؤمنين ، على محمد المنتصر بالله ابن أمير المؤمنين [إذا أفضت الخلافة إليه[٣]] وهما مقيمان بحضْرَته ، أو أحدُهما ، أو كانا غائبَيْن عنه ، مجتمعَيْن كانا أو متفرِّقَيْن ، وليس أبو عبد الله المعتزُّ بالله ابن أمير المؤمنين فى ولايته بخُراسان وأعمالها المتصلة بها والمضمومة إليها ، وليس إبراهيمُ المؤيد بالله ابن أمير المؤمنين فى ولايته بالشام وأجنادِها ، فعَلَى محمد المنتصر بالله ابن أمير المؤمنين أن يُمْضِيَ أبا عبد الله المعتزَّ بالله ابنَ أمير المؤمنين إلى خُراسان وأعمالها المتصلة بها والمضمومة إليها ، وأن يسلِّمَ له ولايتَها وأعمالها كلَّها وأجنادَها ، والكُوَرَ الداخلةَ فيما وَلَّى جعفرٌ الإمامُ المتوكلُ على الله أمير المؤمنين أبا عبد الله المعتزّ بالله ابن أمير المؤمنين ، فلا يُعَوِّقُه عنها ، ولا يحبسُه قِبلَه ، ولا فى شىء من البُلْدان دون خراسان والكُوَرِ والأعمالِ المضمومة إليها ، وأن يُعجِّلَ إشخاصَه إليها ، وَالِيًا عليها وعلى جميع أعمالها ، مُفْرَدًا بها ، مفوَّضًا إليه أعمالُها كلُّها ، لِيَنزِلَ حيثُ أحبَّ مِن كُوَر عمله ، ولا ينقله عنها ، وأن يُشْخِصَ معه جميعَ مَن ضَمَّ إليه أميرُ المؤمنين ، وَيَضُمُّ من مَواليه وقواده وشاكِريَّته وأصحابه وكُتَّابه وعُمَّاله وخدمه ، ومن اتبعه من صنوف الناس بأهاليهم وأولادهم وعِيالهم وأموالهم ، ولا يحبسُ عنه أحدا ، ولا يُشْرِكُ فى شىء من أعماله أحدا ، ولا يوجِّه عليه

---

(١) نكب عنه كنصر وفرح : عدل .

(٢) عند عن الطريق كنصر وسمع و كرم : مال .

(٣) مابين القوسين ساقط من الأصل ، والسياق يقتضيه ، وسيرد نظيره فى الرسالة نفسها بعد .

أمينا ولا كاتبا ولا بريدا ، ولا يَضرِب[1] على يده فى قليل ولا كثير ، وأن يُطلِق محمدٌ المنتصرُ بالله لإبراهيم المؤيد بالله ابن أمير المؤمنين الخروجَ إلى الشأم وأجنادها ، فيمن ضَمّ أمير المؤمنين ويضمُّ إليه ، من مواليه وقواده وخدَمه وجنوده وشاكريّته وصحابته وعُمّاله وخُدّامه ، ومن اتبعه من صنوف الناس بأهاليهم وأولادهم وأموالهم ولا يحبِسُ منهم أحداً ، ويسلِّم إليه ولايتَها وأعمالَها وجنودَها كلَّها ، لا يعوّقهُ عنها ولا يحبسه قِبَله ، ولا فى شىء من البُلدان دونها ، وأن يعجِّل إشخاصَه إلى الشأم وأجنادها ، والياً عليها ، ولا ينقلُه عنها ، وأنّ عليه له فيمن ضُمّ إليه من القُوّاد والموالى والغلمان والجنود والشاكريّة وأصنافِ الناس ، وفى جميع الأسباب والوجوه مِثلَ الذى اشتُرِطَ على محمد المنتصر بالله ابن أمير المؤمنين لأبى عبد الله المعتز بالله ابن أمير المؤمنين فى خراسان وأعمالها ، على ما رُسِم من ذلك وبُيِّن ولُخِّصَ وشُرِح فى هذا الكتاب .

ولإبرهيم المؤيد بالله ابن أمير المؤمنين على أبى عبد الله المعتز بالله ابن أمير المؤمنين إذا أفضَت الخلافةُ إليه وإبراهيمُ المؤيد بالله مقيم بالشأم أن يُقِرّه بها، أو كان بحضرته أو كان غائبا عنه، أن يُمْضِيه إلى عمله من الشأم، ويسلِّم إليه أجنادَها وولايتها وأعمالها كلها ، ولا يعوّقه عنها ، ولا يحبِسه قِبَلَه ولا فى شىء من البلدان دونها ، وأن يعجِّلَ إشخاصه إليها ، والياً عليها وعلى جميع أعمالها ، على مثل الشرط الذى أُخِذ لأبى عبد الله المعتز بالله ابن أمير المؤمنين على محمد المنتصر بالله ابن أمير المؤمنين ، فى خراسان وأعمالها ، على ما رُسم ووُصِف وشُرِط فى هذا الكتاب لم يجعل أميرُ المؤمنين لواحد ممن وَقَعت عليه وله هذه الشروطُ ، من محمد المنتصر بالله وأبى عبد الله المعتز بالله وإبراهيم المؤيد بالله بَنِى أمير المؤمنين ، أن يُزيل شيئا مما اشترطنا فى هذا الكتاب ووَكّدْنا ، وعليهم جميعا الوفاء به ، لا يقبَلُ الله منهم إلا ذلك ولا التمسكَ إلا بعهد الله فيه ، وكان عَهْدُ اللهِ مَسْئُولاً .

(١) ضرب على يده : منعه من أمر أخذ فيه ، كحجر عليه .

أشهَدَ اللهَ ربَّ العالمين جعفرٌ الإمام المتوكلُ على الله أميرُ المؤمنين ومَن حضَرَ من المسلمين بجميع ما فى هذا الكتاب ، على إمضائه إياه ، على محمد المنتصر بالله وأبى عبد الله المعتز بالله وإبراهيم المؤيد بالله بَنِى أمير المؤمنين ، بجميع ما سَمَّى وَوصَف فيه ، وكَفى بالله شهيدا ومُعِينا لمن أطاعه راجيا ، ووفَى بعَهْدِه خائفا ؛ وحَسِيبا ومُعاقِبا مَن خالفَه مُعانِدا ، أو صَدَف[1] عن أمره مجاهِداً .

وقد كُتِب هذا الكتاب أربعَ نُسَخ ، وُقِّعت شهادةُ الشهود بِحَضْرة أمير المؤمنين فى كل نسخةٍ منها ، فى خِزانة أمير المؤمنين نسخةٌ ، وعند محمد المنتصر ابن أمير المؤمنين نسخة ، وعند أبى عبد الله المعتز بالله ابن أمير المؤمنين نسخة ، ونسخة عند إبرهيم المؤيد بالله ابن أمير المؤمنين .

وقد وَلَّى جعفرٌ الإمامُ المتوكلُ على الله أبا عبد الله المعتز بالله ابن أمير المؤمنين أعمالَ فارس وأَرْمِينِيَّة وأَذْرَبِيجان إلى ما يَلِى أعمالَ خراسان وكُوَرَها وأعمالها المتصلة بها والمضمومة إليها ، على أن يجعل له على محمدٍ المنتصر بالله ابن أمير المؤمنين فى ذلك ، الذى جَعَل له فى الحِياطة فى نفسه ، والوَثاق فى أعماله والمضمومين إليه وسائر مَن يستعين به من الناس جميعا ، فى خراسان والكُوَرِ المضمومة إليها والمتصلة بها ، على ما سَمَّى ووَصَفَ فى هذا الكتاب » . (تاريخ الطبرى ١١ : ٣٩)

٧٦ — كتاب عبيد الله بن يحيى بن خاقان إلى الحسن بن عثمان

وفى سنة ٢٤١ هـ ضُرب عيسى بن جعفر بن محمد بن عاصم ، صاحب خان عاصم ببغداد ألف سوط فيما قيل .

وكان السبب فى ذلك أنه شهد عليه عند أبى حَسَّان الزيادىّ قاضى الشرقية ، أنه

---

(١) صدف عنه كضرب : أعرض .

شتم أبا بكر وعمر وعائشة وحَفْصة(١) ، سَبْعَةَ عَشَرَ رجلا ، شهاداتهم فيما ذكر مختلفة من هذا النحو ، فكتب بذلك صاحب بريد بغداد إلى عُبيد الله(٢) بن يحيى بن خاقان ، فأنهَى عبيد الله ذلك إلى المتوكل(٣) ، فأمر المتوكل أن يكتب إلى محمد بن عبد الله بن طاهر(٤) يأمره بضرب عيسى هذا بالسياط ، فإذا مات رُمِى به فى دجلة ، ولم تدفع جيفته إلى أهله ، فكَتَب عبيد الله إلى الحسن بن عثمان(٥) جوابَ كتابه إليه فى عيسى :

« بسم الله الرحمن الرحيم : أبقاك الله وحَفِظك ، وأتم نعمتَه عليك ، وصل كتابُك فى الرجل المسمَّى عيسى بن جعفر بن محمد بن عاصم صاحب الخانات ، وما شَهِد به الشهودُ عليه مِن شَتْمِ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولَعْنِهم وإكفارهم وَرَمْيِهم بالكبائر ، ونسبتهم إلى النفاق ، وغير ذلك مما خرج به إلى المعاندة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، وتثبُّتِك فى أمر أولئك الشهود وما شَهِدوا به ، وما صَحَّ عندك من عَدَالة مَن عَدَل منهم ، وَوَضَح لك من الأمر فيما شَهِدُوا به ، وشَرْحك ذلك فى رُقْعَةِ دَرْج(٦)

(١) هى حفصة بنت عمر بن الخطاب .

(٢) وزير المتوكل ـ انظر الفخرى ص ٢١٦ ، ذكر الطبرى أنه استكتبه سنة ٢٣٦ هـ ـ تاريخ الطبرى ١١ : ٤٤ .

(٣) وكان مقر الخلافة يومئذ مدينة سر من رأى (سامرا) بفتح الميم ، وهى مدينة بين بغداد وتكريت على شرقى دجلة . وذلك أن جيوش المعتصم كانوا قد كثروا حتى بلغ عدد مماليكه من الأتراك سبعين ألفا ، فمدوا أيديهم إلى حرم الناس ، وسعوا فيها بالفساد ، وضاقت عنهم بغداد ، وكان إذا ركب مات جماعة من الصبيان والعميان والضعفاء لازدحام الخيل وضغطهم ، فاجتمع أهل الخير على باب المعتصم وقالوا له : إما أن تخرج من بغداد فإن الناس قد تأذوا بعسكرك ، وإما أن نحاربك ، فقال : كيف تحاربونى ؟ قالوا : نحاربك بسهام السحر ، قال : وما سهام السحر ؟ قالوا : ندعو عليك ، فقال : لا طاقة لى بذلك ، وخرج من بغداد وبنى « سر من رأى » سنة ٢٢١ هـ ونزل بها ، وأقام بها ابنه الواثق ثم المتوكل ، وبنى بها قصورا كثيرة ـ ولم يبن بها أحد من الخلفاء من الأبنية الجليلة مثل مابناه المتوكل ، ولم تزل فى صلاح وزيادة وعمارة إلى آخر أيام المنتصر بن المتوكل ، ثم أخذت فى التناقص إلى أن كان آخر من انتقل إلى بغداد من الخلفاء وأقام بها وترك « سر من رأى » المعتضد بالله المتوفى سنة ٢٨٩ هـ انظر معجم ياقوت ٥ : ١٢ والفخرى ص ٢١١ .

(٤) قال الطبرى (١١ : ٤٥) « وفى سنة ٢٣٧ قدم محمد بن عبد الله بن طاهر من خراسان فولى الشرطة والجزية وأعمال السواد وخلافة أمير المؤمنين بمدينة السلام ، ثم صار إلى بغداد » .

(٥) صاحب بريد بغداد . (٦) الدرج : الذى يكتب فيه .

كتابك ، فعرضتُ على أمير المؤمنين — أعزّه الله — ذلك ، فأمر بالكتاب إلى أبى العباس محمد بن عبد الله بن طاهر مولى أمير المؤمنين — أبقاه الله — بما قد نفّذ إليه مما يُشْبِه ما عنده — أبقاه الله — من نُصرة دين الله وإحياء سُنّته ، والانتقام ممن ألحدَ فيه ، وأن يُضرب الرجل حدًّا فى مَجْمع الناس حدّ الشتم ، وخمسمائة سَوْط بعد الحدّ للأمور العِظام التى اجترأ عليها ، فإن مات أُلقِى فى الماء من غير صلاة ، ليكون ذلك ناهيا لكل مُلْحِد فى الدين ، خارجٍ من جماعة المسلمين ، وأعلمتُك ذلك لتعرفَه إن شاء الله تعالى ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » .

وذكر أن عيسى هذا لما ضرب تُرِك فى الشمس حتى مات ، ثم رمى به فى دجلة .

(تاريخ الطبرى ١١ : ٥١)

٧٧ — كتاب أبى العيناء إلى عبيد الله بن يحيى بن خاقان

وحَمَل محمد بن عُبَيد الله بن يحيى بن خاقان أبا العَيْناء(١) على دابّة زعم أنه غير فارهٍ(٢) ، فكتب إلى أبيه عبيد الله :

« أعلِمُ الوزير — أعزّه الله — أن أبا على محمدا أراد أن يَبَرّنى فعقّنى ، وأن يُرْكبنى فأرْجَلنى ، أمَرَ لى بدابة تقف للنّبْرة(٣) ، وتعثُر بالبَعْرة ، كالقضيب اليابس

---

(١) هو محمد بن القاسم بن خلاد ، وكان فصيحا بليغا شاعرا ، وكان من ظرفاء العالم ، وفيه من اللسن وسرعة الجواب والذكاء مالم يكن فى أحد من نظرائه ، وله مع المتوكل مجالس ، ولد سنة ١٩١ هـ وعمى وعمره أربعون سنة وتوفى سنة ٢٨٢ — انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١ : ٥٠٤ ، وزهر الآداب ١ : ٢٨٩ — ٢٩٦ . والفهرست لابن النديم ص ١٨١ .

(٢) الدابة : مادب من الحيوان ، وغلب على مايركب ، ويقع على المذكر ، والفاره من الدواب : الجيد السير ، قالوا : ويقال للبغل والحمار والبرذون : فاره ، ولا يقال للفرس فاره ، ولكن رائع وجواد .

(٣) يقال . نبر الرجل نبرة : إذا تكلم بكلمة فيها علو ، والنبرة : صيحة الفزع ، ونبرة المغنى : رفع صوته عن خفض .

عَجَفاً[١] ، وكالعاشق المهجور دَنَفا[٢] ، قد أذكَرَتِ الرُّواةَ عُروَةَ[٣] العُذرِىَّ ، والمجنونَ العامرىَّ[٤] ، مساعِدٌ أعلاه لأسفله ، حُباقُهُ[٥] مقرون بسُعاله ، فلو أمسَكَ لترجَّيْتُ ، ولو أفرِدَ لتعزَّيْتُ ، ولـكنه يجمعهما فى الطريق للعبور ، والمجلس المشهور ، كأنه خطيبٌ مُرْشِد ، أو شاعر مُنْشِد ، تضحك من فعله النِّسْوانُ ، وتتناغَى[٦] من أجله الصِّبيانُ ، فمِن صائحٍ يصيح دَاوِه بالطَّباشير[٧] ، ومن قائل يقول : نوِّله[٨] الشعيرَ ، قد حفظ الأشعارَ ، ورَوَى الأخبار ، ولحق العلماء فى الأمصار ، فلو أُعِين بنطق، لَرَوَى بحقٍّ وصِدْق ، عن جابر الجُعْفِىِّ ، وعامر الشَّعْبى[٩] .

وإنما أُوتيتُ مِن كاتبه الأعور ، الذى إذا اختار لنفسه أطابَ وأكثَرَ ، وإن اختار لغيره أخْبَثَ وأنْزَرَ[١٠] ، فإن رأى الوزير أن يُبْدِلنى به ، ويُرِيحنى منه بمركوب.

---

(١) العجف : الهزال .

(٢) الدنف : المرض الملازم .

(٣) فى الأصل « عذرة » وهو تحريف وصوابه « عروة » وهو عروة بن حزام بن مهاصر العذرى صاحب عفراء بنت عقال بن مهاصر — بنت عمه — وهو شاعر إسلامى ، وأحد المتيمين الذين قتلهم الهوى، مات من حب ابنة عمه عفراء — انظر ترجمته فى الأغانى ٢٠ : ١٥٢ ، والشعر والشعراء ص ٢٣٧ ، واقرأ قصيدته النونية فى الأغانى ، وفى كتاب النوادر لأبى على القالى عقب ذيل الأمالى ، والعــذرى نسبة إلى عذرة : قبيلة من اليمن ، وهم مشهورون بالعشق والعفة ، ومنهم جميل بن عبد الله ابن معمر العذرى صاحب بثينة ، وخبره مشهور — انظر ترجمته فى الأغانى ٧ : ٧٢ ، ووفيات الأعيان ١ : ١١٥ .

(٤) هو قيس بن الملوح مجنون بنى عامر ، صاحب ليلى ، وخبره مشهور أيضا — انظر خبره فى الأغانى ١ : ١٦١ ، ٢ : ٢ .

(٥) الحباق : الضراط .

(٦) ناغت المرأة الصبى : كلمته بما يعجبه ويسره .

(٧) الطباشير : دواء يكون فى جوف القنا الهندى .

(٨) نوِّله : أعطاه .

(٩) الجعفى : نسبة إلى جعفى بن سعد العشيرة بن مذحج ، أبو حى باليمن ، وأعقب جعفى من ولديه حران (كرمان) وصرم (كزبير) ومن ولد مران جابر بن يزيد الفقيه — انظر شرح القاموس ٦ : ٥٧ ، وعامر الشعبى : هو عامر بن شراحيل (بفتح الشين) كوفى تابعى جليل القدر وافر العلم ، قال الزهرى : « العلماء أربعة : سعيد بن المسيب بالمدينة ، والشعبى بالكوفة ، والحسن البصرى بالبصرة ، ومكحول بالشام » والشعبى نسبة إلى شعب ، وهو بطن من همدان ، وكانت أمه من سبى جلولاء ، وتوفى سنة ١٠٤ هـ — انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١ : ٢٤٤ .

(١٠) أنزره : قلله .

يُضْحِكنى كما أضحَكَ منى ، ويمحو بحُسْنه وفراهته ، ماسطَّره المَعِيبُ بقبحهِ وَدَمَامَتِه[١] ، ولست أذكر أمر سَرجه ولجامه ، فإن الوزير أكرم من أن يَسْلُب مايُهْديه ، أو ينقُض ما يُمْضيه » .

فوجَّه عبيد الله إليه بِرْذَوْنا[٢] من بَراذينه بسرجه ولجامه ، ثم اجتمع مع محمد ابن عبيد الله عند أبيه ، فقال عبيد الله : شكوتَ دابة محمد ، وقد أخبرنى الآن أنه يشتريه منك بمائة دينار ، وما[٣] هذا ثمنه لايُشتَكَى ! فقال : أعز الله الوزير ، لو لم أكذب مستزيدا[٤] ، لم أنصرف مستفيدا ، وإنى وإياه لكما «قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ: الآنَ حَصْحَصَ[٥] الْحَقُّ ، أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ » فضحك عبيد الله وقال : حُجتك الداحِضة[٦] ، بملاحتك وظَرفك، أبلغُ من حجة غيرك البالغة .

(زهر الآداب ٢ : ١٦٥)

٧٨ — كتاب عبد الله بن خاقان إلى أبى الجهم

ولعبد الله[٧] بن خاقان إلى أبى الجهْم .

« أما بعدُ فإنى إن بدأتُ بصفة فضلك ، وما خَصَّك الله به ، فأنت أفضلُ مما أصِفُك ، وإن قدّمتُ الصفة لنفسى فى الإخبار عنها بما هى عليه فى المودة والهَوَى ، رأيتُك قد ابتدأت متفضِّلا متطوِّلا بما لايُؤَمَّلُ أكثرُ منه ، ولا يُلْتَمس على الاستحقاق فى حدِّ الجزاء » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٩٤)

---

(١) الدمامة : القبح .

(٢) البراذين من الخيل : ما كان من غير نتاج العراب .

(٣) «ما» هنا موصولة .

(٤) استزاد فلان فلانا : إذا عتب عليه فى أمر لم يرضه .

(٥) حصحص : تبين وظهر .

(٦) حجة داحضة : باطلة .

(٧) ربما كان « عبيد الله » .

٧٩ — كتاب أبي العيناء إلى أبي نوح

وكتب أبو العيناء إلى أبي نوح يهنئه بإسلامه :

« لقد عظُمت نعمةُ الله عليك ، في منابذة(١) أهل الذِّلة والصَّغار ، والكفر والإصرار ، الذين أَحلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ، جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ، وَالَّذِينَ جَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا ، وَدَعَوْا لِلرَّحْمٰنِ وَلَدًا ، وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ، إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمٰنِ عَبْدًا ، وَلْيَهْنِئْكَ نعمةُ الله عليك في أخوّة المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، فقد أصبحت لهم أخا، وأصبح الدعاء لهم عليك من الله فرضا ، قال الله عز وجل : « وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ، وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا ، رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ » .

ولله أبوك ! لقد قَدَحْتَ فأَوْرَيْتَ ، واستضأتَ فاهتديتَ ، ومخضتَ الأمرَ ثم اقتنيت ، لا كمن فَكَّرَ وَقَدَّرَ فقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ، فالحمد لله الذي أفاز(٢) قِدْحَك ، وأعلى كَعْبَك ، وأنقذ من النار شِلْوَك(٣) ، وخلّصك من لَبْس الحَيْرة ، وجَوْرة الشِّرْكِ ، إن الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ . وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ(٤) ، فأصبحت أكرمك الله وقد استبدلتَ بالبِيَعِ المساجدَ ، وبالآحادِ الجُمَعَ ، وبقِبْلة الشامِ البيتَ الحرامَ . وبتحريف الإنجيل صحةَ التنزيل ، وبارتياب المشركين يقينَ الموحِّدين ، وبحُكم الأسْقُفِّ رأسِ المُلْحدين ، حُكْمَ أمير المؤمنين ، وسيِّد المرسلين ، فهنَأَك الله بما أنعم به عليك ، وأحسنَ فيه إليك ، وأوزَعَك(٥) شكره ، وزادك بشكره من فضله » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠٥)

---

(١) أي مخالفة .

(٢) أي جعل الفوز من نصيبه ، يقال : أفازه الله بكذا : أي أظفره .

(٣) الشلو : الجسد . (٤) أي بعيد . (٥) أي ألهمك .

٨٠ ــ كتاب أبى على البصير إلى عبيد الله بن يحيى بن خاقان

وكتب أبو على البصير(١) إلى عبيد الله بن يحيى بن خاقان :

« وإن أمير المؤمنين لمّا استخلصَك لنفسه ، وأَتمَنَك على رعيّته ، فنطَقَ بلسانك وأخَذَ وَأعطَى بيدك ، وأوردَ وأصْدَرَ عن رأيك ، وكان تفويضُه إليك بعد امتحانه إياك ، وتسليطِهِ الحقَّ على الهوَى فيك ، وبعد أن مَيَّل(٢) بينك وبين الذين سَمَوا لمَرتَبَتِك ، وجَرَوا إلى غايتك ، فأسقطهم مِضمارُك(٣) ، وخفُّوا فى ميزانك ، ولم يَزِدْك - أكرمك الله - رفعةً وتشريفا ، إلّا ازددتَ له هَيْبَةً وتعظيما ، ولا تسليطا وتمكينا ، إلا زِدت نفسَك عن الدنيا عُزُوفا(٤) وتنزيها ، ولا تقريبا واختصاصا ، إلا ازددت بالعامة رأفةً ، وعليها حَدَبا(٥) ، لا يُخرِجك فَرْطُ النُّصْح له عن النظر لرعيته ، ولا إيثارُ حقِّه ، عن الأخذ بحقِّها عنده ، ولا القيامُ بما هو له عن تضمُّن ماهو عليه ، ولا يَشْغلك مُعاناةُ كبار الأمور عن تفقُّدِ صِغارها ، ولا الجِدُّ فى إصلاح ما يُصْلَح منها عن النظر فى عواقبها ، تُمْضِى ما كان الرشدُ فى إمضائه ، وتُرْجِىء(٦) ما كان الحزم فى إرجائه ، وتَبذُل ما كان الفضلُ فى بَذْله ، وتمنع ما كانت المصلحة فى مَنعه ، وتَلِين فى غير تكبُّر ، وتخُصُّ فى غير مَيْل ، وتعُمّ فى غير تصنُّع ، لا يشقَى بك المُحِقُّ وإن كان عدوًّا ، ولا يَسعَد بك المُبْطِلُ وإن كان وَلِيًّا ، فالسلطان يعتدُّ لك من الغَناء(٧) والكِفاية ، والذَّبِّ والحِياطة ، والنصح والأمانة ، والعِفَّة والنزاهة ، والنَّصَب فيما أدَّى

---

(١) هو أبو على البصير «الفضل بن جعفر» ، شاعر بليغ مترسل . وهو أحد من جم له حظ البلاغة فى الموزون والمنثور ، وكان بينه وبين أبى العيناء مهاجاة ومكاتبات طيبة - انظر الفهرست لابن النديم ص ١٧٨ ، ووفيات الأعيان ١ : ٥٠٤ ، وزهر الآداب ١ : ٣٤٠ .

(٢) التمييل بين الشيئين كالترجيح بينهما ، وفى الأصل « مثل » .

(٣) المضمار : غاية الفرس فى السباق .

(٤) عزفت نفسه عنه كضرب عزوفا : زهدت فيه وانصرفت عنه .

(٥) حدب عليه كفرح : عطف .

(٦) أرجأه : أخره . (٧) الغناء : الكفاية .

إلى الراحة ، بما يراك معه ، حيث انتهى إحسانُه إليك ، مستوجِباً للزيادة ، وكافّةُ الرعية ـ إلّا من غَمط[١] منهم النعْمةَ ـ مُثْنُون عليك بحسن السِّيرة ، ويُمْن النَّقيبة[٢] ، ويَعُدُّون من مآثِرِك أنك لم تُدْحِض[٣] لأحد حُجةً ، ولم تَدْفع حقا لشُبْهة ، وهذا يسيرٌ من كثير ، لو قصَدْنا لتفصيله ، لأنفَدْنا الزمانَ قبل تحصله ، ثم كان قصدنا الوقوف دون الغاية منه » . (زهر الآداب ١ : ٢٤١)

٨١ — كتابه إلى عبيد الله بن يحيى بن خاقان

وكتب إليه أيضاً :

« بسم الله الرحمن الرحيم : أوجَبُ المعروفِ شكرا ، وأحسَنُه عند الأحرار مَوْقِعا ، معروفُك عندى ، وذلك أنك تطوَّعتَ به مُبتدِئا ، وشَفَعْتَ ماتقدَّم منه متفضِّلا ، عن غير كدٍّ لى ألزمَك دَيْنا . أو أوجَب عليك حقا ، ثم يَقطعُنى عن الأخذ بحظّى من لقائك ، وتعريفِك ما أنا عليه من شكر إنعامك ، والانتساب إلى نعمتك ، وإفرادى إياك بالتأميل دون غيرك ، تخلُّفِى عن منزلة الخاصَّة ، ورغبتى عن مشاركة العامَّة[٤] ، وأنى لست معتادا للخِدْمة ، ولا للملازَمة ، ولا قويّا على المُغاداةِ والمُرَاوَحة ، فلا يَمنَعنَّك ارتفاعُ قدرِك ، وعلوُّ منزلتك ، وما تُعانِى من جلائل الأمور التى تَشْغَلُ عمن قَدُمَت حُرْمته ، ووجب حقُّه ، ونسِىَ أن يذكِّرَ بنفسه ، من أن تتطوَّل[٥] بتجديد ذِكرى وخَبَرى ، والإصغاء إلى مَن يحثُّك على وَصْلِى وبِرِّى ، وبرغِّبك فى الصنيعة عندى ، وأنا أسأل الذى وهب ذلك منك بغير سَعْى منى له ، ولا نَصَب

---

(١) غمط النعمة كضرب وسمع : بطرها .

(٢) النقيبة : النفس والطبيعة .

(٣) أدحض الحجة . أبطلها .

(٤) وفى زهر الآداب : « ورغبتى عن الحلول عل العامة » .

(٥) أى تمن وتتفضل .

كابدنُه فيه ، أن يُنسِيَ(١) لك ولكافة الأحرار فى أجلك : وأن يَمُنَّ عليك بحياطة نعمتك ، وكَبْتِ(٢) عدوك ، والزيادة فى القدرة لك ، ولا يُخلى مكانك منك ، والله يعلم أنى لا أحبُّ أن أتحمل مِنةً إلا لك . ولا أعتدّ عارفةً مذكورة إلا منك » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٤ ، وزهر الآداب ١ : ٣٤١)

* * *

وله إليه آخر فصل من كتاب :

« وأنا أسأل الذى رَحم العبادَ بك ، على حين افتقارٍ منهم إليك ، أن يُعيذهم مِن فَقْدك ، ولا يُعيدهم إلى المَكارهِ التى استنقذهم منها بيدك » .

(زهر الآداب ١ : ٣٤١)

٨٢ — كتاب أبى علىٍ البصير إلى أبى العيناء

وكتب أبو على البصير إلى أبى العيناء :

« من أبى علىّ البصير ، ذى البُرهان المُنير ، المُبلِغ فى التحذير ، المُعذِر فى النّكير ، إلى أبى العَيْناء الضّرير ، ذى الرأى القصير ، والخَطَل الكثير ، والإقدام بالتعيير » .

سلامٌ على المخصوصين بالسلام ، من أجْلِ حقيقة الإسلام ، المؤمنين بالحلال والحرام ، والفرائض والأحكام ، فإنى أحمَدُ اللهَ إلى نفسه وأوليائه مِن خلقه ، على ما هدانى له مِن دِينه ، وعرّفنى مِن حقّه ، وامتنّ علَىّ به من تصديق رُسُله ، والأخذِ بسُننه واتّباعِ سُبُلِه ، وصلّى الله على محمد نبى الرحمة ، الداعى إلى ربّه بالحكمة .

أمّا بعدُ ، فإنك الرجل الدقيقُ(٣) حَسَبُه ، الردىء مذهبُه ، الدنىء مكسبُه ، الخسيسُ مَطلَبُه ، البَذِىُّ لسانُه ، المَقلِىُّ(٤) مكانُه ، المبلُوُّ به إخوانُه ، أخصُّهم بذلك

---

(١) أى يطيل وعد . (٢) كبت العدو كضرب : أخزاه وأذله ورده بغيظه .
(٣) وربما كان « الرقيق » .
(٤) قلاه كرماه ورضيه قلى : أبغضه وكرهه غاية الكراهة .

مَن عظُمَت [عنده] نِعمهُ وتظاهرَ إحسانُه ، قد صيَّرتَ القِحَةَ(١) جُنَّةً ، وشَتْمَ الأعراض سُنَّةً ، والاقتصادَ فى ذلك مِنةً ، عَدوُّك بمَعْزِل عنك ، وصديقُك على وَجَلٍ منك ، إن شاهدتَه عافَك ، وإن غِبتَ عنه خافك ، تسأله فوق الطاقة ، وتُرْهِقه عند الفاقة ، فإن اعتذر إليك لم تُعْذِره ، وإن استنظرَك لم تُنْظِره(٢) ، وإن أنعم عليك لم تشكُره ، لاتزِيدك السِّنّ إلا نقصاً ، ولا يُفيدك الغِنَى إلا حِرصا ، تسمو إلى الكبير ، بقَدْر صغير ، وتُسِفُّ إلى الطفَّيف ، لا للتخفيف ، وتَعرِضُ للناس بالسؤال ، غيرَ محتشِم من الإملال ، ولا كارِهٍ أنْ يُنْظَرَ إليك بالاستقلال ، حتى لقد أخرجتَ الأضغانَ ، وقبَّحتَ الإحسان ، وزهَّدْتَ فى اصطناع المعروف ، وإغاثة الملهوف ، وعذَرْتَ الناسَ فى خُلْف العِدَاتِ ، ودفعِ مُمْكِن الحاجات ، وأغريتَهم ببُغض العُمْيان دون أهلِ العاهات ، مَن أطاعك فى ماله حربتَه(٣) ، وَمن مَنَعك بعذر واضح سَبَبْتَه ، إذا عَنَّ لك طمع كنتَ عبدَه ، بتَذَلُّل وتخشع لمن هو عندَه ، وتنوى قبل إحرازه جَحْدَه ، مَن أكرمَك أهنتَه وتطاولت عليه ، ومن أهانك استكنت(٤) له ولِنْتَ فى يديه ، ومَن سالَمَك لم تساله ، وَمن ناجَزَك لم تقاومْه ، الناسُ منك بين أسرار تُفْشَى ، وبوائقَ(٥) تُخْشَى ، وشَناعاتٍ واردة ، ونوادِرَ باردة ، تُدْرِجُ(٦) كلامَك خوفَ التحصيل ، وتورِّى عن عِيِّك بالقال والقِيل ، معاشرتُك متجنِّبة ، وأحاديثُك متكذِّبة ، لايُسْتَحِى بها فَهْمٌ ، ولا يستفاد منها علم ، تُهامَس بسقوطها فلا يَحشِمك ، وتُتَلَقَّى بالردِّ لها فلا يُؤْلمك ، تسمع كلام خِيار السَّلَف فتدَّعيه ، إفساداً وإلحاداً فيه ، والتماساً لإبطال حُجَج الدين ، وتَشكيكا لأهل البصيرة واليقين ، فإن

---

(١) القحة : الوقاحة . والجنة : الوقاية .

(٢) أنظره : أخره .

(٣) حربه حربا كطلبه طلبا : سلب ماله .

(٤) فى الأصل « اسكنت » .

(٥) جمع بائقة : وهى الداهية .

(٦) أى تطوى .

امتُحِنْتَ بدون ما ادَّعيتَ ، أحجمْتَ وتعادَيْتَ(١) ، وإن كُلِّفْتَ مضاهاتَه هَذَيْتَ وعوَّيت ، ظاهِرُ إسلامك تقيَّة ، وسريرتُه مدخولةٌ رَدِيَّة ، تَضْغَثُ(٢) فى الخبَر عن الرسول ، وتدفَع المعروفَ منه بالمجهول ، وُدُّك تَخلُّق ، وشكرك تملُّق ، ولُطفُك متعسِّف ، وظَرْفك متكلِّف ، أعظمُ المصائب عندك نَيْلٌ حُرمْتَه ، لا تَحفِلُ مع إدراكه بشىء عَدِمْتَه ، إرْثُكَ عن أبيك السِّعاية ، ونَقْلُ الأخبار والوشاية ، لا يُعرَف له غيرها طُعْمَة(٣) ، ولم يكن له إلا بها نعمة ، مشهورٌ بذلك فى مِصْره ، غير مرتاب من أمره ، ثم أنت تبسُط لسانك فى الأحرار ، وتتطاول على ذوى المُرُوءات والأقدار ، فلا أصلٌ راسخ ، ولا فرعٌ شامخ ، ولا نَسَبٌ معروف ، ولا أدب موصوف ، أغراك حِلْمُنا [عليك بالتطاوُل](٤) علينا ، وإبطاؤنا عنك بالتسرُّع إلينا ، فتأنَّيْناك(٥) وراقبناك ، واحتججنا عليك [فلم تُنْكِر معتذِرا] ولم تَقْصِر مُزْدَجِرا ، بل(٦) لم تُجِبْنى عن واحد منها ، تعايياً(٧) بها وعَجزا عنها ثم أوهمتَ أخلاطا من الناس أهلَ جهلٍ بالتمييز والقياس — لا ينظرون بفَهْم . ولا يحكمون بعلم ، ولا يُنزِلون الأمورَ منازِلَها ، ولا يعرفون حقَّها وباطلَها ، يظنّون البلاغة فى الهَذَر(٨) ، ويكتفون بالمنظر من الخبَر — أنك مترفِّع(٩) عن جوابى . وغير محتفِلٍ بعتابى ، ومَفتَّك نفسُك —

---

(١) تعادى : تباعد .

(٢) ضغث الحديث كمنع : خلطه ، وفى الأصل « تصعث » وهو تصحيف .

(٣) الطعمة : وجه المكسب .

(٤) مابين القوسين بياض بالأصل ، وقد أتممت الجملة بما يناسب المقام .

(٥) تأنيته : انظرته وتأخرت فى أمره ولم أعجل ، وفى الأصل هكذا « فاسناك » .

(٦) فى الأصل : « ولم تقصر مزدجرا بتا لم تجبنى عن واحد منها . . . » ويظهر أنه قد سقط من الناسخ هنا كلام ، بدليل أن الضمير فى « منها » لم يتقدم له مرجع ، وأن كلمة « بتا » إن صحت فليس لها موقع فى معنى العبارة .

(٧) عىّ بالأمر وعيي كرضى وتعايا واستعيا وتعيا : ولم يهتد لوجه مراده ، أو عجز عنه ولم يطق إحكامه .

(٨) الهذر : سقط الكلام .

(٩) فى الأصل « متوقع » وهو تحريف .

بقديما ما أغرتك ، لجنت عليك وضرتك ـ أنى أعذرك فيما تركت ، وأمسك عنك ما أمسكت ، وأقف عند أول هذا الأمر دون آخره ، وأكتفى بباطنه من ظاهره ، وهيهات لظنك الكاذب ، وتبا لرأيك العازب(١) ، كلا والله دون أن أغصك بالريق، وأضطرك إلى المضيق ، وأهدم ما أسست ، وأكشف ما لبست(٢) ، وأظهر ما جمجمت ، وأبطل ما أوهمت ، وأبين(٣) الشريف منك ، وأخذل(٤) اللفيف عنك ، حتى تعود إلى وتنزع عن غيك ، وتقيم جوزك ، ولا تعدو طورك ، وحتى تستعطف الناس فى حوائجك إليهم ، وتدع العنف بهم والتسحب(٥) عليهم.

وسيقرأ كتابى هذا الكاتب الأديب ، والفقيه اللبيب ، والشاعر الأريب ، والمصقع(٦) الخطيب ، والظريف الممتع ، والحصيف المقنع ، وكل هؤلاء وكيلى عليك فى طلب الجواب ، من طريق التطوع والاحتساب ، محمودين مأجورين ، مسئولين غير مأمورين .

وقد نفذت لى إليك رسالة العتاب ، على مخرج ألفاظ الكتاب ، ظلمتك فى المطالبة بالإجابة عنها ، وبهظتك(٧) بما حملتك منها ، وتناولتك بالشعر وأنت مفحم(٨) ، وأنا لك فى ذلك أظلم ، وقد ملت إلى السجع على علمى بخساسة حظه ، وركاكة

---

(١) تبا له . أى ألزمه الله هلاكا وخسرانا ، العازب . أى الغائب البعيد عن الصواب.

(٢) التلبيس : التخليط والتدليس ، وفى الأصل « مالبثت » وهو تحريف . والجمجمة : إخفاء الشىء فى الصدر .

(٣) أى أقطعه عنك ، وفى الأصل « وأبين للشريف منك » وهو معنى صحيح أيضا : أى أظهر له مساوئك فيتجنب مخالطتك .

(٤) فى الأصل « واحدل » وهو تصحيف .

(٥) تسحب عليه : تدلل .

(٦) المصقع : البليغ ، أو العالى الصوت ، أو من لا يرتج عليه فى كلامه ولا يتتعتع ، وحصف ككرم : استحكم عقله ، فهو حصيف .

(٧) بهظه الأمر : كمنع ، غلبه وثقل عليه وبلغ به مشقة .

(٨) المفحم : العيى ، ومن لا يقدر أن يقول شعرا .

معانيه ولفظه ، إذ كنتَ تلوى به لسانَك ، وتَثْنى إليه عِنانَك ، قطعًا لحجّتك ، وإزاحةً لعلتك ، فإن أجبتَ فقد كشفتَ لنا ما لديك ، وإن اعترفت بالعجز عطفنا ذلك عليك ، والسلام » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٤١٧)

٨٣ — كتاب لأبي على البصير فى الاعتذار

وكتب أبو على البصير يعتذر عن هفوة :

« ذكرتَ — أعزّك الله — فى كتابك ما يعلم الله اغتمامى به ، واستكانتى له ، وقلَقى عند ماوَرَدَ علىّ منه ، وإكبارى قدرَ البليّة به والمصيبةِ فيه ، والعالمُ بالسرائر ، المطّلعُ على الضمائر ، يشهدُ — وكَفَى بهِ شهيداً — أنى ما أقِفُ على ما ذكرتَ ولا أتوهّمُهُ ، ولا يُومِئُ لى ظنٌّ إليه ، وإنى لأفكّر مُذْ وَرَدَ كتابُك بما ورد به ، فما أجد ذُكْرِى[1] يُحيط بشيء منــه ، وإنّ أقصَى حِفظِى مما كان فى ذلك المجلس لغلَبَةُ الشُكْرِ علىّ ، ثم خاننى فهمى ، فما كان بعد ذلك فبغير علمى ، ولا قصدٍ منى .

ومما زاد فى غمّى ، وضاعَفَ المكروهَ علىّ ، تحقُّقك للأمر وهو خبرٌ معترضٌ الشكُّ فيه والبُطْلانُ أولَى به ، حتى ألزمْتَنِى إياه ، وقرّعتَنى[2] به كأنّه قرَعَ سَمْعَك ، فإنّ ذلك أرانى صورةَ المَقْتِ منك لى ، والغِلظة علىّ ، والإسراعِ إلى قَبول القبيح المُضاف إلىّ ، ووالله لو واجهتُك على تلك الحال بما أُنْهِىَ إليك — وبالله أعوذ من ذلك فيما بينى وبين من هو دونك عندى من إخوانى — لكان فيما أطلَعتْك عليه العِشرةُ الطويلة ، والخِبْرة القديمة ، من إجلالى إياك ، وخالِصِ محبتى لك ، مع ما يضطرُّنى إليه متقدّمُ برّك وإحسانك ، ومَرْضِيّاتُ أخلاقك من البُعد بقلبى ولسانى من كل ما ساءك ما يَدُلُّك على أن ما كان من ذلك كان آفةً نالَتْنى فى عقلى ، ومزاجًا فاسدا رَدِيئًا

---

(١) الذكر بالضم ويكسر : التذكر .

(٢) قرعه : لامه وعنفه .

أستولى علىّ . ووالله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة ، ما كتبتُ إلا بالحقيقة عندى ، ولا تحرّيت زيادة ولا نقصا ، فإن تقبَل تتخذْ بذلك عندى يدًا ، وتُوجب علىّ شكرا مُجدَّدا ، وإن تُقِمْ على مَوْجِدتك[1] أُقِمْ على تنصُّفِك واستعطافك والتذلُّل لك ، والتضرّع إليك ، والتحمّل عليك ، حتى يَعْدِل حُكْمُك ، ويَفِىَ به كرمُك » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٧)

٨٤ — كتاب آخر

وكتب أيضاً :

قد كنتُ أرجو أن أكون قد أبرأتُ صدرَكَ ، وأنَّ ما كتبتُ به قد أتَى من وراء ما فى نفسك ، فامتحنتُ ذلك بلزوم منزلى ، وحَبْسى كتبى ورسلى ، لأفْرِق بين رغبتك فى قربى وبين زُهدك ، ولأَرَى صورةَ حالى عندك ، فإذا تنصُّلِى واعتذارى لم يَبْلُغا بى استيجابَ رضاك — أطال الله بقاءك — وإذا أَعْيانى غيرُ البرِيَّةِ[2] المصدِّقة فى حديثى إياك ، على طول مدة صُحبتى لك ، دون ما أَتحرّى الصدقَ فيه ، وأجتهد حَلِفاً عليه ، إلا أن يكون عن علة عرَضَتْ لك منعتْك مما كنت تتطوّل به مِنَ الأمر بتعرُّف خبَرى عند انقطاعى عنك ، فقدّم الإشفاق على مَكانى منك سوء الظن بصحة عذرك ، وسلامةِ صدرك ، وبالله العظيم قسما ثالثا ، لا كاذبا ولا حانِثا ، إنى الخالِصُ لك كله . سِرّه وجَهْره ، وغَيْبه ومَشْهَده ، البعيد بقلبه ولسانه مما نُفِثَ فى سمعك ، ووَقَر فى قلبك ، وعلمُك بحاجتى إلى حسن رأيك ، ودوام الحال عندك . شاهدٌ عَدْلٌ على صدقى إياك ، إن استخبرتَه شفاك ، وإن اقتصرتَ عليه كفاك ، هذا إذا كنتُ لنفسى دون صديق ، ولم أكن أعمل إلا على سوق يومى ، ولا أصْلح إلا لمن صَلَح به

---

(١) الموجدة : الغضب . وتنصفه : سأله أن ينصفه .

(٢) مسهل عن البريئة .

معاشى ، وكيف وقد علمتَ مجانبتى لهذه الصفة(١) ، ودوام عهدى للصديق على الحرمان والجفوة ، وأنت لا تُعلَّم من جهلٍ بك ، ولا تُنبَّه من غفلةٍ فيك ، وليس مثلك مَن جَرح يقينَه الظنُّ ، ولا أفسَدَ الحرَّ عنده العبدُ ، ولو صح منى الذنب إليك لكان الصفح عنى أولَى بك ، فإن رأيتَ أن تعود كعهدى كان بك ، قبل التكذّب علَيَّ عندك ، وأن تمُنَّ بذلك علَى من يُقدِّم إخاءك فى مودتك ، وعَندَك(٢) فى إجلالك وتعظيمك والمسارعة إليك والطاعة لك ، فعلْتَ ، ذا مِنَّة عظيمةٍ إلى مِنَنٍ لك قديمة إن شاء الله ، ووهب لى عطفك ورضاك » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٦)

٨٥ — كتاب آخر

وله أيضا جواب اعتذار إليه :

« بلغنى اعتذارُك، ووافَق منى تطلُّعا شديدا إليه ، وكانا قَدْ قدَّمتُ المواطَنة(٣) له عندى . فسكَّن النفْرةَ ، وأذهب الوَحشةَ ، وجدَّد عهد المودة ، وأوجبتُ لك به التطوُّلَ والمِنَّة واليدَ المشكورة ، ولم أكن كالمتعنِّت المتسحِّبِ(٤) الذى يطلُب العلَّة ، ويغتنم الزَّلَّة ، ويَصْدِف(٥) عن الحُجَّة ، وتضيقُ عنه المعذِرة ، وما نظرتُ لك إلا علَى نفسى ، ولا بدأتُ إلا بحظى فيما استثبتُّ من رأيك ، وحاميتُ عليه من إخائك ، واللهَ أسألُ حسنَ المدافعة عنك ، وامتناعى بما وَهَبَ لى منك ، والسلام » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٨)

---

(١) فى الأصل «الطبقة» وأراه محرفا .
(٢) العند مثلثة : الناحية ، وبالتحريك : الجانب .
(٣) واطنه على الأمر : وافقه .
(٤) تسحب عليه : تدلل .
(٥) أى يعرض .

٨٦ — كتابه إلى على بن يحيي

وكتب إلى على[1] بن يحيي يشكر ويعتذر :

«النعمة شفيعُ صدقٍ عند وليِّها ، تقتضيه رِبَابَتَها[2] ، والزيادةَ فيها ، والمحافَظَةَ عليها وإرغامَ أعدائها وحُسَّادها الملتمسين لإفسادها وإزالتها ، والإغضاء عَلَى ما يُغْضِى الحرُّ عَلَى مِثله فى استتمامها ، سيَّما إذا كانت عند أهلها ، وفى موضعها ومَحَلِّها ، وكان المقلَّد لها مَن يقوم بشكرها ونَشْرِها ، ويُشِيد بذكرها ، ويستفرِغُ المجهودَ من نفسه فى شكرها ، ويُعطيها ما يجب لها من الاعتراف بها ، والانتساب إليها ، والمحاماة عليها ، وأنا أحَدُ من أسكَنْتَه ظِلَّك ، وأعلَقْتَه[3] حبائلك ، وحبَوْتَه بلطيف بِرِّك وخاصِّ عنايتك ، فانتصفتُ بك من الزمان ، واستغنيتُ بك عن الإخوان ، فأنا لا أرغب إلا إليك ، ولا أعتمِدُ إلا عليك ، ولا أستنجِحُ[4] طَلَبا إلا بك ، واللهَ أسأل البقاء لك ، ودوام عزِّك وعزِّنا بك ، وحِراسةَ النعمة عندك وعندنا فيك .

وكان فرَطَ منى قول إن تأوَّلته[5] لى أراك وجه عذرى ، وقام عندك بحجتى ، وأغنانى عن توكيد الأَيمان على حسن نيتى ، وإن تأوَّلتَه علىَّ ـ وبالله أعوذ من ذلك ـ ألحَقَ بى لائمتَك[6] ، وجَنَى على حالى ومنزلتى عندك ، وقد أتيتُك معترفا بالزَّلة ،

---

(١) هو أبو الحسن على بن يحيي بن أبى منصور المنجم ، وكان من خاصة ندماء المتوكل ، وخص به وبمن بعده من الخلفاء إلى أيام المعتمد ، وكان مقدما عندهم ، يفضون إليه بأسرارهم ، ويأمنونه على أخبارهم ، وكان راوية للأشعار والأخبار شاعرا محسنا ، وتوفى سنة ٢٧٥ ـ انظر الفهرست ص ٢٠٥ .

(٢) ربّ النعمة كنصر ربا بالفتح وربابا وربابة بكسر الراء فيهما وربيهــا : نماها وزادها وأتمها وأصلحها وحفظها ورعاها .

(٣) أى وصلته بحبال ودك وعطفك . وحبوته : منحته .

(٤) أى أطلب نجحه .

(٥) أول الكلام وتأوله : فسره ، وفى الأصل « إن تأملته » وقد أصلحته كما ترى ، ويؤيد ذلك مقابلته بما بعده .

(٦) اللائمة : اللوم .

مستَكِينا للمَوْجِدة(١) ، عائذا بالصفح والإقالة ، فإن رأيتَ ألّا تُقِرَّ عينا قَذِيَت(٢) بنعمتك عندى ، ولا تسْلُبنى منها ما ألبستنى ، وأن تقتصِرَ من عقوبتى على المكروه الذى نابنى بسبب عَتْبك ، وتأمرَ بتعريفى من رأيك ما يطامن(٣) حشاى ، وتسْكن إليه نفسى ، ويأمن به رُوعى(٤) . . . » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٨)

٨٧ — كتاب آخر

وله فى الصفح :

« إن الذى فَرط منك وإن تجاوز منى ما أرْضَى لك ، لم يبلُغْ ما يُغْضِبنى عليك ، وحيث انتهى ما يخالفنى من قولك وفعلك ، فإن وراءه تغمُّدًا(٥) منى لإساءتك ، وصفحا عن زَلَّتك، فإن تأمَنّا لا نخُنْك ، وإن يَسُؤْ ظنك فإنما نحتاج إلى إصلاحه منك » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ٢٦٠)

٨٨ — فصول لأبى على البصير

فصل له :

« قد أكّد الله بيننا من المودّة ما تأْمَن الدهر على حَلِّ عَقْده ، ونَقْضِ مَرّه(٦) ، وما يستوى منه ثِقتُنا بأنفسنا لك ، ولأنفسنا بما عندك » .

* * *

(١) استكان : خضع . والموجدة : الغضب .
(٢) أى تأذت ، والقذى : ما يقع فى العين ، وقذيت عينه كرضى : وقع فيها القذى .
(٣) أى يسكن .
(٤) الروع بالفتح : الفزع ، وبالضم : القلب وجواب الشرط محذوف للعلم به أى فعلت .
(٥) أى سترا .
(٦) فى الأصل « مزاره » وهو تحريف ، وأرى أن صوابه « مره » والمر بالفتح : الحبل ، أو « مراره » بالكسر ، جاء فى اللسان : «والمر بضم ففتح : الحبل الذى أجيد فتله» ويقال المرار بالكسر والمر بالفتح ، وفى الحديث أن رجلا أصابه فى سيرهالمرار : أى الحبل، قال ابن الأثير : هكذا فسر ، وإنما الحبل المر ولعله جمعه » اه أو صوابه « مرره » بكسر ففتح جمع مرة بالكسر : وهى طاقة الحبل ، أو « مرائره » جمع مريرة أو مرير : وهو الحبل الشديد الفتل .

وفصل له :

« الحال فيما بيننا يحتمل الدَّالَّةَ ، ويُوجب الأُنْسَ والثقةَ وبَسْطَ اللسان بالاستزادة ، وأنا أَمُتُّ إليك بالْحرْمة المتقدمة ، والأسباب المؤكَّدة ، حتى تُحِلَّ صاحِبَها مَحَلَّ خاصَّةِ الأهل بالقرابة » . (العقد الفريد ٢ : ١٩٢)

٨٩ — كتاب لغسان بن عمرو الباهلى فى الذم

« إنه انتهى إلىَّ ما بلَّغك فلان ، وقد كفانى سقوطُه مَئُونَةَ إسقاطه ، وشدةُ تعدِّيه لِقَدْره الوصفَ لإفراطه ، فعرفتُك بحاله عُذرٌ لى عندك يُدْحِض[1] حجته ، ويكذِّب قوله ، وعقوبةُ مثلِه الصفحُ عن ذنبه إذا قَصُر عن المجازاة قدرُه ، ولم يحتمل المعاتبةَ عقلُه ، فصَفَحْتُ عن سبيله رغبةً بنفسى عن ذكره ، ولولا ذلك لنَضحتُه[2] بسهامٍ نافِذة ، وأَكذبتُ مقالتَه بحُجَجٍ واضحةٍ ، والسلام » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٤٢١)

٩٠ — كتاب آخر له فى الذم

« فلان ممن شرَّفتَ أمرَه ، وأعليتَ ذِكْرَه ، وولَّيتَه نشْرَ مكارمك فطَوَاها ، وإظهارَ محاسنِك فأخفاها ، وعَمَد إلى أمورك فتعدَّاها ، استخفافاً بالْحرَم ، وقلةَ شكرٍ للنعم ، صرتُ إليه فوجدتُه ظاهِرَ الغَدْر ، عظيمَ الكِبْر ، أسودَ القلب ، لم يُشْرِق نورُ الحكمة فى قلبه ، ولم يَجْرِ ماء الحياء على وجهه ، فيه ثلاثة أمور : الفساد والخِبّ[3] والكذب ، (قد أخرج الناسَ[4]) من فُسْحة العدل إلى ضِيق

---

(١) أدحض حجته : أبطلها .

(٢) نضحه بالنبل : رماه .

(٣) الخب : الخداع والخبث والغش .

(٤) فى الأصل « الفساد والخب والكذب من فسحة العدل إلى ضيق الجور » وقد زدت ما بين القوسين ليستقيم المعنى .

الجوْر ، حتى باعوا الطارِف والتِّلادَ ، وهمُّوا ببيع النساء والأولاد ، إذعانًا للقهْر ، واستبسالا للجَهْد ، ومُخالفةً للذل ، ثم لم يُقْنِعه ذلك حتى أخذ منهم ما كان الله قد وضع ثِقْلَه عنهم ، ولم تَعْمَلْ به الولاة قبله ، تضعيفا للبلاء ، واستعمالًا لِلَّأْواء[1] .

وجَعَلك عُرضة لدعاء المظلومين ، وسُمْعة فى قلوب المؤمنين ، فأيِسَ الملهوف من رَوْح[2] عدلك ، والمكروبُ من رجاء فضلك ، وفَعَل « كذا » تكريرا للشُّنَع[3] ، وأخْذاً بالبِدَع ، وإماتة للسُّنَن ، وَجعل منزِله مَغيضاً[4] لِماجَبَى ، وسِيرةً لِما حوَى ، ليختزن الفُضول[5] ، ويستُر ذلك عن العيون ، حتى إذا حمَّلهم الجهدَ فنَفِدَت الطاقةُ ، وماتت الحيلةُ ، وتَرِحَت النفوسُ ، كشَفَ لهم عن خُطَّة الجَوْر ، نابيةَ الأطراف ، متراخية الشُّقَّة[6] ، يعجِز عن تجشُّمها ذو القدرة الغنىُّ ، وذو المُنَّة[7] القوىُّ ، وأبرزَ لهم غُرَّة السيف ذى الشُّطَب[8] ، وهامة الجُرْز[9] ذى الشُّعَب ، تخبِّروه بجَهدهم ، وكشفوا له عن عُذرهم ، ففعل بهم « كذا » ، حتى أعطَوُا المَقادةَ كارهين ، وعلى أنفسهم خائفين ، لِمَا عاينوا من القول الشنيع ، والأمر الفظيع ، فأرْمَض[10] بذلك قلوبَ المؤمنين ، وكرِهَ جِوارَه أهلُ الفضل والدين ، إذ لم يستطيعوا لما صنَع تغييرا ، ولم يجدوا إلى أمره بالمعروف سبيلا ، فإن رأيتَ أن تُنْصِف كرِمى من لؤمه ، وتَعَبى من دَعَته ، وعُسْرى من سَعَته ، فقد خالفَ طاعتك وأمرك ، وتحامَل على أهل مودتك وشكرك ، فعلتَ » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٤٢١)

---

(١) اللأْواء : الشدة. (٢) الروْح : الرحمة . (٣) فى الأصل « للشبع » وهو تحريف .
(٤) كذا فى الأصل والمعنى عليه صحيح ، وربما كان « مقبضا » وكلاهما اسم مكان .
(٥) الفضول : جمع فضل ، وهو الزيادة . وفى الأصل « لتحرك » وهو تحريف وصوابه « ليختزن » .
(٦) ترح : ضد فرح . والشقة : المسافة . (٧) المنة : القوة .
(٨) شطوب السيف وشطبه (بضمتين) وشطبه (بضم ففتح) : طرائقه التى فى متنه ، وواحدته شطبة بضم ، وبضم ففتح ، وبكسر .
(٩) الجرز كقفل وعنق : العمود من الحديد ، وفى الأصل « الحزر » وهو تصحيف .
(١٠) أرمضه : أوجعه وأحرقه.

٩١ — كتاب آخر له

وله أيضاً :

« إنك صرفتَ حاجتى إلى فلان ، فوجدته ظاهرَ الغدْر ، عظيم الكِبْر ، فاشِيَ النَّوْك(١) ، لاتقوّى له وجوهُ الأحرار ، فرأيك فى عزله عن أياديك ، وصَرْفِ حاجتنا إلى وجهٍ قريب ، موفقاً ، إن شاء الله » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٤٢٢)

٩٢ — كتاب محمد بن عبد الله بن طاهر إلى المتوكل

وكتب محمد بن عبد الله بن طاهر إلى المتوكل يعزّيه بابن له :

« إنى أُعزّيك ، لا أنّى على ثِقةٍ من الحياة ، ولكن سُنّةُ الدِّين
ليس المُعزَّى بباقٍ بعد ميّته ولا المُعزِّى ، وإن عاشا إلى حين »

(العقد الفريد ٢ : ٣٦)

٩٣ — تحميد لإبراهيم بن العباس صدر رسالة الخميس

وكتب إبراهيم بن العباس للمتوكل رسالة الخميس صدرها :

« أما بعد ، فالحمد لله الذى جلّت نِعَمه ، وتظاهرتْ مِنَنُهُ ، وتتابعتْ أياديه ، وعمّ إحسانُه ، إلهِ كلِّ شىء وخالِقِه وبارِئه ومُصوِّره ، والكائنِ قبلَه ، والباقى بعدَه ، كما قال فى كتابه : « كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » العالِى فى مشيئته ، والقاهرِ فوق عباده ، المتعالى عن شَبَه خَلْقه « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ » خلق العِبادَ بقُدرته ، وهداهم برَحمته ، وأوضح لهم السبيلَ

---

(١) النوك بالضم والفتح : الحمق .

إلى مَعْرِفته ، بما نَصَبَ لهم من دلائله ، وأراهم من عِبَره ، وصَرَّفهم فيه من صُنْعه كما قال جل جلاله : « الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ . ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ » .

وذلك كلُّه مِنْ خَلْقِهِ إياهم بتمثيله ما مَثَّلَ لهم من الدلائل التى نصبها لهم ، والأعلامِ التى جعلها إزاء قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم ، ويَسَّر لهم خواطرهم وفِكَرَهم ، والهيئةِ التى هيَّأهُم لها ، ليقعَ الأمرُ والنهى عليهم ، فلا يكلِّفهم فوق طاقتهم ، ولا يُجشِّمُهم ما يَقْصُر عنه وُسْعُهم ، نظرا منه تبارك وتعالى إليهم ، ورحمةً بهم ، ليؤمنوا به ويعبدوه ، فيستحِقُّوا به رحمته ورضوانه ، والخلودَ فى النعيم المقيم ، والظلِّ المَديد ، والعيشِ الدائم ، كما قال تعالى ذكره : « إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ » . وكان مِن نَظَرِه ورأفته بهم أَنْ بعثَ فيهم أنبياءه ورسلَه ، يدعونهم إلى طاعته ، ويبينون لهم هداه ، ويوضِّحون لهم سبيلَه ، ويَهدونهم إلى رحمته ، ويَعِدونهم ثوابَه ، ويُنْذِرونهم عقابَه ، ويَبْسُطون لهم توبته ، ويحذِّرونهم سُخطه ، ويبيِّنون لهم سننه وشرائعه ، ويكشِفون لهم مواعِظَه ، ويعلِّمونهم كتابه وحكمته ، كما قال تبارك وتعالى : « لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ، وَإِنَّ اللهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ » وكان من رأفته بهم ونظره لهم أَنْ بعثهم إليهم بالحجج الظاهرة ، والأعلام البيِّنة ، والشواهدِ الناطقة ، التى أظهر بها صِدقَهم ، وأقام بها برهانَهم ، وأوضَح بها دليلَهم ، وأثابَهم عمَلَ سواهم ليكون أدعَى لهم إلى تصديقهم والقبول عنهم ، وأوكَدَ للحُجّة على من أبَى ذلك منهم » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٧٢)

٩٤ — تحميد لإبراهيم بن العباس في فتح إسحق بن إسماعيل

« الحمد لله مُعزِّ الحقِّ ومُديله(١) ، وقامِعِ الباطل ومُزِيله ، الطالِب فلا يفُوتُه مَن طلَبَ ، والغالِب فلا يُعْجِزه مَنْ غلَب ، مُؤيِّدِ خليفته وعبدِه ، وناصرِ أوليائه وحِزْبه ، الذين أقام بهم دعوتَه وأعلَى بهم كلمتَه ، وأظهر بهم دينه ، وأدال بهم حقّه وجاهَدَ بهم أعداءه ، وأنار بهم سبيلَه ، حمْدا يتقبّله ويرضاه ، ويُوجِب أفضلَ عواقِب نصره ، وسوابغَ(٢) نعْمائه » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٦٩)

٩٥ — ومن رسالة له في قتل إسحاق بن إسماعيل(٣)

« وقسّم الله عدوَّه أقساما ثلاثة : رُوحاً مُعجَّلةً إلى عذاب الله ، وجُثّةً منسوبة لأولياء الله ، ورأسا منقولا إلى دار خلافة الله ، استنزلوه من مَعْقِلٍ إلى عِقَال(٤) ، وبدّلوه آجالاً من آمال ، وقديما غذَّتِ المعصية(٥) أبناءها ، فَحَلَبَتْ عليهم من دَرِّها(٦) مُرْضِعَةً ، وبسطتْ لهم من أمانيّها مُطْمِعَةً ، ورَكِبَتْ بهم مَخاطِرَها مُوضِعةً(٧) ، حتى إذا وَثِقوا(٨) فأمِنوا ، ورَكِبوا فاطمأنُّوا ، وانقضى رَضاعٌ وآن فِطام ، سَقَتْهم سُمًّا فَتَفَجَّرَتْ مجاري ألبانها منها دما . وأعقبَتْهم من حُلو غذائها مُرًّا ، ونقلتْهم من عز إلى ذل ، ومن فَرْحة إلى تَرْحة ، ومن مَسَرَّة إلى حَسْرة ، قتلا وأسرا ، وغَلَبة(٩)

(١) أداله الله عليه : نصره . (٢) نعمة سابغة : أى تامة .

(٣) الظاهر أن التحميد السابق صدر تلك الرسالة .

(٤) المعقل : الملجأ ، والعقال : الحبل الذى يعقل به البعير ، والمراد القيد والإسار .

(٥) وفى الطبرى « العصبية » . (٦) الدر : اللبن .

(٧) أوضعت الناقة ووضعت : أسرعت فى سيرها .

(٨) وفى مروج الذهب « رتعوا » .

(٩) وفيه « وإباحة » . وقسره على الأمر كضرب : أكرهه عليه وقهره .

وقَسْرا ، وقَلَّ مَن أوضَعَ فى الفتنة مُرْهِجاً(١) ، واقتحم لَهبَها مُؤَجِّجا ، إلا استلحَمَته آخِذةً بمُخَنَّقة(٢) ، ومُوهِنَة(٣) بالحقِّ كيده ، حتى جعلَته لعاجله جَزَراً(٤) ، ولآجله حَطَبا ، وللحق موعظةً ، وعن الباطل مَزْجَرةً(٥) ، أُولئِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فى الدُّنيا ، وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ ، وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ » .

(تاريخ الطبرى ١٢ : ٧٩ ، ومروج الذهب ٢ : ٣٨٣)

٩٦ — تحميد له

« الحمد لله الغالب ذى القدرة ، والقاهر ذى العِزَّة ، الذى لم يقابل بالحق باطلاً فى مَوْطِنٍ من مَواطن التحاكُم بين عباده ، إلاَّ جَعَلَ أولياء الحق منهم حِزْبَه وجُنْده ، وجعل الباطل بهم فَلًّا(٦) منكوبا ، ودَحِيضا(٧) زَهُوقا ، إن نَهض به أولياؤه كانت مَراصِدُ عواقبه مفرِّقةً ما جُمِع ، ومُبَتِّرة(٨) ما أُعِدَّ ، وقائِدة بأشياعه إلى مَصْرَع الظالمين ، حتى يكون الحقُّ الطالبَ الأعز ، والباطلُ المطلوبَ الأذلَّ ، وأولياء الحق الأعْلَينَ يَدًا وأيْدا(٩) ، وأشياعُ الضلال الأخسَرِين أعمالا وكَيْدا ، قضاء الله وسنَّته ، وعادة الله وإرادته ، فى الفِئَة المنصورة ، أنْ تعِزَّ فلا تُرَام ، وأن يمكَّن لها فى الأرض كما مَكَّن للذين من قبلها ، وفى الفئة الناكبين عنه ، أن تَذِلَّ ، فتكون كلمتها السُّفْلَى ، وكَلِمَةُ اللهِ هِىَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٦٩)

---

(١) الرهج كشمس وسبب : الغبار ، وأرهج : أثار الغبار . وأجج النار : ألهبها .
(٢) استلحم الطريدة : تبعها ، والمخنق : الحلق .
(٣) أوهنه : أضعفه .
(٤) يقال : تركوهم جزر السباع : أى قطعا من اللحم تأكلها السباع .
(٥) وفى مروج الذهب « وللباطل حجة » .
(٦) قوم فل : منهزمون .
(٧) دحيضا : أى مدحوضا باطلا ، من دحضت الحجة إذا بطلت ، وزهوقا : أى مضمحلا .
(٨) من بتره : أى قطعه واستأصله .
(٩) الأيد : القوة .

٩٧ — تحميد له فى فتح

«أما بعد، فالحمد لله الذى حَمِد نفسَه، وفَرَض حَمْده على خَلْقه، وأعزَّ دينَه، وأكرم بطاعته أولياءه، وأكرم طاعته بأوليائه فجعل جُنْدَه منهم المنصورين، وحِزْبه منهم الغالبين، نَهَج[١] بهم سبيلَه، وأقام بهم حُجَّتَه، وجاهَدَ بهم أعداءه، وأظهر بهم حَقَّه، وقمع بهم الباطلَ وأهلَه، وأعلى كلمتهم، وأيَّد نصرهم، وألَّف لهم وبهم، ومَكَّن لهم فى الأرض، فجَعَلَهم أئمةً وجعلهم الوارثين.

والحمد لله المُعزِّ لدينه، المُظْهِر لحقه، الناصر لخلفائه، المُمَكِّن لحزبه، المنتقم بهم ممن صَدَفَ عنه، مؤيِّدا دينَه بالنصر، ليُظْهِره على الأديان، وحَقَّه بالعز، فلا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه، وجُنودَه بالفَلْج[٢] فهم الأعْلَون إن استنصر بهم، والأعَزُّون إن كاد بهم، والأقربون منه إخلاصاً وعملا، حَمْدا يُوازى نعمَه، ويُمْتَرَى[٣] بمثله فَواضِلُه ومَزيده».

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٧١)

٩٨ — تحميد آخر له

وله فى فتح ابن البَعيثِ لمَّا ظفر به :

«أما بعد، فالحمدُ لله ناصر أنبيائه وخلفائه، وهادى أوليائه، أولياء الحق وحِزْب الهُدَى، الذين أقام بهم سُبُلَ الرشاد، ونَصَب بهم مَناهِجَ الدين، فأظهره على الدين كله ولو كَرِه المشركون».

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٧٢)

---

(١) نهج : أوضح . (٢) الفلج : الظفر والفوز .
(٣) يمترى : أى يطلب ، من امترى الشىء إذا استخرجه ، والريح تمترى السحاب : أى تستخرجه وتستدره .

٩٩ — تحميد له

« الحمد لله الذى أنجز وَعْدَه ، ونصر عبدَه ، وأيَّد جندَه ، وجعل فتوح أمير المؤمنين شرقا وغربا مشفوعة بين إقامة حق ، وإدالة[1] باطل ، وإزالة عانِدٍ ، وإبادةِ عائِد ، وإقالةِ مُستقيل ، ويسأل الله أميرُ المؤمنين مسألةَ العبدِ سَيِّدَه ومولاه ، رغبة إليه ، متذلِّلا له ، أن يصلِّى أفضلَ صلواته عنده على أكرم أنبيائِه » .

(اختيار المنظوم والمنثور١٣ : ٢٩٦)

١٠٠ — تحميد له فى فتح

« والحمد لله بجميع محامده التى حُمِد بها ، على جميع آلائه وجميع بلائه ، فيما وَلِى به خليفتَه ، ونصر به دينَه ، وأقام به حَقَّه ، وأعزَّ به وليَّه ، وقمع به من ألحدَ عن سبيله ، حمدا يؤدِّى حقَّ نعْمَته ، ويوجب به أفضل مزيده ، بمَنِّه وطَوْله » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ١٩٥)

١٠١ — تحميد له فى آخر كتاب فتح

« فالحمد لله المُزيل لما يمهِّد المُبْطلون ، ويمكُر بهِ الماكرون ، ويكيد بهِ المُلْحِدون ، تمكينا لعبده وخليفته ، وذَبًّا عن دينه وحقه ، وإظهارا لأوليائه وحزبهِ ، وإمضاء لعزائمه وقدرتهِ ، مُنْعِما قادرا ، ومُمْليا[2] مُمْهِلا ، عدْلا إذا استدرَجَ ، متفضِّلا إذا أنعم ، حَمْدا يُستنزَل به نصرُه ، ويُبلَغ بهِ رضوانهُ ، ويُمْتَرَى بمثله فواضِلُ مزيده » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٩٥)

---

(١) الإدالة : الغلبة . والعائد : السائل ، وفى الأصل « مشفوعة بين حق وإدالة باطل ، وإزالة عاند وإبادة ومستقتل وإقالة » .

(٢) أملى له : أمهله .

١٠٢ — كتابه إلى بعض إخوانه فى شفاعة

وكتب شفاعة لرجل إلى بعض إخوانه :

« فلان ممن يزْكُو[١] شكرُه ، ويحسُنُ ذِكرُه ، ويَعْنِينى أمْرُه ، والصنيعةُ عنده واقعةٌ موقِعَها ، وسالِكةٌ طريقَها .

وأفضلُ ما يأتيه ذو الدِّين والحِجَى إصابةُ شكرٍ لم يَضِعْ معه أجرُ »

(الأغانى ٩ : ٢٥ ، ومعجم الأدباء ١ : ١٧٨)

١٠٣ — كتابه عن المتوكل إلى أهل حمص

ولما قرأ إبرهيم بن العباس على المتوكل رسالته إلى أهل حِمْص ، الخارجين عليه ، والداعين إلى العَصَبية ، وهى :

« أما بعد ، فإن أمير المؤمنين يرَى مِن حق الله عليه ، مما قَوَّم به من أَوَد[٢] ، وعدَّل به من زَيْغ ، ولَمَّ به من مُنتشِر ، استعمالَ ثلاث ، يقدِّم بعضهن على بعض ، أولاهن ما يتقدَّم به من تنبيه وتوقيف ، ثم ما يستَظْهر[٣] به من تحذير وتخويف ، ثم التى لا يقع بحَسْم الداءِ غيرُها[٤] .

أناةٌ ، فإن لم تُغْنِ عَقَّب بعدَها وَعِيداً ، فإن لم يُغْنِ أغْنَتْ عزائمُهُ »

عجب المتوكل من حسن ذلك ، وأومأ إلى عبيد الله بن يحيى بن خاقان : أمَا تسمع! فقال : يا أمير المؤمنين، إن إبرهيم فضيلة خبَأها الله لك ، وذخيرة ذَخَرها على دولتك» .

(معجم الأدباء ١ : ١٨٧ ، ووفيات الأعيان ١ : ١٠)

---

(١) زكا يزكو : نما .

(٢) الأود : الاعوجاج . (٣) أى يستعين .

(٤) كذا فى الأصل ، وهو على تضمين يقع معنى يقوم ، وربما كان « لايتم حسم الداء بغيرها » .

١٠٤ — كتابه عن المنتصر إلى طاهر بن عبد الله

وكتب عن المنتصر بالله بن المتوكل إلى طاهر بن عبد الله يعزيه عن محمد ابن إسحق :

« أما بعد ، تولَّى الله توفيقَك وحِياطَتَك ، وما يرتضيه منك ويرضاه عنك . إن أفضل النعم نعمةٌ تُلُقِّيتْ بحق الله فيها من الشكر ، وأوفرَ حادثةٍ ثواباً حادثةٌ أُدِّيَ حقُّ الله فيها من الرضا والتسليم والصبر ، ومثلُكَ مَن قَدَّم ما يجب لله عليه فى نعمة فشَكَرها ، وفى مصيبة فأطاعه فيها ، وقد قضى الله سبحانه وتعالى فى محمد بن إسحاق[١] مَوْلَى أمير المؤمنين — عفا الله عنه — قضاءه السابقَ والمتوقَّع ، وفى ثواب الله ورضا أمير المؤمنين — أدام الله عزه —وتقديم ما يقدِّم مثلَه أهلُ الحِجَى والفهم ، ما اعتاضه معتاضٌ ، وقدَّمه موفَّق ، فليكن الله عز وجل ، وما أطَعْتَه به ، وقدَّمْتَ حقه فيه ، أولَى بك فى الأمور كلِّها ، فإنك إن تتقرَّبْ إليه فى المكروه بطاعته ، يُحْسِن ولايتَك فى توفيقك لشُكر نِعَمِه عندك » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠٧)

١٠٥ — كتابه عن المعتز ولى العهد إلى طاهر بن عبد الله

وكتب إبرهيم بن العباس عن المعتز ولى العهد إلى طاهر بن عبد الله يعزيه عن محمد بن إسحٰق :

فإن أولَى حقٍّ خصَصْتُ وقدَّمْتُ ، حقُّك ، بمحلك الذى أحِلُّك به ، ومكانك الذى لك عندى ، ولله عليك نعمةٌ أنت حقيق بشكرها ، وامْتراءِ[٢] مزيده بها ، ولله فى خَلَل نعمهِ مُلِمَّاتٌ ، مِثلُك قدَّم طاعته فيها فَرَضِيَ مستدعيا بالرضا ثوابَه ، وسلَّم

---

(١) هو ابن عم طاهر بن عبد الله ، وذلك أن طاهرا هو ابن عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب ابن رزيق بن ماهان ، ومحمدا هو محمد بن إسحق بن إبراهيم بن مصعب بن رزيق بن ماهان .

(٢) مرى الشيء وامتراه : استخرجه .

مستدعيا بالتسليم ما يقرّبه منه ، وقد قضى الله عز وجل فى محمد بن اسحٰق قضاءه الآتى على من مضى ، والمكتوب على من بقى ، حتى يرِثَ اللهُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَهُوَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ، فارضَ بثواب الله عِوَضا من مصيبتك ، وارجع إلى ما وهب لك من خليفته — أدام الله تأييده — من إيثاره واختصاصه ، فاجعل ذلك أولىَ ما عزّاك عن مصائبك ، وقدّمتَ بهِ الشكرَ فى حق الله عنك ، واستصحِبْ فى أمورِك كلّها نيةَ الشاكر عند النعمة ، والراضى عند المحنة ، تَزِدْ وتُكفَ إن شاء الله » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠٧)

١٠٦ — كتابه عن المؤيد وهو ولى عهد إلى طاهر بن عبد الله

« فإن من حقّ الله على أهل النعم تقديمَ طاعته عند مصائبهم ، والتقرّبَ إليه فيما يَعرُوهم منها بالرضا والتسليم ، وقد قضى الله عز وجل فى محمد بن إسحٰق — عفا الله عنه — قضاءه فى جميع خلقه حتى يبقى ويَرِث الأرضَ ومن عليها وهو خير الوارثين ، فتلقّ — أمتع الله بحسن توفيقك — قضاء ربك بالتسليم له ، وتعزّ عن مُصابك بطاعته ، فإن مثلك مَن اكتفى بما فَهِم ، من أن يعزّى ، واستغنى بما علم ، عن أن يُوعَظَ إن شاء الله والسلام » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠٧)

١٠٧ — كتابه إلى طاهر بن عبد الله

وكتب إبرهيم بن العباس إلى طاهر بن عبد الله يعزيه :

« أما بعد ، فإن أحقّ مَن أرضَى اللهَ فى نعمته بشُكرِه ، وفى مصائبه بالتسليم له ، مَنْ فَهِمَ مافى شكرِ النِّعَم من استدعاء تمامِها ، وما فى التذلّل للمقادير من استحقاقِ رِضوانه ، وقد جعل الله محلّك من الحالتين جميعا محلّ المتقدّم بنيّته ومعرفته ،

والله يتمم أمير المؤمنين فيك بصالح قَسْمه فيمن مضى ، والجارى على من بقِىَ ويبقى ، حتى يؤدِّى الفناء الذى لا بقاء معه ، إلى البقاء الذى لا فناء بعده .

وأميرُ المؤمنين يَعِظك بالله ، وهو أحق مَن وَعَظ به ، ويُرْشدك من إيثار الله لِمَا نَدَبَك له منهُ ، وسهّل لعظيم نعمتِه عليك ، فى هذه النازلة ، بمـا صَحِب بهِ علىُّ بن طاهر مولى أمير المؤمنين أيامَه ، ومَضَى عليه من بصيرتهِ وطاعته ، فقدِّمْ حقَّ الله عليك بطاعتك له فيما أمَرك بهِ ، واتَّقِ الله فى مواقع أقداره بك ، تقتضِ بذلك من ثواب الله أفضَل عِوَضِ الصالحين ، وبارك الله لعلىٍّ فيما أصاره إليه ، وأحسَن اللهُ لمـا قرَّبَك منه توفيقَك ، وعَلَى أرضاهُ عنك عوْنَك[١] ، والسلام » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٢٧)

١٠٨ — كتابه إلى طاهر بن عبد الله

وكتب إلى طاهر بن عبد الله فى وفاة إسحٰق بن إبراهيم .

« أما بعد ، فإن الله عز وتعالى توحَّد بتقدير عباده ، وإمضاء إرادتِه فيهم ، وجعل لـكل منهم نهاية إليها يجرى بهم مُنْقَلَبُهم ومتَصَرَّفهم ، فإذا جاء أمرُ الله ، وانقضت مدةُ البقاء ، سَعِدَ أهلُ الحق بحقِّهم ، وكانت العاقبـــة للتقوَى ، وخسِر المُلْحِدون .

وإن إسحٰق بن إبرهيم مولى أمير المؤمنين ـ أبقاه الله ، وأحسَنَ سعيَه وعملَه ـ كان عبدا من عباد الله أيَّد الله به خلفاءه ، وخليفتَه كنَفَ[٢] ، فصحِبَ عُمْرَه ذَابًّا عن دين الله ، محافظا عليه ، مُطيعا لله فى حقه ، ناصرا لهُ متقرِّبا إلى الله فى خلفائه ، بما يرضاه منهم ، ويُرضيهم به عنهُ ، إلى أن قبَضَهُ الله على أحسن حالاتِه التى تسُرُّه

(١) توفيقك مفعول أحسن ، وعونك معطوف عليه ، وأرضى : أفعل تفضيل .
(٢) كنفه : صانه وحفظه وحاطه وأعانه ، أى أيد به خلفاءه الماضين ، وكنف به خليفته الحاضر ، وفى الأصل « وخليفته وكيف » .

أيامَ لقائه ، من طاعةٍ ومناصحة وإخلاصٍ على فكانت للمصيبةُ به ـ عفا الله عنه ـ مصيبةً خصَّ أميرَ المؤمنين موقعُها ، ثم وَصَلَتْ من بعد أمير المؤمنين إلى مَن وصلَتْ إليه فيك من ولده وأهله .

وأميرُ المؤمنين يعزِّى نفسه عن إسحٰق ، بما سَبَقَ من اختيار الله له فى مثله من أوليائه و (ذوى) إخائه ، ثم يعزِّيك عنه إذا كانت مصيبتُك به أَوْلَى مصائبك بأن تُرْمِضَك[1] جلالةً وموقعا ، وأَوْلَى مصائبك بأَنْ يعزِّيَك (فيها) إذ كنتَ منها بين ثواب الله ورضا خليفته ، ولو استغنى ذو نازلةٍ ومصيبةٍ عند أمير المؤمنين عن تعزيته بفضلٍ ما جعله الله عنده ، كنتَ بما مَنَحَك الله عن ذلك غنيا ، ولولا أن أميرالمؤمنين أوجَبَ لك حقَّ التعزية ، لكان فى علمه ما أغناه عن تناولك بها .

متَّع الله أميرالمؤمنين بك ، ووفَّقك لرشدك بهذه النازلة الواقعة بحقِّ الله فيها عليك وارضَ ثَوابَ الله منها عِوَضا ، وما جعل الله لك عند أمير المؤمنين خَلَفاً كريماً ، وقعتْ به مقاديرُ الله من ذلك ، بحيثُ اختيارُ المطيع لربِّه ، والمقدِّم لِغَده ، والراضى ما رَضِى الله لهُ ، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يسِّرك الله له عند انتهاء الخبر إليك ، مؤيِّدك[2] ومسدِّدك » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٢٨)

١٠٩ — كتابه إلى طاهر

وكتب إلى طاهر أيضاً :

« أما بعد ، فإن أمير المؤمنين يُوجبُ لك من كل فائدةٍ نعمةٍ ، وحادِثٍ (رَزِيَّةٍ) تهنئتَك بتجدُّد مواهب الله عز وجل ، وتعزيتَك عن مُلِمَّاتِ أقداره ، وقد قضى الله فى محمد بن إبرٰهيم مَولَى أمير المؤمنين ، ما هو قضاؤه فى عباده ، حتى يكون الفناء لهم

(١) أرمضه : أوجعه وأحرقه .

(٢) حال من لفظ الجلالة .

والبقاء (له)، وأميرُ المؤمنين يعزِّيك عن محمد بما أوجَبَ اللهُ لمن أمَره (بالصبر[١]) في مصائبه، من جزيل ثوابه وأجره، فليكُن اللهُ وما قرَّبك منـــه، أوْلَى بك في أحوالك كلها، فإن مع شكر الله مَزِيدَه، ومع التسليم لأمر الله رضاه، وبالله توفيقُ أمير المؤمنين، والسلام».
(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٢٨)

١١٠ — كتابه إلى طاهر

وكتب إلى طاهر يعزيه:

«أما بعد، فإن أحقَّ من أطاع الله في مصائبه، مَن حَسُنَ بلاء الله عنده في نعمته وعلى حَسَب مواهب المعرِفة تؤكَّد الحجةُ، وقد انتهى إلى أمير المؤمنين قضاء الله في محمد بن الحسن بن مُصْعَب، وفَّر الله لك ثوابَ رُزْئه، فقدِّمْ حقَّ الله فيما أصابك منه مُسَلِّما، وفيما جَدَّد لك شاكراً، وارضَ بالله مُنْجِزا لك، واعلم أنك لم تُرْزَأ مِن أهلك مَن هو أمضى[٢] لسبيلِ مُنقلَبِه على سبيل سيرةٍ واستقامةٍ منه، والله يُحْسِن توفيقَك وعونَك، والسلام».
(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٢٩)

١١١ — كتابه إلى عبد الرحمن بن خاقان

وكتب إلى عبد الرحمن بن خاقان يعزيه عن أبي زكريا يحيى بن خاقان:

«أما بعد، فقد جرى من قضاء الله في وفاة يحيى بن خاقان — على أحسن مايُتَوَفَّى عليه ذو طاعة ونصيحة وقيامٍ بحق إمامه وسلطانه ورعيته — ما جَرَى على الأولين، وهو جارٍ على الآخرين، حتى يَرِثَ الله الأرض ومَن عليها وهو خير الوارثين.

وأميرُ المؤمنين يأمرك بالرجوع إلى أمر الله، والرضا بقضائه، وتَلَقِّي النعمة

---

(١) مابين الأقواس الثلاثة ساقط في الأصل.
(٢) في الأصل «من مضى».

برضا الله عن يحيى ، وما تبعه من الدعاء ، وخلفه فى عقبه بما يستديمها به من الصبر والتسليم ، وبالشخوص إلى باب أمير المؤمنين إذا ورد عليك كتابه هذا ، بعد أن تخلف فى عملك من يقوم فيه مقامك ، منبسط الأمل ، منفسح الرجاء ، واثقاً بما يرعى أمير المؤمنين منك بنفسك فى طاعته وموالاته ، وأسبابك ، والسلام » .

* * *

ونسخة التوقيع بخط أمير المؤمنين فى هذه التعزية :

« يا عبد الرحمن ، ثق بالله وبالذى لك عند أمير المؤمنين ، وطب نفساً ، ولا تحمل على نفسك من الغم مالا ينفعك ، لا بل يضرك ، ويغتم به أمير المؤمنين ، وهذا خط أمير المؤمنين إليك والسلام » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٢٩)

١١٢ — كتابه إلى الحسن بن رجاء

« أنت والله يا أبا على (يمين[١] مصدرها عن محتاط لنفسه فيها) المتقدم بنيته وأثره وجميل ما أبلى[٢] الله به وعرف منه ، فأحسن الله جزاءك عن خليفتك ولياً مجتهداً ، وأحسن الله جزاءك عنا أخاً متفضلا ، وبلغنا محبتنا فيما قلدت ، وبالله لئن كنت على أفضل حد[٣] (إنى[٤]) لعلى نهاية مما عليه المعتمد بنعمتك ، المسرور بما أجرى الله لك به ، وإنى لأرجو ألا أكون مقصراً فى حقك عن حقك » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٦١)

---

(١) أى وتلك يمين ... والجملة اعتراضية .

(٢) الإبلاء : الإنعام .

(٣) الحد : منتهى الشيء ، وربما كان « على أفضل جد » والجد بفتح الجيم : الحظ والحظوة والعظمة ، والاول أولى لقوله بعد « لعلى نهاية » .

(٤) مابين القوسين بياض بالأصل.

١١٣ — كتابه إلى محمد بن الحسن بن الفياض

ووقع إلى محمد بن الحسن بن الفيّاض وقد حمل مالا :

« إذا جَزَى الله وليًّا ، بأداء الفرض عليه ، وتأديةِ حق الشكرِ عن نفسه خيرًا ، فأحْسَنَ اللهُ جزاءك ، فبالله لئن كنا قدّمنا حسن الظن بك ، لقد وصلتَ ذلك بكفايةٍ حَسَنة ، وأثرٍ صالح ، وأمورٍ أقلُّ منها يَزيد فى الثقة بك ، وإنى لأرجو أن يسُرَّك الله به إن شاء الله ، ووافَتِ الأموالُ حاجةً منا إليها ، ومُؤَنًا تراجَعَتْ ، أعان الله على أكثرها بعنايتك وتسويدك ، والسلام » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٦١)

١١٤ — كتابه إلى عامل له

ووقّع إبرٰهيم بن العباس فى كتاب عامل لهُ يعتـدُّ بحُسْن أثَرٍ ، ويَمُتُّ بمقام محمود :

« يا هذا ، لستُ أشكُّ أن لك أثرا فى التوفير ، كان مَن تقدّمَك مقصّرا عنه ، وأنك مَغْنِيٌّ ومحتاط ، غير أنك عفَّيتَ(١) على ما أحمَدتُ منك ، بما يتناهى إلىّ عنك، على ألسُنِ المتظلمين وأصحابِ الأخبار .

وذكر لى فلان ما جَرَى بينك وبين أخيه مما كثُر وصفُه لهُ ، وقام منه وقعد ، وتالله لأكونَنَّ الباحث عليك ، والمطالبَ لك دونَه ، لإقدامك على شيخ ابن ستين سنةً ، بما أقدمتَ به عليه ، وأفٍّ لدُنيا اضطرّتْ إليكم ، فكنتم خِيارَ من يعمل فيها ! وأبْرَأ إلى الله من أعمالكم التى رَجَعتم بها إلى أنفسكم ونيّاتكم » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٦٣)

---

(١) أى محوته وأزلته .

١١٥ — كتاب له فى السلامة

« أما بعد ، فإن أولَى نعمةٍ تُشْكَر ، سلامةٌ شمِلَتْ ، عزَّ فيها الحقُّ فوقَع مواقِعَه، وذَلَّ فيها الباطلُ فقُمِع أشياعُه ، وتقلَّبَ فى سَترها وأَمْنها خاصَّةٌ وعامَّةٌ ، فانبسَطَ فى تأميل فضلها وعائدتها رَعِيَّةٌ حَاضرةٌ وقاصِية .

وأميرُ المؤمنين حيثُ كتبتُ إليك ، فى أعمّ السلامة أمْنا وعزّا وأدوم نعمة مَوقعا وخَطَرا ، وفى أجملِ بلاء[1] الله ، يتعرّفه فى نفسه وولده وأوليائه وعوامّه ، وبالله عَونُ أمير المؤمنين على شكر نِعَمِه ، وتأدية حقه .

أعلمك أمير المؤمنين ذلك لِتعرِفَه ولِتعتدَّ النعمةَ به ، ولتكتب إلى عمالك فى نواحى أعمالك ، فيشكروا الله ومَن قِبَلَهم بلاء الله فى خليفتهم ، مما وهَبَ لهم منه، وأَجْرَى لهم به .

وأمير المؤمنين معنيٌّ بما يرِد عليه من أخبارك وأعمالك وأمورك: خاصِّها وعامِّها، ولطيفها وجليلها ، وفى أوليائه ورعيته قِبَلك ، فاكتب إلى أمير المؤمنين من ذلك عما هو متطلّع إليه ، متابِعا كتبَك إليه على شَرْح خبرك وتلخيصه إن شاء الله » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٦٦)

١١٦ — كتاب له فى السلامة

« أما بعدُ ، فإنّ لكل فرعٍ أصلا ، عنه مُؤَدّاه[2] ومُستَنْبَطُه ، وإليه مَرْجِعُه ومَوْئِلُه ، ومتى رُجِع من أصول الأمور إلى تأثّلها[3] وتمكُّنها ، رُجِع من فروعها إلى استتبابها واستقامتها ، وأفضلُ ما تُدبِّره : أمورُ دينِ اللهِ وخلافته ، وحُقوقُ اللهِ

---

(١) أى نعمته .

(٢) فى الأصل « مواده » وأراه محرفا عن « مؤداه » وربما كان الأصل « مورده » .

(٣) تأثل : تاصل .

وعبادِه ، فكان الأصلُ وزَكاؤه[1] ما جَمع بإذن الله سكونَ الدَّهماء[2] ، وصلاحَ البَيْضَةِ[3] وأَمْنَ السَّرْب[4] ، وتظاهرَ النعمِ فيما قَرُب وبَعُد ، ودنا ونأى ، وبلاء الله حميداً هو عند أمير المؤمنين ، مع كتابه هذا إليك فى نفسه وولده ، وفى أحبّائه وخاصّته وقاصِيته ، وفى أنصاره ، من عموم الأمن وشُموله ، وصلاح الحال واستقامتها ، (بلاء يربو[5]) عن الإحاطة بذكره دون شكره ، وعن إحصاء مواهب الله فيه دون إحصائه :

أعلَمَك أميرُ المؤمنين ذلك معتدًّا بنعمة الله فيه ، ومُشِيدا بذكره ، ومنبِّها على جميل آلاء الله ، ومستديما حمده به ، لتأمرَ بإنفاذِ كُتُبك إلى عمّالك فى نواحى أعمالك بما يُنسَخ من كتاب أمير المؤمنين هذا إليك ، لتقرأه على مَن بحضرتهم وأطرافهم من قواد أمير المؤمنين وجنوده وأوليائه ورعيته وخاصته وعامّته ، فيحمَدوا اللهَ على ما أبلَى[6] أميرَ المؤمنين فى نفسه وفيهم ، ليجدوا مِن شكر الله على ذلك ما بمثله استدِيمت النعمةُ ، وامتُرِى[7] صالحُ المَزِيد ، فافعَلْ ذلك مُعانًا على أمرك ، متحرِّيا لأداء حق الله عليك ، والسلام » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٦٧)

١١٧ — كتاب آخر

وكتب فى سلامة الأضحى :

« فإن أحقَّ مَن أشاد بنعَم الله ناطقًا بلسان شكرها ، وقائلا بأحسن نَشرها ، ومقدِّما حقَّ الله بذلك فيها ، مَن أُلبِس مِن نعم الله أعزَّ ملابسها ، وحُبِىَ منها بأفضل مواهبها ، ومن لم تزل عادةُ الله عنده فى متجدِّد نِعَمه عليه ، بتيسيره لأداء

---

(١) الزكاء : الصلاح والنماء ، وفى الأصل « وركاوها » وأراه محرفا .
(٢) الدهماء : جماعة الناس . (٣) البيضة : حوزة كل شىء . (٤) السرب : النفس .
(٥) فى الأصل « بد ... » وقد أتممت العبارة كما ترى .
(٦) أى أنعم عليه . (٧) امترى الشىء : استخرجه .

حقه فيها ، ذلك أمير المؤمنين فيا يعتدُّ به من جليل آلاء الله لديه فيا يخُصّه ، وجليلِ فضلهِ عليه فيا وفّقه له ، وبالله عوْنُ أمير المؤمنين بتبليغه شكرَه ، واستحقاقِه مَزيده ، وإحراز ما هو أرضَى وأزكى له عنده .

وكتابُ أمير المؤمنين إليك يوم النَّحْر ، انصرافَه من المصلَّى ، وقد عرّفه الله فى عيده ومَخرَجه ، من السلامة وعمومِها ، والنِّعَم وتظاهُرِها فى نفسه وولده وقوّاده وأوليائه وفى خاصَّته وعامَّته ، أفضلَ مالم يَزَل يعرّفه إياه أمْنًا(١) كَنَفَ به ، وعِزًّا ألبَسَه ، وشكرا وفّقَ له ، ونِعَمًا أيّد بها وقَمع ، وأعلَى بها وَوَضَع ، فجعل لأولياء دينه وحقِّه من العلوّ والكرامة ، وعلى أعدائه من الذِّلة والحسرة ، ماقديما تفضّلَ بمثله على أمير المؤمنين بما استخلفه عليه واستحفظه فيه ، تفضُّلا منه وإحسانا ، وحياطة وإنعاما ، ولله بذلك أرضى شكرٍ ، وله أفضل ماقرَّب منه وأزْلَفَ(٢) عنده .

أحَبَّ أميرُ المؤمنين الكتابَ بذلك إليك ، لِتَعرِفَه وتَحمَدَ اللهَ عليه ، وتنشُره فيمن قِبَلك ، فيحمَدوا الله ويعتدُّوا نعمَه عليهم فيه ، فإن مع معرفة النعمةِ شكرَها ، ومع التوفيق لشكرها حِراستَها ووجوبَ مَزِيدها ، وأميرُ المؤمنين يأمرك بالكتاب إليه بِخَبرك وخَبَرِ مَن قِبَلَك بِمَا هو متطلِّع إليه وإلى معرفته ، بَهِيجٌ بِمَا يَرِدُ عليه منه ، فتابِعْ ـ أصلح الله بك ـ إلى أمير المؤمنين كتبَك إن شاء الله » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٦٧)

١١٨ ـ ومن فصوله

« المودةُ تجمَعُنا محبّتُها ، والصِّناعَةُ تُؤَلِّفنا أسبابُها ، وما بين ذلك مِن تَرَاخٍ فى لِقاء ، أو تخلُّفٍ فى مكاتبة ، موضوعٌ بيننا ، يُوجِبُ العذرُ فيه » .

(العقد الفريد ٢ : ١٩٢)

---

(١) فى الأصل « منا » وأراه محرفا .   (٢) أى قرب .

١١٩ — ومن كلامه

« ووجَدَ أعداء الله زُخْرُفَ باطلهم ، وتَمويهَ كَذِبِهِمْ ، سَرَابًا بِقِيعَةٍ[١] يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا » وكوَمِيض بَرْقٍ عرَض فأسرَعَ ، ولَمَعَ فأطمَعَ ، حتى إذا انحسَرتْ[٢] مغارِبُه ، وتشعَّبتْ مولِّيةً مَذاهِبُه ، وأيقن راجِيه وطالبُه ، أنْ لَا مَلاذَ ولا وَزَرَ ، وَلَا مَوْرِدَ ولا صَدَرَ ، ولا من الحرب مفرٌّ ، هنالك ظهرت عواقِبُ الحق مُنْجِيةً ، وخواتمُ الباطل مُرْدِيةً ، سُنَّةُ الله فيما أزاله وأداله ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا ، ولا عن قضائِه تحويلا » .

(معجم الأدباء ١ : ١٩٠)

١٢٠ — كتاب الفضل بن حباب إلى إبراهيم بن العباس

قالَ إبراهيم بن العباس الصُّولى : كاتبت القاضىَ أبا خليفة الفَضْل بن حُبَاب الُجمَحِيَّ فى أمور أرادها ، فأغفلتُ التاريخ منها فى كتابين ، فكتب إلىَّ بعد الثانى :

« وصل كتابك ـ أعزكَ الله ـ مُبْهَمَ الأوان ، مُظْلِمَ المكان ، فأدَّى خبرا ما القربُ فيه بأولَى من البُعْدِ ، فإذا كتبتَ ـ أكرمك الله تعالى ـ فلتكن كتبك موسومةً بتاريخ ، لِأعْرِف أدنَى آثارك ، وأقربَ أخبارك ، إن شاء الله تعالى » .

(زهر الآداب ٣ : ١٤٣)

---

(١) القيعة جمع قاع : وهو ما انبسط من الأرض وفيه يكون السراب نصف النهار ، قال فى اللسان : « ولا نظير له إلا جار وجيرة ، وذهب أبو عبيد إلى أن القيعة تكون للواحد » .

(٢) أى انكشفت .

١٢١ — كتاب رجل إلى المتوكل

وكتب رجل إلى المتوكل على الله ، وقد أهْدَى إليه قارورةً من دُهْن الأُتْرُجّ :

« إنّ الهدية يا أمير المؤمنين ، إذا كانت من الصغير إلى الكبير ، كلما لَطُفت[1] وَدقَّت كانت أبْهَى وأحسَنَ ، وإذا كانت من الكبير إلى الصغير ، كلما عَظُمت وجَلَّتْ كانت أنفع وأوقع ، وأرجو ألّا تكون قَصَّرَتْ بى همةٌ أصارتنى إليك ، ولا أخَّرنى[2] إرشادٌ دلنى عليك ، وأقول :

ما قَصَّرتْ همةٌ بَلَغَتْ بها ... بابَك ياذا النَّداءِ والكرمِ[3]
حَسْبِى بودِّك إنْ ظَفِرْتُ به ... ذُخْرًا وعِزًّا يا واحِدَ الأُمَمْ

(العقد الفريد ٣ : ٣٠٩)

١٢٢ — كتاب رجل إلى مالك بن طوق

وكتب رجل إلى مالك بن طَوْق[4] لمّا عُزل عن عمله .

« أصبحتَ واللهِ فاضِحاً مُتْعِبا : أمّا فاضِحاً فلكل والٍ قبْلَك بحُسْنِ سِيرتك ، وأمّا مُتْعِبًا فلكل والٍ بعدَكَ أن يَلْحَقَك » .

(اختيار المنظوم والمنثور ٣ : ٣٠٠)

---

(١) لطف الشىء ككرم : صغر ودق .
(٢) فى الأصل « ولا أحرى » وهو تحريف .
(٣) الندى بالقصر : الكرم والجود ، ومده للشعر .
(٤) كان أميرا على الأهواز فى خلافة المتوكل — انظر الأغانى ١٣ : ٢٢ .

١٢٣ ـ كتاب الحسن بن وهب إلى مالك بن طوق

وكتب الحسن بن وهب إلى مالك بن طوق فى ابن أبى الشِّيص :

« كتابى إليك كتاب خَطَطْتُهُ بيمينى ، وفرَّغت لهُ ذِهنى ، فما ظنُّك بحاجةٍ : هذا مَوقِعُها منى ؟ أتُرانى أقبَلُ العذرَ فيها ؟ أو أقصِّر فى الشكر عليها ، وَابن أبى الشِّيص قد عرَفتَ حالَهُ ونَسَبَه وصفاتِه[(١)] ، ولو كانت أيدينا تنبسِط ببره ما عدَانا إلى غيرنا ، فا كتَفِ بهذا منا » .

(العقد الفريد ٢ : ١٩٣ ، واختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٩٤)

١٢٤ ـ كتاب أحد الكتاب إلى إبراهيم وأحمد ابنى المدبر

وكتب بعض الكتاب إلى إبراهيم وأحمد ابنى المدبِّر[(٢)] وقد نالتهما مِحْنَة ، ثم رَدِفتها نعمة :

---

(١) وفى المنظوم والمنثور « وكفايته » .

(٢) قال ابن النديم فى الفهرست ص ١٧٨ . « بنو المدبر : أحمد ومحمد وإبرهيم ، وجميعهم شاعر مترسل بليغ » ، وقال أبو الفرج الأصبهانى فى الأغانى ـ فى ترجمة إبراهيم بن المدبر ج ١٩ ص ١١٤ ـ « إبراهيم بن المدبر شاعر كاتب متقدم من وجوه كتاب أهل العراق ومتقدميهم وذوى الجاه والمتصرفين فى كبار الأعمال ومذكور الولايات ، وكان المتوكل يقدمه ويؤثره ويفضله » وقال : « كان أحمد بن المدبر ولى لعبيد الله بن يحيى بن خاقان عملا ، فلم يحمد أثره فيه . وعمل على أن ينكبه ، وبلغ أحمد ذلك فهرب ، وكان عبيد الله منحرفا عن إبرهيم شديد النفاسة عليه لرأى المتوكل فيه ، فأغراه به وعرفه خبر أخيه ، وادعى عليه مالا جليلا ، وذكر أنه عند إبراهيم أخيه ، وأوغر صدره عليه حتى أذن له فى حبسه ولإبراهيم فى حبسه أشعار كثيرة حسان مختارة أورد صاحب الأغانى بعضها ـ وطال حبسه ، فلم يكن لأحد فى خلاصه منه حيلة ، حتى خلصه محمد بن عبد الله بن طاهر ، وبذل أن يحتمل فى ماله كل مايطالب به ، فأعفاه المتوكل من ذلك ، ووهبه له » .

وقال ياقوت فى معجم الأدباء ج ١ : ص ٢٢٦ : « هو إبراهيم بن محمد بن عبيد الله بن المدبر ، تولى الولايات الجليلة ، ثم وزر للمعتمد ، ومات سنة ٢٧٩ وهو يتقلد للمعتضد ديوان الضياع ببغداد » أقول : وأكبر ظنى أنه « المدبر » بفتح الباء . وهو الصواب إذ رأيت بعد فى كتاب المشتبه فى أسماء الرجال للذهبي ص ٤٧٢ طبع أوربة « إبراهيم بن المدبر (بفتح الباء الموحدة) الأخبارى يحكى عنه جحظة » .

« بسم الله الرحمن الرحيم : لو قُبِلْتُ فيكما ، ودانيتُ قدرَيْكما ، لقلتُ : جعلنى الله فداكما ، ولكن أُخِّرت عنكما ، فلا أُقبَلُ فيكما[1] ، وقد بلغتنى المِحنةُ التى لو مات إنسان غمًّا بها لَكُنْتُهُ ، ثم اتصلتْ بى النعمة التى لو طار[2] إنسان فرحا بها لكنتهُ » .

وكتب تحته :

وليس بتزويق اللسان وصَوْغِهِ ولكنه قد خالط اللحم والدّمَا

(زهر الآداب ٣ : ١٦ ، وأدب الكتاب ص ١٥٣)

١٢٥ — كتاب عمر بن أيوب إلى أحمد بن المدبر

وكتب أبو حَفْص عُمَر بن أيوب إلى أبى الحسين أحمد بن محمد بن المدَبِّر ، يعاتبه فى أنْ دعا له مَدّ الله فى عُمْرِكَ » :

« يا جَـواداً بالثّنا وبخيلًا بالعَطَا
إنّ : «مَدّ اللهُ فى عُمْـرِكَ» مِن كُتْبِ الجفَا
ليس يُسْتَعْمَل هذا الصّـدْرُ بين الأَصْفِيا
فتفضَّلْ يا فَتَى النّا سِ بِتَفخيم الدُّعا »

(أدب الكتاب ص ١٦٠)

١٢٦ — كتاب أبى العباس المبرد إلى إبراهيم بن المدبر

وقال أبو الحسن الأخفش[3] على بن سليمان : استهدَى إبراهيم بن المدبِّر

(١) وفى أدب الكتاب : « ولكنى لا أجزى عنكما ، ولا أقتل بكما » .

(٢) فى الأصل «أدب الكتاب» طال وهو تحريف .

(٣) هو الأخفش الأصغر النحوى المعروف ، توفى ، سنة ٣١٥ — انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١ : ٣٣٢ ، والفهرست لابن النديم ص ١٢٣ ، ونزهة الألبا فى طبقات الأدبا ص ٣١٢ .

أبا العباس(١) محمد بن يزيد جيسا يجمع إلى تأديب ولده الإمتاعَ بإيناسه(٢)، فندَبنى لذلك وكتب إليه معى :

« قد أنفذتُ إليك ـ أعزك الله ـ فلانا وَجُمْلَةُ أمرِه أنه كما قال الشاعر :

إذا زرتُ الملوكَ فإن حَسْبى ... شفيعاً عندهم أنْ يَخْبُرُونِى »

(زهر الآداب ١ : ١٤٤)

١٢٧ ـ كتاب إبراهيم بن المدبر إلى أبى عبد الله بن حمدون

قال صاحب الأغانى :

وكتب إبراهيم بن المدبّر إلى أبى عبد الله بن حمدون فى أيام نكبته يسأله إذ كانَ المتوكل والفتح بن خاقان بأمره :

كم تُرَى يَبْقَى عَلَى ذا بَدَنِى؟ ... قد بَلِى مِن طُول هَمّ وَضَنِى

---

(١) هو أبو العباس المبرد النحوى المشهور صاحب كتاب الكامل ، كان إماما فى النحو واللغة ، روى عنه الأخفش المذكور ، وتوفى سنة ٢٨٥ ـ انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١ : ٤٩٥ والفهرست لابن النديم ص ٨٧ ، ونزهة الألباء ـ ص ٢٧٩ .

جاء فى وفيات الأعيان ١ : ٤٩٧ « والمبرد بضم الميم وفتح الباء والراء المشددة لقب عرف به ، واختلف العلماء فى سبب تلقيبه بذلك ، فالذى ذكره ابن الجوزى فى كتاب الألقاب أنه قال : سئل المبرد لم لقبت بهذا اللقب؟ فقال : كان سبب ذلك أن صاحب الشرطة طلبنى للمنادمة والمذاكرة فكرهت الذهاب إليه ، فدخلت إلى أبى حاتم السجستانى ، فجاء رسول الوالى يطلبنى ، فقال لى أبو حاتم : ادخل فى هذا ، يعنى غلاف مزملة (وهى البرادة التى يبرد فيها الماء) فارغا ، فدخلت فيه وغطى رأسه ، ثم خرج إلى الرسول ، وقال : ليس هو عندى ، فقال : أخبرت أنه دخل إليك ، فقال : أدخل الدار وفتشها ، فدخل فطاف كل موضع فى الدار ولم يفطن لغلاف المزملة ، ثم خرج فجعل أبو حاتم يصفق وينادى على المزملة المبرد المبرد ، وتسامع الناس بذلك فلهجوا به ، وقيل إن الذى لقبه به شيخه أبو عثمان المازنى ، وقيل غير ذلك » وجاء فى المزهر للسيوطى ٢ : ٢٦٧ فى « فصل فى معرفة الألقاب وأسبابها » : « قال السيرافى : لما صنف المازنى كتابه الألف واللام سأل المبرد عن دقيقه وعويصه فأجابه بأحسن جواب : فقال له : قم فأنت المبرد بكسر الراء أى المثبت للحق ، فغيره الكوفيون وفتحوا الراء » .

(٢) ذكر صاحب الأغانى فى ترجمة ابن المدبر أنه كان يتولى البصرة (ج ١٩: ص ١٢٤) فالظاهر أن ذلك الاستهداء كان إبان توليه إياها ، وقد كان المبرد من أئمة النحويين البصريين .

أنا فى أمْرٍ وأسبابِ رَدًى وحَديدٍ فادِحٍ يَكلِمُنِي[١]
يابنَ حَمْدُونَ فَتَى الجودِ الذى أنا منه فى جَنًى وَرْدٍ جَنِي[٢]
ما الذى ترْقُبُه ، أم ما ترَى فى أخٍ مضطهَدٍ مرتَهَنِ ؟
وأبو عِمْرانَ موسى حَنِقٌ حاقدٌ يطلبنى بالإحَنِ[٣]
وعُبَيدُ الله أيضًا مِثْلُه وَنَجاحٌ بى مُجِدٌّ ما يَنِي[٤]
ليس يَشْفيه سوى سَفْكِ دمى أو يرانى مُدْرَجًا فى كَفَنِي
والأميرُ الفتْحُ إن أذكرتَه حُرْمَتِي قام بأمرى وعُنِي
قال : صِدْقٌ حين أدعو باسمه ومسرورٌ حين يَعْرُو حَزَنِي
قل له : يا حُسْنَ ما أوليتَنى ما لِمَا أوليتَنى من ثَمَنِ
زاد إحسانَكَ عندى عِظَمًا أنه بادٍ لِمن يعرفنى
لست أدرى كيف أَجْزِيك به غيرَ أنِّى مُثْقَلٌ بالمِنَنِ
ما رأى القومُ كذَنْبِي عندهم عُظْمُ ذَنبِي أننى لم أخُنِ
ذاك فعلى وتُراثِي عن أبى واقتدائى بأخى فى السُّنَنِ
سُنَّةٌ صالحةٌ معروفةٌ هى مِنَّا فى قديم الزمن
ظفِرَ الأعداء بى عن حِيلةٍ ولعلَّ اللهَ أن يُظْفِرَنى
ليتَ أنى وهُم فى مجلسٍ يَظْهرُ الحقُّ به لِلفَطِنِ
فترَى لى ولهم مَلْحَمَةً يَهلِكُ الخائنُ فيها وَالدَّنِي[٥]
والذى أسأل أن يُنْصِفنى حاكِمٌ يقضى بمَا يلزمُنى

---

(١) فدحه كنعه : أثقله . وكلمه كضربه : جرحه .
(٢) الجنى كفتى : كل مايجنى ، وثمر جنى كغنى : جنى من ساعته .
(٣) فى الأصل « حاقن » وأراه محرفا ، والإحن : جمع إحنة بالكسر : وهى الحقد .
(٤) أى مايفتر . وفى الأصل « ونجاح فى ... » وهو تحريف .
(٥) الملحمة : الوقعة العظيمة القتل .

قل لحمدون خليلي وابنه ولعيسى حركوه يا بني[1]

فلم يزالوا فى أمره حتى خلصوه .

(الأغانى ١٩ : ١١٩)

١٢٨ — كتابه إلى عريب

وكان بين إبراهيم بن المدبّر وبين عَرِيب[2] المغنية حال مشهورة ، كان يهواها وتهواه ، ولهما فى ذلك أخبار كثيرة .

وقد كتبت إليه من سُرَّ مَنْ رَأَى كتابا تتشوقه فيه ، وتخبره باستيحاشها له ، واهتمامها بأمره ، وأنها قد سألت الخليفة فى أمره ، فوعدها بما تحب .

فأجابها عن كتابها ، وكتب فى آخر الكتاب :

لعمرُك ما صوتٌ بديع لِمَعْبَدٍ[3] بأحسَنَ عندى من كتاب عَرِيبِ

تأمّلتُ فى أثنائه خطّ كاتب ورِقّةَ مشتاقٍ ، ولفظَ خطيبِ

وراجَعَنِى مِن وَصْلها ما استرَقّنى وزهّدنى فى وصلِ كلّ حبيبِ

فصرت لها عبدا مُقِرًّا بِمِلْكها ومستمسِكاً من ودّها بنصيبِ[4]

(الأغانى ١٩ : ١١٦)

١٢٩ — كتاب لابن المدبر

ولابن المدبّر :

« وصل كتابك المفتتَح بالعتاب الجميل ، والتقريع اللطيف ، فلولا ما غَلَب علىّ من السرور بسلامتك ، لتقطّعتُ غمًّا بعتابك ، الذى لطُفَ حتى كاد يَخْفَى عن أهل

(١) قال صاحب الأغانى : يعنى يابنى الزانية .

(٢) انظر أخبارها فى الأغانى ١٨ : ١٧٥ .

(٣) هو معبد بن وهب المغنى المشهور ، كان فى عهد الدولة الأموية ، ومات فى أيام الوليد بن يزيد بدمشق — انظر ترجمته فى الأغانى ١ : ١٨ .

(٤) وقد أورد صاحب الأغانى مكاتبات شعرية بين إبراهيم بن المدبر وبين عريب وغيرها فارجع إليها فيه

الرِّقة والفِطنة ، وغلُظ حتى كاد يفهمه أهلُ الجهل والبَلَه ، فلا أعدمنى الله رضاك مجازيا به على ما استحقَّه عَتْبُك ، فأنت ظالم فيه ، وعتابك ولِىُّ المَخْرَج منه » .

(العقد الفريد : ٢ : ١٩٤)

١٣٠ — الرسالة العذراء لإبراهيم بن المدبر

وهى رسالة فى موازين البلاغة وأدوات الكتابة ، كتب بها أبو اليسر إبراهيم ابن محمد بن المدبِّر :

« بسم الله الرحمٰن الرحيم : فتَق اللهُ بالحكمة ذهنَك ، وشَرَح بها صدرَك ، وأنطق بالحق لسانك ، وشرَّف به بيانك . وصل إلىَّ كتابك العجيب الذى استفهمتنى فيه — بجوامع كَلِك — جوامعَ أسباب البلاغة ، واستكشَفتنى عن غوامض آداب أدوات الكتابة : سألتنى أن أقِفَ بِكَ على وَزْن عُذوبة اللفظ وحلاوته ، وحُدود فخامةِ المعنى وجَزَالته ، ورَشاقةِ نَظْم الكِتاب ، ومُشاكَلةِ سَرْدِه ، وحُسْنِ افتتاحه وخَتْمِه ، وانتهاء فُصوله ، واعتدال وُصوله ، وسلامتهما من الزَّلل ، وبُعْدِها من الخَطَل[١] ، ومتى يكون الكاتب مستحقًّا اسمَ الكتابة ، والبليغُ مَسلَّما له معانى البلاغة ، فى إشارته واستعارته ، وإلى أىِّ أدواته هو أحوجُ ، وبأىِّ آلاته هو أعمَلُ ، إذا حَصْحَصَ[٢] الحقّ ، ودُعِىَ إلى السَّبْقِ ، وفهمتهُ .

وأنا راسِمٌ لك — أيَّدك الله — من ذلك ما يجمع أكثر شرائِطِك ، ويعبِّرُ عن جملة سؤالك ، وإن طوَّلتُ فى الكتاب وعرَّضتُ ، وأطنبتُ فى الوَصف وأسهَبْتُ ، ومُستقْصٍ على نفسى فى الجواب ، على قدر استقصائك فى السؤال ، وإن أخَلَّ به الْتِياثُ[٣] الحال ، وسكونُ الحركة ، وفتورُ النشاط ، وانتشارُ الرويَّة ، وتقسُّمُ الفِكر ، واشتراكُ القلب ، واللهُ المستعانُ .

---

(١) الخطل : الخطأ .   (٢) حصحص : وضح واستبان .

(٣) الالتياث : الاختلاط والالتفاف .

اعلمْ - أيّدك الله - أن أدوات ديوان جميع المحاسن ، وآلات المكارم، طائعة مُنقادةٌ لهذه الصناعة التي خطبتَها ، وتاليةٌ تابعة لها ، وغيرُ خارجة إلى جَحْد أحكامها ، ولا دافعة لِمَا يَلزمها الإقرارُ به لها ، إضراراً منها إليها ، وعَجْزاً عنها ، فإن تقاضَتْك نفسُك عِلْمَها ، ونازَعَتْك همّتُك إلى طلبها ، فاتخذِ البرهانَ دليلاً شاهداً ، والحقَّ إماماً قائداً ، يقرِّبْ مسافةَ ارتيادك ، ويسهِّلْ عليك سُبُل مطالبها ، واستوهِبِ اللهَ توفيقاً تستنجحُ به مَطالِبَك ، واستمنِحْه رشداً يُقبِل إليك بوَجْه مذاهبك ، فاقصِدْ في ارتيادِك ، وتأمّلِ الصواب في قولك وفعلك ، ولا تسكُنْ إلى جحود قَصْدِ السابق باللَّجاج ، ولا تخرُج إلى إهمال حقِّ المُصِيب بالمعانَدة والإنكار ، ولا تستخفَّ بالحكمة ولا تُصغِّرْها حيث وجدتَها ، فتَرْحَلَ نافرةً عن مواطنها من قبلك ، وتَظْعَنَ شاردةً عن مكانها من بالك ، وتتعفّى[1] بعد العِمارة من قلبك آثارُها ، وتنطمِسَ بعدَ الوضوح أعلامُها .

واعلم أن الاكتساب بالتعلُّم والتكلُّفِ ، وطول الاختلاف إلى العلماء ، ومدارَسَة كتب الحكماء ، فإن أردتَ خوضَ بحار البلاغة ، وطلبتَ أدواتِ الفصاحة ، فتصفَّحْ من رسائل المتقدِّمين ما تعتمد عليه ، ومن رسائل المتأخرين ما ترجعُ إليه ، في تلقيح ذهنك ، واستنجاح بلاغتك ، ومن نوادر كلام الناس ما تستعين به ، ومن الأشعار والأخبار والسِّيَر والأسمار[2] ما يتّسع به منطِقُك ، ويعذُبُ به لسانك ، ويطول به قلمُك ، وانظر في كتب المقامات والخُطَب ، ومحاورات العرب ، ومعاني العجم ، وحدود المنطق ، وأمثال الفرس ورسائلهم وعهودهم ، وسِيَرهم ووقائعهم ، ومكايدهم في حروبهم ، بعد أن تتوسط في علم النحو والتصريف واللغة والوثائق والسور والشروط ككتب السِّجِلَّات والأمانات ، فإنه أول ما يحتاج إليه الكاتب ، وتَمَهَّرَ[3] في نَزْع

---

(١) تعفى الأثر : درس وامحى .
(٢) في الأصل : « والأسماء » وهو تحريف .
(٣) وفي العقد : « لتكون ماهراً » .

آي القرآن في مواضعها ، واجتلاب الأمثال في أماكنها ، واختراع الألفاظ الجزلة ، وقرض الشعر الجيد وعلم العروض ، فإن تضمين المثل السائر ، والبيت الغابر البارع، مما يزين كتابتك ، مالم تخاطب خليفة أو ملكا جليل القدر ، فإن اجتلاب الشعر في كتب الخلفاء والجلة الرؤساء ، عيب واستهجان للكتب ، إلا أن يكون الكاتب هو القارض للشعر والصانع له ، فإن ذلك مما يزيد في أبهته ، ويدل على براعته ، وإن شدوت[١] من هذه العلوم مالا يشغلك محله ، وتفقيت من هذه الفنون ما تستعين به على إطالة قلمك ، وتقويم أود[٢] بيانك .

بعد أن يكون الكاتب صحيح القريحة ، حلو الشمائل ، عذب الألفاظ ، دقيق الفهم ، حسن القامة ، بعيدا من الفدامة[٣] ، خفيف الروح ، حاذق الحس ، محنكا بالتجربة ، عالما بحلال الكتاب والسنة وحرامهما ، وبالملوك وسيرها وأيامها ، وبالدهور في تقلبها وتداولها ، مع براعة الأدب ، وتأليف الأوصاف ، ومشاكلة الاستعارة ، وحسن الإشارة ، وشرح المعنى بمثله من القول ، حتى تنصب صورا منطقية تعرب عن أنفسها ، وتدل على أعيانها ، لأن الحكماء قد شرطوا في صفات الكتاب : اعتدال[٤] القامة ، وصغر الهامة[٥] ، وخفة اللهازم[٦] ، وكثافة اللحية ، وصدق الحس ، ولطف المذهب ، وحلاوة الشمائل ، وخفة الإشارة ، وملاحة الزي ، حتى قال بعض المهالبة[٧] لولده : « تزيوا بزي الكتاب ، فإن فيهم أدب الملوك ، وتواضع السوقة » .

ومن كمال آلة الكتابة : أن يكون الكاتب بهي الملبس ، نظيف المجلس ، ظاهر المروءة ، عطر الرائحة ، دقيق الذهن ، صادق الحس ، حسن البيان ، رقيق حواشي

---

(١) شدا : أخذ طرفا من الأدب. (٢) الأود : الاعوجاج .
(٣) الفدامة : العي عن الكلام في ثقل ورخاوة وقلة فهم ، فدم ككرم فهو فدم كصعب .
(٤) في وسائل البلغاء « طول القامة » .
(٥) الهامة : الرأس .
(٦) اللهزمتان : ناتئتان تحت الأذنين من أعلى اللحيين والخدين .
(٧) المهالبة : بنو المهلب بن أبي صفرة .

اللسان ، حُلو الإشارة ، مليح الاستعارة ، لطيف المَسْلك ، مُسْتفرَه(١) المَرْكَب ، ولا يكون مع ذلك نَضْناضَ الجُثّة ، متفاوت الأجزاء ، طويل اللحية . عظيم الهامة ؛ فإنهم زعموا أن هذه الصورة لا يليق بصاحبها الذكاء والفطنة .

وإذا احتجت إلى مخاطبة الملوك والوزراء والعلماء والكُتّاب والخطباء والأدباء والشعراء وأوساط الناس وسُوقتهم ، نخاطب كُلاًّ على قدر أُبَّهته وجلالته ، وعلوِّه وارتفاعه ، وتفطّنه وانتباهه ، واجعل طبقاتِ الكلام على ثمانية أقسام ، فأربعةٌ منها للطبقة العُلْوية ، وأربعة دونها ، ولكل طَبقة منها درجة ، ولكلِّ قِسمةٍ حظٌّ لا يتسع للكاتب البليغ أن يقصِّر بأهلها عنها ، ويَقلِبَ معناها إلى غيرها . فالطبقة العليا : الخلافةُ التى أجَلَّ الله قدرها ، وأعلى شأنها عن مساواتها بأحد من أبناء الدنيا فى التعظيم والتوقير والمخاطبة والترسُّل . والطبقة الثانية الوزراء والكُتّاب الذين يخاطبون الخلفاء بعقولهم وألسنتهم ، ويرتُقُون الفُتوق بآرائهم ، ويتجمّلون بآدابهم . والطبقة الثالثة : أمراء ثغورهم وقُوّاد جيوشهم ، فإنه يجب مخاطبة كل امرئٍ منهم على قدره وموضعه وحَظه وغَنائه(٢) وجَزائه واضطلاعه بما حمل من أعباء أمورهم ، وجلائل أعمالهم . والطبقة الرابعة : القضاة ، فإنهم وإن كان لهم تواضع العلماء ، وحِلْيةُ الفضلاء ، فمعهم أبّهة السلطنة ، وهَيْبة الأمراء .

أما الطبقات الأربع الأخرى ، فهم الملوك الذين أوجبت نِعمُهم تعظيمَهم فى الكتب إليهم ، وأفضالهُم تفضيلَهم فيها . والثانية : وزراؤهم وكتّابهم وأتباعهم الذين بهم تُقْرَع أبوابهم ، وبعناياتهم تستماحُ(٣) أموالهم . والثالثة : هم العلماء الذين يجب توقيرهم فى الكُتُب ، لِشَرَف العلم وعلو درجة أهله . والرابعة : أهل القدر والجلالة والظَّرف والحلاوةِ والطّلاوة(٤) والعلم والأدب ، فإنهم يَضْطرُّونك بحِدّة أذهانهم ، وشدة تمييزهم وانتقادهم وأدبهم وتصفحهم ، إلى الاستقصاء على نفسك فى مكاتبتهم .

---

(١) الفاره من الدواب : الجيد السير ، واستفرهها : استكرمها أى انتقاها كريمة فارهة .

(٢) أى كفايته . (٣) استماحه : سأله العطاء ، وفى النقد « تستباح » وهو تحريف .

(٤) الطلاوة مثلثة : الحسن والبهجة .

واستغنيْنا عن الترتيب للتجار والسُّوقة والعوامِّ رتبةً ، لاستغنائهم بتجارتهم عن هذه الآلات ، واشتغالهم بمُهِمَّاتهم عن هذه الأدوات .

ولكل طبقة من هذه الطبقات مَعانٍ ومذاهبُ يجب عليك أن تراعيها فى مراسلتك إياهم فى كتبك ، فتَزِن كلامَك فى مخاطبتهم بميزانه ، وتُعطِيَه قِسْمه ، وتوفِّيَه نصيبَه ، فإنك متى أهملت ذلك وأضَعته ، لم آمَن عليك أن تَعدِل بهم عن طريقهم ، وتسلُك بهم فى غير مَسالكهم ، وتُجرِيَ شُعاعَ بلاغتك فى غير مجراه ، وتنظِمَ جوهر كلامك فى غير سِلْكِه .

فلا تَعتَدَّ[1] بالمعنى الجَزْل مالم تُلْبِسه لفظا جزْلا لائقا بمن كاتبتَه ، ومشابها لمن راسلتَه ، فإن إلْباسَك المعنى ـ وإن شَرُف وصلُح ـ لفظا مختلفا عن قدر المكتوب إليه ، لم تجْرِ به عادتُهم ، تهجينٌ[2] للمعنى ، وإخلال بقَدْره ، وظلم لحقِّ المكتوب إليه ، ونقصٌ مما يجب له ؛ كما أن فى اتِّباع[3] تعارُفهم ، وما انتشرت به عاداتُهم ، وجرَت به سُنَّتهم ، قَطْعا لعُذرهم ، وخروجا من حقوقهم ، وبلوغا إلى غير غاية مُرادهم ، وإسقاطا لحُجَّة أدبهم ، فمن[4] الألفاظ المرغوب عنها ، والصدُورِ المستوحَش منها ، فى كُتُب السادات والأمراء والملوك ـ على اتفاق المعانى ـ مثل : « أبقاك اللهُ طويلا » و « عَمَّرك مليًّا[5] » وإن كنا نعلم أنه لا فُرْقان بين قولهم : « أطال الله بقاءك » وبين قولهم : « أبقاك الله طويلا » ولكنهم جعلوا هذا أرجَح وزنًا ، وأنبه قدراً ، فى مخاطبة الملوك ، كما أنهم جعلوا : « أكرمك الله وأبقاك » أحسنَ منزلةً فى كتب الفضلاءِ والأدباءِ ، من « جُعِلْتُ فداك » على اشتراك معناه ، واحتماله أن يكون فداءً من الخير ، كما يحتمل أن يكون فداءً له من الشر ، ولولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) فى رسائل البلغاء « فلا يفيد المعنى الجزل » . (٢) التهجين : التقبيح .
(٣) فى رسائل البلغاء « كما أن فى امتناع تعارفهم ... وضعا لقدرهم » وهو تحريف .
(٤) فى العقد « ضمن » وهو تحريف .
(٥) عمره الله وعمره : أبقاه ، ومليا : أى دهراً طويلا ، والفرق والفرقان واحد .

قال لسعد بن أبي وَقاص : « ارْمِ ، فِداكَ أبي وأمّي » لكرِهتُ أن يكتب بها أحد .

على أن كُتاب العسكر وعوامّهم قد أُولِعوا بهذه اللفظة ، حتى استعملوها في جميع محاوراتهم ، وجعلوها هِجِّيرام[1] في مخاطبة الشريف والوضيع ، والكبير والصغير ولذلك قال محمود الورّاق :

كُلُّ مَن حَلَّ « سُرَّ مَن رَا » من النا س ، وممن يُصاحِب الأملاكا

لو رأى الكلبَ مائلاً في طريق قال للكلب : يا جُعِلْتُ فِداكا

وكذلك لم يُجيزوا أن يكتبوا بمثل « أبقاكَ الله وأَمتعَ بك » إلا إلى الحُرْمة والأهل والتابع المنقطع إليك ، وأمّا في كتب الإخوان فغيرُ جائز ، بل مذمومٌ مرغوبٌ عنه ؛ ولذلك كتب عبد الله بن طاهر إلى محمد بن عبد الملك الزيات :

أحُلْتَ عمّا عَهِدتُ من أَدَبك أَمْ نِلْتَ مُلْكاً فتِهْتَ في كُتُبكْ ؟[2]

أم هل ترى أنّ في التواضع لِلـ إخوان نقصا عليك في حَسَبك ؟

أتعَبْتَ كَفَّيْكَ فِي مكاتبتي حَسْبُك مما تَزيد في تعبكْ

إنَّ جفاءً كتابُ ذي أدبٍ يكتب في صدره : « وَأمتعَ بك »[3]

فكتب إليه محمد بن عبد الملك :

أنكرتَ شيئا فلستُ فاعِلَهُ فلن تراه يُخَطُّ في كُتُبكْ

فاعْفُ ـ فَدَتْك النفوسُ ـ عن رجل يعيش حتى المماتِ في أدبكْ

كيفَ أَخُونُ الإخاءَ يا أمَلي وكلُّ شيء أنالُ من سَبَبكْ

إنْ يكُ جهلاً أتاكَ من قِبَلي فعُد بفضلِ عليَّ من حسبكْ

---

(١) يقال : هذا هجيراه : أى دأبه وشأنه .

(٢) حال يحول : تحول وتغير ، والتيه بالكسر : الكبر والصلف .

(٣) وفي رواية العقد الفريد :

أكان حقا كتاب ذي مقة يكون في صدره : « وأمتع بك » ؟

وأما صدورُ السَّلَفِ فإنما كانت من فلان بن فلان إلى فلان ، كذلك جرَتْ كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى العَلاء بن الحضْرمىّ ، وإلى أقيال اليمن ، وإلى كِسْرى وقَيْصر ، وكُتُب أصحابه والتابعين كذلك ، حتى استخلص الكُتّاب هذه المُحْدَثات من بدائع الصدور ، واستنبطوا لطيف الكلام ، ورتّبوا لكلِّ رتبة ، وجَرَوْا على تلك السُّنّة الماضية إلى عصرنا هذا فى كتب الخلفاء والأمراء ، وثبَتوا على ذلك المِنهاج فى كتب الفتوحات والأمانات والسِّجلاّت .

ولكل مكتوب إليه قَدْرٌ ووَزْن ينبغى للكاتب أن لايتجاوز به عنه ، ولا يقصِّر به دونه ، وقدرأيتهم عابوا الأحوص [١] حين خاطب الملوك بمخاطبة العوامّ فى قوله :

وأراكَ تفعلُ ماتقولُ ، وبعضُهم مَذِقُ الحديث ، يقول ما لا يفعلُ [٢]

فهذا معنى صحيح فى المدح ، ولكنهم أجَلُّوا أقدار الملوك أن يُمْدَحوا بما يمدح به العوامّ ، لأن صدق الحديث وإنجاز الوعد وإن كان مدحا ، فهو واجب على كلٍّ ، والملوكُ لايُمْدَحون بالفروض الواجبة ، وإنما يحسن مدحهم بالنوافِل [٣] ، لأن المادح لو قال لبعض الملوك : إنك لاتزنى بحَليلة [٤] جارك ، وإنك لاتخون ما استُودِعْتَ ، وإنك تَصدُق فى وعدك ، وتَفِى بعهدك ، كان قد أثنى بما يجب ، ولكنه لم يصل بثنائه إلى مَقْصِد ، وقال ما لايستحسَن مثلُه فى الملوك .

ونحن نعلم أن كل أميرٍ تولَّى من أمور المؤمنين شيئا فهو أمير المؤمنين ، غير أنهم لم يُطْلِقوا هذه اللفظةَ إلا للخلفاء خاصَّةً ، ونعلم أن الكَيْسَ هو العقل إذا عَنَوا به ضِدَّ الحُمْقِ [٥] ، ولكنك لو وصفت رجلا فقلت : « إن فلانا لعاقلٌ »

---

(١) شاعر أموى من أهل المدينة توفى سنة ١٠٥ — انظر ترجمته فى الأغانى ٤ : ٤٠ ، والشعر والشعراء ص ٢٠٤ .

(٢) مذق اللبن كنصر مذقا فهو ممذوق ومذيق ومذق كفرح : خلطه بالماء ، ومنه قيل : فلان يمذق الود : إذا لم يخلصه .

(٣) النوافل ، جمع نافلة ، وهى ماتفعله مما لم يجب . (٤) الحليلة : الزوجة .

(٥) وله معان أخر ، وهى : الجود والطيب والجماع والغلبة بالكياسة .

كنت قد مدحته عند الناس، ولو قلت: «إنه كيِّس» كنت قد قصَّرت به عن وصفه، وصغَّرتَ من قدره، إلا عند أهل العلم باللغة، لأن العامة لاتلتفت إلى معنى الكلمة إلا إلى حيثُ جرَتْ منها العادة فى استعمالها فى الظاهر، إذ كان استعمال العامة لهذه الكلمة مع الحداثة والغِرَّة وخَساسة النفس وصغر السِّنّ، وقد روينا عن علىّ رضى الله عنه أنه تبجَّحَ(١) بالكَيْس حين بنى سجْن الكوفة فقال فى ذلك:

أمَا ترَانى كيِّسًا مُكَيِّسًا بنيتُ بعد نافِعٍ مُخَيَّسًا(٢)

* حِصْنا حَصِينا وأمينا كيِّسًا(٣) *

وقال الشاعر:

«ما يصنع الأحمقُ المرزوقُ بالكَيْسِ، ونَعْلَم أن الصلاة رحمة، غير أنهم قد حرَّموها(٤) إلّا على الأنبياء، كذلك رُوِى عن ابن عباس رضى الله عنه، وسمع سعد بن أبى وقَّاص أخا له يُلَبِّى ويقول فى تلبيته: «لَبَّيْك ياذا المَعارِج(٥)» فقال: نحن نعلم أنه ذو المعارج، ولكن ليس كذلك، كنا نلبى على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، إنما كنا نقول: لَبَّيك اللهمَّ لَبَّيك» وكان أبو إبْراهِيم المُزَنىّ قال فى بعض

---

(١) تبجح بالشىء: إذا فخر به، وفى النقد «أنه تسمى بالكيس».

(٢) الكيس المكيس. الظريف والمعروف بالكيس، والمخيس بكسر الياء المشددة وفتحها: السجن، لأنه يخيس المحبوسين أى يذلهم، أو هو موضع التخييس، واسم سجن بناه على رضى الله عنه بالكوفة، وكان أولا بنى سجنا بها سماه نافعا، وكان غير مستوثق البناء — وكان من قصب — فكان المحبوسون يهربون منه، وقيل إنه نقب وأفلت منه المحبسون، فهدمه على وبنى لهم المخيس من مدر، وجاء فى شفاء الغليل ص ١٠٩: «ولم يكن فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم سجن، وكان يحبس فى المسجد أو فى الدهليز حيث أمكن، فلما كان زمن سيدنا على رضى الله عنه أحدث السجن، وكان أول من أحدثه فى الاسلام، وسماه نافعا ولم يكن حصينا، فانفلت الناس منه، فبنى آخر وسماه مخيسا وقال فيه . . . . .».

(٣) فى الأصل «وأميرا» وفى اللسان والقاموس والشفاء «وأمينا».

(٤) فى النقد «كرهوا الصلاة».

(٥) المعراج بكسر الميم والمعرج بكسرها وفتحها: السلم. والمرقاة، بالكسر والفتح أيضاً.

ما خاطب به داود بن خَلَف الأصبهانى : « وإن قال كذا فقد خرج عن المِلّة ، والحمد لله » فنقَض ذلك عليه داود ، وقال فيما رد عليه : تحمَد اللهَ على أن تُخرج امرأ مسلما من الإسلام! هذا موضع استرجاع، والحمد مكانٌ يليق به وإنما يقال فى المصيبة: « إنَّا لِلّهِ وَإنَّا إلَيْهِ رَاجِعُونَ » .

فامتثِلْ هذه الرسومَ والمذاهبَ ، واجْرِ على آدابهم ، فلكلٍّ رسومٌ امتثَلوها ، وتحفَّظْ فى صدور كتبك وفصولها ، وافتتاحها وخاتمتها ، وضَعْ كل معنى فى موضع يليق به ، وتخيَّرْ لكل لفظة معنًى يُشاكلها ، وليكن ما تختم به فصولك فى موضع ذكر الشكوى بمثل : « والله المستعان ، وحَسْبنا الله ونِعْم الوكيل » وفى موضع ذكر البَلْوَى : « نسأل الله دفع المحذور ، ونسأل الله صَرْف السوء » وفى موضع ذكر المصيبة بمثل « إنا لله وإنا إليه راجعون » وفى موضع ذكر النعم بمثل : « والحمد لله خالصاً ، والشكر لله واجباً » فإنها مواضع ينبغى للكاتب تفقُّدها ، فإنما يكون كاتبا إذا وضع كل معنى فى موضعه ، وعلَّق كل لفظة على طِبْقها من المعنى ، فلا يجعل أول ما ينبغى له أن يكتب فى آخر كتابه فى أوله ، ولا أولَه فى آخره ، فإنى سمعت جعفر بن محمد الكاتب يقول : « لا ينبغى للكاتب أن يكون كاتبا ، حتى لا يستطيع أحد أن يؤخر أول كتابه ، ولا يقدِّم آخِرَه » .

واعلم أنه لايجوز فى الرسائل استعمال ما أتى فى آى القرآن ، من الاقتصار والحذف ، ومخاطبة الخاصِّ بالعام ، والعامِّ بالخاص ، لأن الله سبحانه وتعالى إنما خاطب بالقرآن قوما فُصَحاء ، فَهِموا عنه جل ثناؤه أمْرَه ونهْيَه ومُرادَه ، والرسائل إنما يخاطَب بها قوم دُخَلاء على اللغة لا علمَ لهم بلسان العرب ، وكذلك ينبغى للكاتب أن يتجنب اللفظ المشترَك والمعنى الملتبس ، فإنه إن ذهب الكاتب على مثال قوله تعالى : « وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا[1] » وقوله :

---

(١) تأويله : واسأل أهل القرية .

« بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ » احتاج أن يبين معناه : بل مكركم بالليل والنهار ، ومثل هذا فى القرآن كثير لا يتسع الكتاب لذكره .

وكذلك لا يجوز أيضا فى الرسائل والبلاغات المشهورة ما يجوز فى الأشعار الموزونة ، لأن الشاعر مضطر ، والشعر مقصور[1] مقيَّد بالوزن والقوافى ؛ فلذلك أجازوا لهم صَرْفَ ما لا ينصرف من الأسماء ، وحذف ما لا يحذف منها ، واغتفروا فيه الإغراب وسوء النظم ، وأجازوا فيه التقديم والتأخير ، والإضمار فى موضع الإظهار وذلك كله غير مُسَاغ[2] فى الرسائل ، ولا جائز فى البلاغات ، فما فى الشعر من الحذف :

قول الشاعر :

« قَوَاطِناً مَكَّةَ من وُرْقِ الحَمِى[3] » يعنى الحمام

وقول الآخر :

« صِفْرُ الوِشَاحَيْنِ صَمُوتُ الخَلْخَلِ[4] » يريد الخلخال

وكقول الآخر :

« دَارٌ لِسَلْمَى إِذْهِ مِنْ هَوَاكَا[5] » يريد إذ هى

---

(١) أى مقيد ، من القصر وهو الحبس .

(٢) من أساغ فلان الشراب: إذا ابتلعه بسهولة ، وفى العقد « منساغ » أى جائز، بناه من انساغ وجعله مطاوعا لساغ ، يقال : ساغ له ذلك ، أى جاز فهو سائغ أى جائز ، ولاداعى إلى استعمال المطاوع هنا مادام الفعل يؤدى المعنى .

(٣) قاله العجاج ، ويروى فى شواهد كتب النحو (باب إعمال اسم الفاعل) « أوالفا »، وورق : جمع ورقاء ، وهى الحمامة التى يضرب بياضها إلى سواد ، والحمى : أصله الحمام حذفت الميم الأخيرة وقلبت الألف ياء ، وقلبت الفتحة كسرة للروى .

(٤) الوشاح : أديم عريض يرصع بالجوهر ، تشده المرأة بين عاتقها وكشحيها ، والصفر: الخالى، وصفر الوشاحين : أى ضامرة الخصرين ، وقال صاحب اللسان : « والخلخل كجعفر وبرقع من الحلى : معروف ، قال الشاعر : « براقة الجيد صموت الخلخل » ثم قال : « والخلخال كالخلخل ، والخلخل لغة فى الخلخال أو مقصور منه ، واحده خلاخيل النساء » .

(٥) جاء فى شرح التصريح (١ : ١٠٣) : « وفى هو وهى الجميع ضمير ، وهو مذهب البصريين وذهب الكوفيون إلى أن الضمير هو الهاء فقط ، والواو والياء إشباع» وفى حاشية الصبان (١:٨٩) : =

وكقول الحُطيئة :

فيه الرماحُ وفيه كلُّ سابغةٍ جدْلاء مَسْرُودةٍ مِن صُنْعِ سَلَّامِ (١)

يريد سليمان بن داود ، وكقول النابغة :

« وَنَسْجُ سُلَيْمٍ كلَّ قَضَّاء ذائلِ (٢) »

« وقد تحذف الواو والياء منهما اضطراراً ، وتسكنهما قيس وأسد ، وتشددهما همدان » .

أقول: ومما جاء بالتشديد قول الشاعر: وإن لسانى شهدة يشتفى بها وهوّ على من صبه الله علقم

وهاك كلمة لصاحب اللسان فى هذا الصدد قال : « قال الكسائى : هو ، أصله أن يكون على ثلاثة أحرف مثل أنت ، فيقال : هو فعل ذلك ، ومن العرب من يخففه فيقول : هو فعل ذلك، وحكى الكسائى عن بنى أسد وتميم وقيس ° هو فعل ذلك ، باسكان الواو ، وأنشد لعبيد :

وركضك لولا هو لقيت الذى لقوا فأصبحت قد جاوزت قوما أعاديا

وقال الكسائى : بعضهم يلقى الواو من هو إذا كان قبلها ألف ساكنة فيقول: حتاه فعل ذلك وإنماه فعل ذلك ، قال : وأنشد أبو خالد الأسدى : * إذاه لم يؤذن له لم ينبس *

قال : وأنشدنى خشاف : إذاه سام الخسف آلى بقسم بالله لا يأخذ إلا ما احتكم

قال : وأنشدنا أبو مجالد المجير السلولى :

فبيناه يشرى رحله قال قائل لمن جمل رث المتاع نجيب

وقال ابن جنى : إنما ذلك لضرورة فى الشعر ، وللتشبيه الضمير المنفصل بالضمير المتصل فى عصاه وقناه، ولم يقيد الجوهرى حذف الواو من هو بقوله إذا كان قبلها ألف ساكنة ، بل قال : وربما حذفت من هو الواو فى ضرورة الشعر ، وأورد قول الشاعر : فبيناه يشرى رحله ، وكذلك الياء من هى ، وأنشد : « دار لسعدى إذه من هواكا » اه ــ لسان العرب ج ٢٠ : ص ٣٦٦ .

(١) الهاء فى فيه تعود على قوله فى بيت قبله :

وجحفل كبهيم الليل منتجع أرض العدو ببؤس بعد إنعام

ودرع سابغة : تامة طويلة ، ودرع جدلاء : محكمة ، والسرد : نسج الدرع ، وسلام : يعنى سليمان بن داود عليهما السلام ــ وإنما أراد داود ــ وكان يصنع الدروع ، قال تعالى فيه: « وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ » وقال « وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ » واللبوس : الدرع ، والبيت من قصيدة للحطيئة فى مدح أبى موسى الأشعرى ــ انظر ديوان الحطيئة ص ٣٦ .

(٢) هو شطر بيت من قصيدة للنابغة الذبيانى، قالها فى وقعة غزو عمرو بن الحرث الأصغر الغسانى لبنى مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان ــ انظر ديوان النابغة ص ٩١ ــ والبيت :

وكل صموت نثلة تبعية ونسج سليم كل قضاء ذائل

والصموت كصبور : الدرع الثقيلة ، والنثلة بالفتح : الدرع الواسعة ، وتبعية نسبة الى تبع ، وسليم : أى سليمان ، يريد داود كما تقدم ، والقضاء : الدرع المحكمة ، ودرع ذائل وذائلة ومذالة بضم الميم : طويلة .

وقول الآخر : « من نَسْجِ داودِ أبِي سَلَّامِ[١] »

وقول الآخر : « والشيخ عثمان أبى عفَّان »

أراد عثمان بن عفان ، وكما قال الآخر :

وسائلةٍ بثَعْلَبَة بنِ سَيْرٍ وقد عَلِقَتْ بثعلبةَ العَلُوقُ[٢]

أراد ثعلبة بن سيَّار ، وقول الآخر :

ولستُ بآتِيهِ ولا أستطيعُه ولَاكِ اسْقِنِي إن كانَ ماؤكَ ذا فَضْلِ[٣]

أراد ولكن :

وكذلك ينبغى فى الرسائل ألا يصغَّر الاسم فى موضع التعظيم ، وإن كان ذلك جائزا ، مثل قولهم : دُوَيْهِيَة تصغير داهية ، وجُذَيْل تصغير جِذل ، وعُذَيْق تصغير عَذْق ، قال لبيد :

وكلُّ أناسٍ سوف تدخل بينهم دُوَيْهِيَةٌ تصفرُّ منها الأناملُ[٤]

وقال الحُباب بن المُنْذِر يوم سَقِيفة بنى ساعدة : « أنا عُذَيْقها المُرَجَّبُ ، وجُذَيْلُها المُحَكَّك[٥] » .

---

(١) هو شطر بيت للأسود بن يعفر — انظر لسان العرب ١٥ : ١٩٣ — والبيت:

ودعا بمحكمة أمين سكها من نسج داود أبى سلام

(والسك بالفتح : الدرع الضيقة الحلق) قال صاحب اللسان : وقالوا فى سليمان اسم النبى صلى الله عليه وسلم : سليم وسلام فغيروه ضرورة ، قال : ومثل ذلك فى أشعارهم كثير ، واستشهد بالأبيات الثلاثة المذكورة ، وبشاهد آخر وهو :

مضاعفة تخيرها سليم كأن قتيرها حدق الجراد

(والقتير بالفتح : رءوس مسامير حلق الدرع) .

(٢) العلوق . المنية ، وجاء فى اللسان (٦ : ٥٨) « جعله سيرا للضرورة ، لأنه لم يمكنه سيار لأجل الوزن ، قال ابن برى : البيت للمفضل السكرى يذكر أن ثعلبة بن سيار كان فى أسره » .

(٣) البيت للنجاشى من أبيات قالها فى ذئب لقيه على ماء فدعاه أن يؤاخيه — انظر الأبيات فى حاشية الأمير على المغنى ج ١ : ص ٢٠٨ — .

(٤) المراد بالدويهية : الموت .

(٥) قال الحباب ذلك وقد قام يطلب بحق الأنصار فى الخلافة — انظر جمهرة خطب العرب ١ : ٦٥ — والجذيل تصغير الجذل (بالكسر) وهو أصل الشجرة ، وعود ينصب للإبل الجربى لتحتك به وتتمرس =

ومما لايجوز فى الرسائل، وكَرِهوه فى الكلام أيضاً، مثل قولهم: كلمتُ إياكَ وأعنى إياك، وهو جائز فى الشعر، قال الشاعر:

وأحسِنْ وأجمِلْ فى أسيرك إنه ضعيفٌ، ولم يأسِرْ كإياكَ آسِرُ

وقال الراجز: « إياكَ حتى بلغَتْ إياكَ »

وإساءةُ النظام فى التأليف فى الشعر كثير.

وتكون الكلمة بَشِعةً حتى إذا وُضعتْ موضعها، وقُرِنت مع أَخَوَاتِهَا، حَسُن حالها وراقت، كقول الحسن بن هانئ[1]: « ذو خَصِرٍ أفلَتَ مِن كَدِّ الأُبَلْ[2] » والكدُّ كلمة قَلِقة لا سيما فى الرقيق والغزل والتشبيب، غير أنها لما وقعت فى موضعها حَسُنت، كما أن اللفظة العَذْبة إذا لم توضَع موضِعَها نَفَرت، قال الشاعر:

رأتْ عارِضاً جَوْناً فقامت غَرِيرةً بِمِسْحَاتِها قبلَ الظلامِ تُبَادِرُهْ[3]

فأوقع الجِلْفُ[4] الجافى هذه اللفظة غير موقعها، وظلَمَها إذ جعلها فى غير مكانها، لأن المَسَاحى لاتكون ولا تصلح للغرائر، وأين كان عن قول الشاعر:

غَرائرُ، ما حُدِّثْنَ يُهْدِينَ أُنْسَهُ فما فوقَه منهن غيرُ غرائِرِ

حديثٌ لَوَانَّ العُصْمَ تُدْعَى به أَتَتْ ودونَ يد الفَحْشاء حدُّ البواتِرِ[5]

فتخيّرْ من الألفاظ أرجَحَها وزنا، وأجزلها معنى، وأشرَفَها جوهراً، وأكرمَها

والحكك: الذى تتحكك به، والعذيق تصغير العذق (بالفتح): وهو النخلة، والمرجب الذى جعل له رجبة (كركبة) وهى دعامة تبنى حولها من الحجارة، وذلك إذا كانت النخلة كريمة وطالت تخوفوا عليها أن تنقعر من الرياح العواصف، وهو مثل، والمراد أنه رجل يستشفى برأيه وعقله.

(١) هو أبو نواس الشاعر العباسى المشهور.

(٢) ذو خصر: أى ذو ثغر خصر أى بارد، وفى الأصل « حضر » وهو تصحيف.

(٣) العارض: السحاب المعترض فى الأفق، والجون: الأسود (والأبيض أيضاً، ضد) والمسحاة ماسحى به الطين، أى قشر وجرف، والغريرة: الشابة لاتجربة لها.

(٤) الجلف: الجافى.

(٥) أنسه: أى أنس الحديث، والعصم: جمع أعصم، وهو الوعل الذى فى ذراعيه بياض وسائره أسود أو أحمر، والباتر: السيف القاطع.

حَسَبا، وأَلْيَقها فى مكانها ، وأشكَلَها فى موضعها ، وليكن فى صدر كتابك دليلٌ واضح على مُرادك ، وافتتاح كلامك بُرْهانٌ شاهد على مقصدِك ، حيثما جرَيْت فيه من فنون العلم ، ونزَعْتَ نحوه من مذاهب الخطب والبلاغات[١] ، فإن ذلك أجزلُ لمعناك ، وأحسنُ لاتِّساق كلامك ، ولا تُطِيلَنّ صدر كلامك إطالةً تُخرِجه عن حَدِّه ، ولا تقصِّر به عن حقه ، ولو صُوِّر اللفظُ وكان له حَدٌّ ، لوقَفتُك عليه ، غير أنهم – فى الجُمْلة – كَرِهوا أن يَزيدوا صدور كتب الملوك على سطرين أو ثلاثة ، وهذه إشارة لاتعبِّر إلا عن الجملة من المقصود إليه ، لأن الأسطر غير محدودة .

واعلم أن أول ما ينبغى لك ، أن تُصْلِح آلتَك التى لابدَّ لك منها ، وأدواتِك التى لا تتم[٢] صناعتك إلا بها ، وهى دَوَاتُك ، فابدأ بِعمارتها وإصلاحها[٣] ، وتخيَّرْ لها لِيقةً[٤] نقيّة من الشَّعر والوَذَح ، لئلا يخرج على حرْف قلمك ما يُفسِد كتابَك، ويَشْغَلك بتنقيته ، وخذ من المِداد الفارسىِّ خمسةَ دراهم ، ومن الصَّمغ العربى درهما ، وعَفْصا[٥] مسحوقا نصفَ درهم ، ورَماد القِرطاس المُحْرَق درهمين ، ثم تَسْحَقها وتُغَرْبلها ، وتجمعها ببياض البيض ، ثم تَبْندِقها[٦] واجْعلها فى الظِّلّ ، فإذا احتجت إليها أخذت منها مقدار حاجتك فكسرته وحَشَوتَ به دواتك ، وإذا نقعتَه فى ماء السِّلْق حتى ينحَلّ ويذوب ويختمر ، ثم أمددت من مائه دواتك ، كان أجودَ وأنقى .

ثم اختَرْ بعد ذلك من أنابيب القصب الذى يصلُح لكتابة القراطيس، أقله عُقَدًا ،

---

(١) فى العقد « وأفضل الكتب ما كان فى أول كتابه دليل على حاجته ، كما أن أفضل الأبيات مادل أول البيت على قافيته .

(٢) فى العقد « لاتتم » .

(٣) وفى العقد « فلينعم ربها إصلاحها » أى فليجد .

(٤) الليقة : الصوفة التى توضع فى الدواة ، والوذح : ماتعلق بأصواف الغنم من البعر والبول . وفى الاصل « الودح » وهو تصحيف .

(٥) العفص : الذى يتخذ منه الحبر ، مولد ، وليس من كلام أهل البادية .

(٦) أى اجعلها بنادق ، والبندق : الذى يرمى به واحدته بندقة .

وأكثفه لحا ، وأصلبه قِشْرًا، وأعدلَه استواء ، وتجنَّبِ الأقلام الفارسية ما استطعت، فإنها ما تصلح إلا للكواغِدِ والرُّقُوق(١) .

واجعل لقلمك بَرْيةً حادَّةً ، فإنَّ تعثُّرَ يدِ الكاتب وقت قطع القرطاس ، ناقصٌ مُرُوءتَه ، ومُخِلٌّ بظَرْفه ، وإن قدِرت ألا تقطع القرطاس إذا فرغتَ من كتابك إلا بخُرْطوم قلمك ، فافعل ، فإن ذلك أكمل لمروءتك ، وأبدعُ اظَرفك ، وقطعِك .

واستعمِلْ لِبَرْى القلم سِكِّيناً طواوِيسِيّا(٢) ، مُذَلَّقَ الحَدِّ ، وميضَ الطرْفِ ، فيكونَ ذلك عونا لك على بَرْى أقلامك ، فإن محل القلم من الكاتب محلُّ الرُّمح من الفارس ، ولئن قيل كأنه الرمح الرُّدَيْنى(٣) ، لقد قال الكاتب كأنه القلم البَحْرِيّ ، وتفقَّدِ الأُنبوبة قبل بَرْيِكَها لئلا تجعلها منكوسة ، وابْرِها من ناحية نبات القصَبة ، وارهَفْ(٤) — ماقدَرت — جانبي قلمك ، لِيُرِدَّ ما انتشر من المِداد ، ولا تُطِلْ شقَّه . فإن القلم لا يمُجّ المداد من شقّه إلا مقدار ما احتملَتْ شُعْبَتاه(٥) . فرفّع شُعْبَتَيْه ليجمعا لك حواشيَ تصوِيره .

---

(١) الرقوق : جمع رق بالفتح ويكسر : وهو جلد رقيق يكتب فيه .

(٢) نسبة إلى طواويس ، وهى اسم ناحية من أعمال بخارى بينها وبين سمرقند ، وذلق السكين وذلقه وأذلقه : حدده .

(٣) الرديني : نسبة إلى ردينة ، وهى امرأة سمهر ، وكانا يقومان الرماح بخط هجر .

(٤) رهفه كمنع وأرهفه : رققه .

(٥) فى الأصل « شبتاه ، فارفع شيتيه ليجمعا لك حواشى تحضيره » وهو تحريف ، جاء فى أدب الكتاب ص ٨٦ : « من كلام مسلم بن الوليد ، فى صفة برى القلم قوله : « حرف قطة قلمك قليلا ليتعلق المداد به ، وأرهف جانبيه ليرد ما استودعته إلى مقصده ، وشق فى رأسه شقا — غير عاد — ليحتبس الاستمداد عليه ، ورفع من شعبتيه ليجمعا حواشى تصويره . . . . » وأورد صاحب صبح الأعشى قول مسلم فى ذلك (٣ : ٦) وفيه : « ماخلا قلما جوف باريه بطنه ليعلق المداد به ، وأرهف جانبيه ليرد ما انتشر منه إليه ، وشق رأسه ليحتبس الاستمداد عليه ، وأربع من شقتيه ليجمعا حواشى تصويره إليه . . . » والصواب : ورفع من شعبتيه كما قدمنا .

وأما قطُّ القلم فعلى قدر القلم الذى يتعاطاه الكاتب من الخطّ ، غير أن المُسَلْسَل (١) لا يكاد يتسلسل إلا بالقلم المربَّع القطّ ، كما أن كتب الملوك والسّجلّات لا تحسُن إلا بالقلم المحرّف الكوفى ، وأمَّا قلم اللازَوَرْد فهو المعتمد عليه والمقصود إليه فى النوائب والمُهِمَّات .

ورأيت كثيرا من الكتاب يختارون قلم النَّرجس لتجعُّده وتجانسه ، ومن اللازورد أبسط منه وأقوم حروفا ، وأما الموشّع والمولَّع والمُدَبَّج والمُنَمْنَم والمسهَّم ، فعلى قدر رشاقة خط الكاتب وحلاوة قلمه ، وأما حسن الخط فلست أجد له حدًّا أقِف عليه أكثر من قول علىّ النَّصْرَابَاذِىّ (٢) الكاتب ، فإنى سألته واستوصفته الخطّ ، فقال : أعلِّمك الخط فى كلمة واحدة ، فقلت له : تفضل بذلك ، فقال : لا تكتبنّ حرفا حتى تستفرغ مجهودك فى كتابة الحرف المبدوء به ، وتجعل فى نفسك أنك لا تكتب غيره ، حتى لا تعجَلَ (٣) عنه إلى غيره ، وإياك والنقطَ والشكلَ فى كتابك ، إلا أن تمر بالحرف المُعْضِل الذى تعلم أن المكتوب إليه يعجَز عن استخراجه ، فإنى سمعت سعيد بن حُميد الكاتب يقول : « لأَنْ يُشْكِلَ علىّ الحرف ، أحب إلىّ من أن يعاب بالنقط والإعجام » وقال المأمون لكتّابه : إياكم والشُّونيز (٤) فى كتبكم ، يعنى النقط ؛ ولذلك قال ابن هانئ :

لم ترضَ بالإعجام حين كتبته حتى كتبتَ السَّبَّ بالإعراب

ولا تُغْفِلِ الصلاة على النبى عليه الصلاة والسلام ، فقد قال أبو العَيناء : « إن

---

(١) فصل القلقشندى فى صبح الأعشى الكلام على أنواع الأقلام فى الفصل الثانى من الباب الثانى فى الخط ـ اقرأ هذا الفصل فى ج ٣ : ص ٥ ـ ١٥٢ من باب الخط (ج ٢ : ص ٤٤٠ ـ ج ٣ :ص ٢٢٦)

(٢) نسبة إلى نصرا باذ : محلة بنيسابور ، ومعناها بالفارسية عمارة نصر ، تنسب إلى نصر بن عبد العزيز الخزاعى ، وكان قد ولى الرى فى أيام السفاح ، ولم يزل عليها إلى أن قتل أبو مسلم الخراسانى ، وفى رسائل البلغاء : « على بن زيز النصرانى » وهو تحريف .

(٣) فى العقد « حتى تعجز عنه » .

(٤) الشونيز : الحبة السوداء ، فارسية ، والكلام على التشبيه .

بنى أمية هم الذين كانوا أمروا كتّابهم فطَرَحوا ذلك من كتبهم ، فجرت عادةُ الكتاب إلى يومنا هذا على ماسَنّوه » وقد قال عليه الصلاة والسلام : « لا تجعلونى كقَدَح[١] الراكب ، ولكن اجعلونى فى أول الدعاء وأوسطه وآخره » صلى الله عليه وعلى آله وسلّم أوّلا وأوسَطَ وآخِراً .

وأحِبّ أن تجعل بدلَ الإشارةِ[٢] الترابَ ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أتْرِبوا كتبكم ، فإنه أنجح للحاجة » ولا تَدَع التاريخ ، فإنه يدل على تحقيق الأخبار وقُرْبها وبُعدها ، وانظر إلى ما مضى من الشهر وما بقى منه ، فإن كان الماضى أقلَّ من نصف الشهر قلت : لكذا ليلةً مَضَت من شهر كذا ، وإن كان الباقى أقل من النصف قلت : لكذا أيضاً بقيتْ ، وقد قال بعض الكتاب : إن الماضى من الشهر تُحْصيه ، والباقى لاتحصيه ، لأنك لاتدرى : أيَتِمُّ الشهر أو ينقُص ، وليس هذا بشىء ، لأن تاريخ الكتاب ليس من الأحكام فى شىء ، وما على الكاتب أن يكتب إلا بما ظَهَرَ وتبيّن لا بما يظن .

ولا تجعل سَحَاة[٣] كتبك غليظة إلا فى العهود والسجلات التى تحتاج إلى خواتمها وطوابعها ؛ فإن محمد بن عيسى الكاتب كاتب آل طاهر أخبر عنهم أن عبد الله بن طاهر كتب إلى العراق فى إشْخَاصِ كاتب كان كتب إليه ، فكتب وغلّظ سَحاة كتابه ، فردَّ الكتاب إليه ، فقدِمَ عليه راجياً لبرّه وجائزته ، فقال عبد الله بن طاهر : إن كان معك مِسْحاة[٤] فاقطع خَزْمَ كتابك وانصرف وراءك ،

---

(١) معناه : لا تؤخرونى فى الذكر ، لأن الراكب يعلق قدحه فى آخر رحله عند فراغه من ترحاله ويجعله خلفه ، قال حسان بن ثابت يهجو أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب :

وأنت زنيم نيط فى آل هاشم ... كما نيط خلف الراكب القدح الفرد

(٢) أشر الخشبة كقتل : شقها ، لغة فى النون ، والمئشار : المنشار ، قال الشاعر :

* أتاشر لا زالت يمينك آشره *

فجمع بين لغتى النون والهمزة ، فالأشارة هى النشارة الدقيقة التى تتخلف عن شق الخشب .

(٣) سحاة القرطاس : ماأخذ منه ، وسحا القرطاس وسحاه : أخذ منه سحاة ، أو شده بها ، وسحا الكتاب وسحاه وأسحاه : شده بسحاة .

(٤) المسحاة : كالمجرفة إلا أنها من حديد .

وكذلك لاتعظِّم الطِّينَة ، ففى المثل : « مَن عظَّم الطِّينة فإنه مظلوم » ولا تَطْبَعْها إلا بعد عُنْواناتها ، فإن ذلك من أدبهم [١] ، وقد يجب عليك عِلْمُ إلصاق القراطيس ونحوها ، ولم أرَ شيئا فى إلصاقها ألطفَ من أن يُنقَع الصَّمغ العربى فى الماء ساعةً حتى يذوب ، ثم يُلصَق به ، وكذلك ماء الكَثِيراء والنَّشاستَج [٢] ، ثم تطويه طَيًّا رقيقا ، وتجعله فى مِنديل نظيف ، ويُرفعُ تحت وِسادة حتى يجفَّ . وأما نحوها ، فعلى قدر لطف الكاتب وتأنِّيه ، غير أنه ينبغى له أن لايلقُط السواد من القرطاس إلا بمثل الشمع المسخَّن واللُّبان الممضوغ ، وما أشبههما ، ثم يكون لَقْطُهُ رُوَيْداً رُوَيدا ، كلما لقَط جانبا حوّله إلى الجانب الآخر .

وأما قراءة الكتب المختومة والتلطُّف لنقض خواتيمها ، فمما لا نذكره خوفا من سَفِيهٍ .

وأما تضمينُ الأسرار فى الكتب حتى لايقرأها غيرُ المكتوب إليه ، ففيه أدب يجب معرفتهُ ، وقد تعلقت العامّة بالمعَمَّى ، قال الأصبهانى [٣] : وكان أبو حاتم سهل ابن محمد قد وضع منه أشياء جليلة من تبديل الحروف تبديلا يَخْفَى ، وألطفُ من ذلك أن تأخذ لبناً حليباً فتكتب به فى قرطاس ، فَيَذُرّ المكتوب إليه عليه رَمادا حارا من رماد القراطيس ، فإنه يُظهر ما كتبت به إن شاء الله ، وإن كتبت بماء الزاج الأبيض وذُرَّ عليه العَفْص المدقوق بزاج ، أو بماء العَفْص وذر عليه شيئًا من الزاج ، أو تنقع شيئاً من وُشّق [٤] ثم تكتب به ، ثم نثرت عليه الرماد فإنه يظهر ، وإن أحببته لا يقرأ بالنهار ويقرأ بالليل فا كتبه بمَرارة السُّلَحفاة .

وإن حاولت صنعة رسالة أو إنشاء كتاب ، فزِنِ اللفظة قبل أن تُخرجها بميزان

---

(١) فى الأصل « فإن ذلك مراد بهم » وهو تحريف .

(٢) هو النشا ، فارسى معرب حذف شطره تخفيفاً .

(٣) فى رسائل البلغاء : « تعلقت العامة بالقمى والأصبهانى » وهو تحريف .

(٤) الوشق والأشق كسكر : صمغ نبات .

التصريف إذا عرضْتَ ، وعايِرِ الكلمة بعياره إذا سَنَحت ، فربما مرَّ بك موضع يكون مخرج الكلام إذا كتبت : « أنا فاعل » أحسن من أن تكتب : « أنا أفعل » وموضع آخر يكون فيه « استفعلت » أحلى من « فعلت » .

فأدِرِ الألفاظ على أعكانها[١] ، واعْرِضْها على معانيها ، وقلِّبها على جميع وجوهها، فأى لفظة رأيتها فى المكان الذى نَدَبْتها إليه ، فأنْزِعْها إلى المكان الذى أوردتها عليه ، وأوقِعْها فيه ، ولا تجعل اللفظة قَلِقةً فى موضعها ، نافِرةً عن مكانها . فإنك متى فعلت هَجَّنتَ الموضع الذى حاولتَ تحسينَه ، وأفسدت المكان الذى أردت إصلاحه ، فإنّ وضع الألفاظ فى غير أماكنها ، وقَصْدَك بها إلى غير نِصابها[٢] ، إنما هو كترقيع الثوب الذى إذا لم تتشابَهْ رِقاعُه،ولم تتقارَب أجزاؤه،خرج من حدِّ الجِدَّة،وتغيَّر حُسْنه، كما قال الشاعر :

إن الجديد إذا ما زِيدَ فى خَلَقٍ ... يُبِينُ للنَّاس أن الثوب مرقوعُ

وَارتصِدْ لكتابك فراغ قلبك ، وساعة نشاطك ، فتجدَ ما يمتنع عليك بالكدِّ والتكلف ، لأن سماحة النفس بمكنونها ، وجُود الأذهان بمخزونها ، إنما هو مع الشهوة المفرطة فى الشعر[٣] ، والمحبة الغالبة فيه ، أو الغضب الباعث منه ذلك . قيل لبعضهم لم لاتقول الشعر ؟ قال : كيف أقوله ، وأنا لا أغضب ولا أطربُ ! وهذا كله إن جرَيْت من البلاغة على عِرْق[٤] ، وظهرت منها على حظ ، فأما إن كانت غير مناسِبة لطبعك ، ولا واقعة شهوتُك عليها ، فلا تُنْضِ[٥] مطيَّتَك فى التماسها ، ولا تُتْعِب

---

(١) الأعكان والعكن (بضم ففتح) : الأطواء فى البطن من السمن ، وواحدة العكن عكنة بضم فسكون ، والكلام على التشبيه ، وفى رسائل البلغاء : « فأدِرِ الألفاظ فى أماكنها . . . . . حتى تقع موقعها » .

(٢) النصاب : الأصل .

(٣) فى الأصل « الشر » وهو تحريف .

(٤) العرق : الأصل .

(٥) أنضاه : هزله .

بدَنك فى امتغائها ، واصرِف عِنانك عنها ، ولا تطمع فيها باستعارتك ألفاظَ الناس وكلامَهم ، فإن ذلك غير مُثمر لك ، ولا مُجْدٍ عليك ، ومن كان مرجعه فيها إلى اغتصاب ألفاظِ مَن تقدّمه ، والاستضاءةِ بكوكب مَن سبَقه ، وسَحْبِ ذيل حُلّة غيره ، ولم يكن معه أداة تولّد له من بنَات قلبه ، ونتائج ذهنه الكلامَ الحرّ ، والمعنى الجزْل ، لم يكن من الصناعة فى عِير ولا نفير[1] ، على أن كلام العظماء المطبوعين ، ودرْسَ رسائل المتقدمين على كل حال مما يَفتُق اللسان ، ويوسّع المنطق ، ويشحَذُ الطبع ، ويستثير كوامنه إن كانت فيه سجيّة ، قال العتّابى : « ما رأيْنا فيما تصرفْنا فيه من فنون العلم ، وجرَيْنا فيه من صنوف الآداب، شيئاً أصعبَ مَراما ، ولا أوعَرَ مَسْلَكاً ولا أدلّ على نَقص الرجال ورَجَاحَتِهمْ ، وأصالة الرأى وحسن التّمييز منه واختياره ، من الصناعة التى خطبْتها ، والمعنى الذى طلبته » وليس شىء أصعبَ من اختيار الألفاظ وقصْدك بها إلى موضعها ؛ لأن اللفظة تكون أخت اللفظة وقسيمتَها فى الفصاحة والحسن ولا تحسُن فى مكان غيرها . وبتمييز هذه المعانى ، ومناسبة طبائع جَهَابِذَتها[2] ، ومشاكَلَة أرواحهم ، جعلوا الكتابة نَسَباً وقرابة ، وأوجبوا على أهلها حفظها .

قال الحسن بن وهب : الكتابة نفْس واحدة تجزأت فى أبدان متفرقة ، ومن لم يعرف فضلَها وجَهِل أهلها ، وتعدَّى بهم رُتبتَهم التى وصفهم الله بها[3] ، فإنه ليس من الإنسانية فى شىء .

وقالت البرامكة : رسائل المرء فى كتبه دليل على عقله ، وشاهِدٌ على غَيْبه . وقال الشاعر :

وتُنكر ودَّ المرء فى لَحْظِ عينه وتعرِفُ عقل المرء حين تُكاتبُهْ

---

(١) من أمثال العرب : «لا فى العير ولا فى النفير» مثل يضرب للرجل يحط أمره ، ويصغر قدره ، وقد تقدم شرحه فى جمهرة خطب العرب ٢ : ١٣٧ .

(٢) جهابذة : جمع جهبذ ، بكسر الجيم والباء وهو النقاد الخبير .

(٣) يشير إلى قوله تعالى : « كِرَامًا كَاتِبِينَ » .

وقال آخر :

وشعرُ الفتى يُبْدِي غريزةَ طبعه ... وبالكُتْب يبدو عقلُه وبلاغتُه

وقيل للشَّعْبي : أى شىء تَعرِف به عقل الرجل ؟ قال : إذا كتب فأجاد .

وقال العُتْبي : عقول الناس مدوَّنة فى كتبهم ، وقال ابن المقفَّع : كلام الرجل وافِد عقله .

وشبَّهت الحكماء المعانيَ بالغوانى ، والألفاظ بالمعارض ، فإذا كسا الكاتبُ البليغُ المعنى الجَزْلَ لفظا رائقا ، وأعاره مَخرجا سَهْلا ، كان للقلب أحْلَى ، وللصدر أملى[1] ، ولكنه بقى عليه أن يَنظِمَه فى سِلْكه مع شقائقه ، كاللؤلؤ المنثور الذى يتولَّى نظمَه الحاذقُ ، والجوهرىُّ العالِمُ يُظهر بإحكام الصَّنعة له حُسْنا هو فيه ، ومنحة بهجة هى له ، كما أن الجاهل إذا وضع بين الجوهرتين خَرَزَةً ، هَجَّن[2] نظْمَه ، وأطفأ نوره . كان حَبيب[3] بن أَوْسٍ ربما وَقَع على جوهرة فجعلها بين بَعْرتين ، قال الشاعر :

ولو قَرَنْتَ بدُرٍّ فاخرٍ خَرَزًا ... من الزجاج لقُلْنا بئس ما نَظما

والياقوتُ حَسَن ، وهو فى جيد الحسناء أحسنُ ، وكذلك الشعرُ الجيِّد مُونِق[4] ولكنه من أفواه العظماء آنَقُ ، والتاجُ الشريف بهىّ المنظر ، وهو على المَلِك أبهَى ، كما قال ابن قيس الرُّقَيَّات[5] :

---

(١) سهل عن أملأ . (٢) التهجين : التقبيح .

(٣) هو أبو تمام الشاعر العباسى المشهور — انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١ : ١٢١ ، والأغانى ١٥ : ٩٦ ، والفهرست لابن النديم ص ٢٣٥ .

(٤) آنقنى الشىء إيناقا : أعجبنى .

(٥) هو عبيد الله بن قيس ، وإنما لقب بذلك لأنه شبب بثلاث نسوة سمين جميعا رقية ، كان زبيرى الهوى ، وخرج مع مصعب بن الزبير على عبد الملك بن مروان ، فلما قتل مصعب وقتل عبد الله بن الزبير هرب فلجأ إلى عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، فسأل عبد الملك فى أمره فأمنه — انظر ترجمته فى الأغانى ٤ : ١٥٤ ، والشعر والشعراء ص ٢١٢ .

يعتدل التاجُ فوق مَفْرِقِهِ(١)

قال أبو العتاهية لابن مناذِر(٢) : بلغنى أنك تقول الشعر فى الدهر ، والقصيدة فى الشهر ، فقال : نعم ، لو رضِيتُ لنفسى أن أؤلف تأليفك ، وأقول : « يا عُتْبَ يادُرَّةَ الغَوَّاصِ(٣) » لقلت فى اليوم والليلة ألف قصيدة ، وقال عمر(٤) بن لجأ لشاعر : أنا أشعر منك ، قال : ولم ؟ قال : لأنك تقول البيت وابن عمه ، وأنا أقول البيت وأخاه .

فإن مُنيت بحب الكتابة وصناعتها ، والبلاغة وتأليفها ، وجاش صدرُك بشعر معقود ، أو دَعَتك نفسك إلى تأليف الكلام المنثور . وتهيَّأ لك نظمٌ هو عندك معتدِل ، وكلامٌ لديك متَّسِق ، فلا تدعونَّك الثقةُ بنفسك ، والعُجْب بتأليفك ، أن تهجُم به على أهل الصناعة ، فإنك تنظر إلى تأليفك بعين الوالد لولده ، والعاشق إلى عشيقته ، كما قال حَبيب :

---

(١) المفرق كمقعد ومجلس : وسط الرأس ، وهو الذى يفرق فيه الشعر ، وهذا صدر بيت وعجزه : « على جبين كأنه الذهب » وهو من قصيدة قالها فى مدح عبد الملك ، ولما أنشده إياها ووصل إلى هذا البيت ، قال له عبد الملك : يابن قيس تمدحنى بالتاج كأنى من العجم ، وتقول فى مصعب :

إنما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء
ملكه ملك عزة ليس فيه جبروت منه ولا كبرياء

أما الأمان فقد سبق لك ، ولكن والله لا تأخذ مع المسلمين عطاء أبداً .

(٢) أبو العتاهية شاعر عباسى معروف ، وله ترجمة مطولة فى الأغانى ٣ : ١٢٢ ، وفى الشعر والشعراء ص ٣٠٩ ، ووفيات الأعيان ١ : ٧١ ، والفهرست ص ٢٢٧ . وابن مناذر : هو محمد بن مناذر ، شاعر عباسى أيضاً — انظر ترجمته فى الأغانى ١٧ : ٩ ، والشعر والشعراء ص ٣٦٤ .

(٣) عتبة التى كان أبو العتاهية يشبب بها : هى جارية لريطة بنت أبى العباس السفاح ، وكانت تحت المهدى ، فلما بلغ المهدى إكثاره فى وصفها غضب فأمر بحبسه ، ثم شفع له يزيد بن منصور الحميرى خال المهدى فأطلقه ، وجاء فى الأغانى (١٧ : ١١) « اجتمع أبو العتاهية ومحمد بن مناذر ، فقال له أبو العتاهية : يا أبا عبد الله ، كيف أنت فى الشعر ؟ قال : أقول فى الليلة إذا سنح القول واتسعت القوافى عشرة أبيات إلى خمسة عشر ، فقال له أبو العتاهية : لكنى لو شئت أن أقول فى الليلة ألف بيت لقلت ، فقال ابن مناذر : أجل ، والله إذا أردت أن أقول مثل قولك :

ألا ياعتبة الساعه أموت الساعة الساعه

قلت : ولكنى لا أعود نفسى مثل هذا الكلام الساقط ، ولا أسمح لها به ، فخجل أبو العتاهية وقام يجر رجله » .

(٤) شاعر أموى ، وكان ممن هجا جريراً — انظر خبره فى الشعر والشعراء ص ٢٦١ ، وفى الأغانى فى ترجمة جرير ٧ : ٣٥ والفرزدق ١٩ : ٢ .

ويُسِيء بالإحسان ظنّا ، لا كمن   هو بِابْنِهِ وبشعره مفتـــونُ

ولكن اعرِضْه على البلغاء والشعراء والخطباء ممزوجا بغيره ، فإن أصْغَوا إليه ، وأذِنوا[١] له ، وشَخَصوا بالأبصار ، واستعادوه وطلبوه منك وامتزج ، فاكشِف من تلك الرسالة والخطبةِ والشعر اسْمَه ، وانسِبْهُ إلى نفسك ، وإن رأيت عنه العيون منصرفةً ، والقلوب عنه ذاهبة[٢] ، فاستدِلَّ به على تخلفك عن الصناعة ، وتقاصُرِك عنها ، واستربْ رأيَك عند رأى غيرك من أهل الأدب والبلاغة ، فقد بلغنى أن بعض الملوك دعا إنسانا إلى مؤانسته ، حتى ارتفعت الحِشْمة بينهما ، فأخرج له كتابا قد غشّاه بالجلود ، وجمع أطرافه بالإبْرَيْسَم[٣] ، وسوّى ورقه ، وزخرف كتابته ، وجعل يقرأ عليه كلاما قد حبّره[٤] فيه ، ونمّقه عند نفسه ، وجعل يستحسن مالا يَحْسُن ، ويقف على مالا يستثقل قراءته ، حتى أتى على الكتاب ، فقال له : كيف رأيتَ ما قرأتُ عليك ؟ فقال : أرى عقل صانع هذا الكلام أكثر من كلامه ، ففطِنَ له ولم يعاوِدْه ، إلى أن وقف به على تَنُّور مسجور[٥] ، ثم قذف بالكتاب فى النار ، وهذا رجل فى عقله فضْلة ، وفيه تمييز .

وإنما البليّةُ فيمن إذا بيّنت له سوء نظمه واختياره ، ووقّفْتَه على سَخافة لفظه ، هجرك وعاداك ، فاجعل هذا الأصل ميزانا تزن به مذهبك فى رسائلك وبلاغتك ، ولا تخاطِبَنّ خاصًّا بكلام عام ، ولا عامًّا بكلام خاص ، فمتى خاطبت أحداً بغير ما يشاكله ، فقد أجريت الكلام غير مُجْراه ، وكشفته ، وقصْدُك بالكلام الشريف الرجل الشريف تنبيهٌ لقدر كلامك ، ورفعٌ لدرجته ، قال :

فلم أمدحــه تفخيما لشعرى   ولكنى مدحت بك المَدِيحا

---

(١) أذن إليه وله كفرح : استمع معجبا ، أو عام .

(٢) فى الأصل « واهية » .   (٣) الإبريسم : الحرير .

(٤) التحبير : التحسين .

(٥) التنور : الذى يخبز فيه ــ الفرن ــ وسجر التنور : أحماه .

فلا تخرجن كلمة حتى تزنها بميزانها ، فتعرف تمامها ونظامها ، ومواردها ومصادرها ، وتجنّبْ ما قدَرْتَ الألفاظَ الوحشية ، وارتفع عن الألفاظ السخيفة ، واقتضب كلاماً بين الكلامين .

قال الجاحظ : « ما رأيت قوما أمثلَ طريقةً فى البلاغة من هؤلاء الكتّاب ، فإنهم التمسوا من الألفاظ مالم يكن متوعّرا وَحْشيًّا ، ولا ساقطا سُوقيًّا » . وقال خالد ابن صَفْوان : « أبلغُ الكلام مالا يحتاج إلى كلام ، وأحسنُه مالم يكن بالبدوى المُغْرِب ولا القَرَوىّ المُخْدَج[١] ، الذى صحّت مَبانيه ، وحسُنَت معانيه ، ودار على ألْسُن القائلين ، وخفّ على آذان السامعين ، ويزداد حسنا على مَرّ السنين ، بتجلية الرُّواة ، وتنقية السَّراة » .

والكاتب المستحق اسم الكتابة ، والبليغ المحكوم له بالبلاغة ، مَن إذا حاول صيغةَ كتاب سالت على قلمه عُيُون الكلام من ينابيعها ، وظهرت من معادنها ، ونَدَرَتْ[٢] من مواطنها ، عن غير استكراه ولا اغتصاب .

حدّثنا صديق للعَتّابى قال له : اعمل لى رسالة ، فاستمدّه مُدّة بعد أخرى ، فقال له : ما أرى بلاغتك إلا شاردةً عنك ، فقال له العتابىُّ : إنى لمّا تناولتُ القلم تداعَتْ علىّ المعانى من كل جهة ، فأحببتُ أنْ أتركَ كل معنى يرجع إلى موضعه ، ثم أجْتَنِى لك أحسَنَها .

وأمْلَى يزيد بن عبد الله أخو ذُبْيان[٣] على كاتب له ، فأعجَلَ الكاتبَ ، ودارَكَ فى الإملاء عليه[٤] ، فتعثّر قلم الكاتب عن تقييد إملائه ، فقال له متحرّشا : اكتب

---

(١) الإعراب : الإتيان بالغريب ، والمعنى المغرب صاحبه . والمخدج : الناقص ، من قولهم : أخدجت الناقة : أى جاءت بولد ناقص فهى مخدج (بكسر الدال) والولد مخدج (بفتحها) ، ورجل مخدج اليد : ناقصها .

(٢) أى ظهرت ، ندر الشىء ندورا : سقط من جوف شىء ، أو من بين أشياء فظهر ، وربما كان « بدرت » أى سبقت وعجلت ، وفى رسائل البلغاء « وتدرب » وهو تصحيف .

(٣) فى رسائل البلغاء « أخو دينار » وهو تحريف .

(٤) وفى رسائل البلغاء : « وأعجل عليه الإملال » وأمل عليه الكتاب بمعنى أملى .

يا حمار ، فقال له الكاتب : أصلح الله الأمير ، إنه لما هطَلَتْ شآبيب[1] الكلام ، وتدافعَتْ سيولُه على حرف القلم ، كَلَّ القلمُ عن إدراك ما وجب عليه تقييدُه ، فليتذكر الأمير عذرى ، فكان حضور جواب الكاتب أبلغ من بلاغة يزيد .

وقال له يوما وقد نطّ حرفا فى غير موضعه : ما هذا ؟ قال : طُغيان فى القلم .

وكلما احلَوْلَى الكلام وعذُبَ ورقّ وسَهُلت مخارجه ، كان أسهلَ وُلُوجا فى الأسماع ، وأشدّ اتصالاً بالقلوب ، وأخفّ على الأهواء ، ولا سيما إذا كان المعنى البديع مترجَما بلفظ مُونِق[2] شريف ، ومعبَّرا بكلام مؤلَّف رَشيق ، لم يشِنْه التكلُّف بميسمه[3] ، ولم يُفسِده التعقيد باستهلاكه ، كقول ابن أبى كَرِيمة :

قَفاه وَجْهٌ حَسَنٌ ، والذى قفاه وَجْهٌ يُشْبِه الشمسا

هجّن المعنى بتوعُّر مخارج الحروف ، وأخذه الحسن بن هانئ فسهَّله وقال : « بذّ[4] حُسْنَ الوجوه حُسْنُ قفاكا » وكلاهما من حسَّان حيث يقول :

قَفاؤك أحسنُ من وجهه وأمُّك خيرٌ من المُنْذِرِ[5]

وانظر إلى سلاسة الحسن بن سهل حيث قال :

شَرِسْتَ بل لِنْتَ بل قابلتَ ذاك بذا فأنت لاشكَّ فيك السهلُ والجبل

وكتب عيسى بن لَهِيعَة كتابا إلى أخيه أبى الحسن ، فعقّد كلامه ، وجاز المقدارَ فى التنطع ، فوقّع فى أسفل كتابه :

---

(١) شآبيب : جمع شؤبوب كعصفور ، وهى الدفعة من المطر .

(٢) أى معجب .

(٣) وسمه : أثر فيه بسمة ، أى علامة ، والميسم : الآلة التى يوسم بها .

(٤) بذ : فاق .

(٥) القفا قد يعد كما فى هذا البيت ، والعرب تؤنثه ، والتذكير أعم . وكان حسان بن ثابت زار الحرث ابن أبى شمر الغسانى — وكان النعمان بن المنذر يساميه — فقال الحرث لحسان : لقد نبئت أنك تفضل النعمان على ، فقال : وكيف أفضله عليك ؟ فو الله لقفاك أحسن من وجهه ، ولأمك أشرف من أبيه ، فى كلام كثير ، فقال له : هذا لا يسمع إلا فى شعر ، فنظمه فى أبيات منها هذا البيت — انظر ديوان حسان ص ١٨٢ ومروج الذهب ١ : ٢٩٩ .

أنَّى يكون بليغاً مَنِ اسْمُه كان عِيَّا
وثالثُ الحرف منه إذا كتبْتَ مُسِيًّا(١)

وبلغنى أن بعض الكتاب عاد بعض الملوك فوجده يئنّ من علّة ، فخرج من عنده ، ومر بباب الطاق ، وإذا بطير يدعى « الشفانين(٢) » فاشتراه وبعث به إليه ، وكتب كتابا يتنطّع فى بلاغته ، وذكر أنه يقال له شفانين ، وأرجو أن يكون شفاء من أنين ، فوقع فى أسفل الكتاب : « والله لو عطَسْتَ ضبًا لم تكن عندى إلا نَبَطِيًّا(٣) ، فأَقْصِر(٤) عن تنطُّعِك ، وسهِّل كلامك ، وفى هذا المعنى قال مَخْلَد المَوصِلىّ يهجو حبيب بن أوسٍ الطَّائى :

أنت عندى عربىٌّ ليس فى ذاك كلامْ
شَعْرُ ساقيْك وفخذَيْك خُزامَى وثُمام(٥)
وقَذَى عينيك صمغٌ ونَواصِيك شَبَام(٦)
وضُلُوع الصَّدر من شِلْوِك نَبْعٌ وبَشَام(٧)

---

(١) مسيا مسهل عن مسيئا بمعنى سيء ، يريد أن الشطر الثانى من اسمه « سى » يشبه رسمه رسم « سىء » .

(٢) عده الجاحظ فى أنواع الحمام ، وقيل : هو الذى تسميه العامة اليمام — انظر كلمة عنه « فى حياة الحيوان الكبرى » للدميرى ٢ : ٧٤ .

(٣) فسره فى العقد قال : « قوله : لو عطست ضبا : يريد أن الضباب من طعام الأعراب ، وفى بلدهم يقال : لو عطست فنثرت ضبا من عطاسك لم تلحق بالأعراب ولم تكن إلا نبطيا ، وقد جاء فى بعض الحديث : إن القط من نثرة عطسة الأسد ، وإن الفأر من نثرة عطسة الخنزير ، فقال هذا : لو أن الضب من نثرتك لم تكن إلا نبطيا » اهـ . والنبط : قوم كانوا ينزلون بالبطائح بين العراقين .

(٤) أى كف ، وفى الأصل « فأقصر عن بعضك » وهو تحريف .

(٥) الخزامى : نبت زهره أطيب الأزهار نفحة ، والثمام : نبت أيضا .

(٦) فى العقد « شمام » وهو محرف ، وأرى أن صوابه « شبام » وهو نبات يشب (أى يحسن) به لون الحناء .

(٧) الشلو : الجسد من كل شىء ، والنبع : شجر للقسى والسهام ، والبشام : شجر عطر الرائحة يستاك بقضبه .

لو تحرَّكْتَ كذا لانـــجفَلَتْ منــك نَعامْ[1]
وظِبـــاءٌ راتِعاتٌ وَيَرَابِيـــعُ عِظامْ[2]
وَحَمامٌ يتغَنـــنَّى حَبَّذا ذاك الحَمامْ
أنا ما ذَنبِيَ إنْ كَذْ ذَبنى فيــك الأنامْ
وقفاً يحلِفُ ما إن أعْرَقَتْ فيهِ الـكِرَامْ
ثم قالوا هـــاشِمِيٌّ من بَنِي الأنباط حامْ
كَذَبوا ما أنت إلاَّ عربِىٌّ والســـلامْ

وسألنى بعض أهل العلم أن أكتب له قِصَّةً إلى جعفر بن عبد الواحد القاضى ، وقال : اكتب لى قصّة سهلة بليغة الألفاظ ، فقلت له : دعنى أكتب لك ما يصلُح للقضاة ، فغضِب وقال : ما أسأل أن تعطيَنى شيئاً إنما أسألك هذا المعنى الرخيص ، فاحتملتُ عَتْبة الذِمَامِ[3] ، فكتبت له قصة لاتصلح أن تُدْفَع إلا لرُؤْبَة[4] بن العجّاج يقرؤُها أو الطِرِمَّاح[5] ، فلما حَصَلَتْ بيد القاضى أراد قراءتها فإذا هى مُغلَقَة عليه ، فقال له : أنت كتبت هذه القصة ؟ قال : نعم ، قال : إذن فاقرأها ، فذهب ليقرأها ، فإذا هى بالسُّودانية ، استعجاما عليه ، فقال له : أصلح الله القاضى ، إنما أقرؤها فى بيتى، فقال له : فاطلب حاجتك إذن فى بيتك ، فرجع إلىَّ غضبانَ أسِفاً يشتِمُ ويؤذى ،

---

(١) انجفل : أسرع الهرب .

(٢) اليرابيع : جمع يربوع بالفتح ، وهو دويبة نحو الفأرة لكن ذنبه وأذناه أطول منها، ورجلاه أطول من يديه ، عكس الزرافة .

(٣) الذمام : الحق والحرمة .

(٤) هو راجز مجيد مشهور كأبيه العجاج ، وكان بصيرا باللغة عالما بحوشيها وغريبها، وهو من مخضرمى الدولتين ، مدح بنى أمية وبنى العباس ومات سنة ١٤٥ هـ ـ انظر ترجمته فى الأغانى ٢١ : ٥٧ ، ووفيات الأعيان ١ : ١٨٧ ، والشعر والشعراء ص ٢٣٠ .

(٥) هو الطرماح بن حكيم ، شاعر أموى مشهور . قال رؤبة : كان الطرماح والكميت يصيران إلى فيسألانى عن الغريب ، فأخبرهما به ، فأراه بعد فى أشعارهما. وسئل ابن الأعرابى عن ثمانى عشرة مسألة كلها من غريب شعر الطرماح فلم يعرف منها واحدة ، يقول فى جميعها : لا أدرى لا أدرى ـ انظر ترجمته فى الأغانى ١٠ : ١٤٨ ، والشعر والشعراء ص ٢٢٨ .

وسألنى أن أكتب له قصة على ما أرَى ، فكتبت له كتاباً يُشْبه أن يكون من مِثله إلى القضاة ، فقرأه وقضى حاجته ، وعلم أنه لم يكتب واحدة منهما .

والكتاب إذا لم يكن شبيهاً بحالة[1] صاحبه ، كان أحد الأسباب المانعة ، والمعانى كلها ممتَثَلَة ، والكلام مُشْبَع[2] ، ولكن سياسته صعبة ، وتأليفه شديد ، إلا عَلَى جَهَابذته وفُرسانه أمراء الكلام ، يصرِّفونه كيف شاءوا ، ولا يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ، ولفظه معناه ، ويكون اللفظ أسبَقَ إلى الأسماع من معناه إلى القلوب[3] .

قال الجاحظ : كان لفظُه فى وزن إشارته ، وَطَبْعُهُ فى معناه فى مطابقة معناه .

وذكر الحسن بن وهب أحمد بن يوسف فقال : ما كنت أدرى: أَلَفْظُه آنَقُ أم معناه، أوْ مَعْناهُ أجْزَلُ أم لفظه ؟

والمعانى وإن كانت كامنةً فى الصدور ، فإنها مصوَّرة فيها ومتَّصلة بها ، وهى كاللآلئ المنطوية[4] فى أصدافها ، والنار المخبوءة فى أحجارها ، فإن أظهرتها من أكنانها[5] وأصدافها ، تَبيَّن حُسْنها ، وإن قدَحْتَ النار من مَكامنها وأحجارها انتفعت بها ، وإلاّ بقيَتْ محجوبة مستورة ، وربما يُستثار الكامن منها ، ويُسْتَخرَج المستَسِرُ[6] من جواهرها ، بقدر حِذْق المستنبِط ، وصواب حركات المستخرِج ، وقصْدِ إشارته ، ولطف مذاهبه ، وكذلك ليس كل ناطق ولا كاتب يوضح عن المعنى ، ولا يصيب إشارته ، وكلما كان الكلام أفصح ، والبيان أوضح ، كان أدلَّ

---

(١) فى الأصل « بحاجة » وأراه محرفا .

(٢) امتثله : تصوره حتى كأنه ينظر إليه ، ومشبع من قولهم : رجل مشبع العقل بفتح الباء أى وافره ، وفى الأصل « مشبعا » وهو تحريف .

(٣) وجاء فى نهاية الأرب ٧ : ٨ « وقالوا : لايستحق الكلام اسم البلاغة حتى يكون معناه إلى قلبك أسبق من لفظه إلى سمعك » .

(٤) فى الأصل « المنظومة » وهو تحريف .

(٥) الأكنان : جمع كن ، وهو الستر ، بالكسر ، فيهما .

(٦) استسر : استتر وخفى .

على حسن وجه المعنى ، وقد رأيتهم شبهوا المعنى الخفيّ بالرُّوح الخفي ، واللفظ الظاهر بالجُثْمان الظاهر ، وإذا لم ينهض بالمعنى الشريف لفظ شريف جَزْل ، لم تكن العبارة واضحة ، ولا النظام متَّسقاً ، وتضاءل المعنى الحسن تحت اللفظ القبيح ، كتضاؤل الحسناء في الأطمار[١] الرَّثَّة .

وإنما يدل على المعنى أربعةُ أصناف : لفظ ، وإشارة ، وعُقَد وخَطٌّ ، وقد ذكر أرسطاطاليس صنفاً خامساً في كتاب المنطق ، وهو الذي يسمى النَّصْبة ، والنَّصْبةُ : الحالُ الدّالة التي تقوم مقام تلك الأصناف الأربعة ، وهي الناطقة بغير لفظ ، والمشيرة إليه بغير يد ، وذلك ظاهرٌ في خلق السمٰوات والأرض ، وفي كل صامت وناطق ، وهي داخلة في جملة هذه المعاني الأربعة ، وخارجة منها بالِحْلية ، ولكل واحدة من هذه الدلائل صورة مخالفة لصورة صاحبتها ، وحِلْية غير مُشاكلة لحلية أختها، غير أنها في الجملة كاشفة عن أعيان المعاني ، وسافرة[٢] عن وجوهها[٣] . وأوضح هذه الدلائل ، وأفصح هذه الأصناف ، صنفان منها ، وهما اللسان والقلم ، وكلاهما يترجمان ويدلان على القلب ، ويستمليان منه ، ويؤديان عنه ما لا تؤدى هذه الأصناف الباقية . فأما اللسان فهو الآلة التي يخرج الإنسان بها عن حد الأستبهام إلى حد الإنسانية بالكلام ، ولذلك قال صاحب المنطق : حَدّ الإنسان : الحي الناطق . وقال هشام ابن عبد الملك « إن الله رفع درجة اللسان فأنطقه من بين الجوارح بتوحيده ، وما جعل اللهُ مَن عبَّر عن شيء مثلَ من لم يعبِّر عنه » . وقال على بن عَبْدة : « إنما يُبين عن الإنسان اللسان ، وعن المودّة العينان » . وقال آخر: « الرجل مخبوء تحت لسانه[٤] » . وقالوا « المرء بأصغرَيه : قلبه ولسانه » .

---

(١) الأطمار : جمع طمر بالكسر ، وهو الثوب الخلق .

(٢) أى كاشفة أيضا .

(٣) وقد عقد الجاحظ فصلا طويلا في الكلام على أصناف الدلالات على المعاني ــ انظر باب البيان من كتابه البيان والتبيين ج ١ : ص ٤٢ .

(٤) من الحكم المروية عن الإمام على كرم الله وجهه « المرء مخبوء تحت لسانه » .

وقال الشاعر :

وما المرء إلا الأصغران ، لسانُه ومعقولُه ، والجسمُ خَلْق مصوَّرٌ
فإن تَرَها راقتْك يوما ، فربَّما أمَرَّ مَذاقُ العُودِ والعودُ أخضر[1]

وقال الأعور التَّيمى[2] :

لسان الفَتى نصفٌ ونِصْفٌ فؤادُه فلم يبقَ إلا صورةُ اللحم والدم

وقال آخر :

إن الكلام لفى الفؤاد وإنما جُعل اللسان على الفؤاد دليلا

وقال الطائى :

ومما كانت الحكماء قالت لسان المرء مِن خَدَم الفؤاد

وللخط صورة معروفة ، وحلية موصوفة ، وفضيلة بارعة ، ليست لهذه الأوصاف ، لأنه ينوب عنها فى الإيضاح عند المَشهَد ، ويفضُلُها فى المَغيب ؛ لأن الكتب تُقرأ فى الأماكن المتباينة ، والبُلدان المتفرقة ، وتُدْرَس فى كل عصر وزمان ، وبكل لسان ، واللسان وإن كان ذَلِقا فصيحاً لا يعدُو سامعه ، ولا يجاوزه إلى غيره ، وكفى بفضيلة العلم والخط قول الله عز وجل : « الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » وأقسَمَ[3] به كما أقسم بغيره[4] ، ثم أقسم بما يكتبه القلم ، إفصاحاً عن حاله ، وإعظاماً لشأنه ، وتنبيهاً لذكره ، فقال : « وَمَا يَسْطُرُونَ » . ومن فضيلة الخط : أنه لسان اليد ، ورسول الضمير[5] ودليل الإرادة ، والناطق عن الخواطر ، وسَفير العقول ، وَوَحْى الفِكْر ، وسلاح المعرفة ، ومحادثة الأخِلَّاء على التنائى ، وأُنْسُ الإخوان عند الفُرقة ، ومستودَع

---

(١) الضمير يعود على مفهوم من السياق : أى صورته .

(٢) وفى رواية الزوزنى أن هذا البيت لزهير بن أبى سلمى من معلقته .

(٣) قال تعالى : « ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ » .

(٤) من السماء والطارق والفجر والشمس والليل والضحى والتين والزيتون . . . الخ مما ورد فى القرآن ، والآيات فى ذلك معروفة .

(٥) وفى العقد والصبح ونهاية الأرب « وبهجة الضمير » .

الأسرار ، وديوان الأمور ، وترْجُمان القلوب ، والمعبِّر عن النفوس ، والمُخْبِر عن الخواطر ، ومُوَرِّث الآخِرِ مكارمَ الأوّل ، والناقل إليه مآثِرَ الماضى ، والمخلِّد له حكمَتَه وعلمَه ، والمُسامِرُ للعين بسِرِّ القلب ، والمخاطِب عن الناصت[1] ، والمجادل عن الساكت ، والمُفْصِح عن الأبكم ، والمتكلِّم عن الأخرس ، الذى تشهدُ له آثاره بفضائله ، وأخبارُه بمناقبه .

وقد وضعت البلاغةُ من القلم[2] علوَّ القدر ، وباذخ[3] العز ، كأبى مُسْلِم صاحب الدولة : فرّقت شملَه ، وبدّدت جمْعَه ، ونقضَت بَرْمَه[4] ، وأفسدت صلاحَه ، وضعْضعَت بُنْيانه ، مع ذكائه وتفطّنه ، ومكايده ودهائه ، وأصالة رأيه وشدة شَكيمته[5] ، وامتناعه على أبى جعفر ونِفاره عنه ، كيف استفزّه ابنُ المقفع ، وصالح بن عبد القُدُّوس ، وجَبَل بن يزيد ، واستمالوه بسحر ألفاظهم ، وبلاغة أقلامهم ، حتى نزل من باذِخ عزه ، وجاء مبادِراً حتى وقع فى الشَّرَكِ المنصوب له ، فتفرّق جمعُه ، وانطفأ نُوره ، وصار خَبَرًا سائراً ، ورَسْما دائراً[6] .

ورَفَع القلمُ خاشِع الطَّرْفِ ، صغير الخطَر[7] ، لئيم الجِنس ، دَرَجَ من عُشِّ التُّجّار ، ونشأ بين المِكْيال والميزان ، كيف شالت[8] البلاغة بِضَبْعيه ، ورفعت من ناظريه ، حتى شافهت به عنانَ السماء ، ورَفَعَتْ بناءه فوق البناء ، حتى طَلَبه الراكب ، وقصَده الطالب ، وخشَعَت له الرجال ، ولحظَتْه العيون بالوَقار ، وتمكّن من الصنائع ،

---

(١) نصت كضرب ، وأنصت : سكت .

(٢) فى رسائل البلغاء : « وقد وقعت البلاغة من العلم » وهو تحريف .

(٣) الباذخ : العالى .

(٤) يقال برم الحبل برما وأبرمه إبراما .

(٥) الشكيمة : الأنفة .

(٦) أى دارسا ممحوا .

(٧) الخطر : القدر .

(٨) أشال الحجر ، وشال به يشول شولا : رفعه ، فانشال هو — ولا يقال شلت بالكسر — والضبع . العضد كلها أو وسطها ، والعنان . السحاب واحدته عنانة .

ومُدَّت نحوه الأصابعُ ، فشُكِرَت منهُ اللَّفظةُ ، ورُجِيت منه اللَّحظة ، كمحمد(١) ابن عبد الملك بن الزيات ، وفيه يقول على بن الجهْم(٢) :

أحْسَنُ من عشرين بيتاً سُدًى جَمْعُك معنـــاهنَّ فى بيتِ

ما أحوَجَ المُلْكَ إلى مَطْرةٍ تغسِلُ عنـــه وَضَرَ الزيتِ(٣)

فأجابه محمد بن عبد الملك :

رَقيتَ فى القول إلى خُطَّةٍ قَدْرَكَ فيها قد تعدَّيْتَ

---

(١) كان جده أبان يجلب الزيت من مواضعه إلى بغداد ويتجر فيه ، وكان أبوعبد الملك تاجراً من مياسير التجار بالكرخ (محلة ببغداد) فكان يحثه على التجارة ، وملازمتها ، فيأبى إلا الكتابة ، وطلبها ، وقصد المعالى حتى بلغ مرتبة الوزارة كما قدمنا ، و كان فى أول أمره من جلة الكتاب، وسبب تقدمه أن المعتصم ورد عليه كتاب من بعض العمال ، فقرأه عليه وزيره أحمد بن عمار بن شاذى البصرى، وكان فى الكتاب ذكر الكلأ ، فقال له المعتصم : ما الكلأ ؟ فقال لا أدرى — و كان قليل المعرفة بالأدب — فقال المعتصم : خليفة أمى ووزير عامى ! — وكان المعتصم ضعيف الكتابة — ثم قال : أبصروا من بالباب من الكتاب ؟ فوجدوا ابن الزيات المذكور فأدخلوه إليه ، فقال له : ما الكلأ ؟ فقال : الكلأ العشب على الإطلاق، فإن كان رطبا فهو الخلا، فإذا يبس فهو الحشيش، وشرع فى تقسيم أنواع النبات، فعلم المعتصم فضله فاستوزره وحكمه وبسط يده — انظر الأغانى ٢٠ : ٤٦ ووفيات الأعيان ٢ : ٥٤ ، والفخرى ص ٢١٣ ، وغرر الخصائص الواضحة ص ١٤٣ .

(٢) شاعر عباسى مشهور ، توفى سنة ٢٤٩ — انظر ترجمته فى الأغانى ٩ : ٩٩ ،ووفيات الأعيان ١ : ٣٤٩ .

(٣) الوضر : وسخ الدسم ، وفى العقد الفريد (٣ : ١١١) : « وقال محمد بن الجهم يهجوا ابن الزيات : أحسن من سبعين بيتا . . . » وجاء فى الأغانى (٢٠ : ٥١) . « كان محمد بن عبد الملك يعادى أحمد بن أبى دواد ويهجوه ، فكان أحمد يجمع الشعراء ويحرضهم على هجائه ويصلهم ، ثم قال فيه أحمد بيتين كانا أجود ماهجيا به ، وهما : أحسن من خمسين بيتا . . . » وفى وفيات الأعيان : (٢ : ٥٦) « وكان ابن الزيات قد هجا ابن أبى دواد بتسعين بيتا ، فعمل القاضى أحمد فيه بيتين وهما : أحسن من تسعين بيتا . . . » وجاء فيه أيضا(١ : ٢٥) « وهجا بعض الشعراء ابن الزيات بقصيدة عدد أبياتها سبعون بيتا ، فبلغ خبرها القاضى أحمد فقال . . . فبلغ ابن الزيات ذلك — ويقال : إن بعض أجداد القاضى أحمد كان يبيع القار (الزفت) — فقال :

ياذا الذى يطمع فى هجونا عرضت بى نفسك للموت

الزيت لايزرى بأحسابنا أحسابنـا معروفة البيت

قيرتم الملك فلم تنقه حتى غسلنا القار بالزيت

وقيره : أطلاه بالقار .

قَيَّرتمُ المُلْكَ فلم نُنْقِهِ حتى غسَلْنا القارَ بالزَّيْتِ[١]

وقال حبيب بن أوس يمدحه ويصف قلمه :

لك القلَمُ الأعلى الذى بشَبَاتِه تُصابُ من الأمرِ الكُلَى والمَفاصِلُ[٢]

وكان محمد من ألطف الناس ذِهناً ، وأرَقِّهِمْ طبعاً ، وأصدقهم حِسًّا ، وأرْشَقِهم قلماً ، وأملَحِهم إشارةً ، إذا قال أصاب ، وإذا كتب أبْلَغ ، وإذا شَعَر[٣] أحسن ، وإذا اختصر أغنى عن الإطالة : أمره الواثق أن يتلطف بعبد الله بن طاهر ، ويُعلمه أنه صرفه عن أمر الجزائر والعواصم[٤] ، وفوَّضَ ذلك لابن عمه إسحٰق بن إبراهيم ، فكتب :

« أما بعد ، فإن أمير المؤمنين رأى أن يخلع ما فى يمينك ، من أمر الجزائر والعواصم ، فيجعله فى شِمالك ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته[٥] » .

وقال سهل بن بَرَكة يهجو أبا نوح النصرانى الكاتب :

بأبِى وأمِّى ، ضاعت الأحلامُ أم ضاعت الأذهان والأفهامُ ؟[٦]

مَن صَدَّ عن دين النبى محمدٍ أَلَهُ بأمر المسلمين قِيامُ ؟

إلاَّ تكن أسيافُهم مشهورةً فينا ، فتلك سيوفُهم أقلامُ

---

(١) البيتان على هذه الرواية فيهما عيب شعرى وهو الإصراف ، لأن حركة روى البيت الأول فتحة ، وحركة روى البيت الثانى كسرة .

(٢) الشباة : حد كل شىء ، وهذا البيت هو الأول من أبيات تسعة مشهورة ـ انظرها ، فى العقد الفريد ٢ : ١٧٩ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٥ ، وصبح الأعشى ٢ : ٤٤٨ ، وأدب الكتاب ص٧٥ وزهر الآداب ٢ : ٣٥ .

(٣) شعر كنصر وكرم قال شعراً ، أو شعر بالفتح : قال شعراً ، وشعر بالضم : أجاده .

(٤) العواصم : ولاية كانت قصبتها أنطاكية .

(٥) ليس ابن الزيات فى هذا المعنى بمبدع ، بل اقتبسه من يحيى بن خالد البرمكى ـ انظر ما قدمناه فى ص ١٥٥ من الجزء الثالث .

(٦) الأحلام : العقول .

وقال عبد الرحمن بن كَيْسان : « استعمال الكلام أجدر بإحضار الذهن عند تصحيح الكتاب من استعمال اللسان على تصحيح الكلام[1] » .

ولم يُخْتَلَف فى شرف القلم ، وإنما اختُلِف فى كيفية البلاغة وما هيَّتها ، وقد مدحها كل قوم بأوضح عبارتهم ، وأحسن بيانهم ، فقال صاحب اليونانيين : « البلاغة تصحيح الأقسام ، واختيار الكلام » وقال الرومى : « البلاغة وضوح الدلالة ، وانتهاز الفرصة ، وحسن الإشارة[2] » وقال الفارسى[3] : « هى معرفة الفصل من الوصل » وقال الهندى : « هى البصر بالحجة ، والمعرفة بمواضع الفرصة ، ثم أن تَدَع الإفصاح بها إلى الكناية عنها ، إذا كان الإفصاح أوعرَ طريقاً ، وربما كان الإطراق عنها أبلغ فى الدَّرْك ، وأحقَّ بالظفر » وقال غيره : « جِماعُ البلاغة التماس حسن الموقع ، والمعرفة بساعات القول ، والحِذق بما التبس من المعانى وغمُض ، وبما شَرَد عليك من اللفظ وتعذَّر » ثم قال : « وزَيْنُ ذلك كلّه وبهاؤه ، وحلاوته وسَناؤه ، أن تكون الشمائل معتدلة ، والألفاظ موزونة ، واللهجة نقية ، فإنْ جامَعَ ذلك السِّنُّ والسَّمْتُ[4] والجمال وطول الصمت ، فقد تم كل التمام[5] » .

وقيل لهندى ما البلاغة ؟ فأخرج صحيفة مكتوبة عندهم فيها[6] : « أول البلاغة

---

(١) وفى البيان والتبيين ١ : ٤٥ «وقال عبد الرحمن بن كيسان: استعمال القلم أجدر أن يحض الذهن على تصحيح الكتاب من استعمال اللسان على تصحيح الكلام » .

(٢) وفى البيان والتبيين ١ : ٤٩ « وقيل للرومى : ما البلاغة ؟ قال : حسن الاقتضاب عند البداهة ، والغزارة يوم الإطالة ، وقيل للهندى : ما البلاغة ؟ قال : وضوح الدلالة ، وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة » (وكذا فى زهر الآداب ١ : ١٣٥) . قال الجاحظ : وقال بعض أهل الهند : « جماع البلاغة البصر بالحجة . . . . » .

(٣) يعنى أبا على الفارسى .

(٤) السمت : هيئة أهل الخير .

(٥) انظر البيان والتبيين ١ : ٤٩ .

(٦) جاء فى البيان والتبيين (١ : ٥١) « قال معمر أبو الأشعث : قلت لبهلة الهندى أيام اجتلب يحيى بن خالد أطباء الهند ، ما البلاغة عند أهل الهند ؟ قال بهلة : عندنا فى ذلك صحيفة مكتوبة ولكنى لا أحسن ترجمتها لك ، ولم أعالج هذه الصناعة فأثق من نفسى بالقيام بخصائصها ، وتلخيص لطائف معانيها ، قال أبو الأشعث : فلقيت بتلك الصحيفة التراجمة ، فإذا فيها : أول البلاغة اجتماع . . . . . » انظر أيضا زهر الآداب ١ : ١٢٠ .

الجماع[1] آلة البلاغة ، وذلك أن يكون البليغ رابطَ الجأش[2] ، ساكن الجوارح ، قليل اللحظ ، متخيِّر اللفظ ، لا يكلِّم سيد الأمة بكلام الأمة ، ولا الملوكَ بكلام السُّوقة ويكون فى قواه فَضْلُ التصرف فى كل طبقة ، ولا يدقِّق المعانى كلَّ التدقيق ، ولا ينقِّح الألفاظ كل التنقيح ، ولا يصفِّيها كل التصفية[3] ، ولا يهذِّبها غاية التهذيب ، ولا يكون كذلك حتى يصادفَ فيلسوفاً حكيما عليما ، ومَن قد تعوَّد حذفَ فضل الكلام ، وأسقط مشتَرك اللفظ »[4] وقال أنو شِرْوان لبُزُرْجَمِهْرَ[5] : متى يكون العيىُّ بليغاً ؟ فقال : إذا وصف بليغاً ، وقال أرسطاطاليس: «البلاغة حسن الاستعارة» وقال بشر بن خالد[6] : « البلاغة التقربُ من المعنى البعيد ، والتباعُدُ عن خسيس الكلام ، والدلالة بالقليل على الكثير » وقال خالد بن صَفْوان : « ليس البلاغة بخِفَّة اللسان ، ولا بكثرة الهَذَيان ، ولكنها إصابةُ المعنى ، والقَرْعُ بالحُجَّة » وقال عمر بنَ عبد العزيز : « البليغ مَن إذا وجد كثيرا مَلأه ، وإذا وجد قليلا كفاه » ، وقال ابن عُتبة : « البلاغة دُنُوّ المآخِذ ، وقَرْعُ الحجة ، والاستغناء بالقليل عن الكثير » وقال بعضهم : « إنى لأكره للإنسان أن يكون مقدار لسانه فاضلا عن مقدار عقله ، كما أكره أن يكون مقدار عقله فاضلا عن مقدار لسانه وعلمه ، يكفى من حظ البلاغة

---

(١) فى رسائل البلغاء « احتمال » .

(٢) الجأش : رواع القلب إذا اضطرب من الفزع ، ونفس الإنسان . وربط جأشه رباطة (بالكسر) اشتد قلبه .

(٣) فى رسائل البلغاء « ويصفيها كل التصفية » .

(٤) جاء فى البيان والتبيين ، وزهر الآداب عقب ذلك « قد نظر فى صناعة المنطق على جهة الصناعة والمبالغة ، لا على جهة التصفح والاعتراض . ووجه التطرف والاستطراف » .

(٥) بزرجمهر : مركب من بزرج معرب بزرك أى الكبير ، ومهر : أى الروح ، وهو : بزرجمهر ابن البختكان وزير كسرى أنو شروان ملك الفرس ، وكان سديد الفكر حصيف الرأى .

(٦) وفى العقد « جعفر بن خالد » وفى زهر الآداب ١ : ١٣٤ « قال أعرابى : البلاغة التقرب من البعيد ، والتباعد من الكلفة ، والدلالة بقليل على كثير » .

أن لا يُؤتَى السامعُ من سوء إفهام الناطق ، ولا يؤتى الناطق من سوء فهم السامع[١] » وقيل لعمرو بن عُبَيد[٢] : ما البلاغة ؟ فقال : « ما بلَّغك الجنَّة ، وعَدَل بك عن النار ، وما بصَّرك بمواقع رشدك ، وعواقب غيِّك ، فقال السائل : ليس هذا أريد ، فقال : من لم يُحْسِن أن يَسكت لم يُحْسِن أن يستمع ، ومن لم يحسن الاستماع لم يُحْسِن القول[٣] ، قال : ليس هذا أريد : قال : قال النبي عليه الصلاة والسلام : « إنا معاشرَ الأنبياء بِكَاء »[٤] وكانوا يكرهون أن يزيد منطِقُ الرجل على عقله ، فقال له السائل : ليس هذا أريد ، قال : كانوا يخافون من فتنة القول ومن سَقَطات الكلام ، مالا يخافون من فتنة السكوت وسَقَطات الصَّمْت[٥] ، فقال : ليس هذا أريد ، فقال : فكأنك إنما تريد تخيُّر اللفظ فى حسن إفهام ، قال : نعم ، قال : إنك إن أردت تقرير حجة الله فى عقول المكلَّفين[٦] ، وتخفيفَ المئُونة على المستمعين ، وتزيين تلك المعانى فى قلوب المريدين[٧] ، بالألفاظ المستحسنة فى الآذان ، المقبولة عند الأذهان ، رغبةً فى سرعة استجابتهم ، ونفى الشواغل عن قلوبهم ، بالموعظة الحسنة الناطقة عن الكتاب والسنة ،

---

(١) جاء فى البيان والتبيين ١ : ٤٩ « قال الإمام إبراهيم بن محمد : يكفى من حظ البلاغة . . . . الخ » انظر أيضا زهر الآداب ١ : ١٣٤ ، وفى نهاية الأرب ٧ : ٧ « وقيل لآخر ما البلاغة ؟ قال: ألا يؤتى القائل من سوء فهم السامع ، ولا يؤتى السامع من سوء بيان القائل » .

(٢) وردت هذه المحاورة فى زهر الآداب ١ : ١١٧ ، ونهاية الأرب ٧ : ٧ ، وعمرو بن عبيد ابن باب : إمام من أئمة المعتزلة توفى سنة ١٤٤ — انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١: ٣٨٤ .

(٣) وفى نهاية الأرب : « قال: من لم يحسن أن يسكت لم يحسن أن يسمع ، ومن لم يحسن أن يسمع لم يحسن أن يسأل ، ومن لم يحسن أن يسأل لم يحسن أن يقول » .

(٤) بكأ الرجل بكاءة بالفتح فهو بكىء، من قوم بالكسر : قل كلامه خلقة، وأصله من بكأت الناقة والشاة كجعل وكرم بكئا وبكاءة بالفتح فيهما ، وبكوءا وبكاء بالضم فيهما ، فهى بكىء وبكيئة : إذا قل لبنهـ ـ وفى الحديث « إنا معشر النبآء بكاء » وفى رواية « نحن معاشر الأنبياء فينا بكء وبكاء» بالضم أى قلة كلام إلا فيما نحتاج إليه — انظر لسان العرب والقاموس مادة بكأ .

(٥) فى رسائل البلغاء « قال كانوا يخافون من فتنة السكوت وسقطات الصمت » والتصحيح من زهر الآداب .

(٦) وفى نهاية الأرب « المتكلمين » .

(٧) وفيه « المستفهمين » .

كنت قد أُوتيتَ فَصْلَ الخطاب ، واستوجبت من الله سبحانه جزيلَ الثواب[1] .

وقال الخليل بن أحمد : كلُّ ما أدَّى إلى قضاء الحاجة فهو بلاغة ، فإن استطعت أن يكون لفظُك لمعناك طِبْقاً ، ولتلك الحال وَفْقاً ، وَآخِر كلامك لأوله مشابها ، وموارِدُه لمَصَادره مُوازِناً فافعلْ ، واحرِصْ أن تـكون لـكلامك متَّهِما ، وإن ظَرُف ولنظامك مستريبا وإن لطُف . بمواتاة[2] آلتك لك ، وتصرُّف إرادتك معك ، فافعل إن شاء الله .

وهذه الرسالة عذراء ، لأنها بِكْر معانٍ لم تفترعْها بلاغةُ الناطقين ، ولا لَمَسَتْها أكُفُّ المفوَّهين ، ولا غاصت عليها فِطَن المتكلمين ، ولا سبق إلى ألفاظها أذهان الناطقين ، فاجعلها مثالاً بين عينيك ، ومصوَّرة بين يديك ، ومسامِرةً لك فى ليلك ونهارك ، تهطِلْ عليك شآبيبُ منافعها ، ويُظِلّك منها بر كاتُها ، وتُورِدك مناهلَ بلاغاتها ، وتدلك على مَهْيَع[3] رشدها ، وتُصْدِرك وقد نُقِـع[4] ظمؤك بينابيع بحر إحسانها إن شاء الله عز وجل ، والحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم[5] » . (وسائل البلغاء ص ١٧٦ ، والعقد الفريد ٢ : ١٧١)

---

(١) وجاء فى زهر الآداب عقب ذلك : « فقيل لعبد الـكريم بن روح الغفارى : من هذا الذى صبر له عمرو هذا الصبر ؟ قال : سألت عن ذلك أبا حفص الشمرى فقال : ومن يجترىء عليه هذه الجراءة إلا حفص بن سالم ؟ » أقول: وحفص هذا هو أحد دعاة المعتزلة الذين أنفذهم واصل بن عطاء إلى الآفاق ، وبثهم فى البلاد ، لنشر مذهب الاعتزال ، وقد بعثه واصل إلى خراسان — انظر المنية والأمل ص ١٩ » والبيان والتبيين ١ : ١٤ .

(٢) المواتاة : الموافقة والمطاوعة . (٣) طريق مهيع : أى بين .

(٤) نقع الماء العطش كقطع: سكـنه، وفى المثل « الرشف أنقع » أى إن الشراب الذى يترشف قليلا قليلا أقطع للعطاش وأنجع ، وإن كان فيه بطء ، مثل يضرب فى ترك العجلة .

(٥) ذكر الأستاذ كرد على فى رسائل البلغاء أنه نقل هذه الرسالة من مجموع قديم من كتب الشيخ طاهر الجزائرى ، وقد أورد صاحب العقد الفريد نحواً من شطرها فى باب أدوات الـكتابة ، وأخبار الـكتاب ، غير أنه لم يوردها على النمط الذى ورد فى رسائل البلغاء، بل تصرف فيها كثيراً بالحذف والزيادة والتقديم والتأخير ، وتراه يلقب إبراهيم بن محمد بن المدبر كاتبها بالشيبانى ، فيقول : قال إبرهيم بن محمد الشيبانى . . . . وأورد القلقشندى فى صبح الأعشى. فقرأ منها — انظر ج ٢ : ص ٤٥٧ و ج ٣ . ص ٦، وكذا النويرى فى نهاية الأرب — انظر ج ٧ ص: ١٢ ، ١٣ ، ١٩ وكلاهما يلقبه بالشيبانى أيضاً ، والظاهر أنه ينتمى إلى شيبان بالولاء .

١٣١ - كتاب محمد بن مكرم إلى إبراهيم بن المدبر

وكتب محمد[1] بن مكرّم إلى إبراهيم بن المدبر .

« الحمد لله رب العالمين ، حَمْدا يجُوز حَمْدَ الحامدين ، الذى جعل قضاءه خِيَرَةً لك ، فإن زادك نعمةً وفّقك لشكرها ، وإن امتحنك ببلوَى من نَفْثِ[2] حاسدٍ ، أو كيدِ كائدٍ ، أنار برهانَكَ ، وأفلجَ[3] حُجَّتَك ، وجَمَع بين وَلِيِّك وعدوِّك فى الشهادة لك ، وإن نقَل أمرًا عن يدك فربما يَرْجِعه إليك مختَلاً لِفَقْدِك ، هذا إلى ما جعل عندك من خواصِّ النعم التى إن ذكرناها فأطنَبْنا ، أو تجوّزْنا فقصّرْنا ، كان غايتنا إلى الحُسُور[4] دون مَدَى غايتك ، وقد زادك الله بهذا الحادث فضلا عظيما ، لِمَا ظَهَر من وَلَه العامة إليك ، وتطلُّعها إلى ما كانت فيه ، من لِين إنصافك وكريم أخلاقك ، ووَحْشَةِ الخاصّةِ لِمَا فَقَدَتْ من حسن معاملتك ، وكثير تفضُّلك ، وأيقنَ أهل الرأى والتأمل لصفَحات الأمور أنّ كل ما خرج عنك فعائدٌ إليك ، ومتصلٌ به غيرُه ، حتى تستقرّ فى يدك عُرَا الأمور ومَعَاقِدُها ، وتُفْتَح برأيك وتدبيرك أبوابُها ومَغالقُها ، فليَهْنِئْك أن كلّ ما زاد غيرَك نقصاً ، زادك فضلا ، وكلّ ما نقصَ من الرجال وحطّها ، ألحقَ بك شرفا فزادك الله وزادنا منك ، وجعلنا ممن يَقْبَلُه رأيك ، ويقدِّمه اختيارُك ، ويقَعُ من الأمور بموافقتك ، ويجرِى منها على سبيل طاعتك » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠١)

---

(١) كاتب بليغ مترسل ، وكان بينه وبين أبى العيناء مداعبات ، انظر أخباره فى الفهرست لابن النديم ص ١٧٩ ، وفى خلال ترجمة أبى العيناء فى وفيات الأعيان وزهر الآداب كما قدمنا .

(٢) النفث شبيه بالنفخ ، والمعنى مما يصدر عن الحاسد .

(٣) أى نصرها .

(٤) الحسور : الكلال والانقطاع .

١٣٢ — كتابه إلى أحمد بن المدبر

وكتب ابن مكرَّم إلى أحمد بن المدبَّر :

« إن جميع أكفائك ونُظَرائك يتنازعون الفضلَ ، فإذا انتهوْا إليك أقرّوا لك ، ويتنافسون المنازلَ ، فإذا بلغوك وقَفُوا دونَك ، فزادك اللهُ وزادنا بك وفيك ، وَجعَلَنا ممن يقبَلُه رأيُك ، ويقدِّمه اختيارك ، ويقع من الأمور بموقع موافقتك ، ويجرى فيها على سبيل طاعتك » . (العقد الفريد ٢ : ١٩٦)

١٣٣ — كتابه إلى أحمد بن دينار

وكتب محمد بن مكرَّم إلى أحمد بن دينار يعزيه بأخيه :

« الذى حرَّكنى للكتاب أيها الأميرُ تعزيتك بمن لا ترَميك الأيامُ بمثلِ الحادثِ فيه ، ولا تعتاضُ مما كان الله جمعه لك عنده ، من الميل إليك ، والاستباق(١) فى صفوك ، والصبرِ على مكروه جفائك ، مع ما كان الله أعاره من قوة العقل ، وأصالة الرأى ، ومَدَّ له من عِنانه إلى قُصْوى غايات أمله ورجائه، أبى محمد رضى الله عنه، وإنا لله وإنا إليه راجعون ، على ما أفاتَتْنا الأيامُ منه حين تمَّ واستوى ، وعالَى فى الثروة وتناهَى ، وعند الله أحتسِبُ المُصابَ به ، وعظَّم الله لك الأجرَ ، وأجزل لك العِوَضَ والذُّخر ، فكل ماضٍ من أهلك فأنت سِدادُ ثُلْمته ، وجابرُ رزيَّته، والمُؤنِس من وَحْشته وفقْده ، وقد خلف مَن أنت أحقُّ الناس به : مِن عجوز وَليَتْ تربيتَك(٢) وحِياطتَك فى طَبَقات سِنِّك ، ووَلَدٍ رُبُّوا فى حِجْرك ، ونَبتُوا فى حوْزتك ، وليس لهم بعد الله مَرجِعٌ سواك ، ولا مَقِيلَ إلا فى ظلِّك وذَرَاك(٣) ، فأَنْشُدُك اللهَ فيهم ، فإنه

---

(١) فى الأصل « الإساق » وهو تحريف .

(٢) فى الأصل « فرسك » .

(٣) الذرى . الظل ، يقال : أنا فى ذراه : أى فى كنفه وستره .

رضى الله عنه أخرَجَهم بعمارة مُرُوءته ، وقطعَهم بصِلة[1] فضله ، فالله يَجزيه بجميل أثره ، ويُخلِف عليهم ما هو أهله ، فإنْ رأى الأمير أن يضمَّهم إليه ، ويحقِّق ثقةَ أبيهم كانت به ، ويُجرِيَ على أمِّه ما يقوم بعِصْمتها وصيانتها ، فعَل إن شاء الله » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣١٨)

١٣٤ — كتابه إلى أحمد بن دينار

وكتب إلى أحمد بن دينار :

« نحن من السرور أيها الأميرُ بما قد استفاض من جَميل أثَرك فيما تَلِى من أعمالك ، وزَمِّكَ إياها بحَزْمك وعزمك ، وانتياشِكَ[2] أهلَها مِن جوْرِ مَن وَلِيَهم قبلك ، وسرورهم بتطاوُل أيامك ، والكَوْنِ فى ظلِّ يدك وجَناحك ، فى إعانةِ مَن تخُصُّه وتَعُمُّه نِعْمَتُك ، وتحول به الحَوْلُ حيث حالت بك ، فالحمد لله الذى جعل العاقبة لك ، ولم يرُدُدْ علينا آمالنا فيك منكوسةً ، كما رَدَّها على غيرنا فى غيرك ، ولوَدِدْتُ أن أباك كان عايَن آثارَك هذه ومناقِبَك ، وإن كان الافتراقُ لم يقع بينكما حتى عَلِم أنك خَلَفُه ، وألقى إليك بأمره ومَعاقِدِ ثِقَتِه ، وجعلك موضِعَ اختصاصه وأثَرَتِه ، وصَرَف ذلك عمن كان لايستحقه ، وذمَّ سالِفَ رأيه فيك وفيه ، وحمِد آخِرَه ، ثم نعمة اتصلَتْ لك بما قبلها ، انتظمَتْ بها أمورُك فاعتدلَتْ ، وتلاحَمَتْ عليها واتَّسقَتْ : ما مُنِحْتَ فى كاتبك ، ومستقَرِّ ثقتك ، وحامِلِ أعبائك ، من الكفاية والنصيحة ، ووضْعِه عن قلبك مَئُونة التُّهَمة والقَصِّ لأَثَره ، وإدخاله راحةَ الطمأنينة إليه ، وروحَ الثقة به ، لا كما ابتُلِيَ أخوك[3] ، فإنه صحِبَه مَخلَط عليه أمرَه ، وأفشى أسرارَه إلى صاحب بَريده ، فأنقل[4] ذلك بينهم ، وقَطَّعَ حبالهم ، حتى هُجِّنت[5]

---

(١) فى الأصل « بصلة » . (٢) انتاشه . انتشله واستنقذه .

(٣) جاء فى تاريخ الطبرى ١٠ : ٣٦٢ « وفى سنة ٢٢٤ — فى خلافة المعتصم — ولى جعفر بن دينار اليمن » وجاء فيه أيضا ١١ : ١٨ « وفى سنة ٢٣١ ولى الواثق جعفر بن دينار اليمن » .

(٤) الإنقال : أخذ الرجل الفأس لقطع القتاد لإبله ، والمعنى هنا فقطع . (٥) أى قبحت .

آثاره مع حُسْنها ووضوحها ، وصفِرت يدُه مِن حَظٍّ عمله ، ولزمه الذمُّ من أهله »
فهذه كتبه إلىَّ ، فى اطِّراح نصيحة له كانت فيه ، ويسألنى أن أُشْخِص إليه كاتبا
يحمل ثِقْلَه ، ويفتح له ما أرتِجَه[1] من أمره ، وهذا من سعادة جَدِّك ، ويُمْن طائرك ،
وإقبال الأمور إليك ، وسَعْيها على طريق موافقتك ، وهنيئا ، هنَأَك الله نعمه خاصَّها
وعامَّها ، وأوزَعَك[2] شكرَها ، وأوجب لك بالشكر أحسنَ المَزِيد فيها » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠٠)

١٣٥ — كتابه إلى نصرانىّ أسلم

وكتب محمد بن مكرَّم إلى نصرانى أسْلَمَ .

« أما بعد : فالحمد لله الذى وَفَّقك لشكره ، وعرَّفك هدايتَه ، فطهَّر من الارتياب
قلبك ، ومن الافتراء عليه لسانَك ، وما زالت مَخَايِلُك ممثِّلةً لنا جميلَ ماوهبه الله لك ،
حتى كأنك لم تزل بالإسلام موسوما ، وإن كنت على غيره مقيما ، وكنا مؤمِّلين
لَمَا صِرتَ إليه ، مُشْفقين لك مما كنت عليه ، حتى إذا كاد إشفاقنا يستعلِى رجاءنا ،
أتَتِ السعادةُ بما لم تزَلِ الأنفس تعدّ منك ، فأسألُ الله الذى نوَّر لك فى رأيك ،
وأضاء لك سبيلَ رشدك ، أن يوفِّقك لصالح العمل ، وأن يؤتيَك فى الدنيا حسنة ،
وفى الآخرة حسنةً ، ويَقِيَكَ عذابَ النار » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠٥ ، وزهر الآداب ١ : ٣٢٥)

١٣٦ — كتابه إلى حاجّ

وكتب تهنئة لحاجّ :

« بلَّغك الله الرضا فى أَمَلِك ، من نُجْحِ كل حاجة ، وإبلاغ كل أمنيَّة ،
وتقبُّلِ كلِّ دعوة خَصَصْتَ بها نفسك أو عَمَمْتَ بها أحداً من أهلك ، فى مَجامِعِ

(١) أى ما أغلقه . (٢) أى ألهمك .

وُفُوده ، ومُمْتَزَلِ قَراره . فكنت شافِعَ مَن شاهَدَك ، ووافِدَ من غاب عنك ، يَسْتفتح بدعائك ، ويُرَجِّى بركة مَحْضَرك ، والقُرْبةَ إلى الله عز وجل بفضل جاهِك» .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٩٩)

١٣٧ ـ كتابه إلى بعض الرؤساء

وكتب ابن مكرّم إلى بعض الرؤساء يعتذر :

« نَبَتْ بى عنك[١] غِرَّة الحداثة ، فَرَدَّتْنى إليك التجربة[٢] ، وباعدتْنى عنك الثقةُ بالأيام ، فأدْنَتْنى إليك الضرورةُ ، ثقةً بإسراعك إلىّ وإن أبطأتُ عنك ، وقَبولِك لِعُذرى ، وإن قصَّرتُ عن واجبك ، وإن كانت ذنوبى قَدْ سَدَّت علىّ مَسالِكَ الصَّفح عنى ، فراجِعْ فىَّ مجدَك وسُؤْدُدَك ، وإنى لا أعرِف موقِفا أذلَّ من موقفى ، لولا أن المخاطبة فيه لك ، ولا خُطَّةً أدنأ من خُطَّتى ، لولا أنها فى طلب رضاك[٣] » .

(زهر الآداب ٣ : ٣٨٢ ، وعيون الأخبار م ٣ : ص١٠٥)

١٣٨ ـ كتابه إلى سليمان بن وهب

وله إلى سليمان بن وهب يعزّيه عن أخيه الحسن :

« لئن أطنبتُ فى وصف جلالة المصيبة بفلان ، لَأَجِدَنَّ من القول مُستعرَضا فَسِيحاً يَزيدُ الإمعانُ فيه على غايته بُعداً ، ولئن أسهبْتُ فى ذكر ثوابها ـ الذى إذا خَطَرتِ الدنيا لأَقلِّها لما كانت به وَفاء وله تَبَعا[٤] ـ لَا أجدَنَّ أرحبَ منه مَذْهَبا ،

---

(١) نبا عنه : تجافى وتباعد ، والغرة : الغفلة .

(٢) وفى عيون الأخبار « الحنكة » ـ بالضم ـ .

(٣) وفيه : « وإن كانت ذنوبى قد سدت عليك مسالك الصفح ، فأى موقف هو أدنأ من هذا الموقف ، لولا أن المخاطبة فيه لك ، وأى خطة هى أودى بصاحبها من خطة أنا راكبها ، لولا أنها فى رضاك ؟ » .

(٤) فى الأصل هكذا « معا » .

وأوسعَ مَجالا ومُضْطرَبا ، فجعل الله حظَّك حظَّ الصابرين المحتسِبين ، الذين عرَفوا فسلَّموا ، وأيقنوا فصبَرُوا ، وإنا لله وإنا إليه راجعون ، أخذًا بأدَب الله الذى قرَن به صلاتَه ورحمتَه ، ورحِم الله فلانا رحمةً تأتى مِن وَراء زَلَله ، وتُعَفِّى على فرَطات لسانه ويديه ، فلقد ظَعَن عن الدنيا محموداً مفقوداً ، قد أطال تفَجُّعَ عشيرِه وخليله ، وصدَع فى قلبه ، وجَافَى جنبَه ، وأعدَمَه سَلْوَة العِوَض ، وراحةَ السكون إلى أحد .

وبعدُ ، فإن الرَّمَض[(١)] والهَلَع إنما يكونان للمصيبة الخاصَّةِ التى لاتعدُو صاحبَها ، ولا يجدُ مُسْعِدا عليها ، ولا شريكا فِيها ، وقد أعانك الله على مصيبتك بالواشج[(٢)] رَحِماً بك ، والبعيد نَسَباً منك ، وجَمَعَ فى ثِقَل مَحمِلها وألَم فَجْعِها صديقَك وعدوَّك ، وكلٌّ مُكْتَسٍ منها سِرْبالَ وحْشَةٍ ، ومُنطوٍ على دخيلِ حزن ، وناظرٌ من أعقابها فى مَنظَرٍ وَعْرٍ ، فجميعهم[(٣)] فيها مشترِك ، وأنت بالتعزّى حقيقٌ قَمِنٌ[(٤)] ، على أنها لو خَصَّتك لكان فى علمك ـ بأن كل مصيبة سَلِمتْ من شائبةٍ تَنتقِصُ ثوابَها فهى النعمةُ الوافية ، وكلَّ مصيبة تحَيَّفَ[(٥)] جزَعُها أجرَها فهى الرَّزيةُ الباقية ـ ما أغناك وكفاك عن أن تعيش من غيرك ، أو تعوِّل فى حظّك على سواك ، وأن يتخطَّى الجزَعُ نعمةَ الله عليك إلى قلبك ، أو يجتازَها إلى عزمك ، اللهمَّ إلَّا مالا تَملِكه النفسُ فى بَدْء الصَّدْمة من لَوْعة الفُرقة حتى تَقْسِمَ أمرها ، وتَصيرَ إلى أخذ ما لَها وترْكِ ما عليها ، فتَفَثَأ[(٦)] بفوز قِدْحِك ، وبِغُنْم سَهْمِك ، ويُبْقِى الله أثرَكَ منْهَجا لغيرك ، فقَدِيماً وهب الله لك الخِيَرةَ فى رأيك ، والتوفيقَ فى إيرادك وإصدارك ، فله الحمدُ ومنه المعونةُ على الشكر ، وبِطَوْله يُستحقُّ المزيدُ ، فإن رأيتَ أن تأمر

---

(١) الرمض : حرقة الغيظ .
(٢) وشجت بك قرابته كوعد : اشتبكت ، والواشجة : الرحم المشتبكة .
(٣) فى الأصل « فمجلك » .
(٤) أى حقيق أيضاً ، بكسر الميم وفتحها وكأمير .
(٥) أى تنقص .
(٦) فثىء كفرح : انكسر غضبه ، وفى الأصل فمثا ، وربما كان « فتهنأ » .

بالكتاب إليّ بما نفسي إليه متطلّعة ، وإليه مرجعي ، مِنْ صَبْرٍ إن كان عُزِم لك عليه ، أتخذك فيه إماما ، وأُرَوِّح عن قلبي براحة قلبك ، أو غيرِه[١] ـ لا ابتلاك الله به ـ فأقضيَ فيه معك ، وأحُلَّ فيه مَحَلَّتَكَ ، فعلتَ إن شاء الله » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣١٩)

١٣٩ — كتاب محمد بن مكرم إلى أبي العيناء

وكتب محمد بن مُكَرَّم إلى أبي العيناء .

« أما بعدُ ، فإني لا أعرف للمعروف طريقا أَحْزَنَ[٢] ولا أوعَرَ من طريقه إليك ، ولا مستودَعًا أقلّ زَكاء[٣] ولا أبعدَ من ثمرة خيرٍ مِنْ مكانِه عندك ، لأنه يحصُلُ منك المعروفُ في حَسَبٍ دَنِيء ، ولسانٍ بَذِيء ، وجَهْلٍ قد مَلَكَ عليك عِنانَكَ ، فالمعروفُ لديك ضائع ، والشكرُ عندك مهجور ، غايتُك في المعروف أن تَجْزُرَه[٤] ، وفي وَلِيِّه أن تَكْفُرَه »[٥] .

(المنظوم والمنثور ١٣ : ٤١١)

١٤٠ — فصول لابن مكرم

فصل له :

« إن من النعمة على المُثْني عليك ألاّ يخافَ الإفراط ، ولا يأمن التقصير ، ويأمن

---

(١) معطوف على « صبر » .

(٢) أي أوعر ، من الحزن بالفتح : وهو ماغلظ من الأرض .

(٣) الزكاء : النماء والصلاح .

(٤) أي تقطعه وتستأصله . وفي الأصل « تحرزه » وهو تصحيف . وربما كان « تحقره » كما في العقد .

(٥) تقدم لك (في الجزء الثالث ص ٣٨١) أن صاحب العقد الفريد روى هذا الكتاب ـ بصورة أخصر من ذلك ـ معزوا إلى أحمد بن يوسف . ولم أورد هنا رد أبي العيناء على ابن مكرم لما فيه من إفحاش صريح لايليق نشره .

أن تَلْحَقَه نقيصةُ الـكذب ، ولا ينتهى به المدح إلى غايةٍ إلا وجَدَ فضلَك تجاوَزهاَ ، ومن سعادة جَدِّك أن الداعىَ لا يعْدَم[1] كثرةَ المتابعين له وللؤمِّنين معه » .

***

وفصل له :

« السيفُ العتيق إذا أصابه الصَّدَأ ، استغنى بالقليل من الجِلاء ، حتى تعود جدَّته ويظهر فِرِنْدُه[2] ، لِلين طبيعته ، وكرم جَوهره ، ولم أصْفِ نفسى لك عَجَبا بك بل شكرا » .

***

وفصل له :

« زاد معروفك عندى عِظَما أنه عندك مستور حقير ، وعند الناس مشهور كبير[3] » .

***

وكتب فى التنصل :

« لاقِ عظيمَ أمَلى فيك ، ماأتيتُ فيما بينى وبينك ذَنْبا : مُخْطِئاً ولا متعمِّدا ، ولعلَّ فَلْتَةً لم أُلْقِ لها بالاً ، فأُوطِّئَ لها اعتذاراً ، وإن تـكن ، فبُغية حاسدٍ زَخْرَفَها على لسان واشٍ نبَذَها إليك فى بعض غِرَّاتك ، أصابت منى مَقْتَلاً ، وشفَتْ منك غَليلا » . (العقد الفريد ٢ : ١٩٤ ، ١٩٦)

***

---

(١) فى الأصل « لايقدم » وهو تحريف .

(٢) فرند السيف : جوهره .

(٣) أخذه الشاعر فقال :

زاد معروفك عندى عظما أنه عندك مستور حقير
تتناسـاه كأن لم تأته وهو عند الناس مشهور كبير

وله :

« لاتتركنّى معلقاً بحاجتى ، فالصبر الجميلُ خيرٌ من المَطْل الطويل » .

***

وله :

« إنه يسهّل علىّ فى طلب حاجتى إليك أمران فى نفسى ، وأمران فيك فأما اللذان فى نفسى فأنى لستُ أُضِيقُ عنك بعذرى ، ولا أصونُ عنك شكرى . وأما اللذان فيك، فسرورُك إن أجْدَيْتَ[1] ، وصحةُ عذرِك إن أكْدَيْتَ[2] .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣: ٣٩٣)

١٤١ — كتاب سعيد بن موسى إلى أبى شراعة

وكتب أبو شُراعة[3] إلى سعيد بن موسى بن سعيد بن مُسْلِم بن قُتَيْبة يستهديه نبيذا ، فكتب إليه سعيد :

« إذا سألتَنى — جعلنى الله فداءك — حاجةً فاشْطُطْ ، واحتكِمْ فيها حكمَ الصبى على أهله ، فإن ذلك يسرُّنى وأُسارع إلى إجابتك فيه » .

وأمر له بما التمس من النبيذ ، فزجه صاحب شرابه وبعث به إليه .

١٤٢ — ردّ أبى شراعة على سعيد بن موسى

فكتب إليه أبو شُراعة :

« أسْتَنسِئ[4] الله أجَلَك ، وَأَستعيذه من الآفات لك ، وأَستعينه على شكر ماوهب من النعمة فيك ، إنه لذلك وَلِىّ ، وبه مَلِىّ :

(١) أجدى : أعطى . (٢) أكدى : بخل أو قل خيره أو قلل عطاءه .

(٣) هو أحمد بن محمد بن شراعة ، من بكر بن وائل ، شاعر بصرى من شعراء الدولة العباسية ، جيد الشعر ، وهو كالبدوى فى مذهبه ، وكان يتعاطى الرسائل والخطب مع شعره ، وكان صديقاً لإبراهيم ابن المدبر أيام تقلده البصرة أثيرا عنده — انظر ترجمته فى الأغانى ٢٠ : ٣٥ .

(٤) أى أسأله أن يطيل أجلك .

أتانى غلامك المليحُ قَدُّه، السعيدُ بمَلَكَتك[١] جَدُّه، بكتاب قرأته غيرَ مُستكرَهِ اللفظِ ولا مُزْوَرّ[٢] عن القصد، ينطق بحكمتك، ويُبين عن فضلك، فوالله ماأوضح لى خَفِيًّا، ولا زادنى بك علما، وإذا أنت تسأل فيه أن تَهَبَ، وتحبّ أن تُحْمَدَ، ولا غَرْوَ[٣] أن تفعل ذلك، ومِن كَثَبٍ[٤] أخذتَه، وعن كَلالةٍ[٥] وغير كلالةٍ وَرِثْته، موسى أبوك، وسعيد جدك، وعمرو عمك، ولك دار الصِّلة ودار الضيافة، وصاحب البغلة الشَّهْبَاء[٦]، وحُصَيْنُ بن الحُمَامِ[٧]، وعرْوة بن الوَرْدِ[٨] فنى أىِّ غَلَوَات[٩] الجد يطمع قرينك أن يستولى على المَدَى والأمَدِ، والأمدُ دونك.

وَكتابُك إلىّ أن أُحكمَ عليك تحكمَ الصبىّ على أهله، فلَشَدّ ماجَرَرْتَ إلى معروفك، ودَلَلْتَ على الأنس بك، وحاشا للمحكوم له والمحكوم عليه فى ذات الحَسَب العتيق[١٠]، والمنظر الأنيق، الذى يسرّ القلب، ويلائم الرُّوح، ويطرُد الهمَّ:

تَدِبُّ خِــــلالَ شُئُونِ الفَتَى دَبِيبَ دَبَا النمــــلةِ المنتعِش[١١]

---

(١) الملكة: الملك.

(٢) ازور: مال وانحرف، والقصد استقامة الطريق.

(٣) لاغرو ولا غروى: لاعجب.

(٤) أى من قرب.

(٥) الكلالة: مالم يكن من النسب لحا، قال الفرزدق: «ورثتم قناة الملك لا عن كلالة» أى ورثتموها وراثة قرب لاوراثة بعد، قال عامر بن الطفيل:

وما سودتنى عامر عن كلالة أبى الله أن أسمو بأم ولا أب

ومنه قولهم: هو ابن عم كلالة، أى بعيد النسب، فإذا أرادوا القرب قالوا هو ابن عم دنية (بكسر الدال).

(٦) شهباء ذات شهبة بالضم، وهى بياض يصدعه سواد.

(٧) كان سيد بنى سهم بن مرة، وكان يقال له: مانع الضيم، وهو شاعر جاهلى مقل – انظر ترجمته فى الأغانى ١٢: ١١٨، والشعر والشعراء ص ٢٤٧.

(٨) شاعر من شعراء الجاهلية، وفارس من فرسانها، وكان يلقب: عروة الصعاليك، لسخائه، وهو من بنى عبس – انظر ترجمته فى الأغانى ٢: ١٨٤، والشعر والشعراء ص ٢٦٠.

(٩) الغلوة: الغاية قدر رمية سهم أبعد مايقدر عليه، ويقال: هى قدر ثلثمائة ذراع إلى أربعمائة، وقد تستعمل الغلوة فى سباق الخيل، – وهو المقصود هنا – والمدى والأمد: الغاية.

(١٠) يعنى الخمر. (١١) الدبا: أصغر النمل.

إذا فُتِحَت فَغَمَتْ رِيحُهـــا وإن سِيلَ خَمَّارُها قال: « خش[١] »

فإن كنت رَعَيْتَ لها عهدا ، وحفظت لها عندك يدا ، فانظر رَبَّ الحانوت[٢] فامْطُلْه دَينَه ، واقطع السبب بينك وبينه ، فقد أساء صُحبتَها ، وأفسد بالماء جُثَّتها[٣] ، وسلّط عليها عدوها ، واعلم بأن أباك المُتمثِّل بقوله :

يَرَى درجاتِ المَجْدِ لايستطيعها فيقعُـــد وَسْطَ القوم لايتـكلم

وقد بسطَتْ قدرتُك لسانك ، وأكثرَتْ لك الحدَ ، فدُونك نُهْزَة[٤] البديهة منه فقال :

وبادِرْ بمعروفٍ إذا كنت قادرا زوالَ افتقارٍ أو غِنًى عنك يُعْقِبُ

وقد بعثت إليك بقرابة[٥] مع الرسول ، وأنشأت فى إثرها أقول :

إليك ابنَ مُوسَى الُجودِ أعملْتُ ناقتى مُجَـــلَّلةً يَضفُو عليها جِلالُها[٦]
كَتُومُ الْوَجَى لاتشتكى أَلَم السُّرَى سواءٌ عليها مَوْتُهَا واعتلالُها[٧]
إذا شرِبَتْ أبصرْتَ ماجَوْفُ بطنها وإن ظمِئَتْ لم يَبْدُ منها هُزالُها
وإن حَمَلتْ حِمْلا تَـكلَّفُ حِمْلَهَا وإن حُطَّ عنها لم أُبَلْ كيف حالُها[٨]
بعثنا بها تسمو العيونُ وراءها إليك ، وما يُخشَى عليها كَلاَلُها[٩]
وغَنَّى مُغنِّينا بصوتٍ فشاقَنِى متى راجِـعٌ مِن أم عمرو خَيالُها

(١) فغمه الطيب كنم : سد خياشيمه ، وسال يسال : لغة فى سأل المهموز، وخش : كلمة فارسية تفسيرها : طيب .

(٢) الحانوت : دكان الخمار ، ويقال : مطله حقه ، وبه .

(٣) وربما كانت « حسنها » .

(٤) النهزة : الفرصة . (٥) أى بذى قرابة .

(٦) الجلال جمع جل بالضم والفتح : وهو ما تلبسه الدابة لتصان به، وجللها : ألبسها الجل، وثوب ضاف : أى سابغ .

(٧) الوجى : الحفى أو أشد منه ، والسرى : سير عامة الليل .

(٨) يقال : ما باليته وما باليت به : أى لم أكترث به ، ولم أبال ولم أبل ، حذفوا الألف تخفيفا لكثرة الاستعمال .

(٩) الـكلال : الإعياء .

أُحِبُّ لِكُم قَيسَ بن عَيلانَ كلَّها ويُعجبنى فُرسانُها ورجالُها[1]
ومالِىَ لاأهْوَى بقاءَ قبيلةٍ أبوكَ لها بَدْرٌ وأنت هلالُها !

فبعث إليه برسوله الذى حمل إليه النبيذ ، وبصاحب شرابه ، وكل ما كان فى خزانته من الشراب ، وبثلثمائة دينار . (الأغانى ٢٠ : ٤٠)

١٤٣ — كتاب البيعة للمنتصر بالله

ومات المتوكل على الله سنة ٢٤٧ هـ فبويع ابنه المنتصر بالله بالخلافة ، وكانت نسخة البيعة التى أخذت له :

« بسم الله الرحمن الرحيم : تُبايعون عبد الله المنتصرَ بالله أميرَ المؤمنين ، بَيْعةَ طَوْعٍ واعتقادٍ ، ورضا ورغبةٍ ، بإخلاصٍ من سرائركم ، وانشراحٍ من صدوركم ، وصِدقٍ من نياتكم ، لا مُكرَهين ولا مُجْبَرين ، بل مُقِرِّين عالمين بما فى هذه البيعة وتأكيدها ، من طاعة الله وتَقْواه ، وإعزازِ دين الله وحقه ، ومن عُموم صلاح عباد الله ، واجتماع الكلمة ، ولَمِّ الشَّعَث ، وسُكونِ الدَّهْماءِ[2] ، وأَمْنِ العواقب ، وعِزِّ الأولياء ، وقَمْعِ المُلْحِدين ، على أن محمدا الإمامَ المنتصر بالله عبدُ الله وخليفتُه المفترضُ عليكم طاعتُه ومناصَحَتُه ، والوفاءُ بحقه وعَقْده ، لا تَشُكُّون ولا تُدْهِنون[3] ولا تَميلون ولا ترتابون ، وعلى السَّمْع له والطاعة ، والمسالمة والنُّصْرة ، والوفاءِ والاستقامة ، والنصيحة فى السِّر والعَلانية ، والخُفُوف[4] والوقوفِ عند كل مايأمر به عبدُ الله الإمامُ المنتصرُ بالله أمير المؤمنين ، وعلى أنكم أولياءُ أوليائه ، وأعداءُ أعدائه

(١) لكم أى لأجلكم ، وقيس : هو قيس بن عيلان بن مضر . والمعنى : أحب جميع العرب المضرية لأجلكم (وسعيد المكتوب إليه من باهلة ، وهم بنو مالك بن أعصر بن سعد بن قيس) .
(٢) الدهماء : جماعة الناس .
(٣) الإدهان : إظهار خلاف مايضمر ، والغش .
(٤) الخفوف : العجلة وسرعة السير .

من خاصٍّ وعامٍّ ، وأبعدَ وأقربَ ، وتتمسّكون ببيعته بوفاء العَقْدِ ، وذِمّة العهد ، سرائرُكم فى ذلك مثلُ عَلانيتكم ، وضمائرُكم مثلُ ألسنتكم ، راضين بما يرضاه لكم أمير المؤمنين فى عاجِلكم وآجِلكم ، وعلى إعطائكم أمير المؤمنين بعد تجديدكم بيعتَه هذه على أنفسكم ، وتأكيدكم إياها فى أعناقكم ، صَفْقَةَ أيمانكم راغبين طائعين عن سلامةٍ من قلوبكم وأهوائكم ونيّاتكم ، وعلى ألاّ تَسْعَوا فى نقضِ شىء مما أكّد الله عليكم ، وعلى ألاّ يَميل بكم مَيِلٌ[1] فى ذلك عن نُصرة وإخلاص ، ونُصح ومُوالاة وعلى أن لا تُبَدّلُوا ، ولا يرجِع منكم راجع عن نيته وانطوائه إلى غير علانيته ، وعلى أن تكون بيعتكم التى أعطيتم بها ألسنتكم وعهودَكم ، بيعةً يطّلع الله من قلوبكم على اجْتِبائها[2] واعتقادِها ، وعلى الوفاء بذمته بها ، وعلى إخلاصكم فى نُصرتها ومُوالاةِ أهلها ، لا يَشُوبُ ذلك منكم دَغَلٌ[3] ولا إدْهانٌ ، ولا احتيال ولا تأوُّل ، حتى تلقَوُا الله مُوفين بعهده ، ومؤدِّين حقّه عليكم ، غيرَ مستشرِفين[4] ولا ناكثين ، إذ كان الذين يبايعون منكم أميرَ المؤمنين إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ ، يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيماً ، عليكم بذلك وبما أكّدتْ هذه البيعةُ فى أعناقكم ، وأعطيتم بها من صَفْقَةَ أيمانكم ، وبما اشترِط عليكم بها ، من وفاء ونصرٍ ومُوالاةٍ واجتهاد ونُصح ، وعليكم عهدُ الله إن عهده كان مسئولا ، وذِمةُ الله وذمةُ رسوله ، وأشدُّ ما أَخَذَ على أنبيائه ورسله وعلى أحد من عباده من متأكّد وثائقه ، أن تسمعوا ما أُخِذ عليكم فى هذه البيعة ولا تبدّلوا ، وأن تُطيعوا ولا تعصُوا ، وأن تُخْلِصُوا ولا ترتابوا ، وأن تتمسّكوا بما عاهدتم عليه تمسُّكَ أهْل الطاعة بطاعتهم ، وذوى العهد والوفاء بوفائهم

(١) ميل بالفتح مصدر كميل ، ويصح أن يكون بالضم ، اسم فاعل .
(٢) اجتباه : اختاره .
(٣) الدغل : الفساد .
(٤) استشرفه حقه : ظلمه ، وسيأتى فى كتاب البيعة للمعتز « غير مستربين » .

وحقّهم ، لا يلفتنّكم عن ذلك هَوًى ولا مَيل ، ولا يزيغ بكم فيه ضلالٌ عن هدى ، باذلين فى ذلك أنفسكم واجتهادكم ، ومقدّمين فيه حق الدين والطاعة ، بما جعلتم على أنفسكم ، لا يقبل اللهُ منكم فى هذه البيعة إلا الوفاء بها ، فمن نكث منكم ممن بايع أميرَ المؤمنين هذه البيعة عما أُكِّد عليه ، مُسِرًّا أو مُعْلِنًا ، أو مُصَرِّحًا أو محتالا ، فأدْهَنَ فيما أعطى اللهَ من نفسه ، وفيما أُخِذَتْ به مواثيقُ أمير المؤمنين وعهودُ الله عليه ، مستعملا فى ذلك الهُوَيْنَى دون الجِدّ ، والرُّكونَ إلى الباطل دون نُصرةِ الحق، وزاغَ عن السبيل التى يعتصم بها أُولُو الوفاء منهم بعهودهم ، فكلُّ ما يَملِك كلُّ واحد ممن خان فى ذلك بشىء نقَضَ عهده ، من مال أو عقار أو سائمةٍ أو زرْع أو ضرْع صدَقَةٌ على المساكين فى وجوه سبيل الله ، محرَّمٌ عليه أن يرجع شىء من ذلك إلى ماله ، عن حيلة يقدِّمها لنفسه أو يحتال بها، وما أفاد[1] فى بقية عمره من فائدة مال يَقِلُّ خَطَرُها أو يجِلُّ قدرُها، فتلك سبيله إلى أن توافيه منيّتُه، ويأتىَ عليه أجله، وكلُّ مملوك يملكه اليوم إلى ثلاثين سنةً من ذكر أو أنثى ، أحرارٌ لوجه الله ، ونساؤه يوم يلزمه الحِنثُ ، ومن يتزوج بعدهن إلى ثلاثين سنةً ، طوالِقُ البتّةَ طلاقَ الحَرَج[2] ، لا مَثْنَوِيَّةَ[3] فيه ولا رَجْعَةَ ، وعليه المشىُ إلى بيت الله الحرام ثلاثين حِجّةً[4] لا يقبلُ الله منه إلا الوفاء بها ، وهو برىء من الله ورسوله ، واللهُ ورسولهُ منه بريئان ، ولا قَبِلَ الله منه صَرْفا ولا عَدْلاً[5] ، والله عليكم بذلك شهيد ، وكفى بالله شهيدا ».

(تاريخ الطبرى ١١: ٧١)

---

(١) أى استفادة . (٢) انظر ص ١٤٠ من الجزء الثالث .

(٣) أى لا استثناء . (٤) الحجة : السنة .

(٥) الصرف : التوبة ، والعدل : الفدية .

١٤٤ ـ كتاب المنتصر إلى محمد بن عبد الله بن طاهر

وفى سنة ٢٤٨ أغْزَى المنتصرُ وَصِيفاً التركى ـ أحد كبار الموالى الأتراك ـ بلادَ الروم، وكتب إلى محمد بن عبد الله بن طاهر كتابا نسخته :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله محمد المنتصر بالله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله مَوْلى أمير المؤمنين :

سلام عليك فإن أمير المؤمنين يَحمَدُ إليك اللهَ الذى لا إله إلا هو ، ويسأله أن يصلِّىَ على محمد عبدِه ورسوله صلى الله عليه وعلى آله .

أما بعد : فإن الله ـ وله الحمدُ على آلائِه ، والشكرُ بجميل بَلَائه ـ اختار الإسلام وفضَّله ، وأتمَّه وأكمَلَه ، وجعله وسيلةً إلى رضاه ومَثُوبته ، وسبيلًا نَهْجًا[1] إلى رحمته ، وسببًا إلى مَذْخور كرامته ، فقَهَر له مَن خالَفَه ، وأذلَّ له مَن عَنَدَ عن حقه ، وابتغَى غيرَ سبيله ، وخَصَّه بأتمِّ الشرائع وأكمَلِها ، وأفضلِ الأحكام وأعدَلِها ، وبعث به خِيرَتَه مِن خلقه ، وصَفْوتَه من عباده ، محمداً صلى الله عليه وسلم ، وجعل الجهادَ أعظمَ فرائضه منزِلةً عنده ، وأعلاها رُتبةً لديه ، وأنجَحَها وسيلةً إليه ، لأن الله عزَّ وجل أعزَّ دينه ، وأذلَّ عُتَاةَ الشِّرك ، قال الله عزَّ وجل آمِرا بالجهاد ، ومفترِضاً له : « انفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » .

وليست تَمْضى بالمجاهِد فى سبيل الله حالٌ لا يكابِدُ فى الله نَصَباً ولا أذًى ، ولا يُنفِقُ نفقةً ، ولا يقارِعُ عدوًّا ، ولا يقطع بَلَدا ، ولا يطأُ أرضاً ، إلّا وله بذلك أمرٌ مكتوبٌ ، وثوابٌ جزيل ، وأجرٌ مأمول ، قال الله عزَّ وجلَّ : « ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ[2] فِى سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا

---

(١) النهج : الطريق الواضح . (٢) المخمصة : المجاعة .

يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ . وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » ثم أثنى عزّ وجل بفضل منزلة المجاهدين على القاعدين عنده ، وما وَعَدَهم من جزائه ومَثُوبته وما لهم من الزُّلْفَى عنده فقال : « لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ، فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ، وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى ، وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا » .

فبالجهاد اشترى الله من المؤمنين أنفُسَهم وأموالَهم ، وجعل جَنَّته ثمناً لهم ، ورضوانه جزاءً لهم على بَذْلِهَا وَعْداً منه حقًّا لا رَيْبَ فيه ، وحُكْماً عدْلا لا تبديلَ له ، قال الله عز وجل : « إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ ، فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » وحكم الله عز وجل لأحياء المجاهدين بنصره ، والفوز برحمته ، وأشهَدَ لمَوْتاهم بالحياة الدائمة ، والزُّلْفى لديه ، والحظ الجزيل من ثوابه ، فقال : « وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ، فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » .

وليس من شيء يتقرب به المؤمنون إلى الله عز وجل من أعمالهم ، ويسعَوْنَ به فى حطِّ أوزارهم ، وَفَكاكِ[1] رقابهم ، ويستوجبون به الثوابَ من ربهم ، إلاّ والجهادُ عنده أعظمُ منه منزلةً ، وأعلَى لديه رُتبةً ، وأولَى بالفوز فى العاجلة والآجلة ، لأن

---

(١) فكاك الرهن بالفتح ويكسر : مايفتك به .

أهله بَذَلوا لله أنفسَهم ، لتكونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيا ، وتمحوا بها دونَ مَنْ وَرَاءهم من إخوانهم وحَرِيمِ المسلمين وَبَيْضَتهم ، ووقموا(١) بجهادهم العدوَّ .

وقد رأى أمير المؤمنين — لِمَا يُحِبّه من التقرب إلى الله بجهاد عدوه ، وقضاءِ حقّه عليه فيما استحفَظَه من دينه ، والتماسِ الزُّلْفَى له فى إعزاز أوليائه ، وإحلالِ البأس والنِّقمة بمَن حادَّ من دينه ، وكذَّب رسلَه ، وفارق طاعته — أن يُنهِضَ « وصيفاً » مَوْلَى أمير المؤمنين فى هذا العَام إلى بلاد أعداء الله الكَفَرةِ الرُّوم غازياً ، لِمَا عرَّفَ اللهُ أميرَ المؤمنين من طاعته ومناصحته ، ومحمودِ تعبِئته ، وخلوصِ نيّته فى كل ماقرَّبه من الله ومن خليفته .

وقد رأى أمير المؤمنين — واللهُ وَلِيُّ معُونتِه وتوفيقه — أن يكون مُوافاةُ « وصيفٍ » فيمن أنهض أمير المؤمنين معه من مواليه وجنده وشاكِرِيّته(٢) ثغرَ مَلَطْيَةَ(٣) ، لِاُثْنَتَىْ عشرةَ ليلةً تخلو من شهر ربيع الآخِر سنة ثمان وأربعين ومائتين ، وذلك من شهور العَجَم للنِّصْف من حَزِيران ، ودخوله بلاد أعداء الله فى أول يوم من تَمُوز .

فاعلم ذلك واكتب إلى عمالك على نواحى عملك بنسخة كتاب أمير المؤمنين هذا ، ومُرْهم بقراءته على مَن قِبَلهم من المسلمين ، وترغيبِهم فى الجهاد وحَثِّهم عليه ، واستنفارِهم إليه ، وتعريفهم ماجعل الله من الثواب لأهله ، ليعملَ ذوو النيَّات والحِسْبة والرغبة فى الجهاد على حسب ذلك فى النهوض إلى عدوِّهم ، والخُفُوفِ إلى معاونة إخوانهم ، والذِّياد عن دينهم ، والرمى من وراء حَوْزتهم ، بموافاة عسكر « وصيف »

(١) أى أذلوا وقهروا .

(٢) الشاكرى : الأجير والمستخدم .

(٣) قال ياقوت فى معجمه « ملطية» بفتح أوله وثانيه وسكون الطاء وتخفيف الياء ، والعامة تقوله بتشديد الياء وكسر الطاء : بلدة من بلاد الروم مشهورة مذكورة تتاخم الشام » .

مولى أمير المؤمنين مَلطْيَةَ فى الوقت الذى حَدَّه أميرُ المؤمنين لهم إن شاء الله ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » .

وكتب أحمد بن الخَصِيب[1] لسبع ليالٍ خَلَوْن من المحرم سنة ثمانٍ وأربعين ومائتين.

(تاريخ الطبرى ١١ : ٧٤)

١٤٥ — رقعة المعتز والمؤيد فى خلع أنفسهما من البيعة

وسعى الأتراكُ سَعْيَهم — بتدبير الوزير أحمد بن الخَصيب — لَدَى المنتصر ، فى أن يخلع أخويه أبى عبد الله المعتزّ وإبراهيم المؤيَّد من الخلافة ، فلم يزالوا به حتى فعل ، واستكتَبَ كلا منهما رُقْعة بخطِّه أنه خلع نفسه من البيعة ، وقاما فيمن اجتمع من وُجُوه الناس فأعلنَا ذلك لهم ، وكانت النسخة التى كتباها .

« بسم الله الرحمن الرحيم : إن أمير المؤمنين المتوكِّل على الله رضى الله عنه قلّدنى هذا الأمر ، وبايع لى وأنا صغير ، من غير إرادتى ومحبَّتى ، فلما فهِمتُ أمرى علِمت أنى لا أقومُ بما قلَّدنى ، ولا أصْلُح لخلافة المسلمين ، فمن كانت بيعتى فى عُنقه فهو مِن نَقْضِها فى حِلّ ، وقد حلَّلتكُم منها ، وأبْرأتكم من أيْمانكم ، ولا عهدَ لى فى رقابكم ولا عقدَ ، وأنتم بُرَآء من ذلك » .

وكان الذى قرأ الرقعة أحمد بن الخصيب ، ثم قام كل منهما فقال لمن حضر : هذه رقعتى وهذا قولى ، فاشهدوا علىَّ ، وقد أبرأتكم من أيمانكم وحلَّلتكم منها ؛ فقال لهما المنتصر عند ذلك : قد خار الله لكما وللمسلمين .

(تاريخ الطبرى ١١ : ٧٧)

---

(١) كان وزيرا للمنتصر — انظر خبره فى الفخرى ص ٢١٧ ومروج الذهب ٢ : ٢٩٩ .

١٤٦ — كتاب المنتصر بخلع المعتز والمؤيد

وكتب المنتصر كتابا إلى العمال بخلعهما ، وهذه نسخة كتابه إلى أبي العباس محمد بن عبد الله بن طاهر فى ذلك :

« من عبد الله محمد الإمام المنتصر بالله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله مَولى أمير المؤمنين .

أما بعد ، فإن الله ـ وله الحمدُ على آلائه ، والشكرُ بجميل بلائه ـ جعل وُلاةَ الأمر ، من خلفائه القائمين بما بَعَثَ به رسوله صلى الله عليه وسلم ، والذَّابِّين عن دينه ، والداعين إلى حقه ، والمُمْضِين لأحكامه ، وجعل ما اختصَّهم به من كرامته قِوَاما لعباده ، وصلاحا لبلاده ، ورحمةً عَمَّ بها خَلْقَه ، وافترض طاعتَهم ووصَلَها بطاعته وطاعة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، وأوجَبَها فى مُحْكَم تنزيله ، لِما جَمَع فيها من سُكون الدَّهْماء ، واتِّساقِ الأهواء ، ولَمِّ الشَّعَث ، وأَمْنِ السُّبُل وَوَقْم العدو ، وحِفظِ الحرِيم ، وسَدِّ الثغور ، وانتظام الأمور ، فقال : « أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ » فمِن الحقِّ على خلفاء الله الذين حَبَاهم بعظيم نعمته ، واختصَّهم بأعلى رُتَب كرامتِه ، واستحفَظَهم فيما جَعَلَه وسيلةً إلى رحمته ، وسببا لرضاه ومَثُوبته ، أن يُؤْثِروا طاعتَه فى كل حال تَصَرَّفَتْ بهم ، ويُقيموا حقَّه فى أنفسهم ، والأقربِ فالأقربِ منهم ، وأن يكون محلُّهم من الاجتهاد فى كل ما قرَّب من الله عز وجل حَسَبَ مَوقعهم من الدين ، وولايةِ أمير المسلمين ، وأميرُ المؤمنين يسأل الله مسألةً ، رغبةً إليه وتذلُّلا لِعظَمته ، أن يتولاه فيما استرعاه ، ولايةً يجمع له بها صلاحَ ما قلده ، ويحمِل عنه أعباء ما حَمَّله ، ويُعينه بتوفيقه على طاعته ، إنه سميع قريب .

وقد علمتَ ما حضرتَ من رَفع أبي عبد الله وإبرٰهيم ابني أمير المؤمنين المتوكِّل على الله رضى الله عنه إلى أمير المؤمنين رُقعتَين بخطوطهما يذكُران فيهما ما عرَّفهما الله مِنْ عطف أمير المؤمنين عليهما ورأفته بهما، وجميلِ نظره لهما، وما كان أميرُ المؤمنين المتوكِّلُ على الله عَقَدَه لأبي عبد الله من ولاية عهدِ أمير المؤمنين، ولإبرٰهيم من ولاية العهد بعد أبي عبد الله، وأن ذلك العَقْدَ كان وأبو عبد الله طِفلٌ لم يبلُغ ثلاث سنين، ولم يفهم ما عُقد له، ولا وَقف على ما قُلِّده، وإبرٰهيم صغير لم يبلغ الحُلُمَ، ولم تجزِ[1] أحكامُهما، ولا جرَت أحكامُ الإسلام عليهما، وأنه قد يجب عليهما إذ بلغا ووَقفا على عجزهما عن القيام بما عُقِد لهما من العهد، وأُسْنِد إليهما من الأعمال، أن يَنْصَحا لله وللجاعة المسلمين، بأن يُخرِجا من هذا الأمر الذى عُقِد لهما أنفسَهما، ويعتزلا الأعمال التى قُلِّداها، ويجعلا كلَّ مَن فى عُنُقه لهما بيعةٌ وعليه يمينٌ، فى حِلٍّ، إذ كانا لايقُومان بما رُشِّحا له، ولا يصلُحان لتقلُّده، وأن يُخرَجَ مَن كان ضُمَّ إليهما ممن فى نواحيهما من قُوّاد أمير المؤمنين ومواليه وغِلمانه وجنده وشاكِريَّته وجميع من مع أولئك القواد بالحَضْرة وخُراسان وسائر النواحى عن رسُومهما، ويُزال عنهم جميعا ذكْر الضَّم إليهما، وأن يكونا سُوقَةً[2] من سُوَقِ المسلمين وعامَّتهم، ويصِفانِ مالم يزالا يذكُران لأمير المؤمنين من ذلك، ويسألانه فيه، منذ أفضَى اللهُ بخلافته إليه، وأنهما قد خَلَعا أنفسهما من ولاية العهد وخرجا منها، وجعلا كلَّ مَن لهما عليه بيعةٌ ويمينٌ، مِن قواد أمير المؤمنين وجميع أوليائه ورعيته قريبهم وبعيدهم، وحاضرِهم وغائبهم، فى حِلٍّ وسَعَةٍ من بيعتهم وأَيْمانهم، ليخلعوهما كما خَلَعا أنفسهما، وجَعَلا لأمير المؤمنين على أنفسهما عَهْدَ الله وأشدَّ ما أَخَذ على ملائكته وأنبيائه وعباده من

(١) وربما كان « ولم تجز ».

(٢) السوقة : الرعية ، للواحد والجمع والمذكر والمؤنث ، وقد يجمع على سوق بضم ففتح .

عهد وميثاق ، وجميع ما أكده أمير المؤمنين عليهما من الأيمان ، بإقامتهما على طاعته ومناصحته ومُوالاته فى السر والعلانية ، ويسألان أمير المؤمنين أن يظهرَ ما فعلاه ويَنشُره ، ويُحضِر جميع أوليائه ليسمعوا ذلك منهما ، طالبَين راغبَين ، طائعَين غيرَ مُكرَهين ولا مُجبَرين ، ويقرأ عليهم الرُّقعتان اللتان رفعاهما بخطوطهما ، بما ذَكَرا من وُقُوع الأمر لهما من ولاية العهد وهما صبيّان ، وخَلْعهما أنفسَهما بعد بلوغهما ، وما سألا مِن صَرْفهما عن الأعمال التى يتوليّانِها ، وإخراجِ مَن كان بها ممن ضُمَّ إليهما فى نواحيهما من قُوّاد أمير المؤمنين وجُنده وغِلمانه وشاكريّته وجميعِ من مع أولئك القوادِ بالحضْرة وخراسان وسائر النواحى عن رسومهما ، وإزالة ذِكْر الضمّ إليهما عنهم ، وأن يُكتَب الكتاب بذلك إلى جميع عمال النواحى ، وأن أمير المؤمنين وَقَفَ عَلَى صِدْقهما فيما ذَكَرا وَرفَعا ، وتقدّم فى إحضار جميع إخوته ، ومَن بحَضرته من أهل بيته وقواده ومَواليه وشيعته ورؤساء جنده وشاكريّته وكُتّابه وقُضاته والفقهاء وغيرهم وسائر أوليائه الذين كانت وقعَتْ البيعةُ لهما بذلك عليهم . وحَضَرَ أبو عبد الله وإبرٰهيمُ ابنا أمير المؤمنين المتوكِّلِ على الله رضى الله عنه، وقُرِئت رُقعتاهما بخطوطهما بحضرتهما فى مجلس أمير المؤمنين عليهما وعلى جميع مَن حضَر ، وأعادا من القول بعد قراءة الرقعتين مِثلَ الذى كتَبَا به ، ورأى أمير المؤمنين أن يجمَع فى إجابتهما إلى نشْرِ ما فعلاه وإظهارِه وإمضائِه ذلك ، قضاء حقوقٍ ثلاثة : منها حقُّ الله عز وجل فيما استحفَظَه من خلافته ، وأوجب عليه من النظر لأوليائه فيما يجمَعُ لهم كلمتَهم فى يومهم وغَدِهم ، ويؤلِّف بين قلوبهم ، ومنها حقُّ الرعية الذين هم ودائعُ اللهِ عنده ، حتى يكون المتقلّد لأمورهم مَن يراعيهم آناء الليل والنهار ، بعنايته ونظرِه وتفقّده وعدْله ورأفته ، ومَن يقوم بأحكام الله فى خلقه ، ومن يضطلع بثِقْل(١) السياسة وصواب التدبير ، ومنها حقُّ أبى عبد الله وإبرٰهيم فيما يوجبه أمير المؤمنين لهما بأُخُوّتهما وماسَّ رَحِمهما ، لأنهما لو أقاما على ما خرجا منه ، مع عَجْزِهما عنه ، لم يُؤْمَن تأدى ذلك إلى ما يَعْظُمُ فى الدين

(١) الثقل : الحمل ، واضطلع به : قوى على حمله .

ضررُه ، ويعمُّ المسلمين مكروهُه، ويرجع عليهما عظيمُ الوِزْرِ فيه ، فخلعهما أميرُ المؤمنين إذ خلَعا أنفسَهما من ولاية العهد ، وخلَعَهما جميعُ إخوة أمير المؤمنين ومَن بحَضْرته من أهل بيته ، وخلَعهما جميعُ مَن حضر من قواد أمير المؤمنين ومَواليه وشيعته ورؤساء جنده وشاكريّته وكُتّابه وقضاته والفقهاء وغيرهم من سائر أولياء أمير المؤمنين ، الذين كانت أُخِذَتْ لهما البيعةُ عليهم ، وأَمَرَ أمير المؤمنين بإنشاء الكتب بذلك إلى جميع العمال ، ليتقدّموا في العمل بحسَب ما فيها ، ويخلَعوا أبا عبد الله وإبرٰهيم من ولاية العهد ، إذ كانا قد خلعا أنفسهما من ذلك،وحَلّلا الخاصَّ والعامَّ ، والحاضرَ والغائبَ ، والدانيَ والقاصيَ منه ، ويُسْقِطوا ذِكْرَهما بولاية العهد ، وذِكْرَ ما نُسِبا إليه مِن نِسَب ولاية العهد ، من المعتزّ بالله والمؤيَّد بالله من كتبهم وألفاظهم ، والدعاء لهما على المنابر، ويُسْقِطوا كلَّ ماثبَتَ فيدواوينهم منرسومهما القديمة والحديثة الواقعة على من كان مضموما إليهما ، ويُزيلوا ما على الأعلام والمَطَارِدِ[1] من ذِكْرهما ، وما وُسِمَت به دوابُّ الشاكريّة والرّابطة من أسمائهما ، ومَحَلُّك من أمير المؤمنين وحالُك عنده على حَسَب ما أخلَصَ اللهُ لأميرالمؤمنين من طاعتك ومناصحتك ومُوالاتك ومشايعتك ما أوجب الله لك بسَلَفك ونفسك ، وما عرّف اللهُ أميرَ المؤمنين من طاعتك ، ويُمْنِ نقيبتك[2] ، واجتهادك في قضاء الحق ، وقد أفردَك أمير المؤمنين بقيادتك ، وإزالةِ الضمّ إلى أبي عبد الله عنك ، وعمَّن في ناحيتك بالحَضْرة وسائر النواحي ، ولم يجعل أمير المؤمنين بينك وبينه أحدا يَرْأَسُك ، وخرج أمرُه بذلك إلى وُلاة دواوينه . فاعلم ذلك واكتب إلى عمالك بنسخة كتاب أمير المؤمنين هذا إليك، وأوعِزْ إليهم في العمل على حَسَبه إن شاء الله والسلام » .

---

(١) المطرد كمنبر : رمح قصير يطرد به .

(٢) النقيبة : النفس .

وكتب أحمد بن الخصيب يوم السبت لِعشرٍ بقين من صفر سنة ثمان وأربعين ومائتين . (تاريخ الطبرى ١١ : ٧٧)

١٤٧ — كتاب البيعة للمعتز بالله

وتُوُفِّى المنتصر بالله سنة ٢٤٨ هـ فَوَلِى الخلافةَ أحمدُ بن محمد بن المعتصم ، ولُقِّب بالمستعين بالله ، وفى عهده قويت شوكة الأتراك .

وفى سنة ٢٥١ انحدر المستعين من سَامَرّا[١] إلى بغداد ، وما لبث الأتراك أن ثاروا به ، وأخرجوا المعتز[٢] بالله وبايعوه ، وكانت نسخة بيعته[٣] :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، تبايعون عبد الله الإمامَ المعتزَّ بالله أمير المؤمنين ، بيعَةَ طَوْعٍ واعتقاد ، ورِضا ورغبةٍ وإخلاصٍ من سرائركم ، وانشراحٍ من صدوركم ، وَصِدْقٍ من نيّاتكم ، لا مُكْرَهين ولا مُجْبَرين ، بل مُقِرِّين عالمين بما فى هذه البيعة وَتأكيدها مِن تَقْوَى الله وَإيثارِ طاعته ، وَإعزاز حقه وَدينه ، وَمن عُموم صلاح عباد الله ، وَاجتماع الكلمة ، وَلَمِّ الشَّعَثِ ، وَسُكُون الدَّهْماءِ ، وَأَمْنِ العواقب ، وَعِزِّ الأولياء ، وَقَمعِ المُلْحِدِين، على أن أبا عبد الله المعتزَّ بالله ، عبدُ الله وَخليفتُه ، المفترَضُ عليكم طاعتُه ونصيحتُه ، والوفاء بحقه وعهده ، لا تَشُكُّون ولا تُدْهِنون ولا تَميلون ولا ترتابون ، وعلى السمع والطاعة والمشايَعة والوفاء والاستقامة والنصيحة فى السرِّ والعَلانية ، والخُفوفِ والوقوفِ عند كل ما يأمر به عبدُ الله أبو عبد الله الإمام المعتزّ بالله أمير المؤمنين ، من موالاة أوليائه ، ومُعاداةِ أعدائه ، من خاصٍّ وعامٍّ ، وقريبٍ وبعيدٍ ، متمسِّكين ببيعته بوفاء العَقْد ، وذمة العهد ، سرائرُكم فى ذلك كَعَلانيتكم ،

---

(١) سامرا لغة فى سر من رأى ، وقد قدمنا كلمة عنها فى ص ١٣٤ .

(٢) وكان المعتز والمؤيد فى حبس فى الجوسق (أى القصر) فى حجرة صغيرة، مع كل واحد منهما غلام يخدمه ، موكل بهم رجل من الأتراك يقال له عيسى خليفة بلبان ، ومعه عدة من الأعوان .

(٣) هى نسخة بيعة المنتصر مع تغيير طفيف ويظهر أنه من الناسخ .

وضمائرُكم فيه كمثل ألسنتكم ، راضين بما يَرْضَى به أمير المؤمنين بعد بَيْعتكم هذه على أنفسكم ، وتأكيدكم إياها فى أعناقكم ، صَفقةً ، راغبين طائعين ، عن سلامة من قلوبكم وأهوائكم ونيّاتكم ، وبولاية عهد المسلمين لإبرٰهيم المؤيّد بالله أخى أمير المؤمنين وعلى ألاّ تسعَوْا فى نقض شىء مما أكّد عليكم ، وعلى أن لا يَميل بكم فى ذلك مَميلٌ عن نُصرة وإخلاص ومُوالاة ، وعلى ألا تُبدِّلوا ولا تغيِّروا ، ولا يرجع منكم راجع عن بيعته وانطوائه إلى غير علانيته ، وعلى أن تكون بيعتكم التى أعطيتموها بألسنتكم وعهودكم بيعةً يطَّلِع اللهُ من قلوبكم على اجْتبائها واعتمادها ، وعلى الوفاء بذمة الله فيها وعلى إخلاصكم فى نصرتها ومُوالاةِ أهلها، لايشوبُ ذلك منكم نفاقٌ ولاَ إدْهَانٌ، ولا تأوُّل، حتى تلقَوُا الله مُوفين بعهده ، مؤدِّين حقَّه عليكم ، غير مُسْتَرِيبين ولا ناكثين ، إذ كان الذين يبايعون منكم أمير المؤمنين ، بيعةَ خلافته وولاية العهد من بعده لإبرٰهيم المؤيد بالله أخى أمير المؤمنين ، إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ ، يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ، فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيماً ، عليكم بذلك وبما أكّدتْ عليكم به هذه البيعةُ فى أعناقكم ، وأعطيتم بها من صَفْقة أيمانكم ، وبما اشترُط عليكم من وفاء ونُصرة وموالاة واجتهاد ، وعليكم عهد الله ، إن عهده كان مسئولا ، وذمّةُ الله عزّ وجل وذمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وما أخذَ الله على أنبيائه ورسله وعلى أحدٍ من عباده من مَواكيده ومَواثيقه ، أن تَسْمعوا ما أُخِذَ عليكم فى هذه البيعة ، ولا تبدّلوا ولا تَميلوا ، وأن تَمسَّكوا بما عاهدتم الله عليه تمسُّكَ أهلِ الطاعة بطاعتهم ، وذوى الوفاء والعهد بوفائهم ، لاَ يَلْفِتكم عن ذلك هوًى ولا ميل ، ولا يُزِيغ قلوبَكم فتنةٌ أو ضلالة عن هدى ، باذلين فى ذلك أنفسَكم واجتهادكم ، ومقدِّمين فيه حقَّ الدين والطاعة والوفاء بما جعلتم على أنفسكم ، لا يقبل الله منكم فى هذه البيعة إلا الوفاء بها ، فمن نكَثَ منكم ممن بايع أمير المؤمنين وولى عهد المسلمين أخا أمير المؤمنين هذه البيعة ، على ما أخذ عليكم ، مُسِرًّا أو مُعْلِنا ،

مُصَرِّحا أو محتالا أو متأوِّلا ، وأدْهَنَ فيما أعطَى اللهَ من نفسه ، وفيما أُخِذَ عليه من مواثيق الله وعهوده ، وزاغ عن السبيل التى يعتصم بها أولو الرأى ، فكلُّ ما يملك كلُّ واحدٍ منكم ممن خَتَرَ(١) فى ذلك منكم عهده ، من مال أو عَقارٍ أو سائمةٍ أو زَرْع أو ضَرْع ، صَدَقةٌ على المساكين فى وجوه سبيل الله ، محبوسٌ محرَّمٌ عليه أن يَرْجِع شيئا من ذلك إلى ماله ، عن حِيلةٍ يقدِّمها لنفسه أو يحتال له بها ، وما أفاد فى بقية عمره من فائدةِ مالٍ يقِلُّ خطَرُها أو يجِلُّ ، فذلك سبيلُها إلى أن توافِيَه منيّتُه ، ويأتى عليه أجَلُه وكل مملوك يملكه اليومَ وإلى ثلاثين سنةً من ذكر أو أنثى ، أحرارٌ لوجه الله ، ونساؤُه يومَ يَلزَمُه فيه الحِنْثُ ومن يتزوج بعدهنَّ إلى ثلاثين سنةً ، طوالِقُ طلاقَ الحَرَج ، لا يقبل الله منه إلا الوفاء بها ، وهو برىء من الله ورسوله ، والله ورسولُهُ منه بريئان ، ولا قَبِلَ الله منه صَرْفا ولا عَدْلاً ، والله عليكم بذلك شهيد ، ولا حَوْلَ ولا قوةَ إلا بالله العلى العظيم ، وحَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوكيل » .

(تاريخ الطبرى ١١ : ٩٨)

١٤٨ — كتاب عن محمد بن عبد الله بن طاهر إلى أهل بغداد
(كتبه سعيد بن حميد)

ولما بايع الأتراك المعتز بسامَرّا ، أمر المستعين محمدَ بن عبد الله بن طاهر بتحصين بغداد ، فتقدَّم فى ذلك ، وعقَد المعتزُّ لأخيه أبى أحمد بن المتوكل على حرب المستعين وابن طاهر وولاّه ذلك ، فسار إلى بغداد فى جمع من الأتراك والمغاربة ، فَصَدَّهم ابنُ طاهر وأوقع بهم ودارت عليهم الدائرة .

وأمر ابن طاهر سَعيد بن حُمَيد فكتب كتابا يذكر فيه هذه الوقعةَ ، فقرئ على أهل بغداد فى مسجد جامعها ، ونسخته :

---

(١) الختر : الغدر والخديعة أو أقبح الغدر ، وفعله كضرب ونصر .

« بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعدُ ، فالحمدُ لله المُنْعِمِ فلا يَبْلُغ أحدٌ شكرَ نعمتِه ، والقادرِ فلا يعارَضُ في قدرته ، والعزيز فلا يَذِلُّ في أمره ، والحكمِ العَدْلِ فلا يُرَدُّ حُكمه ، والناصرِ فلا يكون نصرُه إلا للحق وأهلِه ، والمالكِ لكل شيء فلا يَخرُج أحدٌ عن أمره ، والهادي إلى سبيل رحمته فلا يضِلُّ مَن انقادَ لطاعته ، والمقدِّمِ إعذارَه ليظاهِرَ به حجَّته، الذي جعل دينه لعباده رحمةً ، وخلافتَه لدينه عِصْمةً ، وطاعةَ خلفائه فَرْضا واجبا على كافَّة الأمة ، فهم المستَحفَظون في أرضه على ما بَعث به رسلَه ، وأُمَنَاؤُه على خلقه فيما دعاهم إليه من دينه ، والحاملون لهم على مِنْهاج حقِّه ، لئلا تتشعَّبَ بهم الطُّرُق المخالِفةُ لسبيلِه ، والهادون لهم إلى صِراطه ، ليجمعهم على الجادَّة[1] التي نَدَب إليها عبادَه ، بهم يُحيِي الدين من البُغاة الطاغين ، وحُفِظت معالِم الحق من الغُواة المخالفين ، محتجِّين على الأمم بكتاب الله الذي استعملهم به، ورُعاةً للأمر بحق الله الذي اختارهم له ، إن جادلوا كانت حجة الله معهم ، وإن حاربوا حُكِم بالنصر لهم ، وإن جاهدوا كانت في طاعة الله نصرهم ، وإن بغاهم عدو كانت كِفايةُ[2] الله حائلة دونهم ، ومَعْقِلا لهم ، وإن كادهم كائد فاللهُ من وراء عَوْنهم ، نَصَبَهم الله لإعزاز دينه ، فمن عاداهم فإنما عادى الدينَ الذي أعزَّه وحَرَسه بهم ، ومن ناوأهم[3] فإنما طعن على الحق الذي يَكلَؤُه بحِراستهم. جيوشُهم بالرُّعب[4] منصورة ، وكتائبُهم بسلطان الله من عدوهم محُوطَة[5] ، وَأيديهم بذَبِّها عن دين الله عالية ، وأشياعُهم بتناصرُهم في الحق غالبة ، وَأحزابُ أعدائهم ببغيهم مَقْمُوعة[6] ، وحجتهم عند الله وَعند خلقه داحِضة[7] ، ووسائلُهم إلى النصر مردودةٌ ، وأحكامُ الله بخِذْلانهم واقعةٌ

---

(١) الجادة : الطريق الواضح ، وندبه إلى الأمر كنصر : دعاه وحثه .

(٢) وفى المنظوم والمنثور « نكاية » .

(٣) ناوأه : عاداه ويكلؤه : يحرسه ويحفظه .

(٤) وفى الطبرى « بالنصر والعز » .

(٥) وفيه « محفوظة » وأيديهم عن دين الله دافعة » . (٦) قمعه كمنعه : قهره وأذله .

(٧) دحضت الحجة كمنع : بطلت ، وفى الطبرى « راحضة » وهو تحريف .

وأقدارُه بإسلامهم إلى أوليائه جاريةٌ ، وعادته فيهم وفى الأمم السالفة والقرون الخالية ماضيةٌ ، ليكونَ أهل الحق على ثقةٍ من إنجاز سابق الوعد ، وأعداؤه محجُوجين بما قُدِّم إليهم من الإنذار ، مُعَجَّلةً لهم نقمةُ الله بأيدى أوليائه ، مُعَدًّا لهم العذابُ عند ربهم ، والخزىُ موصول بنَواصيهم فى دنياهم ، وعذابُ الآخرة من ورائهم ، وما الله بظلاَّم للعبيد ، وصلَّى الله على نبيه المصطفى ، ورسوله المرتضَى ، والمنقذِ من الضلالة إلى الهدى ، صلاةً تامَّةً ناميةً بركاتُها ، دائمًا اتصالُها ، وسلَّم تسليما ، والحمد لله تواضُعا لعظمته ، والحمد لله إقرارا بربُوبيَّته ، والحمد لله اعترافا بقصور أقصَى منازِلِ الشكر عن أدنى منزلةٍ من منازل كرامته ، والحمد لله الهادى إلى حَمْدِه ، والموجبِ به مزيدَه ، والمُحْصِى به عوائدَ إحسانه ، حَمْداً يرضاه ويتقبّله ، ويوجِبُ طَوْله وإفضاله ، والحمد لله الذى حكم بالخذلان عَلَى من بَغَى عَلَى أهل دينه ، وسَبَقَ وعْدُه بالنصر لمن بُغِىَ عليه من أنصار حقه ، وأنزل بذلك كتابه العزيزَ موعظةً للباغين ، فإن أقلعوا كانت التذكِرةُ نافعةً لهم ، والحجّةُ عند الله لمَن قام بها فيهم ، ثم أوجَبَ بعد التذكِرة والإصرار جهادَهم ، فقال فيما قَدَّمَ مِن وَعْدِه ، وأبان من بُرهانه : « وَمَنْ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللهُ » وَعْدًا من الله حقا ، نَهَى به أعداءه عن معصيته ، وثبَّتَ به أولياءه على سبيله ، واللهُ لا يُخْلِف الميعادَ .

ولِلّهِ عند أمير المؤمنين ـ فى رئيس دَعوته ، وسيفِ دولته ، والحامِى عن سلطانه، ومَحَلِّ ثقَتِه ، والمتقدِّم فى طاعته ونصيحته لأوليائه ، والذَّابِّ عن حقه ، والقائمِ بمجاهدة أعدائه ، محمد بن عبد الله مَوْلَى أمير المؤمنين ـ نعمةٌ يرغَبُ إلى الله فى إتمامها، والتوفيقِ لشكرها ، والتطوُّلِ بمن أراد المزيدَ فيها ، فإن الله قدَّر لآبائه القيامَ بالدعوة الأولى لآباءِ أمير المؤمنين ، ثم جَمَعَ له آثارَهم بقيامه بالدولة الثانية ، حين حاوَلَ

أعداء الله أن يَطمِسوا معالِمَ دينه ويُعَفُّوها(١)، قام بحق الله وحقِّ خليفته، مُحامِياً عنها، ومُرامِياً مِن ورائها، متناوِلًا للبعيد برأيه ونظره، مباشِرًا للقريب بإشرافه وتفقُّدِه، باذِلًا نفسَه فى كل ما قرَّبه من الله، وأوجب له الزُّلْفَةَ عنده، وسيمنعُ الله أمير المؤمنين به وَلِيًّا مُكانِفا(٢) على الحق، وناصراً مُؤازِراً على الخير، وظَهيرا مُجاهدا لعدوِّ الدين.

وقد علمتم ما كان كتابُ أمير المؤمنين تقدّم به إليكم فيما أحدثته الفِرْقةُ الضالَّة عن سبيل ربها، المفارِقةُ لِعصْمة دينها، الكافرةُ بنعم الله، ونعم خليفته عندها، المبايِنةُ لجماعة الأمة التى ألَّف الله بخلافتِهِ نظامَها، المحاوِلةُ لِتشتيتِ الكلمة بعد اجتماعها، الناكثةُ لبيعته، الخالعةُ لِرِبْقة(٣) الإسلام من أعناقها، المَوالى الأتراك وما صارت إليه من نَصْبِ الغلام المعروف بأبى عبد الله بن المتوكل لإمامتها(٤)، عند مَصير أمير المؤمنين إلى مدينة السلام، محلِّ سلطانه، ومجتمعِ أنصاره وأبناء أنصار آبائه، وما قابَلَ به أميرُ المؤمنين خيانتَهم، وآثرَهُ من الأناة فى أمرهم، ثم إن هؤلاء الناكثين جمعُوا جَمْعا من الأتراك والمغاربة ومَن وَلَجَ فى سوادِهم، ودخل فى غمارهم(٥) مُؤاتياً للفتنة من ألْفافِ(٦) الغَيِّ، ورأَّسُوا عليهم المعروف بأبى أحمد بن المتوكل، ثم ساروا نحو مدينة السلام فى الجانب الشرقىّ، مُعْلِنين للبغى والاقتدار، مُظهِرين للغَيِّ والإصرار، فتأنَّاهم(٧) أميرُ المؤمنين، وفسَحَ لهم فى النَّظِرَة لهم، وأمر بالكتاب إليهم بما فيه تبصيرُهم الرشدَ، وتذكيرُهم بما قدّموا من البيعة،

(١) عفاه كدخل وعفاه: محاه.

(٢) كانفه: عاونه وساعده، والظهير: المعين.

(٣) الربقة واحدة الربق بالكسر، وهو حبل فيه عدة عرى تشد به البهم، والمراد هنا العهد.

(٤) فى الأصل «تاريخ الطبرى»: «من نصر» وفيه أيضا «لإقامتها» وهو تحريف.

(٥) ولج يلج: دخل، وسوادهم: عامتهم، وغمارهم بالضم والفتح: زحمتهم وكثرتهم.

(٦) مؤاتيا: مطاوعا، والألفاف جمع لف بالكسر وهو الحزب والطائفة، من الالتفاف.

(٧) جاء فى اللسان «تأنى فى الأمر أى ترفق وتنظر، استأنى به أى انتظر به، ويقال: تأنيتك حتى لا أناة بى»، وفسح له كمنع: وسع، والنظرة: التأخير.

وإفهامُهم ما لله عليهم وله فى ذلك من الحق ، وأن خروجهم مما دخلوا فيه من بيعتهم طَوْعاً الخرُوجُ من دين الله والبراءةُ منه ومن رسوله ، وتحريمُهم أموالهم ونساءهم عليهم ، وأن فى تمسّكهم به سلامةَ أديانهم ، وبقاءَ نعمتهم ، والاحتراسَ من حُلول النقَم بهم ، وأن يُبيِّنَ لهم ما سَلَفَ من بلائه عندهم ، من أسْنَى المواهِب ، وأرفع الرغائب ، والاختصاص بِسَنِيِّ المراتب ، والتقدُّم فى المَحَافِل ، فأبَوْا إلا تمادِياً ونِفاراً، وتمسُّكا بالغيِّ وإصراراً ، فقلّد أميرُ المؤمنين نَصيحةَ المؤتَمَنَ وَوَلِيَّ محمد بن عبد الله مَوْلَى أمير المؤمنين تدبيرَ أمورهم ، ودعاءهم إلى الحق ما كانت الإنابةُ ، أوْ محاربتَهم إن جَنَح بهم غيُّهم ، وتتلعُّوا[1] فى ضلالهم ، فلم يألُهم[2] نظرًا وإفهاما ، وتبيينا وإرشادا ، وهم فى ذلك رافِعُون أصواتهم بالتوعُّد لأهل مدينة السلام ، بسَفْكِ دمائهم ، وسَبْي نسائهم ، وتغنُّم[3] أموالهم ، وقبلَ ذلك ما كانوا فى مسيرهم على السبيل التى يستعملها أهل الشِّرْكِ فى غاراتهم ، ويميلون إليها عند إمكان النُّهْزة[4] ، لا يجتازون بعامِرٍ إلا أخربوه ، ولا بِحَرِيم[5] لمُسْلِمٍ ولا غيره إلا أباحوه ، ولا بمُسْلِم يعجز عنهم إلا قتلوه ، ولا بمال لمسلم ولا ذِمّيٍّ إلا أخذوه ، حتى انتقل كثير ممن سبقَتْ إليه أخبارُهم ممن أمامَهم عن أوطانهم ، وفارقوا منازِلَهم ورِباعَهم[6] ، وفزعوا إلى باب أمير المؤمنين تحصُّنا من مَعَرّتهم ، لا يمرُّون بغنيٍّ إلا خلَعوا عنه لباسَ الغِنَى ، ولا بمستورٍ إلا هتكوا عن الذُّرِّية والنساء سِتْره ، لا يرقُبُون فى مؤمِنٍ إلًّا[7] ولا ذِمّةً ، ولا يتوقّفون عن مسلم بِهَتْكٍ ولا مُثْلَةٍ[8] ، ولا يرغبون عما حرَّم اللهُ من دمٍ ولا حُرْمة .

(١) المتلع : الشاخص للأمر والرافع رأسه للنهوض والتقدم.
(٢) ألا يألو : قصر . (٣) اغتنمه وتغنمه : عده غنيمة .
(٤) النهزة : الفرصة .
(٥) حريمك : ما تحميه وتقاتل عنه .
(٦) الرباع جمع ربع بالفتح : وهو المنزل . (٧) الإل : العهد .
(٨) مثل به بالتخفيف مثلة ، ومثل به بالتشديد تمثيلا : نكل .

ثم تلقَّوْا التذكِرَةَ بالحرب، وقابلوا الموعِظةَ بالإصرار على الذنب، وعارَضوا التبصيرَ بالاستبصار فى الباطل،فدَلَفُوا[1] نحوَ باب الشَّماسيَّة،وقد رتّب محمد بن عبد الله مولى أمير المؤمنين بذلك الباب والأبوابِ التى سبيلُها سبيلُه من أبواب مدينة السلام الجيوشَ فى العُدَّة الكاملة، والعِدَّة المتظاهِرة، مَعاقِلُهم التوكُّل على ربهم، وحُصونُهم الاعتصامُ بطاعته، وشِعارُهم التكبيرُ والتهليلُ أمامَ عدوهم، ومحمدُ بن عبد الله مولى أمير المؤمنين يأمرهم بتحصين ما يَليهم، والإمساكِ عن الحرب ما كانت مَندوحةٌ[2] لهم، فبادأهم الأولياء بالموعِظة، وبَدَأَهم الغُواة الناكثون بحَرْبهم، وغادَوهم أياما بجموعهم وعِدادهم، مُدِلِّين بعدَّتهم ومقدِّرين أنْ لا غالبَ لهم، ولا يعلمون بالله أنّ قدرتَه فوق قدرتهم، وأن أقدارَه نافذةٌ بخلاف إرادتهم، وأحكامَه عادلةٌ ماضيةٌ لأهل الحق عليهم، حتى إذا كان يوم السبت للنِّصْف من صفر، وافَوْا بابَ الشماسية بأجمعهم، قد نَشَروا أعلامهم، وتنادَوْا بشعارهم، وتحصَّنوا بأسلحتهم، وبدا الأمر منهم لمن عايَنَهم، ليس لهم وعيدٌ دونَ سَفْكِ الدماء، وسَبْيِ النساء، واستباحةِ الأموال، فبدأهم الأولياء بالموعِظة فلم يسمعوا، وقابَلوهم بالتذكِرة فلم يُصْغُوا إليها، وبدءوا بالحرب منابِذِين لها، فتسرَّع الأولياء عند ذلك إليهم، واستنصروا اللهَ عليهم، واستحكمتْ بالله ثِقتُهم، ونفَذَت به بصائرُهم، فلم تزَل الحربِ بينهم إلى وقت العصر من هذا اليوم، فقتل الله من حُماتِهم وفُرسانهم ورؤسائهم وقادَةِ باطِلِهم جماعةً كثيراً عَدَدُها، ونالت الجِراحة المُثْخِنَةُ[3] التى تأتى على من نالَتْه أكثرَ عامَّتهم، فلما رأى أعداء الله وأعداء دينه أنْ قد أكذبَ ظنونَهم، وحال بينهم وبين أمانيِّهم، وجعل عواقِبَها حَسَراتٍ عليهم، استنهضوا جيشاً من « سامَرَّا » من الأتراك والمغاربة: فى العَتاد[4] والعُدَّة والجَلَد والأسلحة،

---

(١) دلفت الكتيبة فى الحرب كضرب: تقدمت.

(٢) مندوحة: أى سعة.

(٣) أثخن فى العدو: بالغ الجراحة فيهم.

(٤) العتاد: العدة.

فى الجانب الغربىّ طالبين المعرَّة ، ومؤمِّلين أن ينالوا نَيْلا من أهله ، باشتغال إخوانهم فى الجانب الشرقىّ بأعدائهم ، وقد كان محمد بن عبد الله مَوْلَى أمير المؤمنين شَحَنَ الجانِبَيْنِ جميعا بالرجال والعُدَّة ، ووكَّل بكل ناحيةٍ مَنْ يقوم بحفظها وحِراستها ، ويكُفُّ عن الرعية بَوَائِق[1] أعدائهم ، ووكَّل بكل باب من الأبواب قائدا فى جمعٍ كثيفٍ ، ورتَّب على السُّور مَنْ يُراعيه فى الليل والنهار ، وبثَّ الرجال ليعرفَ أخبار أعداء الله فى حَرَكاتهم ونهوضهم ، ومُقامهم وتصرُّفهم ، فيعامِل كل حال لهم بحالٍ يفُتُّ اللهُ فى أعضادهم[2] بها ، فلما كان يومُ الأربعاء لإحدى عَشْرَةَ ليلةً بقيت من صفر ، وافى الجيشُ الذى أنهضوه من الجانب الغربى البابَ المعروفَ بباب قُطْرَبُّل[3] ، فوقفوا بإزاء النا كثين المعسكرين بالجانب الشرقىّ من دِجْلة ، فى عددٍ لا يَسَعُه إلا الفضاء ، ولا يَحمله إلا المجالُ الفسيح ، وقد تواعدوا أن يكون دُنُوّهم من الأبواب معا ، لِشَغْل الأولياء بحربهم من الجهات ، فيضعُفوا عنهم ، ويغلِبوا حقَّهم بباطلهم ، أمَلًا كادهم الله فيه غيرَ صادق ، وظنًّا خائبا لله فيه قضاءٌ نافذ ، وأنهض محمد بن عبدالله نحوهم محمدَ بن أبى عَوْن وبُنْدارَ بن موسى الطبرى مولى أمير المؤمنين وعبـــد الله بن نصر بن حمزة من باب قُطْرَبُّل ، وأمَرهم بتقوى الله وطاعته ، والاتّباع لأمره ، والتصرف معَ كِتابه ، والتوقّف عن الحرب حتى تَسْبِقَ التذكرةُ الأسماعَ ، وتنزل الحجةُ بالتتابع منهم والإصرار ، فنفَذوا فى جمع يقابل جمعهم ، مستبصِرِين فى حق الله عليهم ، مسارعين إلى لقاء عدوهم ، محتسِبين خُطاهم ومَسِيرهم وَاثقِين بالثواب الآجِل ، والجزاء العاجل ، فتلقاهم ومن معهم أعداء الله قد أطلقوا نحوهم أعِنَّتهم ، وأشرعوا[4] لِنحورهم أسنَّتهم ، لايَشُكُّون أنهم نُهْزَة المختلِس ، وغنيمة المنتَهِب ، فنادَوْهم بالموعظة نداءً مُسْمِعاً فمجَّتها أسماعُهم ، وعَمِيت عنها

(١) البوائق جمع بائقة : وهى الداهية .
(٢) فت فى عضده : أضعفه .
(٣) اسم قرية بين بغداد وعكبرا ينسب إليها الخمر .
(٤) أشرع نحوه الرمح والسيف وشرعهما : أقبلهما إياه وسددهما له .

أبصارُهم ، وصدَقهم أولياء الله فى لقائهم بقلوبٍ مستجمِعةٍ لهم ، وعِلمٍ بأن الله لا يُخلفُ وعدَه فيهم ؛ فجالت الخيلُ بِهِم جولة، وعاودَتْ كَرَّةً بعد كرة عليهم،طَعْنا بالرماح، وضَرْباً بالسيوف ، ورَشْقا بالسهام ، فلما مسَّهم ألمُ جِراحها ، وكلَمَتْهم[1] الحربُ بأنيابها ، ودارت عليهم رحاها وصَمَّم عليهم أبناؤها ، ظَمأً إلى دمائهم،وَلَّوا أدبارَهم ومَنَحَ اللهُ أكتافَهم، وأوقع بأسَه بهم ، فقُتِلت منهم جماعة لم يحترسوا من عذاب الله بتوبة ، ولم يتحصَّنوا من عقابه بإنابةٍ[2] ، ثم ثابَتْ ثانيةً فوقَفوا بإزاء الأولياء ، وعَبَر إليهم أشياعُهم الغاوُون من عسكرهم بباب الشماسية ألفَ رجل من أنجادهم[3] فى السفن ، معاوِنين لهم على ضلالتهم ، فأنهض محمد بن عبد الله خالدَ بنَ عِمران والشاهَ ابن مِيكال مولى طاهرٍ نحوهم ، فنَفَذوا ببصيرة لا يتخوَّنها فُتُورٌ، وَنيةٍ لا يَلْحَقُها تقصير ، ومعهما العباس بن قارن مولى أمير المؤمنين فلما وَافَى الشاهُ فيمن معه أعداءَ الله وكَّلَ بالمواضع التى يتخوَّفُ منها مَدْخَلَ الكُمَنَاء ، ثم حمل ومن توجَّه معه من القواد المسَمَّيْن ماضِينَ لا يَعُوقهم[4] الوعيد ، ولا يشكُّون من الله فى النصر والتأييد ، فوضعوا أسيافهم فيهم ، تُمْضِى أحكامَ الله عليهم ، حتى ألحقوهم بالمعسكَر الذى كانوا عسكروا فيه وجاوزوه ، وسلبوهم كلَّ ما كان من سلاح وكُراع[5] وعَتادِ الحرب ، فمِن قتيل غُودرتْ جُثته بمَصْرَعه ، ونُقِلت هامَتُه[6] إلى مَصِيرٍ فيه مُعتبَرٌ لغيره ، ومِن لاجئ من السيف إلى الغَرقِ ، لم يُجِرْه الله من حِذاره ، ومن أسيرٍ مصفُودٍ[7] يقادُ إلى دار أولياء الله وحِزْبه ، ومِن هارب بحُشَاشَة[8] نفسه ، قد أسكن

---

(١) كلمه كضربه : جرحه .

(٢) فى الأصل « بأمانة » والظاهر أنها « بإنابة » لتناسب قوله قبل « بتوبة » .

(٣) أنجاد جمع نجد ، والنجد كشمس وكتف ورجل : الشجاع الماضى فيما يعجز غيره .

(٤) فى الأصل « لايثنونهم » وأراه محرفا وصوابه « لايعوقهم » .

(٥) الكراع : اسم يجمع الخيل . (٦) الهامة : الرأس .

(٧) صفده كضربه : شده وأوثقه كأصفده وصفده .

(٨) الحشاشة : بقية الروح فى الجريح والمريض .

الله الخوفَ قلبَه ، فكانت النقّمة بحمد الله واقعةً بالفريقين : مَن وافَى الجانبَ الغربيَّ قادِما ، ومَن عَبَرَ إليهم من الجانب الشرقى مُنْجِدا لم ينْجُ منهم ناجٍ ، ولم يعتصم منهم بالتوبة معتصم ، ولا أقبلَ إلى الله مُقْبِل ، فِرَقًا أربعا يجمعها النارُ » وَيشمَلُها عاجِلُ النَّكال ، عِظةً ومعتَبَرًا لأُولِى الأبصار ، وكانوا كما قال الله عز وجل : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ[1] ، جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ » ولم تَزل الحربُ بين الأولياء وبين الفِرقة التى كانت فى الجانِب الشرقىّ ، والقتلُ محتَفِلٌ[2] فى أعلامهم ، والجِراحُ فاشيةٌ فيهم ، حتى إذا عاينوا ما أنزل الله بأشياعهم من البَوار ، وأحلَّ بهم من النِّقمة والاستئصال ، مالهم من الله من عاصِمٍ ، ولا من أوليائه مَلْجأ ولا مَوْئِل ، وَلَّوا منهزمين مَفْلولين منكوبين ، قد أراهم الله العِبَرَ فى إخوانهم الغاوية ، وطوائفهم المُضِلة ، وضلَّ ما كان فى أنفسهم ، لِمَا رأوا مِن نصر الله لجنده ، وإعزازِه لأوليائه ، والحمد لله رب العالمين ، قامِعِ الغُواةِ الناكبين عن دينه ، والبُغاةِ الناقِضين لعهده والمُرّاق الخارجين من جُمْلة أهل حقه حمْداً مُبَلِّغا رضاه . ومُوجِبا أفضَلَ مَزيده ، وصلّى الله أولا وآخِراً على محمد عبدِه ورسوله الهادى إلى سبيله ، والداعى إليه بإذنه ، وسلَّم تسليما » .

وكتب سعيد بن حُميد يوم السبت لسبع خَلَون[3] من صفر سنة ٢٥١

(تاريخ الطبرى ١١ : ١٠٦ ، واختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٨٤)

---

(١) البوار : الهلاك .

(٢) من احتفل : أى اجتمع .

(٣) هكذا فى الأصل وأراه خطأ وصوابه « بقين » لأن الوقعة استمرت إلى «يوم الأربعاء لإحدى عشرة ليلة بقيت من صفر » كما جاء فى هذه الرسالة .

١٤٩ — كتاب سعيد بن حميد إلى بعض أهل السلطان

وكتب سعيد(١) بن حُميد إلى بعض أهل السلطان فى يوم النَّيروز :

« أيُّها السيد الشريفُ ، عِشتَ أطولَ الأعمار ، بزيادةٍ من العُمر موصولةٍ بفرائضها من الشكر ، لاينقضِى حقُّ نعمةٍ حتى يُجدِّد لك أخرى ، ولا يَمرّ بك يومٌ إلا كان مقصِّرا عما بعدَه ، مُوفِيا عما قبله .

إنى تصفحتُ أحوالَ الأتباع الذين يجب عليهم الهدايا إلى السّادَة ، فالتمستُ التأسِّيَ(٢) بهم فى الإهداء ، وإن قصَّرَتْ بى الحالُ عن الواجب ، وإنى إن أهديتُ نفسى فهى مِلْكٌ لك ، لاحظَّ فيها لغيرك ، ورميت بطَرْفى إلى كرائمِ مالى فوجدتُها منك ، فإن كنتُ أهديتُ منها شيئا فإنى لمُهْدٍ مالَكَ إليك ، ونزَعتُ إلى مودتى فوجدتها خالصةً لك ، قديمةً غيرَ مستحدَثَة ، فرأيتُ إن جعلتُها هديتى لم أجدِّد لهذا اليوم الجديد برًّا ولا لُطفا ، ولم أميِّز منزلةً من شكرى بمنزلة من نعمتك إلا كان الشكر مقصِّرا عن الحق والنعمة ، زائداً على ما تَبلغُه الطاقة ، فجعلتُ الاعترافَ بالتقصير عن حقك هديةً إليك ، والإقرارَ عما يجب لك بِرًّا أتوصَّلُ به إليك ، وقلتُ فى ذلك .

إن أُهْدِ مالاً فَهْو واهِبُهُ ••• وهُوَ الحَقِيقُ عليه بالشكر
أو أُهْدِ شكرى فهْو مرتَهَنٌ ••• بجميلِ فِعلِك آخِرَ الدهرِ
والشمسُ تستغنِى إذا طَلَعتْ ••• أن تستضىء بسُنَّة البَدْرِ(٣)

(العقد الفريد ٣ : ٣٠٧)

---

(١) كان كاتب أحمد بن الخصيب ، وقلده المستعين ديوان الرسائل ، وكان كاتبا شاعرا مترسلا عذب الألفاظ مقدما فى صناعته، وهو من أبناء المجوس . وكان يدعى أنه من أولادملوك الفرس — انظر ترجمته فى الفهرست لابن النديم ص ١٧٩ ومروج الذهب ٢ : ٤٠٨ وتاريخ الطبرى ١١ : ٧٠ والأغانى ١٧ : ٢ .

(٢) قال فى اللسان : التأسى فى الأمور : الأسوة أى القدوة ، وفلان يأتسى بفلان : أى يقتدى به .

(٣) السنة : الوجه .

١٥٠ — كتاب سعيد بن حميد إلى صديق له

وكتب سعيد بن حميد إلى صديق له يوم نيروز :

« هذا يومٌ سَهَّلَتْ فيه السُّنةُ للعبيد الإهداءَ للملوك ، فتعلَّقَت كلُّ طائفة من البِرِّ بحَسَب القدرة والهمة ، ولم أجد فيما أملِكُ ما يَفِي بحقّك ، ووجدت تقريظَك أبلغَ في أداء ما يجب لك ، ومَنْ لم يُؤْتَ في هديّته إلا من جهة قُدرته فلا طعنَ عليه » .

(صبح الأعشى ٢ : ٤٢٠)

١٥١ — كتاب سعيد بن حميد إلى أبي العباس بن ثوابة

وكان سعيد بن حُمَيد صديقا لأبي العباس[1] بن ثَوَابَة ، فدعاه يوما ، وجاءه رسول « فَضْل[2] » الشاعرة ، يسأله المصير إليها ، فمضى معه وتأخر عن أبي العباس ، فكتب إليه رُقعة يعاتبه فيها معاتبةً فيها بعضُ الغلظة : فكتب إليه سعيد :

أَقْلِلْ عتابَك ، فالبقاء قليلُ ... والدهرُ يَعْدِل تارةً ويَميلُ

لم أبْكِ من زمن ذَمَمْتُ صُروفَه ... إلّا بكيتُ عليه حين يزولُ

ولِكلِّ نائبةٍ أَلَمَّتْ مدةٌ ... ولكلِّ حال أقبلَتْ تحويلُ

والمُنتمُون إلى الإخاء جماعةٌ ... إن حُصِّلوا أفناهم التحصيلُ[3]

ولعلَّ أحداثَ الليالي والرَّدَى ... يوما ستَصْدَعُ بيننا وتَحُولُ[4]

---

(١) آل ثوابة بن يونس من بلغاء الكتاب العباسيين ، منهم أبو العباس أحمد بن محمد بن ثوابة (توفي سنة ٢٧٧) ، وابنه أبو عبد الله محمد بن أحمد وكان مترسلا بليغا ، وكتب للمعتضد ، وأخوه أبو الحسين جعفر بن محمد بن ثوابة ، تولى ديوان الرسائل في أيام عبيد الله بن سليمان الوزير ، ثم ابنه أبو الحسين محمد بن جعفر بن ثوابة ؛ ثم ابنه أبو عبد الله أحمد بن محمد بن جعفر بن ثوابة ، ولي ديوان الرسائل بعد أبيه محمد بن جعفر سنة ٣١٢ في أيام المقتدر إلى أن مات وهو متوليه في أيام معز الدولة سنة ٣٤٩ ـ انظر معجم الأدباء ٤ : ١٤٤ ، ٢٤٣ و ٧ : ١٨٧ والفهرست ص ١٨٧ ـ ١٨٨

(٢) جارية مولدة من مولدات البصرة ، أهديت إلى المتوكل ولم يكن في نساء زمنها أشعر منها ـ انظر أخبارها في الأغاني ج ٢١ ص ١١٤ .

(٣) التحصيل : تمييز ما حصل . (٤) يصدع : أي يفرق .

فلَئِنْ سبَقْتُ لَتبْكِيَنَّ بحَسْرة ... ولَيكْثُرَنَّ علىَّ منك عَويلُ
ولتفْجَعَنَّ بمُخلِص لك وامِقٍ ... حَبْلُ الوفاءِ بحبله مَوصولُ[1]
(الأغانى ١٧ : ٦)

١٥٢ — كتاب سعيد بن حميد إلى فضل الشاعرة

وغضِبَت فضل الشاعرة على سعيد بن حميد ، فكتب إليها :

يأيها الظالمُ مالِى ولَكْ ؟ ... أهكذا تَهْجُرُ مَن واصلَكْ ؟
لاتَصرِفِ الرحمةَ عن أهلها ... قد يعطِفُ المَوْلَى على من مَلَكَ[2]
ظلمت نفساً فيك عُلِّقتُها ... فدارَ بالظلم علىَّ الفَلَكْ[3]
تباركَ اللهُ ، فما أعلمَ اللــهَ بما ألْقَى ، وما أغفلَكْ !

فراجعت وصله وصارت إليه جوابا للرقعة .

(الأغانى ١٧ : ٦)

١٥٣ — كتابه إلى فضل الشاعرة

وكتب سعيد بن حميد رُقعة إلى فَضْل الشاعرة يعتذر إليها من تغيُّر ظنها به ، وفى آخرها :

تظنُّون أنى قد تبدَّلْتُ بعدكم ... بديلًا، وبعضُ الظن إثمٌ ومُنكَرُ
إذا كان قلبي فىَ يديكِ رهينةً ... فكيف بلا قلبٍ أصافِي وَأهْجُرُ ؟
(الأغانى ١٧ : ٤)

---

(١) الوامق : المحب .
(٢) المولى هنا : السيد .
(٣) علق فلان امرأة (بالبناء للمجهول) : أحبها .

١٥٤ — كتابه إلى فضل الشاعرة

وتغاضَبَ سعيد بن حميد وفضل الشاعرة أياما ، ثم كتب إليها :

تَعالَىْ نُجدِّدُ عهدَ الرِّضاَ ... ونصفَحُ فى الحبِّ عما مَضَى
ونَجرِى على سُنَّةِ العاشقِينَ ... ونَضمَنُ عنى وعنكِ الرِّضا
وَيبذُل هـذا لِهـذا هوَاهُ ... ويصـبِر فى حُبِّه للقَضاَ
ونَخضعُ ذُلًّا خُضوعَ العبيد ... لِمَوْلًى عزيزٍ إذا أعرَضاَ
فإنِّىَ مُذْ لَجَّ هذا العتَابُ ... كأنِّىَ أُبْطِنتُ جَمْرَ الغَضا[1]

فصارت إليه وصالحته[2] (الأغانى ١٧ : ٥)

١٥٥ — كتابه إلى أبى هفان

وبلغ أبا هَفَّان[3] عن سعيد بن حميد كلام فيه جفاء وطعن على شعره ، فتوعَّده بالهجاء . وكان الحاكى عن ذلك كاذبا ، فبلغ سعيدا ما جرى ، فكتب إلى أبى هفان .

أمْسَى يخوِّفنى العَبْدِى بصولته ... وكيف آمَنُ بأسَ الضَّيْغَمِ الهَصِرِ[4]
من ليس يُحْرِزُنى من سيفه أجَلِى ... وليس يمنعنى من كيده حَذَرِى
ولا أُبارِزه بالأمر يَكرَهُه ... ولو أُعِنْتُ بأنصارٍ من الغِيَرِ[5]

---

(١) الغضا : شجر له جمر يبقى طويلا .

(٢) وقد أورد صاحب الأغانى عدا ماقدمنا مكاتبات شعرية بين فضل وسعيد بن حميد وبينها وبين غيره ، فارجع إليها فى ترجمتيهما فيه .

(٣) هو أبو هفان عبد الله بن أحمد بن حرب الشاعر — انظر ترجمته فى نزهة الألبا فى طبقات الأدبا ص ٢٦٧ .

(٤) الضيغم : الأسد ، و كذا الهصر ، من هصره إذا كسره .

(٥) غير الدهر : أحداثه المغيرة .

له سِهامٌ بلا رِيش ولا عَقَبٍ   وقوسُه أبدا عُطْلٌ من الوَتَرِ (١)
وكيف آمَنُ مَن نَحْوِى له غَرَضٌ   وسَهْمُه صائبٌ يَخفَى عن البصر ؟
(الأغانى ١٧ : ٧)

١٥٦ — كتابه إلى بعض إخوانه

وكتب سعيد بن حميد إلى بعض إخوانه يهنئه بعزل عن عمله :

« جَعَلنى الله من السوء والمكروه فِداءَك ، وأطال فى الخير والسرور بقاءك ، وأتَمَّ نِعمَه عليك ، وأحسن منها مَزِيدَك ، وبلَّغك أقصى أمنيَّتك ، وقدَّمَنى أمامَك ، وقد بلغنى ما اختار الله لك ، فسُرِرْتُ من حيثُ يَغتَمُّ لك مَنْ لا يعرِف قدرَ النعمة عليك ، ولا يراك بعين استحقاقك ، ولَئِن ساءنى ما ساء إخوانَك مِنْ عَزْلك ، لقد سَرَّنى ما يَسَّر اللهُ لك ، والحمد لله الذى جعل انصرافك محموداً ، وقَضَى لك فى عاقبتك الحُسْنَى ، وأقول :

لِيَهْنِكَ أنْ أصبحتَ مُجتَمَعَ الحَمْدِ   وراعِى المَعالِى، والمُحَامِى عن المجدِ
وأنك صُنْتَ الأمرَ فيما وَلِيتَه   ففرَّقت ما بين الغَواية والرُّشْدِ
فلا يَحْسَبِ الباغُون عَزْلَك مَغْنَماً   فإنَّ إلى الإصدار عاقبةَ الوِرْدِ
وما كنتَ إلا السَّيفَ جُرِّدَ لِلوَغَى   فأحْمَدَ فيها ثم رُدَّ إلى الغِمْدِ

وقد قال الأول :

فَمَنْ يكن بوُرُودِ العَزْلِ مكتئِباً   فإنَّنى بُورود العزل مسرورُ
بعد الوِلاية عَزْلٌ يستبين به   طَوْلُ الوُلاةِ ، وبعد العزل تأميرُ

أمَّا ماعندى معَ تصوُّر العاقبةِ لك فى نفسى ، فيمَسُّنى فى أمرك فى حال المِحْنة ما يخصُّنى منه فى وقت تجدُّد النعمة ، وبحَسْب ضميرِك الشاهدِ على ما عندى ما أجده

---

(١) العقب : العصب الذى تعمل منه الأوتار .

لك فى نفسى ، فلا زلتَ فى نِعَم متتابعة متجدِّدة ، ولا عَدِمْتَ الثَّروةَ والزيادة ، وبلَّغك الله أقصى أملك وأملِ أخيك لك ، وكَبَتَ(١) أعداءك ، وجعلنى وقاءك المقدَّم عنك .

أُحبُّ أن تشرح لى صُورة الأمر ، إلامَ تأدَّتْ ؟ وكيف كان الابتداء ؟ فإنى لا أشكُّ أنها حيلةٌ ونِيَّةٌ من عزِّ الصاحب الجليل القدر ، ولها عاقبةٌ منه إن شاء الله محمودة ، وتُفْضِى من ذلك إلى ما تسكُن إليه نفسى ، إن شاء الله » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٠١)

١٥٧ — كتابه إلى بعض إخوانه

وكتب سعيد بن حميد إلى بعض إخوانه يهنئه بعزل عن عمله :

« حَفِظك الله بحِفظه ، وأسبَغَ عليك كرامتَه ، وأدام إليك إحسانه .

إن سرورى بصَرْفك ، أكثرُ من سرور أهل عَمَلك بما خُصُّوا به من ولايتك ، وقد كنتَ أعزكَ الله — فيما يَرْبأ(٢) بك عنه ، بما أنت عليه فى قدرك واستِئْهالِكَ ، وَلكنا رجَوْنا أن يكون سبباً لك إلى ما تستحق ، فطِبْنا نفساً بالذى رَجَوْنا ، فالحمد لله الذى سلَّمك منه ، ونسأله تمامَ نِعمه عليك وعلينا فيك ، بتبليغك أمَلَك وآمالَنا فيك ، وشَفْعِ ما كان من ولايتك بأعظم الدرجات ، وأشرفِ المراتب ، ثم خصَّك الله بجميل الصُّنع ، وبلَّغك غاية المؤمِّلين .

إن من سعادة الوالى — حَفظك الله — وأعظَمِ ما يُخَص به فى عمله وولايته ، السلامةَ من بَوائقِ(٣) الإثم ، ونوائبِ الدنيا وشرها ، والعاقبة مما يخاف منها ،

---

(١) كبته : أذله ورده بغيظه .

(٢) يقال : إنى لأربأ بك عن هذا الأمر : أى أرفعك عنه ، واستأهله : صار أهلا له ومستحقا ، قال صاحب القاموس : وهى لغة جيدة ، وإنكار الجوهرى باطل (إذ يقول : ولا تقل مستأهل ، والعامة تقوله) .

(٣) البوائق جمع بائقة : وهى الداهية .

وقد خصّك الله منها ـ بمنّه وطَوْله ـ ما نرجو أن يكون سببا لك إلى نَيْل ما تستحق من المراتب ، والله نسأل إيزاعَك[1] شُكرَ ما مَنّ به عليك ، وتبليغَك غايةَ أملك في جميع أمورك ، برحمته وفضله » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠١)

١٥٨ — كتابه إلى بعض إخوانه

وكتب إلى بعض إخوانه :

« سرّك اللهُ بتتابع نِعَمه ، وترادُفِ إحسانه ، وزادك من فواضِل أقسامه ، بلغنى ـ أكرمك اللهُ ـ ما وهب الله لك من سلطانك ، فقوّاك الله على ما استرعاك ، ورزقك الشكرَ على ما أولاك ، والسلامة منه فى الدنيا » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٩٩)

١٥٩ — كتابه إلى بعض إخوانه

وكتب إلى بعض إخوانه :

« أنا أهنئُ بكَ العملَ الذى وُلِّيتَه ، ولا أُهنِّئك به ، لأن الله أصاره إلى مَن يُورِده مَوارِدَ الصواب ، ويُصْدِرُه مَصادِرَ الحُجَّة ، ويصونه من كل خَلَل وتقصير ، ويُمْضيه بالرأى الأصيل ، والمعرفة الكاملة ، قَرَن اللهُ لك كل نعمة بشكرها ، وأوجب لك بطَوْلِه المزيدَ منها ، وأوزَعك من المعرفة بها ما يصُونُها من الفِتَن ، ويَحُوطها من النقص » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٩٩)

١٦٠ — كتاب له فى السلامة

« كتابى إليك عن سلامة ، ووَحْشَتى لِفراق البلدِ الذى يجمع السَّادةَ والإخوانَ ، والأهلَ والجيرانِ ، على حَسَب الأُنس بمكانى فيه ، والسرورِ به ، ولكنّ المقدار

---

(١) أوزعه الله : ألهمه .

يَجْرِى فيُتَصَرَّف معه ، وَقَع ذلك بالهَوى أو خالَفَه ، ولئن كانت هذه حالى فى الوَحْشة، إنَّ أكثر ذلك وأوفرَه لِفراقك وما بَعُدْنا من الأُنْسِ بك ، فأسأل الله أن يَهَبَ لنا اجتماعا عاجلاً فى سلامة من الأبدان والأديان ، وغِبْطةٍ من الحال ، وغنًى عن المَطالِبِ برحمته » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٧٥)

١٦١ — كتاب له فى الشوق

« كتابى واللهُ يعلم كيف وَحْشَتِى لك ، لا أوحشَك اللهُ من نعمه ، ولا فرَّق بينك وبين عافيته ، وكان مما زاد فى الوَحشة أنها جاوزت الأملَ المتمكِّنَ فى الأُنْس بقرب الدار ، وتَدانِى المَزارِ ، بحَمد الله عز وجلّ على نعمه ، ونستديمه لك ولنا فيك أجملَ بلائه ، ونسأله ألاَّ يُخْلِيَك من شكره ومَزِيده ، ولو كنتُ فى كل يوم أكتبُ إليك كتاباً ، بل لو شخصتُ نحوَك قاصداً ، لكان ذلك دونَ الحق ، ولكنى غَلِقٌ(١) بما تعلَم من العمل ، وأَكرَه أن أُتابع كتبى فأسلُكَ سبيلا من سُبُل الثِّقَل ، وأقِفُ بمنزلة توسُّطٍ ، أرجو أن أسلَمَ بها من الجفاء والإبرام(٢) ، وأنا وإن أبقيتُ عليك من الزيادة فى شغلك ، فلستُ بممتنعٍ من مسألتك التطولَ بتعريفى جملةً مِن خَبَرك أسكُنُ إليها ، وأعتَدُّ بالنعمة وأحمَدَ الله عليها » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٧٥)

١٦٢ — كتاب آخر

« كتابُك ليس من الحق أن أسألَكَه فى كل ما نَفَذَ لى رسولٌ ، ومن الجفاء(٣) أنْ أُعْفِيَك منه فى كل وقت ، ولكن اسلُكْ بنا سبيلا بين السبيلين نَخْرُج نحن وأنت بها من حَدِّ المُبْرِمين ، وتخرج أنت بها من حَدِّ الجفاء » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٧٥)

---

(١) من غلق الرهن : إذا لم يفتكك فى الوقت المشروط، والمعنى أنى مقيد بقيود من العمل لا أحل منها ، مرهق بالشواغل الجمة التى ملكت على أوقاتى .

(٢) أبرمه : أضجره . (٣) فى الأصل « رسول من الجفاء . . . » .

١٦٣ — كتاب آخر

« أنا أتعمّد فى كتبى إليك ما يخِفُّ ويسهلُ عليك ، فأُمْسِكُ عن الكتاب أحياناً بالإبقاء[1] ، وأَكتُبُ أحياناً لئلاَّ يُتَوَهَّم علىَّ الجفاء ، فإن يَجْرِ الأمر عندك فيها هذا المَجْرَى ، وإلاَّ فالمُستَعتَبُ قريب ، ومتابعةُ الكتبِ علىَّ سهلٌ مُمْكِنٌ » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٧٥)

١٦٤ — كتاب له فى توصية

« مَن شكَرَ فقد قَضَى حقَّ النعمة ، واستوجَبَ من المنعمِ الزيادةَ . وقد شكر فلانٌ ما وعدتَه فى حاجته ، فاستوجَبَ الإنجاز بالشكر ، وكلُّ ما ناله من مَرْفَقٍ وحظٍّ فهما واصلان إلىَّ دونَه ، فأحبُّ أن تأتِيَ فى أمره ما أنت أهلُه » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٣)

١٦٥ — كتاب له فى الاعتذار

« مَن قَبِلَ عذرك فى ترك إجابته فلا قبِلَ اللهُ عذرَه ، ومن حَسَّن أمرَك فى تركك ابتداءه بالكتاب فلا حسَّن الله أمرَه ، فإنك الآن بفضل حِذْقك أردتَ أن تجفوَنى بحُجَّة ، وتقصِّر فى بِرِّى ببرهان قاطعٍ يقوم عند الجاهل — غيرِك — مقامَ المقبولِ من الأمر ، ولكنه إذا تصفَّحه أهلُ النظر علموا أنه طَرَفٌ من الحيلة استعملتَه ، وطريقٌ من الغَدر سلكتَه ، واللهِ إنَّ فى طمعك فىَّ أنْ أقبلَ إقرارَك بالعجز عن إجابتى ، لَمُساومةً منك بعقلى ، وتشكيكٌ لى فيما تحيط به معرفتى ، وتُقِرُّ لى بالجهل من حيثُ شهِدْتَ بالعلم لى ، وأبلَغُ للناقضةِ ما لم تطُلْ فيه المجاذبة ، وما استُشْهِد فيه على المُنازع من قوله ، وعُدِل عن التماس الدليل من جهةٍ تُبعِد بينه وبين صاحبه ،

(١) أى بسبب الإبقاء عليك ، والإشفاق من الزيادة فى شغلك ، لعلمى بكثرة أعمالك .

قد صدَقْتَ - أعزك الله - فى كلّ ما قدَّمتَ من الدعوى ، وفَلَجْتَ[1] فيما ذهبت إليه من الحجَّة ، وعَجَزت بالحقيقة عما انتحلتَ العجزَ عنه فى الظاهر ، فقد كتبتَ إلىَّ كتابا لم تعدُ فيه طريقَ العادة ، هو كتابنا ، فا كتب الآنَ الجوابَ ، وأنت محمودٌ يا صَلِفُ[2] ، وحَسْبي من معاتبتك ، فليس يجبُ للفارغ أن يكلِّف المشغولَ النظرَ فى أكثرَ من هذا المقدار من كتابه فيما لا يُجْدِي ولا يعود بحظٍّ » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٩٠)

١٦٦ — كتاب تعزية له

« إذا استوى المعزَّى والمعزِّى فى النائبة ، استُغْنِيَ عن الاكثار فى الوصف لِمَوقع الرزيّة ، والعُذرُ فى التأخّر يكاد ظهوره يُنْبِيْ عن التنبيه عليه ، وأنت أولىَ بما تتطوّل به فى قَبُوله ، وأنا أقول : إنا لله وإنا إليه راجعون ، إقرارا له بالمَلَكة ، واعترافا بالمَرْجِع إليه ، وتسليما لقضائه : ورِضاً بمواقع أقداره ، وأسأل الله أن يصلِّيَ على محمد صلاةً متصلةً بركاتُها ، وأن يوفّقك لما يُرضيه عنك قولا وفعلا ، حتى يُكمِل لك ثوابَ الصابر المحتسب ، وجزاء المطيع المتنجِّز للوعد ؛ ويرحم فلانا ويُحِلّه أعلى منازِل أوليائه الذين رَضِيَ سعيَهم ، وتطوّل بفضله عليهم ، إنه ولىٌّ قدير » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ، ؟

١٦٧ — كتاب تعزية له إلى محمد بن عبد الله بن طاهر

وكتب تعزية إلى محمد بن عبد الله بن طاهر عن بعض أوليائه :

« وردَ علىّ الخبرُ - أعز الله الأمير - بحادثِ قضاء الله فى الولىِّ الناصح ، المطيع الشاكر ، فلان - رحمه الله - فكان وقْعُ المصاب به على حَسَب على بمحلِّه كان من

---

(١) أى انتصرت وظفرت .

(٢) الصلف بالتحريك : مجاوزة قدر الظرف والادعاء فوق ذلك تكبرا .

الأمير وما يرعاه من حق طاعته ونصيحته ، وما يَجْرى عليه من أدبه وسلوك نَهْجه ، والتمسُّك بأمره ، وما يوجبه الأمير لمن وَسَمه بمعروفه ، وشرّفه باختياره ، واختصّه بالقرب من خدمته ، هذا مع ما أخلَصَ اللهُ بيني وبينه من المودة الصادقة ، والثقة الصحيحة التي بعثتنا على التمسك بحَبْل الأمير ، والاتصال بأسبابه ، والوقوف في ظِلِّه ، فإنَّ الله عز وجل جعل ذلك سببا يجمع أهله ، وإن اختلفت بهم الأسبابُ ، وتفرقت بهم الديارُ ، وتباعَدَت الأشكالُ .

وأعظمَ اللهُ للأمير الأجرَ ، وأجزَلَ له المثُوبة والذُّخْرَ ، وجعل اللهُ الأمير وارثَ أعمارِنا ، والباقيَ بعدنا ، والمؤمَّل لخُلُوفنا وأعقابنا ، ورَحِم اللهُ أبا فلان ونَقَله إلى جنته التي لايجاوزها أمَلٌ ، ولا يوازيها خَطَر ، فما أكادُ أشهَد مَشْهَدًا من مشاهد التمييز والنظر ، إلا وهم شاهدون له بالفضل الذى شرّفه به اصطناعُ الأمير واختيارُه والنصيحة له ، وقدّمه الله به على أكفائه[1] ، فلقد رفعه الله به إن شاء اللهُ في حياته [وأورثه[2]] ثناء جميلا بعد وفاته » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠٧)

١٦٨ — تعزية له في مثله

« لولا أن التعزية على المصائب سبيل لايُنْكَر على مِثْلى مِن خدمِ الأمير وعبيدِه سلوكُها ، لأجلَلْتُ الأمير أن أذَكِّرَه من الصبر وحسن العزاء بما أعلَمُ أنه بفضل نعمة الله عليه ، وما خَوَّله من العلم الذى جعله به قدوة ، وإنما أسأل الله عز وجل أن يوفق أمير المؤمنين لِما يُعْظِم به أجرَه ، ويُجْزِل به مَثُوبَتَه ، ولا يَهُدّ له ركنا ، ولا يُرِيه في شيء من عواريه لديه ومَنائِحِه نقصاً ولا غِيَرًا ، ولا تبديلا ، بمَنِّه ولطفه » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠٧)

---

(١) في الأصل « والنصيحة له التي قد الله به على كفاية » وهو تحريف .
(٢) زدت هذه الكلمة لتستقيم العبارة .

١٦٩ — كتاب له

وكتب :

« شُغْلك يَقطعنا عن مطالبتك بالحق فى جوابات كُتُبنا إليك ، وصِدْقُ مودَّتنا لك يمنعنا من التقصِّى فى الحُجَّة عليك ، ومن يَكِلك إلى رأيك فإنه لا يَنِى بك إلا لك ، صِلةَ إخوانك والتعاهُدَ لهم من برِّك بما يُشْبه فضلَك ، والنعمة عليهم فيك .

وفلان بينى وبينه مودةٌ أقدِّمه بها على الأُخُوَّة ، لأنك تعلم قُرْبَ ما بين المودَّة والقرابة ، وقد بَلَوْتُه(١) على الحالات كلِّها ، فلم يزدنى اختبارُه إلا اختياراً له ، ولا أعلم بالعسكر جليلا إلاَّ وهو لى صديق ، يشكر بشكره ، ويوجب على نفسه المِنَّةَ فيما آتِى إليه ، فأمَّا مَن بين إخوانه فلست أعدِلُ عن قضاء حقه ، ولا أتأخَّر عن معروفٍ أُسْدِى إليه ، فإن رأيتَ أن تُحِلَّهُ بالمَحَلِّ الذى يستحقه بنفسه وسَلَفِه ، فوالله ما رأيتُ سُوقَ الأحرار أنفَقَ(٢) منها عندكم ، أهلَ البيت ، أبقى الله تبارك وتعالى باقِيَكم ، وَرَحِم ماضيَكم » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ٢٥٩)

١٧٠ — تحميد له فى فتح

وله تحميد فى فتح عن وَصِيف :

« أما بعد ، فالحمدُ لله الحميد المَجِيد ، الفعَّالِ لِمَا يُرِيد ، الذى خلق الخلق بقُدرته ، وأمضاه على مشيئته ، ودبَّره بعلمه ، وأظهر فيه آثار حكمته التى تدعو العقولَ إلى معرفته ، وتَشهَدُ لذوى الألباب بربُوبيَّته ، وتدلّ على وَحْدانيته ، لم يكن له شريك فى ملكه فينازِعَه ، ولا مُعِينٌ على ما خَلَق فتلزَمُه الحاجةُ إليه ، فليس يتصرَّف عبادُه فى حال إلا كانت دليلا عليه ، ولا تقعُ الأبصار على شىء إلا كان شاهدًا له ، بما

---

(١) بلاه يبلوه : اختبره . (٢) أى أروج .

وَسَم فيه من آثار صُنعه ، وأبان فيه من دلائل تدبيره ، إعذاراً بِحُجّته ، وتطوُّلا بنعمته ، وهدايةً إلى حقه ، وإرشاداً إلى سبيل طاعته « وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ، وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

والحمد لله العزيز القهّار ، الملك الجبّار ، الذى اصطفى الإسلام واختاره ، وارتضاه وطهّره ، وأعلاه وأظهَرَهُ ، فجعله حُجةَ أهلِه على من شاقّهم[١] ، ووسيلتَهم إلى النصر على مَن عَنَد[٢] فى حقهم ، وابتغى غيرَ سبيلهم ، وبعث به رسلَه يدعُون إلى حقه ، ويَهْدُون إلى سبيله بالآيات التى يبينُون بها عن المخلوقين ، ويُوجبون بها الحجةَ على المخالفين ، حتى انتهت كرامةُ الله إلى خاتَمِ أنبيائه ، وحامل كتابه ، ومفتاحِ رحمته صلى اللهُ عليه وسلم عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ من الرُّسُلِ ، واختلافٍ من المِلَل ، ودُثُورٍ[٣] من أعلام الحق ، واستعلاء من الباطل ، والناسُ عاندون عن سبيل ربهم ، يتسافكون دماءهم ، ويُحِلُّون ما حرَّم الله عليهم ، ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ، وأيّده بالبرهان الواضح ، والحُجَج القواطع ، والآياتِ الشواهد ، وأنزل عليه كتابه العزيز الذى لا يأتيه الباطِلُ من بينِ يدَيْهِ ولا مِنْ خَلْفِهِ ، تنزيلٌ من حكيمٍ حَمِيدٍ ، وجعَل فيه أوضَح الدليل على رسالته ، وأعدلَ الشواهد على نبوّته ، إذ عَجَزَ المخلوقون عن أن يأتُوا بمثله على مَرِّ الأيام ، وكثرة الأعداء والمنازعين ، يتحدّاهم به فى المواسم ، ويَقْصِدهم بِحُجّته فى المحافِل ، ولا يزدادون عنه إلا حُسُوراً[٤] وعجزا ، ولا تزداد حجة الله عليهم إلا ظهُورا وعلُوّا ، ثم أيّده بالنصر بأنصارٍ ألَّف بينهم بطاعته ، وجَمَعهم على حقه ، ولَمَّ شَعَثَهم بنُصرة دينه ، بعد الشِّقاق المتصِلِ بينهم ، والحروب المفرِّقة لجماعتهم كما قال عز وجل : « هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ » وقدَّم إليه وَعدَه بالنُّصرة والتمكين ، فجعله بُشْرَى للمؤمنين ، وحُجة على الكافرين ، ودليلا على ما بعثه

---

(١) أى خالفهم وعاداهم .
(٢) أى مال .
(٣) دثر الأثر كدخل دثورا : درس .
(٤) أى كلالا وانقطاعا .

به من الدين ، فهزَم بالقليل مِن عددهم الكثيرَ من عدد أعدائهم ، وغلب بضعفائهم أهلَ القوة ممن ناوَأهم[1] ، ففلَّ به حَدَّهم ، وفضَّ جموعهم ، وافتتح حصونَهم وحَرِيزَ[2] مَعَاقِلِهم ، وأظهر بحجته ونصره عليهم ، وأنجز سابق وَعْدِهِ لهم وفيهم ، وَاللهُ لاَ يُخْلِفُ المِيعَادَ » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٨٢)

١٧١ — فصول لسعيد بن حميد في المودة

وكتب سعيد بن حميد :

« إنى أهديتُ مودتى رغبةً إليك ، ورضيتُ بالقَبول منك مَثُوبةً ، فصرتَ بقبولها قاضيا لحقّ ، ومالكا لِرقّ ، وصرتُ — بالتسرع إلى الهدية ، والتخيُّر للمَثُوبة — مُرْتَهَنَ اللسان بالرضا ، واليَدَيْن بالوَفا » .

* * *

وفصل له :

« إنى صادقتُ منك جوهر نفسى ، فأنا خير محمودٍ على الانقياد لك بغير زِمام ، لأن النفس يقود بعضها بعضا » .

* * *

وفصل له :

« لسانى تَرَطّب بذكرك ، وقلبى معمور بمحبتك ، حضرتَ أو غِبتَ ، سِرْتَ أو أقمت » . (العقد الفريد ٢ : ١٩٢)

---

(١) أى عاداهم .

(٢) الحريز : الحصين ، والمعقل كمجلس : الملجأ .

١٧٢ — كتاب سعيد بن عبد الملك إلى سعيد بن حميد

وكتب سعيد بن عبد الملك إلى سعيد بن حُمَيْد :

« أكرَهُ — أطال الله بقاءك — أن أُضَيِّعك ونفسى موضعَ العُذْر والقَبول ، فيكونَ أحدُنَا معتذِرا مقصِّرا ، والآخَرُ قابِلا متفضِّلا . ولكن أذكُرُ مافى التَّلاقى من تجديد البِرِّ ، وفى التخلُّف من قِلّة الصبر ، وأسأل الله تعالى أن يوفقك وإيَّانا لِما يكون منه عُقبى الشكر » .

١٧٣ — رد سعيد بن حميد عليه

فأجابه سعيد بن حميد :

« وصل كتابك — أكرمك الله تعالى — الحاضِرُ سرورُه ، اللطيفُ موقعُه ، الجميلُ صُدُورُه ومورِدُهُ ، الشاهِدُ ظاهِرُه على صِدق باطِنِه ، ونحن — أعزك الله — نجعل عَزاءك الاعترافَ بفضلك ، ومجازاتَك التقصيرَ دونك ، ونَرى أنْ لاعذرَ فى التخلُّف عنك وإنْ حالَ الاشتغالُ بيننا وبينك ، فإن كنتَ سامحتَ على العُذْر قبل الاعتذار ، وسبقْتَ إلى فضيلة الاغتفار ، فلا زلتَ على كل خيرٍ دليلا ، وإليه داعيا ، وبه آمرا ، وقد التقينا قبل وصول كتابك لِقاء أحْدَثَ قَطْرًا[1] ، وهاجَ شوقًا ، وأرجو أن تتّسع لنا الجمعة بما فاضت به الأيامُ ، فننالَ حظًّا من محادثتك والأُنسِ بك » .

(زهر الآداب ٣ : ٣٦١)

١٧٤ — كتاب لسعيد بن عبد الملك فى السلامة

« أما بعدُ ، فإن أَوْلَى نعمةٍ تُشكَر وتُقبَل ، نعمةٌ خَصَّت فاستقامت بها الأمورُ واقعةً بمصالحها ، جاريةً على أقصد[2] سُنَنها ، وأجَلِ ما وَلِيَ اللهُ به منها ،

---

(١) أى قطر الدموع ، كناية عن شدة تأثير اللقاء .

(٢) أى أقوم : أفعل ، من القصد وهو استقامة الطريق .

وعمّتْ فألّفت البشرَ ، وجمعتِ الكلمةَ ، وآمنتِ السِّرْبَ[1] ، وسكنَتْ بها الدَّهماء[2]

وإن أمير المؤمنين كتَبَ إليك ، وهو من ترادُف النعم الخاصَّة عنده فى نفسه وولده وأدانيه وأوليائه ، من شمول السلامة والنعمة والصُّنع وتتابعه فى رعيته وأموره بحضْرته وقاصيته وكذا . . .

فالله يتولى لأمير المؤمنين فى ذلك شكرَ تفضّله ، وإليه الرغبةُ فى إدامة أحسن ما أنعم به عليه ، إنه ولىّ قدير » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٦٦)

١٧٥ — كتاب له فى سلامة الفطر

« أما بعدُ ، فإن الله هو وَلِىُّ أمير المؤمنين فيما استحفظه من النظر فى سياسة عباده ومراعاة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وإقامة شرائع دينه ، ودَلالة الأمة إلى مَراشِدها فى قضاء حق الله عليها ، وجَمْعها فى المواطن التى ندَبها إليها ، وجعل نَوافِل[3] الخير والبِرّ فيها ، فأدام الله صلاحها ، ولا أخلاها من بَرَكة رعايته ، ومن ولايته وسياسته ، ولا زالت فى كنَف السلامة بسلامته ، وظلِّ العافية بعافيته ، وعلى سبيل نجاة هدايته .

وقد كتبتُ إلى أمير المؤمنين فيما وليَه الله به فى مَخرَجه إلى عِيده من يوم فِطْره ، وما وفّقه له من التقرب إليه بوسائل التذلّل فى طاعته ، والاجتهاد فى شكره ، والمناصحة فى مخاطبة مَن حضَره ، وإنصاتهم لوعظه وتذكيره ، وما وَلِيَه اللهُ به من العافية والسلامة الشاملة ، والنعمة الكاملة (والسلامة[4] التامة) والعز الموصول بالسكينة ،

(١) السرب : النفس . (٢) الدهماء : جماعة الناس . (٣) النافلة : العطية .

(٤) هكذا فى الأصل ، ويلاحظ أن كلمة « السلامة » قد تقدمت ، فلعله سهو من الناسخ ، أو قد يكون الأصل « والسلطة التامة » .

والإخبات[1] والخشوع ، وحُسْن الرغبة والدَّعَة والوقار والاستغفار والتكبير ، والتهليل ، وما منحه الله من كثرة الدعاء ممن شاهد من خاصَّته وعامَّته ، ومَن أوفى من البُلدان والأمْصار ، وآتاه مِن تفرُّغهم لشكر النعمة عليهم ، وأفرشهم[2] من عدله وإحسانه ، وفضلِه وامتنانه ، وأعانهم على ما كانوا يتشوَّفونه[3] ، ويُعِدُّون له فى أعيادهم ، مِن رفع حوائجهم وذِكْرِ مَظالمهم ، مَنًّا من الله خصَّ به خليفتَه ، وأعطاه فضلَ مزيته ، بما وفَّقه له من العدل والنَّصَفة ، والبِرّ والمَرْحَمَة ، والعطف[4] والرأفة ، كتابا أمرت بنَسْخه لك آخِرَ كتابى هذا ، فافعل وافعل . . . والسلام » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٧١)

١٧٦ — كتاب له فى الاعتذار

« حَفِظَكَ الله بمغفرته ، وعاد عليك وعلينا بعفوه ، فنسأل الله ما لا يقبلُه على العلم والقدرة غيرهُ ، لو بُدِّلتُ مكانَ سوء الظن أحسنَه ، وتيقنتُ أن قليل ما يُلِمُّ بصديقى — ممَّا يَطرِفُ عينَه ، ويؤذيه سماعُه ، دون ما يخاف مِن لوَاحِق[5] عيبه — لا يُزايلُ خَلَدِى الاهتمامُ به ، حتى يجعلَ اللهُ مَخرَجا ، كنتُ روَّحتُ عن قلبك وعنى فى استبطائك » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٩)

١٧٧ — تعزية لسعيد بن عبد الملك

« لكل مُعَزٍّ — أعزَّ الله الأمير ، سبيلٌ فى موقعه من التعزية والعزاء ، وحَقُّ الأمير لا يَقضيه طولُ السعى فيه ، لجلالة خَطَرِه ، وعِظَم قَدْره ، وكلُّ ما أُدِّى إليه منه

---

(١) أخبت : خشع وتواضع .

(٢) من أفرش فلانا بساطا : إذا بسطه له كفرشه .

(٣) تشوف إليه : تطلع .

(٤) فى الأصل « والعطة » وهو تحريف .

(٥) فى الأصل « من لوحق عيبه » وأراه محرفا .

فهو دون ما يجب له (وما[1] قصَّر عنه) لفضلِ منزلته ، وارتفاع مَزيد النعمة عليه وتَوَالِيها[2] ، فإن النعم على الأمير متكاملة قد وفَّرته عن الجزع لحادثِ المصيبة، وذلَّته بالتقوى لخالص الشكر ، وعلَتْ به فى كل أمرٍ يحدُث له أو عليه ، وحطَّت درجةَ مِثلى عن تعزيته إلا بالدعاء ، فثبَّت الله الأمير بعزيمة الصبر ، ووفَّاه متكاملَ الأجر وزاده فى مدة العمر ، ولا أخلاه فى السَّرَّاء والضرَّاء من نعمة تثبِّته على شكر يجمع له به ذخائر البر ، ووهب لميِّتهِ رضوانَه ومغفرته ، وبَرْدَ عفوه فى جنته التى لايجاوزها أملٌ ، ولا يَبْلُغها خَطَر » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣١٢)

١٧٨ — تعزية له

« المصائب ـ أكرمك الله ـ هدايا لقوم ، وبلايا على آخرين ، فجعلك الله ممن عَقَل ، عند ما استعمَلَ الشكرَ عند الإمتاع ، والصَّبر عند الارتجاع » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣١٧)

١٧٩ — كتاب له فى توصية

« للمودة أسباب تؤدِّى إلى اتصال المحبة ، واجتماع المودة ، واتِّساق نَظْم الأُخوَّة وكتابى هذا من أسبابها القوية ، إذ كان فى سبيل البرِّ والمَثُوبة ، ولفلان قِبَلك حاجة ، فافعل وافعل » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٩٣)

---

(١) ما هنا نافية ، والجملة حالية .

(٢) فى الأصل « وتواهيها » وهو تحريف .

١٨٠ — كتاب آخر

« كتابى إليك لك ، فإن قبِلْته كان شبيها بكرمك ونعمةِ الله عندك ، وما أقبَلُ منك إلّا أن تقبَلَه ولا تؤخّره ، وهو أنك قد عرَفتَ مايجب لفلان ، وما كتبتُ به له ، وما أرجِع عليه بلوْمٍ فى حسن ظنّه بك ، وصبرِه عليك ، ووفائِه لك ، ولا أرضَى منك أن تَغفُلَ عنه ، وأن تجمل حاجته فيما تدافِـع به أو تعتلّ فيه ، فقد ضَمِنْتُ له عنك أن يكون جوابه النُّجحَ ، وقد اقتصر على كتابى واقتصرت له عليه ، وأرجو ألَّا تُخالَّ به ، ولا تردَّه بغير حظ إن شاء الله » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٩٣)

١٨١ — كتاب له فى إطلاق محبوس

« معرفتى أنك لاتجاوز فى العقوبة سبيلَها من مواقع الأدب بالحق ، تحمِلُنى على مسألتك ما أنت مُوجِبٌ له ، والذِّكرَى تنفع المؤمنين ، ولولا ذلك لاستغنى صاحبُ كتابى عنه ، فإن كان ذنبه صغيرا ، فالعقوبةُ تُخْرِجه من حبسه ، وإن كنت تناهيتَ فى حبسه إلى مدة ذَنبه ، فالحقُّ يُخرجه ، وكتابى متقاضٍ لك » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٩٤)

١٨٢ — كتاب له

وكتب سعيدُ بن عبدالملك :

« كتبتُ ـ على شُغْلٍ ـ فى قِطْعٍ من القِرطاس ، ولم يَقطع بى حسنُ الظن بك فى قبولك العذرَ ، وتحسينِك ما أنت أهل لتحسينه ، فإنك تَقْبَل دونَ حقك ، وتَهَب الذنبَ فيه ، فيكُون شـكرك جاريا على سبيلين ، كلاهما يُبين لك عن فضلك ، ويُوجِب لك مالا يقصُر معهُ إلا مَغبُونُ الحظّ ، خسيسُ النصيب » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ٢٦٤)

١٨٣ — ومن فصوله

فصل له :

« أنا صبٌّ إليك ، سامِي الطَّرْفِ نحوَك ، وذِكْرُك مُلْصق بلساني ، واسمُك حُلْوٌ على لَهَواتي(١) وشَخصُك ماثِلٌ بين عينيَّ ، وأنت أقربُ الناس من قلبي ، وآخَذُهم بمَجامِع هواي » .

***

وفصل له :

« لنحن أحقُّ بابتدائك بما ابتدأتَنا به من الصِّلة ، إلا أنك أحقُّ بالفضل الذي سبقْتَنا إليه » . (العقد الفريد ٢ : ١٩٢)

١٨٤ — كتاب محمد بن عبد الله بن طاهر إلى المعتز

وطفِق أمرُ المستعين يَضْعُف ، والمعتزّ يقْوَى ، فلما رأى ذلك محمد بن عبد الله ابن طاهر كاتَبَ المعتزَّ ، وَجَنَح إليه ، ومال إلى الصلح على خَلع المستعين ، وكانت عاقبةُ أمره أنْ خَلَع نفسه من الخلافة وبايع المعتز (سنة ٢٥٢) فأخذ له ابن طاهر البيعةَ ببغداد ، وأشهد عليه الشهودَ من بني هاشم والقضاة والفقهاء والقواد ، وأخذ منه البُرْدةَ والقضيب والخاتم ، ووجَّه ذلك مع أخيه عُبيد الله بن عبد الله بن طاهر إلى المعتز بسامَرَّا ، وكتب إليه :

أما بعد ، فالحمدُ لله مُتمِّم النعم برحمته ، والهادي إلى شكره بفضله ، وصلّى الله على محمد عبده ورسوله الذي جمَعَ له مافرّق من الفضل في الرسل قبْلَه ، وجعل تُراثه راجعا إلى من خصَّه بخلافته وسلم تسليما .

---

(١) لهوات جمع لهاة : وهي اللحمة المشرفة على الحلق .

كتابى إلى أمير المؤمنين ، وقد تمَّم الله له أمرَه ، وتَسلَّمتُ تُراثَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ممن كان عنده ، وأنفذْتُه إلى أمير المؤمنين مع عُبَيد الله ابن عبد الله مَوْلى أمير المؤمنين وعبدِه » .

(تاريخ الطبرى ١١ : ١٣٧)

وجاء فى مروج الذهب للمسعودى :

وقدِمَ على المعتز عبيد الله بن عبد الله بن طاهر أخو محمد بن عبد الله بالبردة والقضيب والسيف وبجوهر الخلافة ومعه شاهك الخادم ، وكتب محمد بن عبد الله إلى المعتز فى شاهك :

« إن من أتاك بإرْث رسول الله صلى الله عليه وسلم لجَديرٌ أنْ لا تُخْفَر ذِمَّتُه[(١)] »

(مروج الذهب ٢ : ٤٢٠)

ثم أُحْدِر المستعين إلى « واسِط » وقُتِل فى شوَّال من سنة ٢٥٢ هـ .

١٨٥ — كتاب محمد بن عبد الله بن طاهر إلى عمال النواحى

ولما أفضَتِ الخلافة إلى المعتز ، أمر بالعَقْد لأنصاره على النواحى ، وأطلقهم فى أشعار أعدائهم وأبشارهم[(٢)] ودمائهم ، فلما بلغ محمدَ بن عبد الله بن طاهر ما أمر به فى النواحى أنشأ كتابا نسخته :

« أما بعد : فإن زَيْغَ الهوَى صَدَفَ[(٣)] بكم عن حَزْم الرأى ، فأَقْحَمَكم[(٤)] حبائلَ الخَطأ ، ولو ملَّكتم الحقَّ عليكم ، وحكّمتُم به فيكم ، لأَوْرَدَكم البصيرةَ ، ونفى عنكم غَيابَةَ[(٥)] الحَيْرة ، والآنَ ، فإن تجنَحوا[(٦)] للسَّلْم تَحقِنوا دماءكم ، وتُرْغِدوا

(١) أخفره : نقض عهده وغدره .

(٢) أشعار : جمع شعر كشمس وسبب ، وهو معروف ، وأبشار : جمع بشر كسبب : وهو ظاهر الجلد جمع بشرة كرقبة ، والمعنى : أباح لهم ضربهم وجلدهم .

(٣) صدف عنه كضرب : أعرض ، وصدفه : صرفه . (٤) أى رمى بكم .

(٥) غيابة كل شىء : ماسترك منه . (٦) تجنحوا : تميلوا .

عيشكم ، ويصفح أمير المؤمنين عن جريرة[١] جارمكم ، وأخلى لكم ذروة سبوغ النعمة عليكم ، وإن مضيتم على غلوائكم[٢] ، وسوّل لكم الأمل أسوأ أعمالكم ، فأذنوا[٣] بحرب من الله ورسوله بعد نبذ[٤] المعذرة إليكم ، وإقامة الحجة عليكم ، ولئن شنّت الغارات ، وشبّ ضرام[٥] الحرب ، ودارت رحاها على قطبها ، وحسمت[٦] الصوارم أوصال حماتها ، واستجرت العوالى[٧] من نهمها ، ودعيت نزال[٨] ، والتحم الأبطال ، وكلحت[٩] الحرب عن أنيابها أشداقها ، وألقت للتجرّد عنها قناعها ، واختلفت أعناق الخيل ، وزحف أهل النجدة إلى أهل البغى ، لتعلمنّ أىّ الفريقين أسمح بالموت نفسا ، وأشدّ عند اللقاء بطشا ، ولات حين معذرة ، ولا قبول فدية ، وقد أعذر من أنذر ، وسيعلم الذين ظلموا أىّ منقلب ينقلبون » .

(تاريخ الطبرى ١١ : ١٤٩)

١٨٦ — رد الأتراك على كتاب ابن طاهر

فبلغ كتاب محمد بن عبد الله الأتراك فكتبوا جواب كتابه :

« إنّ شخص الباطل تصوّر لك فى صورة الحق ، فتخيّل لك الغىّ رشدا ،

---

(١) الجريرة : الذنب ، وجرم كضرب وأجرم : أذنب ، وسبوغ النعمة : اتساعها .

(٢) الغلواء : الغلو .

(٣) أى كونوا على علم بها ، من أذن بالشىء كسمع : علم به .

(٤) أى تقديم ، وأصل النبذ : الطرح .

(٥) شب : أوقد ، والضرام : دقاق الحطب الذى يسرع اشتعال النار فيه .

(٦) حسمت : قطعت .

(٧) العوالى : جمع عالية : وهى أعلى الرمح ، والجرة بالكسر : مايفيض به البعير من بطنه فيأكله ثانية ، وقد اجتر وأجر ، ولم يرد فى كتب اللغة استجر بهذا المعنى .

(٨) نزال : معدول عن المنازلة فى الحرب ، ولذا أنث ، قال الشاعر :

ولنعم حشو الدرع أنت إذا … دعيت نزال ولج فى الذعر

وقال آخر .

* فدعوا نزال فكنت أول نازل *

(٩) الكلوح : بدو الأسنان عند العبوس ، وفعله كمنع .

كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ(١) يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً، ولو راجعتَ عُزُوبَ(٢) عقلك، أنار لك برهانَ البصيرة، وحَسَم عنك مَوَادَّ الشُّبهة، لكن حِصْتَ(٣) عن سُنَّة الحقيقة، ونكَصْتَ على عَقِبَيْك، لِمَا مَلَكَ طباعَك من دَواعي الخَيْرَة، فكنتَ في الإصغاء لِهُتافه، والتجرُّد إلى وُرُوده، كالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ، وَلعَمْرُك يا محمد: لقد وَرَد وَعْدُكَ لنا، ووَعِيدك إيانا، فلم يُدْنِنا منك، ولم يُنْئِنا عنك، إذ كان فَحْصُ اليقين قد كَشَفَ عن مكنون ضميرك، وألفاك كالمكتفي بالبَرْق نَهْجًا إذا أضاء له مَشَى فيه، وإذا أظلَمَ عليه قام، ولعمرك لئن اشتدَّ في البغي شَأْوُك(٤)، ومُتِّعتَ بِصُبَابة من الأمل، ليكونن أمرك عليك غُمَّةً، ولَنَأْتِيَنَّك بجنود لا قِبَلَ لك بها، ولنُخْرِجنَّك منها ذليلا وأنت من الصاغرين، ولولا انتظارنا كتابَ أمير المؤمنين بإعلامنا ما نعمل في شاكِلَته(٥)، بلَغْنا بالسياط النِّياطَ، وغمَدْنا السيوفَ وهي كالَّةٌ، وجعلنا عاليَهَا سافِلَها، وجعلناها مأوَى الظِّلْمان(٦) والحيّات والبُوم، وقد ناديناك مِن كَثَبٍ(٧)، وأسمعناك إن كنت حيا، فإن تُجِب تُفْلِح، وإن تأبَ إلا غَيًّا نُخْزِك به، وعَمَّا قليلٍ لَتُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ».

(تاريخ الطبري ١١ : ١٥٠)

---

(١) السراب: ماتراه نصف النهار، كأنه ماء، والقيعة: جمع قاع: وهو أرض سهلة مطمئنة قد انفرجت عنها الجبال والآكام.

(٢) العزوب: الغيبة والذهاب، أي عقلك الذاهب.

(٣) حاص عنه يحيص: عدل وحاد، والسنة: الطريقة، ونكص على عقبيه: رجع عما كان عليه من خير، خاص بالرجوع عن الخير، أو في الشر نادر.

(٤) الشأو: السبق والغاية، والصبابة: البقية.

(٥) الشاكلة: الطريقة والمذهب، والنياط: عرق متصل بالقلب من الوتين إذا قطع مات صاحبه.

(٦) الظلمان: جمع ظليم: وهو ذكر النعام.

(٧) أي من قرب.

١٨٧ — كتاب محمد بن عباد إلى جعفر بن محمود الإسكافى

وكتب محمد بن عباد إلى أبى الفضل جعفر بن محمود الإسكافى[١] وزير المعتز بالله — وكان المعتز يختص به ويتقرب إليه قبل الوزارة — :

« مازلتُ — أيدك الله تعالى — أذمُّ الدهر بذمِّك إياه ، وأنتظِر لنفسى ولك عُقْباه ، وأتمنَّى زوالَ مَن لا ذنبَ له إلى عاقبة محمودة تكون بزوال حاله ، وأترك الإعذار فى الطلب ، على الاختلال الشديد ، ضِنًّا بالمعروف عندى إلا عن أهله ، وحَبْسًا لشُكْرى إلا عن مستحِقِّه » .

١٨٨ — رد جعفر على محمد بن عباد

فوقع فى كتابه :

« لم أُؤخِّر ذِكْرَكَ ناسيا لحظِّك ، ولا مُهمِلا لواجبك ، ولا مُوهِنًا لمُهِمِّ أمرك ، لكنى ترقبتُ اتساع الحال ، وانفساحَ الأعمال ، لأَخُصَّك بأسناها خَطَرًا ، وبأجلها قدرا ، وأعْودِها نفعا عليك ، وأوْفرِها رِزقا لك ، وأقربِها مسافةً منك ، فإذا كنت ممن تَحفِزه[٢] الأعمالُ ، ولا يتسع له الإمهالُ ، فسأختار لك خيرَ ما يشير إليه الوقت ، وأُنْعِم[٣] النظرَ فيه ، فأجعله أولَ ما أُمضيه » . (زهر الآداب ٣ : ١٩٨)

---

(١) انظر خبره فى الفخرى ص ٢٢١ ، وفى زهر الآداب أنه ابن محمد وهو تحريف ، وصوابه ابن محمود كما فى الفخرى ، ويدل على ذلك ماجاء فيه ص ٢٢٢ : « واستوزره المعتز ثانية ، ولما تولى الوزارة فى المرة الثانية قال بعض الشعراء :

يا نفس لا تولعى بتفنيد وعللى القلب بالمواعيد
وانتظرى قدرأيت ماساقه الله إلى جعفر بن محمود

وفى تاريخ الطبرى أنه جعفر بن محمود أيضا — انظر ج ١١ : ص ١٦١ .

(٢) فى الأصل « تحفره » وهو تصحيف ، وصوابه « تحفزه » كما أثبته ، من حفزه كضربه أى دفعه وأعجله .

(٣) فى لسان العرب : أنعم النظر فى الشىء : إذا أطال الفكرة فيه ، وفيه أيضا وفى القاموس : أنعم فى الأمر بالغ .

١٨٩ — كتاب ابن طاهر إلى عماله

وفى سنة ٢٥٣ ﻫ مات محمد بن عبد الله بن طاهر — وكانت علته التى مات فيها قروحا أصابته فى حلقه ورأسه فذبحته — واستخلف محمد قبل موته أخاه عبيد الله على أعماله ، ووصى بذلك وكتب به إلى عماله ، ثم وجه المعتز الخاتم وولاية بغداد إلى عبيد الله .

وهذه نسخة الكتاب الذى كتبه محمد بن عبد الله إلى عماله باستخلافه أخاه عبيد الله بعده :

« أما بعد : فإن الله عز وجل جعل الموت حَتْمًا مقضيًا جاريًا على الباقين من خَلْقه ، حسَبَ ما جَرَى على الماضين . وحقيقٌ على من أُعطِى حظا من توفيق الله أن يكون على استعدادٍ لحُلُول ما لا بُدَّ منه، ولا مَحِيصَ[1] عنه فى كل الأحوال .

وكتابى هذا وأنا فى عِلّة قد اشتد الإشفاقُ منها ، وكاد الإياسُ يغلِب على الرجاء فيها ، فإن يُبِلْ[2] اللهُ وَيَدْفع فبقدرته وكريم عادَتِه ، وإن يَحْدُث بى الحَدَثُ الذى هو سبيلُ الأولين والآخِرين ، فقد استخلفتُ عبيد الله بن عبد الله مَوْلَى أمير المؤمنين، أخى الموثوقَ باقتفائه أثرى ، وأخذه بِسَدٍّ ما أنا بسبيله من سلطان أمير المؤمنين ، إلى أن يأتيه من أمره ما يعمل بحَسَبه ، فاعلَمْ ذلك وأْتَمِرْ فيما تتولاه بما تَرِدُ به كُتُبُ عبيد الله وأمرُه إن شاء الله » .

وكُتِب يوم الخميس لثلاثَ عَشْرةَ خلت من ذى القعدة سنة ٢٥٣ ﻫ .

(تاريخ الطبرى ١١ : ١٥٥)

---

(١) أى لامفر ولا مهرب منه .

(٢) أى يبرئ ، من بل من مرضه إذا برأ ، وأبل أيضا .

١٩٠ — رقعة المعتز بخلع نفسه

واضطرب أمر المعتز واضطره الأتراك أن يخلع نفسه ففعل ، وبايعوا بالخلافة محمدا المهتدى بالله بن الواثق بالله سنة ٢٥٥ ، ثم قتلوا المعتز ، وكانت نسخة الرقعة بخلع المعتز نفسه :

« بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما أشْهدُ عليه الشهود المسَمَّوْن فى هذا الكتاب ، شَهِدوا أن أبا عبد الله ابن أمير المؤمنين المتوكل على الله أقرَّ عندهم وأشهدهم على نفسه ، فى صحة من عقله ، وَجَوازٍ من أمره ، طائعاً غيرَ مُكرَه ، أنَّه نظر فيما كان تقلَّده من أمر الخلافة والقيام بأمور المسلمين ، فرأى أنه لا يَصلُح لذلك ولا يَكمُلُ له ، وأنه عاجز عن القيام بما يجب عليه منها ، ضعيف عن ذلك ، فأخرجَ نفسه وتبرَّأ منها وخَلَعها من رقبته وخلع نفسَه منها ، وبرَّأ كلَّ مَن كانت له فى عنقه بَيعةٌ ، من جميع أوليائه وسائر الناس ، مما كان له فى رقابهم من البيعة والعهود والمواثيق والأيمان بالطلاق والعتاق والصَّدَقة والحج وسائر الأيمان ، وحلَّلهم من جميع ذلك ، وَجَعلهم فى سَعَةٍ منه فى الدنيا وَالآخرة ، بعد أن تبيَّن له أن الصلاح له وللمسلمين فى خروجه عن الخلافة والتبرِّى منها ، وأشهدَ على نفسه بجميع ما سُمِّى ووُصِفَ فى هذا الكتاب جميعَ الشهود المسَمَّيْن فيه وجميعَ مَن حضر ، بعد أن قُرِئَ عليه حرفاً حرفا ، فأقرَّ بفهمه ومعرفته جميعَ ما فيه طائعاً غيرَ مُكرَه ، وذلك يوم الاثنين لثلاث بقين من رجب سنة ٢٥٥ » .

فوقَّع المعتز فى ذلك :

« أقرَّ أبو عبد الله بجميع ما فى هذا الكتاب وكتَبَ بخطه » .

وكتب الشهود شهاداتهم : شهدَ الحسن بن محمد ، ومحمد بن يحيى ، وأحمد بن جَناب ، ويحيى بن زكرياء بن أبى يعقوب الأصبهانى ، وعبد الله بن محمد العامرى ، وأحمد بن الفضل بن يحيى ، وحماد بن إسحاق ، وعبد الله بن محمد ، وإبراهيم بن محمد .

(تاريخ الطبرى ١١ : ١٦٢)

١٩١ — كتاب الموالى بالكرخ والدور إلى المهتدى

وفى سنة ٢٥٦ هـ انتشر الخبر فى العامة أن القوم على أن يخلَعُوا المهتدى ويفتِكوا به ، فتحرَّك المَوالِي بالكَرْخ والدُّورِ(١) ، وَوَجّهوا إلى المهتدى وسألوه أن يوجِّه إليهم أحد إخوته ، فوجَّه إليهم أخاه أبا القاسم ، فذكروا أنهم سامعون مُطيعون لأمير المؤمنين ، وأنه بلغهم أن موسى بن بغا وبايكباك وجماعة من قوّادهم يريدونه على الخلع ، وأنهم يبذُلون دماءهم دون ذلك ، وأنهم قد قرءوا بذلك رِقاعا أُلقيت فى المسجد والطُّرُقات ، وشكَوا مع ذلك سوءَ حالهم وتأخُّرَ أرزاقهمْ ، وما صار من الإقطاعات إلى قوادهم التى قد أَجْحَفَتْ بالضِّياع والخراج ، وَما صار لكبرائهم من المَعَاوِن والزيادات من الرسوم القديمة ، مع أرزاق النساء والدُّخلاء الذين قد استغرقوا أكثر أموال الخراج ، وكثر كلامهم فى ذلك ، فقال لهم أبو القاسم : اكتبوا هذا فى كتاب إلى أمير المؤمنين أتولَّى إيصاله لكم ، فكتبوا ذلك .

١٩٢ — رد المهتدى عليهم

فكتب المهتدى جواب كتابهم بخطه وختَمه بخاتَمه ، وغدا أبو القاسم إلى الكرخ فوافاهم بكتاب المهتدى فقرئَ عليهم ، وإذا فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، والحمدُ لله وصلَّى على محمد النبي وعلى آله وسلم تسليما كثيرا ، أرشَدَنا الله وإياكم ، وكان لنا ولكم وَلِيّا وحافظا ، فهِمتُ كتابكم ، وسرَّنى ما ذكرتم من طاعتكم ، وما أنتم عليه ، فأَحسَنَ الله جزاءكم ، وتولَّى حِياطتكم ، فأمَّا ما ذكرتم من خَلَّتكم(٢) وحاجتكم فعزيزٌ علىَّ ذلك فيكم ، ولوَدِدْتُ والله أن

(١) الكرخ : محلة ببغداد ، ودور بغداد : موضع بها أيضا .
(٢) الخلة : الحاجة .

صلاحكم يُهَيِّئُ بأن لا آكلَ ولا أُطْعِمَ ولدى وأهلى إلا القوتَ الذى لا يَسَع شىءٌ دونَه، ولا أُلبِسَ أحدا من ولدى إلا ما سَتَرَ العورةَ، ولا واللهِ ـ حاطكم الله ـ ما صار إلىَّ منذ تقلدتُ أمركم لنفسى وأهلى وولدى ومتقدِّمى غِلمانى وحَشَمى إلا خمسةَ عشَرَ ألفَ دينارٍ، وأنتم تقِفُون على ما وَرَد ويرِد، وكل ذلك مصروف إليكم، غيرُ مدَّخَر عنكم، وأما ما ذكرتم مما بلغكم وقرأْتم به الرقاعَ التى أُلقيتْ فى المساجد والطرق، وما بذلتم من أنفسكم، فأنتم أهل ذلك، وأين تعتذرون مما ذكرتم، ونحن وأنتم نفس واحدة، فجزاكم الله عن أنفسكم وعهودكم وأماناتكم خيرا، وليس الأمر كما بلغكم، فعلى ذلك فليكن عملكم إن شاء الله، وأما ما ذكرتم من الإقطاعات والمَعَاوِن وغيرها، فأنا أنظر فى ذلك وأصيرُ منه إلى محبتكم إن شاء الله والسلام عليكم، أرشدنا الله وإياكم، وكان لنا ولكم حافظا، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد النبى وآله وسلم تسليما كثيرا ». (تاريخ الطبرى ١١ : ١٩٥)

١٩٣ — كتاب الموالى بالكرخ والدور إلى المهتدى

فلما فرغ القارئُ كثر الكلام، فقال لهم أبو القاسم اكتبوا بذلك كتابا، فكتبوا بعد أن دَعَوُا الله فيه لأمير المؤمنين:

« إن الذى يسألون أن تُرَدَّ الأمور إلى أمير المؤمنين فى الخاصّ والعامّ، ولا يعترِض عليه معترِض، وأن تردَّ رسومُهم إلى ما كانت عليه أيامَ المستعين بالله، وأن يكون على كل تسعة منهم عَرِيف، وعلى كل خمسين خليفة، وعلى كل مائة قائد، وأن تسقَط أرزاق النساء والزيادات والمَعاوِن ولا يدخل مَوْلًى فى قَبَالَة[1] ولا غيرها، وأن يوضع لهم العطاء فى كل شهرين على مالم يَزَل، وأن تبطُلَ الإقطاعات، وأن يكون أمير المؤمنين يَزِيد من شاء ويرفع من شاء ».

---

(١) قبل به كنصر وسمع وضرب قبالة : كفل، والقبيل : الكفيل والضامن.

وذكروا أنهم صائرون فى إثر كتابهم إلى باب أمير المؤمنين ، ومقيمون هناك إلى أن تُقضَى حوائجهم ، وأنه إن بلغهم أن أحدا اعترض على أمير المؤمنين فى شىء من الأمور أخذوا رأسه ، وإنْ سقط من رأس أمير المؤمنين شعرة قتلوا به موسى بن بغا وبايكباك ومفلحا وياجور وبكالبا وغيرهم ، ودَعَوُا الله لأمير المؤمنين ، ودفعوا الكتاب إلى أبى القاسم فانصرف به حتى أوصله .

١٩٤ — كتاب المهتدى إليهم

فأخذ المهتدى كتابهم ، ووقّع بإجابتهم إلى ما سألوا ، ثم كتب كتابا مُفْرَداً بخطه وختمه بخاتمه ، ودفعه إلى أبى القاسم . وصار أبو القاسم إليهم بكتاب أمير المؤمنين فقرئَ عليهم فإذا فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم : الحمد لله وحــده . وصلى الله على محمد النبى وآله وسلم .

أرشدكمَ الله وحاطكم وأمْتَع بكم ، وأصلح أموركم وأمور المسلمين بكم ، وعلى أيديكم ؛ فهِمتُ كتابكم وقرأته على رؤسائكم ، فذكروا مِثل الذى ذكرتم ، وسألوا مِثلَ الذى سألتم ، وقد أجبتكم إلى جميع ما سألتم ، محبةً لصلاحكم وألفتكم واجتماع كلمتكم ، وقد أمرت بتقرير أرزاقكم ، وأن تصير دارّةً عليكم ، فليست لكم حاجة إلى حركة ، فطيبوا نفسا والسلام » .

(تاريخ الطبرى ١١ : ١٩٧)

١٩٥ — كتابهم إلى المهتدى

فتكلموا كلاما كثيرا ، ثم كتبوا كتابا يعتذرون فيه بمثل العذر الأول إلى أمير المؤمنين ، وذكروا فيه خِصالا مما ذكروه فى الكتاب الذى قبله ، ووصفوا أنه لا يُقنِعهم إلا أن يُنفِذ إليهم خمسة توقيعات : — توقيعاً بحطِّ الزيادات ، وتوقيعاً بردِّ

الإقطاعات ، وتوقيعا بإخراج الموالى البَوّابين من الخاصّة إلى عِداد البَرّانيين[١] ، وتوقيعا بردِّ الرسُوم إلى ما كانت عليه أيام المستعين ، وتوقيعا بردِّ التلاجي[٢] — حتى يَدفعوها إلى رجل يضمُّون إليه خمسين رجلا من أهل الدور ، وخمسين رجلا من أهل سامَرَّا يتنجّزون من الدواوين ، ثم يصيِّر أمير المؤمنين الجيشَ إلى أحد إخوته أو غيرهم ممن يَرَى ، يَسفُرُ[٣] بينه وبينهم بأمورهم ، ولا يكون رجلا من الموالى ، وأن يُؤْمر صالح بن وصيف فيحاسَب هو وموسى بن بغا على ما عندهم من الأموال ، وأنه لا يُرضيهم دون ما سألوا فى كتبهم كلها ، مع تعجيل العطاء وإدرار أرزاقهم عليهم فى كل شهرين ، وأنهم قد كتبوا إلى أهل سامَرَّا والمغاربة فى موافاتهم ، وأنهم صائرون إلى باب أمير المؤمنين ليُنجز ذلك لهم ، ودفعوا الكتاب إلى أبى القاسم .

١٩٦ — كتابهم إلى القواد

وكتبوا كتابا آخر إلى موسى بن بغا وبا يكباك ومحمد بن بغا ومفلح وياجور وبكالبا وغيرهم من القواد كتابا ذكروا فيه :

« أنهم قد كتبوا إلى أمير المؤمنين بما كتبوا ، وأن أمير المؤمنين لا يمنعهم ما سألوا إلا أن يعترضوا عليه ، وأنهم إن فعلوا ذلك وخالفوهم لم يوافقوهم على شىء ، وأن أمير المؤمنين إن شاكَتْه شوكةٌ أو أخِذ من رأسه شعرة ، أخذوا رءوسهم جميعا ، وأنهم ليس يُقْنعهم إلا أن يَظهر صالح بن وصيف حتى يُجْمَع بينه وبين موسى

---

(١) من قولهم « من أصلح جوانيه أصلح الله برانيه » أى من أصلح سريرته أصلح الله علانيته ، أخذ من الجو والبر ، والجو : كل بطن غامض ، والبر : المتن الظاهر ، فهاتان الكلمتان على النسبة إليهما بالألف والنون ، وأصل البرانى من قولهم خرج فلان برا إذا خرج إلى البر والصحراء ، وليس من قديم الكلام وفصيحه .

(٢) التلاجىء : جمع تلجئة ، وهى الإكراه تفعلة من الإلجاء .

(٣) سفر بينهم كضرب ونصر : أصلح .

ابن بغا حتى ينظر أين موضع الأموال ، فإن صالحا قد كان وعدهم قبل استتاره أن يعطيهم أرزاق ستة أشهر » .

ثم دفعوا هذا الكتاب إلى رسول موسى .

١٩٧ — كتاب المهتدى إليهم

فأمر المهتدى سليمان بن وهب[1] بإنشاء الكتب على ما سألوا فى خمسة رِقاع ، فأنفذها المهتدى فى دَرْج كتاب منه بخطه ، ودفعه إلى أخيه أبى القاسم ، وكتب القواد إليهم جواب كتابهم ، ودفعوه إلى صاحب موسى ، فصار إليهم أبو القاسم وقرأ عليهم كتاب المهتدى فإذا فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم : وفَّقنا الله وإياكم لطاعته وما يُرضيه ، فهمت كتابكم ـ حاطكم الله ـ وقد أنفذتُ إليكم التوقيعاتِ الخمس على ما سألتم ، فوكِّلوا من يتنجّزها من الدواوين إن شاء الله ، وأما ما سألتم من تصيير أمركم إلى أحد إخوتى ليوصِّل إلىّ أخباركم ، ويؤدِّىَ إلىّ حوائجكم ، فوالله إنى لأحبُّ أن أتفقدَ ذلك بنفسى ، وأن أطَّلِعَ على كل أمركم وما فيه مصلحتكم ، وأنا مختار لكم الرجلَ الذى سألتم من إخوتى أو غيرهم إن شاء الله ، فاكتبوا إلىّ بحوائجكم وما تعلمون أن فيه صلاحكم ، فإنى صائرٌ من ذلك إلى ما تحبُّون إن شاء الله ، وفقَّنا الله وإياكم لطاعته وما يُرضيه » .

(تاريخ الطبرى ١١ : ١٩٨)

١٩٨ — كتاب القواد إليهم

وأوصل إليهم رسولُ موسى كتابَ موسى وأصحابه فإذا فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم : أبقاكم الله وحَفِظكم وأتمّ نعمته عليكم ، فهمنا

---

(١) وزر للمهتدى بالله ، ثم من بعده للمعتمد على الله ، انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١ : ٢١٦ ، والفخرى ص ٢٢٣ والأغانى ٢٠ : ٦٧ .

كتابكم ، وإنما أنتم إخواننا وبنو عمنا ، ونحن صائرون إلى ما تحبون ، وقد أمر أمير المؤمنين — أعزه الله — فى كل ما سألتم بما تحبّون ، وأنفذ التوقيعاتِ به إليكم ، وأما ما ذكرتم من أمر صالح مولى أمير المؤمنين وتغيُّرنا له ، فهو الأخ وابن العم ، وما أردنا من ذلك ما تكرهون ، فإن وَعَدَكم أن يُعطيَكم أرزاق ستة أشهر فقد رفعنا إلى أمير المؤمنين رِقاعا نسأله مثل الذى سألتم ، وأما ماقلتم من ترك الاعتراض على أمير المؤمنين وتفويض الأمر إليه ، فنحن سامعون مطيعون لأمير المؤمنين ، والأمور مفوَّضة إلى الله ، وهو مولانا ونحن عبيده ، وما نعترض عليه فى شىء من الأمور أصلا ، وأما ما ذكرتم أنا نريد بأمير المؤمنين سوءا ، فمن أراد ذلك فجعلَ الله دائرة السوء عليه ، وأخزاه فى دنياه وآخرته ، أبقاكم الله وحفظكم وأتم نعمته عليكم » . (تاريخ الطبرى ١١ : ١٩٨)

١٩٩ — كتاب على بن يحيى إلى سليمان بن وهب

ونالت علىَّ بن يحيى جَفوةٌ من سليمان بن وهب ، فكتب إليه :

جَفانى أبو أيوبَ ، نفسى فِداؤه   فعاتَبْتُهُ كيما يريعَ ويُعْتِبا(١)

فواللهِ لولا الظنُّ منى بُودِّه   لكان سُهَيْلٌ من عتابِيهِ أقرَبا(٢)

٢٠٠ — رد ابن وهب عليه

فكتب إليه سليمان :

ذكرتَ جفائى وهْو من غير شيمتى   وإنِّى لَدانٍ من بعيدٍ تقرُّبا

فكيف بِخِلٍّ لى أضِنُّ بوُدِّه   وأُصفِيه ودًّا ظاهراً ومُغَيَّبا(٣)

---

(١) راع يريع : رجع ، وأعتبه : أعطاه العتبى بالضم وهى الرضا .
(٢) سهيل : نجم .
(٣) أصفيته الود : أخلصته .

عليُّ بنُ يحيَى لا عَدِمْتُ إخاءه فما زال فى كل الخصال مُهَذَّبا
ولـكنَّ أشغالاً عدَتْ وتواترَتْ فلما رأيتُ الشغلَ عاقَ وأتعبا
ركَنْتُ إلى عُذْرِ الأخِلاَّء إنهم كرامٌ وإن كان التواصُلُ أوجَبا
فإن يطَّلِبْ منى عتابُك أوْبَةً ببرٍّ تجِدْنى بالإنابة مُعْتِبـــــا(١)

(الأغانى ٢٠ : ٧٠)

٢٠١ — كتاب ابن وهب إلى سليمان بن عبد الله بن طاهر

وأهدى سليمان بن وهب إلى سليمان بن عبد الله بن طاهر سِلالَ رُطَبٍ من ضَيعته ، وكتب إليه :

أَذِنَ الأميرُ بفضلِهِ وبجُوده وبنَيْــلِهِ
لِوليِّه فى برِّه بجَنَاهُ سُكَّرَ نخلِهِ
فبعثْتُ منـه بسَلَّةٍ تَحْـكِى حلاوةَ عدلِهِ

(الأغانى ٢٠ : ٧١)

٢٠٢ — كتاب رجل إلى سليمان بن وهب

وكتب رجل إلى سليمان بن وهب وهو يتولى شيئاً من أعمال الضِّياع :

أطال اللهُ إســـعا دَكَ فى الآجِلِ والعاجِلْ
أمَا ترْعَى لِمن أمَّـــلَ فضلا حُرْمةَ الآمِلْ ؟
وعندى عاجِلٌ من رِشْــوة يَتْبَعُهـــا آجِلْ
وأنت العـــالِمُ الشاهِــدُ أنى كاتِبٌ عامِلْ
فَوَلِّ الـكافِلَ الباذ لَ دُون العاجزِ الباخِلْ
فـا أُفْشِى لك السِّرَّ فِعَالَ الأخرقِ الجاهِلْ

(١) فى الأصل « بالأمانة » وهو تحريف .

٢٠٣ — رده عليه

فضحك وكتب فى رقعته :

أينْ لى ما الذى تخطُبُ شَرْحاً أيُّها الباذِلْ ؟
وما تُعطِى إذا وُلِّيتَ تَعجيلاً وما الآجِلْ ؟
أفِى الإسلافِ تنقِيصٌ أمِ الوزنُ له كَامِلْ ؟
وفى الوقوفِ تضمينٌ أمِ الوعْدُ به حاصِلْ ؟
وهل مِيقاتُه الغَلَّةُ فى العامِ أو القابِلْ ؟
أبِنْ لى ذاكَ ، واردُدْ رُقْعتى يا كاتِبا عامِلْ

فلما قرأها الرجل قطع ما بينه ، ورد الرقعة عليه ، وولاه سليمان ما التمس .

(الأغانى ٢٠ : ٧١)

٢٠٤ — كتاب اعتذار لسليمان بن وهب

« أنا مُقِرٌّ معترف ، فما تُراكَ صانعا بمن أعْلقَك زِمامَه ، وأمكنَكَ من قِيادِه وحكَّمَك فى أمره ، معاقِباً له أو متفضِّلا عليه بالعفو عنه ؟ لكنى أرجو أن أستقبِلَ طاعةً لا تمتنِعُ مِن شُكرِها ، واغتفار كل تقصيرٍ خَلاَ فى جَنبِها ، فالأيام بما تحبُّ أمامَك » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٥)

٢٠٥ — كتاب أبى العيناء إلى أبى الصقر إسمعيل بن بلبل

ولما وَلِى أبو الصَّقْر إسمعيل[١] بن بلبُل الوزارة للمعتمد[٢] على الله ، خيَّر أبا العيناء فيما يحبُّه حتى يفعلَه به ، فقال : أريد أن تكتب إلى أحمد بن محمد الطائى

(١) انظر خبره فى الفخرى ص ٢٢٩ .

(٢) هو أبو العباس أحمد بن المتوكل . ولى الخلافة سنة ٢٥٦ ومات سنة ٢٧٩ ، وكان مستضعفا وكان أخوه الموفق طلحة هو الغالب على أمره .

تعرِّفه مكانى ، وتُلْزِمه قضاء حقٍّ مثلى مِن خدمه ، فكتب إليه كتابا بخطه ، فوصَّله إلى الطائى ، فسَيَّبَ[1] له فى مدة شهر مقدارَ ألفِ دينار وعشرة أجُل ، فانصرف بجميع مايحبه ، وكتب إلى أبى الصقر كتابا مُضَمَّنه :

« أنا ـ أعزك الله ـ طَلِيقُك من الفقر ، ونَقِيذُك[2] من البؤس ، أخذتَ بيدى عند عَثْرة الدهر ، وكَبْوَة الكِبَر ، وعلى أيةِ حال حين فقدتُ الأولياء[3] والأشكالَ ، والإخوان والأمثال ، الذين يفهمون فى غير تعب ، وهم الناس الذين كانوا غِياثا للناس ، فحَلَلْتَ عُقدة الخَلَّة[4] ، ورددت إلىَّ بعد النفور النعمة ، وكتبت لى كتابا إلى الطائى ، فإنما كان منك إليك أثبته[5] ، وقد استصعبتْ[6] علىَّ الأمورُ ، وأحاطت بى النوائب ، فكثَّر مِن بِشره ، وبذَل من يُسْرِه ، وأعطَى من ماله أكرمَه ، ومن برِّه أحكه ، مُكرِماً لى مدةَ ما أقمتُ ، ومُثَقِّلا لى من فوائده لَمَّا وَدَّعْتُ ، حَكَّمنى فى ماله ، فتحكمتُ ، وأنت تعرف جَوْرى إذا تمكنتُ ، وزاد فى طَوْله[7] فشكرتُ ، فأحسَنَ الله جزَاك ، وأعظم حِمَاك ، وقدَّمنى أمامك ، وأعاذنى من فَقْدك وحَمَاك ، فقد أنفقتَ علىَّ مما ملَّكك الله ، وأنفقتُ من الشكر مايسَّرَه الله لى ، والله عز وجل يقول : « لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِه » فالحمد لله الذى جعل لك اليدَ العالية ، والرُّتبة الشريفة ، لاأزَال الله عن هذه الأمة مابَسَطَ فيها من عَدْلك ، وبَثَّ فيها مِن رِفْدك[8] » .

(زهر الآداب ٣ : ٩٥)

---

(١) السيب : العطاء ، وسيب هنا معناه : أعطاه .
(٢) النقيذ : المنقذ (بفتح القاف) .
(٣) الأولياء : جمع ولى ، وهو النصير ، والأشكال : جمع شكل ، وهو المثل .
(٤) الخلة : الفقر والحاجة ، وفى المثل « الخلة تدعو إلى السلة » والسلة بالفتح : السرقة .
(٥) أثابه : رجعه ورده .
(٦) استصعب الأمر : صار صعبا كصعب وأصعب (واستصعبه : وجده صعبا ، فهو لازم متعد) .
(٧) الطول والتطول : التفضل والامتنان .
(٨) الرفد : العطاء والصلة .

٢٠٦ — كتاب أبي العيناء إلى بعض الرؤساء

وكتب أبو العيناء إلى بعض الرؤساء — وقد وعده بشيء فلم يُنجزه : —

« ثِقَتِي بك تمنعني من استبطائك ، وعِلْمِي بشُغْلك يدعوني إلى إذكارك ، ولستُ آمَنُ ـ مع استحكام ثقتي بطَوْلك ، والمعرفةِ بعلوّ همتك ـ اخترامَ الأجلِ ، فإن الآجال آفاتُ الآمال ، فسَحَ اللهُ في أجلك ، وبلَّغك منتهى أملك ، والسلام » .

(وفيات الأعيان ١ : ٥٠٥)

٢٠٧ — كتاب أبي العباس بن ثوابة إلى إسماعيل بن بلبل

وكتب أبو العباس[1] أحمد بن محمد بن ثَوَابة إلى إسماعيل بن بُلْبُل حين صاهَرَ الناصرَ لدين الله الموفَّقَ بالله :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، بلغني ، للوزير — أيده الله — نعمةٌ زاد شكرها على مقادير الشكر ، كما أَرْبَى مقدارها على مقادير النعمة ، فكان مَثَلُها قولَ إبراهيم بن العباس :

بَنُوكَ غَدَوا آلُ النبيِّ ووارِثوا الـــخلافة والحاوُون كِسْرى وهاشما

وأنا أسأل الله تعالى أن يجعلها مَوْهِبة ترتبطُ ماقبلها ، وتنتظِمُ ما بعدها ، وتصل جلالَ الشرف ، حتى يكون الوزير — أعزه الله — على سادة الوزراء مُوفِيا ، ولجميل العادة مستحقا ، ولمحمود العاقبة مستوجبا ، وأن يُلْبِس خَدَمه وأولياءه من هذه الحُلَل الغالية ما يكون لهم ذكرًا باقيا وشرفا مُخلَّدا » .

(معجم الأدباء ٤ : ١٥٧)

---

(١) انظر هامش ص ٢٤٧ .

٢٠٨ — كتاب عبيد الله بن عبد الله بن طاهر إلى عبيد الله بن سليمان

ولما وليَ عُبَيد الله[1] بن سليمان بن وهب الوزارة للمعتمد ، كتب إليه عبيدُ الله ابن عبد الله بن طاهر كتابا ، وفيه شعر له :

أبَى دهرُنا إسعافَنا فى نفوسنا وأسعفَنا فيمن نحبُّ ونُعْظِمُ
فقلتُ لهُ : نُعْماك فيهم أَتِمَّها ودَعْ أمرَنا إنَّ المُهِمَّ المقدَّمُ

فلما قرأ عبيد الله هذا الشعر قال : ما أحسنَ ما احتال فى شكوى حاله بين أضعاف مدحه ، وأمر بإيصال رِقاعه إليه ، وقضى كل حاجة كانت له .

(أدب الكتاب ص ٢٣٤ ، ووفيات الأعيان ١ : ٢١٧ ، وزهر الآداب ٢ : ١٩٨)

٢٠٩ — كتاب سعيد بن عبد الملك إلى عبيد الله بن سليمان

وحُجب سعيد بن عبد الملك عن عبيد الله بن سليمان .

فكتب إليه :

« سِرْتُ إلى بابك ـ أعزك الله ـ عند ما حَدَث من أمرك ، فلم يُقْضَ لِقاؤك ، وعلمتُ أن ثقتك بما عندى قد مثَّلتْ لك حالى من السرور بنعمة الله عندك ، وأرَتْك موضعى من الاعتداد بكل ما خصَّك وَوَصَلَ إليك ، فوكَلْتُ العذرَ إلى ذلك .

ثم إنا نأتيك مُتَيَمِّنين بطَلْعَتك ، مشتاقين إلى رؤيتك ، فيحجُبُنا عنك ملاحظ ،

(١) انظر خبره فى الفخرى ص ٢٣١ ، وفى زهر الآداب : « ولما ولى سليمان بن وهب الوزارة . . . . » .

وهو ـ كما علمتَ ـ كِنُّ[1] الصنيعة ، لئيمُ الطبيعة ، يحجُب عنك الكرامَ ، ويأذَنُ عليك لِلئام ، كلما نجمَتْ[2] له يَدٌ بيضاء ، أتبعَها يداً سوداء ، فإن رأيتَ ـ أعزك الله ـ أن تصرِفَه عن باب مكارمك فعلتَ إن شاء الله » .

(زهر الآداب ٢ : ١٢١)

٢١٠ — كتاب أبي العيناء إلى عبيد الله بن سليمان

وكتب أبو العيناء إلى عبيد[3] الله بن سليمان بن وهب وزير المعتمد :

« أنا ـ أعزك الله تعالى ـ وولدى وعيالى زَرْعٌ مِن زرعك ، إن أسقيته راعَ[4] وزكا ، وإن جفوته ذَبُلَ وَذَوَى[5] ، وقد مسَّنى منك جفاء بعدِ برّ ، وإغفالٌ بعدتعاهُدٍ ، حتى تكلم عدوّ ، وشمِتَ حاسِدٌ ، ولعِبَتْ بى ظنونُ رجال كنتُ بهم لاعباً ، ولهم مُخرِسا ، ولله دَرُّ أبى الأسود فى قوله :

لا تُهِنِّى بعدَ إذ أكرمتنى وشـــديدٌ عادةٌ مُنْتَزَعَهْ

(زهر الآداب ١ : ٢٩١ ، وعيون الأخبار ٨ : ١٩٥)

٢١١ — رد عبيد الله عليه

فوقَّع فى رقعته :

« أنا ـ أسعدك الله ـ على الحال التى عهِدت ، وميلى إليك كما علمتَ ، وليس مَن أُنْسِيناه أهملناه ، ولا من أخَّرناه تركناه ، مع اقتطاع الشغل لنا ، واقتسامه زماننا ، وكان من حقك علينا أن تذكِّرَنا بنفسك ، وتُعْلِمَنا أمرك ، وقد وقَّعتُ لك برزق شهرين ، لِتُزيحَ عِلَّتك ، وتعرفنى مبلغَ استحقاقك ، لِأُطْلق لك باقىَ أرزاقك ، إن شاء الله ، والسلام » . (زهر الآداب ١ : ٢٩١)

---

(١) كن الشيء : ستره . (٢) أى ظهرت .

(٣) وفى عيون الأخبار « إلى أبى القاسم بن عبيد الله بن سليمان » والصواب « إلى أبى القاسم عبيد الله بن سليمان » .

(٤) راع يريع : نما وزاد ، وزكا يزكو : نما أيضا . (٥) أى ذبل .

٢١٢ — كتاب أبي العيناء إلى عبيد الله بن سليمان

وكتب أبو العيناء إلى عبيد الله بن سليمان، وقد نكبه وأباه المعتمدُ[1]، وهما يطالَبان بمال يبيعان له ما يملكانه من عَقارٍ وأثاثٍ وعَبْدٍ وأَمَة، وقد أُعْطِيَ بخادم أسود لعبيد الله خمسون دينارا:

« قد علمتَ - أصلحك الله - أن الكريم المنكوبَ أجْدَى على الأحرار من اللئيم الموفور؛ لأن اللئيم يزيد مع النعمة لؤما، والكريم لا يزيد مع المِحْنة إلا كَرَمًا، هذا متّكِل على رازقه، وهذا يُسيء الظن بخالقه، وعَبْدُك إلى مِلك « كافور » فقيرٌ، وثمنُه - على ما اتصل بي - يسير، لأنه بخدمته السلطانَ، يعرِّفني الرؤساء والإخوان، ولستُ بواجدٍ ذلك في غيره من الغِلمان، فإن سَمَحْتَ به فتلك عادتُك، وإن أمرت بأخذ ثمنه فالُكَ مادَّتي، أدام الله دولتك، واستقبلَ بالنعمة نكبتك ».

فأمر له به. (زهر الآداب ١ : ٢٩١)

٢١٣ — جواب لأحمد بن سليمان بن وهب

وقال الحسين بن إسحق: كنت عند أحمد[2] بن سليمان بن وهب، ونحن على شَراب، فوافَتْه رُقعةٌ فيها أبياتُ مدح، فكتب الجواب:

« وصَلَتْ رقعتُك - أعزَّك الله - فكانت كوصل بعد هَجْر، وغِنًى بعد فقر،

---

(١) قدمنا أن الموفق طلحة. كان هو الغالب على أمر أخيه المعتمد، وجاء في الأغاني (ج ٢٠ ص ٧٢) « أن الموفق إنما استكتب سليمان بن وهب وابنه عبيدالله ليقف منهما على ذخائر موسى بن بغا وودائعه فلما استقصى ذلك نكبهما لكثرة مالهما » وجاء في تاريخ الطبري (ج ١١ : ص ٢٥١) « وفي سنة ٢٦٤ خرج سليمان بن وهب من بغداد إلى سامرا، ومعه الحسن بن وهب، فلما صار بسامرا غضب عليه المعتمد وحبسه وقيده وانتهب داره وداري ابنيه وهب وإبراهيم ... ».

(٢) انظر ترجمته في معجم الأدباء ٣ : ٥٤ .

وظَفَر بعد صَبْر ، ألفاظُها دُرٌّ مَشُوف[1] ، ومعانِيها جَوهر مرصوف ، وقد اصطحبا أحْسَن صُحْبة ، وتألَّفَا أقربَ ألفة ، لا تمُجُّها الآذانُ ، ولا تتعبُ بها الأذهانُ ، وقرأتُ فى آخرها من الشعر مالم أملِكْ نفسى أن كتبتُ ـ لجلالته عندى ، وحُسْنِ موقعه من نفسى ـ بما لا أقومُ به ، مع تحيُّفِ[2] الصَّهباء لُبِّى ، وشُرْبها من عقلى مِقدارَ شُرْبى ، ولكنى واثق منك بَطيِّ سيِّئتى ، ونشْرِ حسَنَتى :

نفسى فِداؤكَ يا أبا العباس وافَى كتابُكَ بعد طُول اليَاسِ
وافَى ، وكنتُ بوَحْشَتى متفرِّدًا فأصارنى للجَمْعِ والإيناسِ
وقرأتُ شعرَكَ فاستطَلْتُ بحسْنه فخراً على الخُلَطاء والجُلَّاس[3]
عاينتُ منه عيونَ وَشْيٍ سُدِّيَتْ ببدائعٍ فى جانب القِرطاسِ[4]
فاقت دقائقُهُ وجَـلَّ بحسْنه عن أن يُحَدَّ بفِطْنة وقياس
شِعرٌ كجَرْىِ الماء يخرجُ لفظُه مِن حُسْن طبعك مَخْرَجَ الأنفاسِ
لو كان شِعر الناس جِسْمًا لم يكن لِكماله إلّا مَكانَ الرَّاسِ

(معجم الأدباء ٣ : ٥٠٦)

٢١٤ — كتابه إلى ابن أبى الأصبغ

وكتب أحمد بن سليمان بن وهب إلى ابن أبى الأصبَغ[5] :

« لو أطعتُ الشوقَ إليك ، والنِّزَاعَ[6] نحوكَ ، لَكثُر قَصْدى لك وغِشْيانى[7]

---

(١) مشوف : مجلو ، من شافه يشوفه شوفا : أى جلاه .

(٢) تحيفه : تنقصه من حيفه ، والحيف كعنب : جمع حيفة بالكسر ، وهى الناحية .

(٣) الخلطاء : جمع خليط ، وهو المخالط ، وفى الأصل « على الخلفاء » وأراه محرفا .

(٤) الوشى : نقش الثوب ، سديت ببدائع : أى جعلت البدائع سدى لها ، والسدى بالفتح : الخيوط التى تمد طولا فى النسج (واللحمة بالضم والفتح : ماينسج عرضاً) .

(٥) هو أبو العباس أحمد بن محمد بن أبى الأصبغ ، انظر الفهرست لابن النديم ص ١٨٤ ، وفى الأصل « ابن أبى الإصبع » .

(٦) نزع إلى أهله كضرب نزاعة بالفتح ، ونزاعا بالكسر ، ونزوعا بالضم : اشتاق .

(٧) غشيه غشيانا : جاءه .

إياك ، مع العِلّة القاطعة عن الحركة ، الحائلة بيني وبين الركوب ، فالعِلّةُ إن تخلفتُ تخلُّفَتي ، وإيثارُ التخفيف يؤخِّر مكاتبتي : فأمّا مودّة القلب ، وخلوصُ النية ، ونقاء الضمير ، والاعتدادُ بما يجدِّده الله لك من نعمة ، ويرفعك إليه من درجة ، ويبلِّغك إياه من رُتبة ، فعلى ما يكون عليه الأخُ الشقيق ، وذو المودّة الشفيق ، وأرجو أن يكون شاهِدِي على ذلك من قلبك أعدلَ الشهود ، ووافِدِي بإعلامك إياه أصدقَ الوُفود ، وبِحَسْبِ ذلك انبساطي إليك في الحاجة تعرِض قِبَلك ، ويُعْنَى بالنجاح منها عندك ، وعَرَضَتْ حاجةٌ ليس تمنعني قلّتُها من كثير الشكر عليها ، والاعتدادِ بما يكون من قضائك إياها ، وقد حمَّلْتُها يحيي لتسمعَها منه ، وتتقدَّمَ بما أُحِبُّ فيها ، جارياً على كرَم سجيَّتك ، وعادةِ تفضُّلك إن شاء الله » .

(معجم الأدباء ٣ : ٦٠)

٢١٥ — كتابه إلى أخيه عبيد الله بن سليمان

وكتب إلى أخيه الوزير عُبيد الله بن سليمان — وقد سافر ولم يودِّعه — :

« أطال الله بقاء الوزير ، مُصْحِبا لهُ السلامةَ الشاملة ، والغِبْطةَ المتكاملة ، والنِّعمَ المتظاهِرَةَ ، والمواهِبَ المتواتِرَة ، في ظَعْنه ومُقامه ، وحَلِّه وتَرْحاله ، وحركته وسكونه ، وليلِه ونهاره ، وعجَّلَ إلينا أَوْبته ، وأقرَّ عيوننا برَجْعته ، ومتعنا بالنظر إليه .

كان شخُوصُ الوزير — أعزه الله — في هذه المدة بَغْتة أعجَلَ عن توديعه ، فزاد ذلك في وَلَهِي ، وإضرامِ لَوْعَتي ، واشتدت له وَحْشَتي ، وذكرتُ قول كُثيِّر :

كنتم تَزِينُون البلادَ ففارقَتْ (عَشِيَّةَ بِنْتُمْ) زَيْنَها وجَمالَهَا

---

(١) حداك : ساقك .

فقد جعل الراضونَ إذ أنتمُ لما بخِصْبِ البلاد يشتكون وبالمَا

والوزير ـ أعزه الله ـ يعلم ما قيل فى يحيى بن خالد :

ينسى صنائعَه ويذكرُ وعْدَه ويبيتُ فى أمثاله يتفكّرُ »

(معجم الأدباء ٣ : ٦١)

٢١٦ — كتابه إلى صديق له

وكتب إلى صديق له :

« ليس عن الصديق المخلِص ، والأخ المشارِك فى الأحوال كلها مَذْهَب ، ولا وراءه للواثق بهِ مَطْلَب ، والشاعر يقول :

وإذا يُصيبك (والحوادثُ جَمّةٌ) حَدَثٌ حَدَاكَ إلى أخيك الأوثقِ[(١)]

وأنت الأخ الأوثق ، والولىُّ المشفِق ، والصديق الوَصول ، والمشارِكُ فى المكروه والمحبوب ، قد عرَّفنى الله من صدق صَفائك ، وكَرَم وفائك ، على الأحوال المتصرِّفة ، والأزمنة المتقلِّبة ، ما يستغرِقُ الشكرَ ، ويستعبد الحرَّ ، وما من يوم يأتى علىَّ إلا وثِقَتى بك تزداد استحكاماً ، واعتمادى عليك يزداد تأكُّداً والتئاماً ، أنبسِط فى حوائجى ، وأثقُ بنُجْح مسألتى ، واللهَ أسألُ لك طولَ البقاء فى أدوَمِ النعمة وأسْبَغِها[(١)] ، وأكملِ العوافى وأتمِّها ، وألّا يسلُبَ الدنيا نضرَتَها[(٢)] بك ، وبهجتها ببقائك ، فما أعرِفُ بهذا الدهر المتنكر فى حالاته ، حَسَنَةً سواك ، ولا حِيلةً غيرَك ، فأُعيذُك بالله من العيون الطامِحة ، والألسنة القادِحَة ، وأسأله أن يجعلك فى حِرْزه الذى لا يُرام ، وكَنَفِه الذى لا يُضام ، وأن يحرُسَك بعينه التى لا تنام ، إنه ذو المَنِّ والإنعام » .

(معجم الأدباء ٣ : ٦٢)

---

(١) أى وأتمها . (٢) أى بهجتها ورواؤها .

٢١٧ — كتاب أبي العباس بن ثوابة إلى عبيد الله بن سليمان

ومن فصل لأبي العباس أحمد بن محمد بن ثوابة إلى عبيد الله بن سليمان :

« لم يُؤتَ الوزيرُ من عدم فضيلة ، ولم أُوتَ من عدم وسيلة ، وغُلّةُ الصادِي[1] تأبَى له انتظارَ الوارد ، وتُعْجِل عن تأمُّل ما بين الغدير والوادى ، ولم أزَلْ أترقَّب أن يُخْطِرَنى بباله ، ترقُّبَ الصائم لفطره ، وأنتظرُه انتظارَ السَّارِى لفَجْره ، إلى أن بَرِح الخفاء[2] ، وكُشِفَ الغطاء ، وشمِتَ الأعداء ، وإنَّ فى تخلُّفِى وتقدُّمِ المقصرِين ، لآيةً للمتوسمين ، والحمد لله رب العالمين » .

(معجم الأدباء ٤ : ١٤٧)

٢١٨ — كتاب له

ومن كلام أبي العباس :

« مِن حقِّ المكاتبة أن يسبقَها أُنْسٌ ، وينعقِد قبلها وُدٌّ ، ولكنَّ الحاجة أعجلَتْ عن ذلك ، فكتبتُ كتابَ من يُحْسِن الظن إلى من يحقِّقه » .

(معجم الأدباء ٤ : ١٧٤)

٢١٩ — كتاب ابن ثوابة إلى عبيد الله بن سليمان

وكتب ابن ثوابة إلى عبيد الله بن سليمان يعتذر إليه من تركه مكاتبته بالتفْدِية[3] :

« الله يعلم ـ وكفى به عليما ـ لقد أردتُ مكاتبتك بالتفدية ، فرأيتُ عَيْبا أن أُفدِيَك بنفسٍ لابدَّ لها من الفناء ، ولا سبيل لها إلى البقاء ، ومَن أظهر لك شيئاً

---

(١) الغلة : حرارة العطش ، والصادي : العطشان .

(٢) أي انكشف الأمر ووضح ، أخذه من قول حسان :

ألا أبلغ أبا سفيان عنى مغلغلة فقد برح الخفاء .

(٣) فى زهر الآداب « فى التعزية » .

يُضمِر خِلافَه فقد غَشَّ ، والأمرُ إذا كانت الضرورة توجبه ، وتُحقِّق أنه ملك لايتحقَّقُ ، وعطاء لايتحصَّلُ ، لم يَجُز أن يخاطَب به مثلُك[1] ، وإن كان عند قوم نهايةً من نهايات التعظيم ، ودليلًا من دَلالات الاجتهاد ، وطريقاً من طرق التقرب » .

(أدب الكتاب ص ١٥٥ ، وزهر الآداب ٣ : ١٠٦)

٢٢٠ — جواب عن تعزية لابن ثوابة

« وصل كتابك بالتعزية عن أخي وفهمتُه ، وقد جَلَّت مصيبتي به وعظُمت ، فنكَأَت[2] القلبَ ، وهدَّتِ الرُّكن ، وأذهبت القوة ، ونَغَّصَتِ العيشَ ، وأزرَتْ بالأمل ، فعند الله أحتسبُه ، وإياه أسأل تفضُّلًا عليه ، وصَفحًا عنه ، وتغمُّدًا[3] لذنوبه ، وصبراً على حادث قضائه ، واستعداداً للموت وتأهُّباً له ، فإنه مَصرَع لابد منه ، ومَورِدٌ لا مَحيصَ عنه .

وقد كنت استجفَيْتُ كتابك ، وأنكرت تأخُّر تعزيتك وعدَدْتُ ذلك من هَفَوات الإخوان الذين يقع التقصير منهم ، وتصِحُّ نِيّاتهم وضمائرهم ، فرددتُ الزللَ من فعلك ، إلى موثوقٍ به من نيتك وضميرك ، وأسأل الله ألَّا يُعْدِ مَنالك على أحوالك كلِّها ، ويمتّعنا بمواهبه فيك » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣١٣)

٢٢١ — تعزية له إلى أبي عمر

« أنا أستهجنُ وصفَ مشاركتكما عند كل حادث من نازلةٍ بكما ، اكتفاء بالحال ، ومتأكِّد الوصل والأسباب ، وَحَدَثَت هذه المصيبةُ ، فالله يعلم ما أثَّرَتْ بقلبي ،

---

(١) في زهر الآداب « والأمر إذا كانت الضرورة توجب أنه ملك لا يحقق إعطاء ، ولا يتحصل لم يجب أن يخاطب به مثلك » وفي أدب الكتاب « فقد غش ، والأم ، إذ كانت الضرورة توجبه ، وتحقق أنه ملق لا يتحقق ، وعطاء لايتحصل ، وإن كان عند قوم . . . » وكلاهما محرف .

(٢) من نكأ القرحة كمنع : قشرها قبل أن تبرأ فنديت .

(٣) أي سترا وغفرانا لها .

وهدَّت من قوتى ، ومثَّلتْ مِن قُرب المنيَّة لى ، فإن المصائب نوائب ، ومَن رأى حُلولها بغيره عَلِمَ أنها حالّة فى نفسه ومَن يتصلُ به ، ولقد اشتد جزعى لذلك وَوَحْشتى منه ، وَمِن خُلُوِّ منازلكما من الأم البَرَّة ، والأخت الطاهرة ، مع قِصَر أيام ، وقُرْب مدة ، وعدم سَلْوة ، رضى الله عنكما ، ولا نَقَصَ لكما عددا .

وعزيزٌ علىَّ أن أتخلَّف عن حقكما ، أو أمرٍ يَلْزَمنى فيه ما يلزم كافَّةَ أهلِكما ، لكنى فى حال قد عرَفتماها[1] ، فإن اتسع لى العذرُ مع ما نازعنى فيه من أحوالكما ، وإلَّا فإنَّ فى تفضّلكما موضعَ احتمالِ الهفوة ، وتغمُّد الزّلة ، وإقالة العثرة ، والرجوع إلى نية قد صحَّت ، وطَوِيَّة قد خَلَصَتْ واستحكمت » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣١٣)

٢٢٢ — عهد من الموفق إلى أحد الولاة
كتبه ابن ثوابة

« هذا[2] ماعَهِد به أبو أحمد الموفَّق بالله ولىّ عهد المسلمين ، إلى فلان ، حين ولَّاه الصلاة بأهل كُورَة الرَّىِّ ودُنْباوَنْد[3] ونواحيها والحرب والأحداث فيهما .

أَمَره بتقوى الله وطاعته ، وخَشْيته ومراقبته ، فى سِرِّه وعلانيته ، وظاهِرِ أمره وباطنه ، والعملِ بِما أمرَ اللهُ به ، والانتهاء عما نهى عنه فيما وافقه وخالَفه ، وأرضاه وأسخطه ، فإنه من يتّقِ الله يَقِه ، وَمن يعتصم به يَهْدِه ، ومن يُطِعْه يتولَّه ويكْفِه ، « إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ » .

وأمرَه أن يُشْعِر قلبَه خيفَةَ الله وهيبته والتفويضَ إليه ، والاعتمادَ عليه ، وأن يجعلَ كتاب الله عز وجل له إماما ، وسُنَّة نبيه صلى الله عليه وسلم مِثالاً ، فإن فيهما دلالةً وتِبْيانا ، وضياء ونوراً وشِفاء لِما فى الصدور ، وهُدًى وَرَحْمَةً للمؤمنين .

---

(١) فى الأصل « قد عرَّفتكما » وربما كان الصواب « قد عرَّفتكما إياها » .

(٢) تأثر فيه عهد المهدى السابق واقتبس منه — انظر ص ١٣٢ من الجزء الثالث .

(٣) جبل من نواحى الرى .

وأمَرَه أن يكون أول ما يُعْنَى به ويقدِّمه ، ويراعيه ويُؤثِره ، إقامة الصلاة لمواقيتها ، بإتمام ركوعها وسجودها ، وأداء فرض الله فيها ؛ إذ كانت عمادَ الدين ، وأفضلَ ما تقرَّبَ به المؤمنون ، وكان من أضاعَها وقصَّر في واجبها ، أشدَّ تضييعا لما سواها من حقوق الله عزوجل وفرائضه ودينه وشرائعه «وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ».

وأمره أن يُلْهِمَ نفسَه في كل حال من حالاته ، وصغيرٍ وكبيرٍ من أمره ، ذِكْرَ الله جل ثناؤه ، وقدرَته عليه ، وألاَّ يمضيَ أمرا إلا بعد استخارة الله عز وجل فيه ، واستقضائه في ذلك بالذي هو له أرْضَى ، وعنده أزكَى ، فإن العاقبة للتقوى ، وإن أفضل الأمور خيرُها عاقبةً ، وأحمَدها مَغَبَّةً ، وما التوفيق إلا بالله ، عليه يتوكل المتوكِّلون :

وأمَره أن يُحْسِنَ الولاية لأهل عمله ، والسياسةَ لمن استُرْعِي أمْرَهُ ، ويُكْثِرِ الجلوسَ لهم ، والنظرَ في أمورهم ، ويُفِيض العدلَ والنَّصَفَة فيهم ، ويكُفَّ العدو الظالم عنهم ، ويسوِّي الحق بين كافتهم ، ولا يميل إلى شريف في شرَفه ، ولا على خامل لسقوط منزلته ، وأن يختار لولاية أعماله حاضِرِها ونائيها ، وقريبها وبعيدها ، ذوى العفاف والشهامة والكفاية ، ويُوعِز إليهم في الرفق بأهلها ، والتألُّفِ لمن حَسُنت طاعتُه ، واستقامت طريقته ، والشدةِ على من خالف الحقَّ مذهبُه ، ولا يكون لأحد عنده إغضاءٌ عن ريبةٍ يشتمل عليها ، وسبيل غير محمودةٍ يسلُكُها ، فإن في إقامة الحق صلاحا وخيراً كثيراً ، وفي التفريط ضررا وخَلَلا عظيما .

وأمَرَه أن يتفقَّد مَن معه من مَوالي أمير المؤمنين وأوليائه ، ويُحْسِنَ صُحبتَهم وعِشْرَتَهُمْ ويتفقَّد أمورَهم ومصلحتهم، ويراعى أحوالهم في طاعتهم ومناصحتهم ومذاهبهم فِيما يُصرِّفهم فيه، ويُهِيب (١) بهم إليه، ويُنْزِلهم منازلهم على حَسَب مايحمَد ويذُمّ منهم، ليزداد محسِنُهم في إحسانه ، ويَنزِع مُقَصِّرهم عن تقصيره .

---

(١) أهاب به : دعاه .

وأمَرَه أن يقدّم أهل الفضل والصلاح والمشايعة والمُوالاة والنصيحة للسلطان ويُدْنيهم ويقرّبهم ، ويسمع منهم ، ويعرِف لهم ما سَدُّوا ، ويَظْهر من نصائحهم ، ويَحْمَد من حالاتهم ، حتى يدعوَ مِن فِعله بهم غيرَهم إلى سلوك مناهجهم ، والاقتداء بهم ، واللزوم لِهَدْيهم ، وأن يتخذ أهل العفة والرأى والسِّنّ والوَرَع جُلساءه وبطانته ويشاورَهم فى أمره ، ويستعين بآرائهم فيما هو مُصْدِره ، حتى يكون ما يُمضى ويُنْفِذ منه بحَسَب ما يجتمعون عليه ، ويرَونه موافقًا للحق والعدل ، ومجانبا للظلم والجَوْر .

وأمَره أن تكون أحكامُه فيما ينفرد بالنظر فيه ، وإقامتُه من الحدود وما أشبهها ، بما يجب لله عليه فى ذلك ، من اتّباع مُحْكَمِ تنزيل ، أو مأثورِ سُنَّةٍ ، أو رأى يتفق عليه نَبيلٌ[1] مُحْسِنٌ ومن يليه من الفقهاء وذوى المعرفة ، وألاّ يُقْدِم على سَفْك دم ، ولا تخليةِ سبيل محبوس ، ولا قَطْعِ مستحِقٍّ للقطع ، حتى يكتبَ إليه باسمِ مَن وجَبَ ذلك عليه ، واسمِ أبيه وقِصّته ، فى إقرارٍ إن كان منه ، أو بيّنةٍ إن قامت عليه ، وأسماءِ تلك البينة ، وما تُعْرَف به فى أنسابها ومواضعها ، وما شهِدَتْ به ، وعدْلها فيمن هى منه ، ليأتيَه الأمرُ فيه يتمثله ، فإن هذين الحدّيْن من أجلِّ الأحكام منزلةً ، وأعظمِها تَبِعةً ، وأولاها بالحَظْر ، إلى أن يوقَف على حقيقة ما يجب فيها ، ويأمر السلطان — أعزه الله — بما يوفّقه الله فى إقامتها إن شاء الله .

وأمَرَه ألاّ يأخذ أحداً من الرَّعية بقِرْفة[2] ولا إحْنَة ، ولا يَعْرِض لأحد من أهل البراءة والسلامة والاستقامة، ولا يُلْحق بِهِم جرائرَ أهل النَّطَفِ[3] والرِّيبة، وأن يُشْرِف على أهل الدَّعارة والفساد فى عمله . ويَقْمَعهم ويرْدَعَهم ، فيشرِّد بهم ، ويعاقب مَن استحق العقوبة منهم بقَدْر جُرْمه ، وبحَسَب ما حُدَّ فى مثله ، من غير أن يبلُغَ بأحدٍ ممن لايجب عليه الحدُّ حدًّا ، فإن لكل شىء قدرا ، ولن يستطيع الرأىَ فيمن

---

(١) فى الأصل « سبيل » وأراه محرفا ، والنبيل : الذكى النجيب ، والواو فى « ومن » للمعية .

(٢) قرفه بسوء : رماه به واتهمه، والقرفة بالكسر : التهمة، والإحنة: الحقد .

(٣) نطف كفرح وعنى نطفا بالتحريك ونطافة ونطوفة : اتهم بريبة وتلطخ بعيب وفسد .

أشكلَ عليه مقدارُ تأديبه ، ومن لا يُصْلِحه إلا المبالغةُ فى عقوبته ، ويكتب بحاله وشَرْح جريمته ، ليأتيَه الرأىُ فيه بما يعمل به إن شاء الله .

وأمَرَه أن يصرفَ عنايته إلى النواحى التى تصاقِبُ[1] عمله ، من نواحى الأعداء المكتنِفَةِ له ، ويرتِّب بإزائها مَن يسُدُّ خَلَلها ، ويَرْتُق فتقَها ، ويراعيهم بإشرافه وتفقُّده ، ويعاجل مَن يحتاج إلى معاجلته ممن نَجَمَ[2] وينجُم بها ، ويخاف عاديتَه وشِرَّته ، ويناهضه بنفسه وبكافَّة الأولياء الذين معه ، ويستعمل فى أمره ما يَدْفَع اللهُ به مكروهَهَ ومَعَرَّتَه ، مُؤْثِرًا فى ذلك اليَقَظةَ على الغَفْلة ، والجِدَّ على الفُتُور ، فإن مراعاة أولئك الأعداء ، وكَفَّ عاديتهم ، من أهم الأمور التى يتقلَّدها ، ويؤمَّل عنده الكفايةُ لها ، وأن يتقدَّم إلى مَن قِبلَه من التجار وغيرهم ألاَّ يجاوزوا شيئًا من عمله إلى شىء من تلك النواحى بالمِيَر[3] والأسلحة ، ولا يحملوا تلك المِيَر إليها ، ويُظْهِر النداء فيهم ، فمن تجاوَز أمْرَه وتعداه تقدَّم فى حبسه وكتب باسمِهِ واسم أبيه وإحصاءِ ما وُجد معه من أصناف المِيَر وغيرها ، ليأتيه الأمر بما يمتثله إن شاء الله .

وأمَرَه أن يتفقَّدَ طَرَف عمله ومَسَالِحَه[4] بالضَّبط لها ، وبَذْرَقَةِ[5] السَّابلةِ المختلفة فيها ، ويبلغ فى ذلك المبلغَ الذى يرجو معه بإذن الله أمْنَها وسلامتها ، ويرتِّب فيها الثقاتِ من أصحابه ، وأهلَ الجَلَد من جنده وأعوانه ، ويأمرهم بمراعاة ما يوكِّلُهم به منها ، ورَفْع مَئُوناتهم عمن يجتاز بها ، حتى لا يُلْزِمَهم جنايةً بسبب ثأر ولا غيره ، وألاَّ يحمِّل أحدا منهم كُلْفةً ولا نائبة[6] ، فإن فى ذلك رِفقا بهم ، وصلاحا لهم ،

---

(١) صاقبه : قاربه .

(٢) أى ثار ، من نجم النبات : إذا ظهر وطلع .

(٣) جمع ميرة بالكسر : وهى الطعام .

(٤) المسالح جمع مسلحة بالفتح : وهى الثغر ، والقوم ذوو سلاح .

(٥) البذرقة : الخفارة ، فارسية معربة ، والمبذرق : الخفير .

(٦) فى الأصل « ياسه » والنائبة : ماينوب الإنسان أى ينزل به من المهمات والحوادث .

وعِمارةً لِطُرقهم ، ودُرُوراً لتجاراتهم ، ووصولا للنفع إلى البُلْدان التى يقصِدونها للتجارات ، وأَمْنا من انقطاعها عنها بإذن الله .

وأمَره أن يُحْسِن مَعُونةَ أحمد بن محمد ، المتقلِّد لأعمال الخراج والضِّياع قِبَله ، على ما استعانه عليه ، مما فيه زَجاءُ[١] الخراج ، ودُرُورُ جبايته ، ويُزِيحَ عِلَّتَه[٢] فيمن يحتاج إلى إشخاصه اليوم[٣] من المتنِمين والدافِعين بما يجبُ عليهم ، وفى سائر ما يلتمسُ منه المعونةَ عليه ، وأن يضُمَّ إليه من الأعوان العِدَّةَ التى لم تزَلْ تُضَمّ إلى المتولِّى لِما قُلِّده ، ويعمل على أن ذلك من أولَى ما قَدَّمه وآثرَه ، واستفرغَ فيه وُسْعَه ، للصلاح العائد به ، والحظِّ الراجع فيه إن شاء الله .

وأَمَره أن يتفقَّد مَن فى الحبس قِبَله ، ويُكْثِر عَرْضَهم والنظرَ فى أمورهم ، والأسباب التى حُبِسوا بها ، ولا يَقْصِد لإطالة حَبْسِ من لا يجب ذلك عليه ، ولا لإطلاق ما يوجب الحقُّ تخليدَه ، ويعمل فى أمورهم ومشاورةِ أهل الفِقه فيهم ، وإقامة التأديب والحدودِ عليهم ، بما حُدَّ فى أمثالهم إن شاء الله .

وأمرَه ألاَّ يَقْسِم على أهل عمله قِسْمةً بسببِ نُزُلٍ[٤] ولا غيره ، مما كان شِرارُ العُمَّال يوظِّفونه ويقسِمونه على أهل أعمالهم ، ويتجنَّب الطُّعَم[٥] الشائنةَ ، والمكاسِبَ الرديئة ، ويحذر أن يَعرِض لشىء منها ، أو يُطلِقَه لأحدٍ من كُفاته ، فيَرِدَ عليه من النَّكير ما هو حَرِىٌّ بتوقِّيه والتصوُّن عنه .

وأمرَه أن يتقدَّم فى تعريف ما يوجد من الضَّوالِّ[٦] فى عمله والإشادةِ بذِكرها ، فإن عرَف أحد ضالَّةً منها ، وأوضَحَ مِلكَه إياها بما يوضَّح به مثله ، سُلِّمت إليه ،

---

(١) زجا الخراج يزجو زجاء : تيسرت جبايته .

(٢) فى الأصل « ويرتج عليه » وهو تصحيف .

(٣) كذا فى الأصل ، والأظهر أنه « إلينا » .

(٤) النزل كعنق وقفل : ماهيء للضيف أن ينزل عليه .

(٥) الطعم جمع طعمة بالضم : وهى وجه المكسب .

(٦) الضوال جمع ضالة : وهى الحيوان الضائع لايعرف له رب ، وقد تطلق الضالة على المعانى .

وأُشْهِد بها عليه ، وإن لم يحضُر لها طالب ، وأشفَقَ من ضَياعها ، باعها فى أسواق المسلمين بأقْصَى أثمانها ، وأحْوَطِ ما يُمْثَل به فى أمرها ، وسَلّم ثمنها إلى عامل الخراج قِبله ، ليجعله عزْلا(١) فى بيت المـال ، فإن استحقّه مستحقٌ بعد ذلك دفعه إليه إن شاء الله .

وأمره أن يحبِس مَن ظفِرَ به من أبّاق(٢) أرِقّاءِ المسلمين والمعاهَدين ويستوثق منهم ، ويسأل عن أسمائهم وأسماء مواليهم ومواضعهم ، ويكتب بذلك إلى العمال الذين هم فى أعمالهم ، ويدفع كل عبد منهم أو أَمَةٍ إلى مولاه ، إذا قامت البيّنةُ العادلة على أنه رِقٌّ له ، أبَق منه ، ويُشْهِد بذلك عليه إن شاء الله .

وأمره أن يتخيَّر للحِسْبة على أهل الأسواق وسائر أصحاب الصناعات والبيّاعات(٣) فى عمله ، مَن يُعْرَف بالقَصْد فى مذهبه ، والسَّتْر فى نفسه ، والعَفاف فى طُعْمته ، واستيفاء الحق فيما يُقلّده ويُستكْفَى القيامَ به ، ويتقدّم إليه فى أخذ كل طبقةٍ من أهل الطبقات التى يقع فى الحِسبة فيها ، بتصحيح المعاملة ، ورَفْع الغش ، وتجنُّب كل ما عاد بمَضَرّة على المسلمين وتحيُّفِ(٤) هم ، وتعييرِ(٥) المكاييل والموازين فى سائر عمله ، وإقامتها على الوفاء والعدل ، وخَتْمِها بالرَّصاص ، وحَمْلِ المبتاعين فيها وغيرهم عليها ، والإشراف على ما يَرْسُمه ويتقدم بامتثاله فى سائر وجوه الحِسْبة ، حتى لا يخالَفَ شىءٌ منه إلى غيره ، ومعاقبة مَن عسى أن يُقْدِم على مخالفته فيه ، يَرْدَعه ويَعِظُ مَنْ سواه ، فإن الله عز

---

(١) العزل : مايورد بيت المال تقدمة غير موزون ولا منتقد .
(٢) جمع آبق : وهو الهارب .
(٣) البياعات جمع بياعة بالكسر وهى السلعة ، وفى الأصل « الساعات » وهو تحريف .
(٤) تحيفه : تنقصه من حيفه ، والحيف كعنب : النواحى جمع حيفة بالكسر .
(٥) قال فى اللسان : « عيرت الدنانير : وهو أن تلقى ديناراً ديناراً ، فتوازن به ديناراً ديناراً ، وكذلك عيرت تعييراً إذا وزنت واحدا واحداً ، يقال هذا فى الكيل والوزن ، قال الأزهرى : فرق الليث بن عايرت وعير ، فجعل عايرت فى المكيال وعيرت فى الميزان . . . . » .

وجل يقول : « أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ . وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ . وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ » .

وأمره : إن كان فيما يؤدّى إلى صلاح ما ولاه واستقامته ووقوع الاحتياط فيه ، موافقةُ أمرٍ لم يَعْهَدَ إليه فيه ، واحتاج إلى استئماره فى ذلك ، أن يتوقف عن إحداث حَدَثٍ فى شيء منه ، ويكتب إليه به ، ليأتيه الأمرُ فى ذلك بما يعمل به ويقتصر عليه ، وإن كان مما سبيلُه أن يُمْضِيَ فيه رأيَه ، عمِلَ فيه بما يُوفِّقه الله له ، ممتثلا ذلك أعدلَ السيَر وأقصدَها إن شاء الله .

وأمره أن يقرأ عهده على أهل عمله ، ويُعْلِمهم رأيه فيه ، وعنايته بما فيه صلاحهم والإحسان إليهم ، والعدل عليهم ، والتقرب إلى الله بذلك فى أمرهم ، لِيَبْسُط آمالهم ، ويُحْسِن ظنونَهم ، ويحمَدوا الله على ما أنعم عليهم إن شاء الله » .

هذا عهدى إليك ، وأمرى إياك فيما قلَّدتك وأسندتُ إليك ، فامتثِلْه واعمَلْ به ولا تُجاوِزه ، واستعِنْ بالله فيما غلَبك منه يَقِلْك ، واللهَ أسأل أن يصلى على محمد عبده ورسوله ، وأن يوفّقك ويُحْسن كفايتَك ، والسلام » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٤٦)

٢٢٣ — كتاب جعفر بن ثوابة إلى عبيد الله بن سليمان

وكتب أبو الحسين جعفر بن محمد بن ثَوابة إلى عبيد الله بن سليمان :

« قد فتحتَ للمظلوم بابَك ، ورفعْتَ عنه حجابَك ، فأنا أحاكِمُ الأيامَ إلى عدلك ، وأشكو صرْفَها[1] إلى عَطفك ، وأستجير من لؤم غَلَبتها بكرم قدرتِك ، فإنها تؤخّرنى إذا قدَّمتَ ، وتحرِمُنى إذا قَسَمْتَ ، فإن أعطَتْ أعطَتْ يسيراً ، وإن ارتجعت ارتجعت كثيرا ، ولم أشكُها إلى أحد قبلَك ، ولا أعددتُ لإنصافها إلا

---

(١) صرف الدهر : نوائبه .

فضلَك ، ودَفَع ذِمامَ[١] المسألةِ وحَقَّ الظُّلامةِ حقُّ التأميل وقِدَمُ صـدقِ الموالاةِ والمحبَّة ، والذى يملأ يدى من النَّصَفة ، ويُسْبِغ العدلَ عَلَىَّ، حتى تكون إلىَّ مُحْسِنا ، وأكونَ بك للأيام مُعْدِيا ، أن تَخلِطنى بخواصِّ خَدمك، الذين نقلتَهم من حال الفَراغ إلى الشغل ، ومن الخمول إلى النباهة والذكر، فإن رأيت أن تُعْدِيَنى[٢] فقد استعديتُ ، وتُجيرَنى فقد عُذْت بك ، وتوسِّع عَلَىَّ كَنَفَك فقد أَوَيْتُ إليه ، وتشملنى بإحسانك فقد عوَّلتُ عليه ، وتستعمل بدنى ولسانى فيما يصلُحان لخدمتك فيه ، فقد دَرَسْتُ كتُبَ أسلافك ، وهُم الأئمةُ فى البيان ، واستضأْتُ برأيهم ، واقتفيتُ آثارهم اقتفاء جعلنى بين وَحْشِىِّ كلام وأنيسه ، ووقَفَنى منه عَلَى جادَّةٍ متوسِّطة ، يَرْجِع إليها الغالى ، ويسمو نحوها المقصِّر ، فعلتَ إن شاء الله تعالى » . (معجم الأدباء ٧ : ١٨٨).

٢٢٤ — كتاب أحمد بن أبى طاهر إلى على بن يحيى

وكتب أحمد[٣] بن أبى طاهر يشكر على[٤] بن يحيى :

« وصلَ إلىَّ — وصَلَ الله نعمتَك بالمَزِيد — ما ابتدأتَ به من برِّك المتتابع ، وفضلك الواسع ، فصَادَفَنا عَلَى حالٍ من الخَلّة[٥] قد دعَتنا ضرورةُ الحاجة بها إلى ذُلِّ المسألة ، فرَمَّ[٦] ما ثلَمه الدهرُ من مُرُوءتنا ، وسدَّ ما كشفه من خَلّتنا ، وكفانا مئونةَ الامتحانِ للإخوان فى مودّتنا ، وسَتَر وجوهَنا بالصِّيانة عن المسألة ، وأبقى جاهَنا

(١) الذمام : الحق والحرمة .

(٢) أعداه : نصره وأعانه وقواه ، واستعداه : استعانه واستنصره .

(٣) هو أبو الفضل أحمد بن أبى طاهر طيفور ، صاحب كتاب المنظوم والمنثور ، ولد ببغداد سنة ٢٠٤ وتوفى سنة ٢٨٠ — انظر ترجمته فى الفهرست ص ٢٠٩ ومعجم الأدباء ٣ : ٨٧ .

(٤) هو أبو الحسن على بن يحيى بن أبى منصور المنجم ، وكان من خاصة ندماء المتوكل ، وخص به وبمن بعده من الخلفاء إلى أيام المعتمد، وكان مقدما عندهم، يفضون إليه بأسرارهم، ويأمنونه على أخبارهم ، وكان راوية للأشعار والأخبار شاعرا محسنا ، وتوفى سنة ٢٧٥ — انظر الفهرست ص ٢٠٥ .

(٥) الخلة : الحاجة والفقر .

(٦) رمه : أصلحه .

عند أهل المودّة ، فما ظنُّك بمعروفٍ صادَفَ حاجةً ، وصنيعةٍ كان إلباسُها بلا ذِلَّةٍ ولا بَذْلَةٍ[١] ، ومَعُونةٍ جاءت بلا مَئُونة ، وغيثٍ جاء بلا عارضٍ ولا مُخِيلَةٍ[٢] ، وأملٍ أُدرِكَ بلا تعب ، وحقٍّ أُوجِب بلا حُرْمة ولا سَبَب ؟ ما كان إلا كالقَطْر ، فى الأرض القَفْرِ ، أغفلَهَا الزمانُ ، وجَفَاهَا العُمرانُ ، وكلُّ معروف وإن كَثُرَ فأَكثَرُ منه فضلُك ، وكل صنيعةٍ وإن كَبُرتْ فأَكبَرُ منها الأملُ فيك ، وكل شُكْرٍ بلغ غايةً محمودة فأَقلُّ كَرَمِك يستغرقُه ، وكبيرُه يَقصُرُ عن تطوُّلك به ، فتَّ والله المادحَ المُطْنِبَ ، وقصَّرَ عنك لسانُ الشاكرِ المعترف ، والحامدِ المجتهد ، وأنفدَ فضلُك المحاسنَ ، واستوفى أقلُّك جميعَ الفضائل ، وكَلَّ دونك لسانُ الخطيب والشاعر ، وتزيّنت بك الأيامُ ، وازدحمت عليك الآمالُ ، وامتثلَ مكارمَك الكرامُ ، وقصَّر عنك الجيادُ والأجوادُ ، فإلى الذى زيَّننا بإخائك ، نرغب فى بقائك ، ونسأله أن يَهَبَك لفاقتنا إليك ، واتّكالِنا بعده عليك » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٢)

٢٢٥ — كتابه إلى على بن يحيى

وله إلى على بن يحيى :

« إن أحقَّ معروف بأن يُشكَر ، ويدٍ بارّةٍ لا تُكفَر ، وأحقَّ واجبٍ بأن يُؤدَّى ، وإحسانٍ وبِرٍّ بأن يُجازَى ، معروفُك — أعزكَ الله — عندى ، ويدُك قِبَلى ، وحقُّك علىّ ، وإحسانك إلىّ ، لأن المعروف يَحْسُن عند الأحرار موقعُه ، ويجب عليهم شكرُه ونَشْره والإشادة بذكره ، تتطوَّع مبتدئا ، وتَشْفَع ما تُقَدِّم مُعَقِّبا ، وتُحْسِن رَبَّ ما أسديتَه متفضِّلا ، لا أخلاكَ الله من بِرٍّ وإحسان ، ولا أخلانا منك فى حال » .

(المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨)

---

(١) البذلة : اسم من الابتذال : وهو امتهان النفس وعدم صيانتها .

(٢) العارض : السحاب المعترض فى الأفق ، والسحابة المخيلة (بياء مشددة مكسورة) والمخيلة (بكسر الخاء) : التى تحسبها ماطرة .

٢٢٦ — كتابه فى ذم ابن ثوابة

ولأحمد بن أبى طاهر فى ذم ابن ثوابة حين وَلِىَ طَسَاسِيجَ[1] الكوفة :

« أما بعد ، فإن فلانا قَدِم علينا شامِخاً بأنفه ، عاقِداً لعُنقه ، ذاهبا بنفسه ، يَرَى أن الجنة خُلِقَت لمن أطاعه ، والنارَ لمن عصاه ، وأن الملائكة المقرّبين لم تنزل على مَن نزلتْ عليه من الأنبياء إلّا بتوكيدِ ذلك له ، فلا يعذّب الله العبادَ إلا على معصيته ، ولا يُثِيبهم إلا على طاعته ، ولا أن الصَّيْحةَ أخذَتْ قومَ ثمود إلا لاعتراضٍ كان منهم على أوّلِيَّة أجداده ، ولم يرسل الله الرِّيحَ العَقِيمَ على قوم عاد إلا عن خِلافٍ كان منهم لآبائه ، وأن الواجب على هذه الأمّة ، والفرض المحتوم الذى لا يُقْبَل منهم غيرُه، طاعته وقلةُ الخلاف عليه، بالاستحقاق منه لذلك فى نفسه ، وللوراثة عن آبائه وأجداده، كأنه قُدَارُ[2] عاقرُ ناقةِ ثمود فى خلقته ، وفرعونُ ذو الأوتاد فى جَبَرِيّته ، يحسبُ الجودَ ذُلّا ، والبخل عزا ، والجوْر عدلا ، وأنّ ما نهى الله عنه من قبيح فهو الجميل الذى أمَره به ، وما أمر به من جميل فهو القبيح الذى نهاه عنه ، لا يستكثِر الخلافة فيحدِّث بها نفسَه تِيهاً ، ولا النُّبوة يتمناها على ربّه عُجْبا، وإذا قعد على فرشه وأخذ مجلسه ، وَرَمى بطرْفه فى منازله ، دخلَتْه العزّةُ ، وعلَاهُ الأبّهةُ ، وغلَب عليه الكِبْرُ ، حتى يخيَّل إليه أن بيت الله الحرام بعض داره ، وأن صَحْنها هو الصَّرح المُمرَّد[3] الذى ذكره الله فى كتابه ، وأنّ مَهْبِط الملائكة على ظهر كنيسته ، وبئر زمْزَم من بعض آباره ، وما بين الصَّفا والمَرْوَة مَرَاغَةٌ لِدَوَابِّه ، يضع من قدر نفسه ، ويرفَع من قدر

(١) طساسيج جمع طسوج (بفتح الطاء وضم السين المشددة) : وهو الناحية ، وجاء فى ترجمة ابن ثوابة فى معجم الأدباء « وكان عبيد الله بن سليمان الوزير قد صرف أحمد بن محمد بن ثوابة عن طساسيج كان يتقلدها . . . . » .

(٢) هو قدار بن سالف .

(٣) الصرح : القصر وكل بناء عال ، والممرد : المملس ، يشير إلى قوله تعالى :

« قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ » .

طعامه، فيرى أن مائدته هى التى ذكرَ اللهُ فى كتابه[١] ، فمن أكلَ منها كان رِقًّا له بأكلته ، تجرى عليه أحكامُه ، وينفذُ فيه أمره ، ضيفهُ أشدُّ الناس شبها بالملائكة : طعامه التسبيح ، وشعارُه الصبرُ ، وكل حَشَمِهِ طائفة من الجنّ ، مُبَرَّحُون[٢] بالشَّمِّ دون الأكل ، وبالمصّ دون الشرب ، ولولا ما كَفَى الله من غَرْبه[٣] ، بالغَرْب[٤] الذى به لَضَجَّت الأرضُ إلى الله من تِيهه ، ولتعبَّدت الأئمةُ لله بالابتهال إليه من تجبُّره ، يَرَى أن قارونَ[٥] كان من بعض أكَرَتِهِ ، والخضرَ[٦] صلواتُ الله عليه من بعض فُيُوجه ، ولولا ماتقدَّم من حقِّه ، وما سبقَ من مودته ، والذى أنا عليه من الميل إلى ناحيته ، والنُّصرَة لمذاهبه ، والحِيطة مِن ورائه ، والذَّبِّ عنه ، وأنى لا أرَى أن أصِفَه إلا بأحسنِ مافيه ، ولا أستحلُّ ذلك منه ، لَانطلَقَ لسانى من وصف عجائبه ، ولطيف بدائعه ، بمـا لم يَخْطُر على قلب بشرٍ » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٤١٩)

---

(١) يشير إلى قوله تعالى : « قالَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ » .

(٢) برح به الأمر تبريحاً : جهده واشتد عليه . (٣) الغرب : الحدة .

(٤) بعينه غرب : إذا كانت تسيل فلا تنقطع دموعها .

(٥) قال تعالى : « إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ . وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ » كان ابن عم موسى وابن خالته ، والأكار بالتشديد الحراث ، جمعه أكرة ، كأنه جمع آكر فى التقدير .

(٦) هو النبي الذى لقيه موسي عليه السلام، وفتاه يوشع بن نون، فى طريقهما، وفى ذلك يقول تعالى: « فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا » .

والفيوج جمع فيج بالفتح : وهو رسول السلطان الذى يسعى بالكتب .

٢٢٧ - كتاب ابن أبي طاهر إلى أبي على البصير

وكتب أحمد بن أبي طاهر إلى أبي على البصير يعاتبه على مؤاخاة ابن مكرَّم، معدِّدا سيئاته ومثالِبه :

« وفَّر الله يا أخى من كل خيرٍ حظَّك، وأجزَلَ منه قَسْمك، وبلَّغك غايةَ هِمَمك، ونهايةَ طَلِبتك، ومتَّع إخوانك بما مَنَحهم منك، وأعاذهم من الغِيَر فيك، إنه يقال - جعلنى الله فداءك - : أخوك مَن صَدَقك، وعدوّك مَن نافقك، وعليك لأخيك مثلُ الذى عليه لك، والعتابُ أمارة الإشفاق، ودليلُ الضِنّ من الإخوان، ومن جادَلَ نفسهُ فى هواه، عَرَف صوابه وخطأه، وعلى النَّصَفة ثباتُ المودة، ومع المثابرة تكون الموافقة[1]، ولولا رجائى يا أخى أن تستميلك المعاتبةُ، وتُرْجِعَك[2] المراقبةُ، وعلى أن فيما أعدِّد عليك، وأذكِّرك به، وأتقدَّم فيه إليك، ما يَثْنِى أخلاقَك، إلى ما يُشْبه أعراقَك[3]، وأنى قد بلغتُ بك فى النَّظِرَة[4] الموضعَ الذى يتعذَّر مَخْرَجُ العذرِ عليك منه، إلا أن تعود بالإقرار، بمُقامك على الجفاء والإصرار، وما أرجِع إليه من الثقة بك، وإخلاص المحبة والمِقَة لك، وما أعرِفه من صحة ودّك، وكريم عهدك، وحسن اختيارك وتمييزك، ماعتَبْتُ عليك ولا استعتبتُك، ولَخَلَّيْتُك وما اخترتَ، ولم أنبِّهك على ما أضعْتَ، ولما وصلتُ ماقطعتَ، حتى يثُوب إليك حازمٌ من رأيك، وعاطفٌ من ودك وإخائك، ولكنى ما أمسكتُ عن المعاتبة، وتأنيتك[5] بالمراقبة، ورأيتك قد رضيت بالمِهنة[6] التى تلزَمك فى المُجْنة، وكنتُ

---

(١) وربما كان « المرافقة » .

(٢) فى الأصل « وتوجعك » وهو تحريف .

(٣) أى أصلك وفى الأصل « إلى ما لايشبه » .

(٤) أى الإمهال والتأخير .

(٥) تأناه : انتظره .

(٦) المهنة : الخدمة ، وامتهنه : ابتذله واحتقره ، والمجنة: مايعيب .

إلى لِين استعطافك ، وحُسْنِ إنصافك ، أحوجَ منى إلى قَطْع أسبابك ، والمُقامِ على تَرْك عِتابك ، وكنتُ مستعداً لاحتمال ما يَضيمُني منك ، ويتناهى إلىَّ عنك ، لِميل النفس بالرغبة إليك ، وإقبالها ـ وإن أدبرْتَ عنها ـ عليك ، لأن العُدْوان فى المعاملة ، مِن شأن مَن يُحْظَر عليه فى المواصَلة ، سيَّما مَن قد أخلَقَ عندك إخاؤه ، ورَثَّ فى نفسك وفاؤه ، ودعاك طولُ عهده إلى مَلالة ودّه ، لم أجد بُدًّا من رَدِّك ، باستعتابك إلى ماهو أولَى بك ، رَدَّك الله إلى أجمل العادة ، وما هو أولَى بك فينا من النَّصفة .

أُأخى ـ أقبلَ اللهُ بك إلى الواجب ـ أنا الخليل الذى لايُزْ بِلُه عن ودِّك وقديمِ عهدك سَكَرٌ(١) ، ولا يُغيِّر مَن قد بلاك وبَلوْتَه(٢) ، وامتحنَك فاختارك واخترته ، أوَّلُك عنده حَميد ، وآخِرُك(٣) عنده جديد ، مَوَدَّتُه لك غيرُ مدخولة ، وعِشْرته غير مملولة ، لم تَنْبُ(٤) عنك خلائقُه ، ولم تنشَعِبْ عنك طرائقُه ، يَغُضُّ من نفسه ليرفعَك ، ويضرّها لينفعك ، فحين نطقتُ بلسانك فيما ضرَّنى ، وتقدمتُ لك فيما أخَّرنى ، وأخدمتُ(٥) مودتَك نفسى وعِرضى ، وهتَكتُ لك أدبى ومُروءتى ، فوَدِدْتُ بودِّك ، وصَدَدْتُ بصدِّك ، ووقفتُ بك حيث وقفتَ بنفسك ، وانقَدْتُ لك حيث سلكْتَ بى محبَّتُك ، ولم أُجشّمك الوقوفَ عند هَوَاىَ ، ولم أُسُمْك الانصرافَ إلى رضاىَ ، إلا فى أمر تسلَمُ عاقبته ، ولا تسُوءُك مَغَبَّتُه ، أُوثِرُ على محبتى ماسَرَّك ، وأقَدِّم على أمرى أمرَك ، لا أُوازِنك المعامَلةَ ، ولا أقارضك المشاغلةَ ، ماتحِبَّ فمضمونٌ لك عندى ، وما تكرَهْ فمصروفٌ عنك منى ، أحمِلُ عنك الثقيلَ ، وأتوعَّر ليسهل لك السبيلُ ، أوسِّعُ لك فى الذّنب المَنهج ، إذا ضاق عليك من العذر

---

(١) فى الأصل « شكر » وهو تحريف ، والسكر بالتحريك : الغضب والغيظ ، وربما كان الأصل « شكوى » .
(٢) بلاه : اختبره .
(٣) فى الأصل « وأجرك » .
(٤) أى لم تضق .
(٥) أخدمت فلانا : أعطيته خادما يخدمه ، أى جعلت نفسى وعرضى خادمين لمودتك .

المخرجُ ، أُطلِعكَ على مكنون سِرى ، وأُظهِرك على باطن أمرى ، لا أقول هذا تمنُّناً ، ولا أعتدُّ به تبجُّحاً[١] ، ولا أقتضيكَ عليه شُكرا ، إذ كنتُ أرى أنى أُؤدِّى به فرضا واجبا ، وأقضِى به حقّاً لازما ، ولكنى أذكِّرك ما نسِيتَ ، وأنبِّهك على ما أضعتَ ، وأحتجُّ عليك إذ قصَّرْتَ ، وقدَّمتَ علىَّ فى إخائك مَن ليس مِن أكفائى ولا أكفائك ، المَقْلِىَّ المُذَمَّم ، المَهِينَ « ابنَ مكرَّم » ، العاقَّ لأبيه ، والمنتفِىَ من أخيه ، والقاذف لأمه ، والقاطع لرَحِمه ، المهتوكَ الحُرْمة ، الوضيعَ الهمَّة ، الضيِّق الصدر ، القريب القعْر ، السريعَ إلى الصديق ، البطىء عن الحقوق ، المشهور بالزّناء[٢] ، المعروف بالبِغاء . . . .[٣] ، العاكف على ذَنبه ،[٤] الصادِفَ[٥] عن ربه ، الوضيع فى خلائقه ، العاتى[٦] على خالقه ، الدائم البِطْنة ، النَّطِف[٧] الدِّين والجَيْب ، الدَّنِس العِرْض والثوب ، عدوُّه آمِنٌ من غائلته ، وصديقُه خائفٌ من بائقته ، جَهْلُه جهلُ الصِّبيان ، وضعفُه ضعفُ النِّسوان ، سَهِك[٨] الرِّيح ، ثقيل الرُّوح ، خفيف العقل والوزن ، خبيث الفَرْج والبطن ، جليسُه بين نَتْن وأذى ، وقذَر وبَذَى[٩] ، مَن استخفَّ به أكرمه ، ومن وَصَله صَرَمه ، غَثّ الخلقة ، رَثّ الهيئة ، وَسِخ المروءة ، يحلف لِيَحْنَث ، ويَعْهَد ليَنكُثَ ، ويَعِد ليُخْلِف ، ويحدِّث ليكذب ، إن تكلَّم ملأَ الأسماع عِيًّا ، والأنف نَتْنا ، وإن سكت قَرَى[١٠] العيونَ قبحا ، والقلوبَ مَقْتا ،

---

(١) تبجح به : فخر .
(٢) فى الأصل « المشهور إليه » هكذا . والزنا والزناء بالقصر والمد .
(٣) حذفنا فقرتين هنا لما فيهما من البذاءة .
(٤) فى الأصل « على دينه » وهو تصحيف .
(٥) أى المعرض .
(٦) عتا : استكبر وجاوز الحد .
(٧) نطف كفرح وعنى : تلطخ بعيب واتهم بريبة .
(٨) السهك محركة : ريح كريهة ممن عرق ، سهك كفرح فهو سهك .
(٩) البذاء : السفه والإفحاش فى المنطق ، وقد قصره من مد .
(١٠) أى قدم إليها ، من قرى الضيف يقريه إذا أحسن إليه — وهو تهكم .

إسنادُه عن المخنَّثين ، وبلاغته فى ذم الصالحين ، وطُرَفه قَذْفُ المُحْصَنات[1] ، وسَعْيُه فى كَسْب السيئات وخَلْوَتُه لاقتراف السَّوْءات وتَمَنِّى الشهوات ، أحْسَنُ عنده مِن مَدْحه الأفراطُ فى ذمّه ، كما أنه أجملُ مِن وصله انقُامُ على صَرْمه[2] .

هذا قليل من كثير ما أعرف عنه ، ويسيرٌ فى (جنب ما[3]) يوصَف منه ، فأنى يا أخى اخترتَه؟ ولأىِّ شىء علىَّ آثرته ؟ . . . .[4] وأىَّ أموره استلَنْتَ؟ أتَنْدِيدَه بالإخوان[5] ، أم محافظَتَه على الخِوان[6] ، أم أُنْسه بالخيانة ، أم شَتْمه الصحابة ، أم مؤا كلتَه الكلابَ ، أم مُقامَه على الاغتياب ، أم نَتْن رائحته ، أم سوء معاشرته ، أم مَلالَه وضَجَره ، أو وَضَرَه وبَخَره[7] ؟ أم وصلتَه حين قطعتُه ، واخترتَه حين اطرَّحتُه ؟ .

وإن مما حقّق ظنى بك فيه ، أنك لم تكن له زَوّاراً فواظبتَ عليه ، وكنتَ عنه متثاقِلا فأسرعتَ إليه ، وله ذامًّا فلسانُك رَطْبٌ بمدحه ، حتى كأنك إلى غاية مكروهى أجْريتَ فى أمره ، وإلا فكيف أنِسْتَ بالجانب الوحشىّ من الثقة ، وأوحشتَ الجانبَ المعمورَ لك بالأنس والثِقَة، وقد تظاهرَتْ عليه بما قلتُ الشهادةُ ، وهتَفَتْ به الألسنُ من كل ناحية ، وتحاماه كل ذى دين ومُروءة ، فأعطيتَ المودةَ غير أهلِها ، ومنَحتَ الجفوةَ غير مستحِقّها ، ووصلْتَ مَن قطعَك ، وقطعتَ من وصَلَك .

---

(١) المحصنة : العفيفة أو المتزوجة ، قال ثعلب : كل امرأة عفيفة فهى محصنة بفتح الصاد وكسرها وكل امرأة متزوجة فهى محصنة بالفتح لاغير .

(٢) أى قطعه .

(٣) مابين القوسين بياض بالأصل ، وقد تممت به الجملة .

(٤) بياض بالأصل .

(٥) ندد به : صرح بعيوبه وشهره وسمع به ، وفى الأصل « أتنديداً على الإخوان » والذى فى كتب اللغة تعدية هذا الفعل بالباء .

(٦) الخوان : كغراب وكتاب : مايؤكل عليه الطعام ، والمراد به الطعام .

(٧) وضره : أى وسخه وقذره ، وأصل الوضر : وسخ الدسم واللبن ، والبخر : نتن الفم .

فبادِرْ يا أخى فى يومك منه بتَرْك مالا ينفعك فى غدٍ معرفتُه ، وتوقعْ هجاءه(١) لك عن قليل ، ونُبُوَّ(٢) أخلاقه عنك عن قريب « وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٤٢٣)

٢٢٨ — كتاب عبد الله بن المعتز إلى عبيد الله بن سليمان

وكتب عبد الله بن المعتز(٣) إلى عبيد الله بن سليمان بن وَهب فى يوم عيد :

« أخَّرَتنى العِلَّة عن الوزير ـ أعزه الله ـ فحضرتُ بالدعاء فى كتابى لينوبَ عنى، ويَعْمُرَ ما أخلَتْه العوائقُ منى ، وأنا أسأل الله تعالى أن يجعل هذا العيد أعظم الأعياد السالفة بركةً على الوزير ، ودون الأعياد المستقبَلة فيما يُحِبُّ ويُحَبُّ له ، ويقبل ماتوسَّل به إلى مَرْضاته ، ويضاعِف الإحسانَ إليه على الإحسان منه ، ويمتِّعه بصُحْبة النعمة ولِباس العافية ، ولا يُرِيَه فى مَسَرَّة نقْصا ، ولا يقطَعَ عنه مَزِيدا ، ويجعلنى من كل سوء فِداءه ، ويصرِف عيون الغِيَر(٤) عنه وعن حظى منه » .

(زهر الآداب ١ : ٢٠٧)

---

(١) فى الأصل « حجابه » وأرى أنه محرف .

(٢) من نبا الطبع عن الشىء : أى نفر ولم يقبله ، ونبا الشىء عنى : تجافى وتباعد ، ونبا فلان عن فلان : لم ينقد له ، وفى الأصل « ونبو أخلاقه عليك » وربما كان : « وتبوأ خلافه عليك » أى مخالفته لك .

(٣) هو أبو العباس عبد الله بن المعتز بن المتوكل العباسى ، كان أديباً بليغا شاعراً مطبوعاً سهل اللفظ حسن الإبداع للمعانى ، وفى خلافة المقتدر (الذى ولى الخلافة من سنة ٢٩٥ إلى سنة ٣٢٠) اتفق مع ابن المعتز جماعة من رؤساء الأجناد ووجوه الكتاب ، فخلعوا المقتدر سنة ٢٩٦ وبايعوا ابن المعتز ، ثم إن أصحاب المقتدر تحزبوا وتراجعوا وحاربوا أعوان ابن المعتز وشتتوهم ، وأعادوا المقتدر إلى الخلافة ، واختفى ابن المعتز ثم أخذ وقتل ، وأقام فى الخلافة يوما وليلة ـ انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١ : ٢٠٨ ونزهة الألبا ص ٢٩٩ وكتب التاريخ .

(٤) الغير : حوادث الدهر المغيرة .

٢٢٩ — كتابه إلى عبيد الله بن سليمان يهنئه بقدومه

وكتب عبد الله بن المعتز إلى الوزير عبيد الله بن سليمان يهنئه بقدومه :

« الحمد لله على ما امتَنَّ به على الوزير — أعزه الله — من جميل السلامة ، وحُسْن الإياب[١] ، حمدا مستَمَدًّا مِن مزيده[٢] ، وإخلاصا مستدْعِيا لقَبوله ، وبارك الله له فى قدومِه ومَسِيره ، وفى جميع أموره ، وجعلَ له مِنةً وافية على نعمه ، وأبقاه لمُلْك يَحْرُسُه ، ومؤمِّلٍ يُنْعِشُه ، وعاثِرٍ يَرْفعه ، وحفِظَ له ماخوَّله[٣] ، كما حفِظَ له ما استرعاه ، ووفقه فيما طوَّقه ، وزاده كما زاد منه » .

(الأوراق للصولى ٢ : ٢٨٨)

٢٣٠ — كتابه إلى عبيد الله بن سليمان يعزيه عن ابنه

وكتب إليه يعزيه عن ابنه أبى محمد :

« عِلْمُ الوزير — أيَّده الله — بذخائر الأجر يُغْنى عن تَعزيته فيه ، وسَبْقُه إلى الصبر يكفينى تذكِرَةً به ، لكن لِوَلِىِّ الوزير — أيده الله — موضِعٌ إن أخلاه دَخَل فى جُملة المضيِّعين لحقِّه ، اللاهين عما عنَاه ، وقد كان من قضاء الله فى أبى محمد — رضى الله عنه — ماخَصَّت به المصيبةُ مواقعَ نِعَم الوزير ، وآثارَ إحسانه ، حاش لله إقراراً بالحق ، وتنجزاً للوعد منه ، وعظَّم الله أيُّها الوزيرُ أجرَك ، ووفَّرَ ذُخْرَك ، وعمَّر بقيَّتك ، وكثَّر عَددَك ، وسرَّك ولا ساءك ، وزادك ولا نقَصك ، ووَصَل بسلام الزمانِ نعمتَك ، وَوليَك بما تحبُّ فيما خوَّلك ، وكلُّ مصيبة وإن عظُمتْ صغيرةٌ فى ثواب الله عليها ، ضئيلةٌ بين نِعَم الله قبلَها وبعدها ، وما زال أولياءُ الله يُعْرَضون على المِحَن ، فيستقبلونها بالصبر ، ويُتْبِعونها بالشكر ، وتنفُذُ بصائرهم

---

(١) فى الأصل « وحسن الإيابة » والذى فى كتب اللغة : الأوب ، والإياب ، والأوبة ، والأيبة والإيبة ، والتأويب والتأييب والتأوب ، أى : الرجوع ، وليس فيها الإيابة .

(٢) فى الأصل « حمداً يستمد أمر مزيده » وأراه محرفا. (٣) أى ملكه .

مذمومَ أوائلها إلى محمود عواقبها ، ويصْعِدونها مَراقِيَ إلى شرف الآخرة ، ومراتبَ لأهل السعادة ، فى دارٍ لاتَلَجُها الهمومُ ، ولا يزول فيها النعيمُ .

وإذا تأمل الوزير ما تجاوزَتْ هذه الحادثةُ عنده من النعَم ، فى ولده أبى الحسين، الذى قد نهض بما حمَّله ، وَوَفَّى آماله ، وأقرَّ عينَه ، وغاظ حاسِدَه ، واكتَسى لباسَ كرامته ، وقام للخلافة بخلافته ، عَلِم أنه رابِح على الدهر ، حقيقٌ بتجاوزٍ الصبر إلى الشكر ، فجعل اللهُ الخلفَ للوزير من الماضى ، طُولَ عمرِ الباقى ، وحرَسه من المكارِهِ كلِّها ، وكفاه وكفانا فيه » .

(الأوراق للصولى ٢ : ٢٨٨)

٢٣١ — وله فصل من تعزية بولد

« لئن حُرِم الأجرَ ببِرِّك ، لقد كُفِى الإثمَ بعُقوقك ، ولئن فُجِعْتَ بفقده ، لقد أمِنْتَ الفِتنةَ به » .

(الأوراق للصولى ٢ : ٢٩٠)

٢٣٢ — وله تعزية

« عاريةٌ سَرَّكَ اللهُ بمدَّتها ، وآثَرَكَ بثوابها ، وأثابَكَ عن ارتجاعها ، فأبشِرْ بعاجِلٍ مِن صُنْعه ، وآجِلٍ من جزائِه ومَثُوبته .

عَظَّم الله أجْرَكَ ، وجعل الثوابَ عِوَضَكَ ، ووفَّقك لنَيل مَرْضاته عنك ، وإنا لِله ، قَوْلاً بما علَّم ، نتنجَّزُ به ما وَعَد » .

(الأوراق للصولى ٢ : ٢٩٤)

٢٣٣ — وله تعزية أخرى

« الخلودُ فى الدنيا لا يُؤَمَّل ، والفناء لا يُؤمَن ، ولا سُخْطَ على حكم الله ، ولا وحشةَ مع خلافتِه والأنسِ بطاعته ، فأدِّ ما استَردَّ صابرا ، وأصبِحْ لِما استرجَعَ مسلِّما ، فإن مَن علِمَ أن النعمة تفضل مِن واهبِها ، شَكَرها مُقْبِلَةً ، وصَبَر عنها مُوَلِّيَةً ،

جعلك الله محتملا للنعمة ، مؤدِّيا للشكر ، صابراً عند المِحْنة ، محفوظا موفور أجرها ، والفوز بالصبر عليها » .

(الأوراق للصولى ٢ : ٢٩٤)

٢٣٤ — وله تهنئة بمولود

« اتَّصل بى خبرُ مولودك ، فسَرَّنى لك ما سَرَّك ، وأنا أسأل الله أن يُقبع النعمةَ به عليك ببقائه لك ، وأن يعمِّرك حتى تَرَى زيادةً إليه منه ، كما رأيتَها به » .

(الأوراق للصولى ٢ : ٢٩٣)

٢٣٥ — وله فصل فى قبول عذر

« كيف أرُدُّ عُذْرَ مَن لاتهتدى إليه المَوْجِدة[1] ، ولا تتسلَّط عليه التُّهَمَة ، وواللهِ ما عَرَضْتُ لك وحرَّكتُ منك إلا بُخْلاً بما ذَخَرْتُه مِن مودتك ، واعتمدت عليه من إخلاصك ، لخوفى مع ذلك أن تصير غفلتك تغافلا ، وزلَّتك تعمُّدا ، وهذا مالا أحبه لك ، وإن كنت أحتمِلُه منك ، وما أعتذِر من مطالبتك بما جعلك أهلا للمعرفة به ، وجعلنى بودِّك مستحِقًّا له » .

(الأوراق للصولى ٢ : ٢٩٠)

٢٣٦ — وله فصل فى حاجة

« موصِّلُ كتابى فلان ، وقد جعلتُ الثقةَ بك مطِيَّتَه إليك ، فلا تُنْضِهَا[2] بمَطْلِك ، وأسرِعْ رَدَّها بسابِقِ إنجازِك ، وتصديقِ الأملِ فيك والظنِّ بك » .

(الأوراق للصولى ٢ : ٢٩٠)

---

(١) الموجدة : الغضب .

(٢) أنضاها : هزلها .

٢٣٧ — وله فصل

« قد مِلْتُ إليك فما أعتدِلُ ، ونزلتُ بك فما أرتحِلُ ، ووقفتُ عليك فما أنتقِلُ ».

(الأوراق للصولى ٢ : ٢٩١)

٢٣٨ — وله فصل

« لولا أن الإطناب فى وصفٍ مطيَّــةٌ للمتخرِّصِ[1] ، وتُهمَة للمُخلِص[2] ، لَأَطَلْتُ به كتابى ، وكفى بمقاساةِ ذى النقصِ مُذَكِّرًا بأهل التمام ، وقد لبِثتُ بعدك بقلبٍ يوَدُّ لو كان عينا ليراك ، وعينٍ تودُّ لو كانت قلبا فلا تخلُو من ذكراك » .

(الأوراق للصولى ٢ : ٢٩١)

٢٣٩ — وله فصل

« كيف ينقطع ذِكْرى لك بغير خَلَفٍ منك ، وينصرف قلبى عنك والتجاربُ تَزْوِى[3] إليك . واللهُ يعلم أنَّ خيالَك شمسُ نفسى إذا نِمْتُ ، وذِكْرَك سِراجُها إذا انتبهتُ ، وإن ذلك لأقلُّ حقوقِك ، ولا غلبتُ غيرَك بك ، ولا مِلْتُ عليه لك » .

(الأوراق للصولى ٢ : ٢٩١)

٢٤٠ — وله فصل

ذكرتَ حاجة فلان ، لا فصَّلها الله بالنجاح ، ولا يسَّر بابَها بالانفتاح ، ووصفتَ عُذْراً له نَصَح به غيرَ نفسِه ، وما نصح عنها ، ولكنه نصح عليها ، وأنا والله أصونك عنه ، وأنصَحُ لك فيه ، فإنه خبيث النيّة ، فاسِدُ الطوِية ، جائِرُ المَعاتِب ، طالِبٌ للمعايب ،

---

(١) تخرص عليه : افترى .

(٢) فى الأصل « للمتخلص » وأراه محرفا .

(٣) زواه : نحاه ، أى تصرفنى إليك ، وتوجهنى نحوك .

مقلِّب لسانه بالمَلَق ، ساترٌ بالتخلُّق وجهَ الخُلُق، موجود عند الرجاء . مفقود مع البلاء ، فأتعِبْ عقلَك باختيـاره ، ولا تُوحِشْ نعمتَك باصطناعه » .

(الأوراق للصولى ٢ : ٢٩٢)

٢٤١ — وله فصل فى الشوق

« إنى لآسَف على كل يوم فارِغٍ منك ، وكلَّ لحظةٍ لا تُؤْنِسها رؤيتُك ، وسَقْياً لدهر كان موسوماً بالاجتماع معك ، معموراً بلقائك ، جَمعَ اللهُ شَمْلَ سرورى بك ، وعمَّر بقائى بالنظر إليك » . (الأوراق للصولى ٢ : ٢٩٢)

٢٤٢ — وله شفاعة فى شغل

« مَن عظُمَت النعمةُ عليه ، كثُرَت الرغبةُ إليه ، فاستَجْلِبْ بالإنعام منك إنعامَ اللهِ عليك ، واستزِدْ بما تَهَبُ[١] منك ما يَهَبُ لك ، واجعل حظِّى من ولايتك قبولَ اختيارى لك هذا الرجلَ ، واخلِطْه بأوليائك القائلين[٢] فى ظِلِّك ، فقد أفردَك برغبته ، وصَرَف إليك وجهَ رجائه ، وليس فيه فضل للانتظار ، ولا بقيـة للإذْكار ، فعجِّل إن نويتَ جُودا ، وبادِرْ إن نويت صُنْعا ، ولاتـكن ممن ولايتهُ وَعْدٌ ، وصَرْفُه اعتذار » . (الأوراق للصولى ٢ : ٢٩٣)

٢٤٣ — وله فصل فى فراق

« كأنَّ الدهر أبخَلُ من أن يُملِّينى[٣] بك ، وأنـكَدُ من أن يُسوِّغَنى[٤] قُربَك ، وإنى له لَصابِرٌ إلاّ على فقدِك ، وراضٍ إلاّ ببعدك » . (الأوراق للصولى ٢ : ٢٩٣)

---

(١) فى الأصل « واسترد مانهب منك » وهو تحريف .

(٢) قال يقيل : نام فى القائلة ، وهى نصف النهار .

(٣) ملاه الله حبيبه : متعه به وأعاشه معه طويلا .

(٤) سوغه إياه : تركه له خالصا .

٢٤٤ — وله فصل

« تولى الله عنى مكافأتَك ، وَأعان على فعل الخير نيتَك ، وأصحبَ بقاءك عِزّا يبسُطُ يدَكَ لولِيِّك ، وعلى أعدائك ، وكِلاءةً (١) تَذُبّ عن ودائع مِنَنه عندك ، وزاد فى نعمك وإن عظُمَتْ ، وبلّغَك آمالَك وإن انفسَحَتْ » .

(الأوراق للصولى ٢ : ٢٩٤)

٢٤٥ — وله فصل

« لا أزال الله عنا ظِلَّك ، وأعلَى فى شرفِ المنازل مُرتقَاك ، ولا أعدَمَنا فيك إحسانا باقيا ، ومَزِيدا متصلا ، ويوما محمودا ، وغدًا مأمولا ، وعِزا يمكِّن قبضتَك ، ويَمُدُّ بَسْطتَك » . (الأوراق للصولى ٢ : ٢٩٤)

٢٤٦ — وله فصل

« لن تَكسِب — أعزك الله — المحامدَ ، وتستوجب الشرف ، إلا بالحمل على النفس والحال ، والنهوضِ بحَمْل الأثقال ، وبَذْل الجاه والمال ، ولو كانت المكارم تُنال بغير مُؤْنة ، لاشترك فيها السِّفَلُ والأحرار ، وتساهَمَها الوُضَعاء من ذوى الأخطار ، ولكن الله تعالى خص الكرماءَ الذين جعلهم أهلها ، فخفَّف عليهم حِمْلها ، وسَوَّغهم فضلَها ، وحَظَرها على السِّفْلة لِصغَر أقدارهم عنها ، وبُعْد طباعهم منها ، ونفورها عنهم ، واقشِعْرَارُها منهم » . (زهر الآداب ٣ : ٣١٣)

---

(١) كلأه كمنعه كلاءة بالكسر : حرسه .

٢٤٧ – وله فى وصف البيان

« البيان تَرْجمان القلوب ، وصَيْقَلُ العقول ، ومُجَلِّى الشُبْهة ، ومُوجِب الحجَّة ، والحاكم عند اختصام الظنون ، والمفرِّق بين الشك واليقين ، وهو من سُلطان الرُسُل الذى انقاد به المستَصْعِب ، واستقام الأصْيَدُ[1] ، وبُهِتَ الكافر ، وسلَّم المتمنع ، حتى أشِبَ[2] الحقُّ بأنصاره ، وخلا رَبْعُ الباطل من عُمَّاره .

وخيرُ البيان ما كان مصرِّحا عن المعنى ، ليُسْرِع إلى الفهم تلَقِّيه ، وموجَزاً ليخِفَّ على اللفظ تعاطيه ، وفضلُ القرآن على سائر الكلام معروف غير مجهول ، وظاهرٌ غيرُ خفىّ ، يشهد بذلك عجزُ المتعاطين ، وَوَهْنُ المتكلِّفين ، وتحيُّر الكذَّابين وهو المبلِّغ الذى لا يَمَلُّ ، والجديد الذى لا يَخْلَقُ ، والحق الصادع ، والنور الساطع ، والماحِى لظُلَم الضلال ، ولسان الصدق النافى للكذب ، ونذيرٌ قدَّمته الرحمةُ قبلَ الهلاك ، وناعِى الدنيا المنقولة ، وبشير الآخرة المخلَّدة ، ومِفتاحُ الخيرة ، ودليل الجنَّة ، إن أوجَزَ كان كافيا ، وإن أكثرَ كان مذكِّرا ، وإن أومأ كان مُقْنِعا ، وإن أطال كان مُفْهِما ، وإن أمرَ فناصِحاً ، وإن حَكَم فعادِلاً ، وإن أخبر فصادقا ، وإن بَيَّن فشافياً ، سهلٌ على الفهم ، صعب على المتعاطى ، قريب المأخذ ، بعيد المَرَام ، سراجٌ تستضىء به القلوبُ ، حُلو إذا تذوَّقته العقول ، بحر العلوم ، وديوان الحِكَم ، وجوهر الكَلِم . ونُزْهة المتوسِّمين ، ورُوح قلوب المؤمنين ، نزل به الرُّوحُ الأمين ، على محمد خاتَم النبيين ، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين ، فخَصَمَ الباطلَ ، وصَدَع بالحق ، وتألَّف من النُّفْرَة ، وأنقَذَ من الهَلَكة ، فوصَلَ الله له النصر ، وأضرَعَ[3] به خدَّ الكفر » .

(زهر الآداب ١ : ١١٤)

---

(١) الأصيد : المائل العنق .

(٢) من أشب الشجر كفرح : أى التف . (٣) أى أذل .

٢٤٨ — وله في وصف الكتاب والقلم

« الكتابُ والجُ الأبواب ، جَرِىء على الحُجَّاب ، مُفْهِم لا يَفْهَم ، وناطق لا يتكلم ، به يَشْخَص المشتاق ، إذا أقعده الفِراق[1] .

والقلم مجهِّز لجيوش الكلام ، يخدُم الإرادة ، ولا يَمَلُّ الاستزادةَ ، يسكت واقفا ، وينطق سائرا[2] ، على أرضٍ بياضُها مُظلِم ، وسوادُها مُضِيء ، وكأنه يقبِّل بِساط سُلطان ، أو يفتتح نوَّارَ بستان[3] » .

(زهر الآداب ٢ : ٣٢ ، والعقد الفريد ٢ : ١٨١ ، والأوراق للصولى ٢ : ٢٩٢)

٢٤٩ — كتاب أحمد بن إسمعيل إلى بعض الكتاب

وكتب أحمد بن إسمعيل إلى بعض الكتاب — وقد نال رتبةً فتقصَ إخوانَه في الدعاء — :

« الكِبْرُ — أعزك الله — مَعْرِض يستوى فيه النبيهُ ذِكرا ، والخامِلُ قَدْرا ، ليس أمامَه حِجاب يَمْنَعه ، ولا حاجِزٌ يحْظُره ، والناس أشدُّ تحفظا على الرئيس المحظوظ ، وأكثرُ اجْتلاء لأفعاله ، وتتبُّعا لمَعَايِبه : وتصفُّحا لأخلاقه ، وتنقيرا[4] عن خصاله ، منهم ، عن خامل لا يُعْبَأُ به ، وساقِطٍ لا يُكْتَرَثُ له فيَسِيرُ عيبِ الجليلِ يَقْدَح فيه ، وصغيرُ الذّنب يَكبُرُ منه ، وقليلُ الذم يُسرِع إليه .

والحالُ التي جدَّدها الله لك — وإن كنتُ أراها دون حقّك ، وناقصةً عن همّتك ، وأرضاً عند سمائك — حالٌ : الحاسِدُ عليها كثيرٌ ، وآمالُ المنافِسين إليها

---

(١) وفي كتاب الأوراق للصولى « ومنه يداوى الفرق » .
(٢) وفي العقد « يسكت واكفا ، وينطق ساكتا » .
(٣) النوار : الزهر أو الأبيض منه .
(٤) نقر الشيء وعنه : بحث عنه ، وفي الأصل « وتنفيرا » بالفاء ، وهو تصحيف .

تَسِيرُ ، والمودَّةُ تقتضِي النصيحةَ ، والمِقَةُ(١) تدعو إلى صِدق المَشُورة ، وليس يحرُسُ النعمة ويحوطُها ، ويحسِمُ الأطماعَ ويَصرِفها ، ويستجيب القلوبَ النافرةَ ويُطْلِقها ، إلاّ تَرْكُ ما أراك تستعمله فى ترتيب المكاتَبة ، وتمييزِ المخاطبة والمُحَاصَّة(٢) فى ألفاظ الدعاء ، والبخل بيسير الثناء ، وتطبيق(٣) إخوانك ومعامليك فى ذلك ، حتى صار عندك كأنه نَسَبٌ لا تتعدّاه ، ونعتٌ لهم لا تتخطّاه ، فأمّا إخوانُك فليس من حقك أن تَحُطَّهم حالٌ رفعَتك ، وأن تنقُصهم دولةٌ زادَتْك ، كما ليس من حقك عليهم أن يغالطوك ، فيُمسِكوا عن خطابك ، ويتحامَوا عن عتابك » .

(أدب الكتاب ص ١٠٥)

٢٥٠ — كتاب أحمد بن إسمعيل إلى صديق له

وكتب أحمد بن إسمعيل إلى صديق له نَقَصَه فى دعائه ، ولَحَن فى كتابه :

« وما أنا والكتابُ إلى صديقٍ أُدِينُ من الوفاء بغير دِينِه ؟
أُعَظِّمه ويَحقِرُني ، وأدعو له باللفظ يدعو لى بدونِه !
وَيَنقُصُنِى ولم أَنقُصْهُ حقّاً ويَخْشُنُ لفظُه من بعد لينِه !
فقام كتابُه بالردِّ عنى لكثرة ما تَضَمَّن من لُحُونِه »

(أدب الكتاب ص ١٦١)

٢٥١ — كتاب أحمد بن يحيى الأسدى إلى الحسين بن سعد

وقال أحمد بن يحيى الأسدى : كتب إلىَّ الحسين بن سعد ، فنقَصنى فى الدعاء ، فكتبت إليه :

---

(١) المقة : المحبة .
(٢) يقال. تحاصوا،وحاصوا : أى اقتسموا حصصا ، وفى الأصل « والمحاضة » وهو تصحيف .
(٣) أى تعميم وتسوية .

« قد علمتَ — أعزك الله — أن السبب فى العداوة بين محمد بن عبد الملك الزيات وإبراهيم بن العباس الصُّولى ، أنه لما وَلِىَ وزارة المعتضد[1] نقَصَ إبراهيمَ عما يستحقه من الدعاء ، فلم تحتمِلْ ذلك نفسُه ورياسته وموضعُه من الصِّناعة والدَّولة ، فعاتَبه فى ذلك فلم يُعتِبْه ، فألْهَبَ له نارَ هجاء لا يُطْفِئها الدهر ، وعلامةُ ذلك قوله فى كلام منثور قد ذَكَرَه : « ولِىَ هذا الأمرَ فما ظنَّ أن الرياسة تنجذِب إليه ، ولا أن العزَّ يتحصلُ له ، إلاَّ بحطِّ إخوانه عن منزلتهم ، ونَقْصِهم عن مرتبتهم ، فبَخَسنى[2] فى المكاتبة ، وساءنى فى المعاملة » فى كلام له طويل ، ثم نظم ذلك فى شعر فقال :

مَنْ رَأَى فى الأَنام مِثْلَ أخٍ لى؟ كان عَوْنى على الزمانِ وخِلِّى
رَفَعَتْه حالٌ ، فحاوَلَ حَطِّى وأبَى أنْ يَعِــزَّ إلاَّ بذُلِّى

وكان هذا الخطاب فى أول الأمر ، ثم أنحَى عليه بالهجاء ، فافتقِدْ ـ أعزك الله ـ إنصافَ إخوانك ، وتجنَّبْ ظلمَهم ، يصفُ لك غديرُ وُدِّهم » .

(أدب الكتاب ص ١٥٩)

٢٥٢ — كتاب أحمد بن على المازرانى إلى ابن بشر المرثدى

وروى الصُّولى أيضا فى أدب الكتاب قال :

لما ولِىَ ابنُ بِشر المَرْثَدِىّ كتابة الموفَّق بالله ، نَقَص أحمدَ بن على المازَرانىّ فى الدعاء حين كاتَبَه ، فكتب إليه :

كلما رُمْتُ أنْ أُخَلِّفَ مَن كا نَ أمامى خَلَفْتُ عنّى ورائى[3]
أنَقَصْتَ الدّعاء لى منك لمَّا زادكَ اللهُ رِفعــةً فى دعائى ؟

---

(١) هكذا فى الأصل ، وهو خطأ ، فإن ابن الزيات إنما وزر للمعتصم والواثق والمتوكل ، ثم نكبه المتوكل وقتله سنة ٢٣٣ ، وأما المعتضد فإنه ولى الخلافة سنة ٢٧٩ وتوفى سنة ٢٨٩ ، والصواب أنه « الواثق » . (٢) أى نقصنى .

(٣) يقال : خلفه وراءه أى جعله وراءه فتخلف عنه : أى تأخر عنه ، ويقال أيضاً : خلف عن أصحابه : أى تخلف .

فلَئِنْ تمَّ ما أراه وأصبحتُ وزيرا لَتطعَمنَّ جزائى[1]

فاعتذر إليه وزاده فى الدعاء .

وكان هذا فى كلام منثور لمن كان قبل المازَرانى : « وكنتُ آمُلُ لك الرفعة ، ولم أدرِ أنها تُكسبنى الضَّعَةَ ، وأرجو لك الثروة ولم أدر أنها تؤدينى إلى الإضافة ، فكان المُنَى طرد الغنا ، والدعاء سبب الثراء » . (أدب الكتاب ص ١٦٠)

٢٥٣ — فصل لعبد الله بن أحمد فى الشكر

« إن مِن حَقِّ النعمة أن تُذكَر وتُنْشَر ، ومِن كُفْرِها أن تُنْسَى وتُستَر ، وما أحبُّ أن أتزيَّن بنعمتك وأكون عُطُلا[2] من شكرك ، ولا أن تكون مِنَنُك مُوَفَّرةً عندى وأنا ناقصُ الحظ من رعاية ما أوليتنى ، لَنِعْمَ إذَنْ ما أتيت إلىَّ إذ صرفتَ أفضلَ نظرِك نحوى ، ولَبِئْس ما اخترتُ لنفسى ، إذ حَرَمْتُها فضلَ الشكر لِمن أنعم علىَّ فجعلتُ حظِّى فى قضاء حقِّ النعمة ، وما فى الشكر من استيجابِ الزيادة » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٠)

٢٥٤ — كتاب ابن عبدكان عن أحمد بن طولون إلى ابنه العباس

وكتب ابن عَبْدكان[3] عن أحمد بن طُولون إلى ابنه العباس حين عَصَى عليه بالإسكندرية[4] ، مُنذِراً له ومُوبِّخا له على فعله .

---

(١) لتطعمن : أى لتذوقن ، وفى الأصل « لتطعمنى » وهو تحريف .

(٢) من قولهم : امرأة عاطل وعطل : إذا لم يكن عليها حلى .

(٣) هو أبو جعفر محمد بن عبد الله بن عبدكان ، كان على المكاتبات والرسائل فى عهد الدولة الطولونية ، وكان بليغا مترسلا فصيحا — انظر الفهرست لابن النديم ص ١٩٧ ومعجم الأدباء ٦ : ٨٥ .

(٤) كان الخليفة المعتز قدولى بايكباك مصر ، فولى عليها بايكباك من قبله أحمد بن طولون سنة ٢٥٤ =

« من أحمد بن طُولون مَوْلَى أمير المؤمنين[1] ، إلى الظالم لنفسه ، العاصى لربِّه ، المُلِمِّ بذَنْبه ، المُفْسِد لكَسْبه ، العادِى[2] لطَوْره ، الجاهل لِقَدْره ، الناكِص على عَقِبه ، للركُوس[3] فى فِتنته ، المبخوس مِنْ حَظّ دنياهُ وآخرته .

سلام على كل مُنيب مستجِيب ، تائبٍ من قريب ، قَبلَ الأخذ بالكَظَم[4] ، وحُلولِ الفَوْتِ والندم .

وأحمَدُ اللهَ الذى لا إله إلا هو حَمْدَ معترِفٍ له بالبَلاء الجميل ، والطَّوْلِ الجليل ، وأسأله مسألةَ مُخلِصٍ فى رجائه ، مجتهد فى دُعائه ، أن يصلِّيَ على محمد المصطفَى ، وأمينه المرتضَى ، ورسوله المجتبَى ، صلى الله عليه وسلم .

= ثم استقل ابن طولون بمصر سنة ٢٥٧ فى عهد الخليفة المعتمد ، ثم أراد أن يوسع نطاق ملكه فأغار على الشام ٢٦٤ ، وفى أثناء غيابه بها عصى عليه ابنه العباس ، وجاء فى تاريخ الكامل لابن الأثير فى هذا الصدد (ج ٧ : ص ١٠٧) : « كان أحمد بن طولون قد خرج إلى الشام واستخلف ابنه العباس على مصر ، فلما أبعد عن مصر حسن للعباس جماعة كانوا عنده أخذ الأموال والانسراح إلى برقة ، ففعل ذلك ، وأتى برقة فى ربيع الأول سنة ٢٦٥ ، وبلغ الخبر أباه فعاد إلى مصر ، وأرسل إلى ابنه ولاطفه واستعطفه ، فلم يرجع إليه ، وخاف من معه فأشاروا عليه بقصد إفريقية ، فسار إليها وكاتب وجوه البربر ، فأتاه بعضهم ، وامتنع بعضهم ، وكتب إلى إبراهيم بن الأغلب يقول : إن أمير المؤمنين قد قلدنى أمر إفريقية وأعمالها ، ورحل حتى أتى حصن « لبدة » ففتحه أهله له ، فعاملهم أسوأ معاملة ونهبهم ، فمضى أهل الحصن إلى إلياس بن منصور رئيس الإباضية هناك ، فاستعانوا به ، فغضب لذلك وسار إلى العباس ليقاتله ، وكان إبراهيم بن الأغلب قد أرسل إلى عامل طرابلس جيشاً وأمره بقتال العباس ، فالتقوا واقتتلوا قتالا شديدا ، قاتل العباس فيه بيده ، فلما كان بالغد وافاهم إلياس بن منصور الإباضى فى اثنى عشر ألفاً من الإباضية ، فاجتمع هو وعامل طرابلس على قتال العباس فقتل من أصحابه خلق كثير ، وانهزم أقبح هزيمة ، وكاد يؤسر فخلصه مولى له ، ونهبوا سواده وأكثر ما حمله من مصر وعاد إلى برقة أقبح عود ، وشاع بمصر أن العباس انهزم فاغتم والده حتى ظهر عليه ، وسير إليه العساكر لما علم سلامته ، فقاتلوه قتالا صبر فيه الفريقان ، فانهزم العباس ومن معه ، وكثر القتل فى أصحابه ، وأخذ العباس أسيراً وحمل إلى أبيه فحبسه فى حجرة فى داره ، إلى أن قدم باقى الأسرى من أصحابه ، فلما قدموا أحضرهم أحمد عنده والعباس معهم ، فأمره أبوه أن يقطع أيدى أعيانهم وأرجلهم ففعل ، فلما فرغ منه وبخه أبوه وذمه ، ثم أمر به فضرب مائة مقرعة ، ودموعه تجرى على خده رقة لولده ، ثم رده إلى الحجرة واعتقله وذلك سنة ٢٦٨ » ومات ابن طولون سنة ٢٧٠ » .

(١) يعنى المعتمد على الله .

(٢) عدا الأمر وعنه : جاوزه ، والطور : القدر .

(٣) الركس : قلب أول الشىء على آخره .

(٤) الكظم : مخرج النفس .

أما بعدُ ، فإن مَثَلَك مَثلُ البقرة تثيرُ المُدْيَةَ بقَرْنيها ، والنملةِ يكون حتفها في جناحيْها ، وستعلم — هَبِلَتْكَ[1] الهَوَابِلُ ! أيها الأحمقُ الجاهل ، الذى ثَنَى على الغَىِّ عِطفَه، واغترَّ بضِجاج المواكِب خلفَه — أىَّ مَوْرِدَةِ هَلَكَةٍ بإذن الله توَرَّدْتَ، إذ على الله جل وعز تمرَّدْتَ وشرَدْتَ ، فإنه تبارك وتعالى قد ضرب لك فى كتابه مثلا : « قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ » .

وإنا كنا نقرِّبك إلينا ، ونَنْسُبك إلى بيوتنا ، طمعا فى إنابتك ، وتأميلا لِفَيْئَتك[2] ، فلما طال فى الغَىِّ انهما كُك ، وفى غَمْرة الجهل ارتبا كُك ، ولم نرَ الموعِظَةَ تُلين كَبِدَك ، ولا التذكيرَ يُقيم أَوَدَك[3] ، لم تكن لهذه النسبة أهْلا ، ولا لإضافتك إلينا موضِعا ومَحَلاًّ ، بل لا نُكْنَى بأبي العباس إلا تَكَرُّها ، وطَمَعاً بأن يَهَبَ الله منك خَلفا نُقلِّده اسمَك ، ونُكْنَى به دُونَك ، ونعدُّك كنت نَسْيا مَنْسِيًّا[4] ، ولم تك شيئا مَقْضِيًّا ، فانظر — ولا نظرَ بك — إلى عارِ نِسْبَتِه تقلَّدْتَ ، وسَخَطٍ مِن قِبَلِنا تعرَّضتَ ، واعلم أن البلاء بإذن الله قد أظلَّك ، والمكروهَ إن شاء الله قد أحاط بك ، والعساكر بحمد الله قد أتتْك كالسَّيْل فى الليل ، تُؤْذِنك بحَرْب وبوَيْل ، فإنا نُقسم — ونرجو أن لا نجُور ونَظلم — ألا نَثْنِيَ عنك عِنانا ، ولا نُؤْثِرَ على شانك شانا ، ولا نتوقَّلَ[5] ذِروةَ جبل ، ولا نَلِجَ بَطْن وادٍ ، إلا تَبِعْناك[6] بحَوْل الله وقوته فيهما ، وطلبناك حيث أمَّتَ منهما ، مُنفقين فيك كلَّ مال خطير ، ومستصغِرين بسببك كل خَطْب جليل ، حتى تستمِرَّ من طعْم العيش ما استحلَيْتَ ، وتستدفِعَ من البلايا ما استدعيتَ ، حين لا دافعَ بحَوْل الله عنك ، ولا مُزَحْزِحَ لنا

---

(١) هبلته أمه كفرح : ثكلته ، وامرأة هابل وهبول .

(٢) الفيئة : الرجوع . (٣) الأود : الاعوجاج .

(٤) النسي : مانسي . (٥) وقل فى الجبل كوعد وتوقل : صعد .

(٦) فى الأصل « جلناك » والظاهر أنه محرف ، وصوابه « تبعناك » كما ذكره مصحح صبح الأعشى .

عن ساحتك ، وتَعرِف من قدر الرخاء ماجَهلتَ ،وتودُّ أنك هُبِلتَ ولم تكن بالمعصية عَجِلْتَ ، ولا رأْيَ مَن أضلّك مِن غُواتِك قبِلْتَ ، فحينئذ يتفرّى[١] لك الليلُ عن صُبحه ، ويَسفِر لك الحقُّ عن مَحْضِه ، فتنظر بعينين لا غِشاوةَ عليهما ، وتسمَع بأُذُنين لا وَقرَ[٢] فيهما ، وتعلم أنك كنت متمسّكا بحبائل غُرور ، متمادياً فى مَقَابِح أمور ، مِن عُقوقٍ لا ينام طالبُه ، وبَغْيٍ لاينجو هاربُه ، وغَدرٍ لا ينتعِشُ صَريعُه ، وكُفرانٍ لا يُودَى[٣] قَتيلُه ، وتقِف على سوء رَوِيّتك ، وعِظَم جَريرتك ، فى تركِك قَبولَ الأمانِ ، إذ هو لك مبذول ، وأنت عليه محمول ، وإذِ السيفُ عنك مَغمود ، وبابُ التوبةِ إليك مفتوح ، وتتلهّف والتلهفُ غيرُ نافِعك ، إلا أن تكون أجَبْتَ إليه مُسْرِعا ، وانقدْتَ إليه منتصِحا .

وإن مما زاد فى ذنوبك عندى ما ورد به كتابك علىَّ بعد نفوذى على الفُسطاط من التمويهات والأعاليلِ[٤] ، والعِدّات بالأباطيل ، من مصيرك — بزَعْمِك — إلى إصلاح ما ذكرتَ أنه فَسَدَ علىّ ، حتى مِلْتَ إلى الاسكندرية فأقمتَ بها طول هذه المدة ، واستظهاراً عليك بالحجة ، وقطعاً لمن عسى أن يتعلّق به مَعْذِرة عِلْم بأن الأَناةَ غيرُ صادّة ، ولا أنه خالجَنى شكٌّ ولا عارَضَنى ريب فى أنك إنما أردت النزوحَ[٥] والاحتيالَ للهرَب والنزوعَ إلى بعض المواضع التى لعلَّ قَصْدَك إياها يُودِيك[٦] ، ولعل مصيرك إليها يَكفينيك ، ويُبلّغ إلىَّ أكثرَ من الإرادة فيك ، لأنك إن شاء الله

---

(١) تفرى : انشق ، والمعنى هنا ينكشف ، وسفر الصبح كضرب وأسفر : أضاء وأشرق .

(٢) الوقر : الصمم . (٣) ودى القتيل كوعى : أعطى ديته .

(٤) أخذنا من قول الإمام على كرم الله وجهه فى بعض خطبه : « أعاليل بأضاليل » وفى كتب اللغة « العلالة بالضم والتعلة كتحية والعلة بالفتح : مايتعلل به » ولم أجد فيها كلمة أعاليل ولا مفردها ، ولا بد أن تكون جمع أعلولة بالضم ، كأعاجيب وألاعيب . . . الخ . والأباطيل : جمع أبطولة بالضم أو إبطالة بالكسر أو باطل على غير قياس .

(٥) النزوح : البعد .

(٦) الذى كتب فى اللغة « أودى الرجل : هلك ، وأودى به الموت : أهلكه » .

لاتَقصِدُ موضعاً إلا تَلَوَّتُك ، ولا تأتى بلداً إلا فَفَوّتُك ، ولا تلوذ بعصْمة تظن أنها تُنْجيك إلا استعنتُ بالله عز وجل فى جَدِّ حَبْلِها ، وفَصْمِ(١) عُرُوتِها ، فإنَّ أحداً لايُؤْوِى مِثلَك ولا ينصره إلا لأحد أمرين من دِين أو دنيا ، فأمّا الدِّين فأنت خارج من جملته ، لمُقَامِك على العقوق ، ومخالفةِ ربك وإسخاطه ، وأما الدنيا فما أراه بقى معك من الحطام الذى سرقتَه وحَمَلْتَ نفسك على الإيثار به ، ما يتهيأ لك مكاثرَتُنا بمثله ، مع ما وهب الله لنا من جزيل النعمة التى نستودعه تبارك وتعالى إياها ، ونرغب إليه فى إتمامها ، إلى ما أنت مُقيم عليه من البغى الذى هو صارِعُك ، والعقوق الذى هو طالبُك .

وأما ما مَنَّيْتَناه من مصيرك إلينا فى حُشُودك وجموعك ومن دخل فى طاعتك ، لإصلاح عملنا ، ومكافحة أعدائنا ، بأمرٍ أظهروا فيه الشماتة بنا ، فما كان إلا بسببك ، فأصْلِح أيها الصبىُّ الأخرقُ أمرَ نفسك قبل إصلاحك عَمَلَنا ، واحزُمْ فى أمرك قبل استعمالك الحزْمَ لنا ، فما أحوجَنا الله — وله الحمد — إلى نُصرتك ومُوازَرتك ، ولا اضطرِرْنا إلى التكثُّر بك على شِقاقك ومعصيتك « وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً » .

وليت شعرى على من تُهوِّل بالجنود ، وتُمَخْرِقُ(٢) بذكر الجيوش ؟ ومَن هؤلاء المسخَّرون لك ، الباذلون دماءهم وأموالهم وأديانهم دُونك ، دُونَ رِزقٍ تَرْزُقُهم إياه ، ولا عطاء تُدِرُّهُ عليهم ؟ فقد علمتَ — إن كان لك تمييز ، أو عندك تحصيل — كيف كانت حالك فى الوقعة التى كانت بناحية أَطْرَابُلُس(٣) ، وكيف خَذَلك أولياؤك والمرتزِقة معك حتى هُزِمْتَ ، فكيف تغترُّ بمن معك من الجنود الذين لا اسْمَ لهم

(١) الجد : القطع . والفصم : القطع والكسر أيضاً .

(٢) المخرقة : التمويه ، والممخرق : المموه .

(٣) يقال فيها : طرابلس وأطرابلس كما جاء فى معجم ياقوت .

معك ، ولا رِزق يجرى لهم على يدك ؟ فإن كان يدعوهم إلى نُصْرتك هيبتُك والمداراةُ لك ، والخوفُ من سلطانك ، فإنهم لَيَجْذِبُهم أضعافُ ذلك منا ، ووجُودُهم من البَذْل الكثير والعطاء الجزيل عندنا مالا يجدونه عندك ، وإنهم لأَحْرَى بخذْلِك ، والميلِ إلينا دونك ، ولو كانوا جميعا معك ، ومقيمين على نُصرتك ، لرجَوْنا أن يُمْكِن اللهُ منك ومنهم ، ويجعلَ دائِرَةَ السَّوْءِ عليك وعليهم ، ويُجرِينَا من عادته فى النصر وإعزاز الأمر على مالم يَزَل يتفضلُ علينا بأمثاله ، ويتطوّلُ بأشباهه ، فما دعانى إلى الإرْجاء لك ، والتسهيلِ مِن خِناقك[1] ، والإطالة من عِنانك ، طولَ هذه المدة إلا أمران : أغلبُهما كان علىَّ احتقارُ أمرك واستصغارُه وقلةُ الاحتفال والاكتراث به ، وأنى اقتصرتُ من عقوبتك على ما أحْلَلته[2] بنفسك من الإباق إلى أقاصى بلاد المغرب ، شَريداً عن منزلك وبلدك ، فَرِيدا من أهلك وولدك ، والآخر أنى علمتُ أن الوَحْشة دعَتْك إلى الانحياز إلى حيثُ انحزْتَ إليه ، فأردتُ التسكين من نِفارِك ، والطُّمَأْنِينةَ مِن جَأْشِك[3] ، وعلِمْتُ على أنك تَحِنُّ إلينا حنينَ الولد ، وتتُوقُ إلى قُرْبنا تَوَقانَ ذى الرَّحِم والنسب ، فإن فى رِفقنا بك ما يَعطِفك إلينا ، وفى تآخينا إياك ما يردُّك علينا ، ولم يسمع منا سامع فى خَلاء ولا مَلإٍ[4] انتقاصاً بك ، ولا غَضًّا منك ، ولا قَدْحا فيك ، رِقَّةً عليك ، واستتْماماً لليَدِ عندك ، وتأميلًا لِانْ تكون الراجعَ مِن تِلقاءِ نفسك ، والموفَّق بذلك لرُشْدك وحَظِّك ، فأمّا الآنَ مع اضطرارك إياى إلى ما اضطررتنى إليه من الانزعاج نحوَك ، وحَبْسك رُسلى النافذين بعهد كثير إلى ماقِبَلك ، واستعمالِك المُوارَبَةَ والخداعَ فيما يجرى عليه تدبيرك ، فما أنت بموضع للصِّيانة ، ولا أهل للإبقاء والمحافظة ، بل اللعنةُ عليك حالّةٌ ، والذّمّةُ منك برِيّةٌ ، واللهُ طالِبُك ومُؤاخِذك بما استعملت من العقوق والقطيعة ، والإضاعةِ

---

(١) الخناق : الحبل يخنق به .
(٢) فى الأصل « ما أخلقته » وأراه محرفا ، والصواب ماذكرته ، والإباق : الهرب .
(٣) الجأش : رواع القلب إذا اضطرب عند الفزع .
(٤) الملأ : الجماعة .

بِرَحِم الأبوّة ، فعليك من ولد عاقّ مُشاقّ[1] لعنةُ الله ولعنة اللاعنين والملائكة والناس أجمعين ، ولا قَبِلَ الله لك صَرْفا ولا عَدْلا[2] ، ولا ترك لك مُنقلَبا ترجع إليه ، وخَذَلك خِذلانَ من لا يُؤْبَه[3] له ، وأثكلك ولا أمهلك ، ولا حاطك ولا حفظك ، فوالله لأستعملنّ لَعْنَك في دُبُر كل صلاة ، والدعاء عليك في آناء الليل والنهار ، والغُدُوّ والآصالِ ، ولأكتبنّ إلى مصر وأجناد الشامات والثغور وقِنَّسْرِين والعواصم والجزيرة والحجاز ومكّة والمدينة ، كُتُبا تُقرأ على منابرها فيك ، باللعن لك ، والبراءةِ منك ، والدلالةِ على عقوقك وقطيعتك ، يتناقلها آخِرٌ عن أوّل ، ويأثُرُها[4] غابرٌ عن ماض ، وتُخلَّد في بطون الصحائف ، وتحملها الرُّكبانُ ، ويُتَحَدَّث بها في الآفاق ، وتُلحِق بك وبأعقابك عاراً ، ما اطّرد الليل والنهار ، واختلف الظلام والأنوار .

فحينئذ تعلم أيها المخالفُ أمْرَ أبيه ، القاطعُ رَحِمَه ، العاصي ربَّه ، أيّ جناية على نفسك جنيتَ ، وأيّ كبيرة اقترفتَ واجتنيتَ ؟ وتتمنى لو كانت فيك مُسْكة[5] ، أو فيك فضلُ إنسانية ، أنك لم تكن وُلِدْت ، ولا في الخلق عُرِفتَ ، إلا أن تُراجِع من طاعتنا ، والإسراع إلى ما قِبَلنا ، خاضعا ذليلا كما يلزمُك ، فتُقيم الاستغفار مُقام اللعنة ، والرِّقّة مقام الغِلظة ، والسلام على من سَمِع الموعظة فوعاها ، وذكر الله فاتقاه ، إن شاء الله تعالى » .

(صبح الأعشى ٧ : ٥)

٢٥٥ — كتاب بمذهب القرامطة

قال الطبري :

وفي سنة ٢٧٨ هـ وَرَدت الأخبار بحركة قوم يعرفون بالقَرامطة بسَواد

---

(١) أي مخالف ، وفي الأصل « شاق » وهو تحريف .

(٢) الصرف : التوبة ، العدل : الفدية .

(٣) أي لا يحتفل به لحقارته .

(٤) أي ينقلها ويرويها .

(٥) المسكة : ما يتمسك به .

الكوفة(١) ، وكان فيما حكوا عن هؤلاء القرامطة من مذهبهم أن جاءوا بكتاب فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، يقول الفرج بن عثمان ، وهو من قرية يقال لها نصرانة: إنه داعية إلى المسيح ، وهو عيسى ، وهو الكلمة ، وهو المهدى ، وهو أحمد بن محمد ابن الحنفية ، وهو جبريل ، وذكر أن المسيح تصور له فى جسم إنسان ، وقال له : إنك الداعية ، وإنك الحجة ، و الناقة ، وإنك الدابة ، وإنك روح القدس ، وإنك يحيى بن زكرياء ، وعرفه أن الصلاة أربع ركعات : ركعتان قبل طلوع الشمس ، وركعتان قبل غروبها ، وأن الأذان فى كل صلاة أن يقول : اللهُ أكبرُ

(١) قال الطبرى: فكان ابتداء أمرهم قدوم رجل من ناحية خوزستان إلى سواد الكوفة، ومقامه بموضع منه يقال له النهرين ، يظهر الزهد والتقشف ، ويسف الخوص ، ويأكل من كسبه ، ويكثر الصلاة، فأقام على ذلك مدة ، فكان إذا قعد إليه إنسان ذاكره أمر الدين ، وزهده فى الدنيا ، وأعلمه أن الصلاة المفترضة على الناس خمسون صلاة فى كل يوم وليلة ، حتى فشا ذلك عنه بموضعه ، ثم أعلمهم أنه يدعو إلى إمام من أهل بيت الرسول ، فلم يزل على ذلك يقعد إليه الجماعة فيخبرهم من ذلك بما يعلق بقلوبهم، وكان يقعد إلى بقال فى القرية . . . . » إلى أن قال : « ثم من مرض فكث مطروحا على الطريق وكان فى القرية رجل يحمل على أثوار له ، أحمر العينين شديدة حمرتهما ، وكان أهل القرية يسمونه « كرميته » لحمرة عينيه ، وهو بالنبطية « أحمر العينين » ، فكلم البقال كرميته هذا فى أن يحمل هذا العليل إلى منزله، ويوصى أهله بالإشراف عليه والعناية به ، ففعل وأقام عنده حتى برئ ، ثم كان يأوى إلى منزله ، ودعا أهل القرية إلى أمره ووصف لهم مذهبه ، فأجابه أهل تلك الناحية وكان يأخذ من الرجل إذا دخل فى دينه دينارا ، ويزعم أنه يأخذ ذلك للإمام ، فمكث بذلك يدعو أهل تلك القرى فيجيبونه ، واتخذ منهم اثنى عشر نقيبا أمرهم أن يدعوا الناس إلى دينهم ، وقال لهم : أنتم كحوارى عيسى بن مريم، فاشتغل أكرة تلك الناحية عن أعمالهم بما رسم لهم من الخمسين صلاة ، التى ذكر أنها مفترضة عليهم ، وكان للهيصم فى تلك الناحية ضياع ، فوقف على تقصير أكرته فى العمارة ، فسأل عن ذلك فأخبر أن إنسانا طرأ عليهم فأظهر لهم مذهبا من الدين ، وأعلمهم أن الذى افترضه الله عليهم خمسون صلاة فى اليوم والليلة ، فقد شغلوا بها عن أعمالهم ، فوجه فى طلبه فأخذ وجيء به إليه ، فسأله عن أمره ، فأخبره بقصته ، فحلف أن يقتله ، فأمر به فحبس فى بيت وأقفل عليه الباب ووضع المفتاح تحت وسادته وتشاغل بالشرب ، وسمع بعض من فى داره من الجوارى بقصته فرقت له ، فلما نام الهيصم أخذت المفتاح من تحت وسادته وفتحت الباب وأخرجته ، وأقفلت الباب وردت المفتاح إلى موضعه ، فلما أصبح الهيصم دعا بالمفتاح ففتح الباب فلم يجده، وشاع بذلك الخبر ، ففتن به أهل تلك الناحية ، وقالوا : رفع ، ثم ظهر فى موضع آخر ، ولقى جماعة من أصحابه وغيرهم، فسألوه عن قصته فقال : ليس يمكن أحدا أن يبدأنى بسوء ، ولا يقدر على ذلك منى ، فعظم فى أعينهم ، ثم خاف على نفسه فخرج إلى ناحية الشام فلم يعرف له خبر ، وسمى باسم الرجل الذى كان فى منزله صاحب الأثوار كرميته ، ثم خفف فقالوا قرمط » .

الله أكبر ، الله أكبر الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله مرتين ، أشهد أن آدمَ رسول الله ، أشهد أن نوحا رسول الله ، أشهد أن إبراهيم رسول الله ، أشهد أن موسى رسول الله ، وأشهد أن عيسى رسول الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله ، وأشهد أن أحمد بن محمد بن الحنفية رسول الله ، وأن يقرأ فى كل ركعة الاستفتاحَ ، وهى من المُنزَل على أحمد بن محمد بن الحنفية ، والقِبلة إلى بيت المَقْدِس ، والحجّ إلى بيت المَقْدِس ، ويوم الجمعة يوم الاثنين لايُعمل فيه شىء ، والسُّورة الحمد لله بكلمته وتعالى باسمه المتخذِ لأوليائه بأوليائه ، قل إن الأهِلة مواقيتُ للناس ، ظاهِرُها لِيُعلَمَ عددُ السنينَ والحساب والأشهر والأيام ، وباطِنُها أوليائى الذين عرّفوا عبادى سبيلى اتّقُون يا أولِى الألباب ، وأنا الذى لا أُسأل عما أفعل ، وأنا العليم الحكيم ، وأنا الذى أَبْلُو عبادى ، وأمتحِن خَلْقِى ، فَمَنْ صَبَرَ على بلائى ومِحنتى وَاختبارى ألقيتُه فى جنتى ، وأخلدتُه فى نعمتى ، ومن زال عن أمرى وكذّب رُسُلى ، أخلدتُه مُهَانا فى عذابى ، وأتممتُ أجَلِى ، وأظهرتُ أمرى على ألسِنة رسلى ، وأنا الذى لم يعْلُ علىَّ جبارٌ إلا وضعتُه ، ولا عزيزٌ إلا أذلَلتُه ، وليس الذى أصرّ على أمره ، وداوم على جَهالته ، وقالوا لَن نَبرَح عليه عاكفين ، وبه مؤمنين ، أولئك هم الكافرون .

ثم يركع ويقول فى ركوعه : سبحان رَبِّى رب العِزة وتعالى عما يصف الظالمون ، يقولها مرتين ، فإذا سجد قال : الله أعلى الله أعلى ، الله أعظم الله أعظم .

ومن شرائعه أن الصوم يومان فى السنة ، وهما المِهْرَجان والنَّوْرُوز ، وأن النبيذ حرام ، والخمر حلال[1] ، ولا غُسْل من جَنَابة إلا الوضوء كوضوء الصلاة ، وأن من حاربه وجب قتله ، ومن لم يحاربه ممن خالفه أخِذت منه الجزية ، ولا يؤكل[2] كلُّ ذى ناب ، ولا كل ذى مِخْلَب [ويشترك فى المرأة جماعة من الرجال[3]] .

(تاريخ الطبرى ١١ : ٣٣٩ ، وغرر الخصائص الواضحة ص ٢١٣) .

---

(١) وفى غرر الخصائص « وأن النبيذ والخمر غيرحرام » .

(٢) وفيه « ويؤكل » .

(٣) مابين القوسين وارد فى غرر الخصائص .

٢٥٦ — من كتاب عن المعتضد إلى خمارويه بن أحمد ابن طولون

ولما حُمِلَت قَطْرُ النَّدى بنت خُمارَوَيه بن أحمد بن طولون إلى المعتضد(١) ، كتب معها أبوها يذكِّره بخدمة سَلَفها(٢) ، ويذكُر ما تَرِد عليه من أُبَّهة الخلافة ، وجلالة الخليفة ، وسأل إيناسَها وبَسْطَها ، فبلغَتْ من قلب المعتضد لمّا زُفَّت إليه مبلغا عظيما ، وسُرَّ بها غاية السرور ، وأمر الوزيرَ أبا القاسم عبيد الله بن سليمان بن وهب بالجواب عن الكتاب ، فأراد أن يكتبه بخطه ، فسأله أبو الحسين بن ثَوابة أن يُؤْثِره بذلك فقعل وغاب أياما ، وأتى بنسخة يقول في فصل منها :

« وأمّا الوديعةُ فهي بمنزلة شيء انتقَلَ من يمينك إلى شِمالك ، عنايةً بها ، وحِياطة عليها ، ورعاية لمودَّتك فيها » .

ثم أقبل على عُبيد الله يَعجَب من حسن ما وقع له من هذا ، وقال : تسميتي لها بالوديعة نصف البلاغة ، فقال عبيد الله : ما أقبحَ هذا ! تفاءلْتَ لامرأة زُفَّت إلى صاحبها بالوديعة ، والوديعةُ مستَرَدَّة ، وقولك : من يمينك إلى شِمالك أقبح ، لأنك جعلت أباها اليمين ، وأمير المؤمنين الشِّمال ، ولو قلتَ على حال :

« وأما الهديةُ فقد حَسُنَ مَوْقِعُها منا ، وجَلَّ خَطَرُها عندنا ، وهي — وإن بعُدَتْ عنك — بمنزلة ما قَرُبَ منك ، لتفقُّدنا لها ، وأُنْسِنا بها ، ولسرورها بما وردَتْ عليه ، واغتباطِها بما صارت إليه لكان أحسن ، فنفَذَ الكتاب » .

(زهر الآداب ٢ : ٢٨٩)

---

(١) هو أبو العباس أحمد بن الموفق طلحة بن المتوكل ، ولي الخلافة سنة ٢٧٩ ، وتوفي سنة ٢٨٩ وولي خمارويه ملك مصر بعد وفاة أبيه سنة ٢٧٠ وقتل سنة ٢٨٢ .

(٢) كان جدها طولون مملوكا للمأمون ، وأصله من بخارى من قبائل التركستان ، أهداه إلى المأمون عامله ابن أسد الصامانى في جملة من أرسلهم إليه سنة ٢٠٠ هـ وقد أعجب به المأمون فألحقه بحاشيته ، ومازال يرقيه حتى جعله رئيس حرسه ، ولقبه بأمير الستر — وهو منصب لم يكن يناله إلا من كان للخليفة ثقة خاصة بأمانته وإخلاصه ، ليكون محافظا على حياته الشخصية — وكان في عهد المعتصم رئيس بطانته من المماليك .

٢٥٧ — كتاب عن المعتضد بلعن معاوية بن أبى سفيان

وروى الطبرى قال :

وفى سنة ٢٨٤ ﻫ عزم المعتضد بالله على لعن معاوية بن أبى سفيان على المنابر ، وأمر بإنشاء كتاب بذلك يُقرأ على الناس .

وذكر أن المعتضد أمر بإخراج الكتاب الذى كان للمأمون أمر بإنشائه بلعن معاوية، فأُخرج له من الديوان ، فأخذ من جوامعه نسخة هذا الكتاب ، وكانت نسخة الكتاب الذى أنشئ للمعتضد بالله :

« بسم الله الرحمن الرحيم : الحمدُ لله العلىّ العظيم ، الحليم الحكيم ، العزيز الرحيم ، المنفرد بالوَحْدانية ، الباهِرِ بقدرته ، الخالق بمشيئته وحِكمته ، الذى يعلَم سوابقَ الصدورِ وضمائرَ القلوب ، لا يَخْفَى عليه خافيةٌ ، ولا يعزُبُ عنه مِثقالُ ذرَّةٍ فى السموات العُلَى ولا فى الأرَضِينَ السُّفْلَى ، قد أحاط بكل شىء عِلْما، وأحْصَى كلَّ شىء عَدَدًا ، وضرَب لكل شىء أمَدًا ، وهو العليم الخبير ، والحمد لله الذى برَأ خَلْقَه لعبادته ، وخَلَق عباده لمعرفته ، على سابق عِلمِه فى طاعة مُطِيعهم ، وماضى أمْرِه فى عِصيان عاصيهم ، فبيّن لهم ما يأتون وما يتّقون ، ونَهَجَ لهم سُبُلَ النجاة ، وحذَّرهم مسالكَ الهَلَكة ، وظاهَرَ عليهم الحُجَّةَ ، وقدَّم إليهم المعذرةَ ، واختار لهم دينه الذى ارتضى لهم وأكرمهم به ، وجعل المعتصِمين بحَبْله والمتمسِّكين بعُرْوته أولياءه وأهلَ طاعته ، والعانِدِين[1] عنه والمخالفين له أعداءه وأهلَ معصيته : « لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ » والحمد لله الذى اصطفى محمدا رسولَه من جميع بَرِيّته ، واختاره لرسالته ، وابتعثه بالهُدَى والدِّين المرتضَى إلى عباده أجمعين ، وأنزل عليه الكتاب المُبين المستبين ، وتأذَّنَ له بالنصر والتّمكين ، وأيّده بالعِز والبرهان المتين ، فاهتدى به مَن اهتدى ، واستنقذَ به مَن

---

(١) أى المائلين .

استجاب له من العمى ، وأضلَّ مَن أدبَرَ وتولَّى ، حتى أظهر الله أمْرَه ، وأعز نصرَه ، وقَهرَ مَن خالفه ، وأنجز له وَعْدَه ، وخَتَمَ به رُسُلَه ، وقبَضه مؤدِّيا لأمره ، مبلِّغا لرسالته ، ناصحاً لأمته ، مَرْضياً مُهتدِياً إلى أكرَمِ مآب المنقلبين ، وأعلى مَنازِل أنبيائه المرسلين ، وعباده الفائزين ، فصَلَّى الله عَلَيْهِ أفضلَ صلاةٍ وأتمَّها ، وأجلَّها وأعظمها ، وأزكاها وأطهرَها ، وعلى آله الطيِّبين ، والحمد لله الذى جعل أمير المؤمنين وسَلَفه الراشدين المهتدين ، وَرَثَةَ خاتمِ النبيين ، وسيِّدِ المرسلين ، والقائمين بالدين ، والمقوِّمين لعباده المؤمنين ، والمستحفَظين ودائعَ الحكمة ومواريث النبوّة ، والمستخلَفين فى الأمة ، والمنصورين بالعز والمنَعة ، والتأييد والغَلَبة ، حتى يُظهر اللهُ دينه على الدين كُلِّه ولو كرِه المشركون .

وقد انتهى إلى أمير المؤمنين ما عليه جماعةٌ من العامّة ، من شُبْهة قد دخَلَتْهم فى أديانهم ، وفسادٍ قد لحِقَهم فى معتَقَدهم ، وعَصَبيَّة قد غلبَتْ عليها أهواؤُهم ، ونطقَتْ بها ألسنتُهم ، على غير معرفة ولا رويّة ، وقلَّدوا فيها قادةَ الضلالة بلا بيِّنة ولا بصيرة ، وخالفوا السُّنن المتبعة إلى الأهواء المبتدَعة ، قال الله عز وجل : « وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ ، إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » خروجاً عن الجماعة ، ومسارَعَةً إلى الفتنة ، وإيثاراً للفُرْقة ، وتشتيتا للكلمة ، وإظهاراً لموالاة مَن قَطع اللهُ عنه الموالاةَ ، وبتَرَ منه العصمةَ ، وأخرجه من الملّة ، وأوجب عليه اللعنةَ ، وتعظيماً لمن صغَّر اللهُ حقَّهُ ، وأوهن أمْرَه ، وأضعفَ رُكنَه ، من بنى أمية الشجرة الملعونة ، ومخالفةً لمن استنقذهم الله به من الهلَكة ، وأسبغ عليهم به النعْمةَ ، من أهل بيتِ البركة والرحمة ، قال الله عز وجل : « يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ » فأعْظَمَ أميرُ المؤمنين ما انتهى إليه من ذلك ، ورأى فى ترك إنكاره حَرَجا عليه فى الدين ، وفسادا لمن قلَّده الله أمرَه من المسلمين ، وإهمالا لما أوجبه الله عليه من تقويم المخالفين ، وتبصير الجاهلين ، وإقامة الحجة على الشاكِّين ، وبَسْطِ اليد على العاندين .

وأمير المؤمنين يُخبركم معاشرَ المسلمين ، أن الله عز وجل لما ابتعث محمدا بدينه ، وأمَرَه أن يَصْدَع بأمره ، بدأ بأهله وعشيرته ، فدعاهم إلى ربه وأنذرَهم وبشَّرهم ، ونصَح لهم وأرشدهم ، فكان مَن استجاب له وصدَّق قولَهُ واتبع أمرَه نَفَرٌ يسير من بنى أبيه ، من بين مؤمن بما أتَى به من ربه ، وبيْن ناصرٍ له وإن لم يتَّبع دينه ، إعزازا له وإشفاقا عليه ، لماضى علم الله فيمن اختار منهم ، وَنفذَت مشيئته فيما يستودعه إياه من خلافته وإرْث نبيه ، فمؤمِنُهم مجاهدٌ ببصيرته ، وكافِرُهم مجاهد بنُصرته وحَمِيّته ، يدفعون مَن نابَذَه ، ويقْهرون مَن عارَّه[1] وعانَدَه ، ويتوثَّقون له ممن كانَفه وعاضَدَه ، ويبايعون له مَن سَمَح بنصرته[2] ، ويتجسَّسون له أخبار أعدائه[3] وَيَكِيدون له بظَهْر الغَيْب كما يكيدون له بِرَأْى العين ، حتى بلغ المَدَى ، وحان وقتُ الاهتداء ، فدخلوا فى دين الله وطاعته وتصديقِ رسوله والإيمان به ، بأثبتِ بصيرةٍ ،

---

(١) عاره معارة وعرارا : قاتله وآذاه ، وفى شرح ابن أبى الحديد « عازه » بالزاى ، يقال: عازنى فعززته أى غالبنى فغلبته ، وكانفه : عاونه وساعده .

(٢) يعنى بذلك جده العباس بن عبد المطلب ، وما كان منه فى بيعة العقبة الثانية ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم (قبل هجرته من مكة) كان قد تواعد مع أنصاره من أهل المدينة الذين استجابوا لدعوته (فى موسم الحج) أن يجتمع بهم عند العقبة ليلا خفية من قريش ، ووافاهم هناك ومعه عمه العباس ، وهو يومئذ على دين قومه ، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له ، فلما جلس كان أول متكلم العباس ، فقال : يامعشر الخزرج — وكانت العرب إنما يسمون هذا الحى من الأنصار الخزرج ، خزرجها وأوسها — إن محمدا منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو فى عز من قومه ومنعة فى بلده ، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ، وما نعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم ، فمن الآن فدعوه ، فإنه فى عز ومنعة من قومه وبلده . . . الخ — انظر تاريخ الطبرى ٢ : ٢٣٨ ، وسيرة ابن هشام ١ : ٢٦٦ .

(٣) يعنى ما كان من العباس فى غزوة أحد ، وذلك أن جيش المشركين كان قد خرج من مكة لمحاربة رسول الله صلى الله عليه وسلم — انتقاما لما أصابهم يوم بدر — حتى نزلوا مقابل المدينة ، وبلغ الخبر رسول الله من كتاب بعث به إليه عمه العباس مع رجل استأجره لذلك ولم يخرج معهم فى هذه الحرب ، محتجا بما أصابه يوم بدر ولم يساعدهم بشىء (وقد قدمنا فى ص ٨٧ من الجزء الثالث أنه كان خرج مع المشركين يوم بدر وأسر وأخذ رسول الله منه الفدية) وكان بمكة يكتب إلى رسول الله بأخبار المشركين ، وقيل : إنه كان قد أسلم قبل الهجرة ، وكان يكتم إسلامه — انظر أسد الغابة ٣ : ٢١٠ والسيرة الحلبية ٢ : ٢٣٠ .

وأحسَنِ هُدًى ورغبةٍ ، فجعلهم الله أهلَ بيت الرحمة ، وأهل بيت الدين ، أذهَبَ عنهم الرِّجْسَ[1] وطهَّرهم تطهيرا، ومعدِنَ الحكمة ، ووَرثةَ النبوّة ، وموضِعَ الخلافة ، وأوجب لهم الفضيلةَ ، وألزم العباد لهم الطاعةَ .

وكان ممن عانده ونابذَه وكذَّبه وحارَبَه من عشيرته العددُ الأكثر ، والسَّواد الأعظم ، يتلقَّونه بالتكذيب والتثريب[2] ، ويقصِدونه بالأذيَّة والتخويف ، ويبارزونه بالعداوة ، وينصِبون له المحاربةَ ، ويصُدّون عنه مَن قَصَدَه ، وينالون بالتعذيب مَن اتّبعه ، وكان أشدَّهم في ذلك عداوةً ، وأعظَمهم له مخالفةً ، أوَّلَهم في كل حرب ومناصَبةٍ ، ورأسَهم في كل إجلاب[3] وفتنة ، لا يُرْفَع على الإسلام رايةٌ إلا كان صاحِبَهَا وقائدها ورئيسها في كل مواطن الحرب ، مِن بَدْرٍ وَأُحُد والخَنْدَق والفَتْح ، أبو سفيان بن حرب وأشياعه من بنى أمية الملعونين في كتاب الله ، ثم الملعونين على لسان رسول الله في عِدّة مواطن وعدة مواضع ، لِسابِق علم الله فيهم ، وماضِى حُكْمه في أمرهم وكفرهم ونفاقهم ، فلم يَزَلْ - لعَنه الله - يُحارب مجاهداً ، ويدافع مُكايِدا ، ويجلِبُ مُنابذا ، حتى قهره السيفُ ، وعلا أمرُ الله وهم كارهون ، فتقوّلَ[4] بالإسلام غيرَ مُنطوٍ عليه ، وأسَرَّ الكفرَ غيرَ مُقْلِع عنه ، فعرَفه بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون ، وقَبِلَه وقَبِلَ ولدَه على عِلْمٍ منه بحاله وحالهم ، وميَّز له للمؤلَّفةَ قلوبُهم[5] .

---

(١) الرجس : كل ما استقذر من العمل .

(٢) التثريب : اللوم .

(٣) الجلبة بالتحريك : اختلاط الأصوات وفعله كضرب ونصر ، وقد أجلبوا وجلبوا .

(٤) وفى شرح ابن أبى الحديد « فتعوذ » .

(٥) وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما انتصر على هوازان وثقيف وجموعهم بحنين سنة ٨ هـ (وحنين بصيغة التصغير : واد بين مكة والطائف) غنم منهم سبيا وغنائم كثيرة ، فاعطى المؤلفة قلوبهم (وهم من أسلم من أهل مكة) وكانوا أشرافا من أشراف الناس ، يتألفهم ويتألف بهم قومهم ، فكان أولهم أبا سفيان بن حرب ، أعطاه أربعين أوقية من الفضة ومائة من الإبل ، قال : وابنى يزيد ؟ فأعطاه كذلك قال : وابنى معاوية؟ فأعطاه كذلك ، فأخذ أبو سفيان ثلاثمائة من الإبل ومائة =

فمما لعنهم الله به على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم، وأنزل به كتابا قوله «وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ، وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا » ولا اختلافَ بين أحدٍ أنه تبارك وتعالى أراد بها بنى أمية[1] ، ومما ورد من ذلك فى السُّنَّةِ ، ورواه ثقاتُ الأمة ، قولُ رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه ، وقد رآه مقبلاً على حمار ، ومعاويةُ يقود به ، ويزيدُ ابنُه يسوق به : لعن الله الراكبَ والقائد والسائق[2] » .

= وعشرين أوقية من الفضة ، وقال : بأبى أنت وأمى يارسول الله ، لأنت كريم فى الحرب وفى السلم — انظر السيرة الحلبية ٣ : ١٣٧ ، وتاريخ الطبرى ٣ : ١٣٦ ، وسيرة ابن هشام ٢ : ٣٢٠ وميزله : أى لأجله : وميز الشيء : فصل بعضه من بعض، والمعنى انه أفرد المؤلفة قلوبهم بفضل من العطاء امتازوا به على من سواهم .

(١) لا . بل قد اختلفوا فى هذه الشجرة ، فالأكثرون قالوا : إنها شجرة الزقوم المذكورة فى القرآن فى قوله : « إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ . طَعَامُ الأَثِيمِ » وقوله : «أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ . إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ . إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ . طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ . فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ » والمراد بلعنها لعن طاعمها على الإسناد المجازى ، وكان أبو جهـل لما سمع بذكرها قال : يزعم محمد أن نار جهنم تحرق الحجارة حيث قال « وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ » ثم يقول بأن فى النار شجرا ، والنار تأكل الشجر ، فكيف يولد فيها ! . وقال ابن عباس : الشجرة بنو أمية ، يعنى الحكم بن أبى العاص قال : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام أن ولد الحكم يتداولون منبره (وسيرد ذكر هذه الرؤيا فى تلك الرسالة بعد) فقص رؤياه على أبى بكر وعمر وقد خلا فى بيته معهما ، فلما تفرقوا سمع رسول الله الحكم يخبر برؤيا رسول الله ، فاشتد ذلك عليه ، واتهم عمر بإفشاء سره، ثم ظهر أن الحكم كان يتسمع إليهم ، فنفاه رسول الله ولعنه ، قال الواحدى : هذه القصة كانت بالمدينة ، والسورة مكية ، فيبعد هذا التفسير ، إلا أن يقال : هذه الآية مدنية ، ولم يقل به أحد، ومما يؤكد هذا التأويل قول عائشة رضى الله عنها لمروان بن الحكم : أما أنت يامروان فأشهد أن رسول الله لعن أباك وأنت فى صلبه ، فأنت فضض من لعنة الله (وفضض كجبل : أى قطعة) وروى عن عائشة أيضا أنها قالت لمروان بن الحكم : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأبيك وجدك : إنكم الشجرة الملعونة فى القرآن — انظر تفسير الفخر الرازى ، مفاتيح الغيب ٥ : ٦٠٩ وروح المعانى للآلوسى ٤ : ٥٤٦ وغيرهما من التفاسير .

(٢) وجاء فى مخاصمة بين الحسن بن على رضى الله عنه وبين معاوية أن الحسن قال له : « وأنشدك الله يامعاوية ، أتذكر يوم جاء أبوك على جمل أحمر ، وأنت تسوقه ، وأخوك عتبة هذا يقوده ، فرآكم رسول الله صلى الله عليه وآله فقال : « اللهم العن الراكب والقائد والسائق» — انظر شرح ابن أبى الحديد م ٢ : ص ١٠١ .

ومنه ما روته الرواة عنه من قوله يوم بَيْعة عثمان : « يا بنى عبد مَناف تلقّفُوها تلقُّفَ الكُرَة ، فما هناك جَنةٌ ولا نارٌ » وهذا كُفر صُراح يَلحَقه به اللعنةُ من الله ، كما لحِقَتِ الذين كفروا من بنى إسرائيلَ على لِسانِ دَاوُدَ وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ . ومنه ما يرْوُون من وقوفه على ثَنِيَّة أُحُدٍ بعد ذهاب بصره[1] وقوله لقائده : هاهنا رمَيْنا[2] محمدا وقتلنا أصحابه . (ومنه الكلمة التى قالها للعباس قبل الفتح ، وقد عُرِضت عليه الجنودُ : لقد أصبح مُلْك ابن أخيك عظيما ! فقال له العباس : وَيحَك ! إنه ليس بملك ، إنها النبوة . ومنه قوله يوم الفتح ، وقد رأى بلالاً على ظهر الكعبة يؤذِّن ويقول : أشهد أن محمداً رسول الله : لقد أسعد الله عُتبة[3] بن ربيعة إذ لم يَشْهَد هذا المشهدَ[4]) ، ومنه الرؤيا التى رآها النبى صلى الله عليه وسلم فوَجَم[5] لها . فما رُئى ضاحكا بعدها ، فأنزل الله : « وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ » فذكروا أنه رأى نفراً من بنى أمية يَنْزُون[6] على منبره . ومنه طَرْدُ رسول الله صلى الله عليه وسلم الحكَمَ بن أبى العاص لحكاته إياه فى مِشيته ، وألحقه الله — بدعوة رسوله — آفةً باقية ، حين التفتَ إليه فرآه يتخلَّج يحكيه ، فقال له : كن كما أنت ، فبقىَ على ذلك سائرَ عمره[7] ، هذا إلى ما كان من مَرْوانَ ابنه

---

(١) الثنية : الطريق فى الجبل ، وكان أبو سفيان قد فقئت عينه يوم الطائف ، وفقئت عينه الأخرى يوم اليرموك — وقد شهد اليرموك ، وكان هو القاص فى جيش المسلمين يحرضهم ويحثهم على القتال — ولما عمى كان يقوده مولى له — انظر أسد الغابة ٣ : ١٢ وصبح الأعشى ١ : ٤٤٨ .

(٢) وفى تاريخ الطبرى « ذبينا محمدا » .

(٣) هو عم أبى سفيان ، وجد معاوية لأمه هند .

(٤) ما بين القوسين وارد فى رواية ابن أبى الحديد ، ساقط من طبعة الطبرى التى بأيدينا .

(٥) وجم كوعد : سكت على غيظ .

(٦) نزا ينزو : وثب ، جاء فى كتب التفسير : روى أنه صلى الله عليه وسلم رأى قوما من بنى أمية يرقون منبره وينزون عليه نزو القردة ، فقال : هذا حظهم من الدنيا يعطونه بإسلامهم .

(٧) كان الحكم يحكى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مشيته وبعض حركاته ، وكان صلى الله عليه وسلم يتكفأ فى مشيته) فالتفت يوما فرآه وهو يتخلج فى مشيته (أى يضطرب) فقال : كن كذلك ، فلم يزل يرتعش فى مشيته من يومئذ ، وطرده رسول الله ولعنه وأخرجه إلى الطائف وقال له : لاتساكننى فى بلد أبدا ، وصار مشهورا بأنه طريد رسول الله ، ولم يزل منفيا حياة النبى ، فلما ولى أبو بكر =

فى افتتاحه أولَ فتنةٍ كانت فى الإسلام(١) ، واحتقابِه(٢) لكل دمٍ حرامٍ سُفِكَ فيها ، أو أُريق بعدها ، وما أنزل الله منه على نبيّه فى سورة القدر « لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ » قالوا : مُلْكُ بنى أمية(٣) ، ومنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا بمعاوية ليكتبَ بين يديه ، فدافَعَ بأمره واعتلّ بطعامه ، فقال النبى : « لا أشبَعَ الله بَطْنَهُ(٤) » فبقِىَ لايشبَع ، وهو يقول : واللهِ ما أَترُكُ الطعام شِبَعاً ، ولكن إعياء(٥) ومنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يطلعُ من هذا الفَجّ(٦) رجل من أمتى

= الخلافة قبل له فى الحكم ليرده إلى المدينة فقال: ما كنت لأحل عقدة عقدها رسول الله، وكذلك عمر، فلما ولى عثمان الخلافة — والحكم عمه — رده وقال : كنت قد شفعت فيه إلى رسول الله فوعدنى برده — انظر أسد الغابة ٢ : ٣٤ .

(١) هى الفتنة التى نجمت فى أواخر خلافة عثمان ، وأفضت إلى قتله ، ثم إلى انشقاق عصا المسلمين ، وكان مروان غالبا على أمر عثمان ، وقد طلب الثوار إليه أن يسلم إليهم مروان ، إذ اتهموه بأنه افتعل عليه كتابا إلى عامل مصر ، وبعثه مع غلام عثمان ، يأمره فيه بقتل المصريين منهم ، فأبى عثمان أن يسلمه والقصة مشهورة .

(٢) احتقب الراكب الحقيبة : شدها من خلف ، ثم توسعوا فى اللفظ حتى قالوا : احتقب فلان الإثم: إذا اكتسبه ، كأنه شىء محسوس جمعه واحتقبه من خلفه .

(٣) مما ذكره المفسرون فى تفسيرها ، ماجاء فى تفسير الفخر الرازى (٨ : ٦٣٠) قال : «روى القاسم بن فضل عن عيسى بن مازن قال : قلت للحسن بن على عليه السلام : يامسودوجود المؤمنين، عمدت إلى هذا الرجل فبايعت له ! — يعنى معاوية — فقال : إن رسول الله رأى فى منامه بنى أمية يطئون منبره واحداً بعد واحد ، وفى رواية : ينزون على منبره نزو القردة ، فشق ذلك عليه ، فأنزل الله تعالى :

« إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ » إلى قوله « خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ » يعنى ملك بنى أمية . قال القاسم « فحسبنا ملك بنى أمية فإذا هو ألف شهر » اهـ ، وذكر ذلك أيضاً الآلوسى فى روح المعانى (٩ : ص ٤٢٢) ورأى أن الخبر موضوع ، وأن ذلك التأويل لاينهض عليه دليل ، على أن ملك بنى أمية ليس « ألف شهر لايزيد يوم، ولا ينقص يوم » كما يقول القاسم بن فضل ، فقد قامت الدولة الأموية سنة ٤١هـ وسقطت سنة ١٣٢ ، فولايتها أكثر من ألف شهر .

(٤) روى ابن الأثير فى أسد الغابة (ج ٤ : ص ٣٨٦) قال : « عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كنت ألعب مع الصبيان ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتواريت خلف باب ، قال : فجاء فحطأنى حطأة (والحطو : تحريك الشىء مزعزعا) وقال: اذهب فادع لى معاوية ، فجئت فقلت: هو يأكل ، ثم قال : اذهب فادع لى معاوية ، فجئت فقلت هو يأكل ، فقال : لا أشبع الله بطنه ، أخرج مسلم هذا الحديث بعينه لمعاوية » .

(٥) أعيا إعياء : كلّ .

(٦) الفج : الطريق الواسع بين جبلين .

يُحشَر على غير ملتى » فطَلَع معاوية(١) ، ومنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا رأيتم معاوية على مِنبرى فاقتلوه » ومنه الحديث المرفوع المشهور أنه قال : « إن معاوية فى تابوت من نار فى أسفل دَرْكٍ من جهنم ينادى : يا حَنَّانُ يا مَنَّان ، فيقال له : « آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ! » ومنه انبراؤه بالمحاربة لأفضل المسلمين فى الإسلام مكاناً ، وأقدَمِهم إليه سَبْقاً ، وأحسَنِهم فيه أثرا وَذِكْرا : علىِّ بن أبى طالب ، يُنازِعه حقَّه بباطله ، ويجاهد أنصاره بضُلاَّله وغُوَّاته ، ويحاول مالم يَزَل هو وأبوه يحاولانه من إطفاء نور الله وجحودِ دينه « وَيَأْبَى اللهُ إلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ » ويستهوى أهلَ الغباوة ، ويُموِّهُ عَلَى أهل الجهالة ، بمكره وبَغْيه اللَّذَين قدَّم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الخبرَ عنهما ، فقال لعمَّار(٢) ابن ياسر : « تقتُلك الفئة الباغية ، تدعوهم إلى الجنة ويدعونك إلى النار(٣) » مُؤثِرًا

---

(١) أرى أن هذا الحديث والحديثين بعده موضوعة .

(٢) هو عمار بن ياسر رضى الله عنه ، أحد السابقين الأولين ، وقد عذبه المشركون فى بدء الدعوة الإسلامية فاحتمل العذاب ، وكان يعذب هو وأخوه وأبوه وأمه بالنار ، فمر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : صبرا آل ياسر فوعدكم الجنة ، اللهم اغفر لآل ياسر » .

(٣) روت أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت : لما بنى رسول الله مسجده بالمدينة أمر باللبن أن يضرب وما يحتاج إليه ، ثم قام فوضع رداءه، فلما رأى ذلك المهاجرون والأنصار وضعوا أرديتهم كسيتهم يرتجزون ويقولون ويعملون :

لئن قعدنا والنبى يعمل ذاك إذن لعمل مضلل

قالت : وكان عثمان بن عفان رجلا نظيفا متنظفا ، فكان يحمل اللبنة ويجافى بها عن ثوبه فإذا وضعها نفض كفيه ، ونظر إلى ثوبه . فإذا أصابه شيء من التراب نفضه ، فنظر إليه على رضى الله عنه فأنشد :

لايستوى من يعمر المساجدا يدأب فيها راكعا وساجدا
وقائما طوراً وطورا قاعدا ومن يرى عن التراب حائدا

فسمعها عمار بن ياسر ، فجعل يرتجزها وهو لايدرى من يعنى ، فسمعه عثمان فقال : يابن سمية (وسمية أميه) ما أعرفنى بمن تعرض ومعه جريدة ، فقال : لتكفن أو لأعترضن بها وجهك ، فسمعه النبي وهو جالس فى ظل حائط فقال : « عمار جلدة مابين عينى وأنفى ، فمن بلغ ذلك منه فقد بلغ منى » وأشار بيده فوضعها بين عينيه ، فكف الناس عن ذلك وقالوا لعمار : إن رسول قد غضب فيك ، ونخاف أن ينزل فينا قرآن ، فقال : أنا أرضيه كما غضب ، فأقبل عليه فقال : يارسول الله مالى ولأصحابك ؟ قال : مالك ولهم ؟ قال : يريدون قتلى ، يحملون لبنة ويحملون على لبنتين ، فأخذ به وطاف به فى المسجد ، وجعل يمسح وجهه من التراب ويقول : «يابن سمية ، لا يقتلك أصحابى ، ولكن تقتلك الفئة الباغية» فلما قتل

للعاجلة ، كافرًا بالآجلة ، خارجا من رِبقة الإسلام ، مستحِلاً للدم الحرام ، حتى سُفِكَ فى فتنته ، وعلَى سبيل غَوايته وضلالته ، مالا يُحْصَى عددُه من خِيار المسلمين الذّابِّين عن دين الله ، والناصرين لحقه ، مجاهداً فى عداوة الله ، مجتهداً فى أن يُعْصَى اللهُ فلا يُطاع ، وتَبطُل أحكامه فلا تُقام ، ويخالَفَ دينُه فلا يُدَان[1] ، وأن تعلوَ كلمةُ الضّلالة ، وترتفع دعوةُ الباطل « وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا » ودينه المنصور ، وحُكْمُه النافذ ، وأمرُه الغالب ، وكَيْدُ من عاداه وحادّه[2] المغلوبُ الداحِضُ ، حتى احتمل أوزار تلك الحروب وما تَبِعها ، وتطوّق تلك الدماء وما سُفِك بعدها ، وسَنّ سُنَنَ الفساد التى عليه إثمُها وإثم مَن عمِلَ بها إلى يوم القيامة ، وأباح المحارِمَ لمن ارتكبها ، ومَنعَ الحقوق أهلَها ، واغترّه الإملاء[3] ، واستدرَجه الإمهالُ ، والله له بالمرْصاد .

ثم مما أوجب اللهُ له به اللعنةَ ، قَتْلُه مَنْ قَتَلَ صَبْرا[4] من خيار الصحابة والتابعين ، وأهل الفضل والدين ، مثل عمرو بن الحَمِق الخُزاعِيّ ، وحُجْر بن عَدِيّ الكِنْدِيّ[5] فيمن قتل من أمثالهم ، فى أن تكون لهم العزّة والمُلك والغَلَبة ، ولله العزة والملك والقدرة ، والله عزّ وجل يقول « وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهاَ وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً » ومما استحق به اللعنةَ من الله ورسوله ادّعاؤه زِيادَ بن سُمَيّةَ أخاه ، ونسبته إياه إلى أبيه جُرْأةً على الله ، والله يقول « آدْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ ، هُوَ أَقْسَطُ[6] عِنْدَ اللهِ » ورسولُ الله صلى الله عليه

= بصفين ـ وكان من أصحاب على ـ وروى هذا الحديث عبد الله ابن عمرو بن العاص ، قال معاوية : هم قتلوه ، لأنهم أخرجوه إلى القتل ، فلما بلغ ذلك عليا قال : ونحن قتلنا أيضا حمزة لأنا أخرجناه ؟ ـ انظر العقد الفريد ٢ : ٢٣٧ .

(١) أى فلا يداق به .

(٢) حاده : غاضبه وعاداه وخالفه ، داحض : أى باطل .

(٣) أملى له الله : أمهله ، وفى ابن أبى الحديد « وغرته الآمال » .

(٤) صبر الإنسان على القتل : أن يحبس ويرمى حتى يموت .

(٥) انظر خبرهما فيما قدمنا فى الجزء الثانى (ص ٤٥ وص ٦٠) .

(٦) أى أعدل .

وسلم يقول « ملعونٌ مَنِ ادَّعَى إلى غير أبيه ، أو انتمى إلى غير مَواليه » ويقول : « الولد للفِراش وللعاهِر الحَجَرُ[١] » فخالَفَ حُكْمَ الله عز وجل وسنةَ نبيه صلى الله عليه وسلم جهارا ، وجعَلَ الولد لغير الفراش ، والحجر لغير العاهر[٢] ، فأحَلَّ بهذه الدَّعوة من محارِمِ الله ومحارم رسوله فى أم حَبيبة[٣] زوجة النبى صلى الله عليه وسلم وفى غيرها مِن سُفُور وجوهٍ ما قد حرَّمه الله ، وأثبَتَ بها قُرْبَى قد باعَدَها الله ، وأباح بها ما قد حَظَره الله ، مما لم يدخل على الإسلام خَلَلٌ مِثْله ، ولم يَنَل الدينَ تبديلٌ شِبْهُه، ومنه إيثارُه لِخلافة الله على عباده ابنَه يزيدَ السِّكِّيرَ الخِمِّيرَ ، صاحب الديوك والفهود والقرود ، وأخذُه البيعةَ له على خيار المسلمين بالقهر والسطوةِ والتوعُّد والإخافة والتهدُّد والرهبة ، وهو يعلم سَفَهَه ، ويطَّلع على خُبثه ورَهَقه[٤] ، ويعاين سَكَرانَه[٥] وفجورَه وكفره ، فلما تمكن — قاتله الله — فيما مكَّنه منه ، ووطَّأه له ، وعَصى اللهَ ورسوله فيه ، طلَبَ بثارات المشركين وطَوائِلهم[٦] عند المسلمين ، فأوقع بأهل المدينة فى وَقْعة الحَرَّة[٧] الوقعة التى لم يكن فى الإسلام أشنعُ منها ، ولا أفحَشَ مما ارتكب من الصالحين فيها ، وشَفَى بذلك عَبَدَ[٨] نفسِه وغليلَه ، وظن أنه قد انتقم من أولياء الله ، وبلغ النَّوَى[٩] لأعداء الله ، فقال مجاهِراً بكفره ، ومُظْهِراً لشركه :

ليت أشياخى ببَدْرٍ شَهِدُوا جَزَعَ الخَزْرَج مِن وَقْع الأَسَلْ
قد قتلْنا القَرْمَ من ساداتهم وعَدَلْنا مَيْلَ بدرٍ فاعتدل[١٠]

---

(١) انظر ص ٣٧ من الجز الثانى .
(٢) وفى الطبرى « والعاهر لا يضره عهره » .
(٣) هى بنت أبى سفيان ، وسفرت المرأة كضرب سفورا : كشفت عن وجهها .
(٤) الرهق : السفه والحمق والخفة وركوب الشر والظلم وغشيان المحارم .
(٥) أى سكره . (٦) الطوائل : جمع طائلة ، وهى الثأر .
(٧) انظر الجزء الثانى ص ٨٩ . (٨) العبد : الغضب .
(٩) النوى . الحاجة والوجه الذى تنويه وتقصده، وفى ابن أبى الحديد « وبلغ الثأر » .
(١٠) القرم: السيد .

لَأَهَلُّوا واستهلُّوا فَرَحاً ثم قالوا يا يزيدُ لا تشَل[1]
لستُ من خِندِفَ إن لم أنتقِمْ من بنى أحمدَ ما كان فعل[2]
لَقِنَتْ هاشمٌ المُلْكَ ، فلا خَبَرٌ جاء ولا وحىٌ نَزَل[3]

هذا هو المُروق من الدين ، وقولُ من لا يرجع إلى الله ، ولا إلى دينه ، ولا إلى كتابه ، ولا إلى رسوله ، ولا يؤمن بالله ولا بما جاء من عند الله ، ثم مِن أغلظِ ما انتهكَ ، وأعظمِ ما اجْتَرَم ، سَفْكُه دَمَ الحسين بن علىّ ، وابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مع مَوْقِعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومكانه منه ، ومنزلته من الدين والفضل ، وشهادةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم له ولأخيه بسيادة شَباب أهل الجنة ، اجتراءً على الله ، وكفرا بدينه ، وعداوةً لرسوله ، ومجاهَدةً لعِتْرته ، واستهانة بحُرْمته ، فكأنما يَقتلُ منه ومن أهل بيته قَوماً من كُفَّار أهل التُّرك والدَّيْلَم ، لا يخاف من الله نِقمةً ، ولا يَرْقُب منه سَطوةً ، فَبَتَرَ[4] الله عمره ، واجتثَّ أصلَه وفرعَه ، وسَلَبه ما تحت يده[5] ، وأعدَّ له من عذابه وعقوبته ما استحقه من الله بمعصيته .

هذا إلى ما كان من بنى مَرْوان ، من تبديل كتاب الله وتعطيل أحكامه ، واتخاذ مالِ الله دُوَلاً[6] بينهم ، وهَدْم بيته ، واستحلالِ حَرامه ، ونَصْبِهم المجانيقَ

---

(١) هذا البيت والبيتان بعده من قول يزيد .

(٢) خندف: هي أم مدركة وطابخة وقمعة (كرقبة) أبناء إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان

(٣) لقن كفرح : حفظ بالعجلة ، وفى الأصل « تاريخ الطبرى » « لعبت هاشم بالملك » وهو تحريف وقد أصلحته كما ترى ، وربما كان « ولعبت هاشم بالملك » « بدون صرف » .

(٤) بتره : قطعه ، والمعنى أماته حدثا فى شرخ شبابه ، فقد مات وهو ابن بضع وثلاثين سنة ، وفى ابن أبى الحديد « فتبر » والتتبير : الكسر والإهلاك ، واجتثه : قطعه .

(٥) فقد انتقلت الخلافة بعده إلى ابنه معاوية الثانى الذى لم يلبث فى الخلافة إلا أربعين يوما ثم مات وانتقلت الخلافة إلى البيت المروانى .

(٦) جمع : دولة بالضم ، أى متداولا بينهم دون سائر المسلمين .

عليه ، وَرَمْيهم إياه بالنيران ، لايألون(١) له إحراقا وإخرابا ، ولِما حرّم اللهُ منه استباحةً وانتها كاً ، ولِمَن لجأ إليه قتلاً وتنكيلا ، ولِمَن أمّنه الله به إخافةً وتشريدا ، حتى إذا حَقّتْ عليهم كلمةُ العذاب ، واستحقّوا من الله الانتقامَ ، وملئوا الأرض بالجَوْر والعُدْوان ، وعمُّوا عبادَ الله بالظلم والاقتسار(٢) ، وحَلّت عليهم السَّخْطَةُ ، ونزلَتْ بهم من الله السَّطوةُ ، أتاح الله لهم من عِترة نبيه وأهل وراثته مَن استخلصهم منهم لخلافته ، مثلَ ما أتاح الله من أسلافهم المؤمنين ، وآبائهم المجاهدين لأوائلهم الكافرين ، فسَفَكَ الله بهم دماءهم مرتدّين ، كما سفك بآبائهم دماء آباء الكفرة المشركين ، وقطَعَ الله دابرَ القوم الظالمين ، والحمدُ لله رب العالمين ، ومكّن الله المستضعَفين ، وردّ الله الحقَّ إلى أهله المُستحقين ، كما قال جل شأنُه : « وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ » .

واعلموا أيها الناس أن الله عز وجل إنما أمرَ ليُطاع ، ومثّل ليتَمَثّلَ ، وَحَكَمَ ليُقْبَل ، وألزَمَ الأخذَ بسُنّة نبيه صلى الله عليه وسلم ليُتّبَع ، وأن كثيراً ممن ضل فالتوَى وانتقل من أهل الجهالة والسَّفاهِ ، ممن اتخذوا أحبارَهم ورُهبانَهم أرباباً من دون الله ، وقد قال الله عز وجل : « قَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ » وقال : « إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا » وقال : « أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ » فانتهُوا مَعَاشِرَ الناس عما يُسخِط اللهَ عليكم ، وراجِعوا ما يُرْضيه عنكم ، وارضَوا من الله بما اختار لكم ، والزموا ما أمركم به ، وجانبوا ما نهاكم عنه ، واتّبِعوا الصراط المستقيم ، والحجةَ البيِّنة ، والسُّبُل الواضحة ، وَأهلَ بيتِ الرحمة الذين هداكم الله بهم بَدِيئاً(٣) ، واستنقذَكم بهم من الجَوْر والعُدْوان أخيرا ، وأصاركم إلى الخفض والأمن والعزّ بدولتهم ، وشَمِلَكم الصلاحُ في أديانكم ومعايشكم في أيامهم ، والعَنوا مَن لعَنَه اللهُ ورسوله ، وفارِقوا مَن لاتنالون القُرْبةَ من الله إلا بمفارقته ، اللهم الْعَنْ أبا سفيان

(١) لا يألون : أي لايقصرون . (٢) الاقتسار : القهر . (٣) أي أولا .

ابن حرب ومعاوية ابنهُ ويزيد بن معاوية ومَرْوان بن الحكم وولدَه وولد ولدِه ، اللهم العن أئمةَ الكُفْر ، وقادةَ الضلالة ، وأعداءَ الدين ، ومجاهِدِى الرسول ، ومغيِّرى الأحكام ، ومبدِّلى الكتاب ، وسفَّاكِى الدم الحرام ، اللهم إنا نتبرأ إليك من موالاة أعدائك ، ومن الإغماض لأهل معصيتك كما قلتَ : « لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ » يأيها الناس ، اعرِفوا الحقَّ تعرفوا أهله ، وتأمَّلوا سُبُلَ الضلالة تعرِفوا سابِلَها ، فإنه إنما يُبِين عن الناس أعمالُهم ، ويُلحِقهم بالضلال والصلاح آباؤُهم ، فلا يأخُذْكم فى الله لومةُ لائم . ولا يَميلنَّ بكم عن دين الله استهواءُ مَن يستهويكم ، وكَيْدُ من يكيدكم ، وطاعةُ من تُخرجكم طاعته إلى معصيَةِ ربكم . أيها الناس ، بنا هداكم اللهُ ، ونحن المستحفَظُون فيكم أمْرَ الله ، ونحن وَرَثَةُ رسول الله ، والقائمون بدين الله ، فقِفوا عند ما نقِفكم عليه ، وأنفذُوا لِمَا نأمركم به ، فإنكم ما أطعتم خلفاء الله وأئمةَ الهدى ، على سبيل الإيمان والتقوى ، وأميرُ المؤمنين يستعصمُ اللهَ لكم ، ويسألهُ توفيقكم ، ويرغبُ إلى الله فى هدايتكم لرُشْدكم ، وفى حفظ دينكم عليكم ، حتى تلقَوْه مستحقِّين طاعته ، مستحقبين(١) لرحمته ، واللهُ حسبُ أمير المؤمنين فيكم ، وعليه توكُّلُه ، وبالله عَلَى ماقلَّده من أموركم استعانَتُهُ ، ولا حَوْلَ لأمير المؤمنين ولا قوة إلا بالله ، والسلام عليكم » .

وكتب أبو القاسم عُبَيد الله بن سليمان فى سنة ٢٨٤(٢) .

(تاريخ الطبرى ١١ : ٣٥٥ ، وشرح ابن أبى الحديد م ٣ : ص ٤٤٢)

---

(١) أى حاملين .

(٢) قال الطبرى : « فخوفه عبيد الله بن سليمان بن وهب اضطراب العامة .وأنه لايأمن أن تكون فتنة ، فلم يلتفت إلى ذلك من قوله . وقال : « وذكر أن عبيد الله بن سليمان أحضر يوسف بن يعقوب القاضى وأمره أن يعمل الحيلة فى إبطال ماعزم عليه المعتضد ، فمضى يوسف بن يعقوب فكلم المعتضد فى ذلك ، وقال له : ياأمير المؤمنين إنى أخاف أن تضطرب العامة ويكون منها عند سماعها هذا الكتاب حركة ، فقال : إن تحركت العامة أو نطقت وضعت سيفى فيها . فقال : يا أمير المؤمنين ، فما تصنع بالطالبيين الذين هم فى كل ناحية يخرجون ويميل إليهم كثير من الناس لقرابتهم من الرسول ومآثرهم ، وفى هذا الكتاب إطراؤهم ، وإذا سمع الناس هذا كانوا إليهم أميل ، وكانوا هم أبسط ألسنة وأثبت حجة منهم اليوم ، فأمسك المعتضد فلم يرد عليه جوابا ، ولم يأمر فى الكتاب بعده بشىء » .

٢٥٨ — كتاب أم الشريف إلى ابن أخيها محمد ابن أحمد بن عيسى

وفى سنة ٢٨٦ هـ أناخ المعتضد بجنده على «آمد[1]» ، وقد تحصَّن بها محمد بن أحمد ابن عيسى ، فبثَّ المعتضدُ جيوشه حولها وحاصرها ، ووجَّه شُعْلة بن شِهاب اليَشْكُرِىّ إليه ، ليأخذ بالحجة عليه ، فسار إليه ، واتصل الخبر بأم الشريف عمة محمد ابن أحمد ، فتحدثت إليه فى أمر ابن أخيها ، ثم كتبت معه إليه كتاباً لطيفاً حسناً ، أجزلَتْ فيه الموعظةَ ، وأخلصَتْ فيه النصيحة .

وكتبت فى آخره هذه الأبيات :

اِقْبلْ نصيحةَ أمٍّ قلبُها وَجِعٌ ... عليك خوفاً وإشفاقا وقُلْ سَدَدَا[2]
واستعمِلِ الفكرَ فى قولى، فإنك إن ... فكَّرتَ ألفَيْتَ فى قولى لك الرَّشَدَا
ولا تَثِقْ برجالٍ فى قلوبهمُ ... ضغائنٌ تبعَثُ الشَّنْآنَ والحسَدَا[3]
مثل النِّعاج خُمُول فى بيوتهمُ ... حتى إذا أَمِنوا ألفيتَهُمْ أُسُدَا
ودَاوِ ذلك والأدواءُ ممكِنَةٌ ... وإذ طبيبُك قد ألقى إليك يدا
أعطِ الخليفة ما يُرْضيه منك ، ولا ... تمنَعْهُ مالًا ولا أهلًا ولا ولدا
واردُدْ أخَا يَشْكُرٍ رَدًّا يكون له ... رِدْءًا من السُّوء ، لا تُشْمِتْ به أحدا

فأخذ شعلة الكتاب وسار به إلى محمد بن أحمد ، فلما نظر فيه رمى به إليه ، ثم قال : يا أخا يشكر ، ما بآراء النساء تُساس الدولُ ، ولا بعقولهن يساس الملك ، ارجع إلى صاحبك ، فرجع إلى المعتضد وأخبره الخبر وأراه كتاب أم الشريف فأعجبه شعرُها وعقلها .

(مروج الذهب ٢ : ٤٦٨)

---

(١) آمد : مدينة من مدن ديار بكر . (٢) السدد والسداد : الاستقامة .
(٣) الشنآن بسكون النون وفتحها : البغض .

٢٥٩ — كتاب أم الشريف إلى المعتضد

فلما عضَّتهُ الحربُ وجَّه إلى المعتضد يطلب الأمان فأجابه إليه ، ثم وجه المعتضد شُعلة بن شِهاب فى طلب أم الشريف ، فلما رأته بكت وضربت بيدها على الأخرى وقالت : يا شهاب ، كأنى والله كنت أرى ما أرى ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ! فقال لها : إن أمير المؤمنين قد وجهنى إليك ، وَما ذاكِ إلا لحسْن رأيٍ منه فيك ، فقالت له : فهل لك أن توصل إليه كتابى هذا بما قلت فيه ؟ قال : نعم ، فكتبتْ إليه بهذه الأبيات :

قل للخليفة وَالإمامِ المرتضَى ... رأسِ الخلائقِ من قُرَيْشِ الأَبْطَحِ

بك أصلَحَ اللهُ البلادَ وأهلَها ... بعد الفساد وطَالما لم تَصْلُحِ[1]

وتزحزَحَتْ بك قُبَّةُ العِزِّ التى ... لولاك بعد الله لم تَتَزحْزَحِ

وأراك رَبُّك ما تحِبُّ ، فلا ترَى ... ما لَا تحِبُّ ، فَجُدْ بعفوك واصفَحِ

يا بهجةَ الدنيا وبَدْرَ ملوكها ... هَبْ ظالِمِىَّ وَمُفْسِدِىَّ لمُصْلِحِ

فسار بالكتاب إلى المعتضد فأعجبته الأبيات ، وأمر أن يحمل إليها تُخُوتٌ[2] من الثياب وجملة من المال ، وإلى ابن أخيها محمد بن أحمد مثل ذلك ، وشفعها فى كثير من أهلها ، ممن عَظُمَ جُرْمه ، واستحق العقوبة عليه (مروج الذهب ٢ : ٤٦٩)

٢٦٠ — كتاب صاحب الشامة إلى بعض عماله

ومن كتاب صاحب الشامة الحسين بن زكرَوَيْه القَرْمطى[3] إلى بعض عماله :

---

(١) أى من قريش التى تسكن أبطح مكة ، وهو مسيل واديها .

(٢) التخوت : جمع تخت بالفتح ، وهو وعاء تصان فيه الثياب .

(٣) كان داعية قرمط رجلا يسمى زكرويه بن مهرويه ، فلما تتابع من المعتضد توجيه الجيوش إلى من بسواد الكوفة من القرامطة ، وألح فى طلبهم ، وأثخن فيهم القتل ، ورأى زكرويه أنه لامدفع عن

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله أحمد بن عبد الله المهدىّ المنصور بالله الناصر لدين الله ، القائم بأمر الله ، الحاكم بحكم الله ، الداعى إلى كتاب الله ، الذّابّ عن حُرَم الله ، المختار من ولد رسول الله ، أمير المؤمنين ، وإمام المسلمين ، ومُذِلّ المنافقين ، خليفة الله على العالمين ، وحاصِد الظالمين ، وقاصم المعتدين ، ومُبِيد المُلْحِدين ، وقاتل القاسِطين[1] ، ومُهْلِك المفسدين ، وسِراج المُبْصرين ، وضياء المستضيئين ، ومُشَتِّت المخالفين ، والقيِّم بسُنَّة سيد المرسلين ، وولد خير الوصِيِّين ، صلى الله عليه وعلى أهل بيته الطَّيبين ، وسلم كثيراً ، إلى جعفر بن حُمَيد الكُردىّ :

سلام عليك ، فإنى أحمَد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، وأسأله أن يصلِّى على جَدِّى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أما بعدُ : فقد أُنْهِىَ إلينا ما حدث قِبلَك من أخبار أعداء الله الكفَرة ، وما فعلوه بناحيتك ، وأظهروه من الظلم والعَيْث[2] والفساد فى الأرض ، فأعظَمْنا ذلك ، ورأينا أن نُنفِذ إلى ما هناك من جيوشنا مَن ينتقم الله به من أعدائه الظالمين ، الذين يسعَون فى الأرض فسادا ، وأنفذنا « عُطَيْراً » داعِيَتنا وجماعةً من المؤمنين إلى مدينة حِمْص ، وأمددناهم بالعساكر ، ونحن فى إثرهم ،

= أقسهم عند أهل السواد ولاغناه ، سعى فى استغواء من قرب من الكوفة من أعراب أسد وطيء وتميم وغيرهم من قبائل الأعراب ، ودعاهم إلى رأيه ، وزعم لهم أن من بالسواد من القرامطة يطابقونهم على أمره إن استجابوا له ، فلم يستجيبوا له .

وكانت جماعة من « كلب » تخفر الطريق على البر بالسماوة ، فيما بين الكوفة ودمشق على طريق تدمر وغيرها ، وتحمل الرسل وأمتعة التجار على إبلها ، فأرسل زكرويه أولاده إليهم ، فبايعوه وخالطوهم وانتموا إلى على بن أبى طالب ، وإلى محمد بن إسمعيل بن جعفر الصادق ، وذكروا أنهم خائفون من السلطان ، وأنهم ملجئون إليهم ، فقبلوهم على ذلك ، ثم دبوا فيهم بالدعاء إلى رأى القرامطة فلم يقبل ذلك أحد من ... إلا الفخذ المعروفة ببنى العليص بن ضمضم بن عدى بن جناب ومواليهم خاصة ، فبايعوا فى آخر سنة ٢٨٩ بناحية السماوة ابن زكرويه المسمى بيحيى ، ثم قتل فى بعض الوقعات ، فنصبوا أخاه الحسين ابن زكرويه ، وزعم لهم أنه أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسمعيل بن جعفر الصادق ، وأظهر شامة فى وجهه ذكر أنها آيته ، فعرف بصاحب الشامة : وظهر على جند حمص وغيرها من أرض الشام ، وتسمى بإمرة المؤمنين على منابرها ، وكان ذلك سنة ٢٨٩ وسنة ٢٩٠ — انظر تاريخ الطبرى ١١ : ٣٧٧ .

(١) أى الجائرين .

(٢) العيث : الإفساد .

وقد أوعزْنا إليهم فى المصير إلى ناحيتك ، لِطَلَب أعداء الله حيث كانوا ، ونحن نرجو أن يُجْزِيَنا اللهُ فيهم على أحسن عوائده عندنا فى أمثالهم ، فينبغى أن تشُدَّ قلبكَ وقلوبَ مَن معك من أوليائنا ، وتثقَ بالله وبنصره الذى لم يزَل يعوِّدُناه فى كل مَنْ مرَقَ عن الطاعة ، وانحرف عن الإيمان ، وتُبادِر إلينا بأخبار الناحية وما يتجدد فيها ، ولا تُخْفِ عنا شيئا من أمرها إن شاء الله ، «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ، وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » ، وصلى الله على جَدِّى محمد رسول الله وعلى أهل بيته وسلم كثيرا » .

(تاريخ الطبرى ١١ : ٣٨٤)

٢٦١ — كتاب بعض عماله إليه

وهذه نسخة كتاب عاملٍ له إليه :

« بسم الله الرحمٰن الرحيم ، لعبد الله أحمد الإمام المهدى المنصور بالله (ثم الصَّدْرُ كله على مثال صَدْر كتابه السابق إلى قوله : وعلى أهل بيته الطيبين وسلم كثيرا) ثم بعد ذلك :

من عامر بن عيسى العَنْقَائىِّ .

سلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، أما بعد : أطال الله بقاء أمير المؤمنين وأدام عِزَّه وتأييده ، ونَصْرَه وسلامته ، وكَرامته ونعمته وسعَادته ، وأَسْبَغَ نِعَمَه عليه ، وزاد فى إحسانه إليه ، وفضلِه لديه .

فقد كان وَصَلُ كتابِ سيدى أمير المؤمنين — أطال الله بقاءه — يُعلِمنى فيه ما كان من نفوذ بعض الجيوش المنصورة مع قائد من قوّاده إلى ناحيتنا ، لمجاهدة أعداء الله بنى القَصِيص ، والخائنِ ابن دُحيم ، وطلَبِهم حيث كانوا ، والإيقاعِ بهم وضِياعهم ، ويأمرنى — أدام الله عزه — عند نظرى فى كتابه ، بالنهوض فى كلٍّ مَن قَدِرْت عليه من أصحابى وعشائرى ، لِلقائهم ومكانفةِ الجيش ومعاضدتهم ، والمسيرِ

بسيرهم ، والقصد إلى كلّ ما يؤمّون إليه ويأمرون به ، وفهمته ، ولم يصل إلىّ هذا الكتاب — أعزّ الله أمير المؤمنين — حتى وافت الجيوش المنصورة ، فنالت طرفا من ناحية ابن دُحَيم ، وانصرفوا بالكتاب الوارد عليهم من مسرور بن أحمدَ الداعية، ليلقوه بمدينة « أفامِيَة[1] » ثم ورد علىّ كتاب مسرور بن أحمد فى دَرْج[2] الكتاب الذى اقتصصتُ ما فيه فى صدر كتابى هذا ، يأمرنى فيه بجمع مَن تهيّأ من أصحابى وعشيرتى ، والنهوض إلى ما قِبَله ، ويحذّرنى التخلفَ عنه ، وكان ورودُ كتابه علىّ وقت صَحّ عندنا نزولُ المارِق شِبْك عَبْد مُفْلِح مدينة « عِرْقَة[3] » فى زُهاء ألف رجل ، ما بين فارس وراجل ، وقد شارَفَ بلادَنا ، وأطالّ على ناحيتنا ، وقد وجّه أحمدُ ابن الوليد عبدُ أمير المؤمنين — أطال الله بقاءه — إلى جميع أصحابه ، ووجّهت إلى جميع أصحابى ، فجمعناهم إلينا ، ووجّهنا العيونَ إلى ناحية « عِرْقة » لنعرفَ أخبارَ هذا الخائن ، وأين يريد ؟ فيكون قصدنا ذلك الوجه ، ونرجو أن يُظْفِر الله به ، ويُمْكِن منه ، بمنّه وقدرته ، ولولا هذا الحادثُ ، ونزولُ هذا المارق فى هذه الناحية ، وإشرافُه على بلادنا ، لَمَا تأخرتُ فى جماعة أصحابى عن النهوض إلى مدينة « أَفامِيَة » لتكون يدى مع أيدى القوّاد المقيمين بها ، لمجاهدة مَن بتلك الناحية ، حتى يَحْكُمَ اللهُ بيننا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ، وأعلمتُ سيدى أمير المؤمنين — أطال الله بقاءه — السببَ فى تخلُّفى عن مسرور بن أحمد ، ليكون على علم منه ، ثم إن أمرنى ـ أدام الله عزه ـ بالنفوذ إلى « أفامية » ، كان نفوذى برأيه ، وامتثلتُ ما يأمرنى به إن شاء الله ، أتمّ الله على أمير المؤمنين نعمه ، وأدام عزه وسلامته ، وهنّأه كرامته ، وألبسه عفوه

---

(١) أفامية : مدينة من سواحل الشام و كورة من كور حمص .

(٢) درج الكتاب : طيه وداخله ، يقال فى درج الكتاب كذا و كذا .

(٣) عرقة : بلدة فى شرقى طرابلس الشام ، بينهما أربعة فراسخ وهى آخر عمل دمشق ، فى سفح جبل .

وعافيته والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، والحمد لله رب العالمين »
وصلى الله على محمد النبي وعلى أهل بيته الطّاهرين الأخيار » .

(تاريخ الطبري ١١ : ٣٨٤)

٢٦٢ — كتاب محمد بن سليمان الكاتب إلى القاسم بن عبيد الله

وفي سنة ٢٩١ هـ وجّه القاسم[١] بن عبيد الله وزير المكتفي بالله[٢] محمد بن سليمان الكاتب — وكان إليه ديوانُ الجيش — وضَمّ جميع القواد إليه لمناهضة ذي الشامة وأصحابه ، فالتقَوا به قرب « حَمَاة » ، وهُزِم أصحاب القَرْمطيّ وقُتلوا ، وأسر من رجالهم بشر كثير ، وتفرق الباقون في البوادي .

وكتب محمد بن سليمان إلى الوزير بالفتح :

« بسم الله الرحمٰن الرحيم ، قد تقدمت كتبي إلى الوزير — أعزه الله — في خبر القرمطي اللعين وأشياعه ، بما أرجو أن يكون قد وصل إن شاء الله » .

(تاريخ الطبري ١١ : ٣٨٦)

٢٦٣ — كتاب ابن المعتز إلى القاسم بن عبيد الله

وكتب عبد الله بن المعتز إلى القاسم بن عبيد الله يعتذر .

« ترفَّعْ — أعزك الله — عن ظلمي إن كنتُ بريئا ، وتفضَّل بالعفو عني إن كنتُ مسيئا ، فوالله إني لأَطْلُبُ غفر ذنبٍ لم أَجْنِه ، وألتمس الإقالةَ مما لا أعرِفه ، لتزدادَ تطوُّلا ، وأزدادَ تذلُّلا ، وأنا أُعِيذُ حالي عندك بكرمك من وَاشٍ يَكيدها ،

---

(١) استوزره المعتضد بعد وفاة أبيه عبيد الله بن سليمان بن وهب سنة ٢٨٨ ، انظر خبره في الفخري ص ٢٣٢ ، ومروج الذهب .

(٢) هو أبو محمد علي بن المعتضد ، ولى الخلافة بعد موت أبيه سنة ٢٨٩ ، وتوفي سنة ٢٩٥ .

وأحرُسُها بوفائك من باغٍ يحاول إفسادها ، وأسأل الله تعالى أن يجعل حظّى منك بقدر ودّى لك ، ومحلّى من رجائك بحيث أستحقّ منك » .

(زهر الآداب ١ : ٢٠٨ ، والأوراق للصولى ٢ : ٢٩٢)

٢٦٤ - كتاب ابن المعتز إلى القاسم

وله إليه :

« لو كان فى الصّمت موضع يسَع حالى ، لخفّفت عن سمع الوزير ونَظَره ، ولم أشغَل وجها من فِكره ، وما زالت الشكوى تُعرب عن لسان البلْوى ، ومن اختلّت حالته ، كان فى الصمت هَلَكته ، وقد كان الصبر ينصرنى على ستْر أمرى حتى خذَلنى » .

(زهر الآداب ١ : ٢٠٨)

٢٦٥ - كتابه إلى بعض الرؤساء

وله إلى بعض الرساء :

« لا تَشِنْ حُسْنَ الظَّفَر بقُبح الانتقام ، وتجاوزْ عن مُذْنبٍ لم يسلُك بإقرارٍ طريقا ، حتى اتخذ من رجاء عفوك رفيقا » .

(زهر الآداب ١ : ٢٠٧ ، والأوراق للصولى ٢ : ٢٩٣)

٢٦٦ - كتابه إلى عليل

وكتب إلى عليل :

« أذِن الله فى شِفائك ، وتلقّى داءك بدوائك ، ومَسَحَ بيد العافية عليك ، ووجّه وافِدَ السلامة إليك ، وجعل عِلّتك ماحيَةً لذنوبك ، مضاعِفة لثوابك » .

(زهر الآداب ١ : ٢٠٧ ، والأوراق للصولى : ٢٩٠)

٢٦٧ — كتاب ابن المعتز إلى بعض الوزراء

وكتب إلى بعض الوزراء :

« ما زال الحاسد لنا عليك أيها الوزير ينصب الحبائل ، ويطلب الغوائل ، حتى انتهز فرصته ، وأبلغك شيئاً زخرفه ، وكذبا زوّره ، وكيف الاحتراس ممن أحضر ويغيب ؟ ويقول وأمسك ؟ مُرتَصِد لا يغفل ، وماكر لا يفتر ، وربما استُنْصِح الغاش ، وصُدِّق الكاذب ، والحُظوة لا تُدْرَك بالحيلة ، ولا يجرى أكثرها على حسب السبب والوسيلة » .

٢٦٨ — رده عليه

فأجابه :

« حصولُ الثقة بك ـ أعزك الله ـ يُغْنى عن حضورك ، وصدقُ حالتك يحتجُّ عنك ، وما تقرَّر عندنا من نيتك وطويَّتك يُغْنِي عن اعتذارك » .

(زهر الآداب ٣ : ٢٠٤)

٢٦٩ — كتاب قينة إلى ابن المعتز

قال أبو العباس بن المعتز : كان لنا مجلس حظ ، أرسلتُ بسببه خادمةً إلى قَيْنة[١] ، فأجابت ، فلما مرت فى الطريق وجدت فيه حارسا حَرَامِيًا[٢] ، فرجعت ، فأرسلتُ أعاتبها . فكتبتْ إلىَّ :

« لم أتخلفْ عن المسير إلى سيدى فى عشيَّتى أمس ، لأرى وجهه المبارك ، وأجيبَ دعاءه ، إلاّ لِعِلّة قد عرفَتْها فلانة ، ثم خِفتُ أن يسبِق إلى قلبه الطاهر أنى قد تخلفتُ

---

(١) القينة : الجارية المغنية أو أعم .

(٢) نسبة إلى حرام : وهى قبيلة من بنى سليم ، وقبيلة من بنى سعد بن بكر .

بغير عذر ، فأحببتُ أن تقرأ عذرى بخطى ، ووالله ما أقدرُ على الحركة ، ولا شىء أسرُّ إلىَّ من رؤيتك والجلوس بين يديك ، وأنت يا مولاى جاهى وسَنَدى ، لافقدت سَنَدِى ، ورأيك فى بَسْطِ العُذْر مُوَفَّقا » وكتبت فى أسفل الكتاب .

أليس من الحرمان حظٌّ سُلِبْتُه   وأحوجَنى فيه البَلاء إلى العُذْر ؟
فصـــبرا ، فما هذا بأوّلِ حادثٍ   رمَتْنى به الأقدار من حيث لا أدرى

٢٧٠ — رده عليها

فأَجَبْتُها :

« كيف أردُّ عذرَ من لاتتسلط التُّهَمَة عليه ، ولا تهتدى المَوْجِدة[1] إليه ، وكيف أعلّمه قَبولَ المعاذير ، ولا آمَنُ بعضَ جواهره إلىَّ يَسِيرُ إلى انتهاز فُرصةٍ فيما عاد إلى القُرْطة[2] ، فإن سلِمْتُ من ذلك ، فَمن يجيرُنى مِن توا كُله على تقديم العذر ، ووقوعهِ موقعَ التصديق فى كل وقت ، فتتصل أيام الشغل والعِلّة ، وتنقضى أيام الفراغ والصحة ، فتطول مدة الغيبة ، وتدرُس آثار المودة » ، وكتبت آخر الرقعة .

إذا غبتِ لم تعرف مكانِىَ لذةٌ   ولم يلق نفسى لَهْوُها وسرُورُها
وبُدِّلت سمعا واهياً غير ممْسِك   لقول ، وعينا لايرانى ضميرُها

(زهر الآداب ٣ : ٢٠٣)

---

(١) الموجدة : الغضب .

(٢) القرطة : اسم للخروج والتقدم ومجاوزة الحد .

٢٧١ — كتاب ابن المعتز إلى بعض إخوانه يصف سرَّ من رأى

وكتب عبد الله بن المعتز إلى بعض إخوانه يصف سُرَّ مَنْ رَأى، ويذكر خرابها، ويذمّ بغدادَ وأهلَها، ويفضّل سامَرّا[١] :

« كتبتُ إليك من بلدة قد أنهض[٢] الدهرُ سُكانَها، وأقعد جُدرانها، فشاهدُ اليأسِ فيها ينطِق، وحَبْلُ الرجاء فيها يَقْصُر، فكأنّ عُمرانها يُطْوَى، وكأنّ خَرابها يُنْشَر، وقد وُكِّلتْ إلى الهَجْرِ نواحيها، واستُحِثّ باقيها إلى فانيها، وقد تمزّقتْ بأهلها الديار، فما يجب فيها حقُّ جِوار، فالظاعنُ[٣] منها مَمْحُوُّ الأثَر، والمقيمُ بها على طَرَف سَفَر، نهارُه إرْجاف[٤]، وسروره أحلام، ليس له زاد فيَرْحَلَ، ولا مرعًى فيرتَعَ، فحالُها تصِف للعيون الشكوى، وتُشير إلى ذم الدنيا، بعد ما كانت بالمرأى القريبِ جَنةَ الأرض، وقَرارَ الملك، تَفيض بالجنود أقطارُها، عليهم أرديةُ السيوف، وغَلائل[٥] الحديد كأنّ رِماحهم قُرون الوُعُول، ودُروعهم زَبَدُ السُّيُول، على خيل تأكل الأرضَ بحوافرها، وتَمُدّ بالنَّقْع[٦] سُرادِقَها، قد نُشِرتْ في وجوهها غُرَرٌ[٧] كأنها صحائف البرق، وأمسَكها تحجيلٌ كأنه أسْوِرةُ اللُّجَين، وقُرِّطت[٨] عُذُرًا كالشُّنوف، في جيش يتلقّفُ الأعداء أوائلُه، ولم تَنْهض أواخِرُه،

---

(١) لغة في سر من رأى، وقد قدمنا كلمة هنا في ص ١٣٤ .

(٢) أي أنهضهم للرحيل . (٣) أي المسافر الراحل .

(٤) أرجفوا : خاضوا في أخبار الفتن ونحوها .

(٥) الغلائل جمع غلالة بالكسر : وهي الشعار الذي يلبس تحت الثياب مما يلي الجسد ، والوعول جمع وعل كشمس وكتف : وهو تيس الجبل .

(٦) النقع : الغبار .

(٧) الغرر جمع غرة بالضم : وهي بياض في جبهة الفرس فوق الدرهم ، والتحجيل : بياض في قوائم الفرس ، واللجين : الفضة .

(٨) العذر جمع عذار ككتاب : وهو من اللجام ما سال على خد الفرس : وقرط الجارية : ألبسها القرط ، والشنوف جمع شنف بالفتح : وهو القرط الأعلى .

وقد صُبَّ عليه وقارُ الصبر ، وهبَّت له روائحُ النصر ، يصرِّفه مَلِك يملأ العيونَ جَمالا والقلوبَ جلالا ، لا تُخلِف مَخيلتُه[1] ، ولا تُنقَض مَرِيرتُه ، ولا يُخطئ بسهم الرأي غَرَضَ الصواب ، ولا يَقطع بمطايا اللهو سَفَرَ الشباب ، قابضا بيد السياسة على قِطَار[2] مُلك لا ينتشر حَبْلُه ، ولا تتشظّى عصاه ، ولا تُطفأ جمرته ، في سِنّ شباب لم يجنِ مأثمًا ، وشَيْبٍ لم يُراهِق[3] هرمًا ، قد فَرَش مِهادَ عدله ، وخَفَض جَناح رحمته ، راجيا بالعواقب الظنونَ ، لا يطيش ، عن قلب فاضل الحزم ، بعيد العزم ، ساعيا على الحق يعمل به ، عارفا بالله يقصِد إليه ، مُقِرا للحلم ويَبذُله ، قادرا على العِقاب ويعدل فيه ، إذ الناس في دهر غافل ، قد اطمأنت بهم سيرةٌ[4] ليِّنة الحواشي ، خَشِنة المَرَام ، تطير بها أجنحةُ السرور ، ويَهُبّ فيها نسيم الحُبور[5] ، فالأطراف على مسرّة والنظرة إلى مَبَرّة ، قبل أن تَخُبّ[6] مَطايا الغِيَر ، وتُسفِر وجوهُ الحَذَر ، وما زال الدهر مليئا بالنوائب ، طارقا بالعجائب ، يُؤْمِن يومُه ، ويَغدِر غدُه .

على أنها — وإن جُفيتْ — مَعشوقةُ السُّكنَى ، حبيبة المَثْوَى[7] ، كوكبُها يقظانُ ، وجوُّها عُرْيان[8] ، وحَصْباؤها جوهر ، ونسيمها مُعطَّر ، وترابها مِسْك أذفَر[9] ، ويومها غَداة ، وليلها سَحر ، وطعامها هنيء ، وشرابها مَرِيء ، وتاجرها مالِك ، وفقيرها فاتِك[10] ، لا كبغدادكم الوَسِخة السماء ، الوَمِدة[11] الهواء ، جوها

(١) المخيلة : الظن ، والمريرة : العزيمة .

(٢) القطار في الأصل : أن تقطر الإبل بعضها إلى بعض على نسق واحد ، وتشظي العود : تطاير شظايا جمع شظية كغنية : وهي الفلقة (بالكسر) من العصا ونحوها .

(٣) أي ولم يقارب الهرم والشيخوخة ، يقال : دخل مكة مراهقا : أي مقاربا لآخر الوقت حتى كاد يفوته التعريف ، وراهق الغلام : قارب الحلم .

(٤) السيرة بالكسر : اسم من السير أي الذهاب . (٥) الحبور : السرور .

(٦) الخبب بالتحريك : ضرب من العدو وبابه رد ، وسفرت المرأة كضرب : كشفت عن وجهها .

(٧) المثوى : المنزل . (٨) أي صحو خلو من الغيوم .

(٩) مسك أذفر وذفر كفرح : جيد إلى الغاية ، من الذفر بالتحريك : وهو شدة ذكاء الريح ، والغداة : البكرة ، أو ما بين صلاة الفجر وطلوع الشمس .

(١٠) فتك بالمكان كنصر : أقام به ، أي أنه ، لا يرحل عنها إلى سواها ، إذ يجد بها ما يبدعوزه .

(١١) الومد بالتحريك : أن تسكن الريح مع شدة الحر .

نار ، وأرضُها خَبار[١] ، وماؤها حَمِيم ، وترابها سِرْجين ، وحيطانها نُزُور[٢] ، وتَشْرِينها تَمُوز ، فكم مِن شمسها من محترِق ، وفى ظِلِّها مِن غَرِق ، ضيِّقة الديار ، قاسية الجِوار ، ساطعة الدخان ، قليلة الضِّيفان ، أهلها ذئاب ، وكلامُهم سِباب ، وسائلهم محروم ، ومالهُم مكتوم ، لايجوز إنفاقه ، ولا يُحَلُّ خِناقُهُ[٣] ، حُشُوشُهم مَسايِل ، طرقهم مَزَابِل ، وحيطانُهم أخصاص ، وبيوتهم أقفاص ، ولكل مكروهٍ أَجَلٌ ، وللبِقاع دُوَل ، والدهر يسير بالمقيم ، ويمزُج البؤسَ بالنعيم ، وبعد اللَّجاجة انتهاء : والهَمُّ إلى فُرْجة ، ولكل سائلةٍ قَرارٌ ، وبالله أستعين . وهو المحمود على كل حال .

غدَتْ مُرَّ مَرْ رَا فى العفاء ،

« قِفَا نَبك من ذكرى حبيب ومنزل[٤] »

وأصبح أهـــلوها شبيهاً بحالها « لِما نَسَجَتْها من جَنوب وشَمْأَلِ[٥] »

إذا ما امروٌ منهم شكا سوء حاله « يقولون لاتَهْلِكْ أَسًى وتجمَّلِ »

(معجم البلدان ٥ : ١٨ و ٢ : ٢٤١ وزهر الآداب ١ : ٢٠٧)

---

(١) الخبار : مالان من الأرض واسترخى ، والحميم : الماء الحار ، وفى رواية « وماؤها طين » والسرجين والسرقين بكسرهما : الزبل .

(٢) النز بالفتح ويكسر : مايتحلب من الأرض من المـــاء ، وتشرين وتموز :شهران من الشهور الرومية ، وتشرين من أشهر البرد (يبتدئ تشرين الثانى من ١٤ نوفبر) وتموز من أشهر الحر (يبتدئ من ١٤ يوليو) .

(٣) الخناق : الحبل يخنق به ، والحشوش جمع حش مثلث الحاء : وهو الكنيف وموضع قضاء الحاجة .

(٤) الأشطار الثانية فى الأبيات الثلاثة مقتبســة من معلقة امرئ القيس المشهورة ، والعفاء : الدروس والامحاء .

(٥) الشمأل : ريح الشمال .

٢٧٢ — كتاب ابن المعتز إلى أحمد بن سعيد الدمشقى

وكتب ابن المعتزّ إلى أحمد[1] بن سعيد الدمشقىّ جوابا عن كتاب استزاده فيه :

« قيِّدْ نعمتى عندك بمثل ما كنتَ استدعيتَها به ، وذُبَّ عنها أسبابَ سوء الظن . واستدِمْ ما تحبُّ منى بما أحِبُّ منك » .

(معجم الأدباء ٣ : ٤٩ وزهر الآداب ٢ : ١٨١)

٢٧٣ — كتاب آخر إليه

وكتب إليه جوابا عن اعتذار كان من الدمشقى ، فى شىء بلغ ابن المعتز عنه :

« والله لا قابَلَ إحسانَك منى كُفْرٌ ، ولا تَبِعَ إحسانى إليك مَنٌّ ، فلك عندى يَدٌ لا أقبِضُها عن نفعك ، وأخرى لا أبْسُطها إلى ظلمك ، فتجنَّبْ مايُسْخِطنى ، فإنى أصونُ وجْهَك عن ذُلِّ الاعتذار » .

(معجم الأدباء ٣ : ٤٩ وزهر الآداب ٢ : ١٨١)

٢٧٤ — كتاب إلى عبد الله بن شبيب من صديق له

وحدّث عبد الله بن شبيب قال : كتب إلىَّ بعض إخوانى من البصرة ـ وقد تأخر كتابى عنه ـ كتابا أوجز فيه ، ومُلح :

« أطال الله بقاءك كما أطال جفاءك ، وجعلنى فداءك إن كان فىَّ فداؤك .

كتبتُ ولو قَدَرتُ هوًى وشوقا   إليك لكنتُ سَطرا فى الكتاب[2] »

(أدب الكتاب ص ١٥٣)

---

(١) كان مؤدب ولد المعتز ، واختص بعبد الله بن المعتز ، مات سنة ٣٠٦ ، انظر ترجمته فى معجم الأدباء ٣ : ٤٦ ، وفى زهر الآداب « أحمد بن محمد » وهو تحريف .

(٢) البيت لأبى تمام .

٢٧٥ — كتابه إلى محمد بن طيفور من بعض إخوانه

وورد على محمد بن طَيْفور، وهو عامل على أصْفَهان كتاب من بعض إخوانه في شأن رجل استماحه له في منزله :

« أنت ـ أعزك الله تعالى ـ أجلُّ من أن يُتوسَّل بغيرك إليك، وأن يستماحَ جودُك إلا بك، غيرَ أني أذكِّرك بكتابي في أمرِ حاملِه ما شَرَع كرمُك، وزرَع إحسانُك، من الأجْرِ قِبَل الصادرين والواردين، فهنَأَك اللهُ تعالى ذلك، ولا زالت يدُ الله بجميل إحسانه ونعمته متواترةً عليك » .

فقال محمد للرجل : احتَكِم لك وله، فأخذ منه ألف دينار ولمن كتب إليه فيها مثلها .

(زهر الآداب ٣ : ٢٩٦)

٢٧٦ — كتاب إلى محمد بن طيفور من بعض خاصته

وكتب محمد بن طيفور لبعض خاصَّته بمال كثير وَصَلَه به، فكتب الرجل إليه :

« قد استغرقَتْ نعمتُك وجوه الشكر لك، وغَمَرَ الحمد فيما سَلَف، ولولا فرْطُ عجزِ مَن عَجَزَ عن كُفْءِ ما يجب لك من الحمد، لقَبِلْتُ ما أنفذْتَه » .

٢٧٧ — رده عليه

فكتب إليه محمد :

« قد صَغَّر شكركَ لنا ما أسلفناه إليك، فخذ ما أنفذناه ثوابًا عن معرفتك بشكر ما أسديناه، وإلا سَمَح شكرك بما رأيناك له أهلا، إلى أن يسع قبولُ مثلك ما يستحقُّ به جميل الدعاء، وجزيل الثناء، إن شاء الله تعالى » .

(زهر الآداب ٣ : ٢٩٧)

٢٧٨ – كتاب صاحب البريد بالدينور

قال الطبرى : وفى سنة ٣٠٠ هـ ورد كتاب صاحب البريد بالدِّينَوَر[١] يذكر أن بغلة هناك وضعتْ فِلْوَة[٢] ، ونسخة كتابه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الموقظِ بعِبَره قلوبَ الغافلين ، والمُرْشِد بآياته ألبابَ العارفين ، الخالق لما يشاء بلا مِثال ، ذلك الله البارئُ المصوِّر فى الأرحام ما يشاء ، وإن الموكَّل بخَبَر التَّطواف بقَرْماسِين رفع يذكُرُ أن بغلة لرجل يُعْرَف بأبى بُرْدَة من أصحاب أحمد بن على المُرِّىّ وضعت فَلُوَّة ، ويصف اجتماع الناس لذلك ، وتعجُّبهم لما عاينوا منه ، فوجَّهْتُ مَن أحضرنى البغلة والفَلُوَّة ، فوجدت البغلة كَمْتاء[٣] خَلُوقِيَّة ، والفلوة سَوِيَّة الخلق[٤] ، تامة الأعضاء ، مُنسدِلة الذَّنَب ، سبحانَ المَلِكِ القدُّوس ، لامُعقِّب لحُكْمِه وهو سَرِيعُ الحِسَاب » .

(تاريخ الطبرى ١٢ : ٢١)

٢٧٩ – كتاب على بن الفرات عن المقتدر فى المواريث

وفى سنة ٣١١ مات أحمد بن محمد بن خالد الكاتب – وكان من مشايخ الكتاب ورؤسائهم – وخلَّف وَرَثة أحداثا ، فأُنْهِيَ[٥] كثرةُ ماخلَّف من المال إلى المقتدر[٦] ،

---

(١) دينور : مدينة من أعمال الجبل بفارس ، بقرب قرماسين .

(٢) الفلو بالكسر وكعدو وسمو : المهر .

(٣) الكتة بالضم : لون بين السواد والحمرة يكون فى الخيل والإبل وغيرهما ، والكميت من الخيل كزبير يستوى فيه المذكر والمؤنث ، قال فى اللسان: والجمع كُت بالضم كسروه على مكبره المتوهم وإن لم يلفظ به ، لأن الملونة يغلب عليها هذا البناء الأحمر والأشقر ، قال طفيل :

وكمتا مدماة كأن متونها جرى فوقها واستشعرت لون مذهب

والخلوقية : نسبة إلى الخلوق كصبور : طيب يتخذ من الزعفران وغيره من أنواع الطيب وتغلب عليه الحمرة والصفرة ، والمعنى : تشبه الخلوق فى لونه .

(٤) أى مستوية الخلق معتدلته . (٥) أنهى الشىء : أبلغه .

(٦) ولى أبو الفضل جعفر المقتدر بالله بن المعتضد الخلافة سنة ٢٩٥ وقتل سنة ٣٢٠ .

فأمر بالتوكيل بخزانته وداره ، فسار بعضُ الورثة إلى الحسَن بن على بن الفُرات ، وضمِنوا له مالا ، على إزالة التوكيل وحَلّ الاعتقال ، فكلم الحسن أباه فى ذلك (وكان أبوه وزير[1] المقتدر فركب إلى المقتدر) فقال له : إن المعتضد والمكتفى قد كانا قَطَعا الدخول على الناس فى المواريث ، وأنا أرَى لمولاى أن يُحيِىَ رسومَهما ، وأن يأمر بإثبات عهد ألّا يُتعرّض لأحد فى ميراث ، فأجابه المقتدر إلى ذلك ، إذ ظن أنها نصيحة منه ، فسُلِّمت الدار إلى ورثة الكاتب ، وأنشأ ابن الفرات كتابا عن المقتدر ، نسخته :

« بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعدُ ، فإن أمير المؤمنين المقتدر بالله يُؤْثر فى الأمور كلها ما قرّبه من الله عز وجل ، واجتلَب له جزيلَ مَثُوبته ، وواسِعَ رحمته وحَسَنته ، العائدةِ على كافة رعيته ، كما جعل الله فى طبعه ، وأولَجَ فى نيته ، من التعطف عليها ، وإيصالِ المنافع إليها ، وإبطالِ رسوم الجوْر التى كانت تُعامَلُ بها ، جارياً مع أحكام الكتاب والسُّنة ، عاملا بالآثار عن الأفاضل من الأئمة ، وعلى الله يتوكل أمير المؤمنين ، وإليه يفوِّض ، وبه يستعين » . (تاريخ الطبرى ١٢ : ٦٠)

٢٨٠ — كتاب الوزير بن مقلة إلى القواد والعمال

ومن حوادث سنة ٣١٨ الإيقاع بجند الرَّجّالة المَصَافِيَّة[2] ببغداد ، وقد كتب الوزير محمد بن على بن مُقْلة فيهم بعد قهرهم نسخة أُنْفِذت إلى القوّاد والعمّال ، وهى :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، قد جرى — أعزك الله — من أمر الرّجّالة المَصَافِيَّة

---

(١) وزر أبو الحسن على بن الفرات للمقتدر ثلاث مرات وقتل سنة ٣١٢ ــ انظر ترجمته فى الفخرى ص ٢٣٩ وتاريخ الطبرى ١٢ : ٢٠ .

(٢) نسبة إلى المصاف جمع مصف : وهو الموقف فى الحرب الذى يكون فيه الصفوف ، وقد كان هؤلاء الرجالة فى صفوف جرس الخلافة ، وتدلل قوادهم على الخليفة وعلى الوزير حتى كان لا يقدر أن يحتجب عن واحد منهم فى أى وقت جاء من ليل أو نهار ، ولا يرد عن حاجة كائنة ما كانت ، وتحكموا على القضاة ، وطالبوهم بحل المباسات وإخراج الوقوف من أيديهم ، واكتنفوا الجناة ، وعطلوا الأحكام ، واستطالوا على المسلمين .

بالحضرة ماقد اتصل بك ، وعرفتَ جملتَه وتفصيلَه ، وجهتَه وسبيلَه ، وقد خار الله عز وجل لسيدنا أمير المؤمنين وللناس بعده ، بما تهيَّأ من قَمعهم ورَدْعهم ، خيرةً ظاهرة متصلةً بالكفاية الشاملة التامة ، بمَنّ الله وفضله ، ولم يَرَ سيدنا — أيده الله — استصلاحَ أحد من هذه العُصبة إلا السودان ، فإنهم كانوا أخفَّ جنايةً ، وأيسرَ جريرةً ، فرأى — أعلى الله رأيَه — إقرارَهم على أرزاقهم القديمة ، وتصفيتهم بالمَرْض على المِحْنة ، لعلمه أن العساكر لابد لها من رَجّالة ، وأمرَ — أعلى الله أمرَه — أن يستخدم بحضرته مَن تُؤْمَن بائقتُه ، وتخِفّ مؤنتُه ، وتُرْجَى استقامتُه ، وبالله ثقة أمير المؤمنين وتوفيقُه ، وقِبَلك وقِبَل مثلِك رجّالةٌ أنت أعلم بمن مَرِضَتْ طاعتُه منهم ومن يعود إلى صحّة وصلاح ، فإن قَنِع مَنْ ترضاه منهم بأصل الجارى عليه ، فتمسّكْ به ، وأقِرَّه على جاريه ، ومَن رأيتَ الاستبدالَ به فأَمْرُه إليك ، والله المستعان » .

(تاريخ الطبرى ١٢ : ٧٧)

٢٨١ — كتاب أحمد بن الضحاك إلى صديق له يصف شعب بوّان

وكتب أحمد بن الضحّاك[١] الفلكى إلى صديق له يصف شِعْب بَوّان[٢] :

« بسم الله الرحمن الرحيم : كتبت إليك من شعب بَوّانَ ، وله عندى يدٌ بيضاء مذكورة ، ومِنّةٌ غرّاء مشهورة ، بما أولانيه من مَنظرَ أعْدَى[٣] على الأحزان ،

---

(١) جاء فى تاريخ بغداد ج ٤ : ص ٢١١ : « حدثنا أبو عبد الله أحمد بن الضحاك الواسطى ببغداد سنة ٣١١ ... الخ » وربما كان هو صاحب هذا الكتاب .

(٢) شعب بوان : بأرض فارس بين أرجان والنوبندجان ، وهو أحد متنزهات الدنيا ، موصوف بالحسن وكثرة الأشجار وتدفق المياه وكثرة أنواع الأطيار ، وقد وصفه المتنبى فى قصيدته التى مطلعها :

مغانى الشعب طيبا فى المغانى   بمنزلة الربيع من الزمان

(انظر ديوان المتنبى ص ٤٦٣ ، ومعجم البلدان ٧ : ٢٩٨) .

(٣) أعداه عليه : نصره وأعانه وقواه .

وأقالَ مِن صُروف الزمان ، وسَرَّح طَرْفى فى جداولَ تَطَّرِدُ بماء مَعِينٍ[١] مُنسَكِب، أرقَّ من دموع العُشّاق ، مَرَّرتْها لَوْعةُ الفِراق ، وأبردَ من ثُغور الأحباب ، عند الالتثام والاكتئاب ، كأنها — حين جرَى آذِيُّها[٢] يترَقْرق، وتدافعَ تيَّارُها يتدفّق، وارتجَّ حَبابُها يتكسَّر ، فى خلال زَهر ورياض ترنو[٣] بحَدَقٍ مُوَلَّهٍ — قُضُبُ[٤] لُجَيْنٍ فى صفائح عِقْيان ، وسُمُوطُ دُرٍّ بين زَبَرْجَد ومَرْجان ، أثرٌ على حِكمة صانعه شهيدٌ ، وعَلَمٌ على لُطف خالقه دليل ، إلى ظلٍّ سَجْسَج أحْوَى ، وخَضِلٍ ألْمَى[٥] ، قد غَنَّت عليه أغصانٌ فَيْنانة ، وقُضُبٌ غَيْدانة[٦] ، تشوَّرَتْ لها القدودُ المُهَفْهَفَةُ خَجَلاً وتقيَّلَتْها[٧] الخصُورُ المُرْهَفَةُ تشبُّهاً ، يَسْتَقِيدها النسيمُ فتنقاد ، ويَعدل بها فتعتدِل ، فمِن متورِّدٍ يَروق منظرُه ، ومُرْتجٍّ يتهدَّل مُثْمِرُه ، مشتركة فيه حُمرةُ نُضْجِ الثمار بنَفْحَةِ[٨] نسيمِ النُّوّار .

وقد أقمتُ به يومًا وأنا لخيالك مُسامِرٌ ، ولشَوقك منادِمٌ ، وشربت لك

---

(١) تطرد : تجرى ، والمعين : الماء الجارى على وجه الأرض ، من معن الماء ككرم ومنع : أى جرى ، أو من عان الماء يعين : أى جرى أيضا .

(٢) الآذى : الموج ، وحباب الماء : الفقاقيع التى تطفو فوقه كأنها القوارير .

(٣) رنا : أدام النظر ، والموله : الذاهب العقل وفى الأصل « تولد » .

(٤) فى الأصل « قصب » وهو تصحيف ، واللجين : الفضة ، والعقيان : الذهب ، وسموط جمع سمط بالكسر : وهو القلادة .

(٥) أرض سجسج : ليست بصلبة ولا سهلة ،ويوم سجسج : لاحر مؤذ ولاقر، وكل هواء معتدل طيب : سجسج ، وأحوى : وصف من الحوة بالضم : وهى سواد إلى الخضرة ، أو حمرة إلى السواد ، والخضل : كل شىء ند يترشف نداه ، وألمى : وصف من اللمى ، واللمى مثلثة اللام : سمرة فى الشفة .

(٦) امرأة فينانة : كثيرة الشعر طويلته ، والغيد بالتحريك : النعومة ولين الأعطاف ، والوصف منه على أفعل فعلاء ، فالأغيد من النبات : الناعم المتثنى ، والغيداء : المرأة المتثنية من اللين ، وقد جاء بالوصف منه هنا على فعلانة ، ولم أجده فى كتب اللغة .

(٧) تشورت : خجلت . يقال شورت الرجل وبالرجل فتشور . إذا خجلته فخجل ، وجارية مهفهفة أى ضامرة البطن دقيقة الخصر ، وتقيله : أشبهه ، والمرهفة الرقيقة اللطيفة .

(٨) فى الأصل «بنفحه» .

تذكارًا ، وإذا تفضَّل الله بإتمام السلامة إلى أن أوافى شيرازَ ، كتبت إليك من خبرى بما تَقِف عليه إن شاء الله تعالى . (معجم البلدان ٢ : ٢٩٩)

٢٨٢ — كتاب عن الإخشيد إلى أرمانوس ملك الروم

وكتب الإخشيد[١] محمد بن طُغْج صاحب الديار المصرية ، وما معها من البلاد الشامية ، والأعمال الحجازية ، إلى أرمانُوس ملك الروم ، وقد أرسل أرمانوسُ إليه كتابا يذكر من جملته بأنه كاتَبَهَ وإن لم تكن عادته أن يكاتِبَ إلا الخليفةَ ، فأمر بكتابة جوابه ، فكتب له الكُتَّاب عِدة أجوبة ، ورفعوا نُسخَها إليه ، فلم يرتضِ منها إلا ما كتبه إبراهيم بن عبد الله النِّجْيرَمى[٢] — وكان عالما بوجوه الكتابة — ونسخته :

« من محمد بن طُغْج مَوْلَى أمير المؤمنين إلى أرمانوس عظيم الروم ومَن يَليه :

سلامٌ بقَدْرِ ما أنتم له مستحِقُّون ، فإنّا نحمَد اللهَ الذى لا إله إلا هو ، ونسأله أن يصلى على محمد عبدِه ورسوله صلى الله عليه وسلم .

أما بعد ، فقد تُرْجِمَ لنا كتابُك الواردُ مع نقولا وإسحاقَ رسولَيْك ، فوجدناه مفتَتَحًا بذكر فضيلة الرحمة ، وما نُمِيَ[٣] عنا إليك ، وصَحَّ من شِيَمنا فيها لديك ، وبما نحن عليه من المَعْدِلة وحُسْن السيرة فى رعايانا ، وما وصلتَ به هذا القولَ من ذِكر الفِداء ، والتوصُّل إلى تخليص الأسرى ، إلى غير ذلك مما اشتمل عليه وتفَهَّمْناه .

---

(١) ولى حكم مصر سنة ٣٢٣ فى خلافة الراضى بالله أحمد بن المقتدر (الذى ولى الخلافة سنة ٣٢٢ ومات سنة ٣٢٩) وتوفى الإخشيد سنة ٣٣٥ (وقد استولى بنو بويه على بغداد سنة ٣٣٤ فى خلافة المستكفى بن المكتفى بن المعتضد) .

(٢) نسبة إلى نجيرم ، وقال ياقوت فى معجم البلدان : « بفتح أوله وثانيه وياء ساكنة وراء مفتوحة ، ويروى بكسر الجيم ، بليدة مما يلى البصرة على جبل هناك على ساحل البحر ، وقد نسب إليها قوم من أهل الأدب والحديث ، منهم إبراهيم بن عبد الله النجيرمى .... » .

(٣) نميت الحديث : رفعته .

فأمّا ما أطنبتَ فيه من فضيلة الرحمة ، فمن سَديد القول الذى يَليق بذوى الفضل والنُّبْل ، ونحنُ — بحمدِ الله ونِعَمه علينا — بذلك عارِفُون ، وإليه راغبون ، وعليه باعِثُون ، وفيه — بتوفيق الله إيانا — مجتهدون ، وبه مُتَوَاصُون وعامِلُون ، وإياه نسأل التوفيق لِمَرَاشدِ الأمور ، وجوامِـع المصالح ، بِمَنّه وَقُدْرته .

وأمّا ما نسبتَه إلى أخلاقنا من الرحمة والمعدلة ، فإنا نرغب إلى الله جل وعلا ، الذى تفرَّدَ بكمال هذه الفضيلة ، ووهبَها لأوليائه ، ثم أثابهم عليها ، أن يُوَفّقنا لها ، ويجعلَنا من أهلها ، ويُيَسرَنا للاجتهاد فيها ، والاعتصام من زَيْغ الهوى عَنْها ، وعَرَّةِ(١) القَسْوة بها ، ويجعلَ ما أودعَ قلوبَنا من ذلك موقوفا على طاعته ، وموجِبات مَرْضاته ، حتى نكونَ أهلا لِما وصَفْتنا به ، وأحقّ حقًّا بما دَعَوْتَنا إليه ، وممن يستحق الزُّلْفَى من الله تعالى ، فإنا فقراء إلى رحمته ، وحُقّ لمن أنزله الله بحيث أنْزَلَنَا ، وحَمّله مِن جسيم الأمر ما حَمَّلنا ، وجَمع له من سَعة الممالك ما جمَعَ لنا بمولانا أمير المؤمنين — أطال الله بقاءه — أن يَبتهِلَ(٢) إلى الله تعالى فى مَعُونته لذلك وتوفيقه وإرشاده ، فإن ذلك إليه وبيده « وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ » .

وأمّا ما وصفتَه من ارتفاع مَحَلِّك عن مرتبةِ مَن هو دون الخليفة فى المكاتبة ، لِمَا يقتضيه عِظَمُ ملككم ، وأنه المُلْكُ القديم الموهوب من الله ، الباقى على الدهر ، وأنك إنما خصَصْتَنا بالمكاتبة لِمَا تحقَّقْته من حالنا عندك ، فإن ذلك لو كان حقا ، وكانت منزلتُنا — كما ذكرتَه — تَقْصُر عن منزلة مَن تُكاتِبُه ، وَكان لك فى تَرْك مكاتبتنا غُنْمٌ ورُشد ، لكان من الأمر البيّن أنْ أحْظَى وأرْشَدَ وأوْلَى بمن حَلَّ مَحلّكَ أن يعمل بما فيه صلاحُ رعيته ، ولا يراه وصْمَةً ولا نقيصةً ولا عَيْبا ، ولا يَقَع فى معاناةِ صغيرةٍ من الأمور تَعقُبُها كبيرةٌ ، فإن السائسَ الفاضل قد يركبُ الأخطار ، ويخوضُ

---

(١) العرة بالفتح : المعرة والخلة القبيحة ، وبالضم : القذر ، وتستعار للمساوى والمعايب .

(٢) الابتهال : الاجتهاد فى الدعاء وإخلاصه .

الغِمَارَ ، ويُعرِّضُ مُهجتَه فيما ينفعُ رعيته ، والذى تجشَّمتَه من مكاتبتنا إن كان كما وصفتَه ، فهو أمر سهل يسير ، لِأمرٍ عظيمٍ خطير ، وجُلُّ نَفْعِه وصلاحِه وعائدتِه[1] تخُصُّكم ، لأن مذهبَنا انتظارُ إحدى الحُسْنَيَيْن ، فمن كان منا فى أيديكم فهو على بيِّنةٍ من ربه ، وعزيمةٍ صادقة من أمره ، وبصيرة فيما هو بسبيله ، وإن فى الأُسارَى مَنْ يُؤْثِر مكانه من ضَنْك الأسر ، وشدة البأساء ، على نعيم الدنيا وخيرها ، لِحُسْنِ متقلَبه ، وحميدِ عاقبته ، ويعلم أن الله تعالى قد أعاده من أن يَفْتِنَه ، ولم يُعِذْه من أن يَبتليَه ، هذا إلى أوامر الإنجيل الذى هو إمامُكم ، وما تُوجبه عليكم عزائم سياستكم ، والتوصلُ إلى استنقاذ أُسَرائكم ، ولولا أن إيضاح القولِ فى الصواب ، أَوْلَى بنا من المسامحة فى الجواب ، لأضْرَبنا عن ذلك صَفْحا ، إذ رأَيْنا أن نفسَ السبب الذى من أجله سما إلى مكاتبة الخلفاء عليهمُ السلامُ مَن كاتبَهم ، أوعداعنهم إلى مَن حَلَّ محلَّنا فى دولتهم بل إلى مَن نزَل عن مَرْتبتنا ، هو أنه لم يثِق من مَنْعه ، ورد مُلتَمَسه ممن جاوره ، فرأى أن يقصِدَ به الخلفاءَ الذين الشَّرَفُ كلُّه فى إجابتهم ، ولا عارَ على أحد وإن جَلَّ قدره فى رَدِّهم ، ومَن وثِق فى نفسه ممن جاوره ، وجَدَ قَصْدَه أسهَلَ السبيلين عليه ، وأدناهما إلى إرادته ، حَسَبَ ما تقدَّم لها من تقدّم ، وكذلك كاتَبَ مَن حلَّ محلَّك مَن قَصُرَ عن محلِّنا ، ولم يقرُبْ من منزلتنا ، فممالِكُنا عِدَّة ، كان يتقلَّد فى سالِفِ الدهر كلَّ مملكة منها مَلِكٌ عظيمُ الشأن .

فمنها مُلْكُ مِصرَ الذى أطغَى فِرْعَوْن ، على خَطَرِ أمره ، حتى ادَّعَى الإلٰهيَّة ، وافتخر على نبيِّ الله موسى بذلك .

ومنها ممالك اليمن التى كانت للتبابعة ، والأَقْيالِ العَباهِلَة[2] ، ملوكِ حِمْيَر ، على عِظَم شأنهم ، وكثرة عددهم .

---

(١) العائدة . المنفعة .

(٢) العباهلة : الذين أقروا على ملكهم فلم يزالوا عنه (بالبناء للمجهول) انظر الجزء الأول ص ٦٠

ومنها أجناد الشأم ، التى :

منها جُند حِمْص ، وكانت دارَهم ودار هِرَقْل عظيم الروم ومَن قَبْلَه من عظمائهم .

ومنها جند دِمَشْقَ على جَلالته فى القديم والحديث ، واختيارِ الملوك المتقدمين له .

ومنها جند الأُرْدُنِّ على جَلالة قدره ، وأنه دار المَسِيح صلى الله عليه وسلم وغيره من الأنبياء والحَوارِيِّين .

ومنها جند فِلَسطِين ، وهى الأرض المقدَّسة ، وبها المسجد الأقصى ، وكرسىُّ النَّصرانية ، ومعتقَدُ غيرها ، ومَحَجُّ النصارى واليهود طُرّا . ومَقَرّ داود وسليمان ومسجدُهما ، وبها مسجد إبراهيم وقبرُه ، وقبر إسحٰق ويعقوب ويوسف وإخوته وأزواجهم عليهم السلام ، وبها مولد المسيح وأمِّه وقبرُها .

هذا إلى ما نتقلده من أمر مكةَ المحفوظة بالآيات الباهرة ، والدَّلالات الظاهرة ، فإنا لو لم نتقلَّد غيرَها ، لكانت بشَرفها ، وعِظَم قدرها ، وما حَوَتْ من الفضل ، تُوفِى على كل مملكة ، لأنها مَحَجّ آدم ، ومَحَجّ إبراهيم وارثه ومُهاجَرُه ، ومَحَجُّ سائر الأنبياء ، وقبلتنا وقبلتهم عليهم السلام ، ودارُه وقبرُه (١) ومَنْبِت ولده ، ومَحَجُّ العرب على مرّ الحِقَب (٢) ، ومَحَلّ أشرافها وذوى أخطارِها ، على عِظَم شأنهم وفخامة أمرِهم ، وهو البيت العَتِيق المحرَّم المحجوجُ إليه من كل فَجٍّ عَمِيق ، الذى يعترِف بفضله وقِدَمه أهلُ الشرف ، مَن مَضَى ومَن خَلَف ، وهو البيت المعمور ، وله الفضل المشهور .

ومنها مدينةُ الرسول صلى الله عليه وسلم المقدَّسة بتُرْبته ، وأنها مَهبِط الوَحْى ، وبَيْضَةُ هذا الدين المستقيم الذى امتد ظِلُّه على البر والبحر ، والسَّهْل والوعْر ، والشرق

---

(١) كذا فى صبح الأعشى ، وقد جاء فى هامشه : « كذا فى المغرب فى أخبار المغرب أيضا — وهو الذى نقل عنه القلقشندى هذا الكتاب — ويظهر أنه مقدم على مابعده — أى ونبت ولده ويكون الضمير فيه عائدا على سيدنا إسمعيل ، فإن مكة كانت داره ومنبته » .

(٢) الحقب : جمع حقبة بالكسر ، وهى مدة من الدهر لا وقت لها ، والسنة .

والغرب ، وصحارى العرب على بُعد أطرافها ، وتَنازُحِ[1] أقطارها ، وكثرة سكانها في حاضرتها وباديتها ، وعِظَمِها في وفودها وشدّتها ، وصِدق بأسها ونجدتها ، وكِبَر أحلامها[2] وبُعْد مَرامِها ، وانعقاد النصر من عند الله براياتها ، وأن الله تعالى أبادَ خَضْراءَ[3] كِسْرَى ، وشَرَّدَ قَيصرَ عن داره ومحلِّ عِزِّه ومجده بطائفة منها .

هذا إلى ما تعلمه من أعمالنا ، وتحتَ أمْرنا ونَهْينا ثلاثةُ كراسيَّ من أعظم كراسيِّكم : بيتُ المَقْدِس ، وأنطاكيةُ ، والإسكندرية ، مع ما إلينا من البحر وجزائره ، واستظهارِنا بأتمّ العَتاد[4] ، وإذا وفَّيتَ النظر حقَّه ، علِمْتَ أن الله تعالى قد أصفانا[5] بجُلِّ الممالك التى ينتفع الأنامُ بها ، وبشَرَفِ الأرض المخصوصة بالشرف كلِّه دُنياً وآخرةً ، وتحقَّقتَ أن منزلتنا بما وهبه الله لنا من ذلك فوق كل منزلة ، والحمد لله وليّ كل نعمة .

وسياستُنا لهذه الممالك قريبها وبعيدها ، على عِظَمِها وسَعتها ، بفَضْل الله علينا ، وإحسانه إلينا ، ومَعُونته لنا ، وتوفيقه إيانا كما كتبتَ إلينا ، وصَحَّ عندك من حُسْن السيرة ، وبما يؤلف بين قلوب سائر الطَّبَقات من الأولياء والرعية ، ويجمَعُهم على الطاعة واجتماع الكلمة ، ويوسِعها الأمنَ والدَّعةَ في المعيشة ، ويُكسبها المودةَ والمحبة .

والحمدُ لله رب العالمين أوَّلا وآخِرا ، على نِعَمه التى تفُوت عندنا عددَ العادِّين ، وإحصاءَ المجتهدين ، ونَشْرَ الناشرين ، وقولَ القائلين ، وشكر الشاكرين ، ونسأله أن يجعلنا ممن تحدَّث بنعمته عليه شكرًا لها ، ونَشْرا لِما منحه اللهُ منها ، ومن

---

(١) أى تباعد ، وهو تفاعل من نزحت الدار كنم وضرب : أى بعدت .

(٢) الأحلام . العقول ، جمع حلم بالكسر .

(٣) الخضراء : سواد القوم ومعظمهم ، وفى حديث الفتح « أبيدت خضراء قريش » أى دهماؤهم وسوادهم .

(٤) استظهر به : استعان ، والعتاد : العدة .

(٥) أصفاه بكذا : آثره به .

رضِىَ اجتهادَه فى شكرها ، ومن أراد الآخرةَ وسَعَى لها سَعْيها وكَانَ سعيُه مشكورا إنه حميد مجيد .

وما كنتُ أحبُّ أن أباهِيك بشىء من أمر الدنيا ، ولا أتجاوز الاستيفاءَ لما وهبه الله لنا من شرف الدين الذى كرّمه وأظهره ، وَوعَدَنا فى عواقبه الغلبةَ الظاهرةَ ، والقدرةَ القاهرة ، ثم الفوزَ الأكبر يومَ الدين، لـكنك سلـكتَ مَسْلَـكا لم يحسُنْ أن نَعْدِل عنه، وقلتَ قولا لم يَسَعْنا التقصيرُ فى جوابه ، ومع هذا فإنا لم نقصد بما وصفناه من أمرنا مكاثَرَتَك ، ولا اعتمدْنا تعيين فضلٍ لنا نعوذ به ، إذ نحن نَـكْرُم عن ذلك ، ونَرَى أن نُـكْرِمك عند محلك ومنزلتك ، وما يتصل بها من حسن سياستك ومذهبك فى الخير ومحبتك لأهله ، وإحسانِك لمن فى يدك من أسْرَى المسلمين ، وعَطْفِك عليهم ، وتجاوُزِك فى الإحسان إليهم جميعَ من تقدَّمك مِن سَلَفك ، ومَن كان محمودا فى أمره رُغِبَ فى محبته ، لأن الخيِّر أهلٌ أن يُحَبَّ حيثُ كان ، فإن كنت إنما تؤهِّل لمـكاَتبتك ومُماثَلتك ، مَن اتسعَتْ ممالـكتُه ، وعظُمَت دولتُه ، وحسُنَت سيرتُه ، فهذه ممالكُ عظيمة ، واسعة جَمَّة ، وهى أجلُّ الممالكِ التى ينتفع بها الأنام ، وسِرُّ الأرض المخصوصة بالشرف ، فإن الله قد جمَع لنا الشرفَ كله ، والولاءِ الذى جُعِل لنا من مولانا أمير المؤمنين ـ أطال الله بقاءه ـ مخصوصين بذلك ، إلى مالَنا بقديمنا وحديثنا ومَوْقِعنا ، والحمد لله رب العالمين الذى جَمع لنا ذلك بمَنّه وإحسانه ، ومنه نرجو حُسن السعى فيما يُرْضيه بلُطْفه ، ولم ينطوِ عنك أمرنا فيما اعتمدناه . وإن كنت تَجْرِى فى المـكاتبة على رَسْم مَن تقدَّمك ، فإنك لو رجعتَ إلى ديوان بلدك ، وجدتَ من كان تقدَّمَك قد كاتَبَ مِنْ قَبلنا مَن لم يحُلَّ محلَّنا ، ولا أغنَى غَناءنا(١) ولا ساس فى الأمور سياستَنا ، ولا قلَّده مولانا أمير المؤمنين ـ أطال الله بقاءه ـ ما قلَّدَنا ، ولا فوَّض إليه ما فوَّض إلينا ، وقد كُوتب أبو الجيش خُمَارَوَيْه

---

(١) أغنى غناءه : كفى كفايته .

ابن أحمد بن طولون ، وآخِرُ مَن كُوتِبَ تِكِين مَوْلَى أمير المؤمنين ، ولم يكن تقلّد سوى مصر وأعمالها .

ونحن نحمد الله كثيرا أوّلا وآخرا ، على نعمه التى يفوت عندنا عَدَدُها عدّ العادّين ، ونَشْرَ الناشرين ولم نُرد بما ذكرناه المفاخرةَ ، ولكنا قصَدْنا بما عدَدْنا من ذلك حالات : أوّلها التحدثُ بنعمة الله علينا ، ثم الجوابُ عما تضمّنه كتابك من ذكر المحل والمنزلة فى المكاتبة ، ولِتعلمَ قدرَ ما بسطه الله لنا فى هذه المسالك ، وعندنا قوةٌ تامّة على المكافأة على جميل فعلك بالأسارى ، وشكرٌ وافٍ لِما تُوليهم وتتوخّاه من مسرّتهم ، إن شاء الله تعالى وبه الثقة ، وفقك الله لمواهبِ خيرات الدنيا والآخرة ، والتوفيق للسّداد فى الأمور كلها ، والتيسير لصلاح القول والعمل الذى يحبه ويرضاه ويُثبت عليه ، ويَرْفع فى الدنيا والآخرة أهلَه ، بمَنّه ورحمته .

وأما المُلْك الذى ذكرتَ أنه باقٍ على الدهر ، لأنه موهوب لكم من الله خاصةً ، فإنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ، وَإِنَّ الْمُلْكَ كُلَّهُ لِلَّهِ ، يُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ يَشَاءُ ، وَيُعِزُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَيُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، بِيَدِهِ الْخَيْرُ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وإنّ الله عز وجل نسَخَ مُلْكَ الملوك ، وَجَبَرِيّةَ الجبّارين ، بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله أجمعين ، وشفَع نبوّتَه بالإمامة ، وحازها إلى العِتْرة الطاهرة من العُنْصُر الذى منه أمير المؤمنين — أطال الله بقاءه — والشجرةِ التى منها غُصْنُه ، وجَعلها خالدةً فيهم يتوارثها منهم كابرٌ عن كابر ، ويُلقيها ماضٍ إلى غابر ، حتى يَجز أمرُ الله ووعدُه ، ويَبهَر نَصْرُه وكلمته ، وأظهر حجّته ، وأضاء عمودَ الدين بالأئمة المهتدين ، وقطَع دابرَ الكافرين ، ليُحِقَّ الحق ويُبْطل الباطل ولو كره المشركون ، حتى يرِثَ اللهُ الأرض ومَن عليها وإليه يرجعون .

وإنّ أحقَّ مُلْكٍ — أن يكون من عند الله ، وأولاه وأخلَقَه أن يَكْنُفَه[1] الله

---

(١) كنفه كنصره : صانه وحفظه .

بحراسته وحياطته ، ويحفّه بعزه وأيده(١) ، ويجلّله بهاء السكينة فى بهجة الكرامة ، ويجمّله بالبقاء والنجاء(٢) ، مالاح فجرٌ وكرّ دهرٌ ـ مُلكُ إمامة عادلة ، خلفت نبوّةً فجرتْ على رسْمها وسَنَنها ، وارتسمتْ أمرَها ، وأقامت شرائعها ، ودعت إلى سُبُلها ، مستنصرةً بأيدها ، منتجزةً لوعدها ، وإن يوما واحدا من إمامة عادلة خيرٌ عند الله من عُمر الدُّنيا تملّكا وجَبَريّةً .

ونحن نسأل الله تعالى أن يُديم نعمه علينا ، وإحسانَه إلينا ، بشرف الولاية ، ثم يُحْسِن العاقبة بما وفّر علينا فخرَه وعُلاهُ ، ومَجْدَه وإحسانه ، إن شاء الله ، وبه الثقة ، وهو حَسْبنا ونِعْم الوكيلُ .

وأمّا الفِداءُ ورأْيُك فى تخليص الأسرى ، فإنا وإن كنا واثقين لمن فى أيديكم بإحدى الحُسْنَيَيْن ، وعلى بيّنةٍ لهم من أمرهم ، وثباتٍ من حُسْنِ العاقبة وعِظَم المَثُوبة ، عالمين بما لهم ، فإن فيهم مَن يُؤْثِر مكانَه من ضَنْك الأسر وشِدَّة البأساء ، على نعيم الدنيا ولذّتها ، سُكونًا إلى ما يتحققه من حسن المنقلَب ، وجزيل الثواب ، ويعلم أن الله قد أعاذه من أن يَفْتِنَه ، ولم يُبعِدْه من أن يبتَليه(٣) ، وقد تبيَّنّا مع ذلك فى هذا الباب ما شرَعه لنا الأئمةُ الماضُون ، والسَّلَف الصالحون ، فوجدنا ذلك موافِقا لما التمستَه ، وغيرَ خارج عما أحبَبْتَه ، فسُرِرنا بما تيسَّر منه ، وبعثْنا الكتبَ والرسل إلى عُمّالنا فى سائر أعمالنا ، وعزَمْنا عليهم فى جمع كل مَن قِبَلهم وأتباعهم بما وفر الإيمان فى إنفاذهم ، وبذلنا فى ذلك كلَّ ممكن ، وأخّرنا إجابتك عن كتابك ، ليتقدم فِعلُنا قولَنا ، وإنجازُنا وَعْدَنا ، ويُوشِك أن يكون قد ظهر لك من ذلك ما وقع أحسنَ الموقع منك إن شاء الله .

وأما ما ابتدأتنا به من المواصلة ، واستشْعَرْتَه لنا من المودة والمحبة ، فإن عندنا فى مقابلة ذلك ماتُوجبه السياسةُ التى تجمعنا على اختلاف المذاهب ، وتقتضيه نسبة الشرف الذى يؤلّفنا على تباين النِّحَل ، فإن ذلك من الأسباب التى تخصنا وإياك ،

---

(١) الأيد : القوة . (٢) النجاء : النجاة . (٣) مكرور مع ماسبق .

ورأينا من تحقيق جميل ظنك بنا إيناسَ رُسُلك وبَسْطَهم ، والاستماعَ منهم ، والإصغاء إليهم ، والإقبالَ عليهم ، وتلقِّينا انبساطَك إلينا ، وإلطافَك[1] إيانا ، بالقَبول الذى يحقُّ علينا ، ليقع ذلك موقعَه ، وزدنا فى توكيد ما اعتمدته ما حَمَّلناه رسلَك فى هذا الوقت - على استقلالنا إياه - من طرائفِ بلدنا وما يَطرأ من البلاد علينا ، وإن الله بعدله وحكمته أودعَ كل قرية صِنفا ، ليتَشوَّف إليه مَن بَعُد عنه ، فيكون ذلك سببا لِعمارة الدنيا ومَعَايِش أهلها ، ونحن نُفردك بما سلَّمناه إلى رسولك لِتقفَ عليه إن شاء الله .

وأما ما أنفذته للتجارة ، فقد أمكنَّا أصحابَك منه ، وأذِنَّا لهم فى البيع ، وفى ابتياع ما أرادوه واختاروه ، لأنا وجدنا جميعَه مما لا يَحظُره علينا دينٌ ولا سياسة ، وعندنا مِن بَسْطِك وبسطِ مَن يَرِد من جهتك ، والحرصِ على عمارة ما بدَأتَنا به ورعايته ، ورَبِّ[2] ما غرَستَه أفضلُ ما يكون عند مِثلنا لِمثلك ، والله يعين على ما ننويه من جميل ، ونعتقده من خير ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

ومَن ابتدأ بجميلٍ لزِمَه الجرىُ عليه والزِّيادة ، ولاسيما إذا كان من أهله وخَليقاً به ، وقد ابتدأتَنا بالمؤانسة والمباسَطَة ، وأنت حقيقٌ بعمارة ما بيننا ، وباعتمادنا بحوائجك وعوارِضك قِبَلَنا فأبشِرْ بتيسير ذلك إن شاء الله .

والحمد لله أحَقَّ ما ابتُدِئَ به ، وخُتِم بذكره ، وصلى الله على محمد نبىِّ الهدى والرحمة ، وعلى آله وسلم تسليما » . (صبح الأعشى ٧ : ١٠)

٢٨٣ — كتاب أبى الطيب المتنبى إلى أحد إخوانه

وكتب أبو الطيِّب المتنبى بعد أن أبلَّ[3] من مرض إلى أحد إخوانه :

« وصلتَنى — أعزك الله — مُعتلا ، وقطعتَنى مُبِلاًّ ، فإن رأيتَ ألاَّ تكدِّر الصحة علىَّ ، وتحبِّب العِلّة إلىَّ ، فعلتَ » . (مفتاح الأفكار ٢٧٣)

---

(١) ألطفه بكذا : أتحفه وبره به .

(٢) ربَّ النعمة كنصر : حفظها وراعاها ورباها كما يربى الرجل ولده .

(٣) أبل من مرضه : صح .

٢٨٤ - كتاب الراضى إلى المتقى

وكتب الراضى إلى أخيه المتّقِى[1] — وكان قد جرى بينهما كلام بحضرة المؤدِّب ، وكان المتقى قد اعتدى على الراضى — :

« أنا معترف لك بالعُبُودية فرضاً ، وأنت معترف لى بالأُخُوَّة فَضْلا ، والعبدُ يُذْنب ، والمولى يعفو ويغفِر ، وقد قال الشاعر :

يا ذا الذى يغضَبُ فى غيرِ شئٍ ... أعْتِبْ فعُتْباكَ حبيبٌ إلىّ[2]

أنت (على أنك لى ظالمٌ) ... أعزُّ خلقِ الله طُرًّا علىّ

فمضى إليه المتقى راضياً ، وأكبّ عليه باكيا . (غرر الخصائص الواضحة ص ٣٨٣) .

---

(١) هو أبو إسحق إبراهيم بن المقتدر ، ولى الخلافة بعد أخيه الراضى من سنة ٣٢٩ إلى سنة ٣٣٣ .

(٢) أعتبه : أعطاه العتبى ، وهى الرضا .

التوقيعات
فى العصر العباسى الأول

السفاح

كتب إلى السَّفَّاح جماعة من أهل الأَنْبار[1] يذكرون أن منازلهم أُخِذَت منهم ، وأُدْخِلَت فى البناء الذى أمر به ، ولم يُعْطَوا أثمانَها ، فوقَّع :

« هذا بناءٌ أُسِّسَ على غيرِ تَقْوى » .

ثم أمر بدفع قِيَمِ منازلهم إليهم .

ووقَّع فى كتاب أبى جعفر ، وهو يحارب ابن هُبَيْرة بواسط[2] :

« إنَّ حِلْمَكَ أفسد علمَك ، وتَرَاخِيَك أثَّر فى طاعتك ، فخُذْ لى منك ، ولك من نفسك » .

ووقَّع إليه فى ابن هُبَيرة بعد أن راجعه فيه غيرَ مرَّة : « لستُ منكَ ولستَ منى إن لم تقتُلْه[3] » .

وجاء كتاب من أبى مُسْلِم يستأذنه فى الحج وفى زيارته ، فوقَّع إليه :

« لا أَحُول بينك وبين زيارة بيت الله الحرام وخليفته ، وإذنُك لك » .

ووقع فى كتاب جماعةٍ من بِطانته يَشْكون احتباسَ أرزاقهم :

« مَن صَبَر فى الشِّدة ، شُورِكَ فى النعمة » .

ثم أمر بأرزاقهم .

---

(١) الأنبار : مدينة على الفرات فى غربى بغداد ، وكان أول من عمرها سابور بن هرمز ذو الأكتاف ملك الفرس ، ثم جددها أبو العباس السفاح ، وبنى بها قصورا ، وأقام بها إلى أن مات .

(٢) انظر ص ١٠ من الجزء الثالث .

(٣) انظر ص ١٢ من الجزء الثالث .

ووقّع إلى عامل تُظُلِّم منه : « وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً » .

وفى قوم شَكَوا غَرَق[1] ضياعهم فى ناحية الكوفة :

« وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » .

ووقع إلى أبى سَلَمة الخَلَّال[2] ، وقد كتب إليه يستأذنه فى تولية قوم من الحاشية والشيعة :

« يا أبا سَلَمة ، ما أقْبَحَ بنا أن تكون لنا الدنيا ، وأولياؤنا خَالُونَ من حسن آثارنا » !

ووقع إلى ساعٍ : « تقرَّبْتَ إلينا بما باعَدَك عن الله ، ولا ثوابَ لمن خَالَفَ اللهَ » .

ووقع إلى أخيه فى بعض الجُناة : « إذا كان الحِلم مَفْسدةً ، كان العفو مَعْجزةً » .

المنصور

ووقّع المنصور فى كتابه إلى عبد الله بن على عمِّه[3] :

« لا تجعَلْ للأيَّام فىَّ وفيك نصيباً من حوادثها » .

ووقَّعَ إليه أيضا :

« ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ، وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ » فاجعل الحظَّ لك دونى ، يكن لك كلُّه » .

---

(١) فى الأصل « حرق » وأراه محرفا .

(٢) هو أبو سلمة حفص بن سليمان الخلال ، أول وزير وزر لأول خليفة عباسى ، وقد فوض السفاح إليه الأمور ، وسلم إليه الدواوين ، وكان يقال له وزير آل محمد (كما كان يقال لأبى مسلم أمين آل محمد) ثم اتهم بانحرافه عن بنى العباس ، فتنكر له السفاح ، وكتب مع أخيه المنصور إلى أبى مسلم بخراسان ، يعلمه بما عزم عليه أبو سلمة من نقل الدولة عنهم ، وما يتخوف منه ، فبعث أبو مسلم قوما من أهل خراسان فقتلوه وقالوا قتله الخوارج — انظر تاريخ الطبرى ٩ : ١٤٠ والفخرى ص ١٣٦ .

(٣) انظر ص ١٨ من الجزء الثالث .

ووقّع إلى عبد الحميد صاحب خُراسان :

« شكوتَ فأشكَيْناك(١) ، وعَتَبْتَ فأعتَبْناك(٢) ، ثم خرجتَ عن العامَّة ، فتأهَّبْ لفراق السلامة » .

ووقع إلى أهل الكوفة — وشَكَوا عاملَهم — :

« كما تكونوا يُؤَمَّر عليكم(٣) » .

وإلى قوم تظلَّموا من عاملهم : « لاَ يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ » .

وفى قصة رجل شكا عَيْلةً(٤) : « سَلِ اللهَ من رِزْقِه » .

وفى قصة رجل سأله أن يبنى بقريةٍ مسجدا : « فإن الصلاة على بُعْدِ ذلك ، أعظمُ لثوابك » .

وفى رواية أخرى :

ورفع رجل من العامَّة إليه رُقعةً فى بناء مسجد فى مَحَلَّته ، فوقع :

---

(١) أشكاه : أزال شكايته (وأشكاه أيضا : زاده أذى وشكاية ، ضد) .

(٢) أعتبه : أرضاه .

(٣) أخذه من قوله صلى الله عليه وسلم : « عمالكم كأعمالكم ، وكما تكونوا يولى عليكم » — انظر نهاية الأرب ٣ : ٣ — ذكروا أن بعض النحويين أعمل ما المصدرية حملا على أن المصدرية ، وخرج عليه هذا الحديث ، وقيل : لا حاجة إلى جعل «ما» هنا ناصبة ، بل الفعل بعدها مرفوع ، ونون الرفع محذوفة للتخفيف ، وقد سمع حذفها نثرا ونظما «جاء فى الحديث : «والذى نفسى بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا» وقال الشاعر :

أبيت أسرى وتبيتى تدلكى وجهك بالعنبر والمسك الذكى

وقيل : الكاف مختصرة من كى ، فهى الناصبة وما زائدة .

(انظر حاشية الصبان ٣ : ١٨٧ باب إعراب الفعل ، وحاشية الخضرى على ابن عقيل ٧ : ١٠٠) وجاء فى حاشية يس على التصريح ٢ : ٢٣٢ : « فى فتاوى الجلال السيوطى : مسألة : هل ورد فى الحديث « كما تكونون يول عليكم » ؟ الجواب : نعم ، رواه ابن جميع فى معجمه من حديث الحسن ابن أبى بكرة ، وفيها بعد ذلك : أنه سئل عن لفظ حديث « كما تكونوا يولى عليكم » حذفت النون من تكونوا دون ناصب وجازم ، فأجاب : بأن هذا الحديث رواه البيهقى فى شعب الإيمان بلفظ كما تكونوا بلا نون ، وقد خرج على ثلاثة أوجه : أحدها أنه على لغة من يحذف النون دون ناصب وجازم ، الثانى : وهو رأى الكوفيين والمبرد أنه منصوب أوردوه شاهداً على مذهبهم أن «ما» تنصب ، الثالث : أنه من تغييرات الرواة » .

(٤) العيلة : الفقر ،

« إن من أشراطِ[1] الساعةِ أن تَكثر المساجد ، فزِدْ فى خُطاك يُزَدْ فى أجْرك » .

وفى قصة رجل قُطِعَتْ عنه أرزاقه :

« مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا ، وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

وفى قصة رجل شكا الدَّيْنَ :

« إن كان دَيْنك فى مَرْضاةِ الله قضاه » .

وإلى صَرُورةٍ[2] سأله أن يحُجّ :

« وَلِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً » .

وإلى صاحب مصرَ حين كتب يذكر نُقصان النيل :

« طهِّرْ عسكرَك من الفساد ، يُعْطِك النيلُ القِيادَ » .

وإلى عاملهِ على حِمْص — وجاء منه كتاب فيه خطأ — :

« استَبْدِل بكاتبك ، وإلاَّ استُبْدِلَ بك » .

وإلى صاحب أرْمينية :

« إن لى فى قفاكَ عيْناً ، وبين عَيْنَيك عَيْناً ، ولهما أربعُ آذان » .

وإلى رجل استوصله[3] : « لا مانعَ لما أعطاه الله » .

وفى كتاب أتاه من صاحب الهند ، يخبره أن الجند شغَبوا[4] عليه ، وكسروا أقفال بيت المال ، فأخذوا أرزاقهم منه :

---

(١) أشراط : جمع شرط كسبب ، وهو العلامة ، والساعة: القيامة ،ورواية الطبرى : «من أشراط الساعة كثرة المساجد ، فزد فى خطاك تزدد من الثواب » .

(٢) رجل صرور وصرورة : أى لم يحج .

(٣) أى طلب صلته .

(٤) شغبهم وبهم وعليهم كمنع وفرح : هيج الشر عليهم .

« لو عَدَلْتَ لم يَشْغَبوا ، ولو وفَيْتَ لم ينتهبوا » .

وشكا إليه رجل من بعض عماله ، فوقّع فى قصته إلى العامل :

« اكفِنِي أمره ، وإلاّ كفيتهُ أمْرك » .

وكتب سَوّار(١) بن عبد الله القاضى إليه : « إن عندنا رجلا شديد الترفُّض(٢) يُدْعَى السيدَ الحِمْيَرِىَّ(٣) » فوقع فى كتابه :

« إنا بعثناك قاضياً لا ساعياً » ؛

ووقع فى كتابِ بليغٍ استماحه(٤) :

« إن البلاغة والغِنَى إذا اجتمعا فى رجل أطغَيَاهُ وقد رُزِقْتَ إحداهما، فا كتَفِ بها، واقتصِرْ عليها » .

وكتب إليه عبدالله بن زياد بن الحارث رقعة بليغة يستمنحه فيها ، فكتب عليها :

« إن الغنى والبلاغة إذا اجتمعا فى بلد أبطراه ، وأمير المؤمنين مشفق عليك ، فا كتف بالبلاغة(٥) » .

---

(١) ولاه المنصور قضاء البصرة منذ سنة ١٣٨ وتوفى سنة ١٥٧ — انظر تاريخ الطبرى ج ٩ : ١٧١ حوادث سنة ١٣٨ ومابعدها .

(٢) أى القول بالرفض ، والرافضة : فرقة من الشيعة ، وكان زيد بن على قد بايعه على إمامته خمسة عشر ألف رجل من أهل الكوفة ، وخرج بهم على والى العراق يوسف بن عمر الثقفى عامل هشام بن عبد الملك على العراقين ، فلما استحر القتال بينه وبين يوسف ، قالوا له : إنا ننصرك على أعدائك بعد أن تخبرنا برأيك فى أبى بكر وعمر اللذين ظلما جدك على بن أبى طالب . فقال زيد : إنى لا أقول فيهما إلا خيراً وما سمعت أبى يقول فيهما إلا خيرا ، وإنما خرجت على بنى أمية الذين قتلوا جدى الحسين ، وأغاروا على المدينة يوم الحرة ، ثم رموا بيت الله بحجر المنجنيق والنار . ففارقوه عند ذلك ، حتى قال لهم : رفضتمونى ، ومن يومئذ سموا رافضة — انظر الفرق بين الفرق ص ٢٥ ، ومقدمة ابن خلدون ص ٢١٩ .

(٣) كان السيد الحميرى من شيعة محمد بن الحنفية ، وكان يعتقد أن ابن الحنفية لم يمت ، وأنه فى جبل رضوى (جبل بالحجاز) بين أسد ونمر يحفظانه ، وعنده عينان نضاختان تجريان بماء وعسل ، ويعود بعد الغيبة فيملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا ، انظر الملل والنحل ١ : ١٥٥ .

(٤) استماحه : سأله العطاء .

(٥) كان المنصور يرمى بالبخل ، وكان يلقب أبا الدوانق (والدانق بكسر النون وفتحها والداناق : سدس الدرهم) لقب بذلك لأنه لما بنى بغداد كان ينظر فى العمارة بنفسه ، فيحاسب الصناع والأجراء ، فيقول لهذا : أنت نمت القائلة ، ولهذا : أنت لم تبكر الى عملك ، ولهذا : أنت انصرفت لم تكمل اليوم .

ورفع رجل إليه يشكو عامله أنه أخذ حَدًّا من ضَيعته ، فأضافه إلى ماله ، فوقع إلى عامله فى رُقعة المتظلِّم :

« إن آثرتَ العدلَ صَحِبتْك السلامةُ ، فأنصِف هذا المتظلِّمَ من هذه الظُّلامة » .

وتظلم رجل من أهل السواد من بعض العمال فى رقعة رفعها إليه ، فوقع فيها :

« إن كنتَ صادقا فجئْ به ملبَّباً[1] ، فقد أذِنّا لك فى ذلك » .

المهدى

ووقّع المهدى فى قصة متظلِّمين شكَوا بعضَ عماله :

« لو كان عيسى عامِلَكم قُدْناه إلى الحق ، كما يُقاد الجمل المَخْشُوش[1] » .

يريد عيسى ولده .

ووقع إلى صاحب أرمينية — وكتب إليه يشكو سوء طاعة رعاياه — :

« خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ » .

وإلى صاحب خراسان فى أمر جاءه : « أنا ساهرٌ وأنت نائمٌ » .

وفى قصة قوم أصابهم قَحْطٌ :

« يقدَّر لهم قوتُ سَنَةِ القَحْطِ والسَّنَةِ التى تَلِيها » .

وإلى شاعر[2] : « أسرفْتَ فى مديحك ، فقصَّرْنا فى حِبائك[3] » .

---

(١) لبب الرجل : جعل ثيابه فى عنقه وصدره فى الخصومة ثم قبضه وجره ، ويقال أيضا . أخذ بتلبيبه وتلابيبه : إذا جمع عليه ثوبه الذى هو لابسه عند نحره وصدره وقبض عليه يجره .

فيعطى كل واحد منهم بحسب ما عمل فى يومه ، فلا يكاد يعطى أجرة يوم كامل — اقرأ حكايات بخله فى غرر الخصائص الواضحة ص٢٩٢ .

(٢) الخشاش ككتاب : ما يدخل فى عظم أنف البعير من خشب لينقاد ، وخششت البعير : جعلت فى أنفه الخشاش .

(٣) قال صاحب العقد الفريد : « أظنه مروان بن أبى حفصة» وهو شاعر عباسى مشهور .

(٤) الحباء : العطاء .

وفى قصة رجل من الغارمين[١] :

« خذ من بيت مال المسلمين ما يُقضَى به دَيْنُك ، وتَقَرُّ به عينُك » .

وفى قصة رجل شكا الحاجة :

« أتاك الغوثُ » .

وإلى رجل من بطانته استوصَلَ :

« ليت إسراعَنَا إليك يقومُ بإبطائنا عنك[٢] » .

وفى قصة قوم تظلموا من عاملهم ، وسألوا إشخاصه إلى بابه :

« قد أنْصَفَ القارَةَ مَن رَاماها[٣] » .

« وفى قصة رجل حُبِس فى دمٍ :

« وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ[٤] » .

وإلى صاحب خراسان — وكتب إليه يُخبره بغَلاء الأسعار — :

« خذهم بالعَدْل فى المِكيالِ والميزان » .

وإلى يوسف الرومى حين ظَفِرَ[٥] به بخراسان :

« لك أمانِى ، ومُؤَكَّدُ أَيْمانى » .

---

(١) الغارمون : هم المدينون فى غير معصية ومن غير إسراف إذا لم يكن لهم وفاء ، وهم ممن تصرف لهم الزكاة كما جاء فى القرآن الكريم .

(٢) ويروى أن هذا القول قاله عتبة بن أبى سفيان لأعرابى استماحه فى موسم الحج سنة ٤١ — انظر جمهرة خطب العرب ٢ : ٢١١ .

(٣) هو مثل ، والقارة : قبيلة ، وهم قوم رماة ، ويزعمون أن رجلين التقيا ، أحدهما قارى ، فقال القارى : إن شئت صارعتك ، وإن شئت سابقتك ، وإن شئت راميتك ، فقال الآخر : قد اخترت المراماة ، فقال القارى : قد أنصفتنى ، وأنشأ يقول :

قد أنصف القارة من راماها   إنا إذا ما فئة نلقاها

* نرد أولاها على أخراها *

ثم انتزع له بسهم فشك به فؤاده .

(٤) وفى خاص الخاص أن هذا التوقيع ليحيى بن خالد البرمكى .

(٥) فى الأصل « حين ظفر بخراسان » وأراه محرفا كما يدل عليه معنى التوقيع .

وكتب إليه سَلْم(١) بن قُتَيْبة يسأله أن يُشرِّفه بالإذن له فى تقبيل يده ، فوقَّع إليه :

« يا أبا قُتَيْبة ، إنا نَصُونك عنها ، ونَصُونها عن غيرك » .

الهادى

وكتب موسى الهادى إلى الحسن بن قَحْطَبَة فى أمر راجَعه فيه :

« قد أنكرْناك منذُ لزِمْتَ أبا حنيفة ، كفاناه اللهُ » .

وإلى صاحب إفريقيةَ فى أمر فرَط منه :

« يابن اللَّخْناءِ(٢) أنَّى تتمرَّس ؟ » .

هرون الرشيد

ووقع هرون الرشيد إلى صاحب خُراسان :

« دَاوِ جُرْحَك لا يتَّسِع » .

وإلى عامله على مصر :

« احذَرْ أن تُخَرِّبَ خِزانتى(٣) وخِزانةَ أخى يوسف ، فيأتِيَك منه مالا قِبَل لك به ، ومِنَ الله أكثرُ منه » .

ووقع فى قصة البرامكة :

« أنبتَتْهم الطاعةُ ، وحصَدَتْهُمُ المعصيةُ » .

---

(١) هو سلم بن قتيبة الباهلى ، وكان والى البصرة فى عهد المنصور — انظر تاريخ الطبرى ٩ : ٢٦٠ حوادث سنة ١٤٥ .

(٢) اللخن بالتحريك : قبح ريح الفرج ، وامرأة لخناء ويقال اللخناء : التى لم تختن ، وهى من شتم العرب ، كأنهم يقولون : يادنىء الأصل ، أو يالئيم الأم ، وتمرس بالشىء : احتك به .

(٣) يشير إلى قوله تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام حين قال للملك مصر :

« قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ » .

وإلى عامله على فارس :

« كن منى على مِثْل ليلة البَيَاتِ[١] » .

وإلى عامل خراسان :

« إن الملوك يُؤْثَر منها الحفظُ » .

وإلى خُزيمة بن خازم[٢] إذ كتب إليه أنه وَضَع السيف حين دخل أرض أرمينية :

« لا أُمَّ لك[٣] ، تقتُلُ بالذنب مَن لاذَنْبَ له ؟ » .

وفى قصة محبوس : « مَن لَجَأَ إلى الله نجا » .

وفى قصة متظلم : « لا يُجاوَز بك العدلُ ، ولا يُقَصَّر بك دون الإنصاف » .

وإلى صاحب السِّنْد إذْ ظهرت العصبية[٤] :

« كل من دعا إلى الجاهلية ، تَعَجَّلَ إلى المنيَّة » .

وفى رواية أخرى : وكتب إليه صاحب السِّند بظهور العَصَبية ، فوقع :

« من أظهر العَصَبِيَّة فعاجِلْه بالمنيَّة » .

وإلى عامله على خراسان :

« كل مَن رفَعَ رأسه فأزِلْه عن بدنه » .

وفى رقعةِ متظلم مِن عامله على الأهواز — وكان بالمُتَظلِّم عارفا — :

« قد ولَّيناك موضِعَه . فتنكَّبْ[٥] سيرتَه » .

(١) بيت العدو : أوقع بهم ليلا ، والاسم البيات .

(٢) وله خبر فى فتنة الأمين — انظر تاريخ الطبرى ١٠ : ١٩٢ .

(٣) لاأم لك : شتم وسب ، معناه . ليس لك أم حرة — وذلك أن بنى الإماء عندالعرب مذمومون ليسوا بمرضيين ولالاحقين ببنى الحرائر — وقيل معناه : أنت لقيط لاتعرف لك أم ، ولايقول الرجل لصاحبه لا أم لك إلا فى غضبه عليه مقصرا به شاتما له (وربما وضع موضع المدح ، بمعنى التعجب منه)

(٤) فى الأصل « المعصية » وهو تحريف — انظر مابعده .

(٥) أى اعدل عنها .

وفى كتاب بَكّار الزُّبَيْرى إليه يخبره بسرّ من أسرار الطالبيِّين :

« جزى الله الفضلَ[1] خيرَ الجزاء فى اختياره إياك ، وقد أثابك أمير المؤمنين مائةَ ألف بحُسْنِ نيتك » .

وإلى محفوظ صاحب خراج مصر :

« يا محفوظ ، اجعل فَرْع[2] مصر فَرْعا واحدا وأنت أنت » .

وإلى صاحب المدينة :

« ضع رجليك على رِقاب أهل هذا البطن[3] ، فإنهم قد أطالوا ليلى بالسُّهاد ، ونَفَوا عن عينى لذيذَ الرُّقاد » .

ووقع إلى السِّنْدِى[4] بن شاهَكَ :

« خَفِ اللهَ وإمامَك ، فهما نجاتُك » .

وإلى سليمان بن أبى جعفر فى كتابٍ وَرَدَ عليه منه يَذْكُرُ وُثوب أهل دمشق :

« استَحَيْتُ لشيخٍ وَلَدَه المنصورُ أن يَهْرُب عمّن وَلَده كِنْدةُ وطَيِّئ ، فهلّا قابلتَهم بوجهك ، وأبديْتَ لهم صَفْحَتَك[5] ، وبذلْتَ لهم مِنْحَتَك ، وكنت كمرْوان[6] ابن عمِّك ؟ إذ خرج مُصْلِتا[7] لسيفه ، متمثِّلا ببيت الجحّاف ابن حكيم :

---

(١) يعنى الفضل بن يحيى البرمكى .

(٢) فى الأصل العقد الفريد « اجعل فرح مصر فرحا واحدا » وهو تحريف ، وأرى أن صوابه « اجعل فرع مصر فرعا واحدا » والفرع : المال الطائل المعد ، أو صوابه « اجعل خراج مصر خراجا واحدا » والمعنى . ابعث بخراج مصر دفعة واحدة ، وأنت قارّ فى مكانك دون أن تحضر برفقته .

(٣) البطن من الأرض : المطمئن .

(٤) كان صاحب الحرس ، وله خبر فى فتنة الأمين أيضا — انظر تاريخ الطبرى ١٠ : ١٩٧ .

(٥) أبدى لهم صفحته : جاهرهم بالعداوة .

(٦) يعنى مروان بن محمد الجعدى آخر خلفاء بنى أمية .

(٧) أصلت السيف . سله وجرده .

متقلّدين صَفَائحاً هِنْدِيَّةً ... يتركْن مَن ضَرِبوا كمَن لم يولَدِ[1]

فجالَدَ به حتى قُتِل ، إما بِدْعةً ، وإمّا خَلّةً ، أشد هِراشا[2] ، وأخشن مِراسا ، ولولا أن يقال . . . لقلتُ رَحمه الله ، فلله أمٌّ تَنْدُبه ، وأبٌ أنْهضَه ! » .

وكتب متملّكُ الروم إلى هرون الرشيد : « إنى متوجِّهٌ نحوك بكل صَليب فى مملكتى ، وكلِّ بَطَل فى جندى » فوقّع فى كتابه :

« سَيَعْلَمُ الكافِرُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ[3] » .

وكتب إليه نقفور ملك الروم يتهدده ، فوقع فى كتابه : « الجواب ما تراه لا ما تقرؤه[4] » .

ووقع إلى صاحب النصرانية بالروم : إنا بالأثَر ، وعلى الله الظَّفَر » .

وكتب إليه يحيى بن خالد من الحبس حين أحس بالموت : « قد تقدَّم الخَصْمُ إلى موقف الفَصْل ، وأنت بالأثَرِ ، واللهُ الحَكَمُ العَدْل ، وستَقْدَم فتعْلَم » . فوقع فيه الرشيد :

« الحَكَمَ الذى رضِيتَه فى الآخرة هو أعْدَى الخصومِ عليك ، وهو من لا يُرَدُّ حُكمه ، ولا يُصْرَف قضاؤه[5] .

ووقع إلى على بن عيسى بن هامان ، وقد كتب إليه بقتل العُمَرُكِىّ[6] :

« بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » .

---

(١) الصفائح : السيوف العريضة ، والهندية : المطبوعة بالهند .

(٢) الخلة . الخصلة ، وهراشا : أى تقاتلا .

(٣) انظر ص ٢٧٦ من الجزء الثالث .

(٤) انظر ص ٢٧٦ من الجزء الثالث .

(٥) انظر ص ١٩٤ من الجزء الثالث .

(٦) نسبة إلى عمرك منحوتا من عمر كسكر (كما قالوا حضرى فى النسب إلى حضرموت) وكسكر كجعفر : كورة واسعة كانت قصبتها واسط التى بين البصرة والكوفة ، والعمر بالضم : الدير للنصارى ، وهذا العمر فى شرق واسط ، يحيط به بساتين نخيل بينه وبين دجلة .

المأمون

ووقع المأمون فى قصة متظلمٍ من على[1] بن هشام :

« يا أبا الحسين ، الشريفُ[2] من يظلم مَنْ فوقه ، ويظلِمُه مَن دونه ، فانظر أىُّ الرجلين أنت ؟ » .

وإلى هشام : « لا أُدْنيك ولك ببابى خَصْم » .

وإلى الرُّسْتُمِىّ وقد تظلَّم منه غَرِيمٌ[3] له :

« ليس من المروءة أن تكون أوانيك من الذهب والفضة ، وجارُك طاوٍ[4] ، وغريمُك عاوٍ » .

وفى قصة متظلم من عمرو بن مَسْعَدة :

« يا عمرو ، عمِّر نعمتك بالعدل ، فإن الجَوْر يَهْدِمها » .

وفى قصة متظلم من أبى عبّاد :

« يا ثابت ، ليس بين الحقِّ والباطل قرابةٌ » .

وفى قصة متظلم من أبى عيسى أخيه :

« فَإِذَا نُفِخَ فِى الصُّورِ فَلاَ أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءلُونَ » .

وفى قصة متظلم من حُمَيْد الطُّوسىّ :

« يا أبا غَنْم ، لا تغترَّ بموضعك من إمامك ، فإنك وأخسُّ عبيده فى الحق سيَّان » .

وفى رواية أخرى : « يا أبا حامد ، لا تتَّكِلْ على حسن رأيى فيك ، فإنك وأحد رعيتى عندى فى الحق سواء » .

---

(١) انظر ص ٤٤٤ من الجزء الثالث .

(٢) وفى رواية العقد : « من علامة الشريف أن يظلم . . . » .

(٣) الغريم : الدائن .

(٤) أى جائع ، من الطوى : وهو الجوع ، وفى رواية العقد : « وغريمك خاو » .

وإلى طاهر[1] صاحب خراسان :

« اِحْمَد ، أبا الطيب ، إذا أحلَّك خليفة مَحَلَّ نفسه من نفسه ، فما لكَ موضعٌ تَسْمُو إليه نفسُك إلا وأنت فوقه عنده » .

وفى كتاب بشر بن داود[2] :

« هذا أمانٌ عاقدتُ الله فى مناجاتِى إياه » .

وفى كتاب قُثَم بن جعفر فى فَدَك حين أمره بردِّها[3] :

« قد أرضيتَ خليفةَ الله فى فَدَك ، كما أرضى الله خليفته فيها » .

وفى قصة متظلم من محمد بن الفضل الطُّوسى :

« قد احتملْنا بَذاءك[4] وشَكاسَةَ خُلُقك ، فأمّا ظُلْمُك للرَّعية فإنا لا نحتمله » .

ووقع إلى بعض عماله :

« طالِعْ كلَّ ناحية من نواحيك ، وقاصِيَةٍ من أقاصيك ، بما فيه استصلاحُها » .

وكتب إليه إبراهيم بن المهدى فى كلام له : « إن غَفَرتَ فبِفَضْلك ، وإن أخذتَ فبِحقِّك » فوقع فى كتابه :

« القُدرةُ تُذْهِب الحَفيظة[5] ، والنَّدَم جزء من التوبة ، وبينهما عفوُ الله » .

ووقَّع فى رُقعة مَوْلًى طلب كِسْوة :

« لو أردتَ الكسوة ، لَزِمْتَ الخِدْمة ، ولكنك آثرتَ الرُّقاد ، فخطَّك الرؤيا » .

---

(١) هو طاهر بن الحسين ، وكنيته أبو الطيب .

(٢) انظر تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٨١ .

(٣) انظر ص ٤٢٦ من الجزء الثالث وفى الأصل « إبراهيم بن جعفر » وصوابه « قثم بن جعفر » .

(٤) البذاء والبذاءة : السفه والفحش فى المنطق ، وقد بذؤ ويثلث فهو بذىء ، وشكس كـكرم فهو شكس كصعب وكتف ورجل (بفتح فضم) أى صعب الخلق .

(٥) الحفيظة : الغضب ، ويروى أن قول ابن المهدى ورد المأمون عليه كان مشافهة لا مكاتبة — انظر جمهرة خطب العرب ٣ : ١٢٦ .

ووقع في يوم عاشوراء لبعض أصحابه — وقد وافته الأموالُ — :

« يُؤْمَر له بخمسمائة ألفٍ لطول هِمّته ، ولثُمامة بن أشْرَس بثلثمائة ألف لتركه مالا يَعنيه ولأبي محمد اليَزيدي يؤمر له بخمسمائة ألف لِكِبَره ، وللمُعَلَّى بخمسمائة ألف لصحيح سُنّته[1] ، ولإسحق بن إبراهيم بخمسمائة ألف لصِدْق لهجته ، وللعباس بخمسمائة ألف لفصاحة منطقه ، ولأحمد[2] بن أبي خالد بألف ألف لمخالفته شهوتَه ، ولإبراهيم ابن بُوَيه كذلك لسرعة دَمْعته ، وللرَيِسيِّ بثلثمائة ألف لإسباغ وضوئه[3] ، ولعبد الله بن بشر بمثلها لحسن وجهه » .

ووقع إلى الواقديّ وقد كتب يذكُر دَيْنا عليه ويستمنح :

« فيك خَصْلتان : سَخاء وحياء أمّا السخاءُ فهو الذى أطلق يدك فيما مَلَكْتَ ، وأما الحياء فهو الذى حَمَلك على أن ذَكرتَ بعض دَيْنك دُونَ كلّه ، وقد أمرتُ لك بضِعف ما كتبتَ ، فزِدْ فى بَسْطِ يدك ، فإن خزائن الله مفتوحة ، ويَدَه بالخير مبسوطة » .

ووقع إلى عامل شكاه أهل عمله :

« إن آثرتَ العدلَ حصَلْتَ على السلامة ، فأنصِفْ رعيتك من هذه الظُّلامَة » .

ووقع إلى نصر بن سيّار[4] :

---

(١) فى الأصل « سنه » وأراه محرفا .

(٢) أحد وزراء المأمون — انظر خبره فى الفخرى ص ٢٠٥ .

(٣) أسبغ الوضوء : أبلغه مواضعه ووفى كل عضو حقه .

(٤) كذا جاء فى خاص الخاص ، وهو خطأ ، فإن نصر بن سيار مات فى ساوة بالقرب من همذان سنة ١٣١ — انظر وفيات الأعيان ١ : ٢٨٢ فى خلال ترجمة أبى مسلم ، وتاريخ الطبرى ٩ : ١١٢ — وقد قدمنا لك فى ص ٢٨٢ من الجزء الثالث أن رافع بن ليث بن نصر بن سيار خرج على الرشيد بسمرقند وخلعه سنة ١٩٠ ، فالظاهر أن الذى كتب إليه المأمون هذا التوقيع هو ابن رافع هذا .

« يا أبا رافع ، إِنِّى رَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا[1] » .

ورَفع إليه أهل السَّواد قصة فى إتيان الجراد على غَلّاتهم ، فوقع فيها :

« نحن أولَى بضِيافة الجراد ، من أهل السواد ، فلْيُحَطّ عنهم نصفُ الخَرَاج » .

وكتب إليه عبد الله بن طاهر يشكو إليه بُعْده عن حَضْرته ، ويسأله الإذن له فى الإلمام[2] بها ، فوقع فى كتابه :

« قُرْبك يا أبا العباس إلىّ حبيبٌ ، وأنت من قلبى حيثُ كنت قريبٌ ، وإنما بَعُدتْ دارك ، نظرًا بك ، ورغبةً إليك ، مع قول الشاعر :

« رأيتُ دُنُوَّ الدار ليس بنافع إذا كان ما بين القلوب بعيدُ »

ولما مات عمرو بن مَسْعَدة رُفِعت إلى المأمون رُقعة أنه خلَّف ثمانين ألفَ ألفِ درهم ، فوقّع فى ظهرها :

« هذا قليل لمن اتصل بنا ، وطالت خدمتُه لنا ، فبارك الله لولده فيما خَلَّف ، وأحسن لهم النظرَ فيما تَرَكَ » .

الواثق

وكتب محمد بن حَمَّاد يعرّض فى حاجة له ببيتى شعر إلى الواثق يقول :

جذبتُ دواعى النَّفْس عن طلب المُنَى وقلتُ لها كُفِّى عن الطلب المُزْرِى

فإن أمير المؤمنين بكفِّه مدارُ رحًى بالرزق دائبة تجرى

فوقع تحتها : « جذبُك نفسَك عن امتهانها بالمسألة دعانى إلى صَونك بسَعَة فضلى عليك ، فخذ ما طلبتَ هَنِيا » .

---

(١) اقتبسه من الآية الكريمة : « إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا » .

(٢) ألم به : نزل .

أبو مسلم الخراسانى

ووقع أبو مسلم الخراسانى فى كتاب سليمان[1] بن كُثَيِّر الخُزَاعىّ :

« لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ » .

وإلى أبى العباس فى يزيد بن عمر بن هُبَيرة :

« قَلَّ طريقٌ سَهْلٌ تُلْقَى فيه الحجارةُ إلا عاد وَعْرا ، والله لايَصْلُحُ طريق فيه ابنُ هبيرة أبدا[2] » .

وإلى محمد بن صُول — وكتب إليه بسلامة أطرافه — :

« وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ »

وإلى عامله بِبَلْخ : « لاتؤخرْ عمل يوم لغد » .

وإلى أبى سَلَمة الخَلَّال حين أنكر نيته :

« وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا آمَنَّا ، وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ » .

عمرو بن عبيد

وكتب أبو جعفر المنصور إلى عمرو[3] بن عُبَيد .

« أبا عثمان ، أعِنّى بأصحابك، فإنهم أهل العدل،وأصحاب الصدق ، والمُؤْثِرُونَ له »

فوقع فى كتابه : « ارفع عَلَمَ الحق يَتْبَعْكَ أهلُه » .

---

(١) أحد دعاة العباسيين — انظر الجزء الثانى وبعد أن تم الأمر للسفاح اتهم أبو مسلم سليمان بن كثير فقتله — انظر تاريخ الطبرى ٩ : ١٤٢ .

(٢) انظر ص ٣ من الجزء الثالث .

(٣) هو أحد أئمة المعتزلة ، وكانت أخته زوجة واصل بن عطاء ، توفى سنة ١٤٤ ، انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١ : ٣٨٤ والمنية والأمل ص ٢٢ .

أبو عبيد الله

وكتب إلى أبى عُبَيْدِ الله كاتب المهدى رجل يعتذر ولا يُحْسِن ، فوقع في كتابه :

« ما رأيتُ عُذْرا أشبهَ باستئنافِ ذنبٍ من هذا » .

الفيض بن أبى صالح

ووقع الفَيْض[١] بن أبى صالح فى رُقعة معتذر تائبٍ :

« التوبة للمُذْنِب كالدواء للمريض ، فإن نَصَحَت[٢] توبتُه ، أتمَّ الله شفاءهُ ، وإن تكن الأخرى أدام الله داءه » .

يحيى بن خالد البرمكى

ووقع يحيى بن خالد البَرْمكى فى جواب رُقعةٍ لابنه الفضل « ما أهونَ التدبيرَ بالوصف » .

وفى رقعة متظلِّمٍ ليَعْرِض التوقيع على من شكاه : « أَنصِفْ مَن وَلِيتَ أَمْرَه ، وإلّا أنْصَفَه منك مَن يَلِى أَمْرَك[٣] » .

وإلى رجل استبطأه واستزاره : « أَجْنَحُ إليك بغالِب الفضل ، وأعتَذِر إليك بصادق النيَّة » .

---

(١) وزر للمهدى ، وتوفى سنة ١٧٣ ـ انظر ترجمته فى الفخرى ص ١٦٩ .
(٢) أى خلصت .
(٣) ويعزى هذا التوقيع إلى ابنه جعفر .

جعفر بن يحيى البرمكى

ووقّع جعفر بن يحيى البرمكى فى قصة محبوس التمس الإطلاقَ : « لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَاب »[٤] .

ووقّع فى مثله : « العدلُ أوقَعَه ، والتوبة تُطْلِقه » .

وفى قصة مُتَنَصِّح[١] : « بعضُ الصدق قبيح » .

وأ كثرَ الناسُ شِكِيَّةَ عامل فوقع إليه فى قصتهم :

« يا هذا ، قد كَثُرَ شاكُوكَ ، وقلَّ شاكروكَ ، فإِمَّا اعتدلتَ ، وإما اعتَزَلْتَ »[٢] .

وفى قصة رجل شكا بعض خَدَمِه :

« خذ بأُذْنِه ورأسه ، فهو مَالُك »

وإلى عامل فارس فى رَجل كتب إليه بالوَصاة :

« كن له كأبيه ولو كان مكانك »

وإلى عامل مصر فى رجل من بِطانته يوصيه :

« إنه رَغِب إلى شِعْبِك[٣] ، فارغب فى اصطناعه »

وفى قصة متظلم من بعض عماله : « إنى ظلمتُك دونَه » .

وفى قصة محبوس : « الجناية حبَسَتْه ، والتوبةُ تُطْلِقِه » .

---

(١) وفى خاص الخاص أن هذا التوقيع لأبيه يحيى بن خالد .

(٢) تنصح : تشبه بالناصح .

(٣) وفى رواية الكامل للمبرد : « وقل حامدوك ، فإما عدلت . . . » وفى نهاية الأرب : « وكتب محمد إلى يحيى بن هرمة — وكان عامله على أصفهان — وقد تظلم منه أهلها : « يايحيى ... » ولا ندرى من محمد المذكور ، إذ لم يرد بعده مايبينه » وجاء فى شرح نهاية الأرب عن يحيى بن هرمة : (كذا فى الأصل ، ولم نقف على هذا الإسم فيمن تولى عمل أصفهان ، ولعل صوابه « هرثمة ») .

(٤) الشعب بالكسر : ما انفرج بين جبلين ، يعنى به وادى النيل .

وإلى قوم : « عينُ الخليفة تَـكْلَؤُكم(١) ، ونَظَرُه يَعُمُّـكم » .

وفى رقعة صَرُورةٍ استأذنه فى الحج : « من سافَرَ إلى الله أَنْجَحَ »(٢)

وفى قصة رجل شكا عُزْبة(٣) : « الصوم لك وِجاء »(٤).

وفى رقعة رجل سأل ولاية : « لا أُوَلِّى بعضَ الظالمين بعضا » .

وفى قصة رجل سأل أن يُقْفِلَ(٥) ابنَه ، فقد طالت غَيْبَتُه عنه :

« غيبةُ يوسف صلى الله عليه وسلم كانت أطول » .

وفى قصة رجل تظلم من أحد عماله : « إنَّ(٦) لِمثله حتى يُنصِفَك » .

وفى قصة قوم شَـكوا سُوء جِوار بعضِ قرابته : « يَرْحَل عنكم » .

وفى قصة مستمنِح كان قد وصَلَه مِراراً :

« دَعِ الضَّرْعَ يَدِرُّ لغيرك كما درَّ لك »(٧)

وإلى الفضل بن الربيع ، وجاء منه كتاب غَمَّه وأكْرَبَه :

« كثرة مُلاحاة(٨) الرجال ، ربَّما أراقت الدماء »

وإلى منصور بن زياد فى أمر عاتبه فيه : « لم نَزْرَعْك لتَحصُدَك » .

وإلى بعض عماله : « اجعل وسيلتَك إلينا ما يَزيدك عندنا » .

وكتب إليه رجل يستبطئه ، فوقع فى ظهر كتابه :

---

(١) أى تحرسكم .

(٢) أنجح : صار ذا نجح .

(٣) العزبة : العزوبة .

(٤) أخذه من قوله صلى الله عليه وسلم : « يامعشر الشباب من استطاع الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر ، وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » والباءة النكاح ، ووجأ التيس وجئا ووجاء : إذا دق عروق خصيته بين حجرين من غير أن يخرجهما ، أى أن الصوم يقطع الشهوة للنكاح كما يقطعها الوجاء ، إذ أن الموجوء لايضرب .

(٥) أقفل الجند : ردهم من الغزو إلى وطنهم .

(٦) أى بث شكواك وتوجع ، أمر من أن يئن : أى تأوه من الوجع .

(٧) وفى خاص الخاص أن هذا التوقيع لأبيه يحيى .

(٨) الملاحاة : المنازعة ، وفى العقد « ملاحاة الدما » وأراه محرفا .

« أحتجُّ عليك بغالِب القضاء ، وأعتذِرُ إليك بصادق النِّيّة »[١] .

وإلى بعض نُدمائه : لا تُبعِد مَن ضَمَّك » .

ووقّع إلى متنصِّل من ذنب : « حُكْمُ الفَلَتَاتِ خِلافُ حكم الإصرار » .

وكُتب إليه أنّ صاحب الطريق قد اشتطّ فيما يطلب من الأموال فوقّع : « هذا رجل منقطِعٌ عن السلطان ، وبين ذُؤْبانِ[٢] العرب ، بحيثُ العَدَدُ والعُدَّة ، والقلوبُ القاسيةُ ، والأنوفُ الحمِيَّةُ ، فَلْيُمْدَدْ من المال بما يَستصلِحُ به مَنْ معه ، لِيَدْفَعَ به عدوَّه ، فإن نفقات الحروب يُستَظْهَرُ لها ، ولا يُستَظهَرُ عليها » .

ووقّع فى رقعة معتذِرٍ من ذَنْب :

« قد تقدَّمَتْ طاعتُك ، وسبقَتْ[٣] نصيحتُك ، فإن بَدَرَتْ منك هفوةٌ فلن تغلِبَ سيئةٌ حَسَنتين » .

ووقّع — وقد قرأ كتابا فاستحسن خطّه — :

« الخطُّ خيطُ الحِكْمَة ، يُنْظَم فيه منثورُها ، ويفصَّلُ فيه شُذُورُها[٤] » .

ووقّع : « الخَراج عمودُ المُلْك ، وما استغْزِرَ[٥] بمِثل العدل ، وما استُنْزِرَ بمثل الجَور » .

وكتب عَمْرُو بن مَسْعَدة إلى ضَمْرَة الحَرُورِىِّ[٦] كتابا ، فنظر فيه جعفر بن يحيى فوقع فى ظَهره :

---

(١) انظر ص ٣٨٣ .

(٢) ذؤبان العرب : لصوصهم وصعاليكهم .

(٣) وفى زهر الآداب « وظهرت » .

(٤) الشذر (بالفتح) : قطع من الذهب ، خرز يفصل بها النظم ، أو هو اللؤلؤ الصغار ، واحدته شذرة .

(٥) استغزر : كثر ، واستنزر : قلل .

(٦) كان الخوارج يسمون « الحرورية » نسبة إلى حروراء ، وهى قرية بظاهر الكوفة نزلوها حين اعتزلوا عليا بعد رجوعه من صفين .

« إذا كان الإكثار أبلغَ كان الإيجاز مقصِّرا ، وإذا كان الإيجاز كافيا كان الإكثار عِيًّا » .

ويروى أن جعفر بن يحيى قال لكُتّابه : « إن قَدِرتم أن تجعلوا كُتُبكم كلها توقيعاتٍ فافعلوا[1] » .

وقال ابن خلدون فى مقدمته[2] : « وقد كان جعفر بن يحيى يوقِّع فى القصص بين يدى الرشيد ، ويرمى بالقصة إلى صاحبها ، فكانت توقيعاته يتنافس البلغاء فى تحصيلها، للوقوف فيها على أساليب البلاغة وفنونها ، حتى قيل إنها كانت تباع كل قِصة منها بدينار » .

وقال ابن خلِّكان فى وَفَيات الأعيان[3] : « ويقال إن جعفر بن يحيى وقَّع ليلةً بحَضْرَة هرون الرشيد زيادةً على ألف توقيع ، ولم يخرج فى شىء منها عن مُوجِب الفِقْه » .

وقال الجاحظ فى البيان والتبيين[4] : « وخبرنى جَعفر بن سعيد رضيع أيوب بن جعفر وحاجبه قال : ذكرت لعمرو بن مسعدة توقيعات جعفر بن يحيى قال : قد قرأت لأم جعفر توقيعات فى حواشى الكتب وأسافلها ، فوجَدتها أجود اختصارا ، وأجمع للمعانى » .

الفضل بن يحيى

ووقَّع أخوه الفضل : « بئس الزادُ إلى المَعَاد ، التعدِّى على العباد » .

---

(١) انظر الكامل للمبرد ١ : ١٤٤ وأدب الكتاب ص ١٣٤ وص ٢٢٨ والصناعتين ص١٦٦ وجاء فى الصناعتين أيضا (ص١٨١) إنه مع إعجابه بالإيجاز قال : « متى كان الإيجاز أبلغ كان الإكثار عيا ، ومتى كانت الكتابة فى موضع الإكثار كان الإيجاز تقصيرا » .

(٢) انظر باب ديوان الرسائل والكتابة ص ٢٤٠ .

(٣) انظر ج ١ : ص ١٠١ .

(٤) انظر ج ١ : ص ٦١ .

الفضل بن سهل

وكتب الفضل بن سَهْل إلى أخيه الحسن :

« أَحمدِ اللهَ يا أخى ، فما يَبيتُ خليفةُ اللهِ إلا على ذِكْرِكَ » .

وإلى طاهر بن الحسين : « تخيَّرْ ما اصطنعْتَ » .

وإليه أيضا : « لِشرٍّ ما سَموْتَ » .

وإلى هَرْثمة - وأشار عليه برأيٍ - « لا يُحَلُّ ماعَقَدْتَ » .

وفى قصة متظلِّم : « كَفَى باللهِ للمظلوم ناصِرًا » .

وفى قصة مَنْ نَقَبَ بيتَ المال : « يُدْرَأُ[1] عنه الحَدُّ إن كان له فيه سَهْم » .

ووقَّع إلى حاجبه : « تَمَهَّلْ وَتَسَهَّلْ » .

وإلى صاحب الشُّرْطة : « تَرَفَّقْ تُوَفَّقْ »

وفى قصة متظلِّم : « طِبْ نَفْساً ، فإن اللهَ مع المظلوم » .

وإلى رجل شكا غَلَبَة الدَّين :

« قد أمَرْنا لك بثلاثين ألفا ، وسنَشْفَعُها بمِثلها ، ليرغَبَ المتصِحون »[2] .

وإلى رجل شكا إليه الدَّين :

« الدَّينُ سوء يَهِيضُ[3] الأعناق ، وقد أمرنا بقضائه » .

وفى قِصة قوم قطعوا الطريق :

« إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ » .

---

(١) يدفع . (٢) اتصح : قبل النصح .

(٣) هاض العظم يهيضه : كسره بعد الجبور .

وفى امرئ قاتلٍ شهِد عليه العُدُولُ فشُفِعَ فيه : « كتابُ الله أحقُّ أن يُتَّبَعَ » .

وفى قصة رجل شُهِد عليه أنه شتم أبا بكر وعمر : « يُضْرَب دون الحدِّ وَيُشْهَر[١] ضربُه » .

وفى رقعة ساعٍ :

« نحن نَرَى قَبُولَ السِّعاية شراً منها ، لأن السِّعاية دلالةٌ ، والقبولَ إجازة ، وليس مَن دلَّ على شىء وأخبر به كمن قَبِلَهُ وَأَجازَهُ ، فاتقوا الساعِيَ فإنه لو كان فى سِعايته صادقاً ، لـكان فى صدقه آثماً ، إذ لم يحفظ الحُرْمةَ ، ويستُر العَوْرة ، والشىء يُقْرَن مع جنسه » .

ووقَّع إلى تميم بن خزيمة[٢] :

« الأمور بتمامها ، والأعمالُ بخواتمها ، والصنائعُ باستدامتها ، وإلى الغاية يجرى الجوادُ ، فهناك كشفَتِ الخبرة قِناعَ الشكِّ ، فحُمِد السابق ، وذُمَّ الساقط » .

الحسن بن سهل

ووقع الحسن بن سهل فى قصة متظلِّم :

« يُنظر فيما رَفع ، فإن الحق متَّبَعٌ ، وإلاَّ فشأنُ السَّليم دواء السَّقيم » .

وفى قصة قوم تظلَّموا من واليهم :

« الحقُّ أولَى بنا ، والعدلُ بُغيتُنا ، وإن صَحَّ ما ادَّعيتم عليه صَرَفناه وعاقبناه » .

وفى قصة امرأة حُبِس زوجها : « الحقُّ يحبِسه والإنصافُ يُطلِقه » .

---

(١) شهره كنعه ، وشهره . أظهره فى شنعة .

(٢) وفى كتاب بغداد لابن طيفور والعقد الفريد : ووقع طاهر بن الحسين إلى خزيمة بن خازم : « الأعمال بخواتيمها ، والصنيعة باستدامتها ، وإلى الغاية ماجرى الجواد ، فحمد السابق ، وذم الساقط » .

وكتب إلى رجل من الشعراء يقول له :

رأيتُ فى النوم أنى راكبٌ فَرَساً   ولى وَصِيفٌ وفى كفى دنانيرُ[١]
فقال قوم لهم فَهْمٌ ومعرفةٌ :   رأيتَ خيرا وللأحلامِ تعبيرُ
رُؤْياكَ فَسِّرْ غداً عند الأمير تجدْ   فى الحُلْمِ دُرًّا وفى النوم التباشيرُ

فوقع فى أسفل كتابه : « أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ[٢] وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ، والحق له ما التمسه[٣] » .

وكتب إليه رجل يتوسل بسالف إحسانه ، فوقَّع :

« مرحباً بمن توسَّلَ إلينا بنا » وأمر له بصِلَة .

طاهر بن الحسين

ووقع طاهر بن الحسين فى رقعة مُتنصِّح : « سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ » .

وفى رقعة مستبطئٍ إياه فى الجواب : « تَرْكُ الجواب جوابٌ » .

ورَفَع إليه مستمنِحٌ وكَذَب فى عدد عِياله ـ وكان طاهر يعرِفهم ـ فوقَّع :
« لا جَوَابَ لكذَّاب » ثم عاود وصَدَق فى عددهم، فوقَّع : « الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ » وأمر له بصلة .

ووقَّع فى كتاب رجل تظلَّمَ من أصحاب نصر بن شَبَث[٤] :

---

(١) الوصيف : الخادم والخادمة .

(٢) أضغاث أحلام : رؤيا لايصح تأويلها لاختلاطها .

(٣) وفى رواية أخرى لصاحب العقد : « عن البطين الشاعر قال : قدمت على على بن يحيى الأرمنى ، فكتبت إليه . . . » والبيت الثالث :

رؤياك فسر غدا عند الأمير تجد   تعبير ذاك وفى الفال التباشير
فجئت مستبشرا مستشعرا فرحا   وعند مثلك لى بالفعل تبشير

(٤) فى العقد « نصر بن شبيب » وهو تحريف ، وقد تقدم .

« طلبتَ الحقَّ فى دار الباطل » .

ووقّع فى قصة قَهْرَمان(١) له شكا سوءَ معاملة :

« اسْمَحْ يُسْمَحْ لك » .

ووقّع فى قصة رجل طَلَب قَبَالَةَ (٢) بعض عماله :

« القَبَالَةُ مِفتاح الفساد ، ولو كانت صلاحا ما كنتَ لها مَوْضِعا » .

وإلى السِّنْدِيّ بن شَاهَك — وجاءه منه كتاب يسأله الأمانَ — :

« عِشْ ما لم أَرَكَ » .

وإلى العباس بن موسى الهادى — واستبطأه فى خراج الكوفة — :

وليس أخو الحاجاتِ مَن باتَ نائما ولكنْ أخوها مَن يَبِيتُ على وَجَلْ

ووقّع فى قصة رجل شكا أَنَّ بعض قواده نزل فى دار له وفيها حُرَمُه(٣) :

« إذا رأيتَه فى ناحيةِ دارِك فقد حَلَّ لك قتلُه » .

ووقّع فى قصة رجل ذَكَرَ أَنَّ أخاه قُتِل فى طاعة المأمون :

« سالكُ طاعةِ اللهِ : واللهُ وَلِيُّ جزائه » .

ووقّع فى قصة رجل ذكر أنه قتل فى يوم واحدٍ عشرةً من أصحاب المخلوع « الأمين » .

« لو كنتَ كما وصفتَ لم يخْفَ علينا ما ذكرتَ » .

ووقع فى قصة رجل ذكر أن منزله أُحْرِق بالنار :

« أخطَأَكَ مَنْ قَصَدَكَ » .

ودخل على طاهرٍ كاتبُ العباس بن موسى — وكان ركيكا — فقال : أُخَيُّك

---

(١) هو كالخازن والوكيل الحافظ لما تحت يده ، والقائم بأمور الرجل بلغة الفرس ، معرب .
(٢) القبالة : الكفالة ، قبل به كنصر وسمع وضرب فهو قبيل : أى ضامن وكفيل .
(٣) حرم الرجل : نساؤه وما يحمى .

ابنُ موسى يُقرِئك السلام ، قال : وما تَلِي مِن أمرِه ؟ قال : أنا كاتبه الذى أُطعِمُه الخبزَ ، فوقّع :

« يُعْزَل العباسُ ، بسوء اختياره للكِفَاءِ[1] » .

وفى قصة محبوس : « يُخْرَج ولا يُحْوَج » .

ووقّع فى قصة آخر : « يُطْلَق ويُعْتَق » .

ووقّع فى قصة مستمنِح : « يُبَلُّ حالُه »[2] .

ووقّع فى رقعة مستوصِل : « يُقامُ أَوَدُه[3] » .

ووقّع فى قصة مستجير : « أنا جارُه » .

ووقّع فى قصة مستأمَن : « يؤمَّن سِرْبُه[4] » .

ووقّع فى قصة قاتِل : « لا يؤخَّر قتلُه » .

ووقّع فى قصة شاعر : « يعجَّلُ ثوابُه » .

ووقّع فى قصة لِصٍّ : « ينفَّذُ حُكْمُ الله فيه » .

ووقّع فى قصة ساعٍ : « لا يُلتفَتُ إليه » .

ووقّع فى قصة قوم شَغَبوا على عاملهم :

« الشَّغَب للفرقة سبب ، فلتُمْحَ أسماؤهم ، ولتُحْسَن آدابُهم ، ولتُقْطَعْ بالنفيِ آثارُهم » .

---

(١) الكفاء والأكفاء جمع كفء ، وربما كان الأصل « للكفاة » بضم الكاف ، جمع كاف

(٢) بله كنصره : نداه ، وبل رحمه : وصلها ، استعاروا البل لمعنى الوصل كما استعاروا اليبس لمعنى القطيعة ، وفى الحديث « بلوا أرحامكم ولو بالسلام » أى ندوها بالصلة ، وربما كان الأصل « يبلى حاله » من بلاه يبلوه إذا اختبره .

(٣) الأود : الاعوجاج .

(٤) السرب : النفس والقلب .

عبد الله بن طاهر

وأدَّب عبد الله بن طاهر بعض قواده فمات ، فرفع إليه أن الناس يقولون : إنه قتله ، فوقع : « إنما أَدَّبْنا فوافق الأدبُ الأَجَلَ » .

وأهدى نصر بن شَبَث[(١)] إليه هدايا كثيرة ، فردَّها ، فزاد فيها وبعثها ليلاً مع رُقعة في معناها ، فردَّها ووقَّع في الرقعة :

« لو قبِلتُ الهدية ليلا لقَبِلتها نهارا ، وما آتانِيَ اللهُ خَيْرٌ مِمَّا آتاكُمْ ، بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ[(٢)] » .

ووقع إلى عمَّال له شكاهم الرعية :

« قد قدَّمتُ إليكم الإعذارَ ، واحتججتُ إليكم بالإنذار ، وليت العتابَ بالغاً ما أردتُ ، ولقد هَمَمْتُ بأن أجعلَ معاقدَتي لكم معاقَبة ، فانتبهوا من سِنَتكم[(٣)] ، وانظرُوا لأنفسكم ، وأحسِنُوا بالأَكَرَة[(٤)] ، فإن الله تعالى جَعَلَ أيديَهم لنا طعاما ، وألسنتهم سلاما ، وظُلْمهم حَرَاما ، وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ؟ » .

وكتب إليه بعض قواده يسأله حَطَّ خراجه والزيادةَ في أرزاقه ، فوقع في كتابه :

« أفي النوم أبصرتَ ذا كلَّه ؟ فخيراً رأيتَ ، وخيراً يكون ! »

---

(١) في نسخة الخاص « نصر بن شبيب » أيضا ، وهو تحريف .

(٢) وفي رواية أخرى أن تلك القصة كانت لعبد الله بن طاهر مع عبيد الله بن السري بمصر — انظر ما قدمناه في ص ٤٢٢ من الجزء الثالث .

(٣) السنة : النعاس .

(٤) الأكار : الحراث ، وجمعه أكرة ، كأنه جمع آكر في التقدير .

يوسف بن القاسم

ووقع يوسف[1] بن القاسم - والد أحمد بن يوسف - إلى عامل :

« إن كنتَ مُنصِفا من نفسك فلِمَ تظلمُ لغيرك ؟ وإن ظلمتَ لغيرك فكيف تنتصف من نفسك ؟ » .

ووقع فى رقعة رجل استماحه :

« قد أمرْنا لك بشىء هو دونَ قدرك على الاجتهاد ، وفوقَ كفايتك مع الاقتصاد[2] » .

ولما ولَّى الرشيد على بن عيسى بن ماهان خراسانَ ، سأل الرشيدَ أشياءَ ثقُلَت عليه ، فقال ليوسف ، عرِّفه مقدارَ ما فعلتُ به ، فإنى أظنّه جَهِلَه ، فوقّع إليه :

« قد كفيناك بما ولَّيناك ، وخراسانُ تَسَعك ما وَسِعَكَ عزْمٌ » .

ووقّع إلى بعض ولده :

« إذا لم يكن معروفك إلّا عند من تعرفُ ، لم يَجُزْ معروفُك رِواق بيتك » .

ووقّع : « مِن جَور الدنيا أنها لاتُعطِى أحدا مايستحق ، إمّا أن تَزِيده وإما أن تَنقُصَه » .

ووقع إلى بعض ولده :

« إياك وصحبةَ فلان ، وإن كان قريبَ النسب منك ، فإنه بعيد الشَّبَه بك ، فقد يَفسُد على الإنسان بعضُ جَسَده فيقطعه وهو أولَى به وأقرب » .

ووقّع : إنّ إسَاءة المحسن أن يكُفَّ عنك إحسانَه ، وَإحْسانَ المسىء أن يكُفَّ عنك إساءته ، وَابعُدَ ما بينهما ! » .

---

(١) روى الصولى فى كتاب الأوراق ١ : ١٥٦ أن يوسف بن القاسم كان يخلف يحيى بن خالد على التوقيع فى داره ودار أمير المؤمنين .

(٢) ورد فى العقد الفريد أن الحسن بن سهل كتب هذا التوقيع فى قصة رائد ، وفيه «فى الاستحقاق» محل قوله « على الاجتهاد » .

ووقع إلى رجل كذبه فى شىء :

« لو صُوِّر الصدق لكان أسَدًا ، ولو صوِّر الكذب لكان ثعلبا ، وما صاحباهما جميدَيْن من هاتين الصورتين » .

أحمد بن يوسف

ووقع أحمد بن يوسف إلى عامل ظالم :

« الحقُّ واضح لِمَن طَلَبه ، تَهْديه مَحَجَّتُه ، ولا تُخَافُ عَثْرَتُه ، وتُؤْمَن فى السِّرِّ مَغَبَّتُه ، فلا تنتقِلَنَّ منه ، ولا تَعدِلَنَّ عنه ، فقد بالغتُ فى مناصحتك ، فلا تُحْوِجْنى إلى معاودتك ، فليس بعد التقدِمَة إليك ، إلا سَطْوةُ الإنكارعليك » .

* * *

ووقع فى كتاب رجل يحثه على استتمام صنائعه عنده :

« مستَتِمُّ الصَّنيعة مَن صابرَها ، فعدَّل زَيغَها ، وأقام أَوَدَها ، صيانة لمعروفه ، ونُصْرَةً لرأيه ، فإنَّ أول المعروف مستخفَ ، وآخره مستثقَل ، تكاد أوائله تكون لِلهوَى ، وأواخِرُه تكون للرأى ، ولذلك قيل :[1] رَبُّ الصنيعةِ أشدُّ مِنَ ابتدائِها » .

* * *

ووقع فى عناية بإنسان إلى بعض العمال :

« أنا بفلان تامُّ العناية ، وله شديد الرعاية ، وكنت أحبُّ أن يكون ما أرعيتهُ طَرْفَك من أمره فى كتابى ، مستودَعاً سَمْعَك من خطابى ، فلا تَعدِلَنَّ بعنايتك إلى غيره ، ولا تَمْنَحَنَّ تفقُّدَك سواه ، حتى تُنيلَه إرادتَه ، وتتجاوز به أُمْنِيَّتَه ، إن شاء الله » .

* * *

---

(١) رب الصنيعة كنصر: تمها وزادها وأتمها وأصلحها، وفى زهر الآداب «تتميم الصنيعة ...» .

ووقع إلى رجل غَصَب رجلا على ضَيْعة وكان غائباً فاستغَلَّها سنين ، وقَدِم الرجلُ فطالبه فقال : الضيعةُ لى وفى يدى ، فوقع إليه أحمد بن يوسف :

« الحق لا تَخْلَقُ[1] جِدَّتُه ، وإن تطاولَتْ بالباطل مدتُه ، فإن أنطقتَ حُجتك بإفصاح ، وأزلتَ مُشْكِلَهَا بإيضاح ـ غيرَ « لى وفى يدى » فكثيراً ما أراها ذريعةَ الغاصبِ ، وحجةَ المغالبِ ـ وُفِّر حقك عليك ، وسِيقَ بلا كَدٍّ إليك ، وإن رَكَنْتَ من البيان إليها ، ووَقَفْتَ من الاحتجاج عليها ، كانت حُجَّتُه بالبينة أعلَى ، وكان بما يدَّعيه أولَى ، إن شاء الله » .

* * *

ومن توقيعاته :

« ما عند هذا فائدة ولا عائدة[2] ، ولا له عقل أصيل ، ولا فعل جميل »

* * *

ووقع إلى عامل قد أخَّرَ حَمْلَ مالٍ :

« قد استبطأكَ الإغفالُ ، وأبطَرَكَ الإهمالُ ، فما تُصْحِب قولَك فعلا ، ولا تُتْبِع وعدَك إنجازا ، وقد دافعتَ بمال نَجْمٍ[3] لَزِمَكَ حَمْلُه ، حتى وَجَب عليك مِثلُه ، فاحمل مالَ ثلاثةِ أنجُمٍ ، ليكون ما يتعجَّل منك أداءَ ما أخَّرَ عنك إن شاء الله » .

* * *

ووقع إلى رجل استماحه :

« ودِدْتُ لو ملكتُ بغيتَك ، لبلَّغتُك أمنيَّتَك ، ولكنى فى عمل قصدتُ فيه

---

(١) خلق الثوب كنصر وكرم وسمع : بلى .

(٢) العائد : المنفعة والمعروف .

(٣) النجم والقسط : الحصة ، وكانت العرب تؤقت بطلوع النجوم ، لأنهم ما كانوا يعرفون الحساب ، وإنما يحفظون أوقات السنة بالأنواء ، وكانوا يسمون الوقت الذى يحل فيه الأداء نجما تجوزا لأن الأداء لا يعرف إلا بالنجم ، ثم توسعوا حتى سموا ما يؤدى نجما لوقوعه فى الأصل فى الوقت الذى يطلع فيه النجم ، واشتقوا منه فقالوا : نجمت الدين تنجيما إذا جعلته نجوما .

اتخاذَ المحامد، وعَدَلتُ عن اقتناء الفوائد، نَخَسَ[١] نصيبي من الوَفْر، ووَفُرَ حظي من الشكر، وقد أمرتُ لك بما يجلُّ عنه قدرك، غيرَ مختارٍ له، بل مُضطرا إليه، فليكن منك عُذرٌ فيه، وشكرٌ عليه، إن شاء الله».

عمرو بن مسعدة

وقال عمرو بن مَسْعَدة: كنت أوقِّع بين يدى جعفر بن يحيى البرمكى، فرفع إليه غِلمانه ورقةً يستزيدونه فى رواتبهم، فرمى بها إلىّ، وقال: أجِبْ عنها، فكتبت: «قليلٌ دائم خير من كثير منقطع» فضرب بيده على ظهرى وقال: «أىُّ وزير فى جِلْدِك[٢]!».

محمد بن يزداد

ومن توقيعات محمد بن يزداد[٣]:

«أبوابُ الملوك مَعادِنُ الحاجات[٤]، ومَواطِن الطَّلِبَاتِ، وليس لاستنجاحها واستنجازِها كالصبر والملازمة، والمُغَاداة والمراوَحَة».

ومنها: «ما استحالت لى فيك نيَّةٌ، ولا تغيَّرتْ عقيدةٌ، فكيف أُخْلِفُ وعدَك، وأُحُلُّ عَقْدَك، وأَنقُضُ عهدك، وأنسى رِفْدك؟[٥]».

---

(١) فى الأصل «نخس» ورأى أنه محرف وصوابه فخس وهو مايقتضيه المقام، والوفر: الغنى.

(٢) وفى خاص الخاص: «ورفع إلى يحيى بن خالد قوم من حشمه يستزيدونه فى أرزاقهم، فأمر أنس بن أبى شيخ بالتوقيع فى قصتهم، فوقع بين يديه «قليل دائم خير من كثير منقطع» فأعجب به يحيى فقال: قد فاحت منك رائحة الوزارة».

(٣) هو أبو عبد الله محمد بن يزداد بن سويد آخر وزراء المأمون — انظر خبره فى الفخرى ص ٢٠٨.

(٤) قدمنا لك فى ص ٣٦٤ من الجزء الثالث أن المأمون وقع فى كتاب لأحمد بن يوسف: «الخير متبع، وأبواب الملوك مظان لطالبي الحاجات...» وفيه روايتان أخريان، انظرهما هناك.

(٥) الرفد: العطاء والصلة.

عبد الله بن محمد بن يزداد

ووقع عبد الله بن محمد بن يزداد إلى بعض أصحابه :

« يا أبا العباس ، ليس عليك بأسٌ ، ما لم يكن منك بأسٌ » .

ووقع إلى عامل اغترَّ[1] بكفايته وزاد :

« يا هذا : أسْرَفتَ ، وما أنصفْتَ ، وأوجَفْتَ[2] حتى أعْجَفْتَ ، وأدْلَلْتَ حتى أمْلَلْتَ ، فاستصغِرْ ما فعلتَ تبلُغْ ما أمَّلْتَ » .

إبراهيم بن العباس

وورد كتاب بعض الكتاب إلى إبراهيم بن العباس بمدح رجل وذم آخر ، فوقَّع فى كتابه :

« إذا كان للمحسن من الجزاء ما يُقْنِعُه ، وللمُسىء من النَّكال ما يَقْمَعه[3] ، بَذَلَ المحسنُ الواجبَ على رغبةٍ ، وانقاد المسىء للحق رَهْبَةً » .

فوثب الناس يقبلون يده .

ووقع لرجل مَتَّ[4] إليه بحُرْمة :

« قد مَتَتَّ بحُرْمة مألوفة ، ووسيلة معروفة ، أقوم بواجبها ، وأرعاها من جميع جوانبها » .

---

(١) فى الأصل « خاص الخاص » « اعتذر » وأرى أنه محرف ، وأن صوابه « اغتر » أو « اعتز » أو « اعتد » .

(٢) وجف الفرس والبعير كوعد وجيفا : عدا ، وأوجفه : أعداه ، وعجفت الدابة كتعب : هزلت ، وعجفها كنصر وضرب وأعجفها : هزلها ، وأدل عليه وتدال : انبسط ووثق بمحبته فأفرط عليه .

(٣) قمعه كمنعه : قهره وذلله .

(٤) أى توسلت .

محمد بن عبد الله بن طاهر

ووقع محمد بن عبد الله بن طاهر إلى الكُتَّاب ، وقد ضاقت بهم الكواغِد[1] في أيام فتنة المستعين والمعتز .

« دقِّقوا الأقلام ، وأَوْجَزوا الكلام ، فإن القراطيس لا تُرام ، والسلام » .

واعتذر رجل إلى محمد بن عبد الله بن طاهر من شيء بلغه عنه ، فرأى خطه قبيحا فوقَّع في رقعته :

« أردْنا قبولَ عُذرك ، فاقتطَعَنا عنه ما قابَلَنا من قبيح خطك ، ولو كنتَ صادقا في اعتذارك ، لساعدَتْك حركةُ يدك ، أو ما علمتَ أن حسن الخط يناضِل عن صاحبه بوضوح الحجة ، ويمكِّن له دَرْك البُغْية ؟ » .

عبيد الله بن سليمان بن وهب

ورَفَع إلى عُبَيد الله بن وهب عامل من عماله : « إن في بَيْت النار كانُونا من آثار الأكاسرة ، وفيه أكثر من ألْفَي رطل فضةٍ ، وفي فضته توفيرٌ لبيت المال » فوقع :

« حِرْصُك على تَقْفِيـة آثار الأوائل ، يدلُّ على لؤم أصلك ، فبُعْدا وسُحْقاً[2] لك » .

ووقع في كتاب متَنَجِّزٍ إياه وعدا : « الشرطُ أمْلَكُ ، والوعدُ كأخْذٍ باليد ، والوفاء من سجايا الكرام » .

وفي كتاب مثله: ليس كل من أُنْسِيناه أهملناه، ولا من أخَّرناه تركناه، مع اقتطاع

---

(١) الكواغد جمع كاغد بالفتح : وهو القرطاس ، معرب .

(٢) السحق بالضم وبضمتين : البعد .

الشغل إيانا ، واقتسامه زمانَنا[1] » .

ووقع فى شأن عامل : « أنا قادر على إخراج هذه النُّعَرَة[2] من رأسه ، والوَحَرَةِ[3] من صدره ، والنَّخْوة[4] من نفسه » .

ووقع إلى ابن طولون : « اتق الله فى الأَرْصاد ، فإن الله بالمِرْصادِ » .

عبد الله بن المعتز

وكتب إلى عبد الله بن المعتز قَهْرَمانُه[5] ينسُب وكيله إلى الخيانة والسَّرقة ، ويستأمِره فى الِاستذلال به ، فوقَّع فى رقعته :

« أغنِ مَن وليَّتَه عن السَّرقة ، فليس بَكفيك مَن لم تَكْفِه » .

وكتب إليه بعض مواليه يذكر جِدَّه فى خدمته وتوقُّعه زيادة نظرٍ له ، فوقَّع :

« مَن نَصَحَ الخدمة نصحَتْه المجازاةُ » .

على بن عيسى

وكتب إلى على بن عيسى[6] بعض العمال فى ذكر أموال متخيَّرة ، وتفاصَحَ فى كتابه :

---

(١) انظر ماقدمناه فى ص ٢٨٣ .

(٢) النعرة بضم ففتح وكرقبة : الخيلاء والكبر ، يقال : إن فى رأسه نعرة : أى كبراً ، والأصل فيه أن الحمار إذا نعر (كفرح) ركب رأسه ، فيقال لكل من ركب رأسه : فيه نعرة ، وفى خاص الخاص « النغرة » وهو تصحيف .

(٣) الوحرة فى الأصل : وزغة تكون فى الصحارى أصغر من العظاءة (بكسر العين) وهى على شكل سام أبرص ، وقيل : ضرب من العظاء ، وهى صغيرة حمراء تعدو فى الجبابين ، لها ذنب دقيق تصمع به إذا عدت ، وهى أخبث العظاء ، لاتطأ طعاما ولا شرابا إلا سمته، ولا يأكله أحد إلا أخذه قىء، وربما هلك آكله ، والوحر بالتحريك أيضا ، غش الصدر وبلابله والغيظ والحقد ، قالوا : وأصل هذا من تلك الدويبة التى يقال لها الوحرة ، شبهوا العداوة ولزوقها بالصدر بالتزاق الوحرة بالأرض ، وفى خاص الخاص « والوغرة » وهو تحريف .

(٤) النخوة : الكبر والعظمة ، وفى زهر الآداب « والنحرة » وهو تحريف .

(٥) القهرمان : هو كالخازن والوكيل الحافظ لما تحت يده ، والقائم بأمور الرجل بلغة الفرس.

(٦) هو على بن عيسى بن الجراح ، ولى الوزارة للمقتدر مرارا ،وكان هو وعلى بن الفرات يتناوبان الوزارة ـ انظر خبره فى الفخرى ص ٢٤١ .

« دعني من تَشْدِيقك وتقْعِيرك ، وتفاصَحْ على نظيرك ، فخيرُ الكلام ماقَلَّ وَدلَّ ولم يُمِلَّ » .

وكتب إليه ابن الفُرات يستشهده على زُور فوقّع في رقعته :

« لا تلُمني على نُكُوصي عن الشهادة لك بالزُّور ، فإنه لا بقاءَ لاتّفاق على نِفاق ، ولا وفاءَ لذي مَيْن[1] واختلاق[2] ، وأحْرَى بمن تعدَّى الحق في موافقتك إذا رضيَ ، أن يتخطَّى إلى الباطل في مخالفتك إذا سخِطَ ، وبمن كَذَبَ لك ، أن يكذبَ عليك » .

(العقد الفريد ١ : ٨٣ ، ٢ : ١٦٥ ، ١٨٧ ـ ١٩١ وزهر الآداب ١ : ٢٣٠، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٣٤ و ٢ : ٤٣ و ٣ : ١٩٩ ، ٣٥٤ وخاص الخاص للثعالبي ص ٦٨ ـ ٧٢ ووفيات الأعيان ١ : ١٠٥ ، ٣٩٠ والكامل للمبرد ١ : ١٤٣ ونهاية الأرب ٧ : ٢٦١ ومقدمة ابن خلدون ص ٢٧٤ وعيون الأخبار م ٣ : ص ١٠٠ وتاريخ الطبري ٩ : ٣١٥ وكتاب الاوراق لأبي بكر الصولي ١ : ١٥٨ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ومعجم الأدباء ٦ : ٩٠ (طبع هندية) وأدب الكتاب ص ٥٣ وغرر الخصائص الواضحة ص ٣٥ ، ص ٢٩٥ وكتاب بغداد لابن طيفور ٦ : ١٢٧ ـ ١٢٩) .

---

(١) المين : الكذب .

(٢) في الأصل « واختلاف » وهو تصحيف .

استـــدراك

فاتنا أن نورد هذه الرسالة فى موضعها من الجزء الثالث، وها هى ذى:

رسالة الإمام مالك

فى

السنن والمواعظ والآداب

كتبها

إلى أمير المؤمنين

هارون الرشيد

ووزيره يحيى بن

خالد البرمكى

بسم الله الرحمن الرحيم

« الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد : فإنى كتبت إليك بكتاب لم آلُكَ فيه رُشْدا ، ولم أدَّخِرك فيه نُصحا ، تحميداً لله ، وأدبا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتدبَّرْه بعقلك ، وردِّدْ فيه بَصَرك ، وأَرْعِهِ سمعَك ، ثم اعقِلْه بقلبك ، وأَحضِرْه فهمَك ، ولا تُغيِبَنّ عنه ذهنك ، فإن فيه الفضلَ فى الدنيا ، وحسنَ ثوابِ الله تعالى فى الآخرة .

أَذكِرْ نفسَك غَمَراتِ الموت وكُرَبَه ، وماهو نازل بك منه ، وما أنت موقوف عليه بعد الموت ، من العَرْضِ على الله سبحانَه ، ثم الحساب ، ثم الخلودِ بعد الحساب ، وأعِدَّ لله عز وجل ما يسهِّل به عليك أهوال تلك المشاهد وكُرَبها ، فإنك لو رأيت أهل سُخْطِ الله تعالى ، وما صاروا إليه من ألوان العذاب ، وشدة نِقْمته عليهم ، وسمعتَ زَفيرهم فى النار وشهيقهم ، مع كُلُوحِ[1] وجوههم ، وطول غمهم وتقلُّبهم فى دَرَكاتها على وجوههم ، لا يَسْمَعون ولا يُبْصرون ، ويَدْعون بالويل والثُّبُور[2] — وأعظمُ من ذلك حسرةً إعراضُ الله تعالى عنهم ، وانقطاعُ رجائِهم ، وإجابتُه إياهم بعد طول الغم بقوله : « اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ » — لم يتعاظَمْك[3] شىء من الدنيا إن أردت النجاةَ من ذلك ، ولا أَمَّنَك من هوله ، ولو قدَّمتَ فى طلب النجاة منه جميعَ ما مَلَك أهلُ الدنيا ، كان فى معاينتك ذلك صغيرا ، ولو رأيتَ أهلَ طاعةِ الله تعالى ، وما صاروا إليه من كرم الله عز وجل ، ومنزلتَهم مع قُربهم من الله عز وجل ، ونَضْرةَ وجوههم ،

---

(١) كلح كمنع وكلوحا وكلاحا : تكشر فى عبوس .

(٢) الثبور : الهلاك . (٣) تعاظمه : عظم عليه .

ونورَ ألوانهم ، وسرورهم بالنعيم المقيم ، والنظر إليه ، والمكانة منه ، لتقلَّلَ فى عينك عظيمُ ما طلبتَ به صغيرَ ما عند الله ، ولصَغُر فى عينك جسيمُ ما طلبتَ به صغيرَ ذلك من الدنيا ، فاحذَر على نفسك حذرا غيرَ تغرير ، وبادِرْ بنفسك قبل أن تُسْبَق إليها ، وما تخاف الحسرةَ منه عند نزول الموت ، وخاصِم نفسَك على مَهَل ، وأنت تقـــدِر بإذن الله على جرِّ المنفعة إليها ، وصَرف الُحجَّة عنها ، قبل أن يتولى الله حِسابَها ، ثم لا تقدر على صرْف المكروه عنها .

واجعل من نفسك لنفسك نصيبا بالليل والنهار ،وصَلِّ من النهار اثنتى عشرةَ ركعةً ، واقرأ فيهن ما أحببتَ ، إن شئت فصلِّهن جميعا ،وإن شئت متفرقاتٍ ،فإنه بلغنى عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال :« من صَلَّى من النهار اثنتى عشرةَ ركعةً بنى الله له بيتا فى الجنة » ، وصَلِّ من الليل ثمانىَ ركعات بجزء من القرآن ، وأعطِ كلَّ ركعة حقَّها والذى ينبغى فيها من تمام الركوع والسجود ، وصلِّهن مَثْنَى مَثْنَى ، فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يصلى من الليل ثمانىَ ركعات ،والوتر ثلاثُ ركعات ،سوى ذلك ،يسلِّم من كل اثنتين ،وصُمْ ثلاثةَ أيام من كل شهر :الثالثَ عشرَ والرابعَ عشرَ والخامس عشرَ ، فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال:« ذلك صيامُ الدهر » .

وأعط زكاةَ مالك طيبةً بها نفسُك ، حين يَحُول عليها الحولُ ، ولا تؤخِّرْها بعد حَلِّها[1] ، وضَعْها فيمن أمَرَ الله تعالى ، ولا تضَعْها إلا فى أهل ملَّتك من المسلمين ، فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال:« إن الله تعالى لم يرضَ من الصَّدقة بحكم نبى ولا غيره حتى حَدَّها هو على ثمانية أجزاء» ، قال عزَّ وجل:« إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِى سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ »واحجُجْ حَجةَ الإسلام من أطيب مالك، وأزكاه عندك ، فإن الله تعالى

---

(١) حل الحق حلا وحلولا : وجب .

لا يقبل إلا طيِّبا ، وبلغنى أن قوله تعالى : « فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ ، وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ » غَفْرٌ[1] له .

مُر بطاعة الله ، وحبب عليها ، وانْهَ عن معاصى الله تعالى ، وأبغِضْ عليها ، فإنه بلغنى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: « مُروا بالمعروف ، وانهَوْا عن المنكر ، فإنما هَلَك من كان قبلكم بتركهم نَهْيَهم عن المعاصى ، ولم يَنْهَهم الرَّبَّانيُّون والأحبار[2] ، فمُروا بالمعروف ، وانْهوا عن المنكر ، من قبل أن ينزل بكم الذى نزل بهم ، فإن الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، لا يُقدِّم أجلا ، ولا يقطع رزقا » .

أحسِنْ إلى من خَوَّلك[3] اللهُ تعالى، واشكر تفضيلَه إياك عليهم ، فإنه بلغنى عن النبي صلى الله عليه وسلم «أنه كان يُصلِّى فانصرف وقال : أطَّت[4] السماءُ ، وحُقَّ لها أن تَئِطَّ، ما فيها موضعُ أربع أصابعَ إلا عليه جَبْهةُ مَلَكٍ ساجد،فمن كان له خَوَلٌ[5] فليُحْسِن إليه ، ومَنْ كَرِه فَلْيَسْتَبْدِلْ ، ولا تعذِّبوا خَلْقَ الله » . أَلْزِمِ الأدبَ مَن ولِيتَ أمره وأدبَه ، ومن يجب عليك النظرُ فى أمره ، فإنه بلغنى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال قال للفضل بن العباس : « لا تَرفَعْ عصاك عن أهلك ، وأَخِفْهم فى الله» ،

لاتستسلِمْ إلى الناس، واستَجْرِهم[6] فى طاعة الله ، لاتَغْمَص[7] الناس،واخفِضْ لهم جَناحك ، فإنه بلغنى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ألا أحدِّثكم بوصيةِ نوحٍ ابنَه ، قال : آمُرك باثنين ، وأنهاك عن اثنين : آمُرك بقولِ : لا إله إلا الله ، فإنها لو كانت فى كِفّة ، والسموات والأرض فى كفة ، وزَنَتْها ، ولو وضعتَها على

---

(١) الغفر : الغفران .

(٢) الربانى : منسوب إلى الرب أى الله تعالى كقولهم إلهى : هو المتأله العارف بالله ، والحبر بالكسر ويفتح : العالم .

(٣) التخويل : التمليك ، خوله الله نعمة: ملكه إياها ، والمعنى : إلى خدمك وعبيدك الذين تملكهم وتلى أمرهم .

(٤) أط يئط أطيطا : صوت .

(٥) الخول : ما أعطاك الله من العبيد والخدم ، والواحد خائل ، وقد يكون الخول واحدا .

(٦) استجرهم . أى استخدمهم ، والجرى كغنى : الخادم .

(٧) غمصه كضرب وسمع وفرح : احتقره وعابه وتهاون بحقه .

حلقة تصمتها ، وقل : سبحانَ الله وبحمْده، فإنها عبادة الخلق،وبها تُقْطَع[1] أرزاقهم، فإنهما يُكثِران لمن قالهما الوُلوجَ على الله عزّ وجل . وأنهاك عن الشِّرك والكِبْر ، فإن الله محتجب عنهما، فقال له بعض أصحابه: أمِنَ الكِبْر أن يكون لى الدابة النَّجيبةُ[2]؟ قال : لا ، قال : أمِن الكبر أن يكون لى الثوب الحَسَن ؟ قال : لا ، قال : أفمن الكبر أن يكون لى الطعامُ أجمع عليه الناس؟ قال: لا ، إنما الكبر أن تَسْفَهَ[3] الحق، وتَغْمَصَ الخلق » .

وإياكَ والكِبْرَ والزَّهْوَ ، فإن الله عز وجل لا يحبهما ، وبلغنى عن بعض العلماء أنه قال : « يُحْشَر المتكبرون يوم القيامة فى صُوَر الذَّرّ[4] ، تَطَؤُهم الناس بتكبرهم على الله عز وجل » ، لا تأمنْ على شىء من أمرك مَن لا يخاف الله ، فإنه بلغنى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : « شاوِرْ فى أمرك الذين يخافون الله » .

احذَر بطانة السوء وأهلَ الردى على نفسك،فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : ما من نبىّ ولا خليفةٍ إلا وله بطانتان : بطانة تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر ، وبطانة لا تألوه خبالا[5] ، وهو مع التى استولت عليه ، ومن وُقِىَ بطانةَ السوء فقد وُقِىَ » واستبطِنْ أهل التقْوَى من الناس . وأكرم ضيفك فإنه يحق عليك إكرامُه . وارْعَ حَقّ جارك : ببَذْلِ المعروف ، وكف الأذى عنه ، فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلْيُكرِم جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه » . وتكلم بخير أو اسكت ، فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقلْ خيرا أو لِيَمْسِكْ » .

واتَّقِ فُضُولَ المنطق، فإنه بلغنى عن ابن مسعود أنه قال:«أُنْذِركم فضولَ المنطق» .

---

(١) أى تقدر .

(٢) النجيبة : الكريمة التى يسابق عليها .

(٣) سفه كفرح : جهل .

(٤) الذر : صغار النمل .

(٥) الخبال : الفساد .

وأكرِمْ مَن وادَّك وكافِئه بمودته، وإياكَ والغضبَ فى غير الله. لا تأمر بخير إلا بدأت بفعله، ولا تَنْهَ عن سوء إلا بدأت بتركه. دَعْ من الأمر مالا يَعنيك، فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «مِنْ حُسْنِ إسلام المرء تركُه مالا يَعنيه» صِلْ مَن قَطَعَك، واعفُ عمن ظلمك، وأعْطِ مَن حَرمك، فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إنها أفضلُ أخلاق الدنيا والآخرة».

اتَّقِ كثرة الضحك، فإنه يدعو إلى السَّفَه، فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أن ضحكه كان تبسُّما. لا تَمزَحْ فتذُمَّ نفسك، فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إنى لأمزَحُ ولا أقول إلا حقًا». لا تُخالِفْ إلى ما نَهيْتَ عنه، وإذا نطقت فأوجِزْ، فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «وهل يَكُبُّ الناسَ فى نار جهنمَ إلا هذا؟ يعنى لسانه». لا تُصاعِر[1] خدَّك للناس، فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن أهل الجنة كلُّ هَيِّنٍ لَيِّنٍ سَهْلٍ طَلْقٍ».

اترك من أعمال السِّر مالا يَحْسُن بك أن تعمله فى العَلانية. اتَّقِ كل شىء تخاف فيه تُهَمَةً فى دينك ودنياك، بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من كان يؤمن بالله وباليوم الآخر فلا يقِف مواقِف التهم».

أقلِلْ طلب الحوائج من الناس، فإن فى ذلك غَضاضةً[2]، وبلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لرجل: «لا تسأل الناس». وليكن مجلسك بيتك أو مسجدك، فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال «المساجد بيوت المتَّقين». لا تُكثر الشُّخوصَ من بيتك إلا فى أمر لابُدَّ منه، فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ستةُ مجالسَ المسلمُ ضامِنٌ على الله ما كان فى شىء منهن فى سبيل الله، أو فى بيت الله، أو فى عِيادة مريض، أو شُهود جنازة، أو جُمعة، أو عند إمام مُقْسِط[3] يعزِّرُه ويوقِّره»

(١) صعر خده وصاعره وأصعره: أماله عن النظر إلى الناس تهاونا من كبر.

(٢) الغضاضة: الذلة والمنقصة.

(٣) مقسط: عادل (وفى العدل لغتان: قسط وأقسط. وفى الجور لغة واحدة، قسط بغير الألف) والتعزير: والتفخيم والتعظيم.

أحسنْ خُلُقَك مع أهلك ومن اعتزّ بك ، فإن فى ذلك رضاً لربك ، ومحبة فى أهلك ، ومَثْراةً[1] فى مالك ، ومَنْسَأةً[2] فى أجلك ، فإنه بلغنى عن بعض العلماء من الصحابة أنه قال ذلك أحسِن البِشْرَ إلى عامّة الناس ، واتّق شتمَهم وغيبتَهم ، فإن الله تعالى قال: « أيُحِبُّ أحَدُكُمْ أنْ يأكُلَ لَحْمَ أخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ » وبلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لاتَشْتُمُ الناس » .

اتق أهل الفُحْش ، ومجالسةَ أهل الرَّدَى ، ومحادثةَ الضَّعَفةِ[3] من الناس ، فإنه بلغنى عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال : « اعتَبِر الناسَ بأخدانهم[4] ، فإنما يخادِن الرجُل الرجلَ مثله » .

أكرِم اليتيمَ وارحَمْه واعطِف عليه ، فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من كَفَل يتيما له أو لغيره كنتُ أنا وهو فى الجنة كهاتين » وأشار بأصبعيه ، فضمّهما .

اعرِف لابن السبيل حقّه ، واحفظ وصيّةَ الله تعالى فيه ، فإنه بلغنى أن أول من أضافَ[5] الضيف إبراهيمُ الخليل عليه السلام .

أَعِنِ المظلوم ، وانصره ما استطعتَ ، وخذ على يد الظالم ، وادْفَعْه عن ظلمه ، فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من مشى مع مظلوم حتى يثبت له حقّه ، ثبّت اللهُ قَدَمه يوم تزول الأقدام » .

اتق اتباعَ الهوى فى ترك الحق ، فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنى أخاف عليكم اثنين : اتّباعَ الهوى وطولَ الأمل ، فإن اتباع الهوى يصُد عن الحق ، وطول الأمل يُنْسى الآخرة » .

---

(١) مثراة : أى مكثرة . (٢) منسأة: أى تأخير . (٣) جمع ضعيف .

(٤) الأخدان جمع خدن بالكسر وهو : الصاحب ، وخادنه : صاحبه .

(٥) أضاف الرجل وضيفه : أنزله به ضيفا ، وضافه يضيفه ضيفا وضيافة وتضيفه : نزل عليه ضيفا ، وفى الأصل « ضاف » وهو تحريف .

أنصِفِ الناسَ من نفسك ، ولا تستطِلْ عليهم ، فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أشرف الأعمال ثلاثة : ذِكْرُ الله على كل حال ، ومواساةُ الأخِ من المال[1] ، وإنصاف الناس من نفسك » . اغْضُضْ بصرك عن محارِمِ الله ، فإنه بلغنى عن على كرم الله وجهه أنه قال : « لاتُتْبِـعِ النظرةَ النظرةَ ، فإنما لك النظرةُ الأولى ، وليست لك الأخرى » .

اتق المطعمَ الوَبِىَّ[2] ، والمشرَبَ الوبىَّ ، والملبس الوبىَّ ، فإن ذلك تَذْهب أنْفَته[3] ، وتبقى عاقبته ، وإن الله سبحانه أدَّب رسله ، فقال : « كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً » وقال النبى عليه الصلاة والسلام: «من أكل بأخيه المسلم أكلةً أطعمه الله مكانها أكلةً من نار ، ومن سمَّع[4] بأخيه المسلم سمَّع الله به يوم القيامة ، ومن لبس بأخيه المسلم ثوبا ألبسه الله مكانه ثوبا من نار » .

اقبَلْ عذر من اعتذر إليك ، ورَجَع عما كَرِهتَ ، فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من اعتذر إلى أخيه المسلم فلم يَعْذِره ، كان عليه مثلُ وِزْر صاحب مَكْس[5] » .

لتكن يدك العليا على كل من خالطتَ ، فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اليد العُليا[6] خير من اليد السُّفلى » .

---

(١) آساه ماله : أناله منه وجعله فيه أسوة أى قدوة .

(٢) الوبى : مسهل عن الوبىء ، يقال : أرض وبيئة ووبئة : أى كثيرة الوباء وهو الطاعون ، والمراد هنا : المكسوب من طريق غير شريف ، المأخوذ من غير حل .

(٣) أنف الشىء وأنفته : أوله وابتداؤه .

(٤) التسميع : التشنيع والتشهير .

(٥) جاء فى لسان العرب : المكس : الضريبة التى يأخذها الماكس ، وهو العشار ، ويقال للعشار صاحب مكس، وفى الحديث« لايدخل صاحب مكس الجنة » وفى حديث ابن سيرين قال لأنس: « تستعملنى على المكس أى على عشور الناس فأماكسهم ويماكسوننى » قيل معناه: تستعملنى على ماينقص دينى ، لما يحذف من الزيادة والنقصان فى الأخذ والترك اهـ نقلا عن النهاية فى غريب الحديث لابن الأثير — انظر ج ٤ : ص ١٠٣ .

(٦) اليد العليا : المعطية ، واليد السفلى : المعطاة ، وهو حث على البر والصدقة .

أصحب الأخيارَ ، فإنهم يُعينونك على أمر الله عز وجل ، فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما تحابَّ رجلان فى الله إلا كان أفضلهما أشدُّهما حُبًّا لصاحبه » .

صِل رَحِمَك وإن قطعك ، ولا تكافئه بمثل ما أتى إليك ، فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم « أن رجلا قال له : إن لى أقرباء ، أعفو ويظلمونى(١) ، وأصِلُ ويقطعونى ، وأحسن ويُسيئون إلىَّ(٢) ، أفأ كافئهم ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : إذن تُترَكوا جميعا ، ولكن إذا أساءوا فأحسِنْ فإنه لن يزالَ لك عليهم من الله ظَهِيرٌ(٣) » .

ارحَم المسكين المضطرَّ ، والغريبَ المحتاج ، وأعِنْه على ما استطعتَ من أمره ، فإنه بلغنى عن ابن عباس أنه قال : « كل معروف صدقة » .

ارحم السائل واردُدْه من بابك بفضْل معروفك ، بالبَذْل منك ، أو قولٍ معروف تقوله له ، فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « رُدَّ عنك مَذَمَّة السائل ، [ولو] بمثل رأس الطير من الطعام » .

لاتزْهَد فى المعروف عند مَن تعرفُه ، وعند من لاتعرفُه ، فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لاتزْهَدْ فى المعروف ، ولو أنْ تَصُبَّ مِن دَلْوِك فى إناء

---

(١) هكذا فى الأصل ، وقد ذكروا أن نون الرفع تحذف جوازا بكثرة فى الفعل المتصل بنون الوقاية نحو قوله تعالى « قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّى أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ » بتخفيف النون فى قراءة نافع ، فالصحيح عند سيبويه أن المحذوف نون الرفع والمذكور نون الوقاية . وقيل المحذوف نون الوقاية ، وتحذف نون الرفع جوازا بقلة فى غير ذلك نحو قوله :

أبيت أسرى وتبيتى تدلكى وجهك بالعنبر والمسك الذكى

وفى الحديث : « والذى نفس محمد بيده لاتدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا » .

(٢) وفى الأصل « ويسيئونى » والذى فى كتب اللغة أن « ساء » متعد بنفسه ، يقال : ساءه يسوءه : فعل به ما يكره ، نقيض سره ، وأساءه متعد بحرف الجر ، يقال : أساء إليه نقيض أحسن إليه ، ويقع متعديا بنفسه ولكن بمعنى أفسد ، يقال أساء الشىء : أى أفسده ولم يحسن عمله .

(٣) أى معين .

المستقى » . أردْ بكل ما يكون منك من خير إلى أحد الله ، فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أن قوله عز وجل : « فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ . الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ، الَّذِينَ . هُمْ يُرَاءُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ » قال : « المنافق » . الذى إن صلى رَاءى ، وإن فاتته لم يبلغ إليها ، « ويمنعون الماعون » قال . الماعون . الزكاة التى فرضها الله عز وجل .

إياك والرِّياء ، فإنه بلغنى أنه لا يَصْعَد عملُ المرائى إلى الله عزّ وجل ، ولا يزكّيه عنده. إن استطعت أن تعمَلَ ما عملتَ فيما بينك وبين الله فافعل ، فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال . « نضّر الله امرَأً سَمِع مقالتى فوعاها حتى يبلِّغَهَا غيرَه ، فرُبَّ غائبٍ أحفظُ من شاهد، ورُبَّ حاملِ فقهٍ غيْرُ فَقيهٍ » لا يَغِلُّ قلبُ امرئٍ مسلم عن ثلاث خصال : إخلاصِ العمل لله ، والنصيحةِ للإمام العادل ، والنصيحة لعامة المسلمين ، فإن دعوتَهم تُحيط من ورائهم. إياك وسوء الخلق ، فإنه يدعو إلى معاصى الله تعالى ، وقد بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خِيارُكم أحسنُكم أخلاقا».

اخضع لله إذا خلوتَ بعملك ، فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم « أن مَلَكا أتاه فقال : إن ربك يُقرِئك السلام ويقول : إن شئت أجعلك مَلِكا نبيا ، أو عبداً نبيا ، فأشار إليه جبريل عليه السلام أنْ تواضعْ ، فما أكل متكئا حتى مات » . لا تظلِم الناسَ فيُدِيلَهم[1] الله عليك ، فإنه بلغنى عن بعض العلماء من الصحابة أنه قال : « ما ظلمتُ أحداً أشدَّ علىَّ ظلما من أحد لا يستعين علىَّ إلا بالله تعالى .

احذر البغى ، فإنه عاجلُ العقوبة ، بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن أعجَلَ الخير ثوابا صلةُ الرحم ، وإن أعجل الشر عقوبةً اليمينُ الغَمُوسُ[2] ،

---

(١) أى فينصرهم ويعطيهم الغلبة .

(٢) اليمين الغموس : هى اليمين الكاذبة التى يتعمدها صاحبها عالما بأن الأمر بخلافه، وسميت بذلك لأنها تغمس صاحبها فى الإثم ثم فى النار .

تترك الديارَ بلاقعَ[1] » . لا تحلف بغير الله فى شىء ، فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا تحلفوا بآبائكم ، ليحلفْ حالفٌ بالله أو ليسكتْ » ولا تحلف بالله فى كل شىء ، فإنه بلغنى أن ذلك قوله تعالى : « وَلاَ تَجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ » .

ارحم الناس يَرْحَمْكَ الله ، بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من لا يرحم الناس لا يرحمه اللهُ » . أحبِبْ طاعة الله يُحبك الله ويُحَبِّبْكَ إلى خلقه ، قال عز وجل لنبيّه : « قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللهُ » وقال عليه الصلاة والسلام : « إن الله جعل قُرَّةَ عينى فى السجود » وقال بعض العلماء : « ما أسَرَّ عبد قطُّ سريرةَ خيرٍ إلا ألبسه الله رِداءها ، ولا أسَرَّ سريرةَ شرٍّ قطُّ إلا ألبسه الله رداءها » .

وليكن عليك السكينةُ والوَقار فى مَنطِقك ومجلسك ومَركَبك ، فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ، والناس يَرْحَفون حوله : « عليكم بالسكينة » . أعطِ دابتك إذا رَكِبْتَها حظَّها من الأرض ، وحظَّها من القَصْد عليها ، بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا ركبتم هذه الدوابَّ العُجْمَ فأعطُوها حظَّها من الأرض » .

عليك بالحلم والإغضاء عما كرهتَ ، ولا تتبع[2] ذلك من أحد بلغك عنه أذى ولا تكافِئْه ، فإن فى ذلك الفضلَ فى الدنيا والآخرة ، بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله يحب الحليم الحيِيَّ العفيفَ المتعفِّفَ » . ادفع السيِّئةَ بالتى هى أحسنُ ، بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أيها السُّلَمِىُّ : اتق العقوقَ وقطيعةَ الرَّحِم ، فإن فى ذلك شَيْناً فى الدنيا ، وتباعدا فى الآخرة » ، وبلغنى عن النبى

---

(١) جمع بلقع كجعفر : الأرض القفر .

(٢) فى الأصل « ولا تتبع » وأراه محرفا .

صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اشتكت الرَّحِمُ إلى الله عز وجل ممن يقطعها ، فردَّ الله عليها : أمَا ترضَيْن أن أصِلَ مَن وَصَلَك ، وأقطع مَن قَطَعك ! » .

إذا غضبتَ من شيء من أمر الله ، فاذكر ثواب الله على كَظْم الغيظ ، قال عزَّ وجل : « وَالْـكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ، وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » . وبلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما امتلأ رجل غيظا ، فـكظَمه لله ، إلا ملأه الله رضوانا يوم القيامة » .

إذا وعدت مَوْعِدا فى طاعة الله فلا تُخْلِفْه ، وإذا قلت قولا فيه رضا الله فأوفِ به ودُم عليه ، بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من تـكفَّلَ لى بستٍّ أتـكفَّلْ له بالجنة : إذا حدَّث لم يكذب ، وإذا وعد لم يُخلِف ، وإذا اؤتمن لم يَخُن ، وغَضَّ بصرَه ، وحفِظ فرجَه ، وكَفَّ يده » .

إذا حَلَفت على يمين ليست من طاعة الله فلا تَهُمَّنَّ بها وكَفِّرها ، فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا نَذْرَ فى معصية الله » وكفارتها كفارة يمين ، والنذر يمين ، وإذا حلفت على يمين ثم رأيت غيرها خيرا منها ، فأتِ الذى هو خيرٌ وكَفِّر عن يمينك ، فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ذلك . إياك والتزيُّدَ فى القول ، وأن تقولَ قولا وأنت تعلم أنه لم يكن ، فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة : الإمام الـكذاب ، والعائِلُ المزهوُّ(١) ، والشيخ الزانى » .

بِرَّ(٢) والديك وخُصَّهما منك بالدعاء فى كل صلاة ، وأكْثِرْ لهما الاستغفار ، وابدأ بنفسك قبلهما ، فإن إبراهيم عليه السلام قال : « رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ » فبدأ بنفسه قبل والديه ، وبلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من سَرَّه أن

(١) العائل : الفقير ، عال يعيل عيلا وعيلة : افتقر ، والمزهو : المتـكبر ، من الزهو : وهو الـكبر والتيه والفخر ، وقد زهى كعنى ، و كدعا قليلة .

(٢) فعله كعلم وضرب .

يُنْسَأَ[١] له في عمره ، ويزاد في رزقه ، فليتق الله ربه ، وليصِلْ رَحِمَه » . اشكر للناس ما أتَوا إليك من خيرهم ، وكافئهم إن قَدَرت عليه ، فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من لم يشكرِ الناسَ لم يشكرِ اللهَ » .

إذا ركبت دابة فوضعْتَ رجلك فى الرِّكاب فقل : باسم الله ، وإذا استويت راكبا فقل : « سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ[٢] » . فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول ذلك كلما ركب دابة. إذا أكلت وشرِبتَ فاذكر اسم الله ، فإن نسِيت فى أول حالك فاذكره إذا ذكَرتَ، بلغنى عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال : « تذكَّر اسمَ الله حين تأكل[٣] ، فإنه يحول بين الخبيث وبين أن يأكل معك[٤] ، ويتقيَّأ ما أكل » ، فإذا فرَغتَ فقل : الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين ، فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول ذلك إذا أكل وشرب ، وإذا أكلتَ ومعك آخرُ فكل مما يَليك بيمينك ، ولا تأكل من فوق الطعام ، ولا من بين يدى أحد . فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لرجل يفعله : « اذكر اسم الله ، وكُلْ مما يليك ، وكل بيمينك ولا تأكل بشِمالك » ، وبلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنها إكْلة الشيطان » .

لا تسافر ما استطعْتَ إلا فى يوم الخميس ، فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يستحبّ أن يسافر يوم الخميس ، لا يسافرُ إلا فيه . إذا أصابك كرب فقل : يا حَىُّ يا قَيُّومُ ، برحمتك أستغيثُ ، فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول ذلك عند الكرب .

---

(١) أى يؤخر .

(٢) أى مطيقين ، أقرن للأمر : أطاقه وقوى عليه ، وعن الأمر ضعف ضد ، وأول الآية الكريمة « وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ، لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِى . . . » .

(٣) فى الأصل « تذكر » وأراه محرفا . (٤) فى الأصل « معه » .

احترس ممن يقرِّب إليك بالنَّميمة ، ويبلِّغ الكلام عن الناس ، بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ملعونٌ مَن لعَن أباه ملعونٌ مَن لعَن أمَّه ، ملعونٌ من غيَّر تُخُوم[(١)] الأرض ، ملعون كلُّ صقَّار ، وهو النمَّام » . لا تجُرَّ ثيابك ، فإن الله لايحب ذلك . وبلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من جرَّ ثيابه خُيَلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة » . أطِع الله فى معصية الناس ، ولا تُطع الناس فى معصية الله ، بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لاطاعةَ لمخلوق فى معصية الخالق » .

إذا أصابك حزن أو سَقَم أو ذِلة أو لأواء[(٢)] ـ يعنى الجوع ـ فقل : الله ربى لا أشرك به شيئا ، ثلاث مرات ، بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يأمر بذلك من أصابه شىء من ذلك . اصبر على ما أصابك من فجائع الدنيا وأحزانها ، لقول الله تعالى : « إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » والصبرُ من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد .

لاتمارِيَنَّ أحداً وإن كنت مُحِقًّا ، بلغنى أن قول الله عز وجل : « فَلَا رَفَثَ[(٣)] وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ » أنه المِراء[(٤)] . إذا هممتَ بأمر من أمور الدنيا ففكِّر فى عاقبته ، بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا هممت بأمر من أمور الدنيا ففكِّر فى عاقبته ، فإن كان رُشْداً فأَمْضِه ، وإن كان غيًّا فانْتَهِ عنه » .

إياك والتجريدَ[(٥)] خاليا ، فإنه ينبغى لك أن تستحي من الله إذا خلوتَ ، فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا أحِبُّ أن يَلِيَ لى شيئا مَن لايستحي

---

(١) التخوم : الفصل بين الأرضين من المعالم والحدود .

(٢) فى اللسان : اللأواء : الشدة وضيق المعيشة ، ومنه الحديث « من صبر على لأواء المدينة ... » واللأواء: المشقة والشدة ، وقيل القحط ، يقال أصابتهم لأواء وشصاصاء بالفتح وهى الشدة ، وتكون اللأواء فى العلة .

(٣) الرفث : الجماع والفحش .

(٤) كذا فى كتب التفسير قالوا : ولا جدال : أى ولا مراء مع الخدم والرفقة ، والمراء: المجادلة

(٥) التجريد : التعرية من الثياب .

من الله فى الخلاء » . وإياك أن تدخل الحمّام والماء إلا بإزار ، ولا يدخل معك أحد الحمّامَ إلا بإزار ، ولن تقدر على ذلك ، فإن لم تقدِر فغُضَّ طَرْفَكَ عن كل أحد كان مكشوفا ، بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا يحِلّ لامرئٍ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يدخل الحمام إلا بإزار » . أفْشِ السلام ، وإن استطعت ألاَّ يَسْبِقك أحد إليه فافعل، تُعطَ بذلك فضلا عن الناس، وبلغنى عن ابن مسعود أنه قال: « السلام اسم من أسماء الله وَضَعه فيكم فأفشوه فيكم، فإن الرجل إذا سلَّم كُتب له عشرُ حَسَنات » .

أدِّبْ ولدك ومن ولِيتَ أمرَه على خُلُقِك وأدبك ، حتى يتأدبوا على ما أنت عليه ، فيكونوا لك عونًا على طاعة الله ، بلغنى عن ابن مسعود أنه قال : « كل مؤدِّب يحبّ أن يؤخَذ بأدبه ، وإنّ أدب الله هو القرآن » . وإذا استشارك أحد فإن شئت تكلمت ، وإن شئت سكتَّ ، واجتهدْ رأيَك ، فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « المستشار بالخيار ، إن شاء تكلم ، وإن شاء سكت » . لا تُفْشِ على أحد سرا أفشاه إليك ، فإنما هى أمانةٌ استودَعَكَها وائتمنَك عليها ، إلا أن يكون إفشاؤه خيراً لهُ فى دنياه وآخرته ، فأفشِها عليه وانْصَحْه فيها ، بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مِن حقٍّ المسلم على المسلم إذا استنصحه أن ينصحه » .

إذا تعلَّمت علما من طاعة الله فلْيُرَ عليك أثرُه، ولْيُرَ فيك سِمَتُهُ ، وتعلَّمْ للذى تعملُه ، وتعلَّمْ لهُ السكينةَ والحلم والوقار ، بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « العلماء وَرَثَة الأنبياء » . رُدَّ جوابَ الكتاب إلى كلِّ أحد كتب إليك ، فإنما هو كردِّ السلام ، قال الله عز وجل : « وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا » وقال ابن عباس رضى الله عنهما : « أرى رَجْعَ الكتاب علىّ حقا ، كما أرى رجعَ السلام » . الزم الحياء فإنه خُلُق الإسلام ، بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لكل شيء خُلق ، وخلق الإسلام الحياء » . إذا سافرت فقل : اللهم إنى أعوذ بك

من وَعْثاء[١] السفر ، وكآبة المنقلَب ، ودعوة المظلوم ، وسوء المنظر فى الأهل والمال ، والحَوْر بعد الكَوْر[٢] ، بلغنى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول ذلك إذا سافر .

إياك وظلمَ الضعيف ومَن لا يستعين عليك إلا بالله ، بلغنى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ثلاثة لا تُرَدّ دعوتهم : الإمام العادل ، والصائم حتى يُفطِر ، ودعوة المظلوم فإنها تصعَد فوق الغمام ، فيقول الله لها : وعِزّتى وجلالى لأنصرَنَّكِ ولو بعد حين » . إذا ودّعتَ مسافرا فقل : زوّدك اللهُ التقوى ، وغفَر لك ذنبك ، ويسَّر لك الخير حيثما كنتَ ، أستودِعُ اللهَ دينَك وأمانتك وخواتيمَ عملك ، بلغنى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يأمر بها أصحابه .

إذا حضرتَ أمراً ليس لله بطاعة ، ولا تقدِرُ على أن تدفعه ، فقم عنه ولا تقعد ، بلغنى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا يمنعَنَّ أحدَكم مخافةُ الناس أن يقول الحق إذا شهِده أو علِمَه » . الزَم السِّواكَ فإنه سُنّة ، بلغنى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « السِّواك من سُنَن المرسلين » . أفْشِ الصَّدَقَةَ فإنها تدفع مِيتةَ السوء ، وليكن ذلك من أطيب مالك ، فإن الله تعالى لا يقبل إلا الطيِّب ، بلغنى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن أحدكم ليتصدّق بالتمرة إذا كانت من طيِّب ـ ولا يقبل الله إلا الطيِّب ـ فيجعلُها فى كفِّه ، فيربّيها له كما يربى أحدكم فِلْوَه[٣] أو فَصيلَه ، حتى تكون فى يده مثل الجبل » .

إذا نزلتْ بك كُربةٌ من كرب الدنيا فليكن مَفْزَعك فيها إلى الله عز وجل حين تنزل بك . بلغنى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لن ينزل بعبد قطُّ أمرٌ

---

(١) الوعثاء : المشقة .

(٢) الحور : النقصان ، والكور : الزيادة ، وفى الحديث : « نعوذ بالله من الحور بعد الكور » أى من النقصان بعد الزيادة ، وقيل معناه من فساد أمورنا بعد صلاحها .

(٣) الفلو بالكسر وكعدو وسمو : الجحش أو المهر فطما أو بلغا السنة ، والفصيل ولد الناقة إذا فصل عن أمه .

كان مَفزَعُه فيه إلى الله إلا فرّج الله عنه » . لا تضطجِعْ على بطنك إذا نِمْت ، ولاَ فى غير نومك ، بلغنى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنها لَضَجْعَــــة يُبغضها الله » . أوفِ بالعهد إذا أعطيتَه من نفسك لكل أحد ، بلغنى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أحقُّ ما وُفِّيَ بهِ عهدُ الله » .

إذا حضرت السلطانَ فاشفع بخير ، وإياك والكلامَ عنده إلا بما يُرْضى اللهَ ، بلغنى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: « إن الرجل ليتكلم بالكلمة مِنْ سُخط الله ما يظن أنها تبلغ ما بلغَتْ ، يكتب لهُ بها سخطَه إلى يوم القيامة ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أنها تبلغ ما بلغَت ، يكتب لهُ بها رضوانَه إلى يوم القيامة » . أسِرَّ ما أردتَ بهِ اللهَ ما استطعتَ ، بلغنى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « صدقة السِّر تطفئْ غضب الرب » . اتقِ كثرة التزكية لنفسك ، أو ترَضَى بها من أحد يقولها لك فى وجهك . بلغنى أن رجلا امتدح رجلا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « وَيْحك قطعتَ عنقه ! ولو سمعها ما أفلح أبدا » . إياك ومدحَ الناس والثناء عليهم فى وجوههم ، بلغنى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « احثُوا(١) الترابَ فى وجوه المدّاحين » . طهِّر ثيابك وَنقِّها من معاصى الله تعالى ، فإنه بلغني أن قوله « وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ » يأمره ألاّ يَلبسَها على عَذِرة(٢) . واكره لكل أحد ما تكره لنفسك ، بلغنى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه بايع جَرِيرا البَجَليَّ على الإسلام والنصيحة لكل مسلم .

إياك والحسدَ والشَّرَهَ ، بلغنى أنهما خُلُقان مُرْدِيان لصاحبهما فى الدنيا والآخرة ، وقال صلى الله عليه وسلم : « لا حَسَدَ إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالا وسلَّطه على إنفاقه فى الحق ، ورجل آتاه الله حكمةً فهو يقضى بها ويعلِّمها » . اقتدِ فى أمورك برأى

---

(١) حثا التراب فى وجهه يحثوه ويحثيه حثوا وحثيا : رماه .
(٢) العذرة : الغائط .

ذوى الإنصاف من أهل التقوى ، بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « خِيارُكم شبابكم المتشبِّهون بشيوخكم ، وشِرارُكم شيوخكم المتشبِّهون بشبابكم » . لا تحكِرْ[1] أحدا ، ولا تُجالِسْ مأبونا[2] ، فإن الوَحْدة خير من جليس السوء .

عليك بمعالى الأخلاق وكريمها ، واتق رذائلها وما سَفْسَف منها ، بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله يحب معالىَ الأخلاق ، ويكره سَفْسَافها[3] » .

إذا رأيت مَن فَضَلْتَ عليه فى دينك ودنياك فأكثِرْ حمدَ الله عليه ، فإن ذلك من الشكر ، بلغنى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ما أنعم اللهُ على عبد بنعمة فقال الحمد لله ، إلا كان ذلك أعظمَ من تلك النعمة وإن عظُمَت » .

لا تَركب المِيثَرةَ[4] الحمراء ، ولا تلبَس المُعَصْفَر ، فإنه بلغنى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن ذلك . إذا غضِبتَ وأنت قائم فاقعد ، وإن كنت قاعداً فاضطجع ، بلغنى ذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم . لا تتطيرَنَّ من شىء تراه أو تسمعه ، وإذا كان من ذلك شىء فقل : اللهم لا يأتى بالخير إلا أنت ، ولا يدفعُ السوء إلا أنت ، ولا حولَ ولا قوة إلا بالله ، بلغنى أنَّ النبى صلى الله عليه وسلم كان يأمر بذلك لمن رأى من ذلك شيئا . لا تتوضأ بشىء مما تأكل من الطعام ، ولا تَدَلَّك به فى الحمام ، فإن ذلك من الجفاء ، لا تتخلقَنَّ بالخَلُوق[5] إلا أن يكون فى إثر النُّورة[6] ليُذهب ريحها ، بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « بينما رجل فى بُردتين له متخلِّق

---

(١) الحكر بالفتح : سوء المعاشرة ، وفعله كضرب ، يقال : فلان يحكر فلانا إذا أدخل عليه مشقة ومضرة فى معاشرته ومعايشته .

(٢) أى متهما بشر .

(٣) سفساف الأخلاق : رديئها .

(٤) الميثرة : مركب من مراكب الأعاجم من ديباج أوحرير ، وثوب معصفر : مصبوغ بالعصفر

(٥) الخلوق : ضرب من الطيب ، وتخلق : تطيب .

(٦) النورة : حجر الكلس ثم غلبت على أخلاط تضاف إلى الكلس من زرنيخ وغيره وتستعمل لإزالة الشعر .

يتبختر فيهما إذ ساخت به الأرض فهو يتجلجل[1] فيها إلى يوم القيامة .

لا تُغَبِّرَنَّ[2] أظفارك بالحنّاء ولا يديك إذا دخلت الحمام ، فإنه ليس من سِيمى أهل الفضل ، ولا تحلف بالطلاق ولا بالعتاق ، فإنهما من أيمان الفُسَّاق . بلغنى عن عمر رضى الله تعالى عنه أنه قال : « أربعٌ جائزة إذا تُكُلِّمَ بهن : الطلاق والعتـــاق والنكاح والنذر ، وأربعة يُمْسون واللهُ عليهم ساخط ، ويُصبحون والله عليهم غضبانُ : المتشبهون من الرجال بالنساء ، والمتشبهات من النساء بالرجال ، ومن أتى بهيمة ، أو عمِل عَمَل قوم لوط » . لا تتطيبَنَّ بشىء من الطيب يظهَر لونه ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « طِيبُ الرجل ما بطَن لونه وظهَرَ ريحُهُ ، وطيب النساء ما ما ظهر لونه وبطن ريحه » .

الزَم الرأى الحسن ، والهَدْى[3] الحسن ، والاقتصاد . بلغنى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : « الرأى الحسن جزء من خمسةٍ وعشرين جزءا من النبوة » . إن استطعت ألاَّ تدع العمامة والبُرد فى العيدين والجمعة فافعل . بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يلبس العمامة والبُرْد فى العيدين والجمعة ، وقال : « إن الله تعالى أعزَّ الإسلام بالعمائم والألوية » . إذا طلاك أحد بالنُّورة فبلَغَ المَرَاقَّ[4] فلا يَلِ ذلك منك إلا نفسُك ومن يُحْسِن ذلك من نسائك ، فإنه بلغنى عن بعض العلماء أنه كان يَلِى ذلك من نفسه .

لا بأس أن تغتسل بماء الحَمّام وأنت جُنُب وتصلِّىَ ، بلغنى عن ابن عباس أنه سئل عن الجُنُب يغتسل فى الحمام ، فقال : إن الماء لا يَجْنُبُ[5] ، وإذا تنخَّمت

---

(١) التجلجل : السئوخ فى الأرض .

(٢) غبره به تغبيرا : لطخه به ، وفى الأصل « لاتتبرن » وهو تصحيف .

(٣) الهدى : الطريقة والسيرة .

(٤) مراق البطن : مارق منه ولان ، جمع مرق ، أو لاواحد لها .

(٥) أى لا ينجس .

فى المسجد فادفِنْه ، بلغنى عن بعض العلماء أنه قال : « هى خطيئة ، وكفّارتها دفنُها ».
إذا نمت فقل عند منامك : « اللهم أنت القائم الدائم لا تزول ، خلقت كل شىء لا شريكَ لك ، علِمْتَ كل شىء بغير تعليم ، اغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت» . بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ألاَ قلتم كما قال علىّ بن أبى طالب » رضى الله عنه ! وهو الذى قال ذلك . إذا أتيت الحاجة فلا تستقبِل القبلةَ بفَرجك ولا تستدبِرْها ولا تستنج بيمينك ، بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يأمر أصحابه ألاَّ يستقبلوا القبلةَ ، ولا يستنجوا بأيمانهم، ولا يستنجوا بعَظْم ولا رَوْث .

إذا انصرفت من الصلاة فقل : « اللهم إنى أسألك من الخير كلِّه ما علمتُ منه وما لم أعلم ، وأعوذ بك من الشر كله ما علمتُ منه وما لم أعلم . اللهم إنى أسألك من الخير ما سألك عبادُك الصالحون ، وأعوذ بك من الشر ما عاذ منه عبادك الصالحون . اللهم آتِنا فى الدنيا حسنة ، وفى الآخرة حسنة ، وقِنا عذابَ النار » ، بلغنى عن ابن مسعود أنه قال : ما دعا مرسَلٌ ولا عبد صالح بشىء حَسَن إلا هو فيه . يعنى فى هذا الدعاء . لا تشتم عبداً لك ولا أمَة بزنى . فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من قَذَف أمَةً أو حُرة أو يهودية أو نصرانية ، فلم يُضْرَب فى الدنيا ضُرِب يوم القيامة ثمانين جَلدة » .

إذا كنت مسافراً أو مقيما فامسح إن شئت على خُفَّيك، إن كنت مسافراً ثلاثةَ أيام ولياليَهن ، وإن كنت مقيما فيوما وليلة . بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ذلك ، وعمر بن الخطاب رضى الله عنه وعلىّ بن أبى طالب وابن عباس رضوان الله عليهم قالوا ذلك . إذا صافحك أحد فلا تنزِعنّ يدك عن يده حتى يكون هو الذى ينزِع يده عن يدك ، بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه لم يصافح أحداً فنزع يده حتى يكون هو الذى ينزع يده . إذا أقبل عليك رجل بوجهه يحدِّثك فلا تصرفْ وجهك عنه حتى يكون هو الذى يصرفُ وجهَه عنك ، وإذا جلست إلى جَنْب رجل

أو جلس إلى جنبك رجل ، فلا تتوءمَنَّ من بين يديه ، ولا تجاوزنَّ ركبتُك ركبتَه . بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه لم تتجاوز ركبته ركبةَ جليسٍ له. وإذا أحسست من أمير ظُلَامةً أوتغطرُساً فقل : اللهُ أكبر الله أكبر الله أكبر، أعزُّ من خلقه جميعا، اللهُ أكبر مما أخاف وأحذر ، وأعوذ بالله المُمسِكِ السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه من شر فلان ، اللهم كن لى جاراً من فلان وجنوده أن يَفرُطَ[1] علىَّ أحدٌ منهم أو أن يَطغَى ، جَلَّ جلالك ، وعز جارك ، ولا إله غيرك ، تقول ذلك ثلاث مرات ، بلغنى عن ابن عباس أنه قال ذلك وأمرنا به ، وإذا كتبت إلى أحد من غير أهل الإسلام فلا تكتبَنَّ : « سلام الله عليك » ولكن اكتب : « السلام على من اتبع الهدى » . بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كتب ذلك إلى مسيلمةَ . إذا عطَسْت فى الخلاء فاذكر اسم الله خفيا .

لا تَدَّهن فى مَدْهُن ذهب ولا فضة ، ولا تستجمِر فى مجامر[2] الذهب والفضة . بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن الشرب فى إناء الذهب والفضة ، لا تنم على الحرير والدِّيباج فإنه لِبسة النساء . بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن لُبْس الحرير والديباج إلا للنساء . إذا رأيت أمراً فى أهلك وخاصَّتك مما ينبغى تغييره ، فلا تحابِيَنَّ منهم أحدا ، وقم فيه بالذى يحقُّ عليك ، بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « انصر أخاك ظالما أو مظلوما » .

إذا هممْتَ بأمر من طاعة الله عز وجل فلا تحبسه إن استطعت فُواقا[3] حتى تُمضيَه ، فإنك لا تأمن الأحداث ، وإذا هممت بأمر غير ذلك ، فإن استطعت ألاَّ تُمضيه فُواقا فافعل ، لعل الله تعالى يُحْدِث لك تركَه . لا تستحْيِ إذا دُعيت لأمر ليس بحق أن تقول لا ، فإن الله تعالى يقول : « وَاللهُ لاَ يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ » .

---

(١) أى يعجل على بالعقوبة .
(٢) المجامر جمع مجمرة بالكسر : وهى المبخرة .
(٣) الفواق بالضم ويفتح : مابين الحلبتين من الوقت ، أو مابين فتح يدك وقبضها على الضرع .

إذا سمعت المؤذّن يؤذن فقل كما يقول ، إلا أنك تقول إذا قال : حَيَّ على الصَّلاة، حَيَّ عَلَى الفلاح ،لاحول ولاقوة إلا بالله. بلغني ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم «لا تخلُوَنَّ بامرأة ليست لك بمَحْرَم[1]» بلغني عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «ماخلا رجل بامرأة ليست له بمَحْرَم إلا كان ثالثهما الشيطان » ، إذا قال الإمام آمينَ ، فقل آمين ، فإنه ينبغي إذا فرغ من أم[2] القرآن أن يقول آمين ، وَيقوله مَن خَلْفَه سِرًّا ولا يَجهَر بِهِ . بلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا أمَّن الإمام فأمِّنوا ، فإن الملائكةَ تؤمِّن لتأمين الإمام ، فمن وافق منكم تأمين الملائكةَ غُفِر له ما تقدم من ذنبه » .

إذا قضيتَ الحاجة فلا تبدأ بشيء حتى تغسِلَ فرجك بالماء . بلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لأهل مسجد قُباء : إنما نزلت هذه الآية فيكم « فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ » . فأَنبِئونى ماهذا التطهيرُ الذى ذُكِرْتم به فأُثنِيتُم[3] عليه ؟ قالوا : « والذى بعثك بالحق نبيا ، ما مِنّا امرأة ولا رجل يأتى الخَلاء فيبدأ بشيء دون غسل فرجه بالماء » . إذا أكلت طعاما فعَلِقَ بين أصابعك فالعَقْها ، وأسنانِك فتخلَّل . فإنه بلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ليس شيء أشدَّ على المَلَك من أن يرى فى الرجل طعاما وهو يصلي » .

إذا نزلت منزلا فقل : « أعوذ بكلماتِ الله التامَّات من شر ما خلق » . بلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من نزل منزِلا فقال هذه الكلمات وُقِيَ شرَّ منزله حتى يرتحلَ منه » . لا تأكل شيئاً من ثَمَن طعام لا يحِلّ لك أكلُه ، ولا شيئاً من ثمن شرابٍ لا يحل لك شُربه ، قال النبي صلى الله عليه وسلم فى الخمر : « إن الذى حرّم شربَها حرّم ثمنَها » ولا تَدَاوَ بشيء لا يحل لك أكلُه ولا شربهُ ،

---

(١) المحرم : ذات الرحم فى القرابة التى لايحل تزوجها .

(٢) أم القرآن : الفاتحة . (٣) فى الأصل « فاثبتوا » .

ولا تبِعهُ ولا تشتَرِه ولا تَطعَمْهُ ولا تُطْعِمْهُ أحدا ولا تسقه . ولا تُداوِ بهِ أحدا صغيراً ولا كبيرا ولا بهيمة ولا غيرها ، بلغنى عن بعض علماء الصحابة أنه نُعِت لبعير له خمرٌ فقال : « لا والله لا أُوجِرُهُ[1] خمرا » .

لا تأكل لحم شيء من السباع ولا ذا مِخلَب من الطير . بلغنى أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن أكل كُلِّ ذى ناب من السباع . إذا فزِعتَ فى منامك فقل : « أعوذ بكلمات الله التَّامات من غضبه وعقابه ، ومن شر عباده ، ومن شر الشياطين ، وأن يَحْضُرونِ » . بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا فزِع أحدكم فى منامه فليقل ذلك » . إذا قلتَ لأحد أقسمتُ عليك لَتفعلَنَّ ، فلم يفعل الذى أقسمتَ عليه أن يفعله وجب عليك الحِنثُ ، وكفِّر عن يمينك ، وكذلك إن قلت له : أحلِف عليك أو أشهد عليك لَتفعلَنّ فلم يفعل ، وجب عليك الحِنْث ، وكذلك إذا كنت وقّتَّ له وقتا معلوما فتركه حتى جاوز الوقتَ .

لاتبدأنَّ أحداً من غير أهل الإسلام بالسلام ، لكن لو سلَّم هو فقل : وعليكم . بلغنى أن النبى صلى الله عليه وسلم أمر بذلك . لا بأس أن تأكل جُنُباً ـ وإن كنت لم تتوضأ ـ إذا غسلت يديك . لا تقل لأحد صلى الله عليك . بلغنى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : « لا تنبغى الصلاة من أحد لأحد إلا للنبى عليه الصلاة والسلام » ولا تقل لأحد : جعلنى الله فداءك . بلغنى أن الزبير قال للنبى صلى الله عليه وسلم ذلك وهو مريض ، فقال لهُ النبى صلى الله عليه وسلم : « ما تركتَ أعرابيتك بعدُ ! » وبلغنى عن بعض العلماء أنه قال : لا يَفْدِ أحد أحدا .

لا بأس بمصافحة الجُنُب ومباشرته . بلغنى عن ابن مسعود أنه قال : « أربعة

---

(١) أوجره الدواء : صبه فى فيه .

ليس عليهم جنابة : الأُشْنان[1] والماء والثوب والأرض » . لا بأس بمصافحة اليهودى والنصرانى والصلاة فى بيوتهم . لا تَبْلُغ بشىء من أدبك إذا أدَّبتَ وعاقبتَ أحداً على جُرم اجترمه أربعين سوطا ، قال صلى الله عليه وسلم : « من بَلَغ حدا فى غير حَدٍّ فهو من المعتدين » . إذا أحببت أحدا لله فأعلِمْه « لمَّا قال رجل للنبى صلى الله عليه وسلم إنى أحبُّ فلانا لله ، قال : أَمَا أخبرتَه؟ قال : لا ، قال : فأخبِرْه ، فلما أخبره قال: أحبَّك اللهُ الذى أحببتَنى له » .

لا تَشفَع فيمن وجب عليه حَدٌّ من حدود الله إذا انتهى إلى الإمام ولا تَحُلْ دونه، ولا بأس أن تشفَعَ قبل ذلك ، قال ذلك بعض علماء الصحابة ـ وتشفَّعَ فى سارق ـ فقيل له : أتشفَع فيه وأنت من الصحابة ؟ فقال : لا بأس به قبل أن يبلغ الإمامَ ، فإذا بلغه فلا عفا الله عنه إن عفا عنه . الزَم الصمتَ ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : « لا يستكمل الرجل الإيمانَ حتى يَخزُن لسانَه » . وإذا أتيت قرية أو بلدا فقل : « اللهم ارزقنا خيرَها ، واصرف عنا وباءها » ، كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول ذلك إذا دنا من قرية .

إذا عَطَست فقل : الحمد لله ، فإن قال قائل : يرحمك الله ، فقل : غفر الله لنا ولك . وإن عَطَس عندك مسلم فقال : الحمد لله ، فقل يرحمك الله ، كان علىّ رضى الله عنه يقولها لمن عَطَس ويقول ذلك : يَهْديك الله ويُصْلح بالك . وكان ابن مسعود يقول لمنْ عَطَس : يرحمنا الله وإياك ، ويقول ذلك : يغفر الله لنا ولك ، ولا تشمِّته[2] حتى يحمَد الله ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : « من حق المسلم إذا عَطَس أن يُشمَّت

(١) فى الأصل « الأسنان » وأرى أن صوابه « الأشنان » وقد تقدم شرحه فى ص ١٢ ، والكلام على حذف مضاف أى ذوو الأشنان . . . الخ . والمعنى أن هذه الأشياء الأربعة لاتتعدى إليها جنابة الجنب ، فلا بأس باستعمالها ومباشرتها إن استعملها هو وباشرها .

(٢) التشميت : الدعاء للعاطس .

إذا حمد الله » . وَقِّرِ الكبير وارحم الصغير ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ليس منا من لم يرحم صغيرَنا ويوقِّر كبيرنا » .

لا تصافح امرأة ليست لك بزوجة ولا مِلْك يمين ، ولا تضع يدها على شيء من جسدك ، ولا تضع يدك على شيء من جسدها ولا تقبل يدك ولا شيئاً من جسدك ، ولا تعانق رجلا ولا تقبله ليس بذى رحم لك ، واصنع ذلك بذى رحمك « ضَمَّ النبي صلى الله عليه وسلم جعفر بن أبى طالب حين قَدِم من الحبشة إلى نفسه وقبّل بين عينيه » لا ترفع صوتك فى مسجد جماعة ، ولا تَشْهَر فيه سلاحا . فقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عنه. إذا دُعيتَ إلى تحمّل شهادة فإنك مخيَّر ، فإن شهدتَ فلا يسعك الامتناع إذا دُعيت إلى الأداء .

لا تمنُنْ على أحد بإحسانك فإنه يُبْطل أجرك ، قال الله عز وجل : « لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى » ومَن أولاك معروفا وعجزتَ عن مكافأته ، فأثنِ عليه واذكُره به ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من أُولِيَ معروفا فلم يقدر على مكافأته إلا بالثناء فقد شكره ، ومن كتمه فقد كَفَره » .

وإذا طعِمْتَ وعندك أحد فادْعُه ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن فى الجنة غُرَفاً يُرَى ظاهِرُها من باطنها ، وباطِنُها من ظاهرها » قيل : لمن هى ؟ قال : « لمن أطعم الطعامَ ، وتابعَ الصيامَ ، وطيَّب الكلامَ ، وصلَّى بالليل والناس نيامٌ » .

إذا عمِلت عملا لله فأحسنه ، لقوله تعالى : « لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً » .

لا تَعْجَل على أحدٍ بعقوبةٍ ولا بتهمة حتى تُحِقَّه[1] . لا تأتِ أهلك أو جاريتك وغيرُها يراك أو يسمع حِسَّك ، قال صلى الله عليه وسلم : « استحيُوا من الله حقَّ الحياء » قالوا : وكيف نستحيي من الله حق الحياء ؟ قال : احفظوا الرأس وما حَوَى ، والبطنَ وما وَعَى ، واذكروا الموت والبِلَى ، وذَرُوا زينة الحياة الدنيا » .

---

(١) حقه كده وأحقه : غلبه على الحق .

إذا أصبحت فقل : اللهم لا إله إلا أنت ، وحدَك لاشريك لك ، لك الملك ولك الحمد لا شريكَ لك عشر مرات ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من قالها عشر مرات حين يُصْبح وُكّل به مَلَـكان يَحرُسانه حتى يُمسى ، وإذا قالها ليلا فكذلك حتى يُصْبح » . وإذا كنت فى العيدين والجمعة ويوم عرَفة بعرفة فاغتسل ، وإن توضأت أجزأك . سأل رجل عليا عن الغُسل فقال : الجمعة والعيدين وعرفة . إذا رأيت الهلال فلا تستقبِله حتى تدعوَ وقل : الله أكبر الله أكبر ، الحمد لله ، أسألك من خير هذا الشهر ، وأعوذ بك من شر القدر وشر يوم المَحشَر .

لا تؤُمَّنَّ أحدا فى بيته ولا سلطانه إلا أن يأذن لك . وذلك أنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا يؤمَّنَّ الرجلُ الرجلَ فى بيته ولا فى سلطانه إلا بإذنه » . ولا تحب من الناس أن يَمثُلوا لك قياما . قال صلى الله عليه وسلم : « من سَرّه أن يَمثُل له ابنُ آدم قياما وجبت له النار » . أجِبِ الدعوة إذا دُعيتَ . قال صلى الله عليه وسلم : « الدعوةُ يومَ العُرس حق » وقال : « لو دُعِيتَ إلى كُراع[1] لأجبتُ » . إذا حلفت على شيء وخَلَف والداك أو أحدهما على خلافه فأطِعْهما مالم يكن معصية» . احتجِمْ فى سبعَ عشرةَ وتسعَ عشرةَ وإحدى وعشرين ، أمر النبى صلى الله عليه وسلم بذلك .

إذا عُدت مريضاً فأخِفَّ العيادة ، وأقِلَّ اللُّبث . إذا مررت بالمقابر فقل : السلام عليكم أهلَ الدار المؤمنين والمسلمين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، أنتم لنا فَرَط[2] ونحن لكم تَبَع ، أسأل الله لنا ولكم العافية . لا بأس أن تمشى أمام الجنازة . مشى النبى صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وابن عمر أمامها ، وإذا كنت راكبا فلا تسبِقْها ،

---

(١) الكراع من البقر والغنم بمنزلة الوظيف من الفرس : وهو مستدق الساق .

(٢) فرط : أى متقدمون ، والفرط فى الأصل : المتقدم إلى الماء يتقدم الواردة فيهيء لهم الأرسان والدلاء ويملأ الحياض ويستقى لهم ، يقال رجل فرط ، وقوم فرط .

ولا تنزل حتى توضَع عن عواتق الرجال ، بلغنى ذلك عن بعض الصحابة . لا تنفُخ فى الطعام والشراب فإنه جَفاء ، قاله بعض العلماء .

ارفع يدك فى عشرة مواطن : إذا دعوتَ عند افتتاح الصلاة والعيدين والقنوت والتكبير وعند استلام الحَجَر وعَرَفة وجَمْع[1] والصَّفا والمَرْوة والجِمار، روى ذلك عن ابن عباس ، وعند افتتاح الصلاة والقنوط والعيدين ترفعهما حتى تحاذِيَ إبهامُك أذنَك ، وتبسُطهما عند صدرك فى باقى ذلك . لا تلعب بالنَّرْد ، لعن النبى صلى الله عليه وسلم اللاعب به وقال : « إيا كم وإياه » . لا تمضغ العِلْك[2] ، ولا تحلُل إزارك ، ولا تجرَّد ولا تحذِف[3] . قال النبى صلى الله عليه وسلم « إنها من أخلاق قوم لوط » . اجمع الصُّوَّام عند فطرك على طعامك ، قال صلى الله عليه وسلم : « من فطَّر صائماً كان له مثل أجره ، ولا يَنقُص من أجر الصائم شىء » .

واعلم ـ رحمك الله ـ أن الله تعالى خَصَّك من موعظتى بما نصحتك ، وأنهيتُ إليك منه ما أرجو أن يكون سعادةً لك وسببا إلى الجنة ، فليكن منك فيما كتبت إليك من القيام بأمر الله تعالى واتباعِ ما هو أهلُه ما ترجو به القُربة عند الله تعالى ، ولا يكن ذلك مما تَظْلِف[4] عنه نفسك ، وتعاهَدْها بالأخذ والتأديب عليه إن شاء الله حتى توقفها على الذى لاينبغى لك التقصير بها عنه إن شاء الله تعالى ، والله الموفق للصواب ، وإليه المرجِعُ والمآبُ » .

« رسالة مطبوعة بالمطبعة الأميرية سـنة ١٣١١ هـ ، ومنها نسخة محفوظة فى دار الكتب المصرية رقم ١٣٠١ تصوف وأخلاق[5] » .

---

(١) جمع : المزدلفة .

(٢) العلك : ضرب من صمغ الشجر كاللبان يمضغ .

(٣) حذف فى مشيته حرك جنبه وعجزه أو تدانى خطوه .

(٤) ظلف نفسه عنه كضرب : كفها .

(٥) وقد طبعت حديثا بمطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر .

فهـــرس

الجزء الرابع

من جمهرة رسائل العرب

فهرس الرسائل

التوقيعات فى العصر العباسى الأول

فهرس أعلام الكتاب

مرتب بترتيب الحروف الهجائية

مع إتباع اسم كلّ كاتب بأرقام الصفحات التي وردت فيها رسائله

ح

ر

س

ص

ط

ع

غ

ف

م

فهـــــرس

بعض ماورد فى الهامش من الفوائد التى قد يحتاج القارئ إلى مراجعتها

فهـــرس

الأمثال التى ورد شرحها فى الهامش

بحمد الله تعالى تم طبع كتاب :

جمهرة رسائل العرب

بقلم الأستاذ أحمد زكى صفوت

وكيل كلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة سابقاً


